تأليف
سلاطين باشا
(لندن 1895)

السيف والنار في السودان

تعريب
محمد المصطفى حسن


دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر


جمال خليفة

السيف والنار في السودان

السيف والنار في السودان

تاليف

سلاطين باشا

(لندن ١٨٩٥)

تعريب

لجنة الترجمة بدار عزة للنشر

بإشراف

محمد المصطفى حسن عبد الكريم



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتـــاب : السيف والنـار في الســودان
المؤلـــف : أشراف محمد المصطفى حسن عبد الكريم
رقـم الإيـداع : ٢٠٠٨/٤٣٦
ردمـــك : ١٤٥ ـ ٥٤ ـ ٩٩٩٤٢
سنة الإصدار : ٢٠١٦
الطبعـة الثانية

الناشـــر : دار عـــزة للنشـــر والتـــوزيـــع
الإدارة : شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة
ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٠٨٤ (١-٩-٢٤٩+)
التوزيـــع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٢٠١
السودان – الخرطوم ص.ب : ١٢٩٠٩
بريد إلكترونى : azzaph@yahoo.com

السيف والنار في السودان

FIRE AND SWORD IN THE SUDAN

سيرة ذاتية لرجل حارب، ثم خدم الدراويش
في الفترة من ١٨٧٩ - حتي ١٨٩٥

بقلم
رودلف س. سلاطين (.C.B)
كولونيل في الجيش المصري (قلم المخابرات)
والمدير السابق لدارفور والقائد العام لجيوشها

(ترجمها إلي الانجليزيه)
ادوارد أرنولد

(نقلتها للعربية)
لجنة الترجمة بدار عزة للنشر
باشراف
محمد المصطفي حسن عبد الكريم



Rudolph C Slatin

رودلف س. سلاطين

إهــداء المؤلف

إلــي صــاحبة الجـلالة والـعظـمة
ملكة بريطانيـا العظمي وأيـرلـنـدا
وإمبــراطــورة الـهـنــد

والتي أظهرت دائماً عميق إهتمامها وعطفها الشديد
نـحو الأسـري الأوروبيين بالســودان

فهذا الســجـل ، لحياته في الأســر
وبعد الاسـتئـنـان ، مهـدي لها
بكل تواضع ، من خادم جلالتها
المنـعم بالإخـلاص والعـرفان

رودلف س. سلاطين

كلمة الناشر

يسعدنا في دار عـزة مواصلة مشوارنا في توثيق ونشـر الثقافة السـودانية واضعين شعارنا (المعرفة للجميع . . . وديمقراطية المعرفة) نصب أعيننا، ونتشرف بأن نضيف إلى مجموعتنا كتاب السيف والنار، لضابط المخابرات النمساوي الجنسية بعد أن نشرنا كتاب نعوم شقـير «تاريخ وجغرافيـا السودان» وتحت الطبع كتاب «المهـدية والسودان المصري» لمؤلفه الميـجور س. ر. ونجت عام ١٨٩١ م، وقد تمت ترجـمته بواسطة لجنة التـرجمة بدار عزة للنشر، تحت إشراف الأستاذ محمد المصطفى حسن.

ونفيد بأننا نعتقد أن الترجـمة الصحيحة لكتاب Sword & Fire in Sudan هـو السيف والبندقية؛ لأن المقصود فعـلاً هو كلمة البندقية ترجمة لكلمة Fire باعتـبار أن الحديث عن السيف والبندقية في معارك حربية، وبالتالي المقصود فعلاً البندقية، وليست النار، ولكن اشتهر الكتاب باسم السيف والنار في عدة تراجم سـابقة منها ترجمة الهيئة المصرية، وحتى لا نخلط على القراء، وعلـى الإخوة الذين سبق أن اطلعوا على تراجم سابقة، والذين سـمعوا باسم الكتاب، قررنـا نشره بالاسم الذي اشتهر به، باعـتبار أنه خطأ، ولكن شـاع وأصبح اسـم شهـرة للكتاب، وعـرف به ولا نريد أن نشـتت ذهن القارئ، وعليه نشرنا الكتاب بالاسم الذي عرف به.

نتمنى أن نسـتمر في جهد الترجمـة، ونضيف للقارئ السوداني ترجمـة سودانية عن تاريخ السودان الذي كتب أغلبه باللغات الأخرى. وأغلب ما ترجم كان بيد غير السودانيين، مما عرض الكتب إلى كثـير من الأخطاء في أسماء المناطق والمدن، وبعضهـا أخطاء مغرضة. نتعهد بالترجمة الحقيقية نشرًا للمعرفة، وتفعيلاً لشعارنا عن ديمقراطية المعرفة.

وللفائدة قمنا بنشـر تصحيح في آخر الكتاب للأخطاء التي كانـت في الترجمات الأخرى، وللقارئ الكريم كل مودتنا .

نور الهدى محمد

دار عزة للنشر

مقدمة المؤلف

لم أتقدم من تلقاء نفسي لوضع هذا الكتاب الذي يحوي سجلاً للتجارب التي مررت بها، لو لا تضرع أصدقائي وتوسلهم لي.

فلقد كنت مشغولاً طوال الشهور القليلة الماضية، التي تلت هروبي، في معاودة تنفيذ واجباتي الرسمية وتدبيج التقارير ولإشباع رغبات الكثيرين من المهتمين بقدري العجيب، مما جعل من أي محاولة تفرغ للكتابة في جو هادئ أمراً مستحيلاً.

فأثناء أسري لم أتمكن من كتابة أي مذكرات أو الحفاظ علي دفتر ليومياتي، ومن ثم فقد إعتمدت في كتابة ما يلي من الصفحات علي ذاكرتي فقط، رغم دوامة الأحداث المحمومة في أوروبا، ورغم الازعاج المستمر الذي كان يقطع تسلسل أفكاري ولايتيح لي وقتاً يذكر للملمتها.

بالتالي، ولحرماني الطويل من التعامل مع العالم الخارجي وشئونه، ولعدم ممارستي الطويلة للكتابة أو تدوين أفكاري، فانني أجد نفسي مدفوعاً لعدم إضاعة أي وقت قد يؤخر نشر الأحداث والتجارب المثيرة التي مررت بها. لذا أستميح القارئ عذراً إذا ما لاحظ أي قصور أو خلل فيما سأسرده.

ولا أدعي أن لتجاربي تلك أي قيمة علمية أو أدبية، كما أن الحوادث الشخصية التي وصفتها قد لا تكون ذات أهمية. لكنني هدفت فقط لإعطاء أولئك المهتمين بشئون السودان صورة صادقة وأمينة عن حياتي أثناء حروبي ضد المهدية أو أثناء خدمتها.

رودلف سلاطين

لندن

أكتوبر ١٨٩٥م

ملاحظات المؤلف
علي الطبعة الشعبية للكتاب

عشية استئناف الجيش لتقدمه داخل السودان* رجاني الناشر لتجهيز طبعة شعبية من النسخة الأصلية لتباع بأسعار أقل ولتكون أكثر قبولاً لدي الجمهور العادي. من هنا قمت باختصار الكتاب وحذف كثير من الموضوعات التاريخية والتفاصيل التي لاتحظي بأهتمام القارئ العادي وحصرت هذا المجلد في سرد التجارب والأحداث الشخصية التي مررت بها. ورغم رجائي في أن يكون «النار والسيف في السودان» بصورته الحالية أكثر سهولة في الوصول للقارئ العادي، إلا أنني أوصي بقراءة الطبعة الموسعة لكل من لديهم الرغبة في الإستزادة في معرفة التاريخ المفصل لتلك الأحداث المعقدة والتي قادت السودان للوضع الحالي الذي يمر به.

رودلف سلاطين

القاهرة

٣٠ يونية ١٨٩٧

---

* تعليق المعرب: يقصد المؤلف بقوله (عشية إستئناف الجيش لتقدمه في السودان) عملية الغزو الإستعماري الإنجليزي المصري المشترك للسودان بين الأعوام ١٨٩٦م وحتي ١٨٩٩م. وقد لعب هذا الكتاب، الذي أوعزت به المخابرات الانجليزية، دوراً هاماً في تهيئة الرأي العام البريطاني والغربي عموماً لعملية الغزو المزمع للسودان، وللمذابح المروعة التي صحبته وراح ضحيتها مئات الألاف من السودانيين.

وكان الدافع الأساسي للغزو هو إستغاثة إيطاليا بالإنجليز لمساعدتهم، بفتح جبهة شمالية أمام السودانيين لشغلهم عن مهاجمة الإيطاليين، الذين إحتلوا كسلا بشرق السودان، واستعادة المنطقة منهم. ودافع هام أخر هو تخوف القوي الإستعمارية الغربية، في فورة الهجمة الإستعمارية علي إفريقيا، من التلاحم المرتقب بين جيوش المهدية وجيوش الأحباش. وخاصة بعد هزيمة إيطاليا أمام الحبشة في معركة عدوة عام ١٨٩٦م وما قد يؤدي إليه هذا التلاحم من مصير أسود لهم في شرق ووسط إفريقيا.

وبديهي أن تشمل الدوافع أيضاً الإنتقام من السودانيين لمصرع الجنرال غردون والعشرات من جنرالاتهم وقوادهم ومنهم هكس وبيكر وستيوارت وإيرل وبراكنبري وغيرهم، وتحرير السودان من قبضة الحكم التركي المصري الظالم. وهناك اسباب أخري يمكن الرجوع اليها في المراجع المختصة.

بدأ الغزو عام ١٨٩٦م بأحتلال دنقلا ثم هزائم أخري أهمها هزيمة السودانيين في معركة عطبرة (أبريل ١٨٩٨) ثم معركة كرري الفاصلة (سبتمبر٩٨) وبعدها تصفية الخليفة شريف ونجلي المهدي بالشكابة (أغسطس ٩٩) ثم أخيراً معركة أم دبيكرات التي قتل فيها الخليفة عبد الله وعلي ودحلو والتي انتهت بعدها دولة المهدية. (المعرب.)

مذكرة تمهيدية

بقلم الاب دون جوزيف اورفالدر

الكاهن السابق لمحطة البعثة التبشيرية النمساوية في الدلنج بكردفان، وأسير المهدية لعشر سنوات

كانت فرحتي غامرة بلقاء صديقي العزيز ورفيقي السابق في الأسر، سلاطين باشا، بالقاهرة بعد هروبه بمعجزة من تلك البلاد. وإنه لما يفعمني بالسرور أن أستجيب لرغبة أولئك الأصدقاء، من المهتمين بما حدث له، في أن أكتب مقدمة للكتاب وأوضح بعض الملاحظات.

وأن أكون رفيقه في المعاناة، للعديد من السنين، وحيث توثقت بيننا روابط من الصداقة والتي كانت، نسبة لظروف أسرنا، ذات طبيعة خفية مستترة كثيرة العوائق، والتي خففت كثيراً من مصيرنا المحزن، أمر في نظري كاف للإستجابة لرغبات أصدقائي ودفعهم المتواصل لي للقيام بذلك.

وبعيداً عن الدوافع الشخصية، فلابد لي أن أذكر بأن تلك النتف من المعلومات التي كانت تتسرب للخارج من وقت لآخر والخاصة بسلاطين باشا كانت تثير تعاطفاً عميقاً مع مصيره المحزن. ومن ثم فلا عجب أن يعقب فراره من براثن الخليفة الطاغية، وخروجه سالماً من ظلمات السودان، عاصفة صادقة من الابتهاج والسرور.

من هنا كان من الطبيعي أن يترقب أولئك المهتمون بافريقيا، بخيرها وشرها، وبأهتمام بالغ، ما سيقوله لهم سلاطين باشا عن أحوال السودان المصري سابقاً، والذي كان يعتبر منذ سنوات قليلة نقطة إنطلاق للمدنية في أعماق القارة السوداء، والذي سقط الآن، واحسرتاه! تحت حكم استبدادي لطاغية همجي، والذي يمثل عقبة كئود أمام إنتشار التحضر والمدنية، التي تعمل الآن بقوة، في باقي أنحاء افريقيا الأخرى .

لقد اعترف سلاطين باشا بنزاهة تامة، ورغم حرمانه طوال تلك السنوات من كافة

وسائل الاتصال والفكر والثقافة، بأنه لن يفي الموضوع حقه، رغم أنني أري أن من واجبه الملزم أن يصف لنا بدون تردد تجاربه الغريبة الثرة، وأنني لا أشك بأنه ومهما حوي الكتاب من ثغرات، فأن قصة حياته لن تكون إلا ذات تأثير بالغ وقيمة كبيرة لمساعدة أولئك المهتمين بمستقبل هذه البلاد الشاسعة ولمعرفة وضعها الحالي بدقة ووضوح.

وعلينا أن نتذكر أن سلاطين تولي مناصب عليا في السودان، وأنه جاب أقطار البلاد طولاً وعرضاً، وأنه، ولتمكنه التام من اللغة* فقد كان لدية من الفرص مالم يتوفر إلا لقلة قليلة ليصف بدقة شئون السودان وما جري فيه من أحداث في الأيام الأخيرة للحكم المصري. أما خبراته التي اكتسبها في فترة أسره القاسي فإنها تضعه في موقف فريد كأعلي مسئول عاصر نشأة وتطور ثم انحدار تلك الحركة الدينية العظيمة، والتي انتزعت البلاد من أيدي الغزاة، ثم إنحدرت بها إلي حالة لا توصف من التدهور الخلقي والديني.

ولأنه وجد نفسه متصلاً بكبار قادة الثورة، ثم أجبر رغم إرادته ليعيش ويبدو كواحد منهم، فقد كان في موضع يمكنه من المتابعة اللصيقة لأي خطوة إتخذها المهدي والخليفة عبد الله من بعده لإدارة شئون إمبراطوريتهم الوليدة.

ولقد ألقت المقادير الأليمة بي أيضاً في دوامة هذه الحركة العظيمة لكنني ما كنت إلا مبشراً أسيراً، كان مجرد وجوده منسياً من حكام البلاد. أما سلاطين باشا فقد كان في قلب تلك الدوامة الهائلة والتي أغرقت الحاميات المصرية في لجتها الواحدة بعد الأخري والتي انتشرت إلي أقصي مدي في كافة أنحاء السودان.

من هنا، وإذا وجد أي تعارض بين كتابي، الذي تم نشره قبل ثلاثة سنوات عن فترة أسري** وبين هذا الكتاب: فعلي القارئ أن يقبل بكل إطمئنان ما سرده سلاطين باشا لكونه أكثر دقة وصحة من كتابي. وماسردته من دوافع الخليفة ونواياه ومن الأحداث الرئيسية والهامة التي جرت انما تعبر عن رؤية إنسان كان بعيداً عن مسرح الأحداث،

---

* العربية (المعرب)

** (عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي) (لندن ١٨٩٢، بالانجليزية). (المعرب)

بالمقارنة بالمعلومات الوثيقة التي أمكن لسلاطين باشا جمعها بسبب من وظيفته وقربه الشديد والمتواصل مع الخليفة عبد الله.

وأخيراً، وختاماً لهذه الملاحظات، آمل بشدة أن يثير هذا الكتاب إهتماماً عميقاً واسعاً بالمصير التعس للسودان، وأن يساعد أولئك الذين يهمهم الأمر، للوصول لقرار واضح وعادل بخصوص الخطوات التي يجب إتخاذها بشأن إعادة المدنية والتحضر لهذه البلاد التي كانت سعيدة ومزدهرة في يوم ما.

كما أن من شأن عودة سلاطين باشا من قبره الحي أن يسهم في البعث الجديد الذي يصلي له بحرارة رفيقه القديم في الأسر وصديقه المخلص،

دون جوزيف أورفالدر

سواكن

يونية ١٨٩٥

***

ملحوظة من

المترجم للغة الانجليزية

عند تحضيري لهذه الطبعة الانجليزية عن تجارب سلاطين باشا في السودان، اتبعت نفس الأسلوب الذي جاء في كتاب الأب أورفالدر « عشرة سنوات من الأسر في معسكر المهدي».

إف. آر. ونجت

لندن

أكتوبر ١٨٩٥

تمهيد من المعرب

ما دفعني لإعادة تعريب هذا الكتاب الخطير، المليئ بالأكاذيب والغرور والنفاق والمشوه للحقائق التاريخية أو المهين لها تماماً، هو أنه مثل المرجع الأساسي لمعظم، إن لم يكن لكل ، الدراسات الأكاديمية أو التاريخية التي تناولت فترة حكم الدولة المهدية بالسودان والتي صدرت في المائة عام ونيف الأخيرة، أي منذ صدور الطبعة الأولي له عام ١٨٩٦م بلندن، والتي قام بها عشرات وربما مئات من كتبوا عنها من السودانيين والأجانب من أكاديميين ومؤرخين وباحثين.

وقد أسهم هذا الكتاب، بل ربما وضع أساساً، في تغيير مجري وتاريخ الأحداث في السودان بنهاية القرن التاسع عشر ومهد الأرضية، وقدم الذريعة اللازمة والتي تعلل بها المستعمر لتدمير سيادة السودان وقتها، بالغزو المصري البريطاني، بعد أن شوه سمعة قادته وقلب الحقائق وشوه وبالغ في وصف مصائبه ومثالبه والكوارث التي حلت به.

هذا ما دفعني، إضافة لثلاثة أمور أخريٌ هي:

١ – ظهور عشرات الإصدارات والطبعات العربية، من مختلف دور النشر والتي إعتمدت علي ترجمة ممعنة في السوء والرداءة، تمت في أواسط القرن العشرين، إتسمت بتعدد أخطائها الجسيمة لدرجة أنها لم تفسد ذوق القراء لعشرات السنين فحسب، بل ضللتهم وقلبت كثيراً مما جاء بأصل الكتاب (والذي هو نفسه مضلل) وأتت بعكسه تماماً. وسأورد عشرات النماذج لهذا الخلط في الملحقين الأول والثاني عند نهاية الكتاب لكنني هنا سأورد مثالاً واحداً هو مصير الأمير ابراهيم ود عدلان، أمين بيت مال المهدية. فقد قضت عليه محكمة المهدية بأن يختار بين الإعدام وبين القطع من خلاف فأختار الاعدام.

لكن المترجم ذكر بأنه خير بين الإعدام أو مصادرة أمواله ففضل الإعدام. وظلت الأجيال تلو الأجيال، التي قرأت كتاب (السيف والنار، ترجمة عرابي) تؤمن بأن الرقيب علي المال العام للمهدية كان مختلساً بينما الأمر علي العكس من ذلك تماماً.

ثم أوردت تلك الترجمة أسماء لمئات الشخصيات والقبائل والمدن والقري بطريقة تبعث علي السخرية وتكررت في كل طبعات ذلك الكتاب مثل بني هلبة تكتب بني حلبة أو أبو عنجة - أبو النجا، والهشابة - خشبة وغير ذلك مما سيرد في الملحقين. وكأن المترجم كان يتعمد أكثر مما كان يجهل ما يقوم به من خبط عشواء الليل ويطلق علي هواه ما يشاء من مسميات.

كما ترك مئات السطور وعشرات الصفحات الهامة للغاية بدون الإشارة إليها. ورغم أن بعضها قد يكون سهواً، لأن الكتاب المترجم لم يراجع قبل الطبع، أو عمداً عندما لايروق له الأمر أو عندما يتعلق بالمساس بكرامة وطنه الأصلي، مما ينفي عنه صفة الحياد، بعد أن إنتفت منه صفة العلمية، ولايبرر جهله في نفس الوقت.

والغريب في الأمر أن هذه الترجمة لا زالت متداولة حتي اليوم وتقوم جهة ما بإعادة طبعها وتوزيعها من حين لآخر.

٢ - بنيت علي تلك الترجمة سلسلة من الطبعات المنقحة، ربما كان أفضل الردئ منها ما قامت به إحدي دور النشر السودانية، بالتعاون مع دار لبنانية للتوزيع. وكانت تلك الترجمة، رغم قيامها بتصحيح معظم الأسماء المغلوطة للأشخاص والجهات، إلا أنها تركت، كما هو، ما جاء من كوارث نقلت حرفياً عن ترجمة (عرابي) وواصلت نفس التضليل للقارئ بما جاء فيها عن عكس لمراد المؤلف الأصلي وبتركها أيضاً لعشرات الصفحات ومئات الأسطر ذات الأهمية الكبيرة بدون ترجمة ويبدو أن الناشر المحترم لم يبذل أي جهد للرجوع للأصل الإنجليزي للكتاب بل نقله نقلاً ثم نسبه لنفسه.

٣ - من هنا قامت دار عزة للنشر والتوزيع ببذل جهد كبير لكي تصدر ترجمة حرفية كاملة لكتاب (النار والسيف في السودان) وأخذت في الاعتبار الالتزام بالتالي:

أ - عدم التدخل فيما جاء بالكتاب أو القيام بأي تصحيح للوقائع إلا عند الضرورة القصوي والنادرة مع الإشارة لذلك في الهوامش فقط.

ب - ترجمة مالم يرد في التراجم السابقة من التقديم بواسطة كتاب آخرين أو التمهيد أو المقدمات وحتي الإهداء، مع ترجمة الصفحات والأسطر التي تركت من قبل.

ج - شرح بعض ما قد يغمض علي القارئ السوداني خصوصاً والعربي عموماً من لبس عن أهم الشخصيات أو الوقائع التي لعبت دوراً في تاريخ السودان.

د - إرفاق ما غاب من قبل من الرسومات والهوامش والخرائط بمثل ما جاءت بالمؤلف الأصلي مع نسخ معربة منها.

ونأمل أن تسهم إصدارتنا هذه في دعم موقف بلادنا كعاصمة للثقافة العربية هذا العام ٢٠٠٥م.

* * *

أما عن المؤلف رودلف س. سلاطين:

فلعل خير من تناول سيرة الكولونيل رودلف سلاطين باشا هو المؤرخ العسكري السوداني الراحل، الرائد عصمت حسن زلفو، في مؤلفه الموسوعي (كرري - تحليل عسكري لمعركة أم درمان) والذي صدر عن دار التأليف والترجمة والنشر بجامعة الخرطوم في أوائل سبعينات القرن العشرين. قال رحمه الله:

«لابد لنا من وقفة مع سلاطين. فإلي عهد قريب كان لكتابات سلاطين أثر واضح في تكييف تصور العالم للخليفة والمهدية. فالرجل كان ضابطاً وإدارياً وظل ثلاثة عشر عاماً لا يفارق الخليفة وظن الجميع أنه خير من يقيم الثورة المهدية وكان لكتابه (السيف والنار في السودان) أثر عالمي مدوي وخاصة في انجلترا. فقد صدم القراء بالمعلومات والقصص الدموية والوحشية التي بالغ في وصفها فكان أن تحمس العالم لحملة (الجنرال)

كتشنر[1] بأعتبارها عملية انسانية وانقاذاً للأمة التي أضناها طغيان الخليفة.

ولكن السبب الحقيقي كان يكمن في أن مصلحة بريطانيا حتمت إعادة غزو السودان.

سلاطين يهودي الأصل. وكان جده الرابع من كبار موظفي إمبراطور النمسا فتحولت عائلته للمسيحية ولكن عقيدتهم الدينية كانت مهزوزة ولعل هذا يفسر عدم فهم سلاطين لإحتقار غردون[2] له والجرح العميق الذي أحس به عندما رفض غردون الرد علي خطاباته وعبر عن احتقاره له في يومياته[3].

---

١ – الجنرال كتشنر كان سرداراً للجيش المصري وتم اختياره لقيادة حملة غزو السودان عام ١٨٩٦م. وهو مهندس عسكري وسخر أفكاره الهندسية في اعداد أسلحة الدمار التي حطم بها جيوش المهدية وعلي رأسها خطوط السكك الحديدية التي لازمت الحملة شبراً بشبر والبواخر النيلية المدرعة وطراز مدفعيتها وغير ذلك. بعد فتح السودان أنعمت عليه الملكة فكتوريا بلقب لورد الخرطوم. أسهم بعدها في حكم السودان كأول حاكم عام له بعد الاستعمار ثم انتدب لحملة البوير في جنوب افريقيا وتدرج حتي أصبح وزيراً خلال الحرب العالمية الأولي حيث مات غريقاً وهو في طريقه لروسيا (المعرب)

٢ – الجنرال غردون (١٨٣٣ – ١٨٨٥م) هو مهندس عسكري انجليزي اشترك في حرب القرم ثم ارسل للصين حيث قام بقمع ثورة التايبنج ومن ثم لقب (بغردون الصين). خدم في السودان تحت الحكم المصري كمدير لخط الاستواء وبعدها كحكمدار لعموم السودان حيث استعان بالعديد من الاوروبيين في الادارة وفتح المجال واسعاً للمبشرين. استقال بعد طرد الخديوي اسماعيل وعمل بعدها في الهند والصين وأيرلندا وموريشص وكيب تاون ثم فلسطين وتم اختياره للعودة للسودان عام ١٨٨٤م عندما اكتسح المد المهدوى أنحاء السودان، لانقاذ الحاميات المصرية وإعادتها لوطنها ومن ثم إخلاء السودان. لكنه خالف تعليمات رؤسائه وبقي في الخرطوم يراهن علي هزيمة المهدي حتي تم حصاره. وعند اكتساح السودانيين للخرطوم قتل هناك. حاولت انجلترا انقاذه باعداد حملة قوية بقيادة اللورد ولسلي (الذي هزم عرابي باشا في معركة التل الكبير) لكن اللورد عاد خائباً بعد إثخان قواته بالجراح والإحباط الذي أصابه بعد تأخر طلائع قواته من الوصول لأطراف الخرطوم إلا بعد تحريرها بمقتل غردون (المعرب).

٣ – يوميات غردون هي التي كان يكتبها أثناء حصاره وأفلح في إيصالها لمصر ثم انجلترا حيث تم نشرها في كتاب قرأه كل من يعرف الانجليزية تقريبا وقد تحدث فيها عن أي شئ وكل شئ وصور نفسه كقديس إذ كانت تحفل بعشرات المقتطفات من الإنجيل رغم تناقض الكثير من أقواله فيها مثلما تحدث عن الأسري من المبشرين والاوروبيين وسلاطين والمهدي وغيره (المعرب).

والواضح أن سلاطين عندما كتب كتابه المشهور كان يقاسي من عقدتين: فعندما هرب من السودان ووصل لأوروبا أحس بنظرة العالم الأوروبي له فكل من قرأ «يوميات غردون» شاركه في احتقار سلاطين. فجماهير انجلترا التي مجدت غردون وثباته حتي النهاية كان لابد لها أن تحس بنفس شعور غردون عند ما كتب معلقاً علي إسلام سلاطين: «الواضح أن الشجاعة ليست من صفات سلاطين. ويجب وضعه في معزل صحي لتطهيره وتأديبه إن تم إطلاق سراحه من الأسر». فحاول هو من الناحية الأخري المبالغة في وصف الأهوال التي تعرض لها تبريراً للموقف الذي إتخذه ولتبرير تغييره لديانته عله يصلح قليلاً سمعته التي حطمتها كتابات غردون التي اعتبرت أقرب للإنجيل في ذلك الحين. أما العقدة الثانية التي جعلته يحمل كل هذا الحقد والغل علي الخليفة فقد كانت هي ختانه بأوامر الخليفة. وهذا واضح جداً. فبعد معركة فركة[1] كان أول ما فعله هو إحراقه جثة كاظم موسي الذي قام بعملية الختان. والواضح أن سلاطين وجد معاملة كريمة وطوال ثلاثة عشر عاماً لم يؤذه الخليفة في شئ سوي مراقبته بدقة. ولايمكن أن يلام الخليفة في ذلك، فسلاطين نفسه يورد من القصص ما يبرر شكوك الخليفة وكثيراً ما طلب الخليفة من قضاته وضعه في السجن احتياطاً لمنعه من الهروب لكنهم اعترضوا بأن سلاطين لم يرتكب مايبرر ذلك فيسكت الخليفة - علي مضض.

ومشكلة سلاطين أنه حتي إن قال الحقيقة أحياناً فهو لايذكرها كاملة. وركز في كتابه علي تعمده إيذاء الخليفة عن طريق تقديم النصائح الخاطئة له حتي لايتهمه البريطانيون بالخيانة - بينما يؤكد نويفلد السجين الألماني بأن سلاطين كان يستشار كثيراً وكانت

---

١ - معركة فركة من أهم معارك السردار كتشنر في أوائل غزوه للسودان حيث باغت السودانيين فجر السابع من يونيه ١٨٩٦م وهم مندفعون نحو السلاح ومخازن الذخيره عند صلاة الفجر ودمرهم وقتل وأسر وجرح معظمهم مما فتح الطريق له لاحتلال دنقلا بعد ثلاثة شهور (المعرب)

مشورته دائماً صادقة وأنه خطط حملة ود النجومي[1] لغزو مصر بعد أن رسم له خريطتها وشرحها بالتفصيل لأمرائه!

ولقد قال عنه المؤرخ البريطاني ثيوبولد[2] بأن سلاطين كان أقيم الأوروبيين في نظر الخليفة وقد لقي معاملة عطوفة لحد التكريم وأعطي منزلاً وزوجات ورقيق. لكنه بعد هروبه رد الجميل لآسريه بنشر كتاب النار والسيف في السودان الذي ركز فيه علي الأحداث الأليمة، وشوه الدوافع التي حدت بالخليفة إلي إتيان معظم أفعاله، وجلل إسمه بسواد وأفلح في تصويره كطاغية متوحش متعطش للدماء». إنتهي.

هذا وقد انضم سلاطين بعد وصوله لمصر لقلم المخابرات الانجليزية المصرية برتبة كولونيل وبعدها نال رتبة الباشوية من خديوي مصر. وقد اشترك بفعالية في حملة الغزو (١٨٩٦) وكان الساعد الأيمن لقائد المخابرات الانجليزي ونجت وساهم في كافة عمليات استجواب القادمين لمصر ومن بعدها أسري المعارك كما قام بتضليل أمراء جيش المهدية بالأكاذيب والاشاعات التي كان يدبجها. وقد كوفئ علي ذلك بعد الفتح بتعيينه مفتشاً عاماً للسودان لفترة استمرت حتي قيام الحرب العالمية الأولي (١٩١٤ - ١٩١٨)

---

١ - عبد الرحمن ود النجومي هو أمير أمراء المهدية وأميزهم بلا منازع. وهو الذي خطط وقاد الحملة التي قضت علي جيوش الجنرال هكس في شيكان بغرب السودان (نوفمبر ١٨٨٣م) ودمر قوته الهائلة في ساعة من الزمان. وهو الذي قاد الهجوم لتحرير الخرطوم واقتحامها في يناير ١٨٨٥م. تم تكليفه بالاعداد لغزو مصر وتحريرها من قبضة الانجليز والخديوية عام ١٨٨٩م في أوج اشتداد المجاعة في السودان مما أصاب الأنصار بالهزال والضعف الشديد حتي اضطروا الي هجر مدافعهم أو دفنها في الرمال لعدم قدرة الجنود الجوعي علي سحبها معهم. تمت هزيمته علي يد الجنرال جرانفيل والجنرال ودهاوس وذلك بمنطقة توشكي علي مشارف أسوان حيث قتل في المعركة . أحد أطفاله الرضع (عبد الله) أخذ أسيراً لمصر وتدرب عسكريا حتي أصبح فريقاً في الجيش المصري وياوراً للملك فاروق (المعرب).

٢ - ثيوبولد: مؤرخ بريطاني وأستاذ جامعي ألف عدة كتب ومقالات مشهورة عن تاريخ السودان أشهرها (المهدية، ١٩٥٧م) و (علي دينار آخر سلطان لدارفور، ١٩٦٥). المعرب

أذل فيها أعداءه وكافأ الموالين له حتي إضطر لتقديم استقالته وإعادة الأوسمة إلى الانجليز والعودة للنمسا التى وقفت أثناء الحرب مع ألمانيا ضد الحلفاء حيث تم تعيينه رئيساً للصليب الأحمر النمساوي. بعد الحرب عين سفيراً للنمسا في لندن يساعده البارون فون فرانكنشتين كقائم بالأعمال.

محمد المصطفي حسن عبد الكريم

سنار/ السودان

يونية ٢٠٠٥

المحتويـات

البـاب	المـوضـوع	الصفحة
البــاب الأول	استهلال	٣٣
البـاب الثـاني	الاقامة في دارفور والتاريخ القديم للمديرية	٤٩
البـاب الثـالث	حكومة دارفور	٧١
البـاب الـرابـع	حديث الخليفة عن بداية ونشأة المهدية	٨٩
البـاب الخـامس	انتشار الثورة في جنوب دارفور	١١٣
البـاب السـادس	حصار وسقوط الأبيض	١٢١
البـاب السـابـع	المحاولة دون جدوي لصد تيار المهدية في دارفور	١٢٧
البـاب الـثـامـن	حملة هكس باشا	١٦٧
البـاب التـاسـع	سقوط دارفور	١٨٧
البــاب الـعـاشـر	حصار وسقوط الخرطوم	٢٠٣
الباب الحـادي عشر	بواكير حكم الخليفة عبد الله	٢٧٥
البـاب الثـاني عشر	حوادث مختلف أنحاء السودان	٢٨٩
البـاب الثالث عشر	الحملة الحبشية	٣١٠
البـاب الرابـع عشر	الخلافات والشقاق	٣٣١
الباب الخـامس عشر	ملاحظات متفرقة	٣٥٥
الباب السادس عشر	ملاحظات متفرقة (متابعة)	٣٨١
الباب السـابع عشر	خطط الهروب	٤١٥
البـاب الثـامن عشر	هروبي	٤٢٩
البـاب التاسـع عشر	خاتمة	٤٦١
ملحق (١)	تصحيح الأخطاء الجسيمة التي جاءت في ترجمة عرابي	٤٧٦
ملحق (٢)	تصحيح الأخطاء الجسيمة المشتركة في التراجم الأخري	٤٨٠

قائمة الرسومات

الرقم	الرسم	بعد الصفحة
١	سلاطين باشا	٧
٢	قوات جسي باشا أثناء تقدمها نحو ديم سليمان	٤١
٣	الزبير باشا (صورة فوتوغرافية)	٤٧
٤	فارس من الرزيقات	٦٩
٥	أحد البديات يصلي للشجرة المقدسة	٧٩
٦	استسلام البديات لسلاطين	٨٧
٧	معركة بين الرزيقات والقوات المصرية	١٣١
٨	موت هكس باشا	١٧٧
٩	أحد أمراء المهدية	٢٠١
١٠	إحضار رأس غردون باشا لسلاطين	٢٤٩
١١	كشاف حبشي	٢٨٧
١٢	ضريح المهدي بأم درمان	٣٠١
١٣	إعدام البطاحين	٣١٣
١٤	ضحايا المجاعة	٣١٩
١٥	الخليفة يحث قواته للهجوم علي كسلا	٣٤٩
١٦	مجلس الخليفة عبد الله مع القضاة	٣٦٩
١٧	الرقيق في دهبية علي النيل	٣٨٧
١٨	في سوق الرقيق بأم درمان	٣٩٣
١٩	العودة من سوق أم درمان	٤٠٧
٢٠	هروب سلاطين باشا من أم درمان	٤٣١
٢١	سلاطين مختبئ في الجبال	٤٣٧
٢٢	خريطة للخرطوم وأم درمان وتوتي (عربية وانجليزية)	٤٧٢
٢٣	خريطة توضح نفوذ المهدية حتي ١٨٩٥ (عربية وانجليزية)	٤٧٤

السيف والنار في السودان

الباب الأول

إستهلال

«رحلتي الأولي إلي السودان – عودتي إلي النمسا – رحلتى الثانية – الفساد في السودان – تعييني مديراً لدارا – الزبير باشا وإبنه سليمان – الجلابة والجعليين والدناقلة».

في يولية ١٨٧٨م وعندما كنت ملازماً في كتيبة صاحب السمو الإمبراطوري ولي العهد الأمير رودلف – المشاة التاسعة عشر – في جبهة البوسنة، تسلمت خطاباً من الجنرال غردون يدعوني لزيارة السودان، وللعمل في خدمة الحكومة المصرية، تحت إدارته.

وكنت قد قمت قبل ذلك، في عام ١٨٧٤م برحلة إلي السودان مررت فيها بأسوان وكروسكو وبربر حتي وصلت الخرطوم في أكتوبر من ذلك العام ومن ثم زرت جبال النوبة ومكثت لفترة وجيزة في الدلنج حيث كانت قد أقيمت للتو محطة إرسالية تبشيرية تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية النمساوية. ومن هناك قمت باستكشاف جبال الجلفان والنيمة والكدرو.

وكان يمكن لي البقاء لفترة أطول في تلك الأقاليم المدهشة لولا انفجار ثورة عرب الحوازمة. لذا، ولكوني مجرد رجل رحالة، فقد تلقيت أمراً للعودة فوراً للأبيض، كبري مدن كردفان. لكن ثورة العرب، والتي قامت بسبب الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الحكومة، سرعان ما أخمدت. تحت هذه الظروف لم أجد فائدة من الرجوع لجبال النوبة ومن ثم قررت زيارة دارفور.

في ذلك الوقت، كان حاكم السودان العام، اسماعيل باشا أيوب، مقيماً بالفاشر عاصمة دارفور. وعند وصولي لكاجا وكتول وجدت، لخيبة أملي الكبيرة، أن أمراً قد صدر للتو يمنع الأجانب من دخول المنطقة، والتي تم اخضاعها قبل وقت قريب، خوفاً علي سلامة الرحالة. لذا عدت فوراً إلي الخرطوم حيث حظيت بالتعرف علي أمين باشا (دكتور أمين

وقتها) والذي كان قد وصل من مصر قبل بضعة أيام بصحبة المدعو كارل فون جريم.

كان الجنرال غردون في ذلك الوقت حاكماً عاماً للمديريات الإستوائية ومقيماً في اللادو. لذلك أرسلنا إليه لمعرفة إن كانت لديه أي تعليمات بشأننا. وبعد شهرين جاءنا رده الذي يدعوننا فيه لزيارة اللادو، في نفس الوقت الذي وصلتني فيه عدة خطابات من عائلتي بالنمسا تحثني علي العودة لأوروبا. ولما كنت أعاني من الحمي، بالاضافة إلي ارتباطي بأكمال خدمتي العسكرية في العام القادم فقد قررت بالتالي الاستجابة إلي رغبات عائلتي.

لكن دكتور أمين استجاب لدعوة غردون علي أي حال وغادر الخرطوم فوراً بعد ذلك إلي الجنوب بينما توجهت أنا صوب الشمال. وقبل أن نفترق رجوت أمين أن يوصي بي خيراً عند الجنرال غردون، وهو ما قد فعله، مما ترتب عليه استلامي للخطاب الذي أشرت له من قبل، بعد ثلاثة سنوات.

وكما نذكر، فأن أمين وفور وصوله إلي اللادو، منح رتبة البكوية وثم تعيينه حاكماً علي اللادو. وعند مبارحة غردون للمنطقة تمت تسميته حاكماً عاماً للإستوائية وهو المنصب الذي احتفظ به حتي تم انقاذه علي يد المستر ستانلي عام ١٨٨٩م.

عدت إلي القاهرة عن طريق صحراء بيوضة - دنقلا - وادي حلفا، ووصلت إلي النمسا بنهاية عام ١٨٧٥م ولقد سررت بوصول خطاب لي من غردون، وأنا في معمعة حملة البوسنة وغمرني الشوق للرجوع للسودان وتمنيت أن يكون ذلك في إطار رسمي ولكن طال بي الانتظار حتي ديسمبر ١٨٧٨م، عندما انتهت الحملة وعادت كتيبتي إلي معسكراتها في برسبرج، لتلقي الإذن بالسماح لي، كضابط في الاحتياط، للعودة مرة أخري لإفريقيا.

كان أخي هنري لازال في الهرسك. لذا، وبعد مكوثي لثمانية أيام فقط في فينا لوداع عائلتي، غادرت إلي تريستا في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٨٧٨م. ولم أكن أحلم قط إنه ستنقضي حوالي سبعة عشر عاماً وأنا بعيد عنهم، ولابأنني سأمر بأغرب وأقسي التجارب قبل أن أري وطني مرة أخرى. فلقد كنت وقتها في الثانية والعشرين من عمري.

وفور وصولي للقاهرة تسلمت تلغرافاً من جيقلر باشا من السويس، والذي كان في طريقه لمصوع بعد تعيينه مفتشاً عاماً لتلغراف السودان، للتفتيش علي الخط التلغرافي بين ذلك المكان والخرطوم. دعاني للسفر معه حتي سواكن الأمر الذي سرني كثيراً. توجهنا نحو سواكن حيث بارحها إلي مصوع بالباخرة بينما قمت أنا بإجراء الإستعدادات اللازمة لعبور الصحراء إلي بربر علي ظهر الإبل. ولقد وجدت مساعدات جمة من علاء الدين باشا والذي كان حاكما وقتها، والذي فيما بعد، وكحاكم عام للسودان، رافق حملة هكس باشا وقتل معه عندما تم اجتياح وتدمير كل القوة المصرية في شيكان، في نوفمبر١٨٨٣م.

بوصولي لبربر وجدت ذهبيته في إنتظاري بناء علي أوامر الجنرال غردون. صعدت إليها فوراً ووصلت الخرطوم في ١٥ يناير ١٨٧٩م وهنا وجدت كل العطف والاعتبار حيث وضع غردون تحت تصرفي منزلاً لايبعد كثيراً عن السراية إضافة إلي علي أفندي والذي خصص لرعاية كافة طلباتي.

في أثناء لقاءاتنا اليومية، إعتاد الجنرال غردون للتحدث كثيراً عن الضباط النمساويين الذين قابلهم في تلتشا عند ما كان ضمن بعثة الدانوب والذين عقد معهم صداقة عميقة. وكنت أتذكر قوله لي بأنه كان يري من الخطا إستبدال بزتنا البيضاء الأنيقة بالزي الأزرق الرسمي الذي نرتديه الآن.

وفي أوائل فبراير قام غردون بتعييني مفتشاً مالياً مع تعليمات بالترحال في أنحاء البلاد للتحري في شكاوي السودانيين الذين إعترضوا علي دفع الضرائب والتي لم تكن معقولة بالبتة لديهم.

وتنفيذاً لأوامره توجهت إلي سنار، عن طريق المسلمية، ومن ثم إلي فازوغلي حيث تفقدت الأقاليم الجبلية في كوكيلي والرقرق ثم كشنكرو بجوار بني شنقول. ومن ثم قدمت تقريري إلي الجنرال غردون.

في هذا التقرير بينت وجهة نظري، بوضوح، في أن توزيع الضرائب لم يكن عادلاً حيث وقع العبء الأكبر علي فقراء وصغار ملاك الأراضي بينما لم يجد الميسورون أي صعوبة في رشوة جباة الضرائب، وبمبالغ صغيرة نسبياً، للحصول علي الإعفاء من الضريبة. من

هنا خرجت أراضي واسعة وملكيات ضخمة من دفع الضرائب وتهربت منها. أما الطبقات الفقيرة فقد طحنت بلا رحمة حتي ينتزع منهم ما يغطي العجز الناجم عن مثل هذه السياسات.

أو ضحت أيضاً بأن معظم القلاقل والتذمر الحالي كانت نتيجة للقهر والطغيان الذي يمارسه الجباة، والذين كان معظمهم من الجنود من الباشبوزوق والشايقية. كان كل هم هؤلاء المعدومو الضمير هو في كيفية إثراء أنفسهم، وبأسرع وسيلة ممكنة، علي حساب أولئك المواطنين التعساء والذين وقع عليهم سوط عذاب وقسوة السلطة.

لاحظت أثناء مروري أيضا أن أملاك موظفي الحكومة، ومعظمهم من الشايقية أو الأتراك كانت معفية من الضرائب وبدون استثناء. وبأستفساري عن سبب ذلك الإعفاء كنت أجاوب دائماً بأنهم ما حصلوا علي هذا الإمتياز إلا مقابل الخدمات الخاصة التي كانوا يؤدونها للحكومة. وعندما أشرت إلي أنهم يتقاضون المرتبات مقابل ذلك كان يبدو عليهم الغضب والإنزعاج الشديدين. وعلي كل حال فقد كنت ألقي القبض علي بعض كبار أولئك المتهربين وكانوا يعترفون بأن العدل يقتضي دفع تلك الضرائب.

وفي المسلمية، وهي مدينة كبيرة تقع بين النيلين الأزرق والأبيض، كما إنها مركز تجاري هام، وجدت جمعاً كبيراً من النساء الشابات واللائي يمتلكهن أغني التجار وأكثرهم احتراماً والذين كانوا يشتروهن ثم يبيعونهن لأغراض غير أخلاقية مقابل أثمان باهظة. كانت تجارة مربحة بدون شك ولكن كيف يمكن فرض الضرائب عليهم وماذا بمقدوري أن أقوم به؟. إنني اعترف بعدم تجاربي في هذا المضمار ولافكرة لدي عن أي اسلوب للتعامل معهم. من هنا، ولشعوري بعدم قدرتي للقيام بأي إصلاح في مثل هذه الظروف ولعدم خبرتي تماماً بالشئون المالية والاقتصادية فقد شعرت بأنه من العبث إستمراري في العمل وتقدمت بأستقالتي.

كان غردون قد ذهب في هذه الأثناء لدارفور لبحث الظروف المرتبطة بالحملة ضد سليمان إبن الزبير باشا. وقبل مغادرته لدارفور قام بترقية جيقلر لرتبة الباشوية وأوكل اليه القيام بمهام الحاكم العام أثناء غيابه. انتهزت هذه الفرصة لإرسال تقريري واستقالتي بنفس البريد وسرعان ما تلقيت تلغرافاً من غردون بقبول إستقالتي من وظيفة المفتش المالي.

شعرت بالارتياح الشديد للتحرر من هذا العمل الكريه كما لم أشعر بأي تأنيب ضمير لأنني كنت أعرف مدي عدم قدرتي التامة للتعامل مع مثل تلك الأوضاع المعنة في سوئها وفسادها.

وبعد بضعة أيام تلقيت برقية من غردون بتعييني مديراً لدارا، والتي تشمل المناطق الجنوبية الغربية لدارفور، مع أوامر لي بالتحرك في الحال للقيام بعمليات عسكرية ضد السلطان هارون، إبن السلطان السابق، والذي كان يحاول انتزاع بلاده من الغزاة المصريين. كما وجهني غردون أيضاً لمقابلته أثناء رحلة عودته في مكان ما بين الأبيض والترعة الخضراء علي النيل الأبيض.

أرسلت قوافلي من الإبل إلي الترعة الخضراء.، حيث كانت تنتظر باخرة غردون في المرسي هناك وسرعان مالحقت بها.

ومن الترعة الخضراء توجهت غرباً في الحال وبعد ساعتين من الركوب وصلت إلي محطة تلغراف أبو جراد حيث علمت أن غردون لايبعد عنهم بأكثر من أربعة أو خمسة ساعات وأنه في طريقه للنيل ومن ثم إرتحلت مرة أخري وبعد بضع ساعات وجدته جالساً تحت شجرة كبيرة. كان واضحاً عليه الإرهاق الشديد والتعب المبرح بعد ركوبه الطويل وكان يعاني من قروح بساقيه. وكنت لحسن الحظ قد أحضرت بعض البراندي معي، أخذته من باخرته، ومن ثم سرعان ما عاودته الحيوية وإستعد للسفر مرة أخري طالباً مني مرافقته حتي الترعة الخضراء للتباحث في الوضع في دارفور ولاعطائي التعليمات الضرورية كما قدمني إلي إثنين من مرافقيه هما حسن باشا حلمي الجويسر، الذي كان سابقاً الحاكم العام لكردفان ودارفور، وإلي يوسف باشا الشلالي الذي كان آخر من سينضم إلي جسي في حملته ضد سليمان الزبير وتجار الرقيق. وسرعان ما كنا علي ظهر الإبل لكن غردون سبقنا وتقدم عنا كثيراً حتي إننا وجدنا أن من المستحيل علينا اللحاق به. وسرعان ما وصلنا الترعة الخضراء حيث وجدت أن قافلة أمتعتي، التي كنت قد أرسلتها أمامي، قد وصلت. كانت البواخر راسية في منتصف النهر لذا وصلنا إليها علي مركب نيلي. كنت أجلس في مؤخرة القارب وبجواري يوسف باشا الشلالي وكان كوب الشرب بالقرب منه وكنت عطشاً. رجوته أن يغترف لي من النهر ماء لأشربه لكن غردون،

عندما لاحظ ذلك، إتجه نحوي مبتسماً وخاطبني بالفرنسية: «ألا تعلم أن يوسف باشا، بالرغم من لون وجهه الأسود، هو أعلي منك رتبة بكثير؟ ما أنت إلا مدير لدارا وما كان عليك أن تطلب منه شربة الماء». وفي الحال قدمت إعتذاري باللغة العربية ليوسف باشا وأضفت أنني ماطلبت منه الماء إلا في لحظة نسيان. وعلي ذلك أجابني بأنه يكون سعيداً جداً لتقديم أي خدمة لي أو لأي شخص آخر.

وعندما وصلنا للبواخر ذهبت مع غردون إلي الباخرة الإسماعيلية بينما صعد يوسف باشا وحسن باشا علي ظهر البوردين شرح لي غردون بالتفصيل الحالة في دارفور وأضاف إنه يأمل بكل إخلاص أن تكلل الحملة ضد السلطان هارون بخاتمة سعيدة حيث أن المنطقة، ولسنوات عديدة، كانت مسرحاً للقتال وسفك الدماء وتحتاج بشدة للاستقرار. أخبرني أيضاً بأن حملة جسي علي سليمان الزبير ستنتهي عما قريب حيث أن الأخير، وقبل مضي زمن طويل، سيهزم أو سيقتل لأنه فقد معظم رجاله من البازنجر (السود من حملة البنادق) وإنه صار من المستحيل عليه تحمل الخسائر المتلاحقة التي ألحقها جسي به.

جاوزت الساعة العاشرة عندما ودعني. كان قد أمر من قبل بأشعال النيران حيث سيغادر إلي الخرطوم في نفس الليلة. وعندما نزلت من علي جانب الباخرة قال لي بالفرنسية «وداعاً ياعزيزي سلاطين، وليباركك الله. إنني واثق من أنك ستبذل قصاري جهدك تحت أي ظرف كان. ربما أعود لإنجلترا واذا ما تم ذلك فأنني آمل أن نلتقي هناك» كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي سمعته يقولها. فمن كان يتصور المصير الذي كان مدخراً لنا جميعاً؟ شكرته من كل قلبي علي عطفه ومساعدته لي وعندما وصلت ضفة النهر مكثت لمدة ساعة في انتظار مغادرة الباخرة ثم سمعت صافرتها الثاقبة ورفع المرساة وبعد بضع دقائق غاب غردون عن نظري – ذهب للأبد!

صباح اليوم التالي، ممتطياً الفرس الذي أعطاني إياه غردون، والذي حملني دائماً لأكثر من أربع سنوات، توجهت لأبي جراد ومنها لأبي شوكة وخرسي حتي وصلت الأبيض حيث وجدت هناك الدكتور زيربوخن مفتش الصحة والذي كان علي وشك التحرك نحو دارفور وإتفقنا علي السفر سوياً حتي دارا. استأجرنا جمالاً لحمل أمتعتنا بمساعدة من

علي بك شريف، حاكم كردفان، وعندما كنا علي وشك السفر سلمني تلغرافاً أرسل من فوجة، الواقعة علي الحدود الشرقية لدارفور، يفيدني فيه جسي بأن سليمان الزبير قد سقط

في الخامس عشر من يولية ١٨٧٩م وبهذا تحققت نبوءة غردون بأن سليمان إما أن يستسلم أو يصفى .

لا بد لي هنا من أن أذكر بأن الزبير باشا ، وفور فتحه لدارفور، غادر إلي القاهرة تاركاً إبنه سليمان لرعاية شئونه في شكا. وفي عام ١٨٧٧م قام غردون بتعيين سليمان حاكما علي بحر الغزال. ولكن سرعان ما نشب النزاع بينه وبيد المدعو ادريس أبتر، والذي كان من أهالي دنقلا، والذي كان الزبير باشا قد أوكل إليه أيضاً بعضاً من شئونه. عائلة الزبير باشا – كما نعلم – تنتمي إلي قبيلة الجعليين القوية والتي كان بينها وبين الدناقلة ما فعل الحداد وهذا ما يفسر الكثير من القلاقل التي ستلم قريباً بالسودان.

يسكن بحر الغزال مجاميع كبيرة من القبائل الزنجية والتي كان كل منها مستقلاً عن الأخر حتي بدأ زحف الدناقلة والجعليين، الذين جاءوا من وادي النيل بحثاً عن الرقيق، وبدأوا الاستيطان تدريجياً في المنطقة حتي استولوا عليها. يعود الجعليون في أنسابهم إلي العباس عم النبي وكانوا فخورين بذلك النسب لدرجة أنهم ينظرون بعين الاذدراء والتحقير للدناقلة والذين كانوا يعتبرونهم من سلالة العبد دنقل. وحسب الروايات فأن هذا الرجل، رغم كونه عبداً، صعدت مكانته حتي صار حاكماً لبلاد النوبة رغم انه كان يدفع الجزية لبهنسة، الذي كان أسقفاً لكافة الأقاليم التي تقع بين سرس الحالية والدبة. وقد أسس دنقل مدينة أسماها بأسمه (دنقلا) وتدريجياً عرف سكان هذا الاقليم بالدناقلة، وهم في معظمهم من سلالة عربية لكنهم فقدوا انتماءهم بالتزاوج الحر مع المواطنين الأصليين. ورغم أنهم بالطبع يصرون علي أصلهم العربي أيضاً إلا أن الجعليين ما فتئوا يذكرونهم بجدهم دنقل ومن ثم يعاملونهم باذدراء وتحقير. ومن هنا علينا معرفة العلاقات بين هاتين القبيلتين إذ أن هذا سيلعب دوراً هاماً في ما سيجري من أحداث.



Gessi Pasha's Troops advancing to the attack on "Dem Suleiman."

قوات جسي باشا أثناء تقدمها نحو ديم سليمان

وسرعان ما قاد الصراع بين سليمان وادريس إلي الصدام. فقام الأخير بالاستنجاد بالخرطوم وسرعان ما وصلته النجدات الحكومية والجنود بقيادة جسي باشا. وبعد ذلك تتالت الأحداث والحملات في بحر الغزال والتي انتهت بأسر سليمان الذي، ورغم الوعد بالإبقاء علي حياته الذي التزم به جسي، إلا أنه سقط ضحية لمؤامرات الدناقلة وتم إعدامه.

لكن رفيقه في السلاح، رابح، لم يتعرض لنفس المصير. فقد قام من تلقاء نفسه، وخوفاً من إنتقام الدناقلة، بالإبتعاد عن سليمان قبل إستسلامه وتوجه في إتجاه شمالي غربي، ومعه قسم من جنود سليمان وبدأ، من ثم، سلسلة من المغامرات الغريبة والعنيفة والتي أوصلته اليوم إلي ضفاف بحيرة تشاد كفاتح لمناطق شاسعة من وسط إفريقيا وصار شخصية ذات أهمية فائقة في مصائر القارة السوداء.

وهناك نقطة أخري أود الإشارة إليها حيث لها صلة بالنزاعات القبلية، والتي أثرت بدورها بشدة علي الأحداث التي جرت في السودان. لذا سأتحدث عنها بالتفصيل:-

ففي زيارته الثانية لدارفور تحقق غردون من أن تجار الأبيض السودانيون كانوا يبيعون السلاح والبارود للمتمرد سليمان، والذي كانوا يتعاطفون معه بسبب من أغراضهم الأنانية، وكانت هذه المواد الحربية ترسل لبحر الغزال سراً عن طريق الوسطاء الجلابة (صغار التجار) والذين كانوا يتلقون أسعاراً ضخمة من سليمان. وعلي سبيل المثال ستة إلي ثمانية أرقاء مقابل بندقية بروحين ورقيق واحد أو اثنين لصندوق الكبسول. حاول المسئولون في الأبيض توقيف هذه التجارة والحد منها لكن واجهتهم مصاعب كبيرة للقيام بذلك. فقد كانت المناطق بين كردفان وبحر الغزال مأهولة أساساً بالقبائل العربية الرعوية مثل الرزيقات والحوازمة والحمرو المسيرية. وفوق ذلك، كان من السهل علي مجموعات صغيرة من الجلابة عبور هذه المناطق بدون خوف من اكتشافهم بسبب من الغابات الواسعة غير المأهولة التي كانت تملأ المنطقة تماماً. وحتي إذا اعترض طريقهم أي مسئول مصري رسمي فقد كانت رشوة صغيرة كافية من ناحية عامة لإرضائه.

كان غردون مدركاً تماماً لكل هذا وبالتالي أصدر أوامره بإيقاف التجارة من أي نوع كانت بين الأبيض وبحر الغزال وأمر بالتالي جميع التجار بمغادرة كل المناطق التي تقع جنوب الأبيض كالطويشة وطريق قوافل دارا وأن يحصروا تجارتهم أساساً في المناطق الشمالية والغربية وذلك أثناء احتدام المعارك في بحر الغزال. ولكن، وبالرغم من الصرامة التي طبقت بها تلك الإجراءات، إلا أن فرصة الربح كانت عظيمة ومغرية لدرجة أن التجار كانوا لايبالون بمخاطر اكتشافهم. وفي الواقع لم تكن الحكومة تمتلك الوسائل التي تمكنها من وضع حد لهذه التجارة بالطريقة المناسبة وهذا ما أدي في الواقع، وبالرغم من الحظر الحكومي، إلي زيادة التجارة بدلاً من الحد منها. لهذا السبب لم يكن أمام غردون بداً من اللجوء إلي وسائل عنيفة قاسية فقام باصدار أوامره لشيوخ القبائل العربية للقبض علي كل الجلابة في مناطقهم وإجلائهم بالقوة إلي دارا والطويشة وأم شنقة والأبيض كما حملهم، في نفس الوقت، المسئولية عن أي جلابي يوجد في منطقتهم بعد تاريخ معين. هذا الأمر وجد ترحيباً لدي العرب الشرهين الذين انتهزوا الفرصة ليس لسلب ونهب التجار المتجولين فقط بل وحتي أولئك الذين كانوا يساكنوهم عبر السنين والذين لم تكن لهم أي يد في تلك التجارة غير المشروعة. قام العرب بجمع الصالح والطالح منهم وأبعدوهم عن مناطقهم محققين أرباحاً طائلة من وراء ذلك. كانت أوامر غردون بمثابة الشرارة أو إشارة البدء في حملة شاملة ضد التجار، والذين لم يفقدوا بضائعهم فقط، بل حتي ملابسهم وكل ما يمتلكونه، وساقوهم كالبهائم بالمئات شبه عراة نحو دارا والطويشة وأم شنقة. لقد كان عقاباً رهيباً لتواصلهم غير المشروع مع أعداء الحكومة.

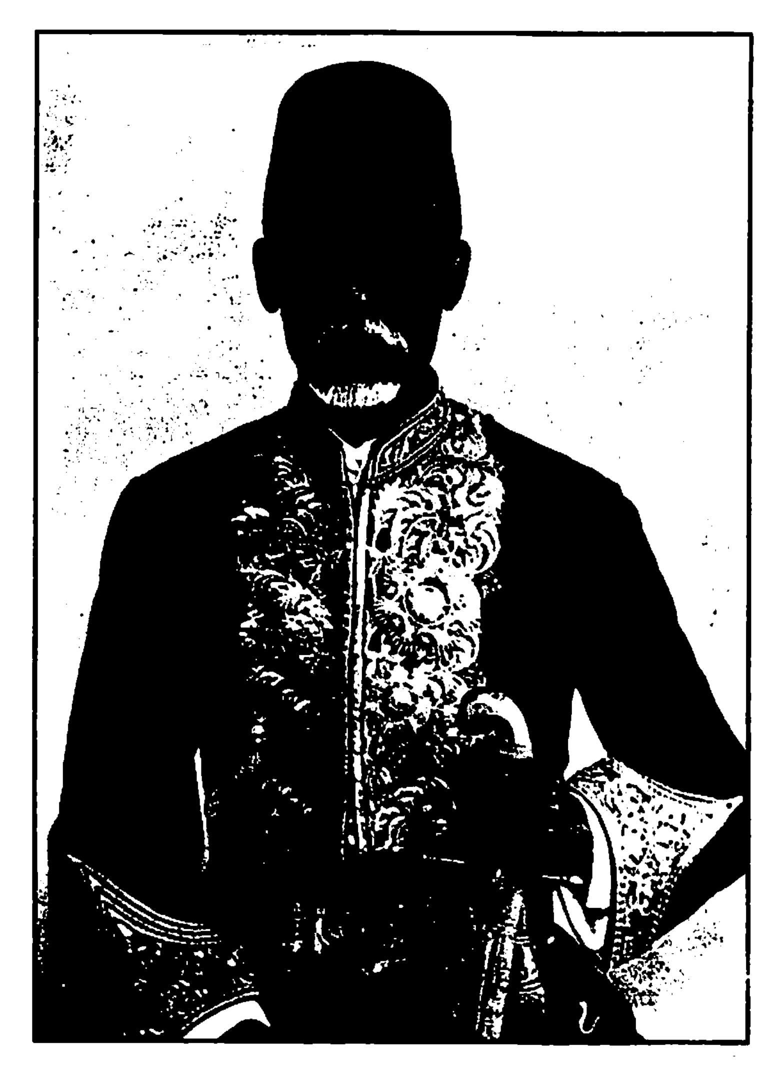
كان معظم هؤلاء التجار قد أقاموا لسنوات طويلة وسط العرب. وكان لديهم زوجات وأطفال وسراري وثروات مقدرة سقطت كلها في أيدي العرب. لقد أناخت الأقدار بكلكلها علي هؤلاء التعساء من تجار الرقيق وكان الانتقام منهم – والذي استحقوه بدون شك طبقاً لمبدأ العين بالعين والسن بالسن – قاسياً لمن شاهده ونجمت عنه آثار بالغة بعيدة المدي خاصة إننا نعلم أن معظم صغار التجار أولئك كانوا من الجعليين من وادي النيل ومن تم

ترعرعت كراهية عميقة بينهم وبين العرب الذين قهروهم والتي استمرت حتي وقتنا هذا والتي تشير كل الدلائل إلي زيادتها بدلا عن تناقصها.

ومن ناحية إنسانية، فقد يكون هذا الهجوم علي الجلابة مثار تساؤل. ولكن، وبعد التدقيق في الأمر، سيتضح للجميع عدم امكانية التعامل مع مثل هذا الوضع الشاذ، الذي كان سائداً، بالوسائل السياسية أو الإنسانية بل لابد من اتخاذ الأساليب العنيفة والقاسية معهم. وفي الأمثال العربية يقولون أن «نار الغابة يلزمها الحريق» وهو ماينطبق علي هذه الحالة.

ولأن معظم التجار كانوا من الجعليين والشايقية والدناقلة فقد كان لهم بالطبع صلات وأصدقاء وأهل في وادي النيل وكان معظم الأخيرين يعملون معهم كوسطاء في أعمالهم التجارية أو في تجارة الرقيق. بالتالي فقد كانت أوامر غردون ذات وقع قاسي عليهم ولم يتقبلوها بل لم يفهموا لماذا كانت هذه الاجراءات العنيفة ضرورية بأي حال من الأحوال .

***



Zubeir Pasha.

الزبير باشا

الباب الثاني

إقامتي في دارفور والتاريخ القديم للمديرية

« وصولي لأم شنقة - مشاكل زوجية - فولسطاف سوداني- وصف الفاشر - استلام عملي في دارا - زقل بك مساعد الحاكم - قيامي بحملة ضد السلطان هارون - نيورني، الحصن القوي لهارون بجبل مرة - هزيمتي للسلطان في رهد النبق - موت هارون - مقابلتي للدكتور فلكن والأب ولسون - خادمي كبسون - خطاب من غردون من الحبشة ».

غادرت الأبيض في أوائل يولية ١٨٧٩م بصحبة الدكتور زيربوخن، المفتش العام للصحة، والذي التقيته في القاهرة. قادنا الطريق الي فوجة وهي نهاية خط التلغراف حيث تسلمت برقية من غردون يخبرني فيها إنه في طريقه للحبشة في مامورية لمقابلة الملك يوحنا.

وصلنا أم شنقة والتي وجدتها تعج بالجلابة الذين طردوا من المناطق الجنوبية والذين كانوا في حالة محزنة حقاً. والعجيب حقاً أن الأخبار تواترت وانتشرت في كل مكان بأنني إبن أخ لغردون (وأعتقد أن السبب هو في زرقة عيوني وذقني الحليقة) وبالتالي كانوا ينظرون لي بنوع من التوجس وهم الذين ذاقوا الأمرين بسببه، وهو الأمر الذي كانوا يستحقونه بالفعل. غمروني بالشكاوي والتظلمات وطلبات الدعم مني لكنني أخبرتهم بأن أم شنقة ليست في إقليمي وبالتالي لا استطيع تقديم يد العون لهم. وحتي اذا ماكان في مقدوري إعطائهم شيئاً من جيبي الخاص فلم أجد الرغبة أو الميل لفعل ذلك.

ولكن، وفي حالة واحدة، فأنني أعترف بخرقي للتعليمات. ولكن، وقبل سرد هذه الحادثة العرضية، فأن علي أن أوضح بأن ما قمت به لم يكن من وجهة النظر الأخلاقية المسيحية قط. بل إنني اعترف بذنبي للتساهل الشديد الذي أبديته بخصوص قوانين الزواج الإسلامية مما تحظره الشريعة أو القوانين الدينية. وعلي كل حال فسيعذرني قرائي عندما يكملون قراءة القصة وربما سيشاطرونني نفس المشاعر التي أملت علي القيام بما قمت به. فقد إتصل بي كثير من التجار الذين جاءوا من وادي النيل ورجوني التدخل في مشكلة

شـاب سيئ الخط من أبناء الخـرطوم لايزيد عمـره عن تسعـة عشرة سنة. فـقـد خطب ذلك الشـاب، قبل مبارحة الخرطوم، إبنه عم له جميلة وصغيرة السن لكنها من أسـرة فقيرة للغاية وقد وافق والداها علي الزواج بشرط قيامه برحلة أولا لمحاولة جمع المال. وعندما وصل لأم شنقة عشقته إمرأة غنية عجوز عشقاً مبرحاً. لم يخبرني رواتي إن كانت قد سحرته بأموالها أم لا لكنها وجدت طريقها إليه وتزوجته. وجد الشاب نفسه ثرياً نسبياً ولم يخطر بباله أن يفارقها حتي وصلت الأخبار المؤسفة للخرطوم الأمر الذي أصاب خطيبته السابقة بالذهول. والآن طلب مني أن أجد حلاً فماذا علي أن أفعل؟. استدعيت الشاب، والذي كان وسيماً علي غير العادة، وانتحيت به جانباً وتصنعت الصرامة والجدية ما استطعت وحدثته كيف أنه أخطأ كثيراً كأجنبي بزواجه من إمرأة غريبة عجوز بينما تقرحت عينا خطيبته المسكينة من البكاء وإنه مهما كانت أسرة خطيبته فقيرة فأن الشرف يملي عليه الوفاء بوعده. تردد الشاب لوقت طويل لكنه وافق أخيراً علي الذهاب للقاضي الشرعي لطلاق العجوز. كنت قد قابلت القاضي مسبقاً وأخبرته بأن الشاب إذا ما جاءه لطلب الطلاق فأن عليه أن يخبر الزوجة العجوز بأقصي ما يمكن من اللطف والرقة حيث كنت حريصاً علي اتمام الطلاق دون ضجة أو هياج من جانبها. كما حصلت علي ضمانات من أسرة الشاب بمسئوليتهم عن قيامه فوراً للخرطوم مثلما حذرت مسئول الحكومة بأم شنقة ووجهته بطرد الشاب بعد مهلة يومين علي الأكثر. أو ضحت له أيضاً بموافقتي علي أن يقول عني ما شاء للمرأة العجوز وإنني علي استعداد لتحمل أي عواقب بشرط قيامها بأعطاء مطلقها بعض المال للسفر. لكنني لم أتخيل قط مدي العاصفة التي أطلقتها بيدي والتي إنقضت علي أم رأسي المخلص! فقد كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهره وكنت مستلقياً علي عنقريب بداخل الكوخ الصغير المبني من الطوب، عندما سمعت صراخ امرأة غاضبة تطلب مقابلتي في الحال. علي الفور خمنت من هي فضبطت أعصابي استعداداً للشجار وطلبت من حاجبي السماح لها بالدخول. أراد الدكتور زيربوخن، والذي كان معي في نفس الكوخ، والذي كان لايجيد من العربية إلا قليلاً، أراد أن يتركني لكنني لم آكن في موقف أرغب فيه أن أكون بمفردي مع إمرأة غاضبة وطلبت منه البقاء معي

فأستجاب بعد لأي. وما أن سمح للمطلقة بالدخول حتي اندفعت بعنف نحو الدكتور زيريوخن، الذي ظنت خطأ أنه أنا، وصرخت في وجهه بأنفعال جنوني: «لن أوافق أبداً علي الطلاق. فهو زوجي وأنا إمرأته. إنه تزوجني طبقاً للشريعة وإنني أرفض السماح له بطلاقي». جفل الدكتور زيريوخن وغمغم بلغة عربية مكسرة بألا دخل له بالموضوع وأشار إلي بخنوع بأنني أنا الحاكم القاسي القلب. لم أتمالك نفسي من الضحك من الهيئة الغريبة التي تواجهني فقد كانت امرأة ضخمة قوية ذات ارادة واضح أنها ذاتية نابعة منها وكانت مهتاجة لدرجة أنها لم تعط أي إعتبار للسلوك الواجب اتباعه لدي المرأة الشرقية عند مخاطبتها للرجال. فقد التف ثوبها الموسلين الأبيض حول قميصها، كاشفاً عن غطاء شعرها المتعدد الألوان والذي سقط علي كتفيها. كان لونها أصفراً ووجهها مغطي بالتجاعيد بينما حملت خدودها الفصدات الثلاثة لشلوخ قبيلتها وكان بين الشلخ والآخر نصف بوصة.

كانت تضع علي منخارها زماماً من المرجان الأحمر وفدايات ذهبية ضخمة في أذنيها وكان شعرها المدهن ممشطاً بأعداد لانهائية من الضفائر والتي تحول لونها للرمادي من جراء سنها المتقدم. شعرت بأنني لم أقابل في حياتي عجوزاً بمثل هذه الدمامة، لكنها قطعت تأملاتي بصراخها الثاقب، بعد أن توجهت نحوي بغضب شديد وواجهتني بنفس السؤال الذي سألته الدكتور المرعوب. تركتها لوهلة لإلتقاط أنفاسها وأجبتها: «إنني أتفهم تماماً ما تقولين لكن عليك الاستسلام للمحتوم: فعلي زوجك مغادرة المنطقة. ولأنك من الأهالي هنا فلن أسمح لك بالذهاب معه. لا يبدو عليك أي رغبة في الطلاق لكن عليك أن تتذكري أنه طبقاً لقوانين الشريعة فأن الرجل هو الذي يسلم أوراق الطلاق للمرأة وليس العكس».

صرخت في وجهي: «لولا تدخلك لما تركني علي الإطلاق! لعنة الله علي اليوم الذي جاء بك هنا»!

أجبتها « أرجوك، لاتقولي هذا الكلام. فأنت إمرأة مقتدرة ولا أظن أنه سيكون من الصعب عليك العثور علي زوج آخر ربما يكون أكبر سناً منه».

صرخت في وجهي حرفياً « لا أريد زوجاً غيره». زجرتها بشدة وأمرتها أن تخرس وأضفت قائلاً: أن أهل زوجك هم الذين طلبوا منه فراقك. لقد شكوا من أن ثروتك فقط هي

التي دعته للبقاء معك. والآن، ومهما تقولين، فأن عليه مغادرة المنطقة غداً. وبجانب ذلك ألا تظنين أنه من الحمق علي عجوز مثلك الزواج من صبي قد يكون في سن أحفادك؟».

كلماتي هذه أوصلتها لحالة من الجنون المطبق ففقدت السيطرة علي نفسها فرفعت يديها ومزقت ثوبها ولا أدري ما كان سيحدث لولا أن حاجبي إندفع نحونا بعد أن سمع الضجيج . وبهدوء وبالقوة أخرجها من الغرفة محذراً إياها بأن سلوكها كان معيباً وجعلها مصدراً للسخرية والتندر.

وصبيحة اليوم التالي بارح الزوج المكان تاركاً إياها غارقة في دوامة من أحزانها.

غمرني الارتياح بعد بضعة سنوات عندما قابلت ذلك الشاب ووجدته قد تزوج من خطيبته السابقة وأصبح رباً لأسرة مع عدة أطفال له. شكرني بحرارة لانتزاعي له من براثن تلك العجوز وتسببي له في سعادته الحالية. ولاحوجة لي بعد هذا أن أقول أنني نعمت بنوم هانئ تلك الليلة مطمئناً بأنني قمت بعمل طيب لم يكلفني شيئاً قط.

تركنا أم شنقة بعد يومين وقضينا ليلتنا في جبل الحلة حيث استقبلنا حسن بك أم كدوك، شيخ قبائل البرتي الشمالية، والذي أظهر ولاءاً تاماً للحكومة مما دعي غردون لمنحه رتبة البكوية.

كان رجلاً في أواسط العمر، قوي الجسم وله أكتاف عريضة عظيمة ووجه باسم مستدير يؤهله تماماً لأن ينادي بفلوسطاف السودان* وبعد بضع سنوات، عندما انقلبت الموائد، وصار السادة عبيداً، وجدت نفسي معه كملازمين في حرس الخليفة حيث كان لمزاجه البهيج وطبيعته الودودة أثراً في تخفيف المعاناة عني والتي لم تكن تحتمل في كثير من الأحيان. أما أخوه اسماعيل فقد كان علي العكس منه تماماً. كان طويلا نحيفاً وصارماً ولم يكن الأخوين علي إتفاق حول أي شئ ما عدا في حالة واحدة وهي حبهما المتين للمريسة (بيرة السودان). وكانت أسعد لحظات السرور لديهما هي عندما يتناول كل

---

* الكلمة تمثل الشخصية المرحة المضحكة والتي جسدها الشاعر الإنجليزي وليم شكسبير في رواياته للاعوام ٩٧ / ١٥٩٩ ومنها زوجات وندسور المرحات، وهنري الرابع، وهنري الخامس، وهي التي أوصلت الشاعر لقمة شعبيته. (المعرب)

منهما جرة كبيرة من تلك المريسة (والمعروفة في دارفور بدلانق عسليه أو أم بلبل). ويتنافسان علي أيهما يفرغ إناءه في جوفه قبل الآخر.

قام الأخوان بدعوتنا للعشاء، حيث تم تقديم خروف كامل مشوي علي الفحم لنا، إضافة لدجاج الوادي المحمر وطبق من العصيدة (تشبه لحدما البولنتا الإيطالية وتؤكل في كل الوجبات). كانت هناك أيضاً عدة قدور من المريسة. استمتعنا حقاً بالطعام، تاركين المريسة لمضيفينا، واستبدلناها بشئ من النبيذ الأحمر كان معنا.

أما حسن واسماعيل فقد كانا يشربان بحرية من المريسة ومن النبيذ والذي كان له أثر في إطلاق لسان حسن بالثرثرة بينما لاذ اسماعيل بالصمت.

بدأ حسن يحكي عن عدة أحداث تتعلق بغردون، والذي كان يكن له وداً واعجاباً عظيماً، لكنه تاثر كثيراً عندما علم مني أنه كان في طريقه للحبشة. وقال لي بأسي: «ربما يعود بعد ذلك إلي بلاده ويترك السودان للأبد» ولقد كان قوله لحد ما صحيحاً. غادر حسن الغرفة ثم عاد بعد قليل حاملاً سرجا فخيماً وسيفاً وقال لي: «أنظر! هذه هي هدايا غردون لي عندما صاحبته للفاشر. لقد كان عطوفا للغاية وكريماً» بعدها قام اسماعيل بعرض عباءة فخمة مطرزة بالذهب، كان غردون قد أهداها إليه، علينا. وأضاف حسن: «لم يكن الغرور والفخر من سماته. فقد حدث ذات يوم، في طريقنا للفاشر، أن قام أحد المرافقين بصيد حبارة بالبندقية. وعندما نزلنا للراحة منتصف النهار قام الطباخ بغلي بعض الماء وألقي فيه الطائر ليسهل انتزاع ريشه. ولما رأي غردون ذلك قام بالجلوس بجوار الطباخ علي الأرض وأخذ في مساعدته بأنتزاع الريش. ولما رأيت ذلك اندفعت نحوه ورجوته بأن يتركني أقوم بذلك بدلاً عنه لكنه أجابني: «لماذا أشعر بالخجل من أداء أي عمل؟ إنني قادر تماماً علي القيام بشئوني وهذا لايتطلب بالتأكيد أن يقوم أحد البكوات بأعمال المطبخ نيابة عني».

إستمر حسن في الحديث حتي ساعة متأخرة من الليل وحكي ما مر به من تجارب أثناء فتح الزبير باشا لدارفور ثم عن الثورة التي تلت ذلك وعن الوضع الراهن ثم يعرج إلي الحديث عن غردون، والذي يضعه في مكان شرف لايدانيه فيه أحد، وعلق قائلاً: «كنت ذات مرة مسافراً مع غردون عندما سقطت مريضاً ثم جاء غردون لعيادتي في خيمتي. وأثناء

الحديث أخبرته بأنني مدمن للمشروبات الكحولية وأن ما اعتراني من مرض كان بسبب حرماني منها في الأيام الأخيرة. كان هذا أسلوبي غير المباشر لأطلب من غردون أن يمدني بشئ منها. لكنني أصبت بخيبة أمل كبيرة عندما قام بتوبيخي بشدة، بدلا من إعطائي ما لمحت له به، وقال لي:«إنك رجل مسلم وأن دينك يحرم شرب الخمر والكحوليات. لذا فأن إدمانك لشئ مستغرب حقاً وعليك ترك هذه العادة نهائياً إذ أن علي كل واحد منا مراعاة تعاليم دينه». لكنني أجبته بأنني اعتدت علي الشرب طيلة حياتي وإذا ما تركته الآن فأن صحتي ستعاني كثيراً. لكنني سأحاول أن أكون معتدلاً في الشرب في قادم الأيام». بدا علي غردون أنه إكتفي باجابتي فنهض وصافحني متمنياً لي ليلة طيبة. وفي صباح اليوم التالي، وقبل استئناف سفرنا، أرسل لي ثلاثة زجاجات من البراندي مع نصيحة منه بالاعتدال في استعمالهم.

أثناء ذلك، كان أخوه النحيف الطويل في حالة صمت مطبق ومتكئاً علي كوعه وفي سكون كان يملأ الكأس تلو الكأس من المريسة ويتجرعها بأنتظام كعقارب الساعة. وعندما توقف الحديث نهض ببطء شديد ومسح فمه بيده في وقار وقال في لهجة كئيبة: «حقاً فأن البراندي شراب طيب للغاية. إنه ليس شراباً كحولياً بل هو علاج ودواء. إن غردون رجل عظيم ومحسن ولن نراه مرة أخري».

غادرنا مضيفونا في ساعة متأخرة فقمت باصدار أوامري للمشرفين علي جمال الأمتعة بالتحرك قبل الفجر ومن ثم تلفتنا حولنا باحثين عن مضيفينا حتي نودعهم. وبعد لأي شاهدنا إسماعيل مهرولاً ناحيتنا وبدأ علي رأسه أثر الليلة السابقة إذ صاح فينا: «أيها السادة: لطالما أخبرونا بأن العدالة تسود في بلادكم وانني متأكد من أن الضيوف هناك لايسيئون أبداً لمضيفيهم. فليلة أمس، وعندما تحركت جمال أمتعتكم، حمل رجالكم أفضل بساط لدي معهم، وكنت قد بسطته لكم أمس لتستلقوا عليه» قمت بالاستفسار عن الأمر ولم يعد لدي شك في أن أحد رجالي قد أخذ هذا البساط الثمين معه. لذا أمرت تابعاً لي بأمتطاء جمله واللحاق بالقافلة. ثم انتظرت في صبر شديد عودته وما لبث أن عاد معاوني ومعه البساط المسروق وكان مكتوفاً وراءه علي الجمل واحداً من جنودي السود الثمانية

من فرقة الحراسة الخاصة بي. وعند استجوابه تعلل بأنه أخذ البساط عن طريق الخطأ لكنني لم أشك قط في جريمته فأمرت بجلده وإرساله للسجن في أقرب نقطة عسكرية بأم شنقة. كنت منزعجاً جداً لما حدث إذ أنني أعرف أن مثل هؤلاء الأهالي عادة ما يستنتجون بأن سلوك السيد ينطبق علي سلوك الخدم. لذا فإن لم أتصرف بقسوة في هذه الحالة فستتكرر مثل هذه السرقة كثيراً.

وبعد أن أسرفت في الإعتذار لضيفينا غادرنا إلي الفاشر ومررنا ببروش وأبيض وأرقد حيث وصلناها بعد خمسة أيام.

تم إختيار الفاشر كعاصمة لدارفور خلال القرن الماضي. وهي مبنية علي تلين رمليين يمتدان من الشمال للجنوب ويخترقها وادي لايقل عرضه عن أربعمائة ياردة يعرف بوادي تندلتي. أما القلعة فقد أقيمت علي الجبل الغربي وكانت تتكون من حظيرة مسورة من الطوب اللبن سمكها حوالي ثلاثة أقدام تم بناءها علي المنحدر وأحيطت بخندق عمقه خمسة عشر قدماً ووضعت علي الأركان الأربعة أبراج صغيرة مزودة بالمدافع والتي تطلق من كوى بها.

يحتوي السور بداخله أيضاً علي المباني الحكومية وبيت الحاكم وميزات الضباط وثكنات الجنود. لكن ثكنات الخيالة غير النظاميين كانت خارجه. إضافة لذلك فقد كانت هناك آبار للشرب بالوادي وتبعد عن الحائط بحوالي مائة وخمسين ياردة.

في ذلك الوقت كان يحكم الفاشر مسدالية بك الإيطالي، والذي استقبلني والدكتور زيربوخن بحرارة وخصص لنا منازل في مباني الحكومة. كنا نعاني لحد ما من الحمي بسبب رحلتنا في موسم الامطار لذا قررنا المكوث هنا للراحة لبضعة أيام.

وبعد فترة قصيرة من الراحة استأنفنا رحلتنا أنا والدكتور زيربوخن إلي دارا واصطحبنا مودعاً لمسافة قصيرة مسدالية بك والذي أخبرنا بأن زوجته قادمة في طريقها للخرطوم وأنه تقدم بطلب إجازة للذهاب لمقابلتها واحضارها معه إلي الفاشر. لكنني نصحته بأن من الأفضل الانتظار حتي يتم التعامل مع السلطان هارون قبل احضارها لهذا المكان القصي. لكن مسادالية أجابني بأنه لايوجد أي سبب للخوف حيث يتوفر الآن

لديهم قوات كافية لحسم أي مصاعب داخلية. كنت قد سمعت من قبل بأن للسلطان هارون نفوذ قوي وأن هناك توجساً من أن القوات الحكومية الموجودة قد تتعرض لضغط شديد منه. علي كل حال، ولأنني حديث العهد بالاقليم، ولعدم خبرتي السابقة به. كان من المستحيل علي الحكم الصحيح علي الوضع لذا وافقت علي وجهات نظر مسادالية وبعد أن ودعته وودعت سيد بك جمعة، قائد الوحدة العسكرية، أسرعنا صوب دارا عن طريق كيريوت وراس الفيل وشعيرية.

كان يبدو علي زيربوخن أنه أكبر مني بكثير وكانت له لحية طويلة سوداء ويلبس نظارة طبية وكنت أنا أبدو أصغر من سني الحقيقية، إذ بدأ شاربي بالكاد في الظهور ولي وجه صبي. بالتالي كنا، وأينما توجهنا نجد الناس يعتبرونه الحاكم الجديد ويعاملونني كأني أنا الطبيب أو الصيدلي. وعندما إقتربنا من نهاية رحلتنا كان الطبيب يعاني من الحمي وبالتالي يبطئ في سفره. لذا وللاستفادة من الزمن للعمل الرسمي تقدمته قليلاً ووصلت إلي قرية شعيرية (علي مسافة يوم من دارا) قبل الوقت المحدد لوصولنا ووجدت القرويين مشغولون بالاستعدادات لاستقبالنا وقاموا بكنس البيوت وفرشوا البروش كما فرش القاضي والشيخ أبسطتهم ليتمدد عليها الحاكم الجديد. أنخت جملي ونهضت عنه وأجبتهم علي استفساراتهم عمن أكون بأنني «أحد حراس الحاكم الجديد» وكنت مسبقاً قد حذرت حراسي بعدم التفوه بشئ عني. من هنا فقد اغرقني السكان بما لايحصي من الأسئلة: أي نوع من الرجال هو الحاكم الجديد؟». أجبتهم: «أوه، أظنه سيقوم بما في وسعه نحوكم وهو رجل عادل وسهل الشكيمة». وتساءل أحدهم: « أهو شجاع طيب القلب؟». هذا السؤال أحارني في الإجابة لذا جاوبته بحذر: « لايبدو عليه الخوف لكنني لم أسمع بعد شيئاً عن شجاعته إن له مظهراً رجولياً وأعتقد أنه ذو قلب أبيض ولكن من الصعب عليه إرضاء كل الناس». علق مواطن آخر: «آه! لو أن لدينا حاكما مثل غردون باشا لكانت المنطقة سعيدة به إذ أنه لم يتوقف قط عن توزيع المال والهدايا علينا ولم يرجع منه فقير أو محتاج بدون إعطائه شيئاً. لم أسمعه إلا مرة واحدة يتفوه بكلمات عنيفة وهذا عندما كان سليمان الزبير في دارا وعندما قال للقاضي أن هناك العديد من الاشخاص الرديئين بين

السودانيين وانه لايجب التساهل مع امثالهم» فقاطعه القاضي قائلاً: « نعم لقد سمعته يقول ذلك لكنه كان يشير بالذات للجلابة والتجار القادمين من وادي النيل والذين كانوا متورطين مع الزبير وإبنه في كل أنواع التجارة غير المشروعة والتي يثرون بها أنفسهم».

تدخل شيخ القرية قائلاً: «حقيقة فان غردون رجل شجاع». كان اسمه مسلم ودكباشي كما قدم نفسه لنا. وأضاف: «كنت أحد الرؤساء الذين اشتركوا معه في حرب عرب الميما والخوابير وكان ذلك في سهل فافا في يوم قائظ الحرارة. هاجمنا العدو وإجتاح خطنا الأمامي وانهالت حرابهم بغزارة من حولنا وسقطت حربة منها علي مسافة شعرة من غردون لكن لم يبدو عليه الاكتراث قط وما كان انتصارنا عليهم إلا نتيجة صلابته هو والمائة من الاحتياطي الذين كانوا معه. كان حين يحتدم القتال يجد وقتاً لاشعال سيجارته الشئ الذي لم أره في حياتي. وعندما قام في اليوم التالي بتقسيم الغنائم لم ينسى أحداً بينما لم يحتفظ لنفسه بأي شئ. كان رقيق القلب وخاصة تجاه النساء والاطفال ولم يسمح قط بتوزيعهم كما هي عادتنا في الحرب لكنه أطعمهم وكساهم علي نفقته الخاصة وأرسلهم إلي أهلهم عند إنتهاء الحرب. وفي يوم من الأيام، وبدون أن نخبره، حجزنا عدداً من النساء لكنه لم يكتشف ذلك وإلا لمررنا بوقت عصيب معه».

بعد فترة استفسرتهم عن أوضاع دارا وعن صفات مختلف الموظفين حيث كنت قد سمعت أنهم غير جديرين بالثقة وعلمت منهم أنهم لاينظرون لقدومي بنظرة الود والارتياح.

في هذه الأثناء وصل الدكتور زيريوخن وبقية القافلة. وفي الحال اصطف الشيخ والقاضي ووجهاء القرية في شبه دائرة لاستقباله. أما أنا، وبعد أن تواريت ما أمكن عن الأنظار، فقد مكثت مترقباً في حبور ماسيقوله مسلم ودكباشي والذي بدأ بترحيب حار للحاكم الجديد وأثني علي قدراته ووصف بطلاوة مدي السرور الذي عم كل الناس بوصوله لهم. أما المسكين زيريوخن والذي لايفهم من العربية إلا قليلا، فقد ارتبك وأخبرهم بأصرار بأنه ليس الحاكم « بل أنا مجرد المفتش الطبي، أما الحاكم فلا بد أن يكون وصلكم قبل وقت طويل، ولكن، ولأنه لم يصحبه إلا عدد قليل من المرافقين، فربما أخطأتم في اعتباره شخصاً آخر». قدرت أنه قد حان الأوان لأخطو للأمام وضحكت حينما شكرتهم علي حسن

استقبالهم ومؤكداً لهم بأنني سأبذل كل جهدي لاشباع رغباتهم، وإنني في نفس الوقت انتظر منهم مساعدتي وخاصة بتنفيذ أوامري. بالطبع اعتذروا بحرارة عن خطئهم لكنني اكدت لهم ألا ضرورة لذلك. أخبرتهم بأنني تواق لبناء أقوي الصلات والصداقة معهم جميعاً وأنني أتمني منهم مواصلة هذه الصلة معي. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً أصبح مسلم ود كباشي من أخلص أصدقائي واستمر في ذلك في كافة أوقات الرخاء والشدة التي مرت علي وحتي مغادرتي للبلاد.

بعد هذا الحدث البسيط انفتحت شهيتنا وجلسنا إلي مائدة فخمة حوت مالذ وطاب من لحوم الضان المشوي وبعدها عاودنا الركوب ولم نتوقف إلا لاستراحة تحت شجرة ضخمة عند حلول الظلام وكنا لانبعد بأكثر من ساعتين من دارا. وعند شروق الشمس في صباح اليوم التالي أرسلت مندوباً لإعلان قدومنا وعند وصولنا لضواحي دارا استقبلنا استقبالاً عسكرياً عظيماً فقد إصطفت الحامية واطلقت سبعة مدافع لتحيتنا ومن ثم عاد الجنود لثكناتهم .

توجهنا بعد ذلك نحو القلعة والتي تضم بداخلها المباني الحكومية، وكان بصحبتي الصاغ حسن حلمي قائد الحامية وزقل بك نائب الحاكم والقاضي وبعض كبار التجار.
استمر تفقدي لها حوالي نصف ساعة بعدها توجهت إلي مسكني بعد أن أمرت بتجهيز بعض الغرف به للدكتور زيربوخن والذي سيبقي بضعة أيام في ضيافتي.

كنا بالكاد قد جلسنا لطعام العشاء ذلك المساء عندما سمعنا ضجيجاً وسط الخدم والذين كان من الواضح أنهم يحاولون منع رجلين من الوصول إلينا. كانا يحملان رسالة ثبت أنها خطاب من أحمد كاتونج وجبر الله، وهما من زعماء بعض الفصائل التي كانت تعسكر في بيرقوي والتي تبعد مسيرة ثلاثة أيام علي الجنوب الغربي من دارة. أوضحت الرسالة بأنهم للتوقد علموا بأن السلطان هارون علي وشك مهاجمتهم، ولأن قوتهم كانت صغيرة فقد قرروا إخلاء محطتهم إلا اذا ما أرسل لهم دعم فوري كما أوضحوا أنهم إذا ما غادروا المنطقة فأن القري بأكملها سيتم نهبها.

لم يكن هناك وقت لإضاعته. لذا أمرت حسن أفندي رفقي لأختيار مئتين من الجنود النظاميين وعشرين من الخيالة والتجهز للتحرك معي علي الفور نحو بيرقوي.

عند منتصف الليل كان كل شئ جاهزاً. ودعت دكتور زيربوخن وتوجهت صوب الجنوب الغربي بعد أن وعدته برؤيته ثانية خلال أربعة أو خمسة أيام.

كنت شاباً قوياً وتواقاً للدخول في المعارك ولصقل خبراتى. وأتذكر أنني كنت سعيداً لمجرد التفكير في الصدام القادم مع السلطان هارون. لم يخطر ببالي أي تفكير عن المصاعب والمشاق التي ستقابلني، بل كان فكري كله مشغولاً بأن هذه هي فرصتي لكي أثبت لرجالي إنني قادر علي قيادتهم حقاً. وعند شروق الشمس أمرت جماعتي الصغيرة، والتي كانت مكونة من مئتين من الجنود السود - كان ضباطهم أيضاً سودانيون - وأيضاً الخيالة (مصريون وأتراك) وألقيت عليهم خطاباً مقتضباً جاء فيه أنني حالياً غريب عنهم تماماً ورغم ذلك فأنني مستعد تماماً - كما سيرون بأنفسهم - لمشاركتهم الصعوبات والإرهاق وفي جميع الأحوال، وإنني أتمني أن نواصل زحفنا بسرعة للأمام وبكل عزم وتصميم. ومع أن خطابي لهم كان بسيطاً إلا أنني لمست الإنطباع الذي تركه فيهم وعند انتهائي منه رفعوا بنادقهم عالياً في الهواء، بالطريقة السودانية، وهتفوا بأستعدادهم للموت أو النصر.

وعند الظهيرة توقفنا بجوار قرية حيث قمت بتفتيش رجالي وتفحصهم. كانوا مسلحين جيداً ومعهم كميات وافرة من الزخيرة ومع كل رجل منهم قربة ماء من جلد الماعز أو الغزال يسمونها (السعن) لكن لم يكن معهم أي جراية أو مؤن. وعند استفساري عن هذا الأمر أخبروني بأنه «أينما توجهت في دارفور فستجد دائماً شيئاً لتأكله». بالتالي قمت بالتوجه نحو شيخ القرية وطلبت منه إمدادنا بشئ من الدخن. هذه الحبوب عادة ما تبل بالماء ثم تفرك ويخلط معها العرديب وتؤكل بعدها حيث أن ماءها الحلو المر يزيل العطش تماماً. وبالطبع فأن هذا الطعام لايجده الأوروبيون مقبولاً لكنه مغذي جداً ويؤكل بواسطة الجنود السودانيين أثناء قيامهم بالحملات دائماً. بدأت بالتدريج التعود عليه ثم الاعتماد عليه بعد ذلك في مثل تلك الحملات رغم سوء الهضم المؤلم الذي يصيب الانسان من جرائه ما لم يكن في أحسن حالاته الصحية. أحضر شيخ القرية الحبوب لنا مصحوبة بطبق

ضخم من العصيدة قمت بتقسيمها علي الجنود. وبينما كانوا يتناولون طعامهم دعوت الضباط لمشاركتي في علبة من اللحم المحفوظ حيث ذكروا لي بأنه طعام أعظم بكثير من الدخن والعصيدة. ثم استدعيت كاتبي وطلبت منه أن يحرر إيصالاً بقيمة الدخن يسلمه للشيخ حتي يتمكن من تقديمه كمستند لخصم القيمة من الضريبة المقررة عليه.

وعندما فهم تعليماتي، رفض الرجل الطيب إستلام الإيصال وأصر علي أن الواجب لايحتم عليه فقط إهدائنا تلك الحبوب ولكن هذا من موجبات الضيافة أيضاً. أما أنا فقد أخبرته بأنني علي علم تام بالكرم الفياض لمواطني دارفور لكن هذا الكرم لاينطبق علي إطعام مئتي رجل، الأمر الذي يتجاوز كثيراً حدود الضيافة، وأن من العدل أن يستلم مقابلاً لذلك. وافق الشيخ بعد لأي وبدأ أن النقاش الدائر قد ملأه بالثقة لأنه أقر بأن مثل هذا السلوك، لو كان مطبقاً دائماً، لنال تقدير جميع المواطنين حيث أن من عادة الجنود، لسوء الحظ، أن يدخلوا البيوت فور وصولهم لأي قرية ويستولون علي أي شئ وكل شئ يريدونه مما نجم عنه نفور المواطنين منهم وإرتعابهم عند قدومهم ومن ثم يبادرون علي الفور بإخفاء كل مالديهم عنهم. شكرت الشيخ علي هذه المعلومة ووعدته ببذل كل ما أستطيع لإزالة هذه المظالم.

وصلنا بيرقوي عند الغروب. وهي نقطة عسكرية يحرسها حوالي مائة وعشرون من الجنود غير النظاميين بزعامة إثنين من الرؤساء هما أحمد كاتونج وجبر الله والذان أخبراني بأنهما أرسلا الجواسيس للتعرف علي تحركات هارون والذي يعتقدان بأنه لم يهبط بعد من جبل مرة إلي السهول. لذا، وبعد يومين من الزحف والارهاق الشديد أصابني النعاس وذهبت للنوم. لكن الصداع، والضرب المتواصل للطبول علي شرف وصولي، منعني من النوم طوال الليل وفي صباح اليوم التالي شعرت حقاً بأنني لست علي ما يرام. جاء أحمد كاتونج لزيارتي وأخبرته بصداعى الشديد فأجابني بحبور: «من السهل علينا معالجة هذا الصداع » فأن لدينا رجل هنا يمكنه إيقاف الصداع في الحال وهو أفضل من الطبيب الذي بدارا - وحقيقة لم يكن هناك طبيب بل صيدلي مع نيله لقب الطبيب من باب التكريم».

قلت له: «حسناً. ولكن كيف سيقوم بعلاجي؟» فأجابني: «هذا شئ بسيط. فهو سيضع كلتا يديه علي رأسك ويردد بعض الكلام وبعدها تعافي تماماً، بل ستكون أفضل مما كنت عليه من قبل».

- إذن أحضره لي في الحال».

كنت شاباً وجاهلاً بالكثير في تلك الأيام وظننت أنه ربما يكون من أولئك العرب الجوالة الذي ربما زار أوروبا وتعلم شيئاً عن العلاج المغناطيسي ثم ترك ملاذ الحياة ناذراً نفسه لمنفعة بني البشر. واعترف بأنه قد ساورني الشك قليلاً عندما فكرت فيما قاله لي أحمد، ولكن علي أية حال: أليس الأطباء، حتي في أوروبا، يتحدثون ويرددون الكلام، فلماذا لايكون هو كذلك؟ وبعد دقائق معدودة أدخل أحمد علي رجلاً اسوداً فارع الطول له لحية بيضاء - ويبدو أنه من مواطني البرنو - وقدمه لي قائلاً: «إنه الطبيب الذي سيشفي. صداعك». وبدون تردد وضع الطبيب يده علي رأسي وضغط علي صدغي باصبعيه الابهام والسبابة ثم ، وهو يتمتم ببضع كلمات لم أفهمها، أصابني الاشمئزاز الشديد، فقد بصق في وجهي! قفزت في الحال ولكمته فسقط أرضا لكن أحمد، والذي كان يقف جانباً، متكئاً علي عصاه، توسل لي ألا آخذ الأمر بهذه الطريقة وأن المقصود ليس البذاءة أو الإساءة بل أن ما حدث هو جزء من العلاج وأنه سيفيدني جداً. لكن الطبيب المسكين، والذي إهتزت ثقته في نفسه، والذي كان قد وقف علي مسافة منا، تمتم قائلاً: «الصداع من فعل الشيطان وأن مهمتي هي أن أطرده عنك بقراءة فقرات من القرءان والأوراد ومن ثم أطرده بالبصق مما سيوقف الشر الذي أصابك به في رأسك!». ورغم ضيقي إلا أنني لم أتمالك نفسي من الضحك وقلت له «يعني هذا أن الشيطان قد مسني. لكنني أظن أنه شيطان صغير وأنك طردته بالفعل عني». لم أسمح له بالطبع ليجربني مرة ثانية لذا ودعته بعد أن نقدته ريالاً كتعويض له وغادرنا وهو يستمطر بركات السماء لتنزل علي رأسي، والذي لازال الصداع يتملكه.

ولما لم تصلني أي أخبار عن هارون، فقد مكثت في فراشي طيلة اليوم حيث زارني صديقاي كاتونق وجبر الله عدة مرات. وبينما عرض علي الأول جواده، والذي رفضت

قبوله منه، عرض علي الثاني إحدي فتياته الخادمات قائلاً: «إنها صغيرة حسناء وقد نالت تربية ممتازة في منزلي وهي تعرف إعداد الطعام البلدي وتجيد الأعمال المنزلية إضافة لكونها ممتازة في التمريض وتعرف تماماً كل علل وأمراض المنطقة». لكنني وجدت نفسي مضطراً لرفض هذه المنحة الكريمة فغادر جبر الله منزلي حزيناً منكسر الخاطر من جراء فشله معي. ولم يكن رفضى هذا، بعد التجربة الأليمة مع ذلك الطبيب، إلا لأنني لم أكن عازماً هذه المرة لوضع نفسي تحت تصرف آنسة حسناء أو لمراحمها مهما كانت براعتها في التمريض.

ونهضت صبيحة اليوم التالي في أتم عافية. وعندما قابلت أحمد وأخبرته باستعادة صحتي أجابني في الحال «بالطبع كنت أعرف إنك ستتعافي تماماً إذ أن عيسي (إسم طبيبي) لم يحدث أن وضع يده علي أي شخص إلا وشفاه!».

ومضي يوم آخر بدون خبر عن هارون. وفي ظهيرة اليوم التالي عاد أحد رسل جبرالله وأفادنا بأن هارون قد حشد رجاله لكنه لم يغادر بعد مقره الصيفي في الجبال. وفي اليوم الرابع من وصولنا لبيرقوي جاءنا رسول ثاني وأفاد بأن السلطان هارون، بعد أن سمع من الأهالي بأنني غادرت داراً متوجهاً لبيرقوي بنية محاربته، قام علي الفور بتسريح رجاله والذين تفرقوا أشتاتاً بجبال مرة.

أصابتني خيبة الأمل لهذا الفشل الأول لي وعدت كسيف البال إلي داراً حيث وجدت أن الدكتور زيربوخن قد غادرها تاركاً لي خطاباً يتمني لي فيه كل النجاح. وجدت أيضاً أن الكاتب العربي الذي رافقني منذ أن كنت مفتشاً مالياً والذي حضر معي إلي داراً وخلفته ورائي عند غيابي قد أصابه الجنون ووضعوه في دار مجاورة لمنزلي. وعندما توجهت لزيارته نهض لمعانقتي وهو يصيح: « الحمد لله! لم يقم السلطان هارون بايذائك. لكن زقل بك رجل خائن وعليك الإحتراس منه لذا أمرت بايقاد النيران في محركات القطار الذي سيأخذك إلي أوروبا حتي تشاهد أقاربك مرة أخري وسأذهب معك ولكن علينا الاحتراس من زقل فأنه رجل وغد!».

كان من الواضح أن الرجل فقد عقله رغم أن المجانين أحياناً ينطقون بالحقيقة. قمت بتهدئة الرجل العجوز المسكين حتي رقد واستمع لصوت صافرة القطار مؤذنة بالرحيل ثم تركته في عناية الخدم وخرجت. وبعد خمسة أيام رنت صافرة القطار وحمل الرجل المسكين إلي مقره الأبدي وأظن أن موته كان بسبب نزيف في المخ.

شرعت الآن في تدبير الشئون الإدارية لمديرية دارا. وبعد حوالي شهر من عودتي لها تسلمت خطاباً بالفرنسية من مسدالية بك يخبرني فيه بأنه قرر وضع نهاية لهارون ومن ثم أمرني بالتحرك سراً عن طريق منواشي وكوبي بصحبة قسم من الجنود النظاميين باتجاه جبل مرة لمهاجمة نيورني معقل السلطان. وفي نفس الوقت - كما كتب لي - فأنه كان قد أرسل قوة من الفاشر، عن طريق طرة، ومن كلكل عن طريق أبو حراز لتلتقي بي في مكان معين ومن ثم نتعاون سويا علي الهجوم..

استجابة للأمر غادرت دارا ومعي ٢٢٠ من الجنود النظاميين وستين من الباذنجر وسرنا عبر منواشي حتي نيورني، معقل السلطان القوي، لنجدها قد أخليت. وفي صبيحة اليوم التالي توجهت مع قسم من جنودي بحثاً عن هارون. لكنني لم أذهب لأكثر من بضع دقائق حتي سمعت إطلاقا للنيران من جهة نيورني. ركضت جوادي عائداً للخلف حيث وجدت القسم الذي تركته ورائي من الجنود مشتبكاً بضراوة مع قوة معادية سرعان ما عرفت بأنها من القوات التي أرسلت لمساعدتي من الفاشر والتي فشلت في الوصول في الوقت المناسب للمكان المتفق عليه وعندما توجهوا نحو نيورني ووجدوها محتلة قاموا بفتح النار من غير أن يدركوا بأنهم ما كانوا يطلقونها إلا علي قوات صديقة.

أوقفت إطلاق النيران بعد مشقة وبعد أن فقدنا سبعة من القتلي وأحد عشر جريحاً وبعد أن اخترقت رصاصة سترتي وأصيب جوادي بجرحين مختلفين.

مكثنا عشرة أيام في نيورني حيث عزمت بعدها علي الرجوع بعد أن فشلت في تلقي أي أخبار حقيقية عن تحركات هارون. وأثناء رجوعنا مررنا بعدة قري أخذ سكانها علي غرة حيث لم يتوقعوا مجيئنا لهم من الغرب. كان معظم رجالهم قد جمعوا بواسطة هارون بينما هرب من استطاع منهم إلي الجبال. أما رجالي فقد أسروا نحو ثلاثين إمرأة

أخذناهن معنا لمسافة قصيرة. وفي إحدي القري فوجئ السكان بنا حتي أن قليلاً منهم من وجد الوقت للفرار. وعندما وجدت أن من بقي منهم كان من النساء فقط أصدرت أمري بالتوقف حتي أعطيهن الفرصة للإبتعاد عنا.

ومن ثم أمرت جنودي للاصطفاف علي الطريق حتي أمنعهم من التفرق في أنحاء القرية وبهذا الوضع استأنفنا سيرنا.

لاحظت أن إحدي النساء، وفي أثناء محاولتها الهرب، قد تركت طفليها علي ظهر صخرة بينما فرت هي كالغزال نحو جانب الجبل. وعندما توجهت نحو الصخرة وجدت طفلين حلوين عاريين تماماً ما عدا من حلقة من الودع تحيط بخصورهم وأعناقهم. كانوا سوداً كالغربان وربما كانا توأمين في شهرهما الثامن عشر. ترجلت عن جوادي وذهبت إليهم فأخذوا في الصراخ والتعلق ببعضهم البعض. أخذتهم بين ذراعي وطلبت من خادمي إحضار بعض السُكَّر من حقيبة سفري وهذا ما هدأ من روعهم في الحال وشرعوا في الابتسام وسط دموعهم والتهموا، ما بدأ لهم بأنه ألذ شئ ذاقوه في حياتهم الصغيرة. بعدها تناولت منديلين أحمرين (كنت أحمل معي مثلها كثيراً لأقدمها كهدايا) وقمت بلف الطفلين بهم وأرقدتهم علي الصخرة مرة أخري.

وعندما التفت ورائي رأيت شبحاً يبدو أنه الأم متسللاً من بين الصخور ثم بفرح طاغي تناولت صغارها، والذين ظنت أنها فقدتهم للأبد، وأخذت تهدهدهم بحنان وحب عارمين بعد أن استعادت كنزيها العاريين بعد أن اكتسيا بثياب جميلة وأخذا يلعقان شفاههما الصغيرة السوداء اللزجة من جراء وجبتهما من السكر.

بعد بضعة أيام من هذا الحدث الصغير وبينما كنا لانزال علي مسافة من دارا وصلتني إفادة بأن هارون قد نزل فجأة من الجبال - أثناء غيابي - وقام بسلب المدينة ومن ثم عاد مرة أخري الي الجبل محملاً بأكداس الغنائم وبالعديد من النساء الأسري. وبعد أن تأكدت أنه لايبعد كثيراً عنا، وبعد تجنيدي لبعض الأدلة من الجوار، شرعت فوراً في المطاردة.

لكنه عندما كان علي مسافة يومين جنوب غربي الفاشر عاد بقواته ثانية، غير مشتبه في أنه كان مطارداً. وقد نجحت في الاقتراب منه بدون أن يكتشفني أحد، وهبطت وجنودي

عليهم فجأة ومزقناهم شر ممزق وإستوليت علي كمية ضخمة من السلاح إضافة لتحرير كل الأسري من النساء. وقد أصيب جواد هارون من تحته برصاصة لكنه، مع القليل من أتباعه، تمكن من الهروب ليقع بعد بضعة أيام في قبضة جيش كلكل بقيادة النور عنقرة. وبموته تراجعت الثورة بسرعة وماتت، وعاد السلام مرة أخري للمنطقة.

وأثناء رجوعي إلي دارا تسلمت خطاباً من جسي باشا، أرسله من بحر الغزال يفيدني فيه بأن الدكتور ر. و . فلكن والأب س. ت. ولسون، من جمعية الارسالية التبشيرية الانجليزية، في طريقهم من يوغندا إلي الخرطوم عن طريق دارا. وأن بصحبتهم عدداً من المبعوثين من الواجاندا، أرسلهم الملك موتيسا إلي جلاله ملكة انجلترا. ورجاني جيسي لمد كافة يد المساعدة لهم في رحلتهم وأنهم توجهوا لدارا في اليوم الذي كتب فيه خطابه. وبالفعل وصلوا دارا بعد بضعة أيام واستمتعت كثيراً باقامتهم التي لم تدم طويلاً معي.

كل ما قالوه لي كان مثيراً للغاية واستطعت أنا أيضاً أن أمدهم بآخر الأنباء عن أوروبا، والتي كانت جديدة بالنسبة لهم رغم مرور عدة أشهر علي وقوعها.

وذات صباح أخبروني بما أدهشني وسلاني حقاً وهو أن مجرد رؤية الجمال أصابت مبعوثي موتيسا بالهلع فلاذوا بالفرار. لذا قلت للدكتور فلكن: «إن عليك أن تكمل بقية رحلتك علي ظهر الإبل لذا فأن من المستحسن أن يتعود رجالك عليها. فاذا ماجمعتهم لي فسأقوم باحضار جمال واضع شجاعتهم علي المحك». ثم غادرني فلكن بينما أرسلت لإحضار جمل يعود لأحد التجار يمتاز بالضخامة وسمين جداً. في هذه الأثناء حضر المبعوثون وبقية الوفد. ولما خرج الجمل عليهم فجأة من وراء أحد الأركان أصابهم الهلع الشديد ولاذوا بالفرار مذعورين. لم يوقفهم عن إطلاق سيقانهم بأقصي ما يمكنها حملهم إلا رؤيتي والدكتور فلكن وعلي ملامحنا عدم الإكتراث أو الخوف. وأوضح لهم الدكتور فلكن بأن الجمل حيوان وديع صبور وأن عليهم قطع باقي الطريق لمصر علي ظهره وأنه لا يوجد سبب لديهم للخوف منه. رغم ذلك فقد وقفوا علي بعد من الجمل، وحينها طلبت من خادمي أن يمتطيه وأن ينهض به ثم ينيخه مما أصابهم بالدهشة البالغة. وأخيراً وبعد لأي تطوع أشجعهم لركوبه واقترب منه بحذر بعد أن ساعدناه علي الجلوس علي السرج. ولما

نهض له الجمل بسلام نظر إلي رفاقه من عليائه وبابتسامة عريضة شرع في محاضرتهم عن لذة ركوب الجمال. وكان واضحاً أنه دعاهم لمشاركته هذه البهجة إذ أن زملاءه، وبدون إنذار أو تردد، اندفعوا نحو الحيوان المسكين جميعاً وأحاطوا به وحاول بعضهم أن يمتطيه من الرقبة والبعض الآخر من الذيل بينما تعلق نصف دستة منهم بحمالات السرج. وللوهلة الأولي بدأ أن الجمل قد أصيب بالذهول لهذه الهجمة المفاجئة ولكنه عند إستعادته لحضور ذهنه أخذ ينفض جسمه في جميع الاتجاهات وحرر نفسه في لحظات من جميع الواجنديين، حتي الذين وجدوا الشجاعة للتعلق به. ولا أظن أنني طوال حياتي قد ضحكت بمثل هذه المرة فقد كان من الواضح أن هؤلاء الرجال ظنوا الجمل جبلاً راسخاً لذا فقد صدموا عندما بدأ الجبل في الإنتفاض وبالتالي لم يحاولوا الاقتراب منه لفترة طويلة بعد ذلك. وفي النهاية بدأ واحد منهم ثم تلاه ثان بجمع شجاعته ليركب. وعندما حان أوان الرحيل عن دارا كانوا جميعهم قد تمرسوا علي هذا الفن الجديد: فن ركوب الجمال!

كان لدي بالمنزل العديد من الصبيان الذين حررناهم من تجار العبيد. ولما لم يكن لدي الدكتور فلكن أي خادم يقوم بشئونه الشخصية فقد اقترحت عليه أن يأخذ واحداً منهم معه. وافق علي عرضي بسرور ولذا سلمته غلاماً نابهاً من الفرتيت إسمه كبسون ووافق الدكتور علي أخذه وتربيته بأوروبا. وبعد عامين ونصف تسلمت، عندما كنت في الفاشر، خطاباً بالانجليزية كتبه كبسون الصغير يشكرني لسماحي له بالذهاب مع الدكتور فلكن «إلي بلاد كل شخص فيها طيب للغاية وعطوف» وقال لي أنه إعتنق الديانة المسيحية وأنه أسعد ولد في العالم كما أرسل لي أيضاً صورة له بالملابس الافرنجيه.

حان وقت السفر لصديقي الاثنين، وبأسرع مما كنت أظن، لكنهم كانوا في عجلة من أمرهم. ومن ثم امتطوا الإبل متوجهين نحو الخرطوم عن طريق الطويشة.

وفي وقت لاحق تسلمت خطاباً من مسدلية يخبرني انه في طريقه للخرطوم للقاء زوجته. وما أن وصل إلي هناك حتي دخل في مصاعب مع السلطات ومن ثم استغنوا عن خدماته وتم تعيين علي بك شريف ليحل محله كحاكم عام لدارفور بدلاً عن وظيفته السابقة كحاكم عام لكردفان.

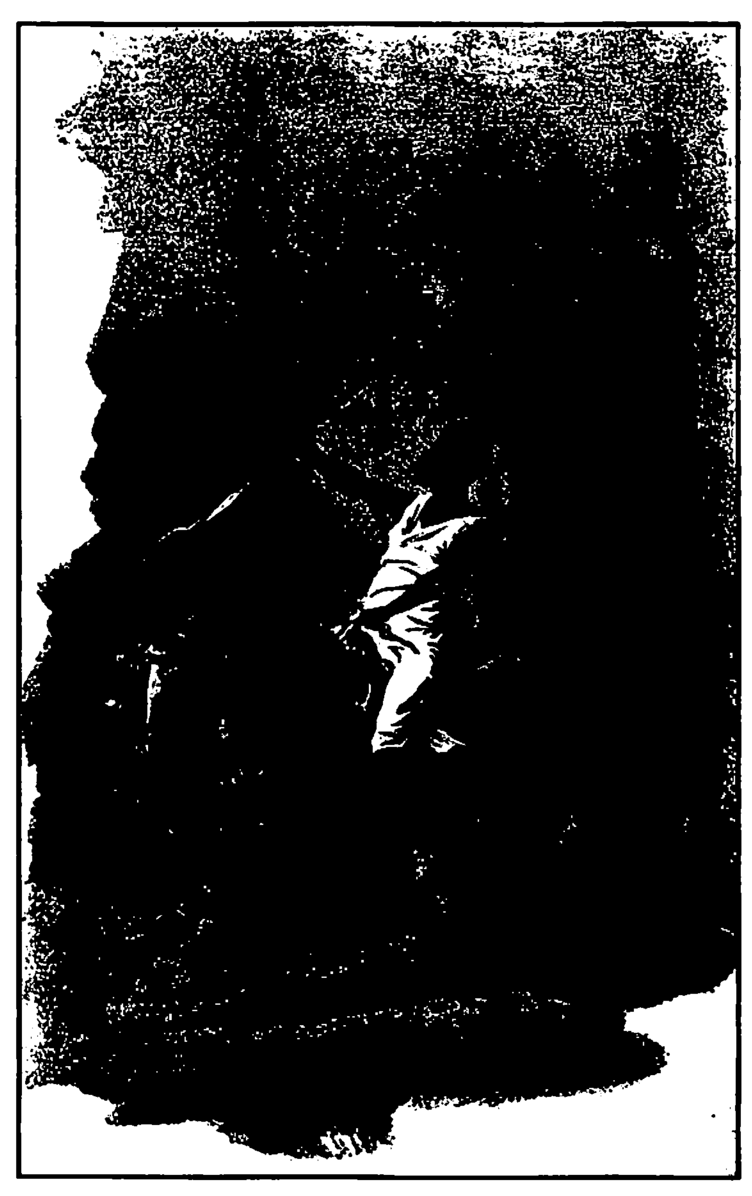
وبنهاية عام ١٨٧٩م أو أوائل عام ١٨٨٠ تسلمت خطاباً من الجنرال غردون كتبه، بالفرنسية، قبل حوالي شهرين، من مكان بالقرب من دبرا تابور في الحبشة. ورغم أن هذا الخطاب قد دمر قبل عدة سنوات إلا أنني لا أزال متذكراً ما جاء به بالضبط وكما يلي:

«عزيزي سلاطين

بعد انتهاء مهمتي مع الملك جون، أردت العودة بنفس الطريق الذي جئت منه. ولكنني عندما اقتربت من القلابات فوجئت ببعض من رجال الراس عدل، والذين أرغموني علي الرجوع، وسيأخذونني تحت الحراسة إلي كسلا ومنها إلي مصوع. لقد قمت باحراق كل المستندات التي يخشي منها. أما الملك جون فسيصاب حتماً بخيبة الأمل عندما يعرف أنه ليس سيد بيته.

صديقك

ش. غردون»



A Rizighat Warrior.

فارس من الرزيقات

الباب الثالث

حكومة دارفور

«الادارة الحكومية في دارا - زيارتي للخرطوم - وصول جيسي للخرطوم - رجوعي للغرب مع المطران كمبوني والأب أورفالدر - تعييني حاكما عاماً لدارفور - العداء بين الماهرية وعرب البديات - توجهي لمناطق البييات - العادات والسلوك الغريب للبديات - صالح دنكوسة وشجرة الهجليج - مراسم القسم للتحلي بالإخلاص - عودتي للفاشر - مصاعب في شكا وموت إميلياني - توجهي نحو دارا».

سأتجاوز الآن أحداث عام ١٨٨٠م والتي كانت هادئة لحد كبير في إقليم دارا. خلال تلك الفترة شغلت نفسي بالشئون الإدارية للمديرية وزرت بنفسي كل قرية تقريباً وتعرفت علي كل القبائل العربية القوية والتي كانت دائماً علي شفا الحرب بين بعضها البعض والتي كنت كثيراً ما أتوسط بينهم.

وقرب نهاية عام ١٨٨٠م كانت لدي الكثير من المسائل الهامة التي تستدعي مناقشتها مع الحاكم العام ومن ثم تقدمت بطلب للإذن لي بالذهاب للخرطوم ومقابلة رؤوف باشا، والذي خلف غردون باشا عند رحيله من السودان. تمت الإستجابة لطلبي. وفي أوائل عام ١٨٨١م بارحت دارا حيث وصلت للخرطوم بعد اسبوعين.

وهنا التقيت بزيربوخن الذي رحب بي بحرارة وأخذني ضيفاً معه الي منزل بجوار الإرسالية الرومانية الكاثوليكية كان ملكاً للمرحوم لطيف ديبونو المالطي، تاجر الرقيق المشهور.

وأثناء إقامتي بالخرطوم تحادثت كثيراً مع رؤوف باشا عن احوال ولايتي وأوصيت بأن تكون الضرائب التي ستوضع علي الفاشر وكبكابية أكثر رحمة وعدلاً. طلبت منه ايضاً السماح لي بطلب عدد من العبيد الشبان سنوياً، من القبائل العربية، حتي أتمكن من تكوين كتيبة منهم تحل محل الموتي أو المرضي والمصابين من الجنود العاملين معي. كما

اقترحت عليه السماح للعرب لدفع ما عليهم من استحقاقات عبيد أ* بدلاً عن الماشية. ومن هنا سأتمكن حتماً من كسب ولاء البازنجر الذين كانوا في خدمة سليمان الزبير، والذين تشتتوا وسط القبائل، والذين كانت معرفتهم بأستخدام الأسلحة النارية، في نظري، مصدراً دائماً للخطر علي الحكومة. وقد وافق رؤوف باشا علي كل ما طلبته منه وسلمني أوامر مكتوبة بهذا الخصوص.

وعندما كنت بالخرطوم اتصل بي مواطن دارفوري هو حسن ود سعد النور، والذي كان والده قد قتل مع الوزير أحمد شطة في شكا، ورجاني التوسط للسماح له بالعودة لموطنه. وعندما قابلت رؤوف باشا بعد فترة قصيرة رجوته بالإستجابة لطلبه وقام فعلاً بأصدار التعليمات للمسئولين بذلك. لكنه بعد بضعة أيام، أستدعاني وأوضح لي أنه بعد قيامه بالمزيد من التحري فقد قرر إلغاء موافقته علي إخلاء سبيل النور. أوضحت له أن الرجل لم يقم بأكثر مما قام به الآخرون أثناء الثورة وأنه لم يعد بأمكانه بعد الآن القيام بأي نشاط ضار. لكن رؤوف باشا صمم علي رأيه مما دفعني للرد عليه بحدة بأنني أعطيت الرجل كلمة شرف وأنه سيعود معي وما علي الباشا الآن إلا أن يوافق علي اطلاق سراحه للذهاب أو إن يفصلني من الخدمة ومن ثم ودعته وذهبت في سبيلي. وبعد يومين أرسل لي وأخبرني بأنني أخطأت باعطاء النور ذلك الوعد وبدون روية فاعترفت بأنني تسرعت بالفعل ثم، لدهشتي، أعلمني بأنه قد راجع الموضوع برمته وقرر التصديق للنور بالرجوع. أما بالنسبة لي فأنه يعتقد بأنني عنيد ولكن كموظف فأنني كفء لعملي. ولهذا السبب فقد التمس من فخامة الخديوي محمد توفيق باشا تعييني في منصب مدير عام دارفور مصحوباً برتبة البكوية. شكرته لبالغ عطفه علي وأكدت له بأنني سأبذل قصاري جهدي لأفي بحقه علي وثقته فيني.

بعد ذلك طلب مني رؤوف باشا إعطاءه ضماناً كتابياً بمسئوليتي عن حسن سلوك النور في المستقبل وهو الأمر الذي فعلته بسرور لأنني كنت واثقاً من أن الرجل، وبعد كل

* وشهد شاهد من أهلهم (المعرب).

المصاعب التي تجشمتها في سبيله، سيبرهن علي تمام إخلاصه وولائه. وعندما عدت لمنزلي أرسلت لاستدعاء النور الذي كان قد أمضي ليلتين في قلق بالغ من أن يرفض طلبه للعودة. وعندما أبلغته بالخبر السار سقط علي قدمي وأخذ يمطرني بعبارات الشكر والعرفان العميقين. أحسست وقتها أنه رجل شريف وأن بإمكاني أن أعتمد عليه لكنني لم أكن أدري وقتها بأنني ما إحتضنت إلا الثعبان نفسه.

إنتهت إقامتي في الخرطوم بسرعة وأنا في صحبة أصدقائي. وكان قد وصل إلينا من القاهرة المطران كمبوني والأباء أو رفالدر ودختل قرب نهاية يناير ١٨٨١م، إضافة إلي مدير مصلحة المالية حسن باشا وبساطي بك والقنصل هانزل وآخرين. نزل معي أورفالدر ودختل، وكم تحدثنا طويلاً وسوياً عن وطننا المحبوب.

وفي الخامس والعشرين من يناير ١٨٨١م وصل إلي الخرطوم الإيطالي جيسي وهو في غاية المرض. فقد عاني أثناء رحلته من مشرع الرق من تطويق السدود (كتل من الأعشاب والنباتات الطافية في النيل) له والتي كان علي المسافرين أن يقوموا بقطعها بفئوسهم حتي تتيسر لهم الملاحة. ولمدة تزيد علي الثلاثة اشهر قاسي الأمرين ليشق طريقه خلالها وحاصرهم أثناء ذلك المرض والمجاعة هو ورجاله ولدرجة يصعب وصفها. ثم فقد معظم رجاله وبحارته، وبدأوا يأكلون لحوم بعضهم البعض، حتي انتشلهم مارنو من هذه المحنة بعد لأي، وأخذهم علي ظهر الباخرة بوردين وأوصلهم للخرطوم، حيث قامت الأخوات المبشرات بالعناية به وتمريضه رغم الصدمة الرهيبة التي أصابت أجهزة جسمه والتي لم يتمكن بعدها من إستعادة قواه رغم العناية الفائقة التي بذلها الدكتور زيربوخن. وأخيراً تقررت محاولة إرساله لمصر واتخذنا كافة التدابير لتوفير كافة سبل الراحة له أثناء رحلته. لكنه كان مصراً علي أن يصطحب معه خادمه الخصي ألمظ رغم تخوف رؤوف باشا من الفضيحة التي سيخلقها سفر هذا الخصي معه، وما قد يتبع ذلك من إنتقادات لحكومته، وأصر علي رفضه طويلا. لكنه رضخ للأمر تحت الحاح زيربوخن وشخصي ووافق علي سفره. وفي الحادي عشر من مارس حملنا المسكين جيسي علي نقالة إلي ذهبية الحاكم

والتي قادته مبحرة إلي بربر ومن هناك تم ترحيله إلي سواكن التي وصلها في العاشر من أبريل ١٨٨١م ومنها حمل الي سفينة أوصلته للسويس يوم ٢٨ وهو في حالة من الضعف لا يستطيع معها الحراك. ومن هناك نقل الي المستشفي الفرنسي والتي مات فيها بعد يومين من وصوله.

في هذه الأثناء لم تكن الأمور تسير علي مايرام في دارفور وكتب لي زقل بك شاكياً من سوء تصرفات عمر ود ترحو في شكا. أطلعت رؤوف باشا علي التقرير والذي أبرق بضرورة عودة المذكور فوراً إلي الفاشر.

ولما لم يعد لي ما يبقيني أكثر من ذلك فقد قررت العودة للفاشر وإستلام مهامي الجديدة بأسرع ما يمكن. ووضع رؤوف باشا باخرة تحت تصرفي حيث غادرت الخرطوم في التاسع والعشرين من مارس وبصحبتي المطران كمبوني والأب أورفالدر والذان وعدتهما بترحيلها حتي الأبيض بجمالي.

وسافر معنا مودعاً القنصل هانزل وماركوبولي بك وزير بوخن وماركي ورافقونا علي الباخرة حتي الترعة الخضراء حيث ودعونا راجعين. ولم يخطر ببالي بتاتاً أنني لن ألتقي سوي مع واحد منهم مرة أخري وفي ظروف غاية في الغرابة ستعيدني مرة أخري لعاصمة السودان. كنت شاباً صغيراً وكانت المهام الثقيلة التي ألقيت علي عاتقي في وظيفتي الجديدة والهامة تشغل كل تفكيري وكنت ممتلئاً بالآمال العريضة عن المستقبل ولم أكن أعرف ما يخبئه القدر لي من مصير مرعب قاسي في قابل الأيام.

وصلنا الأبيض بعد خمسة أيام من السفر ومن هناك تقرر قيام المطران بجولة في جبال النوبة بينما يتخلف الأب أورفالدر في الأبيض ومنها يتحول إلي مركز الإرسالية بالدلنج بجنوب كردفان. أما أنا فمكثت في الأبيض لبضعة أيام وعندما تسلمت تلغرافاً يأمرني بالتحرك نحو فوجة قمت بوداع صديقي العزيزين. كان مسطوراً في القدر ألا ألتقي بأحدهما، المطران الطيب، مرة أخري لأنه توفي في الخرطوم في العاشر من أكتوبر ١٨٨١م. أما الآخر، وهو صديقي العزيز أورفالدر، فقد كان مسطراً عليه مثلي أن يمر

بفترة عصيبة وتجارب رهيبة قبل أن نلتقي مرة أخري كزملاء في الأسر، وفي قبضة من لم يكن معروفاً حتي الان، وهو المهدي، الذي سيتمكن بعد قليل من تحطيم أي أثر للسلطة الحكومية في السودان.

غادرت الأبيض وتوجهت مسرعاً إلي دارا ومنها إلي الفاشر التي وصلتها في العشرين من أبريل. وجدت الادارة الحكومية فيها في حالة عارمة من الفوضي ولم أتمكن إلا بعد بضعة أشهر من إعادة شئ من النظام والقانون في ولايتي الجديدة ولم يتم ذلك إلا بعد أن قمت بالتجوال والسفر المتواصل في انحائها والنظر في كل الأمور بنفسي مما حقق لي بعض النجاح وملأني بالتفاؤل حول المستقبل.

لم اتمكن حتي الآن من زيارة الجزء الشمالي الغربي للمديرية ولما وصلتني أنباء عن الصراع بين عرب الماهرية والبديات وجدت زريعة للقيام برحلة لتلك الأصقاع المجهولة. وحوالي منتصف ديسمبر ١٨٨١م غادرت الفاشر بصحبة مئتين من المشاة وبعض القوات غير النظامية من الشايقية الخيالة بقيادة عمر ودترحو.

في الليلة الأولي بعد مغادرتنا للفاشر عسكرنا بالقرب من آبار الميدوب، في منتصف الطريق إلي كوبي، وعندما حل الظلام أخذت في التجول باتجاه الآبار ومعي أحد المرافقين. كنت مرتدياً نفس ملابس الجنود وكان الظلام شديداً لايتيح لأي شخص التعرف علي. إقتربت من الآبار وأخذت في مراقبة النسوة وهن ينتشلن الماء من الآبار. كان بعض الشايقية قد جاء أيضاً لسقاية خيولهم وطلبوا من النسوة إعطاءهم الدلاء لكنهم رفضن إلا بعد أن يملأن جرارهن. لكن أحد الشايقية رد عليهن قائلاً: « ما إجابتكن إلا عقاب أرسله الله. وهذا هو جزاء الحرية التي أتحناها لكن. والله لو لا ذلك ولو لا وجود سلاطين معنا لكنتن وجراركن ملكاً لنا ». أفحمته المرأة قائلة: « أطال الله عمره! ». هرولت بعيداً عنهن وبهدوء وقد غمرني السرور لسماعي بأم أذني اعترافاً من أفواه السودانيين بأنهم شاكرون للأوروبيين لتخليصهم من الطغيان والعنف الذان كانا من سمات النظام الحكومي في هذا البلد. وعندما تجاوزنا كبكابية بنصف يوم لحق بنا بعض الرسل الراكبين، الذين أرسلهم

أدم عمر برسالة مشفرة بالفرنسية من ماركوبولي بك وبأسم الحاكم العام، أرسلها لي في فوجة ومنها أرسلوها إلي كبكابية عن طريق الفاشر. جاء في الرسالة ما يلي: «قام درويش يدعي محمد أحمد. وبدون مبرر عادل، بمهاجمة راشد بك بالقرب من قدير. وقد تم استئصال راشد بك وقواته تماماً. هذه الثورة خطيرة للغاية. عليك إتخاذ التدابير لمنع الناقمين علي الحكومة في مديريتك من الإنضمام لهذا الدرويش». أجبتهم في الحال برسالة كما يلي: « وصلت رسالتكم وسأقوم بأتخاذ كافة التدابير لتنفيذ أوامركم».

وكنت منذ فترة سابقة قد علمت بصفة شخصية بأن أحد شيوخ الدين قد بدأ يسبب المتاعب للحكومة عندما أخذ في استنفار المواطنين لمقاومة السلطات. ولما كنت علي غير علم بهذا الأمر بصفة رسمية فقد توقعت أن يكون الأمر قد تم حسمه تماماً. أما الآن، وبعد تدمير المدير راشد بك وجنوده، فأن هذا الأمر بات واضحاً أنه في غاية الخطورة والأهمية إذ لابد أن تكون هذه الحركة قد إتخذت، وبسرعة، أبعاداً كبيرة ولكن: من كان يحلم بأن نتائجها ستكون واسعة وفي غاية الفظاعة كما سنري!

لكنني كنت قد شرعت في مهمتي الحالية وبالتالي لا استطيع أن أتوقف عن مواصلتها بدون أن يثير ذلك شكوكاً وريبة. لذا صممت علي أن أتوصل لتسوية ناجحة وبدون إضاعة أي وقت.

ومن الحقائق الغريبة أن البديات، وبالرغم من وجودهم في قلب القبائل والدول المسلمة إلا أنهم قد يكونون القبيلة الوحيدة في هذا الجزء من وسط افريقيا التي لازالت تعتنق عاداتها الوثنية القديمة. وإذا ما سئل رؤساءهم بواسطة المسلمين أن يرددوا الشهادة فأنهم يقولون « لا إلا إلا الله، محمد رسول الله». أما ما دون ذلك من الشعائر الإسلامية فإنهم لايعرفون عنها شيئاً ويجهلون تماماً تعاليم القرآن ولايصلون أبداً كالمسلمين.

فتحت فروع غزيرة لشجرة هجليج عملاقة، وفي بقعة شديدة النظافة مغطاة بالرمل الناعم، يتضرع البديات لإله مجهول حتي يلهمهم في معاملاتهم ويحميهم من الخطر والكوارث، كمالهم أيضاً أعياد دينية وفي مواقيت غير محددة وذلك عندما يصعدون علي

الجبال حتي يصلوا لأعلي القمم المطلية بالجير الأبيض ثم يقدمون قرابينهم من المواشي. والبديات جنس رقيق قوي البنية لهم لون فاحم ومعالم واضحة مستقيمة وأنوف رقيقة وفم دقيق. ويشبهون العرب أكثر مما يشبهون الزنوج. وتشتهر نساؤهم بالشعر الطويل المتموج، وبينهن نسوة صارخات الجمال مثلما نجد مثلهن وسط القبائل العربية الحرة. وهم يلبسون عموماً جلود الحيوانات التي يلفونها حول الخصور والأصلاب. أما الطبقة العليا منهم ونساؤهم فيرتدون عباءات طويلة فضفاضة مصنوعة من أقمشة دارفور القطنية. أما طعامهم فبسيط. ولأن الذرة لا تزرع عندهم، وربما لايعرفونها البتة، فإنهم يجمعون بذور القرعيات البرية، والتي تنمو في بلادهم بغزارة، ويغمرونها في جرار من لحاء الاشجار مليئة بالماء ويتركونها حتي تزول مرارتها ثم يصفون الماء ويقشرونها ويعجنون اللب مع البلح ويطحنون الخليط بشكل دقيق يطبخونه مع اللحم. ومن ثم تشكل هذه الوجبة الطعام الرئيسي هم.

ولهم أيضاً عادات وتقاليد غريبة فيما يتعلق بالمواريث وانتقال السلطة. تقع مقابرهم علي مسافة من القري وعندما يموت الأب يقوم كافة أقربائه بحمله للمقابر. وعند انتهاء مراسم الدفن، وبعد إستلامهم لإشارة معينة، فأنهم يندفعون جميعاً بأقصي سرعة صوب منزل الفقيد ومن يصل منهم أولاً ويغرز حربته أو نبله فيه يصبح تلقائياً المالك لكل الماشية ولنساء أبيه وغيرهن باستثناء والدته هو. وللوريث الجديد الحرية التامة ليتزوجهن أو يطلق سراحهن حسبما يشاء إذ أن عدد الحريم يتماشي مع الوضع المالي للرجل وبالتالي يزيد العدد أو ينقص حسب درجة غني أو فقر المالك.

وأخيراً، وبعد لأي، وصلنا كامو حيث أخبرنا شيخ الزغاوة صالح دنكوسة أن زعماء البديات سيصلون في اليوم التالي. وبعد التشاور معه إخترت شجرة الهجليج كمكان للإجتماع والذي تقرر أن يعقد بعد ساعة من شروق الشمس والذي سيلعب فيه الشيخ دور الوسيط بيني وبين البديات، بعدها أمرت بنقل خيامنا إلي مكان يبعد بأقل من نصف ميل من الشجرة ثم قمت في صبيحة اليوم التالي باصطفاف جنودي لإستقبال زعماء



Bedayat praying to the Sacred Tree.

أحد البديات يصلي للشجرة المقدسة

البديات، والذين أعلن الشيخ صالح الآن عن وصولهم . واستعداداً لإستقبالهم وقفت مع ضباطي والسنجك عمر ودترحو أمام صفوف الجنود بحوالي مائة ياردة وكان خدمنا يمسكون بأزمة الخيول. بعدها شاهدنا الوفد متقدماً نحونا، يقوده الشيخ صالح، وقد صالبوا أيديهم علي صدورهم وأحنوا رؤوسهم. أحضروا معهم مترجماً وعن طريقه تبادلنا التحايا الودية ثم أمرت بفرش السجاجيد علي الأرض وطلبت منهم الجلوس بينما جلست وضباطي علي كراسي الميدان القصيرة. وبعد تناولنا السكر والماء والتمر شرعنا في المباحثات.

كان شيوخ البديات الأربعة وسيمي الوجوه طوال القامة ولهم ملامح جذابة وهم في أوسط العمر وكانوا يرتدون جلاليب بيضاء طويلة، أحضرها لهم بدون شك صديقنا صالح، كما كانوا يحملون السيوف العربية المستقيمة. كانت اسماؤهم جار النبي وبوش وعمر وكروكرو لكنني لست متأكداً إن كانت تلك الأسماء العربية الرنانة هي اسماؤهم الحقيقية أم أنها استعملت فقط لهذه المناسبة.كان يرافقهم ما بين ستين إلي سبعين رجلاً يرتدون ملابس من جلود الحيوانات ووقفوا علي مسافة خلفهم بينما اتخذ الشيخ صالح مجلسه بجوار الشيوخ والمترجم. ثم خاطب محدثهم، جار النبي، المترجم بقوله: «كرسي سلام» فأجابه المترجم بقوله «سلام»، إشارة إلي أنه جاهز للقيام بالترجمة. ومن ثم بدأ الناطق بأسمهم، جار النبي، في الحديث:

« نحن ننتمي لقبيلة البديات ولقد كان أباؤنا وأجدادنا يقومون بتقديم الخراج لسلاطين دارفور كل عامين أو ثلاثة، عندما يرسلون أحد ضباطهم لاستلامها. لكنكم أنتم الأتراك، وبرغم أنكم قد أخضعتم الفور وغزوتم الإقليم لكنكم لم تطلبوا منا أبداً دفع هذه الجزية. أما أنت (سلاطين)، وكما أخبرنا صديقنا وأخانا صالح دنكوسة، فحاكم لهذا الإقليم. وكرمز لولائنا فقد أحضرنا لك عشرة من الخيول وعشرة من الإبل وأربعين بقرة. لذا نرجو منك بالتالي أن تحدد لنا قيمة الخراج الذي يتعين علينا دفعه ».

جاء دوري الآن للحديث. لذا، وبعد ترديد «كرسي سلام» قلت لهم: «إنني أشكركم لولائكم ولن أطلب منكم سوي مساهمة بسيطة تدفعونها. لكنني ما جئت إليكم خصيصاً إلا

لأطلب منكم إعادة الجمال التي سرقتموها من الماهرية وإطلاق سراح السجناء الذين أسرتموهم ». رد جار النبي بعد برهة قائلاً: « لقد كنا ومنذ أيام أجدادنا في صراع وثارات مستمرة مع مختلف القبائل العربية. فاذا حاربنا وآسرنا منهم البعض فأننا، وحسب تقاليدنا، نقبل منهم الفدية لإطلاقهم وكثيراً ما أطلقنا سراح أسري الماهرية من قبل». أشرت الي حسب الله متسائلاً عن صحة قوله هذا فاكد لي ذلك. ثم سالت الشيخ إن كان شئ من ذلك قد حدث بعد مجئ الحكم المصري أم أنه يقصد الفترة التي كان يحكمهم فيها سلاطين دارفور. فأجابني قائلاً:

«قبل غزوكم لنا، قبل عامين من ذلك ، قام الماهرية بغزو بلادنا لكننا هزمناهم وطردناهم منها وعادوا صفر اليدين» نظرت متسائلاً إلي حسب الله وعلمت من صمته أن شيخ البديات كان صادقاً لذا أجبته: «ربما كان هذا كما قلت. لكنني لم أكن وقتها حاكما للمنطقة. وأنا علي علم بأنكم قمتم في تلك الأيام بما رأيتموه صحيحا ولا ألومكم علي ذلك. لكنني الآن الحاكم المسئول عنكم وأود منكم العمل وفقاً لتعليماتي. بالتالي عليكم تسليم الأسري لديكم. ولأن الماهرية سبق وأن قاموا بمهاجمتكم لذا فأنني أصدر قراري بإحتفاظكم بنصف الجمال وإعادة النصف الآخر لهم وذلك جزاء لشجاعتكم وصدهم ومنعهم من سلبكم ونهب ممتلكاتكم» ساد صمت طويل وأخذ الشيوخ الأربعة في نقاش الأمر مع بعضهم البعض ثم تحدث جار النبي قائلاً: «سنستجيب لأوامرك ولكن الأمر قد يستغرق وقتاً طويلاً لجمع الإبل المبعثرة الآن في أنحاء المنطقة. أما الأسري فمن السهل علينا إطلاق سراحهم». رددت عليه قائلاً: «إذن إنتبه وعليكم تنفيذ هذه الأوامر بأسرع ما يمكن. وعندما يتم ذلك فسأقوم بأعفائكم من دفع خراج هذا العام حيث إنني أتفهم تماماً عدم إمكانية دفع الخراج وإعادة الإبل في نفس الوقت».

ومن الواضح أن هذه الترتيبات كانت مرضية لهم وقاموا بشكري بحرارة وبالتالي عرضت عليهم البقاء معنا حتي اليوم التالي وسيقوم صالح بالعناية بكافة متطلباتهم. ثم إمتطينا خيولنا وأصدرت الأمر لجنودي بأطلاق ثلاثة دفع من النيران الأمر الذي أصاب

البديات بالرعب لأنهم غالباً ما لم يشاهدوا أسلحة نارية من قبل. أيضاً أخبرت صالح باحضار الشيوخ أمامي صبيحة اليوم التالي، وفي نفس المكان، ومن ثم ركضت وحراسي عائدين إلي المعسكر علي ظهر خيولنا.»

شغلت نفسي بقية النهار بالتفكير في أحسن وسيلة للعودة للفاشر بدون أن اعرض نجاح ماموريتي الحالية للخطر حيث لا يمكنني الانتظار ريثما يجمع البديات أسراهم ويسلموهم. كما كنت منزعجاً بخصوص حالة قرب الماء التي جاء بها الماهرية ولمت حسب الله بعنف لتقديمه مثل هذه الأدوات الرديئة. وفي صبيحة اليوم التالي، وعندما وصل الشيوخ، سألتهم عما إذا كانوا قد أرسلوا رجالهم لجمع الأسري والجمال وعندما أجابوا بالنفي رددت عليهم بلهجة صارمة بأنه لايمكنني البقاء أكثر من ذلك حتي أري أوامري وقد نفذت. فأجابني جار النبي بقوله: «ياسيدي: إننا هنا لتنفيذ أوامرك وبامكانك العودة وسنقوم بتسليم الرجال والبهائم لصالح دنكوسة وحسب الله والذي سيبقي في ضيافته».

رددت عليه قائلاً: «لدي إقتراح آخر إذ أنني لا أشك في إخلاصكم وولائكم لكنني أتوق إلي التعرف عليكم أكثر وشخصياً. لذا أود منكم، وممن تودون مرافقتهم لكم، أن تصحبونني إلي الفاشر وأن تقوموا في نفس الوقت باخطار مناديبكم لجمع الرجال والبهائم وتسليمهم لحسب الله والذي سيبقي مع دنكوسة. وعند ما يتأكد لي في الفاشر بأن هذا قد تم فسأقوم بعدها باعادتكم إليْ بلادكم محملين بالهدايا الثمينة. إنكم لم تزوروا الفاشر من قبل وستكونون تواقين لمشاهدة رئاسة الحكومة والتعرف علي مدي قوتها وإنني علي ثقة من أنكم وصالح ستستجيبون لإقتراحي وستكونون في غاية السرور بكل ما سترونه حيت أنكم في المستقبل ستكونون علي أهبة الإستعداد للإستجابة القلبية لكل أوامري».

أجاب صالح في الحال بأنه يعتقد أن إقتراحي جيد للغاية وأنه موافق علي البقاء لأنه شاهد الفاشر من قبل. من وجوه البديات علمت أن الفكرة راقت لهم وبعد أن تباحثوا طويلاً مع بعضهم البعض قرروا اصطحابي في عودتي للفاشر. ولأنهم يعلمون بأن الاسراع في تنفيذ أوامري باعادة الأسري والجمال تعني عودتهم لديارهم فأنهم لم

يضيعوا وقتاً في اختيار أفضل رجالهم لكي يقوموا بتمثيلهم واختاروا ستة رجال لمرافقتهم ثم أعلنوا إستعدادهم للرحيل، ولكن قبل ذلك فأنهم يرغبون في تقديم قسم الولاء لي وهو الأمر الذي قبلته بسرور.

جرت حفلة القسم كما يلي: أحضروا سرج حصان ووضعوه في وسط المجلس وفوقه نصبوا وعاءاً فخارياً ضخماً ملئ بالجمر الملتهب. ثم غرسوا حربة في السرج وبعدها تقدم للأمام كبار الشيوخ ومرافقوهم وقاموا بمد أيديهم فوق الحربة والجمر المتقد وأخذوا يرددون الكلمات الآتية بوقار شديد:

«أن لاتمس رجلي السرج أبداً»

«وأن يتمزق جسمي بالحراب القاتلة»

«ولتأكلني النيران المتقدة»

«إذا ما قمت أبداً بالنكوص عن قسم الولاء لك»

وبعد هذا الإقرار المهيب زال عني أي شك في أمانة هؤلاء الناس أو في ولائهم.

وفي العصر أصدرت أوامري بالتحرك وتوجهنا نحو كامو بصحبة شيوخ البديات الأربعة ومرافقيهم، بعد أن شددت علي صالح وحسب الله علي إفادتي بدون تأخير عن تنفيذ القبيلة لتعليماتي. وحرصاً علي الوصول بسرعة للفاشر تركت الشيوخ في رعاية جنودي بعد أن طلبت من الضباط تقديم كل وسائل الراحة لهم ومن ثم أسرعت، مصطحباً عمر ود ترحو وحرسي من الشايقية، في السير نحو الفاشر. أول ما استقبلني في الفاشر كان النبأ الحزين للموت المفاجئ لاميلياني دانزجر في شكا. فقد كان يعمل ماموراً لكوبي عندما أرسلت إليه ليقوم بتمثيل الحكومة في جنوب دارفور. كان يعاني منذ سنوات من مرض القلب وهو الذي أدي لموته من النهاية وعندما مات لم يفهم موظفوه سبب هذا الموت المفاجئ وظنوا أنهم قد يتهمون بتسميمه ولذلك قاموا علي الفور باحضار الجثمان الي دارا حيث قام الصيدلي بفحص الجثة علي عجل وأكد أن الموت حدث لأسباب طبيعية. ثم دفنه في دارا وقمت فيما بعد بأقامة نصب حجري علي قبره إحياء لذكري مواطني هذا والذي مات في هذه الأرض القاصية.

بعد ذلك علمت أن بعض المشاكل قد حدثت في شكا مما يدعوني للذهاب الي دارا لبضعة أيام كما بلغتنا أيضاً إشاعات مزعجة عن الأحوال في كردفان والخرطوم. وعلي كل حال، كانت الدوائر الحكومية تعتقد بأن الثورة ستسحق بسرعة بواسطة الحملة العسكرية التي أرسلت لهذا الغرض.

ويعد بضعة أيام وصلت قواتي التي تركتها بصحبة شيوخ البديات. وحتي أعطيهم انطباعاً قوياً أصدرت أمري لكل الحامية بالخروج من ثكناتها وقمنا في المساء بإقامة عرض كبير للألعاب النارية علي شرف وصولهم . أوكلت للمدير العمل علي راحة ضيوفي الذين، لسوء حظي، لم أكن قادراً علي البقاء معهم لمدة أطول. وعندما أخذت الخيول حظاً من الراحة شرعت فوراً في التوجه نحو دارا يصحبني عمر ترحو وجنوده المئتين من الشايقية وتركت سعيد بك جمعة ورائي كقمندان وممثل للحكومة فترة غيابي.



Surrender of the Bedayat to Slatin.

إستسلام البديات لسلاطين

الباب الرابع

رواية الخليفة الشخصية عن ظهور المهدي

«السنوات الأولي لمحمد أحمد المهدي – الطرق الصوفية – محمد أحمد يتشاجر مع زعيمه الروحي – عدم منحه العفو وإنضمامه لشيخ آخر – إنضمام عبد الله التعايشي له – المهدي يخطر عبد الله سراً بمهديته – الفشل في القبض علي محمد أحمد بجزيرة أبا – هجرة المهدي إلي جبل قدير – تعيينه لخلفائه – هزيمة راشد بك ويوسف باشا الشلالي – أثر انتصارات المهدي علي كردفان – الإتصالات بين المهدي وأهالي الأبيض – خواء وفشل خطوات الحكومة لإحتواء الثورة».

أثبتت الثورة التي أوقدها من يسمون «بالدراويش» أنها ذات طبيعة غاية في الخطورة.

ولد هذا الرجل، محمد أحمد، بالقرب من جزيرة أرقو بدنقلا من أسرة فقيرة مغمورة، لكنها تدعي إنحدارها من الأشراف من سلالة النبي. لكن أحداً لم يستفسر عن حقيقة هذا الإدعاء أو يعترف به. فلقد كان معروفا عنه من ناحية عامة بأنه دنقلاوي، وكان والده فقيهاً عادياً ومعلماً دينياً، وهو الذي علمه في بواكير حياته قراءة القرءان والكتابة. وعندما كان لايزال صغيراً، أخذه والده إلي الخرطوم. لكنه توفي أثناء سفره بالقرب من كرري. وفيما بعد بني له ضريحاً عرف بقبة السيد عبد الله.

ترك محمد أحمد لشأنه فأجتهد في دراساته ووصل لمقام ديني رفيع وصار ذا حظوة مع أستاذه، الذي عمل علي تحفيظه القرءان عن ظهر قلب والذي أشرف علي إعطائه وتعليمه مبادئ الدين وعلوم الفقه أيضاً. ومن ثم سافر محمد أحمد إلي بربر وصار أحد تلاميذ الفقيه المشهور محمد الخير (الذي كان يعرف من قبل بأسم محمد الضكير) والذي أكمل له تعليمه الديني. مكث في بربر لبضع سنوات يواصل قراءاته وإطلاعه حتي أصبح، لطبيعته المتواضعة اللينة، ونكائه وحماسه الشديد للدين، من كبار المقربين لمعلميه. وعندما بلغ سن الرجولة غادر بربر صوب الخرطوم حيث أصبح من أتباع الشيخ المشهور الموقر

محمد شريف والذي كان والده نور الدايم، وجده الطيب، من كبار رموز الطريقة السمانية.

إن كلمة «الطريقة» تعني السبيل أو الدرب. ومن هنا فأن «شيخ الطريقة»تعني «الذي يقودك إلي الطريق». ومن مهام هؤلاء الشيوخ ذوي القداسة تدبيج صور من الدعاء مع بعض أحاديث الرسول يقوم المخلصون من أتباعهم بتلاوتها بعدد معين ومن ثم يتمهد الطريق أمامهم نحو الجنة والتي هي هدف كل من يؤمن بتعاليمهم. كان أولئك الشيوخ للطرق يمثلون قيادات لطوائف متعددة، يحمل كل منها إسم المؤسس الأصلي لها، مثل الختمية والقادرية والتجانية والسمانية... الخ. وكان أتباعهم يضعونهم في مقام عال من الإحترام والتوقير ويطيعونهم ويخلصون لهم. وسرعان ما أثبت محمد أحمد أنه الأكثر حماساً وولاءاً وتأييداً للطريقة السمانية وإزداد التصاقاً بشيخها، الشيخ محمد شريف، ومن ثم توجه الآن للاستقرار بالجزيرة أبا، علي النيل الأبيض بالقرب من الكوة، ومعه عدد من حيرانه المخلصين.

كانوا يكسبون عيشهم من زراعة الأرض وأيضاً من هدايا الكثيرين من المتدينين الذين كانوا يبحرون علي النيل جيئة وذهاباً. إستقر بالجزيرة أبا أيضاً، ولبضع سنوات، الخال الأكبر لمحمد أحمد، محمد شرفي، وقد تزوج الشاب الورع إبنته. أما شقيقاه محمد وحامد، والذان كانا معه أيضاً، فقد إذدهرت لهما صناعة طيبة الربح للمراكب، وقاما بدعم شقيقهم الفقيه مادياً، والذي كان قد حفر لنفسه غاراً علي ضفة النهر الطينية وصار يخلو فيه لنفسه في شبه عزلة عن الناس، وصائما عادة لأيام متتالية. ولايقطع عزلته إلا من حين لآخر حيث يتوجه لشيخه، مؤكداً له طاعته وإخلاصه.

وذات يوم قام الشيخ محمد شريف، كما هي العادة في مثل تلك المناسبات، بجمع حيرانه وأتباعه ليشاركونه الإحتفال بختان أنجاله. وسمح لضيوفه بالتمتع بالرقص والغناء كما يشاؤون ووعدهم بأنه، لما تتميز به مثل هذه المناسبات من البهجة والإنشراح، سيعفو بأسم الله عن أي خطايا قد ترتكب، وهذا مما يعارض قوانين الشريعة بالطبع لكن الفقيه الورع محمد أحمد أشار لزملائه بأن هذا الغناء والرقص واللعب ما هو إلا إعتداء علي

حرمات الله وأنه ليس في مقدور أي رجل، حتي شيخ الطريقة، أن يعفو عن تلك الخطايا.

وصلت هذه الأقوال لأسماع الشيخ محمد شريف والذي إعترض بشدة علي حجج محمد أحمد وغضب عليه غضباً شديداً وإستدعاه ليبرر له ما قاله في حقه فجاء محمد أحمد، وفي حضور كل الأتباع والفقهاء والشيوخ، في أشد حالات المسكنة والتواضع وسأله العفو. لكن الشريف ثار في وجهه وأهانه ووصفه بالخائن لقسم الولاء والإخلاص والطاعة له. ومالبث أن قام بشطب إسمه من قائمة أتباع الطريقة السمانية.

ورغم ما أصاب محمد أحمد من إهانة وإذلال، فقد توجه إلي أحد أقاربه وطلب منه وضع شعبة علي رقبته. وبعد أن تشعب ونثر الرماد علي رأسه ذهب إلي محمد شريف ثانية، مبدياً توبته الصادقة عما قاله، وتوسل إليه أن يعفو عنه. لكن الأخير رفض رفضاً باتاً إستمرار أي علاقة أخري بينهما فعاد محمد أحمد حزيناً إلي أهله بأبا. فلقد كان لإبعاده عن الطريقة التي أحبها، وبهذا الأسلوب المهين، أمراً شاقاً لايحتمل وخاصة لإنه كان يكن احتراماً وتوقيراً عظيماً للطريقة السمانية ومؤسسيها الشيخ نور الدايم والشيخ الطيب.

وبعد حين من الزمن تصادف أن كان محمد شريف بالجوار. ومرة أخري توسل إليه للعفو عنه. لكن محمد شريف صرخ في وجهه: «إبعد عني أيها الخائن! أغرب عن وجهي أيها الدنقلاوي الآثم الذي لايخاف الله والذي يتجرأ علي أستاذه وقائده! لقد أكدت صحة المثل القائل بأن الدنقلاوي شيطان مجلد بجلد إنسان! لن أغفر لك زلة لسانك أبداً لأنها أقوالك أنت التي حاولت بها زرع الشقاق وسط الناس. أغرب عن وجهي!».

وفي صمت أحني محمد أحمد رأسه وهو يستمع إلي هذه الكلمات المزلزلة ثم نهض حزيناً وغادر المكان. سالت الدموع علي خديه لكنها لم تعد دموع التوبة والندم بل دموع الحنق والغضب الذي يلهب جوفه والتي زاد من أوارها إدراكه لضعفه وقلة حيلته وعجزه من أن يقوم بفعل أي شئ لإزالة تلك الإهانة، وذلك الحط من قدره. توجه إلي محله وهو يغلي من الغضب وأعلن لجيرانه المخلصين أنباء القطيعة النهائية مع محمد شريف وأنه ينوي الآن التقدم بطلب للإلتحاق بالشيخ القرشي، الذي يسكن بجوار المسلمية، طالباً منه

قبوله في الطريقة. وكان الشيخ القرشي قد خلف الشيخ الطيب، جد محمد شريف لابيه، وكان واحداً من الشيوخ المفوضين لنشر الطريقة وتعليمها للمريدين ومن هنا إحتدمت الغيرة بينه وبين محمد شريف.

وبعد فترة وجيزة جاء رد الشيخ القرشي والذي أبدي فيه سروره بقبوله معه. وأخذ محمد أحمد ومن معه في الإستعداد للتوجه للمسلمية. وكانوا علي وشك القيام حينما جاءته رسالة من محمد شريف طالباً منه المثول أمامه ليعفو عنه ماسلف ويسمح له بمعاودة نشاطه القديم. لكن محمد أحمد رد عليه بكبرياء بأنه يشعر ببراءته تماماً من أي تهمة أو جرم، وإنه لايريد منه عفواً عنه ، وأنه لارغبة لديه للحط من قدر الشيخ أمام العالم بعقد لقاء بينه وبين «دنقلاوي زنيم».

استقبله الشيخ القرشي بأذرع مفتوحة. وسرعان ما إنتشرت في أصقاع بلاد السودان أنباء ما دار بين محمد أحمد الورع ومرشده الروحي السابق. لقد كان رفض تابع متواضع للعفو من شيخ طريقة أمراً غير مسبوق ولم يسمع عنه من قبل. كما لم يتردد محمد أحمد في الإعلان للملأ، وعلناً، بأنه لم يفارق شيخه إلا لأنه لم يعد يكن أي قدر من الاحترام لرجل يعمل ضد شرع الله. من هنا كسب تعاطف الجميع معه وصار أسمه علي كل لسان وحظي بآحترام عظيم . وحتي في دارفور البعيدة، كان ما حدث مثار لجدل ونقاش المواطنين وجعله رفضه لقبول العفو من شيخه السابق بطل الساعة. ثم استأذن شيخه الجديد في العودة للجزيرة أبأ حيث استقبل هناك العديد من الزوار من كافة الأرجاء الذين جاءوا لإلتماس البركة من هذا الرجل الورع. وبدأ الناس يحتشدون في الجزيرة بعد أن وجدوا فيه قائداً مخلصاً بلغت به الشجاعة أن يتحدي رؤساءه. وصارت الهدايا تنهال عليه، وهو بدوره يوزعها علي الفقراء مما أكسبه لقب «الزاهد».

بعد ذلك قام مع أتباعه بجولة في أنحاء كردفان، التي كانت مدنها وقراها تعج بالفقهاء المشحونين بالخرافات والجهل. ووجد معهم نجاحاً عظيماً. ثم قام بتحرير منشور وزعه علي من يثق فيهم من الأتباع المخلصين طالباً منهم، كمؤمنين صادقين، العمل مافي وسعهم

لتنقية الدين من الشوائب والأدران التي لطخته بها الحكومة الفاسدة، ولعدم الإكتراث من قبل موظفيها لتعاليم الدين الحنيف.

بعد بضعة أشهر توفي الشيخ القرشي. وسارع محمد أحمد ومن معه من الحيران والأتباع بالتوجه فوراً للمسلمية حيث قاموا ببناء قبة فوق ضريحه للذكري.

وهنا جاءه رجل هو عبد الله بن محمد من قبيلة التعايشة البقارة بجنوب غرب دارفور، وقدم نفسه لمحمد أحمد طالباً السماح له بالإنضمام للطريقة السمانية، وتمت الإستجابة لطلبه. ثم أقسم عبد الله قسم الولاء الأبدي لسيده الجديد. كان هذا الرجل هو الأكبر من بين أربعة أبناء لمحمد التقي من قسم الجبارات بقبيلة التعايشة والتي بدورها إنحدرت من « أولاد أم سرة» أما إخوته الثلاثة الآخرين فكانوا يعقوب ويوسف والسماني، كما له أخت تدعي فاطمة. كان والده علي خلاف مع أقاربه وقد صمم علي القيام للحج بكامل أسرته لمكة حيث قرر أن يستقر هناك ويقضي بقية عمره بالقرب من المكان الذي ولد فيه نبي الاسلام.

الذين عرفوا «التقي» وصفوه بأنه رجل صالح صارم في أداء واجباته الدينية، وأن له قدرات علي شفاء المرضي والمجانين بكتابة الأحجبة والتعاويذ لهم، إضافة إلي قيامه بتدريس القرءان. ومن بين أبنائه كان أصعبهم في التطويع عبد الله ويوسف فقد وجد والدهم صعوبة فائقة في تحفيظهم، ولو سوراً قليلة من القرءان تعينهم في أداء الصلوات. ومن الناحية الأخري كان يعقوب والسماني يتسمان بالطبع اللين الهادئ مثل أبيهم وكانا، نتيجة لحفظهما السور والتفسير، قادرين علي مساعدته في واجباته الدينية.

ويبدو أن عائلتهم هذه قد إنضمت للفور لمنع دخول الزبير لدارفور. وقد وصف الأخير كيف أنه، أثناء معركة شكا، قد أخذ عبد الله أسيراً وكان علي وشك إعدامه رمياً بالرصاص عندما توسط له بعض العلماء للعفو عنه. وقد فعل. أما عبد الله، وللتعبير عن عرفانه له، فقد سعي للقاء الزبير سراً وحدثه عن رؤيا جاء فيها أن الزبير ما هو إلا المهدي

المنتظر، وأنه (عبد الله) سيكون أحد أتباعه المخلصين. وقد حكي الزبير (فيما بعد) قائلاً:

«لقد أخبرته بأنني لست بالمهدي ولكنني عندما أدركت مكر العرب، وكيف أنهم قطعوا الطرق، جئت لأفتحها ولأؤمن التجارة».

وعندما عقد الزبير الصلح غادر التقي وعائلته الديار وتوجهوا عن طريق الكلكة إلي شكا حيث مكثوا هناك لعامين ومن ثم بارحوها إلي دار الجمع* عن طريق دار حمر والأبيض. مكثوا ضيوفا علي زعيم الجمع الأكبر لعدة شهور ثم مالبث التقي أن توفي وتم دفنه في شركيلا علي يد عساكر أبو كلام. وكان قد أوصي إبنه الأكبر عبد الله، وهو في فراش الموت، بأن يتوجه للحاق بشيخ متدين علي النيل ويمكث معه قليلاً ثم يهاجر إلي مكة ولايعود مرة أخري لديارهم.

وإستجابة لوصية والده المحتضر قام عبد الله بترك إخوانه وشقيقته في رعاية الشيخ عساكر أبو كلام وانطلق صوب وادي النيل. وأثناء سفره سمع بما حدث من شقاق بين محمد أحمد وشيخه محمد شريف ومن ثم أجمع علي اللحاق بالأول وطلب الإذن منه للإنضمام للطريقة.

« لقد كانت رحلة مضنية لي جداً»... هكذا حدثني عبد الله بن السيد محمد خليفة المهدي (وهو إسمه الكامل) بعد بضع سنوات، وبعد حين من توليه حكم السودان. فقد كان أيامها يتحدث معي بقلب مفتوح، ولم يكن قد فقد الثقة فيني مثلما حدث فيما بعد. ففي تلك الأيام، كما سأحدثكم في حينه، كان يرسل في طلبي حيث يتحدث معي لساعات، ولا أحد معنا، وهو جالس علي عنقريبه الجميل المفروش ببرش من سعف النخيل بينما أظل أنا جالساً علي الأرض بجواره وقد قرفصت أرجلي من تحتي. وكرر عبارته: «نعم لقد كانت رحلة مضنية حقاً. ففي ذلك الوقت كان كل ما أملك عبارة عن حمار علي ظهره دبرة تمنعني من ركوبه. لكنني حملته قربة مائي وكيساً من الذرة غطيته بجلباب خشن لي من ألياف القطن وقدته أمامي. كنت في ذلك الوقت أرتدي عراقي واسع من القطن مثل باقي

* في الأصل – ويتكرر كثيراً – يذكر « دار قمر » وهذا خطأ (المترجم).

القبيلة. ألا تذكر ذلك ياعبد القادر؟ نعم تذكره. لأنك عدت من ديارنا الجميلة منذ عهد قريب. (كان معتاداً أن ينادينى دائماً بعبد القادر إلا إذا ما تصادف أن كان معنا رجل آخر يحمل نفس الإسم حيث يخاطبني بعبد القادر صلاح الدين - سلاطين).

«وحيثما توجهت، كانت ملابسي ولهجتي توشي بأنني غريب الديار. وعندما عبرت النيل كان الكثيرون يقابلونني بمثل قولهم: «عد إلي ديارك... فليس لدينا هنا ما تسرقه». لم يكن سكان النيل يحسنون الظن بنا فقد كان التجار المسافرون غرباً للزبير أو إلي بحر الغزال أو إلي ديارنا، كثيراً ما تساء معاملتهم من قبل العرب. وعندما كنت أسألهم عن مكان المهدي، الذي كان يعرف بمحمد أحمد، كانوا يحدقون في وجهي غير مصدقين قائلين:« لماذا تريد الذهاب إليه؟ إنه لن يلطخ شفتيه حتي بالاشارة لإسم قبيلتك». لكنهم لم يكونوا كلهم كذلك. فبعضهم تأخذه الشفقة بي ويرشدني. وذات مرة كنت ماراً خلال قرية وأراد سكانها إستلاب حماري مني وإدعوا أنه قد سرق منهم في العام الماضي. كان بمقدورهم ذلك لولا أن تدخل في الأمر رجل مسن يخاف الله وساعدني في مواصلة سفري.

«كنت دائماً مصدراً للسخرية والإستهزاء أثناء رحلتي الطويلة. ولو لا قيام بعض الناس، بدافع الشفقة، بأمدادي ببعض الطعام لتضورت جوعاً. وأخيراً وصلت للمسلمية حيث وجدت المهدي مشغولاً ببناء ضريح للشيخ الراحل القرشي. وعندما شاهدته نسيت تماماً كل المشاق التي عانيتها في سفري واكتفيت ببساطة بالنظر إليه وتأمله والإستماع لتعاليمه. ولعدة ساعات لم أتجرأ علي الحديث معه ثم، أخيراً، استجمعت شجاعتي وحكيت له قصتي بكلمات بسيطة، وعن حالة أخواني وأختي السيئة، ثم توسلت إليه بالله ورسوله أن يأذن لي بأن أكون أحد حواريه فأذن ومد لي يده، التي قبلتها بحرارة، ثم أقسمت بالإخلاص له طيلة حياتي. وهذا ما حافظت عليه بكل عزم حتي جاءه ملك الموت والذي سيأخذنا أيضاً يوماً ما وعلينا أن نكون دائماً جاهزين للقائه».

ثم صمت لبرهة حدق فيها في وجهي. وقلت له علي الفور. «نعم. بالطبع ياسيدي. لقد حافظت باخلاص علي العهد وقد جازاك الله القدير خير الجزاء. فأنت، الذي كنت مطروداً

محتقراً يوماً ما، قد أصبحت السيد المطلق وزعيم هذه البلاد. أما أولئك الذين أساؤا إليك في ذلك الوقت فلاشك أنهم شاكرون لك عدم انزال العقاب فوق رؤوسهم أو الانتقام منهم. ورجل قادر علي مثل ضبط النفس هذا لجدير حقاً بأن يكون خليفة الرسول».

كنت أدرك أن عبد الله يحب الثناء والإطراء وربما تجاوزت الحد في هذا المقام لكن دافعي كان في أن يواصل سرد قصته علي. ثم واصل: « عندما أخذت البيعة نادي المهدي أحد أتباعه، ويدعي علي، وقال له: (إنكم إخوة منذ هذا اليوم. ساعدوا بعضكم البعض وثقوا بالله. وعليك يا عبد الله أن تطيع أوامر أخيك».

كان علي طيباً معي وكان فقيراً مثلي. لكنه كان يقتسم معي أي طعام يرسله إليه المهدي. وأثناء ذلك النهار إنشغلنا بنقل الطوب اللازم لبناء الضريح وبالليل نمنا جنباً إلي جنب. ثم اكتملت القبة خلال شهر. وأثناء تلك الفترة استقبل المهدي مئات الزوار وانشغل بهم عني لكنني كنت أعلم بأنني قد نلت مكاناً في قلبه ومالبث أن عينني أحد حملة راياته* وعندما بارحنا المسلمية أخذ الناس يتزاحمون من حولنا لإلقاء نظرة علي المهدي، والذي كانوا ينادونه في ذلك الوقت بمحمد أحمد، وللاستماع لدروسه ولالتماس بركته.

«وهكذا توجهنا سيراً إلي الجزيرة أبا. كان حذائي قد تهرأ تماماً وإضطررت لاعطاء حماري لأحد المقدمين (رؤساء الحيران) ليحمل عليه رجلاً مريضاً. ثم وصلنا بعد جهد لمقر المهدي وبعدها شعرت بالمرض الشديد من الدوسنتاريا. أخذني أخي علي إلي كوخه الصغير، المبني من القش، والذي لايتسع بالكاد إلا لإثنين من البشر، واعتني بطعامي وكان حريصاً علي الذهاب أثناء مرضي للنهر، لإحضار ماء الوضوء لي.

«وذات مرة ذهب لإحضار الماء لكنه لم يعد لنا مرة أخري. وفي اليوم التالي علمت أن تمساحاً هجم عليه وقتله. الله يرحمه. الله يغفر له». أخذت أكرر هذه الكلمات وراء الخليفة ثم قلت له: «سيدي ما أعظم صبرك! ولهذا أثابك الله. والآن أرجو أن أسألك إن كان المهدي، أثناء مرضك، قد أعارك أي اهتمام؟». فأجابني: « لا. لقد أراد أن يختبرني. كما

---

* عندما يتوجه شيوخ الدين لمكان ما للوعظ والإرشاد، يسبقهم عاده رجال يحملون الرايات والتي كتبت عليها آيات من القرءان.

أن أحداً لم يخطره بمرضـي إلا بعد موت علي وعجزي عن مبارحة ذلك الكوخ. وذات يوم جاء لعيادتي مساء لكنني كنت عاجزاً عن النهوض لضعفي الشديد. لذا جلس بجواري وأعطاني بعض المديدة التي كانت في قرعتي قائلاً: «إشربها لأنها تنفعك. وثق بالله». ثم غادرني. وبعد قليل جاء بعض الإخوة وحملوني طبقاً لأوامره إلي كوخ مجاور لكوخه. فقد كان نفسه يسكن في تكل بسيط. ومنذ اللحظة التي شربت فيها المديدة التي ناولني لها شعرت بالتحسن. فلقد قال لي بنفسه أنها ستنفعني. والمهدي دائماً ينطق بالحق ولايكذب».

قطعت عليه سرده قائلاً: « نعم بالطبع. فالمهدي حق وهو صادق ولقد قمت أنت كخليفته بأتباع خطاه بدقة».

ثم واصل الخليفة ما انقطع من حديثه: « وفور وجودي بالقرب منه تماثلت للشفاء بسرعة لأنني كنت أراه كل يوم. فهو كان كنور عيني وراحة قلبي. كان دائماً ما يستفسر عن أحوال عائلتي، ونصحني بابقائهم في كردفان في الوقت الحالي. وكان يقول لي دائماً قبل مغادرته: « ثق بالله». بعد ذلك إعتاد أن يزورني ويحدثني علي حدة. وذات يوم وضع ثقته فيني وأفشي لي السر المقدس. فلقد إختاره الله ليكون المهدي وجلس معه النبي وسط جمع من الأنبياء والأولياء. لكنني كنت أعلم منذ وقت طويل سابق لإفشائه سر المهدية لي، ومنذ أن رأيت طلعته، بأنه رسول الله* – المهدي المنتظر– نعم. لقد كانت تلك من أسعد أيامنا ولم نكن نعير بالاً للهموم والمشاكل. والآن، يا عبد القادر، فقد تأخر الوقت ومن المستحسن أن تذهب للنوم».

فأجبته وأنا أغادر مجلسه بالتحية المعتادة: «أطال الله عمرك ومنحك القوة لتقود المؤمنين الصادقين إلى الطريق القويم " .

* هذه من تخاريف سلاطين أو من أخطاء ترجمة ونجت. فخليفة المهدي يستحيل أن يجهل أن الرسول صلي الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين وأنه لانبي بعده. (المترجم).

لقد وجد المهدي في شخص عبد الله أداة طيعة للقيام معه بتحقيق المهمة العظيمة القادمة. وربما كان من الغريب حقاً أنه لولا الشقاق مع محمد شريف لما كان للمهدي أن يصل لتلك الأهمية. لكن شهرته التي إكتسبها الآن وسط سكان الجزيرة (الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق) صعدت من آماله وشعوره بأنه مؤهل لقدر عظيم. وبدأ الآن يخطر أقرب المتصلين به بأن الوقت قد حان لتنقية الدين من الشوائب، وأن هذا هو العمل المنوط به، وأن من يرغب منهم للمشاركة فيه فليلحق به.

كان يطلق علي نفسه دائماً (العبد لله) وكان واثقاً من أنه يقوم بذلك بالهام سماوي. أما عبد الله فقد كان قادراً علي تمليكه كل المعلومات عن قبائل الغرب والتي ذكر له عنها أنها، لقوتها وشجاعتها، سترحب بأي فرصة للجهاد في سبيل دين الله ورسوله وللنصر أو الموت. ولضمان ولائهم فقد نصح محمد أحمد للقيام بجولة في أنحاء كردفان.

توجهوا أولاً لدار الجمع حيث التحقت بهم أسرة عبد الله وصارت من حلفائه المخلصين. لكنه طلب منهم عدم مبارحة الدار الآن، إذ لم يحن الوقت لذلك، وأنهم سيكونون أكثر فائدة له بقيامهم بأثارة القبائل من حولهم وشحن طاقاتهم.

ومن دار الجمع توجه نحو الأبيض حيث قام بزيارة كبار الزعماء والشيوخ من المتدينين وغيرهم وإستشف رؤاهم وأفكارهم حول الهدف العظيم الذي بدأ الآن يرسي دعائمه. وفي سرية تامة أخبر أولئك الذين تأكد من إخلاصهم بأن أمامه مهمة مقدسة تتعلق بتنقية الدين من الشوائب والأدران والتدهور التي تسبب فيها رجال الحكومة الفاسدين. وفي الأبيض أسر بالأمر لأقرب الخلصاء فيها، السيد المكي، والذي كان أكبر شيوخ الدين بها، لكنه نصحه بالتريث في الوقت الراهن وعدم إتخاذ أي خطوات إيجابية نظراً لشدة بأس الحكومة، ولأن القبائل غير متحدة وفي حالة إنقسام وتشتت لايستطيع معه القيام بالثورة. تفهم محمد أحمد الأمر بجوانبه ثم إتفقا علي تمسك المكي بالسرية التامة وعلي ألا يقوم من جانبه بأي خطوة إلي أن يبدأ محمد أحمد حركته ومن ثم التزم بالدعم الكامل له.

وبعد مغادرة الأبيض توجه إلي تقلي وتباحث مع الملك آدم أم دبالو، حاكم المنطقة، والذي استقبله استقبالاً طيباً لكنه، وبناء علي نصيحة القاضي، رفض أن يعطيه أي وعد بالدعم. بعدها عاد إلي أبا عن طريق شركيلا..

خلال تلك الجولة تمعن محمد أحمد جيداً في حالة البلاد وأيقن تماماً بأن السكان البائسين قد امتلأت روحهم بالمرارة والعداء الشديدين ضد السلطة. هؤلاء السكان، الذين كما أشرت من قبل، قد هدتهم وطأة الضرائب الثقيلة، التي لاتتناسب إطلاقاً مع مالديهم من ممتلكات دنيوية، والذين عانوا من الظلم والطغيان والقهر علي أيد جباة الضرائب المشغولين باثراء أنفسهم، والذين تغلغلوا كالآفات في أنحاء البلاد. ومن بين الجباة كان هناك عدد لابأس به من السودانيين الذين لم يضيعوا الفرصة لإثراء أنفسهم، ولوضع أقاربهم في وظائف مساعدة توصلهم إلي غايتهم تلك. وكمثال لذلك نأخذ أمر تعيين غردون للتاجر السوداني الثري ألياس كمدير عام لكردفان ومنحه لقب الباشا مما خلق حالة واسعة من الإحباط واليأس في أنحاء البلاد. نفسي الشئ يمكن أن يقال عن تعيين مساعده عبد الرحمن بانقا، التاجر الغني أيضاً بكردفان. كان كلاهما مقتدرين ويعرفان تماماً أسلوب التعامل مع الناس لكنهما لم يعملا إلا لمصالحهما الخاصة ومصالح أقربائهم. أكثر من هذا فقد تفشت روح الغيرة والحسد بين السودانيين الأخرين من ذوي الرتب العالية والذين إعتبروا أنفسهم علي قدم المساواة معهم أو أنهم قادرون ومؤهلون تماماً لملئ أياً من الوظائف العليا التي فضل بها الاخرون عليهم. من هنا فعندما قام آلياس باشا باصدار أوامره للملك آدم للقيام بدفع ما عليه من ضرائب قام الأخير علناً برفض ذلك، علي أساس أنه ينحدر من سلالة الملوك، وقال بكبرياء للموظفين الذين أرسلهم إليه ألياس باشا: « إنني أدفع قيمة البضائع التي أشتريها للتجار لكنني لا أدفع لهم الجزية». وفي نفس الوقت أرسل للأبيض مستفسراً إن كان كل الأتراك أو البيض الآخرين قد ماتوا بسبب من أن الحكومة قد صارت تعين تجاراً في الوظائف العليا، بدلاً عن تعيين رجال من ذوي الأصول السامية! وقد كان هذا هو السبب في طرد ألياس باشا وعبد الرحمن من وظائفهم الرسمية وإحلال المصريين والأتراك محلهم.

أما الأوروبيون، فقد كان هناك عدد قليل للغاية منهم. لكننا، من ناحية عامة، كنا نحظي بالإحترام والإجلال وسط السودانيين وكان الناس يحبوننا لثقتهم في قولنا. رغم ذلك فلا شك عندي إننا تسببنا في عدم قبولهم لنا. فرغم نوايانا الطيبة بين العالم فقد كنا نصدر من التعليمات والقوانين ما يخالف تماماً أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم. كما لم يكن هناك أدني شك في أن نظرتنا لمسألة الرق كانت تثير لديهم حالة عامة من عدم الارتياح. فالدين كان يسمح بالاسترقاق. ومنذ أزمان سحيقة كانت الأرض تفلح والمواشي ترعي بواسطة الرقيق. ورغم إنني لا أتردد للحظة في الإعتراف بأن إصطياد الرقيق ودفعهم بعيداً عن أوطانهم كان يتم بأفظع الوسائل وبسفك الدماء، إلا أن هذا لم يكن مما يثير إهتمام تجار الرقيق والذين كانوا، من ناحية عامة، لايسيئون معاملة أرقائهم. والآن، وبجهودنا ونشاطنا، لم نقم فقط بالعمل علي جعل تصدير الرقيق من مناطق السود أمراً مستحيلاً فحسب، بل كنا نستمع لشكاوي العبيد من أسيادهم وكنا بالتالي نطلق سراحهم.

استطاع محمد أحمد بذكاء إنتهاز فرصة كل هذا الملل والتوتر ليبدأ تحركه. وكان يدرك تماماً أن الدين هو الوسيلة الوحيدة لجمع شمل كل أولئك الساخطين وتلك القبائل المتفرقة، والتي كانت تعيش في ثارات متصلة ضد بعضها البعض، وتوحيدها.

ومن ثم أعلن بأنه المهدي المنتظر وجعل من نفسه تلقائياً شخصية تسمو علي الجميع وأمل بهذه الطريقة أن يطرد من البلاد كل هؤلاء الأتراك البغيضين والمصريين والأوروبيين. لكنه وقد رأي أن وقت هذا الاعلان الواضح لنواياه لم يحن بعد فقد إستمر في حشد المزيد من الاتباع حتي جاء وقت لم تعد فيه مهمته المقدسة سوي سر مكشوف معروف.

قبل حين من الزمن، كان الشيخ محمد شريف قد أخطر حكمدار الخرطوم، رؤوف باشا، بنوايا محمد أحمد. لكن السلطات لم تلق بالاً لأقاويله، حيث كان من المعلوم لديها نبأ الخلاف المبكر بين الشيخين، وأن هذا الأمر قد يكون نتيجة للمرارة التي يشعر بها محمد شريف تجاهه. واكتفت السلطات بقناعتها بأن محمد أحمد ما هو إلا رجل دين حاز علي ولاء الناس لما له من سمعة طاغية في الورع والتدين.

لكن الحكومة علمت الآن، من مصدر مختلف تماماً، بأن هذا الرجل يمثل خطراً داهماً علي الإستقرار العام. ومن ثم صممت علي وضع حد نهائي لهذا الأمر.

أرسل رؤوف باشا لإستدعاء محمد بك أبو السعود، والذي كان معروفاً لمحمد أحمد، وأرسله علي باخرة نيلية إلي الجزيرة أبا مع تعليمات باحضار الشيخ إلي الخرطوم. لكن أصدقاء محمد أحمد قاموا بتحذيره في الوقت المناسب وأخطروه بأنه إذا ما ذهب للخرطوم فسيتم إحتجازه هناك في غالب الأحوال بسبب مؤامرات محمد شريف ضده. وبالتالي، وعندما ظهر أبو السعود في أبا، إستقبله عبد الله ومعه أحد أشقاء محمد أحمد، ورحبا به، ثم أخذوه للشيخ، حدثه أبو السعود بالتقارير التي جاءت عنه، والتي قال إنها كاذبة، ونصحه بشدة الذهاب معه للخرطوم لتبرئة نفسه أمام ولي الأمر الحكمدار. وهنا نهض محمد أحمد غاضباً وضرب صدره بيده وصرخ في وجهه: «ماذا تقول؟ أقسم بجلال الله وعزة رسوله إنني أنا سيد هذه البلاد وأنني لن أذهب أبداً للخرطوم لتبرئة نفسي».

تراجع أبو السعود للخلف وهو يرتعد من الخوف وحاول العمل علي تهدئته بكلمات منمقة، لكن محمد أحمد، والذي كان قد دبر هذا الموقف وناقشه مع عبد الله وأخيه، واصل حديثه بحماس وعزم شديدين وحث أبا السعود علي تصديق ما قاله له.

إنصب كل اهتمام أبي السعود الآن علي سلامته الشخصية. وما أن وجد الفرصة حتي أخذ في الإنسحاب وعاد للخرطوم ليخطر الحكمدار المذهول بفشله في مهمته.

أيقن محمد أحمد الآن بأنه لم يعد لديه وقت ليضيعه، وأن مستقبله يعتمد أساساً علي ما سيقوم به وبسرعة. فلم يتردد عن الكتابة فوراً لأتباعه، بطول وعرض السودان، محرضاً لهم للنهوض ضد الحكومة، وفي نفس الوقت وجه اتباعه وخلصاءه للإستعداد من الآن فصاعداً للجهاد.

لم يخلد رؤوف باشا للراحة أو السكون. فقد تحق له بعد إستجوابه لأبي السعود أن الأمر في غاية الخطورة. من هنا صمم علي إرسال فرقتين من الجنود، كل واحدة منهما بقيادة صاغ قول، للقبض علي هذا المتعصب. ولكي يبعث الحماس فيهما وعد بترقية

الضابط الذي ينجح في القبض عليه لرتبة الصاغ الأصلية. لكن هذه الخطة لم تؤدي إلا لبث الشقاق بينهما وكانت عواقبها وخيمة للغاية فيما جري بعد ذلك. صعد الجنود، تحت القيادة العليا لأبي السعود علي ظهر الباخرة الإسماعيلية، والتي سلحت بمدفع، ثم بارحوا الخرطوم صبيحة أحد أيام أغسطس ١٨٨١م متوجهين لأبا، لكن الخلافات مالبثت أن نشبت بين الضابطين وبين أبي السعود وهم لازالوا علي ظهر الباخرة .

أما محمد أحمد، والذي وصلته أنباء هذه الحملة، فقد جمع أتباعه ومعهم جمع من قبيلتي كنانة ودغيم، الذين دعاهما للجهاد معه، واستعد تماماً للمقاومة. وقام بإشعال الحماس بينهم بقوله أن الرسول قد ظهر له وأخبره أن كل من يشارك في هذه الحرب المقدسة سينال درجة الشيخ عبد القادر الجيلاني، ودرجة أمير الأولياء* وهي الألقاب التي تسمو إليها أبصار المسلمين. ولكن، وبالرغم من هذا، وبعد إتضاح أن الأمر في غاية الخطورة، لم يصل إليه أو يتجرد عن أمواله وباذلاً حياته لهذا الهدف العظيم، سوي قلة من الناس.

وصلت الباخرتان للجزيرة أبا عند الغروب. وبالرغم من مساعي أبو السعود إلا أن الضابطين أصرا علي النزول للبر في الحال. لكن القائد الأعلي، والذي امتلأ قلبه رعباً منذ أعلن محمد أحمد له أنه (سيد هذه البلاد) فقد مكث مع مدفعه علي ظهر الباخرة والتي ألقت مراسيها في وسط النهر. كان كل من الضابطين يجهل تماماً هذه المنطقة وكان كل منهما يغار من الآخر حتي لايفوز بالترقية من دونه ومن ثم قام كل منهما بالتقدم عن طريق مختلف في ظلمة الليل بين الضفاف الطينية وبأتجاه معسكر محمد أحمد. كان المهدي قد هجر مناطق سكناه هو ومن معه واختبأوا وسط الحشائش الطويلة مسلحين بالسيوف والحراب والعكاكيز حينما شرع الجنود، المتقدمين من إتجاهات متعارضة، بأطلاق نيرانهم الحامية علي القرية الخالية المهجورة، مما نجم عنه أن كل فرقة ألحقت خسائر ملموسة بالفرقة الأخري. ووسط هذا الإضطراب والفوضى اليائسة قفز القرويون من كمينهم علي الجنود الذين تضعضعت معنوياتهم وأرعبوهم رعباً شديداً ففروا هاربين

* تعبيراً عن الآية: (ألا أن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون).

في كل الاتجاهات ولم ينج من الدمار منهم إلا حفنة نجحت في الوصول لضفة النيل والسباحة نحو الباخرة. أما أبو السعود، الذي وصل لقمة الرعب والخوف الآن، فقد أراد الإقلاع عائداً للخرطوم فوراً لولا أن حثه الربان للبقاء حتي صباح اليوم التالي، علي أمل إلتقاط بعض الهاربين. ولكن لم يصل منهم أحد. وعند الفجر كر عائداً بأسرع ما أمكن للباخرة من سرعة حاملاً معه الأنباء المفزعة التي لاتصدق.

من السهل أن نفهم مدي تأثير هذا النصر علي محمد أحمد وأعوانه إذ لم يكابدوا أي خسائر تذكر بالرغم من أنه هو نفسه قد جرح جرحاً خفيفاً علي ذراعه، حيث قام عبد الله بتضميده له ومشيراً بأن يبقي هذا الحدث البسيط في طي الكتمان عن الآخرين.

وبالرغم من هذا النصر فلم يزد عدد أتباعه كثيراً فقد كان السكان المحليين علي قناعة بأن الحكومة ستقوم باجراءات صارمة للقضاء علي هذه الثورة وخافوا من مخاطر الخسائر التي كانوا واثقين من أنها ستتلو تلك الاجراءات وتلحق بهم.

قرر محمد أحمد الآن التراجع صوب جنوب كردفان بعد أن حثه عبد الله وإخوته لتوسيع المسافة التي تفصل بينه وبين سلطات الخرطوم. ولكي لايبدو هذا الإنسحاب هروباً فقد أعلن لمن معه بأنه تلقي إلهاماً وإشارة للتوجه نحو جبل ماسا* علي أن ينتظر هناك المزيد من الإشارات المقدسة. وقبل أن يفارق الجزيرة أبا قام، حسب الإشارة التي جاءته، بتعيين خلفائه الأربعة. أولهم كان عبد الله والذي (علي نهج السوابق التي سنها الرسول) يمثل الخليفة أبي بكر الصديق. أما علي ودحلو، من قبيلة دغيم بالنيل الأبيض، فقد تم إختياره ليمثل الخليفة عمر بن الخطاب. أما الخليفة الرابع، علي الكرار، فيمثله محمد شريف، وهو أحد أقارب المهدي الذي كان صبياً وقتها. أما كرسي الخليفة الثالث عثمان بن عفان فلم يتم ملئه وقتذاك لكنه أعطي فيما بعد للشيخ الكبير السنوسي من شمال افريقيا والذي رفضه.

---

* يقول سلاطين أن (المفترض أن يخرج المهدي من جبل ماسا بشمال إفريقيا، لكن المهدي لذكائه لم يتردد في أن يطلق هذا الاسم علي جبل قدير، الذي كان متجهاً صوبه، في كردفان وبهذا يحقق أحد الشروط الرئيسية الخاصة بظهور المهدي).

والآن، ولترحيل هذا العدد الكبير من الأتباع عبر النهر، فقد ظهرت بعض المصاعب. رغض أصحاب المراكب مبدأ الأمر العمل علي عبورهم خوفاً من إتهام السلطات لهم بالتعاون والإشتراك معهم. ولكن. وبعد لأي، تم ترحيل الجميع إلي الضفة الغربية للنيل، بما في ذلك عدد كبير من أبناء دغيم ومن عزب الكنانة والذين انضموا للركب في اللحظة الأخيرة. وهو في طريقه نحو دار الجمع قام محمد أحمد بجمع الأهالي القاطنين في المناطق التي مر بها وطلب منهم التوجه معه نحو جبل ماسا. ساد الحماس العظيم وسط أتباعه الآن والذين لم يتوانوا في سرد الكرامات التي قام بها المهدي للأهالي المبهورين.

وفي الطريق، مستبعداً لأي خطر قادم، استراح ركب المهدي، مع قليل من أعوانه، بالقرب من معسكر للصاغ أغا قول محمد جمعة والذي كان في مأمورية لجمع الضرائب ومعه فرقة من ستين جندياً. لكن الأخير خاف من تحمل مسئولية الهجوم علي المهدي بدون أوامر من قيادته بالأبيض ومن ثم أرسل إليها لإصدار التعليمات والتي عندما صدرت كان المهدي قد إنضم لبقية أتباعه وواصل سيره. من هنا ضاعت هذه الفرصة الذهبية. وبعد مضي عدة سنوات قابلت محمد جمعة التعس، في حالة مزرية من البؤس والشقاء، في أم درمان وقال لي بأسي: «آه! لو كنت أعلم وقتها بأنني سأنحدر لهذا المستوي، أسير حافي القدمين وأستعطي لخبزي، لما قمت بطلب تلك التعليمات ولا سمحت لهذا الدنقلاوي البائس بالهروب. لقد كان الأفضل لي أن أقتل من أن أعاني بؤس هذا الوضع التعس لي».

جاءت فرصة أخري ممتازة للقبض علي المهدي لكنها ضاعت أيضاً. فقد تصادف أن كلف جيقلر باشا بالتوجه للأبيض - كممثل للحكمدار - للتحقيق في قضية إختلاس متهم فيها مفتش المركز وثري من التجار يدعي عبد الهادي. وعندما سمع بأن من يدعي بالمهدي كان بالجوار قام، في أواخر سبتمبر، بارسال محمد سعيد باشا ومعه أربعة فرق من الجنود للقبض عليه وإحضاره للأبيض. ولكن، سواء كان ذلك عمداً أم نتيجة الإهمال، فقد فشلت الحملة في تنفيذ مهمتها. ومن الواضح أن الجنود قد توقفوا أثناء النهار في نفس المكان الذي كان الثوار قد باتوا فيه بالأمس، وبعد ذلك أضاعوا سدي ثلاثة أيام عادوا

بعدها للأبيض ليتلقوا التوبيخ والتقريع لجبنهم وخوفهم من الهجوم علي المهدي، والذي إرتفعت أسهمه لأعلي الذري.

كان في نية محمد أحمد أن يمكث لفترة في جبل تقلي. لكن الملك أدم، وبعد أن علم بنيته، قام بارسال أحد أبنائه له مع هدايا من الذرة والضأن وناصحاً له بالتوغل عميقاً نحو الداخل. من هنا واصل المهدي مسيره، وبعد رحلة طويلة مرهقة وصل إلي جبل قدير والذي كان به وقتها قسم من قبيلة كنانة، إضافة إلي سكانه المحليين.

في هذه الأثناء كان راشد بك مديراً علي فشودة ولما وصله من علم تام بتحركات المهدي صمم علي الهجوم عليه قبل أن تتزايد قوته. وكان في فشودة آنذاك ألماني يدعي برجهوف كان من قبل يعمل كمصور فوتوغرافي بالخرطوم، لكن رؤوف باشا أرسله لأعالي النيل ليعمل كمفتش لمحاربة الرق هناك. تحرك راشد بك بقواته، مصحوباً ببرجهوف وكايكوبك ملك الشلك، نحو قدير، لكنه لم يتخذ الحذر والتدابير العسكرية لسوء تقديره لقوة المهدي وقلة شأنه ومن ثم سقط في كمين بارع أعده له الرجل الذي قلل من شأنه، وهلك في ذلك الكمين ألفا وأربعمائة من رجاله. لقد كان هجوم الثوار عليه مفاجئاً للدرجة التي لم يجد فيها وقتاً لاطلاق حتي صاروخ واحد ورغم أن راشد بك وبعض حراسه الشخصيين ومرافقيه قاموا بالدفاع ببسالة عن أنفسهم إلا أنهم سقطوا صرعي بيد قوة تفوقهم في العدد كثيراً.

حدثت هذه الهزيمة في التاسع من ديسمبر ومن يومها لم يتردد محمد أحمد في أن يطلق علي نفسه إسم المهدي. لقد شمقت سمعته وسط الناس وخاصة في أعين العرب وطار صيته عالياً. وعلي الرغم من ذلك فلم تكن علاقته بجيرانه المباشرين في أحسن حالاتها. ولقد أشار لذلك الخليفة عبد الله، في حديث جري بيننا بعد زمن من هذا في أم درمان، وقال لي ما يلي بقدر ما أتذكر:

«وصلنا بعد لأي لقدير منهكين بعد رحلتنا الشاقة المتعبة. وكان لدي المهدي جواد واحد من نسل خيول الحبش الرديئة بينما كان علي أن أمشي علي قدمي طوال الرحلة ولكن

بارك الله في أولئك المؤمنين المخلصين، الذين كانوا مستعدين لبذل أرواحهم في سبيل الدين، وقواهم. التحق بنا وقتذاك إخواني يعقوب ويوسف والسماني بعوائلهم وكذلك زوجة أبي التي كانت ترضع طفلي من صدرها. حتي أخي هارون لم يتخلف عنا ولحق بنا أيضا. كنت مهموماً بخصوص زوجتي وزوجة أبي وطفلي وهو عثمان شيخ الدين الذي تراه الآن أمامك. لم يهمنا الأمر كثيراً نحن الرجال. فالله هو الذي قد قدر متاعبنا ومعاناتنا لكننا نتحمل ذلك بل نكون من الحامدين الشاكرين له لأنه الذي إختارنا لحمل راية الإيمان عالياً بعد أن تمرغت قبل ذلك في التراب، ولنقوم بارشاد وتعليم إخوتنا».

ثم إبتسم وقال: «لكن التعليم لن يجلب الطعام الذي نرفد به نساءنا وأطفالنا. لقد هرع الناس إلينا زرافاتاً ووحدانا حقيقة، لكن معظمهم كان أشد بؤساً وفاقة منا وماجاء إلينا إلا لنرفده ونعينه. أما الأغنياء منهم فقد تجنبونا فالمال بالطبع هو لعنة هذه الحياة الدنيا والذين يملكونه هم الذين سيحرمون من نعيم الجنة. لم يقدم لنا الأهالي الذين مررنا بديارهم أي معونة تذكر أما القليل الذي وصل للمهدي فقد وزعه علي الحجاج والذين كان يعتبرهم ضيوفه. وكنت عندما أسمع بكاء النساء والأطفال أشعر بأن قلبي يتمزق لكنني عندما أشاهد طلعة المهدي أمتلئ بالثقة في الله ويطمئن قلبي. فالصبر، يا عبد القادر، هو رأس الفضائل. جرب ذلك وسيكافئك الله».

أيقظت هزيمة راشد بك الحكومة من غفوتها ونبهتها إلي طبيعة هذه الثورة ومدي خطورتها ومن ثم شرعت في الحال في تجهيز حملة بقيادة يوسف باشا الشلالي، والذي كان قد إشتهر ببلائه في حروب جيسي في بحر الغزال ولشجاعته وسرعة بديهيته. وتم تدعيم الحملة بفصيل من المشاة ومن بعض المتطوعين بقيادة عبد الله ود دفع الله (شقيق أحمد ود دفع الله) ومعه عبد الهادي وسلطان ديما والذين سيفوجون من كردفان.

في هذه الأثناء شرع المهدي في ارسال الخطابات لكل أرجاء البلاد شارحاً فيها إنتصاراته وموضحاً مهمته المقدسة. كما إستدعي الجميع للجهاد وأطلق عليهم إسم (الأنصار) ووعدهم بأربعة أخماس الغنائم التي ستأتي من الحرب (أما الخمس الباقي

فكان من نصيبه). كما أكد لهم أن من يموت مجاهداً في سبيل الله ودينه فسينال النعيم والسعادة التامة في جنة الخلد. وبهذا تمكن من إثارة الغرائز التي تميز بها السودانيون وهي التعصب والشره.

تكونت قوة يوسف باشا الشلالي، والتي بلغ تعدادها أربعة ألف رجل، من قوات مشاة نظامية تحت قيادة محمد بك سليمان وحسن أفندي رفقي - الذين كنت قد طردتهم من قبل - ومن قوات راكبة غير نظامية تحت قيادة الملك الشايقي الشجاع طه أبو صدر، ثم بارحوا الخرطوم في ١٥ / ٣ / ١٨٨٢م في طريقهم للكوة حيث مكثوا هناك في إنتظار التعزيزات المتوقعة من الأبيض.

لكن عبد الله ود دفع الله لم يتمكن من جمع المتطوعين بسهولة فقد كان هناك شعور عام بأنه من الخطأ محاربة رجل دين ورع، كما أن المهدي وأتباعه كانوا من الفقر المدقع بما لايغري أحداً بالحصول علي غنائم ذات قيمة من حربه. إضافة لكل هذا، فقد مارس ألياس باشا، أغني تاجر في كردفان، والمدير السابق لها، والعدو اللدود لعائلة دفع الله، كل نفوذه والذي كان لايزال معتبراً، لمنع الرجال من التطوع للحملة. وعلي كل حال فقد اتفق عبد الله مع السلطات علي التحرك ومعه بعض القوات النظامية والتي بلغ عددها عند مغادرته للأبيض حوالي ألفي رجل. وبانضمامه لمن كان هناك بالكوة فقد وصلت قوة الحملة إلي ستة ألف من المقاتلين، الذين شرعوا في الحال في التحرك إلي فشودة، والتي وصلوها في منتصف مايو.

وبعد راحة قصيرة زحف يوسف باشا غرباً وعسكر في مساء السادس من يونية في ميسا بجوار جبل قدير وهو واثق من النصر. ولماذا يخشي رجال مثل يوسف باشا ومحمد بك وأبو صدر مجموعة من المرضي الجوعانين شبه المتضورين ونصف العراة من العرب؟ ألم يكسبوا من قبل معاركهم في النيل الأبيض في دوفيلي؟ ألم يكتسحوا بحر الغزال وأخضعوا للهزيمة سلاطين دارفور ذوي الكبرياء والفخار؟ ماذا يستطيع هذا الفكي الجاهل الضعيف التسليح القيام به؟......

عبد الله ود دفع الله وحده هو الذي تنبه للأمر وحذرهم ألا يستهينوا بالخطر القادم. فلقد كبا به جواده عند ما كان خارجاً من الأبيض، وأسقطه علي الأرض، الأمر الذي يعتبره السودانيون دليل شؤم. ولكن من يستمع لمثل هذا الواعظ الصارخ في البرية؟ بل وصل الأمر بهم لدرجة عدم التفكير حتي في قطع الأشجار الشوكية وانشاء زريبة قوية لتحميهم واكتفوا بلملمة بعض الشجيرات القريبة منهم واكتفوا بهذا الزرب الهزيل الذي لايصلح إطلاقاً للدفاع. ومن ثم انقض أتباع المهدي، من العرب المرضي الجائعين نصف العراة، علي جيوش يوسف باشا في باكورة فجر السابع من يونية واخترقوا الزريبة الهشة ووقعوا علي الجنود النائمين كالبرق الخاطف ودمروهم تدميراً. وقتل يوسف باشا وأبو صدر، وهما بقمصان النوم، علي أبواب خيامهم. وفي بضع دقائق لم يبق هناك أي رجل من الجيش علي قيد الحياة إلا بالكاد. وقد إندفعت خليلة أبو صدر نحو قتلة سيدها وأصابت إثنين منهما بمسدسها لكنها سقطت صريعة فوق جسده إثر طعنة من حربة إخترقت قلبها. أما عبد الله ود دفع الله فقد صمد لفترة قصيرة هو وبعض من أعوانه لكنهم سرعان ما لاقوا مصير بقية رفاقهم.

عندما يتم أي شئ غير مألوف في البلاد غير المتمدنة، فأن الأهالي يعتبرون ذلك الحدث شيئاً خارقاً للعادة. وهذا بالضبط ما ترتب علي الكارثة التي حلت بيوسف باشا في أذهان السودانيين المعروفين بالتطير وبسرعة التصديق فلقد حكم الأتراك والمصريون البلاد لستين عاماً، وكانت العقوبات تطال تلك القبائل التي تمتنع عن دفع الضرائب، ولم يكن أحد منهم يجرؤ علي مساءلة السلطات حول حقها في إنزال تلك العقوبات. أما الآن، فقد ظهر فجأة هذا الفكي المتدين، محمد أحمد، علي الساحة. وبحفنه من الرجال غير المنظمين وضعيفي التسليح أنزل عدة هزائم ما حقة علي قوات الحكومة القوية بعتادها وسلاحها الجيد ولم يعد هناك أي شك الآن بأنه هو المهدي المنتظر!

وضعت هزيمة يوسف باشا كل جنوب كردفان في يد المهدي وأصبح الآن في وضع مكنه من تدعيم نفسه وعلاج كل النواقص التي كان يكابدها من قبل. فقد صار لديه المال

والسلاح والخيول والغنائم من شتي الأصناف والتي قام بتوزيعها علي زعماء القبائل، الذين تقاطروا صوبه الآن، وكانوا صادقين حقاً في اعتقادهم بأنه هو المهدي الحقيقي الذي كانت نواياه الوحيدة هي تمكين الدين، والذي لم يكن يكترث بمال أو ممتلكات قط.

إنتشرت أنباء انتصارات المهدي الآن في كافة الأرجاء، بعيدها وقريبها. أما وسط أهالي كردفان غير المتعلمين فقد بولغ في أخبار تلك الحوادث لدرجة غريبة وصارت جماعات منهم، بعد أن بلغ حماسهم وتعصبهم أعلي القمم، في هجر ديارهم والتوجه صوب جبل قدير، والذي تمت تسميته بجبل ماسا، بينما تجمع البعض الآخر حول زعمائهم المحليين وإستعدوا للحرب ولمهاجمة المحطات والنقاط الحكومية المنتشرة في أنحاء البلاد.

لقد كانت أحداث هذه الظروف مناسبة تماماً لتطلعات العرب الرحل. فتحت عباءة الحرب الدينية، والتي يعزي بقاءها إليهم، قاموا بذبح وسلب ونهب الأهالي الذين أتهموا بأنهم كانوا موالين للترك المكروهين. وفي نفس الوقت حرروا أنفسهم من الضرائب التي فرضتها عليهم حكومة كانوا يزدرونها.

ثم شرع المهدي في الإتصال بتجار الأبيض، والذين كانوا من خلال ثروتهم وعلاقاتهم بالأهالي يحكمون المدينة ومناطق معتبرة من ضواحيها. وكانوا علي إدراك تام بالوضع الحالي. فلا أحد يعرف خيراً منهم مدي ضعف الحكومة وتهرئها. وكان كثير منهم علي استعداد للوقوف بجانب المهدي. وكان ألياس باشا، زعيم هؤلاء الساخطين يكره ويحتقر أحمد بك دفع الله، الصديق الحميم لمحمد سعيد باشا، وكان يعلم تمام العلم بأنه إذا ما نجحت الحكومة في هزيمة الثوار فسيلحق به هذان الإثنان أذي شديداً، وبكل ما لديهما من قدرة للإضرار به. بالتالي نذر ألياس باشا نفسه للقيام بتجنيد الأعوان للمهدي في سرية وعزم، بينما إقتنع كثير من التجار الأقل ثراء منه بأن أياماً طيبة في طريقها إليهم في حال سقوط الحكومة، كما كان هناك عدد غير قليل، رغم أنهم لم يميلوا لجانب المهدي، قد سارعوا لتأييده خوفاً علي نسائهم وأموالهم من السقوط في أيدي أتباعه المنتصرين في حالة نجاحهم.

أما شيوخ الدين فقد كانت هذه الحركة تحمل لهم في طياتها أعظم المطامح للترقي والعلو وشعروا بالزهو والافتخار بأن واحداً منهم قد جرؤ علي إعلان أنه المهدي وصاروا يترقبون الوقت الذي يقوم فيه هو أو أبناؤه بطرد الأتراك البغيضين وليحكم البلاد. أما القليل، والقليل جداً، من العقلاء فقد رأوا الخطر القادم الذي سيهدد البلاد عند نجاح أمر المهدي. ومن ثم بذلوا مافي وسعهم لاستنفار الحكومة لتلافي العاصفة القادمة. لكن مسعاهم ذهب أدراج الرياح، لقلة أعدادهم ولعدم الاكتراث بنصائحهم.

وأرسل ألياس باشا إبنه عمر ليشرح للمهدي حال الوضع الراهن وليرجوه الإسراع للأبيض. أما محمد سعيد باشا، والذي تحقق بأن الأبيض ستكون الخطوة القادمة، والذي توهم أن الناس سيكونون مستعدين للوقوف معه إذا ما حوصر، فقد شرع في حفر خندق عميق واسع حول المدينة وقام بتحصين المباني الحكومية، بناء علي نصيحة أحد بك دفع الله، ووضعها في حالة دفاع وأحاطها بالمتاريس التي بناها من حولها. لكن حرصه ذاك قاده إلي خطأ قاتل. فبدلاً من أن يشرع فوراً في تخزين العيوش والمؤن، والتي كان التجار الباحثون عن منفعتهم المادية مستعدين تماماً لإمداده بها، رفض أن يدفع لهم أكثر من ثمنها وقت السلم. وهذا الذي أدي لقيام التجار، والذين إستشعروا ما ستؤول إليه حالة البلاد من إضطراب، بشراء المعروض منها بأسعار أعلي، وبالتالي فقد ضاعت منه فرصة ثمينة للشراء.

في هذه الأثناء كانت معظم الأنحاء تتعرض لمذابح يومية. فقد كان جباة الضرائب والجنود بالمحطات العسكرية وموظفوا الحكومة يتساقطون كالفرائس السهلة بأيدي العرب المتعطشين للدماء. وقامت قبيلة البديرية بالهجوم علي أبي حراز وكادت تستأصل شأفة سكانها رغم أنها لاتبعد بأكثر من مسيرة يوم من الأبيض ولم ينجح من سكانها في الهروب والنجاة بأنفسهم سوي القليل من الرجال والنساء والأطفال الذين وصلوا لعاصمتهم. أما الباقون فإما قد قتلوا أو أخذوا أسري أثناء هروبهم خلال الطرق العديمة المياه. إعتبرت صغار الفتيات كغنائم ثمينة وقدم آسروهن لهن الماء بينما قاست العجائز

من النســاء من أشد أنواع التنكيل هولاً حيث قطعت الأيادي والأرجل بدون شفقة لمجرد الحصول علي الأسورة أو الحجول التي عليها.

وبعد بضعة أيام تعرضت مدينة أسحف في شمال كردفان لهجمات العرب الذين نهبوها رغم الدفاع الذي قام به النور عنقرة، الذي كان مقيماً لها آنذاك، حيث قام بمساعدة ودعم السنجك محمد أغا جابو، الذي كان قواصاً لدي غردون، ومع ذلك أجبرا علي التقهقر إلي بارا. كان جابو هذا كردياً عجوزاً وقد قام أثناء إنسحابهم بأعمال بطولية خارقة. فقد جمع كل النساء والفتيات الشابات في وسط المربع وطلب منهم التغني بأناشيد النصر لأن ذلك، حسب قوله، يطرد الخوف من القلوب. وبقيامه بعدة هجمات مضادة تمكن من الوصول بسلام إلي بارا ومعه تقريباً كل الهاربين.

ثم جاء الهجوم علي بارا ولكن تم صد العرب عنها. ثم تجمعوا ثانية في أعداد ضخمة، تحت قيادة شيخ رحمة، وأحكموا حصار المدنية وقطعوا عنها كل المؤن.

مجموعة أخري من العرب احتشدت في كاشقيل، لكن محمد سعيد باشا وجه نحوهم فرقة من الجنود النظاميين الذين أفلحوا مؤقتاً في تشتيت شملهم ولكنهم، بعملهم هذا، تكبدوا خسائر ثقيلة تقارب الهزيمة التامة. ثم تجمع العرب مرة أخري وهاجموا البركة ووضعوا السيف علي رقاب كل الحامية التي بلغ تعدادها ألفي رجل. كارثة أخري حلت بالجنود في شات علي النيل الأبيض حيث ذبح منهم مائتي جندي لكن الهجوم الذي تلي ذلك علي الدويم تم صده بخسارة تزيد علي ألفي رجل من الثوار.

في تلك الأثناء نشط المبعوثون الذين أرسلهم المهدي للجزيرة. وقامت قبائل جهينة والعقليين والحوازمة والحمدة، بقيادة أبي روف، بالهجوم علي سنار ومحاصرتها ولكن السنجك صالح ود الملك، الذي أرسل لها مع قوة ضخمة من الشايقية، قام بفك الحصار عنها.

ثم قام الشريف أحمد طه بحصار مدينة أبي حراز، علي النيل الأزرق. لكن جيقلر باشا، الذي كان يقوم مقام الحكمدار رؤوف باشا كحاكم عام، وصل إلي الجوار ووجه الملك يوسف الشايقي للهجوم علي الثوار بقوة متخلفة تمت هزيمتها تماماً. لكن الملك يوسف إستنكف عن الهروب فنزل عن جواده وجلس متربعاً علي فروته وأمر أحد خدمه بقتله.

عاد جيقلر في الحال للخرطوم لاحضار التعزيزات ثم توجه بها للهجوم علي أحمد طه والذي قتل وأرسل رأسه للخرطوم. ثم شرع في تطهير ضواحي سنار من الثوار بدون أن تلحق به خسائر تذكر. وبالرغم من هذه النجاحات المؤقتة فقد اذدادت المتاعب وصارت الحكومة تتلقي يومياً تقاريراً عن الكوارث التي تلحق بجيوشها وبالأهالي في مختلف أنحاء البلاد. ونتيجة لذلك تم ارسال عبد القادر باشا حكمداراً علي السودان ووصل للخرطوم في الحادي عشر من مايو ١٨٨٢م وشرع في الحال وبنشاط ملحوظ في العمل علي تدعيم دفاعات الخرطوم. هذه الإجراءات كان لها أثرها علي المواطنين وبدا جلياً لهم أن الحكومة قد صممت علي العمل بعزيمة وإصرار. لكنهم في نفس الوقت تبينوا بوضوح أن ماتم إتخاذه من خطوات لم يكن من باب الإحتياط بل كان أمراً ضرورياً لمواجهة الوضع الخطير الذي إتخذته الأحداث. كان من الضروري حماية الترسانة ومخازن الذخيرة وورشة السفن والمستودعات والوثائق الحكومية من كافة الإحتمالات. وإضافة لذلك فقد كان من أول ما قام به الحكمدار الجديد أن يسحب جزءاً من حاميات القلابات وسنهيت والجيرة إلي الخرطوم حيث لم تكن تلك المناطق تعاني من الأحداث وتميزت أرجاءها بالهدوء وقتها.

أما محمد أحمد المهدي فقد أيقن تماماً أنه لتحويل الجمر من تحت الرماد إلي لهيب مضطرم فلا بد له من الظهور شخصياً. ومن ثم إستجاب لنداء ألياس باشا للتوجه نحو الأبيض، وترك خاله محمود شريف، مع عدد قليل من الأتباع، في جبل ماسا لرعاية زوجاته وأطفاله بينما هبط هو إلي السهل وزحف بقواته متوجهاً صوب العاصمة الغنية لكردفان.

الباب الخامس

إنتشار الثورة في جنوب دارفور

«وصولي لدارا – إرسال ضابط إلي شكا – عودتي للفاشر – جعلت دارا مركزاً لقيادتي – قوة لسان المرأة – الشيخ مادبو يهدد شكا – التصرف الجبان لمنصور حلمي – توجهي لمساعدته – شروعي في الحملة ضد القبائل العربية بالجنوب – الهجوم الليلي علي معسكر مادبو – الإنسحاب الجبان لمنصور حلمي من شكا – السلوك الشجاع لعلي أغا جمعة».

عندما غادرت الفاشر متوجهاً لدارا في أوائل عام ١٨٨٢م، كان برفقتي ثلاثمائة وخمسين من الجنود الراكبين بقيادة عمر ود ترحو. لم تكن هذه القوة الضخمة ضرورية لكنني رأيت أنه من الصواب أن يري العرب أن لدي الحكومة الكفاية من الجيوش للقضاء علي أي تحركات من جانبهم.

وعند وصولي لدارا قمت بزيارة قبر المرحوم إميلياني ونصبت عليه حجراً في ذكراه. كان يقوم نيابة عنه وقائم باعمال المدير زقل بك ولكن الوضع العام كان قاتماً ومزعجاً للغاية. فقد كانت القبائل العربية في الجنوب من الرزيقات والهبانية والمعاليا في حالة من الهياج والثورة وكانوا يعقدون إجتماعات دائمة توضح أن الدراويش كانوا يتجهون صوب رايات المهدي زرافاتاً ووحدانا. المهدي الذي أرسله الله لإقامة الدين وتقويمه. من ثم أمرت منصور أفندي حلمي للتوجه فوراً لشكا برفقة مائتين وخمسين من الجنود النظاميين وخمسة وعشرين جندياً راكبا.

توجه إليها عن طريق الكلكة* بينما عدت أنا إلي الفاشر للقيام بتجميع مختلف فصائل الجنود الذين كانوا في مهام، بأنحاء المديرية، لجمع الضرائب، ولأعدهم لمواجهة مختلف الاحتمالات. وقبل مغادرتي لدارا قمت باجراء حوار طويل وجاد مع زقل والذي كنت أعرفه جيداً عندما كنت مديراً هنا. فلقد بلغ سمعي أنه وعمر ود ترحو كانا قد تباحثا عدة مرات

---

* هي برام الحالية، عاصمة دار الهبانية بجنوب دارفور (المعرب).

بشأن المهدي وما يقوم به. وإتفقا أنه في حالة إستمراره في الإنتصارات فسيقومان باللحاق به. كان هذان الرجلين من أغني الموظفين في دارفور وكان لهما نفوذ عظيم في البلد ومن ثم فأن خروجهما عنا سيكون أمراً خطيراً. لذا رأيت أن أفضل أسلوب للتعامل معهما هو أن أظهر لهما صداقتي العميقة مع قيامي بكل ما في وسعي لتجنب أي شقاق بيننا. لذا لم أقم باخفاء علمي باجتماعاته مع ترحو عندما كنا نتبادل الحديث وأشرت إلي أنه ، بصفته من أقارب المهدي، وفي نفس الوقت من كبار موظفي الحكومة، فأن واجبه يحتم عليه الوقوف بجانب السلطة الشرعية بقدر ما يستطيع.

وعند وداعي للضباط والموظفين أوضحت لهم ضرورة اليقظة التامة عند أداء مهامهم وأخبرتهم بأنني سأعود من الفاشر بأسرع فرصة ممكنة. ثم بدأت رحلتي تاركاً معهم القوات الراكبة في دارا وتوجهت للعاصمة حيث وصلتها بعد ثلاثة أيام من السير.. وفي الفاشر علمت بأن محطة تلغراف الفوجة قد سقطت بأيد الثوار فقمت بالتالي بأصدار أوامري بأرسال التعزيزات لأم شنقة.

تعطل نظام البريد تماماً الآن واضطررت للتواصل مع الأبيض والخرطوم عن طريق رسائل تخبأ في فجوات تحفر بداخل أعواد الحراب أو في فجوات بقواعد الأحذية والصنادل أو بخياطتها في ثياب حامل الرسائل. أما بشأن الذخائر الإضافية، التي طلبتها عندما كنت بالخرطوم، فقد تعطل وصولها لتهاون المسئولين وإهمالهم. فقد تأخر وصولها للأبيض ولم يعد بالإمكان إرسالها قدماً لي بعد أن قطعت الطرق.

من دارا علمت بأن مادبو، زعيم قبيلة الرزيقات، قد رفض الحضور إلينا. ولم يعد هناك أدني شك الآن بأن كل القبائل في جنوب دارفور قد أضحت في حالة ثورة وهياج وأنها قد عقدت العزم للإنضمام للمهدي لذا قررت نقل رئاستي لدارا. أخذت معي مئتين من الجنود المشاة وخمسة وسبعين من الفرسان الذين وصلوا حديثاً وتوجهت لها.

وعند وصولي بلغتني أنباء بأن حادثاً قد جري أثناء غيابي، ورغم أنه لم تكن له أهمية في حد ذاته، إلا أنه أدي لعواقب وخيمة فيما بعد. فلقد ذكرت من قبل بأنني عندما كنت في طريقي للخرطوم قابلني الشيخ علي ود حجير من قبيلة المعاليا ورافقني في رحلتي،

وقد أثبت ولاءه وإخلاصه للحكومة حتي أنني عينته زعيماً لقبيلة المعاليا الجنوبية. وعندما سمع بأن عرب الرزيقات، بقيادة بلال نقر، قد إتفقوا علي عقد إجتماعي بينهم بهدف الإنضمام للمهدي، وأنهم كانوا علي وشك الإجتماع، عقد العزم للتوجه إليهم وللإلقاء القبض علي رأس الفتنة. ذهب للاجتماع بصحبة والد زوجته وبعض أصدقائه وقدم نفسه لهم. لكنه عندما شاهد بعضاً من رجال قبيلته معهم أشار إليهم لإبعاد أنفسهم عن بقية المجتمعين والحضور إليه. لكن هذه الحركة لم تفت عن الآخرين الذين إشتبكوا معهم في عراك لاقي فيه حجير ومن معه الأمرين لقلة عددهم ولم ينجوا بأرواحهم إلا بالكاد. سبقتهم أنباء الإشتباك إلي ديارهم ولكن بعد حشوها بالمبالغات حتي أنهم لما وصلوا إليها استقبلتهم زوجة حجير بكلماتها اللاذعة: « راجلي هضليم وأبويا ربطة. سفر يومين سووه في قبضة!». أي أن زوجي ذكر نعام ووالدي نعامة قطعوا مسافة يومين في لحظة! .

لكن بلال نقر، علي أي حال، قام بمطاردة الهاربين. وبعد إنضمام المعاليا إليه قام بمهاجمة منزل حجير. كان أصدقاء حجير قد حثوه علي الفرار واللجوء لحماية منصور بشكا. لكنه، وبعد تقريع زوجته وسخريتها منه، رفض الفرار وقال لهم: « لن أفر لانقاذ جلدي ومن الأفضل لي أن أسقط بضربات السيوف ولا أكون مصدر السخرية لإمرأة». والتزاماً بوعده قام بالدفاع عن نفسه ضد أعدائه الشرسين حتي أصيب بطعنة حربة وسقط يصارع الموت وهو يردد الشهادتين حتي لفظ أنفاسه كما سقط والد زوجته أيضا صريعا بجواره. أما زوجته، والتي كانت سبب تلك الكوارث، والتي فقدت والدها وزوجها، فقد أسرت وتم استرقاقها.

أما منصور حلمي، وقد صار الآن متحرقاً للوصول لتفاهم مع القبائل ، فقد ترجاني الحضور لشكا علي أساس أنني، كممثل للحكومة ومعروف جيداً بين العرب، سأكون ذا وزن بينهم كما عبر عن قناعته بضرورة إقامة قلعة قوية بشكا وتسلح ببضعة مدافع. ولما كان من الضروري الوصول لتفاهم مع العرب فقد قررت الاستجابة لطلبه ومن ثم توجهت لشكا ومعي مائة وخمسين من النظاميين وخمسة وعشرين فارساً ومدفع واحد.

وخلال مسيرتي جاءتني عدة إفادات عن مدي انتشار الثورة وعن نجاحات المهدي. وبوصولي لقرية مادبو في الضعين جاءني رسول يحمل الأنباء المفزعة بأن منصوراً قد هاجم ذلك الشيخ بجوار شكا وفقدت قواته عدداً كبيراً من رجالها ويكاد أن يكون محاصراً الآن في مراية. طلبت إرسال التعزيزات لي من دارا للحاق بي ومكثت بالضعين في انتظار وصولها متوقعاً هجوماً وشيكاً من مادبو وسرعان ما صدق حدسي. إنضم لي أيضاً الشيخ عريفي من قبيلة الهبانية ومعه عشرين من الفوارس وسأقوم فيما بعد بسرد ما قام به هذا الزعيم المخلص من أعمال. وذات مساء، وقبل الغروب مباشرة، وعندما كان رجالي يجمعون الحطب بعيداً عنا، هجم علينا فرسان مادبو فجأة وشاهدناهم يركضون بخيولهم بالمئات باتجاه الزريبة. فما كان من الشيخ عريفي إلا أن أسرع بإسراج فرسه وركبه ووقف أمامي رافعاً حربته وصاح: «عارفيني زين! أنا تور الطقاش أبو قلب من عضم. أنا بدور الموت!». وبقوله هذا اندفع خارج الزريبة واختفي بين الأشجار ثم عاد بعد بضع دقائق وحربته تقطر دماً وهو يقود خلفه جواداً استلبه. إشتبك الشيخان الآخران ورجالهما أيضاً مع المهاجمين في معركة قصيرة فقدوا فيها حصاناً وأسروا آخر. وخلال بضع دقائق سمعنا صوت إطلاق نار وخوفا من أن يكون الجزء الأكبر من رجال مادبو قد وصل قمت باستدعاء رجالي من العرب الراكبين لداخل الزريبة واستعددنا للدفاع. لكنني تأكدت بعد حين بأن الذي وصل إلينا لم يكن سوي فصيل صغير من الثوار وأنهم إتخذوا موقعاً لهم وسط أجمة من الأشجار. لذا أرسلت خمسين من رجالي لطردهم وعادوا بعد أن تركوا وراءهم ثلاثة من القتلي.

ثم شاهدنا العدو صباح اليوم التالي وهو يتقدم مرة أخري فأسرعت باطلاق صيحة الحذر بالبوق وسارع كل واحد منا لاتخاذ موقعه المحدد. جاءنا الهجوم من إتجاه الشمال الغربي حيث كانت هناك غابة صغيرة تؤمن غطاءاً جيداً للمهاجمين. كان في وسط زريبتنا تلة صغيرة فوضعت عليها أريكة قديمة كنا قد وجدناها في أحد أكواخ مادبو حيث قام أحد المصريين بتحويلها إلي كرسي . كنت بجلوسي في هذا الموضع أشاهد كل ماحولي

من المناطق المجاورة مثلما أشاهد كل مايحدث في الزريبة. تقدم العدو نحونا وعندما صرنا في مرمي الرصاص بدأت الطلقات تئز حول آذاننا. قمت من علي الكرسي لأصدر بعض الأوامر ولتحسين مجال رؤيتي عندما جاء صرير رصاصة بالقرب مني وضربت ظهر الكرسي، الذي كنت قبل لحظات جالساً عليه، ومزقته تمزيقاً. بعد ذلك قمت باتخاذ الحذر ولا أبقي مكشوفاً هكذا. اشتدت حرارة نيران العدو الآن لكن خسائرنا كانت قليلة لاتذكر لوجود رجالنا في الخنادق المحمية جيداً. لكن الخيول والجمال أخذت تتساقط وشعرت بأننا إذا ما واصلنا حبسها في الزريبة فربما نفقدها كلها، لذا اخترت خمسين رجلاً واندفعنا خارجين من المدخل الجنوبي ثم اتجهنا غرباً وهجمنا فجأة علي جانب العدو وسط إطلاق نار عنيف بيننا وكبدناه خسائر فادحة تزحزح بعدها عن موقعه. لكننا دفعنا ثمناً غالياً لهذا النجاح وفقدنا إثني عشر رجلاً.

وعند حلول المساء، وكنا منهكين من الإجهاد، تهاوي معظم الرجال من النعاس ورقدوا. توقعنا ليلة هادئة لكننا فوجئنا حوالي الحادية عشرة مساء بانهمار الرصاص علينا لكن ولحسن الحظ كان الظلام حالكاً وبالتالي لم يكن الرمي علينا سديداً. لهذا أمرت رجالي بعدم الرد عليهم وما لبث الضرب أن تراجع وبعدها توقف تماماً.

استدعيت الشيخ غريفي وطلبت منه إرسال بعض من رجاله لإكتشاف موضع مادبو ووعدتهم بمكافأة جزيلة إذا ما جاءتني منهم أخبار مؤكدة. وبعد ساعتين تقريباً رجعوا وأفادوا بأن مادبو كان في قريته محاطاً بالبازنجر أما العرب فقد عسكروا علي الجنوب والغرب منه. كانوا في قوة لابأس بها لكنهم لم يتخذوا أي احتياطات دفاعية وقد استمع إليهم جواسيسنا، الذين تسللوا زاحفين حتي وصلوا بالقرب منهم، وهم يتبادلون الضحك والنكات علينا ساخرين من عدم قيامنا بالرد علي نيرانهم وإلي أننا كنا جد خائفين منهم القيام بذلك.

صبرت لنصف ساعة ثم استدعيت سبعين رجلاً وأخبرتهم في حضرة الضباط بأنني أريد منهم مفاجأة معسكر مادبو لأننا لو دخلنا معهم في اشتباك مكشوف فأننا سنتعرض

لخسائر جسيمة نسبة لأعدادهم المتفوقة علينا. أما الآن فقد تأكدنا أن العرب غير مستعدين تماماً وأن هجوماً ليلياً مباغتاً عليهم سيزلزل معنوياتهم مما يتيح لنا فرصة للعودة لدارا لاحضار التعزيزات والدعم. وافق الجميع علي الخطة وتطوع كل الضباط علي الفور للانضمام للقوة لكنني لم أوافق علي ذلك. تركت ورائي ضابطين وأربعة من نافخي البوق وسبعين رجلاً وغادرت الزريبة ومعي عريفي الذي رفض مفارقتي. وتحوطاً من أن يقوم بعض رجال أبي سلامة بالتسلل خارجين ويخوننا، أصدرت أوامري للضباط الذين تركتهم ورائي بألا يغادر أحد الزريبة أثناء غيابنا وأن عليهم اتخاذ أقصي درجات اليقظة والحذر. ثم تحركنا بحذر ، يقودنا جواسيسنا، وخلال ساعة وجدنا أنفسنا بالقرب من معسكر العدو. أثبت جواسيسنا أنهم مصدر ثقة تامة كما إنني إضافة لذلك كنت قد تجولت من قبل في هذه الجهات وكنت أعرف أريافها تماماً. انقسمنا لفرقتين وضعت إحداها تحت ضابط غاية في الشجاعة يسمي محمد أغا سليمان وهو من مواطني البرنو وقمت بقيادة القسم الآخر بنفسي ثم تسللنا زاحفين حتي وصلنا لمسافة ستمائة أو سبعمائة ياردة من عدونا غير اليقظ ثم أمرت جندي الإشارة لينفخ البوق بنداء «أبدأوا إطلاق النار». بلغ الاضطراب والفوض في معسكر العدو حداً لايوصف. وحتي بازنجرمادبو تركوا سلاحهم ولاذوا بالفرار. أما الخيول، والتي أرعبها هذا الضجيج في حمأة الليل، فقد أصابها القلق وقطعت حبالها وتفرقت في كافة الجهات بينما كان العرب يطاردونها. وخلال بضع دقائق كانت كل خيام مادبو وأكواخه قد هجرت وكنا نسمع من علي البعد صرخات الهاربين المرتعبة والذين تشتت شملهم أمام فرقتنا الصغيرة التي لاتزيد علي سبعين رجلاً. كان انتصارنا تاماً وقد احتاج مادبو لعدة أيام قبل أن يتمكن من جمع رجاله مرة أخري. قمت بحرق القرية وأضاء اللهيب المتوهج، والذي طار عاليا في السماء، أرجاء المعسكر المهجور. لم يصب سوي إثنين من جنودي بجراح من جراء الحراب التي القيت عليهم وتمكنا من الاستيلاء علي كمية كبيرة من السروج، التي أمرت بالقائها وسط النيران، إضافة إلي كمية من البنادق القديمة والعتيقة البدائية. لكننا احتفظنا

بالأربعين بندقية رمنجتون التي وجدناها وبدأنا العودة إلي الزريبة حيث قوبلنا باستقبال حماسى من الآخرين والذين كانوا في انتظار قدومنا علي أحر من الجمر.

ولما لم تصلني أي أنباء بعد من دارا فقد قررت العودة لها. وبعد مسيرة ثلاثه أيام وصلنا للمدينة حيث وجدت أن التعزيزات والذخائر كانت جاهزة للتحرك. ولما كان الرجال الذين احضرتهم معي قد بلغ بهم الإرهاق حداً فقد قررت استبدالهم والعودة بقوات نشطة لمساعدة منصور حلمي. ولكن لدهشتي الشديدة تسلمت خطاباً صبيحة اليوم التالي يفيد بأن منصوراً كان فى طريقه لدارا وأنه سيصل صباح اليوم التالي. كان هذا بالنسبة لي نبأ صاعقًا فقد عنى هذا أن المصاعب والمشاق التى سأكابدها لإعادة احتلال شكا ستكون مضاعفة تماماً. وصباح اليوم التالي وصل منصور مصحوباً ببعض العبيد والذين كانوا على وشك الإنهيار من التعب. حينها علمت أنه قد هجر رجاله بكل خسة، وقد غمره رعب شديد، لدرجة أنه ترك رئاسته بغير آمر لها، بحثًا عن السلام لنفسه في دارا . قمت في الحال بالقاء القبض على هذا الضابط الجبان ووضعته في الحبس ثم قمت ببث العيون في كافة الأنحاء لمعرفة أماكن باقي الطابور وأرجأت في الوقت الراهن أي فكرة لإرسال حملة إلى شكا. وبعد مضي عشرة أيام جاءتني الأنباء المفرحة بأن الجنود المفقودين وصلوا بالقرب من دارا وعلمت أن قائدهم، الذي تسلم الأمر بعد فرار منصور، هو علي أغا جمعة والذي قام بتنفيذ إنسحاب رائع للقوات. ورغم تعرضه باستمرار للهجمات المنهكة أثناء الطريق إلا أنه نجح في احضار كل الجرحي وعدداً من تجار شكا، الذين لجأوا إليه لحمايتهم، لدارا.

خلال تلك الفترة كان سعيد بك جمعة مديراً للفاشر وكنت قد كتبت له عدة مرات ليرسل لي المزيد من القوات والذخائر. لكنني بعد أن وجدت إنه إما لم يستطع أو لايستمع لتعليماتي تحركت في الحال للهشابة حيث أجريت الترتيبات مع مختلف القبائل الصديقة للاقاتي.

الباب السادس

حصار الأبيض وسقوطها

«سعيد باشا، مدير عموم كردفان، يستعد للدفاع عن الأبيض - المهدي يهاجم المدينة ويتم صده عنها بخسائر جسيمة - المبشرون بالدلنج يسقطون في أيدي المهدي - حصار وسقوط بارا - أهوال الحصار بالأبيض - سعيد باشا يرغم علي الاستسلام - مقابلته وحواره مع المهدي - إعدامه».

***

بدافع من إنتصاراته السابقة وإلحاح الياس باشا عليه للتقدم نحو الأبيض غادر المهدي جبل قدير وقد صحبه ألاف مؤلفة من العرب المتعصبين والنخاسين حتي وصل إلي كابا، وهي قرية تقع في أطراف المدينة.

ومن هنا قام بإرسال الخيالة للاستكشاف ولتجميع الذين يرغبون في الإنضمام لراياته. كما كتب أيضاً لمحمد باشا سعيد داعياً له للإستسلام. قرئ خطاب المهدي أمام الضباط فاقترح محمد بك اسكندر ومعظم الضباط أن يتم إعدام الرسل رمياً بالرصاص لكن سعيد باشا لم يوافق علي هذا الاقتراح رغم أنه تراجع بعد ذلك وأيد الحكم والذي نفذ في الحال.

في هذه الأثناء لم يضن محمد أحمد بأي جهد لإثارة روح الحماس للجماهير المتعصبة الذين التفوا من حوله. وكان يعظهم ليلاً ونهاراً عن نعيم الجنة المدخر لكل الذين يشتركون في الجهاد. وفي صبيحة الجمعة الثامن من سبتمبر ١٨٨٢م زحفت هذه الأفواج الهائلة من الرجال، المسلحين بالسيوف والرماح لاغير، كموج البحر نحو المدينة. كانوا قد تركوا كل السلاح الذي غنموه من حملات راشد بك والشلالي باشا وراءهم في قدير. وسرعان ما قامت نيران المدافعين بدورها المميت علي الجماهير الزاحفة والذين لم يبالوا بها بالمرة، لا هم لهم إلا الدم والغنائم، وواصلوا تقدمهم واقتحموا الخندق والاستحكامات وتوغلوا بداخل المدينة المهجورة. وفي هذه اللحظة الحرجة قام الصاغ نسيم أفندي باصدار أمره لنافخ بوقه للأمر بالتقدم وسرعان ماردد نافخوا البوق الآخرون الإشارة وقام الجنود

بتسلق الحوائط والمنازل وصبوا نيراناً قاتلة علي المهاجمين والذين بدأوا تحت وطأة هذا الرصاص المنهمر في التراجع شيئاً فشيئاً تاركين وراءهم الآلاف من الذين قتلوا أوجرحوا. لكنهم تجمعوا كرة أخري وحاولوا الإندفاع والاقتحام لكن تم صدهم مرة أخري بخسائر جسيمة أيضاً فتراجعوا عن مرمي النيران بعد لأي بعد أن انتصرت عليهم تلك الحامية الشجاعة انتصاراً باهراً.

وفي هذه المعركة قتل محمد شقيق المهدي ويوسف شقيق الخليفة عبد الله كما قتل القاضي وعدد من الأمراء . بقي المهدي أثناء الهجوم خلف أحد المنازل، في موقع بعيد عن مرمي النيران. ولو كان سعيد باشا قد استمع لنصيحة أحمد بك دفع الله لمطاردة الدراويش بعد أن تم التنكيل بهم لكان من المحتمل جداً أن يتمكن من أسره وبالتالي يمكن حقن تلك الدماء والأهوال التي جرت فيما بعد.

لكن سعيد باشا أقنع نفسه بهذا النجاح الوقتي واعتقد بأن المهدي قد تم سحقه لدرجة لن يحاول بعدها إعادة الهجوم، وأن هذه الهزيمة ستؤثر حتما علي سمعته ونفوذه. وقد أيقن أقرباء المهدي وأصدقاؤه المقربون ذلك أيضاً وبناءاً علي نصائحهم قام بترحيل معسكره إلي جبل الجنزارة، وهو جبل بعيد عن مرمي النيران في شمال شرق المدينة. ومن هذا الموضع ضرب حصاراً مكشوفاً علي المدينة بينما كان ينتظر وصول الأسلحة والذخائر التي أرسل لجلبها من جبل قدير.

في هذه الأثناء كانت الإرسالية التبشيرية بالدلنج، والتي تأسست قبل ثمانية أعوام، والتي كان يحرسها ثمانون من الحراس العبيد، في وضع حرج منذ وقت طويل.وبينما كان المهدي في طريقة للأبيض أرسل أحد المقربين إليه، الملك عمر، بتعليمات مفادها أن يأسر أو يقتل كل من هناك. وكان الآباء المبشرون، جوزف أورفالدر ولويجي بونومي قد رتبا عملية للفرار مع جنودهم وكل أفراد البعثة إلي فشودة لكن خطتهم لم تنجح بسبب جبن اليوزباشى الذي كان آمراً للقوة. لذا تم إجبارهم علي الاستسلام بعد سلب كل ما كان لديهم وسيقوا أسري إلي الأبيض. وقد بذل المهدي والخليفة عبد الله مافي وسعهما لتحويلهم للإسلام هم والأخوات الراهبات اللائي كن معهم لكنهم بقوا علي دينهم. وفي اليوم التالي أخذوهم وسط صيحات الدراويش المهتاجين لميدان فسيح حيث جري استعراض كبير. كانوا في تلك اللحظات يتوقعون الموت لكن تم اخطارهم بعد فترة بأن

حياتهم لم تعد في خطر ومن ثم تم تسليمهم للبقاء تحت رعاية رجل سوري يدعي جورجي اسطمبولية كان قد انضم للمهدي من الأبيض.

في هذا الوقت ظهر في السماء مذنب مدهش وهو الأمر الذي إعتبره السودانيون كاشارة من السماء بأن الحكومة علي وشك الإنهيار والسقوط، وأن المهدي الحقيقي قد ظهر علي وجه الأرض.

تم إرسال حملة عسكرية بقيادة علي بك لطفي لرفع الحصار عن بارا والأبيض. ولكن بينما كانوا سائرين وقد هدهم العطش هاجمهم عرب الجوامعة بقيادة الفكي رحمة ولم ينج من الألفي رجل الذين تكونت منهم الحملة سوي مائتين نجحوا في الهروب إلي بارا. وسرعان ماتلي ذلك الهجوم علي الطيارة وتم إجبار حاميتها الصغيرة علي الاستسلام، بعد مقاومة باسلة، بنهاية سبتمبر.

ثم جاء دور بارا التي سقطت بعد حصار طويل صمدت فيه. وكانت حاميتها قد ألحقت خسائر جسيمة بالثوار لكن ناراً شبت وأحرقت تقريباً كل الذرة المخزونة. ثم فعل الجوع والمرض أفاعيلهما ولما يئسوا من أي عون قام سرور أفندي، قائد الحامية، والنور عنقرة ومحمد أغا جابو، وبناء علي إلحاح الحامية، بالاستسلام مجبرين وذلك في أوائل يناير ١٨٨٣م علي يد عبد الرحمن ود النجومي والذي إستاقهم إلي الجنزارة.

احتفل المهدي باحتلال بارا وأطلق مائة مدفع لذلك ظنت حامية الأبيض التعسة، عندما سمعت إطلاق المدافع، بأن نجدة قادمة لانقاذها لكنهم عندما علموا بأن باراقد سقطت فقد تضعضعت عزائمهم. فلقد كانوا يعانون منذ شهور كل أهوال المجاعة وارتفعت أسعار الطعام لمستويات خرافية حيث أن السلطات لم تتخذ أي إجراء لتخزين المؤن وبالتالي برزت ندرة شديدة في العيوش بالمدينة.

وقبل شهر من استسلام المدينة بلغ سعر أردب الدخن اربعمائة ريال وكان اللحم لايستطيع شراءه إلا الأثرياء وبكميات قليلة وبلغ سعر الجمل ألفا وخسمائة ريال أما الدجاجة الواحدة فتجاوز سعرها الثلاثين إلي الأربعين ريالاً والبيضة من ريال إلي ريال ونصف. ولقد سبقني رفاقي في الأسر: الأب أو رفالدر وروزينولي في وصف أهوال ذلك

الوقت العصيب والطويل ولا أظن أنني سأكرر هنا ما وصفوه ويكفي فقط أن أقول أنه، وبعد خمسة أشهر من الحصار، ذاق فيه الناس أمر أنواع الحرمان، والذي راح فيه عدد كبير ممن تبقي من السكان ومن رجال الحامية ضحية المجاعة، اضطر محمد سعيد باشا أخيراً للاستسلام مجبراً. كان في وده أن ينسف مخزن الزخيرة والبارود لكن الضباط رجوه ألا يفعل ذلك خوفا علي حياة نسائهم وأطفالهم، ومن ثم اضطر إلي القبول برأيهم. كتب بالتالي للمهدي عارضاً عليه استعداده لتسليم المدينة فرد عليه المهدي مطمئناً وأنه وضباطه لاخوف عليهم. وفي صبيحة اليوم التالي أرسل لهم وفداً من كبار التجار بقيادة مجمدي ود العريق ليخطر سعيد باشا بأن يقوم هو وكبار الضباط بالحامية وكبار التجار بتقديم أنفسهم للمهدي والمثول في حضرته. أحضر الوفد معه عدداً من الجبب، والتي كان عليهم إرتداءها، ثم امتطوا خيولهم وتحرك الركب الحزين يقوده سعيد باشا. وغادروا تلك القلعة التي دافعوا عنها طويلاً وبشجاعة. كان معه محمد بك اسكندر قمندان الحامية والصاغ نسيم افندي وأحمد بك دفع الله ومحمد بك ياسين وعدد كبير من الضباط الآخرين. استقبلهم المهدي بلطف وهو جالس علي عنقريب وضعت عليه فروة ما عز وقدم يده لهم لتقبيلها ثم عفا عنهم، كما أخبرهم بأنه يعلم بالطبع أنهم قد خدعوا بشأنه وتشككوا في مهمته المقدسة. لكنه الآن، وقد عفا عنهم، يطالبهم بأداء قسم الولاء التام والإخلاص له ولرسالته. ولما إنتهي ذلك قدم لهم البلح والماء وأخذ يحثهم بنبذ مباهج الدنيا والتفكير فقط في الآخرة. ثم التفت لسعيد باشا وقال له: «إنني لا ألومك كتركي لقيامك ببذل ما في وسعك للدفاع عن المدينة التي أوكلت إليك. لكنك لم تفعل خيراً بقتلك لرسلي لأنه ليس من المعتاد أن يعاقب الرسل». وقبل أن يجيبه سعيد باشا أسرع اسكندر بك بالإجابة قائلاً: «ياسيدي المهدي: لم يفعل سعيد باشا ذلك لكنني كنت أنا، بصفتي قمندان القلعة، الذي أمرت باعدامهم فقد إعتبرتهم من الثوار لكنني كنت مخطئاً بحق كما قلت أنت». فأجابه المهدي: «لم أقصد بسؤالي أن أطلب منك تبريراً لما قمت به. فقد نال رسلي ما يبتغونه أكثر من أي شئ. وعندما استلموا مني تلك الرسائل ما كانوا يبحثون إلا عن الموت كشهداء وقد تحققت رغبتهم. ولقد منحهم الله الرحيم ما يبتغون وهم الآن ينعمون بكل مباهج الجنان ونسأل الله أن يجعلنا نسير في دربهم».

وأثناء هذا الحوار، وبناء علي خطة مسبقة، قام أبو عنجة ورجاله باحتلال القلعة ومخزن البارود والمباني الحكومية بينما إحتل الأمراء مساكن الضباط. ثم طلب المهدي من ود العريك، والذي كان مقرباً وصديقاً لسعيد باشا، أن يأخذه وضباطه لمنازلهم. لكنهم عندما وصلوا إليها وجدوها قد شغلت وأن ممتلكاتهم قد صودرت. وبعد ذلك بقليل دخل المهدي المدينة لتفقدها وأمر الحامية بمغادرة الخنادق. أما النساء والأطفال والذين كانوا ينتظرون إسعافهم فقد أمروا بالتوجه لمعسكر المهدي بدون أن يسمح لهم بأخذ أي شئ معهم. وقد تم تفتيش النساء تفتيشاً منفراً، وما وجد معهن سلم في الحال لبيت المال، حيث تم بعدها تقسيم الغنائم علي الأمراء وكبار الشخصيات. وقد مورست أثناء التفتيش علي الذهب والكنوز أساليب تقطع نياط القلوب وسمع البكاء والنواح في كافة الأرجاء عندما كان يتم جلد أولئك التعساء حتي يتم الإعتراف بما عندهم.

ثم استدعي سعيد باشا للمثول أمام أحمد ود سليمان، أمين بيت مال المهدي، لتسليم كل ما لديه من أموال لكنه أجاب بأنه لايملك شيئاً. ورغم أنه كان معروفاً بأنه من أغني الرجال لكنه أنكر بعناد حوزته لأي شئ. وعندما سمع المهدي بذلك وجه ود سليمان لاستجواب خدم سعيد باشا بدقة. وأثناء ذلك استمر المهدي في الحديث مع سعيد باشا عن قيم الدين وكان كثيراً ما يسأله أمام المجتمعين عن سبب رفضه الكشف عن مكان إخفاء كنزه وكان سعيد باشا ينفي بأصرار آن لديه أي مال مخبأ. وهكذا مر بعض الوقت ثم رجع ود سليمان بعد حين، بعد أن تمكن في تلك الأثناء من العثور علي خادمة اعترفت له بأن سيدها قد أخفي ماله في جدار حائط، إلي المهدي وهمس في أذنه بأنهم وجدوا المال. أشار إليه المهدي بالجلوس وواصل حديثه عن غرور الدنيا وضرورة نبذها ثم التفت فجأة لسعيد باشا قائلا: « لقد أقسمت يمين الولاء لي فلماذا تصر علي إنكار مكان أموالك؟ فالمال هو رأس كل الشرور. هل تتوقع أن تجمع المزيد منه؟». فأجابه سعيد باشا:«أوه ياسيدي. إنني لا أملك مالاً حلالاً ولا حراماً فافعل معي ما تريد». فأجابه المهدي: «أتظنني رجلاً مثل سائر الناس؟ ألا تفهم بأنني حقاً المهدي المنتظر وأن النبي قد كشف لي عن مخبأ كنزك والذي أخفيته بجدار حائط منزلك؟ إذهب يا أحمد ود سليمان

لمنزله وأدخل غرفته وعلي الجانب الأيسر بالقرب من الباب قم بازالة الجبص من الحائط وستجد هناك كنز التركي فأحضره لي». جلس سعيد باشا أثناء غياب أحمد ودسليمان وهو عابس مقطب الوجه فقد علم أن كنزه قد اكتشف لكن كبرياءه منعه من الإعتراف بكذبه ورفض الاستمرار في الحديث. وفي بضع دقائق عاد سليمان وهو يجرجر خلفه صندوقاً كبيراً من الصفيح قام بوضعه أمام المهدي والذي فتحه ووجده مليئاً بالذهب المعبأ في أكياس صغيرة وبلغت جملة المال الذي تم إحصاؤه سبعة آلاف من الجنيهات. ثم خاطبه المهدي: «محمد سعيد: لقد كذبت علي، لكنني سأصفح عنك. يا أحمد خذ المال لبيت المال وفرقه علي المحتاجين والفقراء». فوقف سعيد باشا وإستدار علي عقبيه وقال للمهدي: « إنك تدعو للزهد، والآن أخذت كل مالي فافعل به ما تشاء». عبس المهدي وقطب جبينه وقال بصوت خافت: «دا ما بنفع معانا». وسرعان ما وجدوا ذريعة لقتل هذا الضابط الشجاع ومعه أيضاً أحمد بك دفع الله وعلي بك شريف وياسين. وهكذا كانت نهاية هؤلاء الرجال الأربعة والذين دافعوا بشجاعة عن الأبيض، لكنهم كانوا يستحقون مصيراً أفضل في الحقيقة.

***

الباب السابع

مجهودات يائسة لإيقاف مد المهدية في دارفور

« توجهت لشكا – معركة أم ورقات – حصاري في الزريبة – إنسحابي لدارا من خلال ديار العدو – مرض ووفاة جوتفريد روت – إرسالي مبعوثين سراً لكردفان – ثورة عرب الميما – علمي بسقوط الأبيض – موت شيخ عريفي – حملتي ضد عرب الميما والخوابير – اكتشاف مؤامرة وسط الجنود في دارا – ضباطي وجنودي يرجعون سبب هزائمنا لكوني مسيحياً – قراري باعتناق الدين الإسلامي إسميا – قراري بارسال زقل بك للأبيض – حملتي علي البني هلبة – بشاري بك يبحث عن الموت ويلاقيه – حرج الموقف في دارفور».

***

بذلت مافي وسعي عند وصولي للهشابة لتنظيم قوة قادرة علي التعامل بنجاح ضد مادبو. وصلت القبائل التي استدعيتها لمساعدة القوات الحكومية وتكونت قواتي بالتالي علي الآتي تقريباً:

* جنود نظاميين مسلحين بالبنادق الرمنقتون – ٥٥٠ رجلاً
* الجلابة ---------------- ٢٠٠ رجلاً
* باذنجر مسلحين تحت قيادة شرف الدين، والتي اشتملت علي القواد عبد الرسول، الشيوخ خدره وأم بتي، ومنجد مدني، وحسن ود سترات، وسلطان بيقو، وسليمان ودفرح، ومسلم ودكباشي، وأخرين ------------ ١٣٠٠ رجل
* آخرين --------------- ١٠٠ رجل
* جملة البنادق ومن بينها ٦٠٠ رمنقتون ---- ---- ٢١٥٠
* إضافة لمدفع جبلي وثلاثه عشر مد فعجياً ---------

كانت قوات القبائل الموالية تمثل كل من البيقو والبرقد وزغاوة جنوب دارفور والمسيرية والداجو وبعض المعاليا المعادين للشيخ أبي سلامة ووصل عددهم الإجمالي لحوالي سبعة ألف من حملة الرماح ومعهم أربعمائة فرس.

وكانت الحامية التي خلفتها ورائي في دارا تتألف من أربعمائة جندي نظامي ومعهم سبعة مدافع والمدفعجية اللازمين لتشغيلها إضافة لثلاثين حصاناً ومائتان وخمسين من البازنقر وكلهم تحت إمرة زقل بك والذي كان قائماً بأعمال المدير والذي كان يشغله قبله إميلياني. وتركت معه أيضاً السويسري جوتفريد روت، والذي كان قد أرسل للسودان في مهمة خاصة بالقضاء علي تجارة الرقيق وكان مطلعاً علي اللغة العربية.

وفي حديث سري دار بيننا أسررت إليه إشتباهي في ولاء زقل وطلبت منه أن يعرف عنه كل مايستطيع عن طريق أقربائه وأن يطلعني بصفه مستمرة عما يعرفه عنه.

وبنهاية أكتوبر تحركت من الهشابة جنوباً ومعي كل قواتي. كانت دار الرزيقات، والتي سرت خلالها، مغطاة بغابات وأحراش كثيفة مما كان يعرضنا بأستمرار لخطر الهجوم، لذا نظمت سيري بطريقة تمنع حدوث أي إضطراب في حالة مباغتتنا بكمَن أو أي مفاجأة كانت.

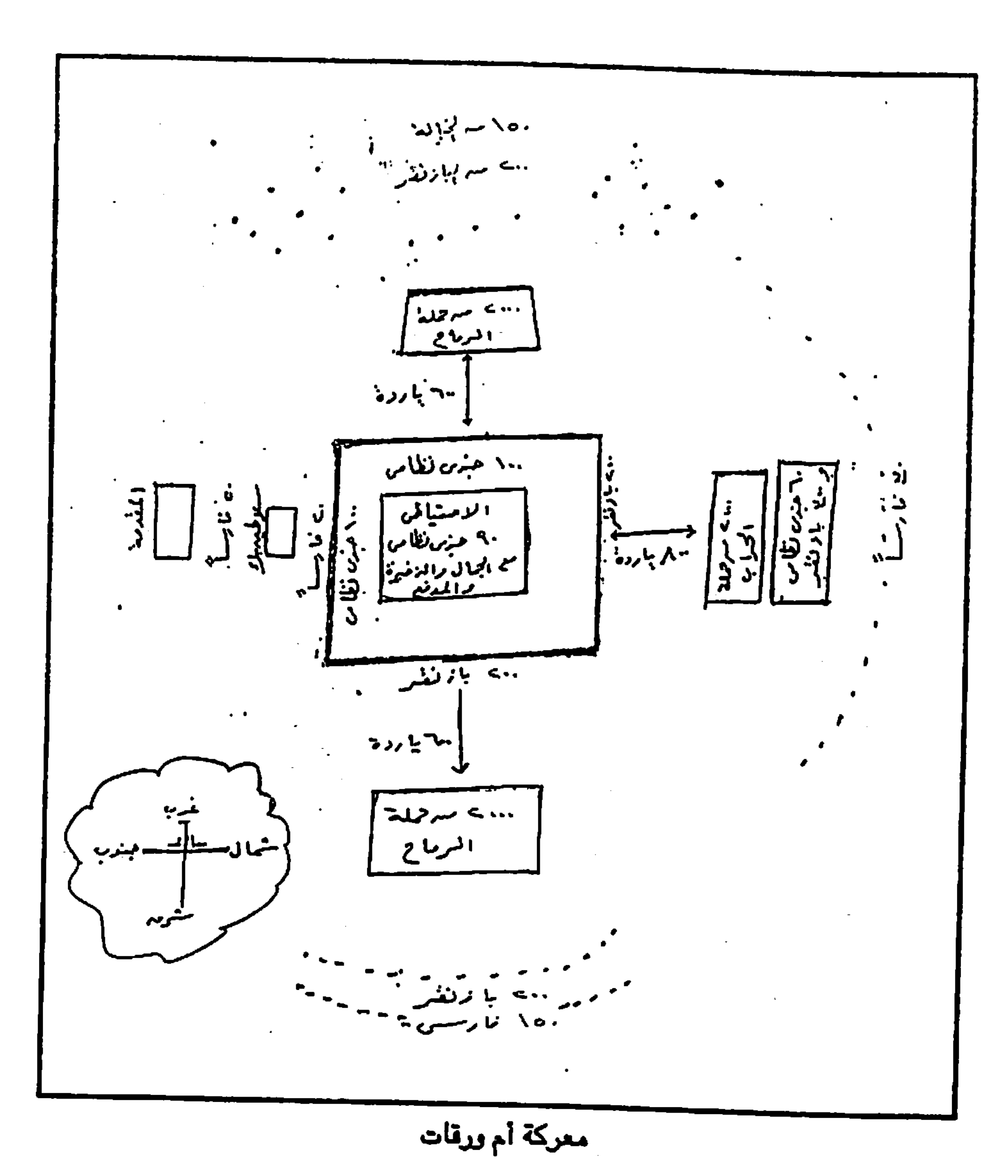
كان البازنقر موزعين علي٤أجنحة الجيش ومزودين بالأبواق كي يتم إنذارنا في اللحظة المناسبة بأي هجوم. أما المؤخرة فجعلتها أقوي من الأجناب والأجنحة لأن من عادة العرب عموماً الهجوم من الخلف. لذلك عملت علي أن يكون لدي وقت كافي لتحويل جزء من القوة الرئيسية عند الضرورة لدعم أي جناح يتعرض للهجوم. لكن أصعب المهمات هي التي وقعت علي عاتق حرس المؤخرة فقد كان من ضمن مهامهم العناية بأي جمال قد تسقط مع الإحتفاظ باليقظة التامة لمراقبة أي رجل يسقط أو يحاول أن يفر. من هنا قررت أن يتم تغيير المؤخرة يومياً برجال من الأجنحة بدورة تبدأ من اليسار وبالتالي يصبح حرس الجناح الأيسر حرساً للمؤخرة وحرس المؤخرة المستبدل يصبح حرساً للجناح الأيمن والأخير يتحول كحرس للُجناح الأيسر كما قمت أيضاً باحلال الثلاثمائة رجل من البازنقر وستين من الجند النظاميين من الجسم الرئيسى للجيش. وكنت أؤمل بهذه الوسيلة أن أصل إلي شكا بدون أي خسائر تذكر حيث أملت أن أبني هناك قلعة أضع عليها مدفعاً ثم آترك حامية صغيرة هناك لأبدأ جولاتي بخطي سريعة لتفقد مختلف مناطق الاضطرابات

حيث يمكن لحملة الرماح من رجالي العرب، إذا ما واتاهم الحظ، أن يجدوا الفرصة الكافية لهم للاستيلاء علي أي أعداد يجدونها من أبقار الرزيقات.

وعند وصولنا للضعين وجدنا كمية من العيوش مخزنة في القرية الجديدة التي بناها مادبو حديثاً وقمت بتوزيعها علي رجالي وصار لديهم بالتالي مؤونة عدة أيام. توقفنا في القرية لثلاثة أيام حتي يتسني لنا أثناءها الحصول علي معلومات عن توفر المياه في الطريق وبعدها واصلنا سيرنا إلي شكا.

كنت أعاني من نوبة حمي شديدة لذا قمت بتسليم القيادة مؤقتاً لشرف الدين، الذي يليني في القيادة، لكنني أمرته بالبقاء بالقرب مني. وفي اليوم التالي، وبعد أن تركت قرية كنديري علي يساري واسترحنا لفترة قصيرة، جاءنا إنذار بأن هناك خيالة في طريقهم للهجوم علينا. وسرعان ما إتخذ كل واحد منا موقعه. وبالرغم من الحمي فقد التحقت بحرس المؤخرة والذين انطلق منهم الإنذار ومن هذا المكان تمكنت من رؤية عدد من الفرسان، ربما كانوا بالمئات، ونظراً لكثافة الأشجار كان من المستحيل أن نقدر عددهم بدقة. أشرت لحرس الجناح للالتحاق بي ثم تقدمت مع رجالي من الخيالة والعرب الراكبين واشتبكنا مع العدو وسط الأشجار وتمكنا من طردهم بخسائر بسيطة لحقت بهم لكنا غنمنا منهم ستة خيول. أما خسارتنا فكانت في مقتل سبعة جياد وفقد رجلين لكن مع عدد كبير من الجرحي. طاردناهم لبعض الوقت ثم عدنا وواصلنا السير حتي حلول الظلام حيث عسكرنا في محل يدعي أم ورقات.

ولما كانت لازلت أعاني من الحمي فقد طلبت من شرف الدين أن يقوم بنفس الترتيبات للجنود (انظر الخطة) ثم واصلنا تحركنا صباح اليوم التالي. وبعد مسيرة ساعتين وصلنا لمكان مكشوف لحدما في أرض سبخة هشة ورأينا علي جانبها الشرقي بضع أكواخ من تلك النوعية التي يقيمها عبيد الرزيقات الذين يعملون في الحقول. كانت المقدمة قد عبرت تلك الأرض السبخة وكنت قد ذهبت معها لتفقد تلك الأكواخ، بينما كان رجالي في المربع.



معركة أم ورقات

«توزيع الجنود عند المسير إلي شكا»



Fight between the Rizighat and Egyptian Troops.

معركة بين الرزيقات والقوات المصرية

منشغلين بمساعدة الخيول التي إنغرزت أرجلها في وحل السبخة، عندما سمعنا من المؤخرة صوت الأبواق مرتين منذراً بالخطر وأعقب ذلك علي الفور إطلاق لنيران البنادق. أمرت حرس المقدمة بالاحتفاظ بالأكواخ وركضت في الحال باتجاه الجناح الأيسر للمربع واستدعيت التسعين جندياً نظامياً من الإحتياط وتوجهت بهم نحو المؤخرة ولكن كان ذلك بعد فوات الوقت. فبعد أن قام البازنقر والجنود النظاميون من حرس المؤخرة باطلاق المجموعة الأولي من النيران هجم عليهم العدو، قبل أن يتمكنوا من إعادة حشو بنادقهم، بجموع كثيفة تفوقهم عدداً من العرب نصف العراة مما أدي لتقهقرهم للجانب الخلفي للمربع ولم يتمكن الرجال من إيقاف إندفاع العدو خوفاً من إصابة الصديق والعدو المختلطين بعد أن تسلل عدد كبير منهم وسطنا. لم أتردد لحظة وأمرت حامل بوقي بنفخ نداء «علي الأرض إنبطحوا» للذين كانوا داخل المربع وشرعنا في إطلاق النار علي العرب الذين دخلوا وعلي الذين لازالوا مندفعين من ورائهم. تمكنت بهذا من إيقاف اندفاعهم مما أدي لإنقسامهم لقسمين تمايلوا يميناً ويساراً واندفعوا نحو حرس الأجنحة والذين كانوا مشتبكين أصلاً مع آخرين من العرب الذين هجموا عليهم من الأمام.

ساد الآن إضطراب وفوضي تجل عن الوصف. فبداخل المربع، كان العرب الذين إخترقوه من قبل، وبالرغم مما لحق بهم من خسائر كبيرة من نيران فرقتي الصغيرة، يلحقون هلاكاً مخيفاً وسط البازنقر العاجزين عن الدفاع والمسلحين ببنادق عتيقة يتم حشوها من الماسورة حيث لم يتمكنوا من فعل شئ. أما الجنود النظاميون فلم يجدوا، لسرعة وفجاءة إندفاع العرب، فرصة حتي لسحب السناكي. وعلي كل حال فلقد تم إبادة كل الذين اخترقوا المربع من العرب. لكن حراس الأجنحة هم الذين تحملوا أكبر الخسائر، فقد هوجموا من الأمام ومن الخلف فأنهاروا، وفروا في كل إتجاه، وقام فرسان الرزيقات، المختبئين في الغابة، بقتل المئات منهم.

لم تستمر الإشتباكات إلا لعشرين دقيقة فقط. لكننا، وفي هذا الوقت الوجيز، تكبدنا خسائر مرعبة. لكن ولحسن الحظ فعندما تشتت شمل حرس أجنحتنا فقد إنشغل العدو بمطاردتهم بالحاح. لقد نجحت نيراني حقاً بطردهم بعيداً عن المربع ولكن علي حساب خسائرنا الجسيمة ويالها من خسارة! فمن بين الجنود النظاميين الذين أطاعوا إشارتي في الإنبطاح أرضاً لم تكن الخسائر جسيمة لكن البازنقر غير المدربين هم الذين قاسوا أشدها وأرعبها، كما أن كثيراً من جمالنا قتلت.

وفي غمرة الفوضى شاهدنا أحد الأعداء ماراً بالقرب منا ويحمل معه كيساً أحمراً يحتوي علي فتائل إطلاق المدفع. لقد ظن أنه حصل علي غنيمة عظيمة. وحقاً كانت كذلك إذ، بدونها، يبقي مدفعنا عاجزاً لافائدة منه.. فناديت ملازمي الشاب الأسود كير، والذي نادراً ما يفارقني، وقلت له: « دعني أري أن كنت شجاعاً حقاً كما إعتدت أن تقول. اذهب بحصاني هذا وأحضر لي الكيس الأحمر». ثم ترجلت عن الحصان وسلمته له. تناول حربة واندفع بالحصان وعاد بعد بضع دقائق ومعه الكيس الأحمر وكذلك بحربته الأكثر إحمراراً.

اختفي آخر الفرسان المهاجمين في الفضاء البعيد وأطلقت إشارة «التجمع» بالبوق. لكن لم يستجب للنداء سوي بضع مئات. قمت بتقسيمهم لفريقين إحتفظت بفريق منهم للحراسة بينما قام الفريق الآخر بتجميع الذخائر والاسلحة من الذين سقطوا ثم حزموها ووضعوها علي ظهر الجمال وقدناها إلي القرية الصغيرة حيث أنزلناها هناك. كانت تلك القرية تقع علي سهل رملي صغير مما أتاح لنا مجالاً جيداً للرؤيا من حولنا. ثم قمنا بجمع كمية من الأشجار والشجيرات الشوكية وشيدنا زريبة بأسرع ما يمكن خوفاً من أن يعود العدو ثانية في أي لحظة. فور انتهائنا من الزريبة وجهنا إنتباهنا نحو الجرحي. كان أولئك الذين جرحوا جراحاً خفيفة قد زحفوا لداخل الزريبة لذا قمنا بحمل ذوي الجراح الشديدة وبذلنا ما في وسعنا للتخفيف عن معاناتهم.

كانت الجثث متناثرة علي الأرض أينما نظرنا. وكم من أعدادها أيضاً كان بداخل الغابة فلم نرهم! ومن غرائب الصدف أن هذه الكارثة قد حلت بالضبط، وفي نفس المكان، وقبل سنين عدة، علي آدم طربوش وزير السلطان حسين، والذي لاقي هزيمة مماثلة فقد فيها حياته.

ثم جاءت الآن لحظة الواجب الأليم وهو نداء الأسماء. فمن بين ضباط المشاة الأربعة عشر قتل عشرة منهم وجرح واحد. وقتل من زعماء الجلابة الشيوخ خضر والمانجل مدني وحسن ودسترات وسليمان ود فتح بالإضافة للفكي أحمد وحسيب وشكيلوب. ومن بين رجال المدفعية الثلاثة عشر لم يعد حياً سوي واحد منهم. أما الإغريقي الاسكندر، الذي كان قد جرح قبلها في الضعين ولم يكن قد تعافي بعد من جراحه، فقد قتل أيضاً. وقد امتلأت قلوبنا بالحزن والأسي ونحن نقوم بتجميع الموتي ونودعهم الوداع الأخير اللائق بهم. وقد وجدنا وسط كومة من الجثث شرف الدين، وقد اخترقت الرماح قلبه ومزقته تمزيقاً. حفرنا القبور علي عجل في الأرض السبخة الرخوة ودفناهم كل إثنين أو ثلاثة في قبر والحزن العميق يلازمنا.

ولم يكن لدينا سوي القليل الذي يمكن أن نقدمه للجرحي المساكين. فالذين كانت إصابتهم خفيفة قد شرعوا بالفعل في تضميد جراحهم. أما ذوي الحالات الشديدة والخطيرة فلم يكن بمقدورنا تضميد جراحهم ولم نستطع سوي تطييب خاطرهم ومواساتهم ببعض الكلمات المناسبة. لقد كان من المؤلم حقاً مشاهدة معاناتهم وكربهم وشعورنا بالعجز التام عن التخفيف عنهم. لفت إنتباهي رؤية أحد غلماني والذي كان يحمل حقيبتي الجلدية المحتوية علي بعض الضمادات. إستلمتها منه وبدأت في تضميد بعض الجراحات لحالة أو اثنتين عندما تذكرت فجأة إنني لم أشاهد منذ فترة غلامي الآخر مرجان حسان، والذي كان يقود أحد أفراسي. كان شابا وسيماً ذكياً لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره إلا بالكاد. وكان أمنياً وهادئاً وشجاعاً. ناديت غلامي الذي كان يحمل

الحقيبة: «عيسي: أين مرجان الذي كان يقود فرسي مبارك (وعلي سرج الفرس كان يوجد دفتري وبعض الرسومات التي خططتها).إنه شاب نشيط وربما امتطي الفرس ودبر وسيلة لهروبه؟». لكن عيسي هز رأسه بأسي، وبقلب مفطور وعيون ممتلئة بالدموع ناولني قطعة من لجام الفرسي فصحت فيه متسائلاً: «ماهذا؟» فأجابني: « ياسيدي. لم أشأ أن أزيدك حزناً فوق حزنك. لقد وجدته غير بعيد من هنا، ممدداً علي الأرض مطعوناً بحربة علي صدره. وعندما شاهدني إبتسم لي وهمس قائلاً: « لقد كنت أعرف إنك ستحضر للبحث عني، قل لسيدي وداعاً وأخبره إنني لست بالجبان وأنني لم أفلت الحصان من يدي إلا عندما سقطت مطعوناً علي الأرض عندما قاموا بقطع اللجام الذي كنت ممسكاً به وذهبوا به. إذهب بباقي اللجام لسيدي وأخبره أن مرجاناً ظل وفياً حتي النهاية. خذ السكين أيضاً من جيبي فهي سكينه وأعطها له مع تبليغ كل السلام له مني». ناولني عيسي السكين وقد إختنق صوته من البكاء أما أنا فقد إنهرت تماماً. مسكين مرجان ! كم كان صغيراً ومخلصاً! ومسكين أنت أيها السيد لفقدك هذا الخادم المخلص والصديق الوفي. ثم سألته: «أخبرني ياعيسي: كيف كانت نهايته؟» فأجابني: «كان عطشاً وأخذت رأسه بين يدي وبعد بضع ثواني كان قد مات. نهضت بعد ذلك وتركته فقد كان لدي العديد من المهام لأدائها ولم يكن لدي وقت للبكاء عليه».

أمرت بتقوية الزريبة وبحفر خنادق بداخلها ثم أمرت بقرع الطبول ونفخ الأبواق ثم أطلقنا بعض الرصاصات في الهواء حتي يسمعها من قد يكون قد هرب أو كان جريحاً وسط الأرض الموحلة فيعرف أننا قد أعددنا ملاذاً وملجأ له. وفعلاً جاءنا أثناء اليوم عدد لا بأس به منهم وعندما بدأنا العد المسائي وجدنا أننا لم نعد سوي تسعمائة رجل، بمافيهم النظاميين والباز نقر، وحقاً كان ذلك أمراً حزيناً فلم يتبق من القوة المكونة من ٨٥٠٠ رجلاً سوي هذه الحفنة المحطمة. رغم ذلك فأن هذا مما يشكر عليه. أما من تبقي من فرساننا وخيالتنا فلم يتجاوز الثلاثين رجلاً وربما تمكن العدو من أسر الكثيرين منهم وربما تمكن

بعضهم من الفرار والعودة لدارا أو إلي بيوتهم لكننا علي كل حال لم نفقد الكثير من السلاح والذخيرة التي تركها القتلي وكان عددها عظيماً.

وعند الغروب كف الرزيقات عن المطاردة وعادوا لنا. ولكن، ولدهشتهم وإستغرابهم، وجدونا في مركز قوي محصن وأننا جاهزون لمقاتلتهم. لذا قام مادبو بإرسال من معه من البازنقر للهجوم علينا لكننا صددناهم بعد مقاومة بسيطة وما أن حل الظلام حتي توقف إطلاق النيران تماماً. كنت جالساً أتحدث مع ضباطي عندما تقدم منا الشيوخ عبد الرسول ومسلم ودكباشي وسلطان بيقو وسألوا إن لم يكن من الأفضل لنا الإنسحاب من موقعنا الحالي تحت ستر الظلام. فبعد هزيمتنا وخسائرنا الثقيلة لم يعد لنا فرصة لمصادمة العدو. لكنني قلت لهم: «حسناً. إن أردتم الانسحاب أثناء الليل فماذا ستفعلون مع كل رفاقنا واخوتنا من الجرحي والمعوقين؟ أترغبون في تركهم تحت رحمة أعدائنا؟» لاذوا بالصمت وقد إكتست وجوههم بالخجل ولم يردوا علي. لكنني واصلت قولي: «لا. إقتراحكم غير مقبول. لقد كنت أبحث الأمر مع ضباطي عند حضوركم وقررنا البقاء حيث نحن لبضع أيام. الآن ليس لدينا ما نخشاه سوي الجوع ولكن يمكننا إطعام الجنود بذبح الجمال الضعيفة أو الجريحة وسنتمكن بطريقة أو بأخري من البقاء لعدة أيام. من المؤكد أننا سنهاجم كما هو جمنا من قبل لكننا واثقون بنفس القدر من صدهم مما سيعيد ثقة الجنود في أنفسهم ثانية بعد الصدمة الرهيبة التي عانينا منها جميعاً. أنني أعرف الرزيقات ولن يبقوا هنا ويراقبوننا. وأنا علي ثقة من تسوية الحساب مع مادبو ومن معه من البازنقر ومع شيخ جانقو الذي هرب من قبل إلى بحر الغزال. سيكون بمقدور جرحانا أن يستعيدوا قواهم بعض الشئ وبامكان ذوي الجراح الخفيفة معاودة السير معنا خلال بضعة أيام أما الآخرون فسنحملهم علي الخيول. لذا أعتقد أن اقتراحاتي هذه هي أفضل كثيراً مما تقدمتم به».

وأثناء حديثي استرقت السمع عندما كان السلطان أبكر يشير بموافقته وعندما فرغت كان الجميع قد وافق علي البقاء.

ثم تحدثت حديثاً عاماً للحاضرين وقلت لهم: «هل بإمكان أي واحد منكم أن يفسر لنا سبب هزيمتنا اليوم؟». فأجابوا جميعاً بالنفى. لذا قلت لهم: «حسناً سأخبركم. فهذا المساء شاهدت وسط الجرحي معاون حسن ود سترات، قائد حرس المؤخرة، وقال لي بأن شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بتبديل حرس المؤخرة كما كنا نفعل في الأيام الماضية وهذا ما تسبب في غيظ وانزعاج القوات النظامية وتوترهم مما أدي بهم للتوجه لفرقهم الأصلية والإنضمام إليها بدون إذن وبدون إرسال جنود آخرين ليحلوا محلهم» وفي نفس الوقت قام العرب الموالون لنا بالالتحاق بحراس الأجنحة. من هنا، وعندما هو جمنا، لم يكن مع حسن ود سترات سوي مائتين وخمسين من البازنقر المسلحين ببنادق عتيقة. لقد دفع شرف الدين حياته ثمناً لإهماله مثلما دفعنا نحن الثمن أيضاً. ثم واصلت حديثي لهم: «ليس هذا وقت التجريم فلنفكر في شئ آخر. إذهبوا إلي رجالكم وارفعوا معنوياتهم وخذوا حظاً من النوم حتي تكونوا علي أهبة لمقابلة ما قد يأتي الغد به أما أنت ياسعيد أغا فولة، وحيث أنك جريح ولن تقدر علي النوم غالباً، فسنجهز لك عنقريباً تستلقي عليه أمام بوابة الزريبة وإذا ما حاول أي واحد الخروج دون إذن مني فعليك رميه بالرصاص».

وعندما جلست الآن وحيداً بعد إنصرافهم أخذت في تقليب الأمور والتدبر في الحال الذي نحن فيه. فمن المحتمل جداً أن ننجح في الإنسحاب والوصول لدارا إذ لدينا أكثر من ثمانمائة بندقية ومدفع واحد. لكن مرارة شعوري بالخسائر التي لحقت بنا وعلي رأسها مصرع كل ضباطي المتازين والمستشارين زادت من خوفي من وصول أنبائها لدارا قبل وصولي شخصياً لها. إذ أن مثل هذه الأنباء، إن سبقت وصولي، سيكون أثرها ماحقاً علي كل من رجال الحامية والأهالي. لذا قمت بايقاظ كاتبي وأمرته بكتابة مذكرتين قصيرتين، إحداهما لزقل والأخري للقمندان صاغ أغا قول محمد فرج، ذكرت فيهما لهما أنه، ورغم

الخسائر الكبيرة التي تكبدناها، فلا زلنا بخير وأننا نأمل في العودة إليهم في دارا خلال إسبوعين. أما اذا تمكن بعض الهاربين من الوصول وبدأوا في نشر الأنباء الكاذبة والمقلقة عن أحوالنا فأن عليهم اعتقالهم وتشديد الحراسة عليهم حتي وصولي. كما كتبت بنفسي بضعة سطور إلي قودفريد روت وصفت له فيه أحوالنا وأخبرته بأننا نأمل في الوصول إليهم قريباً مع من تبقي من الجنود وأن عليه ألا يستكين لليأس بل يعمل مافي وسعه لرفع معنويات الجميع. أرفقت مع خطابي له أيضاً خطابات لوالدتي وأخواني وأخواتي ودعتهم فيها، فقد كان من المستحيل التنبؤ بما سينتهي عليه هذا الوضع، ورجوته ألا يرسل هذه الخطابات إلي أعزائي المذكورين إلا في حالة قتلي.

أخذت الخطابات وذهبت إلي عبد الله أم درامو شيخ عرب المسيرية، الذين يقطنون بالقرب من دارا، وأيقظته من النوم ثم سألته عن مكان أخيه سلامة. أشار إلي رجل راقد بجواره وقال «ها هو». ثم أيقظه من النوم أيضاً. ثم قلت لسلامة: «إن بمقدورك تقديم خدمة عظيمة لي وسيكون مردودها عليك طيباً. أتري هذه الرسائل؟ خذها إلي دارا وسلمها للأوروبي روت الذي كنت تراه دائماً معي. سأعطيك جوادي، الذي كنت كثيراً ما تطنب في مدح صفاته، لإنجاز هذه المهمة. وعليك التحرك في الحال، وعندما تقترب من خطوط الأعداء المحيطين بنا انطلق بأقصي سرعة، سيكونون مستغرقين في النوم ووقتها يكون الظلام قد غطاك قبل أن يجهزوا خيولهم للحاق بك. وعندما تتجاوز خطوطهم ستكون بعدها في مأمن تام وبعدها بيومين ستصل دارا. وكجزاء لك، سأهديك مهرتي السوداء التي ستجدها في اسطبلاتي هناك» وبينما كنت أتحدث كان سلامة قد شد ثيابه حول وسطه وصدره ولم يزد علي قوله: « أين الخطابات؟». سلمته الرسائل ثم قال لي: «باذن الله وعونه سأوصلها لمقصدها. لكنني أفضل ركوب جوادي والذي، رغم أنه ليس في سرعة جوادك، إلا أنه قوي تماماً لإيصالي للديار، فأنا أعرف حصاني وهو يعرفني، وفي مثل هذه الظروف فأن التعارف يكون مفيداً». وعندما كان يشد سرج الحصان كتبت مذكرة إلي

روت طلبت منه فيها أن يسلم حامل هذه الخطابات مهرتي السوداء وسلمته المذكرة بعد أن شرحت له فحواها. وعندما توجهنا نحو بوابة الزريبة وجدنا سعيد أغا فولة الذي كان يتململ علي فراشه والألم يعتصره، فقد كانت جروحه في الساق اليمني والزراع الأيسر له، وأخبرته بمهمة سلامة فأصدر أمره بفتح البوابة له. وفي لحظة واحدة كان سلامة قد قفز علي السرج حاملاً في يده اليمني رمحاً طويلاً وفي يده اليسري حزمة من الحراب الصغيرة وإنطلق في طريقه. قلت له: « استودعك الله وفي حفظه» فأجابني: « إنني واثق بالله». تحرك في بطء وهدوء حتي وصل خطوط العدو بحذر بالغ ثم سمعت صوت حوافر الحصان وهي تدمدم مسرعة وبعدها بدقائق صوت طلقة أو طلقتين من بندقية عكرت صمت الليل ثم عاد كل شئ إلي هدوء كهدوء الموت. صحنا جميعاً: « كان الله معك!» ثم عدنا إلي الزريبة منهكين وسرعان ما غرقت في نوم عميق.

وعندما استيقظت في باكورة الفجر وجدت رجالي منشغلين بتقوية وتحصين الزريبة. وكما توقعت من قبل فقد عاود العدو هجومه مع طلوع الشمس. تبادلنا لبعض الوقت نيراناً حامية لكن العرب، ونظراً لموقعنا القوي، سرعان ما أجبروا علي التراجع بعد تكبدهم لخسائر كبيرة أما من جانبنا فقد قتل منا بعض الجنود وجرح بعض آخر وكان من ضمن القتلي علي ود حجاز وهو جعلي ومن أشجع وأفضل رجال قبيلته. ولما كان في نيتنا البقاء في هذا المكان أربعة أو خمسة أيام فقد شغل الرجال أنفسهم بتقوية الزريبة ودفن الموتي من العدو والصديق بجوار المعسكر حيث بدأت رائحة الجثث تنتشر في الهواء.

قضينا خمسة أيام بالزريبة وكنا نتعرض للهجوم مرة أو مرتين يومياً. وخلال معارك اليوم الثالث تم قتل كورينا نور الذي كان قائداً لحملة بنادق مادبو وأشجع أعرابه وأصلبهم فؤاداً. تسبب مقتله في تراخي هجمات العدو وتضعضع حماسه.

لكننا الآن واجهنا عدواً جديداً ألا وهو المجاعة. فلقد استهلكنا تقريباً كل ما يمكن أكله: فلحوم الجمال التي أشبعت الرجال لفترة إنتهت الآن كما لم يعد لدينا أي حبة من الذرة.

أما أنا وضباطي فقد عشنا لبعض الوقت علي كسيرات من الذرة الجافة وكنا نطبخها مع أوراق نبات الكول والنتيجة هي عصيدة لاطعم لها ولامذاق. لم نكن نأمل في وصول أي نجدة لنا وفي نفس الوقت كان من المستحيل بقاءنا حيث نحن. أنهك الجوع قوانا ومن ثم أمرت بالجمع لكل القوة – وعددها ٩٠٠ رجل – وكلها مسلحة بالبنادق، ما عدا بعض العرب والذين كانوا، لجهلهم باستخدام الأسلحة النارية، لايثقون إلا في رماحهم. خاطبتهم بكلمات قليلة ذكرتهم فيها بأن دماء ضباطهم وشيوخهم القتلي تستصرخهم للانتقام، وأن أطفالهم وزوجاتهم ينتظرون عودتهم بفارغ الصبر، وأنه لاسبيل للوصول إليهم إلا بتحمل الشدائد مع الصبر ومقابلة كل المصاعب بالتحلي بالشجاعة والإقدام. ثم أنهيت خطابي بقولي لهم أن أولئك الذين امتلأت قلوبهم بالهلع والخوف قد فروا يوم المعركة لكن الذين أمامي الآن هم الذين وقفوا بصلابة ضد كافة الصعاب التي واجهتهم وأنني لا أشك بأنهم سيقفون تلك الوقفة أيضاً وأن الله سيكلل جهودنا ويكافئنا بالنصر علي الأعداء.

كانت إجابتهم ممثلة في الهتاف وبهز بنادقهم فوق رؤوسهم، وهي طريقتهم المعتادة لتأكيد طاعتهم وشجاعتهم. ثم صرفتهم بعد إصدار التعليمات باستئناف السير في اليوم التالي. نزعت الزنادات عن البنادق القديمة التي خلفها القتلي، والتي كانت مكومة وسط الزريبة، وألقيناها في وسط بركة للماء ثم قمنا بجمع الدباشك وحرقها في نار عظيمة.

ثم ألقينا قذائف المدفع في الماء ووزعنا باقي الزخيرة علي الجنود حيث حمل كل منهم من ستة عشر إلي ثمانية عشر دستة من الطلقات كما قمنا بتدمير نخيرة البنادق العتيقة أيضاً حتي لا تقع في أيدي الأعداء. كما قمنا بأزالة معدن الرصاص من تلك الزخائر وألقينا بها في حفر عميقة ثم دفنا أولئك الجنود الذين توفوا من جراء إصاباتهم الخطيرة فوقها ليكونوا حرساً علي ذلك المعدن الثمين.

وصباح السبت لليوم السابع من تلك الكارثة تحركنا خارجين من الزريبة وقد شكلنا مربعاً عسكرياً عليه حراس من الأجنحة ومن الخلف وبدأنا الانسحاب. أما الجملين

الوحيدين الذان تبقيا فقد خصصناهم لجر المدفع وسط المربع ثم قمت بارسال إثنين من العرب الخيالة للاستكشاف وعلي أقصي مسافة ممكنة من كل جانب. كان بداخل المربع مائة وستين جريحاً وقام الكثيرون منهم بالمشي علي أقدامهم معنا كلما استطاعوا لكن الذين أعاقتهم الجراح عن المشي فقد حملناهم علي ظهور ما تبقي لنا من خيول، كل إثنين أو ثلاثه منهم علي فرس. استعددت شخصياً للمشي مع رجالي لكن ، وتحت إلحاح شديد من ضباطي، قمت بالركوب مما مكنني من الرؤية الجيدة لما حولنا من الفلاة. كنا نعلم تمام العلم بأننا ما أن نقطع بعض الأرض بعيداً عن الزريبة حتي تتم مهاجمتنا. لذا قمت بحشوا المدفع ونذرنا ألا نبيع أنفسنا بثمن بخس. كنا نعرف أسلوب العرب في القتال وكنا علي ثقة بأننا إذا ما نجحنا في صد الهجمتين أو الثلاثة الأوائل فإنهم لن يقدروا علي تشتيتنا بعد ذلك. قررنا أن نتجه نحو الشمال الشرقي، حيث طبيعة الأرض المكشوفة، لكننا كنا نجهل أماكن الحفائر المليئة بمياه الأمطار حيث أن كل أدلائنا إما قتلوا وإما فروا. وبعد ساعة من استئناف سيرنا، قام فرسان العرب بالهجوم علي مؤخرتنا وشعرت بأن اللحظة الحاسمة قد دنت. توقفنا في الحال واستدعيت حرس الجناح القريب من المربع ثم، مصحوباً بحرسي الخاص المكون من خمسين رجلاً، تقدمت نحو حرس المؤخرة علي مسافة مائتين ياردة تقريباً. كنا قد جررنا المدفع نحو الجانب الخلفي للمربع بينما استعد الكثيرون من الجرحى القادرين علي العمل وتناولوا الذخائر والقنابل ليقوموا بتعبئة المدفع بدون إبطاء. وقبل أن نشاهد مشاة العدو كنا نسمع صوت تقدمهم. وعندما ظهروا أمامنا كانت بضع طلقات من حرس المؤخرة، مصوبة جيداً، كافية لتثبيتهم مؤقتاً. لكنهم تشجعوا بالمدد الذي جاءهم من خلفهم واندفعوا نحونا وهم يهزون رماحهم المشهورة بأيديهم اليمني بينما حملوا باليسري حزماً من الحراب الصغيرة. نجحوا في الاقتراب منا وأصابوا عدداً من رجالنا بالجراح بحرابهم التي كانوا يرمونهم بها. لكن نيراننا فعلت الأفاعيل في صفوفهم بينما أدي المدفع دوره تماماً من مؤخرة المربع. تراجع حملة حرابهم وأفسحوا

المجال لبازنقر مادبو وجانقو وجري تبادل شديد للنيران بين الجانبين حتي جاءتنا نجدة من المربع فتمكنا، بعد عشرين دقيقة من المقاومة العنيفة، من صد الهجوم. كنت عندما بدأ أول إطلاق للنار قد قفزت من حصاني وهو الأمر الذي يعني عند السودانيين بأن القائد يرفض أي إغراء له بالفرار إذا ما واجه الهزيمة وإنه مصمم علي النصر أو الموت مع جنوده. لذا، وعندما انتهي الهجوم باندحارهم، تحلق رجالي من حولي وأخذنا نشد أيدي بعضنا البعض علي هذا النصر الأول لنا.

وعندما كنا منشغلين بعد الهجوم علي مؤخرتنا، كان حرس الجناح الأيسر قد اشتبك أيضاً معهم. ورغم أنه قد تم صد العدو إلا أن حرس جناحنا قد عاني من بعض الخسائر أيضاً فقد جرح أفضل من تبقي من ضباطي، وهو زيدان أغا، جرحاً بليغاً. كان رجلاً نوبياً بالميلاد. وقد أظهر أثناء حملة دارفور شجاعة عظيمة عندما تمكن، وهو علي رأس اثني عشر رجلاً فقط، من استعادة مدفع كان العدو قد غنمه منا. وبسبب هذا العمل المجيد تمت ترقيته لرتبة ضابط. وها هو راقد الآن وقد اخترقت رصاصة رئته اليمني. سألته عن حاله فمد يده لي وغمغم: « الآن وقد إنتصرنا فكل شي علي مايرام». ثم ضغط علي يدي وبعد بضع دقائق كان قد توفي. إضافة له فقد قتل معه عشرون رجلاً وجرح عدد آخر. قمنا بدفن قتلانا علي عجل حيث لم يكن لدينا وقت لحفر قبور لهم لكننا غطيناهم بالتراب للدرجة التي لا تجعل أحداً يلومنا علي ترك قتلانا بدون دفن ومن ثم استأنفنا سيرنا، متخذين نفس الإحتياطات، ولكن بنفوس ملؤها الثقة.

وحوالي الثالثة ظهراً نفخ البوق مشيراً لهجوم آخر علي المؤخرة أيضاً. لكن الهجوم أجهض وطردنا العدو بدون حدوث أي خسائر في جانبنا. ثم توقفنا وشرعنا في تشييد زريبة ونحن نتوقع معاودة الهجوم علينا في أي لحظة. لكننا لدهشتنا لم نلاق أي ازعاج طوال الليل من العدو. وصباح اليوم التالي عند الشروق، وبعد أن نفذ كل مالدينا من الماء، إستأنفنا السير. ومرة أخري هوجمنا لكنه كان ضعيفاً هذه المرة عما سبقه ظهر الأمس

وصددناه بدون مشقة. واستمررنا في طريقنا بدون أن نجد أي ماء ثم ركنا للراحة تحت ظلال الأشجار حيث وجدنا كميات من الفجل البري، يسمي فايو، شهير بعصارته الغنية. كانت ثلاثة وريقات علي سطح الأرض تشير إلي وجوده وقام جنودنا العطشى بامتصاص عصارته بحماس مما خفف من عطشنا لحدما ورغم ذلك لم يكن هناك مناص من أن نجد ماء بأي وسيلة.

بعد استراحة قصيرة عاودنا السير مرة أخري. وبضربة حظ مررنا براعي من الرزيقات يقود أمامه قطيعاً من الضأن. وفي لحظات أمسك الرجال بالخرفان بينما لم يحاول الراعي، الذي غمرته المفاجأة تماماً، الهرب. وربما كان سيتعرض للقتل حتماً قبل أن أندفع نحوه وأمنع رجالي من إيذائه. أمرت بادخال كل القطيع بالمربع وفي هذه الأثناء قام رجالي بتقييد يدي الأعرابي خلف ظهره وأحضروه أمامي. وقبل أن أبدأ في استجوابه أمرت بتوزيع الخراف، التي يزيد عددها علي المئتين، علي رجالي الجائعين بواقع خروف لكل خمسة منهم بينما احتفظنا بعدد قليل لأنفسنا. ويالها من هبة إلهية جاءتنا! ثم التفت نحو الأعرابي وأخبرته أننا سنبقي علي حياته إذا ما دلنا علي حفيرة مياه وأنه، إذا ما أثبت صدقه، فستتم مكافأته مع السماح له بالعودة لدياره. وافق علي ذلك لكنه ذكر أن بهذا الجوار لايوجد سوي القليل من الحفائر الصغيرة. لكننا إن ذهبنا معه لمنطقة أبعد وتوقفنا هناك فسيدلنا علي الفولة البيضاء في صباح الغد الباكر وفيها سنجد ماءاً يكفي لعدة شهور. كنت متشككاً في كلامه لحدما لذا أمرت أحد مساعدي الضباط مع ثمانية من رجالي لحراسته ومراقبته جيداً مع عدم السماح له بالإبتعاد عن ناظري. ثم استأنفنا السير ولم نتوقف إلا عند الغروب حيث شيدنا الزريبة كالمعتاد. كنا قد مررنا علي بضع حفيرات لكنها لم تكن كافية لإرواء عطشنا لذا بكرنا في فجر اليوم التالي بالتحرك وذلك بعد ليلة من القلق الشديد وعدم النوم. وفي منتصف النهار أشار الدليل إلي بضع أشجار ضخمة ذكر أن الفولة تحتها. توقفنا علي الفور وأمرت بانزال المدفع وحشوه وأكملنا

استعداداتنا لمقاومة أي هجوم. فقد بدا لي أن من المحتمل أن يكون العدو، والذي يدرك تماماً مدي معاناتنا من العطش، قد اختبأ في مكان ما بجوار الحفيرة وأنه قد يهاجمنا عند اقترابنا منها. جددت ندائي لرجالي للاستجابة التامة لأي أوامر تصدر وألا يختل نظامهم بأي حال من الأحوال. لكن القوات لم تستطع السيطرة نفسها عندما شاهدت الماء من البعد واندفع رجالي العطشى وسط فوضي ضاربة نحوها . تمكنت من السيطرة علي الأربعين رجلاً من حراسي كما كان هناك حوالي نفس العدد من حرس المؤخرة. ورغم أنني أصدرت نداء بالتجمع مرة وأخري إلا أن أحداً لم يستجب لي بل توغلوا في الماء حتي خصورهم والحبور والإبتهاج يغمرهم. ولكن، وكما كنت أتوقع، كان العدو مختبئاً بالفعل خلف الأشجار - ولحسن الحظ كان ذلك علي مسافة منها - وعندما لاحظوا الهرجلة واضطراب صفوفنا قاموا بهجوم عام من كل الإتجاهات. ركضت بفرسي إلي الأمام، وتبعني حراسي، وفتحنا النيران عليهم بينما قام محمد سليمان بنفس الشئ في المؤخرة وعندما شاهد رجالنا الذين اهتزت معنوياتهم ذلك الوضع هرعوا إلينا في الحال وبعد تبادل حام للنيران تمكنا من طرد العدو ولم نفقد أثناء تلك الفوضي سوي حصان واحد. بعد ذلك اخترنا مكاناً مناسباً بالقرب من الحفيرة وشرعنا في تشييد الزريبة وعند إنتهائنا من ذلك قام الجنود بذبح الخراف وأشعلوا النيران وما مرت ساعة حتي كانوا يستمتعون بأول وجبة طيبة منذ عدة أيام. ولما كنا جميعاً في أشد الحوجة لبعض الراحة فقد قررت البقاء هنا حتي اليوم التالي.

في مساء ذلك اليوم جاءني تقرير من إحدي محطاتنا الخارجية ذكروا فيه أنهم شاهدوا رجلاً ملوحاً بقطعة بيضاء من القماش حيث طلب منهم السماح له بمقابلتي. شعرت بأن من الأفضل ألا يدخل الزريبة ويشاهد كل جرحانا. لذا خرجت له ووجدت أنه أحد عبيد مادبو وقد حمل لي خطاباً من سيده مادبو. في ذلك الخطاب طلب مني مادبو الإستسلام له مع تسليمه كل سلاحنا. كما ذكر لي بأن المهدي يعسكر الآن أمام الأبيض والتي يتوقع أن

يستولي عليها في القريب العاجل، ووعدني أن يعاملني بكل إحترام وأنه سيرسلني إلي المهدي في حماية حراس مأمونين. أمرت بقراءة هذا الخطاب بصوت عال لكل الجنود والذين قابلوه بصيحات الاستهزاء وسألوا العبد إن كان سيده مجنوناً فلم يجد الرجل الذي أصابه الرعب إجابة سوي أنه لايعرف حقيقة ذلك من عدمه. تم التفت إليه بوجه صارم وقلت له بصوت عال حتي يسمعه الجميع: « أخبر مادبو بأن خسائرنا كانت بارادة الله لكننا لم نهزم. إننا نتجول الآن في بلاده كما نشاء وإذا لم يعجبه ذلك فما عليه إلا أن يكون واقعياً إذ ليس لديه القوة ولا الشجاعة حتي يوقفنا. وإذا ما كان حقاً من أتباع المهدي ويود الاستمتاع بمباهج الجنة الموعودة فما عليه إلا الحضور إلينا صباح يوم غد وسنكون في إنتظاره ولن نتحرك من مكاننا هذا حتي يصل.

تجمع معظم الرجال من حولنا الآن وكانوا يستمعون لحديثي هذا وهم يضحكون. وعندما ودعت الرجل الرسول ترجاه بعض الخبثاء بأن يبلغ مادبو تحاياهم وبأنهم يأملون في القريب العاجل بلقائه والتعرف عليه شخصياً. كان رجالي الآن في قمة الروح المعنوية وأرادوا حقاً لقاء مادبو حتي يزيلوا، إن أمكنهم ذلك، آثار الهزيمة التي ألحقها بهم في أم ورقات.

وعند المساء قمت باهداء الدليل قطعة من قماش أحمر وزوج من الحجول وبضع ريالات ، كنت من استدنتها من التجار الذين نجوا من الهلاك في المعارك، ومن ثم غادر الزريبة وهو مفعم بالعرفان. كما طلبت منه، إذا ما جاء لدارا، الاتصال بي حتي أعطيه قيمة ما صادرناه من خرافه.

تأكدنا في اليوم التالي بأن مادبو ليس بعيداً عنا وكان علينا أن نكون في غاية الحذر بعد تحدينا وسخريتنا منه بالأمس. لكنه لم يقم بالهجوم علينا. وفي صبيحة اليوم التالي أصدرت أوامري بالتحرك ووصلنا بير دلوي في اليوم التالي وبعدها واصلنا مسيرتنا دون أي عائق حتي دارا.

وأثناء سيرنا جاءتني خطابات تفيد بأن سلامة، الذي كنت قد أرسلته من أم ورقات، قد وصل بسلام. كما أبلغوني بتواتر الشائعات بأن الميما قد عقدوا النية للثورة. أما روت فقد كتب لي خطاباً، بخط مقروء بالكاد، يخبرني باصابته بالمرض منذ السبت الماضي وبأنه متشوق لمقابلتي ورؤيتي. أيضاً جاءني تقرير من عمر ود ترحو يفيد بأنه سمع بحصار الأبيض وأنه لايظن أن عرب الحمر سيجرؤون علي مهاجمة أم شنقة مرة أخري خاصة بعد هزائمهم المتكررة. أما تقارير مدير الفاشر فقد كانت مرضية عموماً فيما عدا ما يخص عرب الميما. أما عن أحوال كبكابية وكلكل فقد كان كل شئ علي ما يرام.

ثم بدا لي أن أهتم الآن بشئوني الخاصة. لقد جرحت في المعارك العديدة التي خضتها ثلاثة مرات وقد حطمت رصاصة أحد أصابع يدي اليمني مما إضطرني لاستئصاله من قاعدته كما تضررت بقية أصابع يدي أيضاً. رصاصة أخري ضربتني في أعلي ساقي وتمددت حتي العظم مما جعله بارزاً كما أصبت بطعنة من حربة علي ركبتي اليمني. ورغم تلك الجراح تمكنت من قيادة الحملات بدون معاناة تذكر. لكنني بدأت الآن اشعر بالضعف والإرهاق الشديد وسعدت بالتالي ببضع أيام من الراحة.

وجدت قوتفريد روت المسكين في حالة حرجة من المرض وأراد التوجه للفاشر لتغيير الهواء لذا أرسلته في معية أحد ضباطي ووجهته بأخذه لمنزلي بالفاشر. وفي نفس الوقت كتبت خطاباً لتاجر إغريقي يدعي ديمتري سجادة وطلبت منه بذل مافي وسعه للمريض.

كانت الأخبار المتواترة من كردفان تتسم بالتناقض رغم أنها لم تكن مرضية في عمومها وشرعت في البحث عن وسيلة للحصول علي أخبار موثوق بها. لذا قمت بارسال خالد ود إمام ومحمد ود عيسي، وهو رجل وفي للغاية، إلي تلك المديرية مع تعليمات إما بتبليغي بالحاصل بأقل قدر من التأخير أو بالعودة لي شخصياً بالأخبار من هناك. كان خالد ود إمام قد نشأ مع زقل. ورغم أنهما لم يكونا من الأقارب إلا أن الجميع إعتبروهم كاخوة. كان السبب في إرسالي له مع عيسي هو لحمايته خاصة في الأبيض ولقد نجح

مخططي نجاحا باهراً. فقد كان خالد حريصاً علي إرضاء زقل وألا يتسبب في غضبه عليه علماً بأن زقل بقي معي في دارا. في نفس الوقت نبهت عيسي للحفاظ علي أفضل الصلات مع خالد وللعمل علي محاولة معرفة إن كان زقل علي إتصال بالمهدي ثم العودة لي تحت أي ظرف من الظروف وبأسرع ما يمكنه ذلك.

بعد إثني عشر يوماً عادت القافلة التي كنت قد أرسلتها مع قوتفريد روت لاحضار الذخائر من الفاشر ومعها الخمسين جملاً محملة بمائة صندوق من ذخيرة الرمنقتون وعشرة قناطير من الرصاص. وقد أبدي سيد بك أعذاره المعهودة بأنه لم يجد جمالاً لإستئجارها أما آدم عامر فقد كتب قائلاً بأنه نسبة لتوقع إضطراب الأحوال في مركز الفاشر فقد كان من المستحيل عليه إرسال التعزيزات التي طلبتها منه.

إتضح الموقف تماماً لي الآن. لقد كان الضباط، بدون شك، معادين لي وتحدثوا فيما بينهم ونشروا الإشاعات بطول المنطقة وعرضها بأن أحمد باشا عرابي قد إنقلب علي سيده الخديوي وطرده من مصر لأنه كان علي صلة وثيقة بالنصاري، الذين أدخلهم في خدمته، وأن عرابي الآن هو سيد البلاد المصرية وقد قام بطرد كل من لم يكن مصرياً، مثل الأتراك والشراكسة، وصادر ممتلكاتهم وضمها لمصلحة الحكومة. كما أشاعوا أيضاً بأنني قد طردت من الخدمة ولكن، وبسبب من إنقطاع الطرق، فأن خطاب فصلي لم يصل بعد. وبالطبع فأن أكثر العقلاء لم يأخذوا بهذه الروايات الغبية ولكن لاشك في أن هيبتي وسلطتي قد تأثرت بوضوح من جراء تلك الإشاعات خاصة وقد إستغلها من كانت بيني وبينهم ضغينة لأقصي مدي. ورغم أنه لم يحدث عصيان واضح لأوامري إلا أن الأعذار تكررت كثيراً وصار من الواضح الميل لعدم التعاون أو الاستجابة لها. هذا هو الوضع علي أية حال وما علي إلا أن أتماشي معهم وأن أظهر الإنشراح بقدر ما استطيع في هذه الظروف. تذكرت المثل العربي الذي يقول: «الكلب ينبح والجمل ماشي» بكلمات أخري قدرت أنه من الأفضل عدم الإكتراث لمثل هذه النقنقة.

ثم حمل لي البريد نبأ وفاة قوتفريد روت المسكين. كانت صحته قد تدهورت شيئاً فشئ رغم العناية بتمريضه والإهتمام به وتم دفنه في الفاشر بجوار دكتور فوند وفريدرش روسيت واللذان توفيا هناك قبل بضع سنوات.

دخل الميما الآن في حالة واضحة من الثورة. لذا أصدرت تعليماتي لعمر ود ترحو للتوجه نحو ديارهم بقوة من مائتين من الجنود النظامية ومائتين من الخيالة ومعاقبتهم وفي نفس الوقت قررت التعامل مع الخوابير والذين كانوا متحدين مع الميما. توجه ترحو إليهم وقاد حملة ناجحة سريعة هزم فيها الميما في منطقة فافا ووودة بينما توجهت مع مائة وخمسين نظامياً وخمسين من الخيالة، عن طريق شعيرية، إلي بير أم لواي حيث كان الخوابير، بعد أن تنبهوا لقدومي، في الإنتظار استعداداً للهجوم علي. وبعد معركة قصيرة تمت هزيمتهم وتشتيت شملهم وغنمنا عدداً معتبراً من المواشي والضأن.

وبانتهاء تلك العمليات وجهت ترحو للإنضمام لي في بئر أم لواي مع بقية رجاله. وقد وصل بعد بضعة أيام وقدم لي بياناً مفصلاً بكل ما قام به إضافة لمعلومات أخري عن نجاحات المهدي في كردفان والتي كانت بالنسبة لي أخباراً مقلقة للغاية.

هذا وفي الليلة التي كنت أكتب فيها تعليماتي بخصوص الحملة علي الخوابير جاء المدعو عبد الرحمن ودشريف وطلب مقابلتي علي وجه السرعة. كان تاجراً معروفاً من تجار دارا وسافر من قبل كثيراً للخرطوم. بدأ قوله بأنني دائماً ماكنت أعامله بالعطف والإحسان لذا يري أن من واجبه إخطاري بأن الأبيض قد سقطت وأنه يري بأن معرفتي المبكرة لهذا النبأ الحزين قد تساعدني في اتخاذ ما أراه ضرورياً من تحوطات. كانت أخباره تلك ضربة قاصمة لي لكنني شكرته على إفادته وبعدها أخذ يصف لي بالتفصيل ما جري. فقد كان حاضراً عندما تم الاستسلام وبعد ثلاثة أيام من ذلك بارح المنطقة متوجهاً إلى دارا لزيارة أسرته. ولما كان بالطويشة علم بأنني موجود في بير أم لواي لذلك توجه فوراً لي، لأن مثل تلك الأخبار يستحسن أن تأتي دائما من صديق.

ولما كنت أدرك عدم جدوي كتمان مثل هذا السر قمت باستدعاء ترحو وسليمان بسيوني وأخبرتهم بما سمعت. وشرعنا في البحث عن الخطوات التي علينا الآن اتخاذها ،

فلقد شكلت هذه الأحداث دافعًا قويًا وحافزًا للذين يعادون الحكومة لذا كان بقائي في دارا الآن ذي أهمية قصوى.

ولما كنا قد عاقبنا لخوابير والميما فأن المهمة التالية تتمثل في إرسال حملة إلي الطويشة. وفي اليوم التالي كتبت إلى سيد بك جمعة للقيام باخلاء أم شنقة وترحيل الحامية والتجار، وأي آخرين ممن لهم الرغبة، إلي الفاشر. وأوضحت أنه طالما سقطت الأبيض فمن الواضح أن يتحول العرب الآن على أم شنقة والتي إذا ما سقطت فأن من العسير علينا نجدتها. كما أن من الضروري، وفي كافة الأحوال، أن يتم تركيز القوات الرئيسية لنا بالفاشر إضافة لذلك أمرته باقامة نقطة قوية في كل من فافا وودا من بلاد الميما وذلك لتأمين فتح الطريق بين الفاشر ودارا. أما عمر ود ترحو ورجاله فقد وجهتهم للعودة إلى الفاشر وأضفت قائلا: إن أي غنائم أخذت من الميما يجب توزعها على رجاله ورجال حامية الفاشر، أما غنائم الخوابير فيتم إحضارها لتوزيعها على قوات دارا. وفي اليوم التالي إفترقنا: ترحو صوب الفاشر وأنا إلى دارا.

إنتشر نبأ سقوط الأبيض في كل مكان وظهر أثر ذلك جليا على القبائل العربية وصارت اجتماعاتهم تعقد في كافة أنحاء المنطقة حيث قرروا بالإجماع تقريبًا القيام بالثورة ضد الحكومة.

وعند وصولي لدارا أمرت في الحال بشراء كل ما يمكن شراؤه من الذرة. ورغم أن مخزوناتنا منها كان جيدة إلا أن المزيد منها سيكون في صالحنا تماماً. في هذه الأثناء أرسل لي عريفي خبراً يفيد بأن قبيلته قد إنضمت للثوار الرزيقات لكنه هو شخصياً، والتزاماً بعهده لي، سيغادر بلاده مع أهله وأقاربه ليحضر لي عن طريق ديار البني هلبة وأنه أرسل أخاه علي برسالة إلي البشاري بك ودبكر، زعيم البني هلبة، والذي كان علي عهود وثيقة معه، للسماح له بالمرور بأمان خلال دياره لذا فهو يأمل في الوصول لي خلال بضعة أيام.

كنت في إنتظار وصوله عندما جاءتني الأخبار المؤسفة بأنه قد قتل. وفيه فقدت أعظم أصدقائي المخلصين من العرب. ثم علمنا أن البني هلبة، والذين تلقوا أوامر من شيخهم للسماح له بالمرور، أرادوا أن يستلبوا منه مواشيه وقطعان ضأنه وعندما رفض تسليمها نشب بينهم قتال ضاري أبدي فيه ضروباً من الشجاعة إلي أن قذف بحربة كان راميها مختبئاً بين الأشجار فخر صريعاً عندما كان مشغولا بمطاردة بعض العرب الخيالة والذين كان قد نجح في دحرهم مرتين من قبل.

ثم عاد الآن محمد ودعيسي، الذي كنت قد أرسلته مع خالد ود إمام، من كردفان وأوضح لي كل تفاصيل الوضع هناك إضافة للأخبار السارة بأن الحكومة بدأت في تجميع قوة ضخمة بالخرطوم بغرض إعادة فتح كردفان لكن هذا الأمر قد يستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يتحركوا نحوها. وجهته بالقيام بنشر هذا الخبر في كل الجهات ثم استفسرته عن علاقة زقل بالمهدي وإن كان علي إتصال به فأجابني انه لم يتمكن من تأكيد أي تواصل بينهما رغم تقصيه الأمر بعناية وإهتمام. رغم ذلك فانه لا يشك أبداً في تلقي زقل لرسائل شفوية من المهدي عن طريق التجار المتجولين وأنه يوافقني الرأي في أن زقل بوظيفته الكبيرة وتعليمه لابد أن يكون علي علم بدوافع الثورة الحقيقية ولهذا فلن يغامر بالدخول في أي تصرف غير محسوب العواقب.

ولاشك في أن سقوط الأبيض قد أضعف موقفنا كثيراً. وبسقوط كل كردفان في أيدي المهدي فلابد لنا من إتباع أقصي درجات الحذر واليقظة. أما ما جاء به ودعيسي عن الحملة التي يتم الإعداد لها في الخرطوم فلا شك أنها ستكون ذات أثر كبير علي المهدي مما يدفعه لتجميع قواته وتركيزها ليتمكن من مقاومة الزحف القادم بهذه القوات ولذا ليس من المحتمل أن يستدير نحونا في الوقت الراهن. وما علينا إلا أن نوجه كل اهتماماتنا لثورة القبائل العربية، والذين ألهبت مشاعرهم أنباء سقوط الأبيض، وهيجتهم الدعايات المتعصبة، حتي صاروا علي أتم إستعداد للمضي لأقصي مدي مع الثورة. ولما كانت التجريدة التي تنوي الحكومة إرسالها لكردفان لن تنتهي من مهامها حتي حلول الشتاء لذا كان علينا بذل كل ما يمكن من جهد، وبأي وسيلة، للصمود حتي ذلك الحين.

وبالرغم من إتمام إنشاء المحطات العسكرية بكل من فافا و وودا إلا أن عرب الخوابير في بير أم لواي قد تجمعوا مرة أخري، والتحق بهم عدد من الميما الذين أقلقهم انقطاع الطرق المؤدية لديارهم والذين أثارتهم أيضاً أنباء سقوط الأبيض، فصاروا الآن يعملون علي إهاجة كل المنطقة بين الفاشر ودارا في الوقت الذي كانت الجنود في فافا بقوة غير كافية لصدهم. لذا قررت شن حملة أخري ضدهم لأثبت لهم أن سقوط الأبيض لم يؤثر علي عزيمتنا وقوتنا. قمت بأختيار مائتين وخمسين من قدامي الجنود الذين عتقتهم الحروب وشرعت في تدريبهم علي استخدام السنكي لعدة أيام قبل تحركي الذي أخفيت ميعاده عن الجميع.

أخذت معي سبعين جواداً، هي كل ما تمكنت من جمعه، وأوكلت لود العاصي مهمة إبلاغي أولا بأول عن الأحداث في دارا طيلة فترة غيابي عنها وشرعت في المسير بسرعة ووصلت خلال يومين إلي الجوار من بير أم لواي التي تجمع كل من الخوابير والميما عندها. لم نحمل معنا سوي اسلحتنا وذخائرها لأن غرضي كان في الهجوم عليهم ومن ثم العودة. وفي اللحظة التي شاهدنا فيها العدو أصدرت أوامري بتثبيت السناكي علي البنادق. وبالرغم من البازنقر وبنادقهم فأننا طردناهم وشتتنا شملهم بعد حرب سريعة إمتدت لعشرين دقيقة. لم يتمكن سوي قلة من الميما من اختراق صفوف رجالي لكن تم طعنهم جميعاً بالسناكي. ثم أمرت الخيالة أن يردفوا خلفهم الجنود النظاميين ويطاردوا فلولهم وبعدها يقومون بما في وسعهم لمعرفة أماكن تخزين البطيخ حيث من المتوقع أن يتجه إليها من فرو لإرواء عطشهم. تم تنفيذ هذا الأمر بدقة وتم تحطيم كل البطيخ وأسر عدد من النساء والأطفال أما رجال القبائل فقد تبعثروا في أنحاء المنطقة بحثاً عما يطفئ ظمأهم وكثيرون منهم ماتوا عطشاً. وفي اليوم التالي قمنا باحراق معسكر العدو وأمرت بترحيل النساء والأطفال إلي بيرأم لواي ولولا ذلك لهلكوا جميعاً. ثم بدأت في الهجوم علي أم لواي لكن العدو وقف أمامنا بصلابة ودافع بشدة حتي أنني خسرت ستة عشر من جنودي قتلوا وعشرين جرحوا. ومن هذه الخسائر إستدركت قلة من تبقي معي من الجنود

النظاميين الذين يمكن الإعتماد عليهم بينما كان العدو، حتي إذا ما تمت هزيمته، يزداد عدداً يوماً بعد يوم.

أصبحت الأوروبي الوحيد في هذه البلاد الغريبة وسط سكان متآمرين وغير ودودين وصار همي إستخدام كل الوسائل لإكتشاف المؤامرات والأحابيل التي يحيكها أولئك الذين من حولي وكنت أحياناً، باستخدام المال أو بعض الهدايا التي أوزعها سراً، أتمكن من معرفة ما قد يحدث مقدماً وبالتالي أتخذ الخطوات اللازمة لدرئها. استعنت بخدمي أيضاً للحصول علي معلومات من بعض نسوة المدينة من صانعات المريسة التي يشربها الناس من الطبقات الدنيا في مواخيرهن. كانت تلك المنازل مراكز للقاء بين المتسكعين والثرثارين ومروجي الإشاعات الذين ما أن تغمرهم نشوة الشراب حتي يبدأون في الثرثرة وإطلاق ألسنتهم بدون أي تحفظ. وكان خدمي يخبرونني بما يدور بينهم من حديث، في غمرة الشراب، عن النهضة الدينية العظيمة التي قام بها المهدي والتي، كما قد نتصور، لم تكن تجد تعاطفاً من رواد تلك الأماكن. لكنهم أجمعوا علي أن إستخدام الحكومة لأعداد كبيرة من النصاري والكفار، في مراكز كبيرة، وتكليفهم بمكافحة هذا المصلح الديني، سيؤدي إلي أوخم العواقب. وقد أفادني خدمي بأن الجنود الذين إعتادوا علي إرتياد تلك الأماكن سيئة السمعة كانوا كثيراً ما يقولون بأنهم، وبالرغم من حبهم لي، فأنهم يرجعون سبب خسائرنا في المعارك لكوني مسيحي الديانة. وكنت أدرك أن هذه الأقاويل لم تكن من نتاج عقول الجنود السود والذين، من ناحية عامة، لايكترثون كثيراً بالدين لكن الذين يروجون ذلك هم أولئك الذين يقومون بما في وسعهم لتشويه سلطتي وهيبتي بين الناس وبث كراهيتهم لي. وعند عودتي من أم لواي وجدت المزيد من الأخبار الخطيرة في انتظاري. وحدثني خدمي أن إجتماعات يومية كانت تعقد في أحد المواخير التابعة لامرأة تعمل لحسابي وفيها كان الجنود يبحثون أمر الفرار الجماعي منا. وعند التقصي وجدت أن المحرضين الرئيسيين كانوا من صف الضباط من قبيلة الفور والذين كما علمت قد تعبوا من القتال المتواصل والذين كانوا يعلنون أن أيام حكم الأتراك قد صارت معدودة. تلخصت

خطتهم في الفرار إلي السلطان دود بنجة، الذي خلف السلطان هارون، والذي يقيم في المنحدرات الغربية لجبل مرة. ولما كان أكثر رجالي وأقواهم من قبيلة الفور فقد إتخذ الأمر منحي خطيراً. لذا أرسلت لقائد الكتيبة الصاغ أغا قول محمد فرج أفندي وأخبرته بما سمعت. أبدي لي انزعاجه الشديد ودهشته وأكد لي أنه لايعلم شيئاً عن هذا الأمر وأنه سيقوم بالتقصي عن جذور المؤامرة ويقدم المسئولين عنها إلي العدالة. طلبت منه توخي السرية والحذر وألا يقوم بعمل شئ يثير أقل ريبة. وبينما كان معي أرسلت لخادمي وسلمته كيساً مليئاً بالنقود لتوصيله لتلك المرأة وطالباً منها دعوة كل الرجال المتآمرين إلي منزلها في اليوم التالي وأن تبذل ما في وسعها للترويح عنهم وإرضائهم علي نفقتها. وفي نفس الوقت أخبرت خادمي أن يقوم باغرائها لتخبئه في مكان ما بالمنزل يستطيع منه التصنت لما يقولون، وأنها إذا ما قامت بتنفيذ تعليماتي هذه بدرجة مرضية فسأكافئها بسخاء. وسرعان ما رجع خادمي وذكر بأنه قد رتب كل شئ.

وفي اليوم الذي تلي تلك الدعوة للترويح قمت باستدعاء الصاغ أغا قول وسلمته أسماء ستة من قادة المؤامرة وأمرته بالقاء القبض عليهم في الحال. أكثر من ذلك، استطعت أن أقدم له تفاصيل خطتهم والتاريخ المحدد لبدء التنفيذ. وبعد نصف ساعة عاد لي ومعه الأسري الستة بعد ربط أيديهم وراء ظهورهم. كانوا ستة من العريفين والرقباء من قبيلة الفور وجاء معهم ثلة من القواصين والخدم والنظارة والذين قمت بطردهم ثم، وفي حضور قائدهم، سألتهم عما دفعهم للتمرد علي سلطة الحكومة. لكنهم أنكروا تماماً أن لديهم مثل هذه النوايا وأكدوا لي براءتهم مما نسب إليهم. لذا قلت لهم: «لكنني علي أتم العلم بأنكم كنتم تعقدون اجتماعات في منزل رفيقتكم خديجة. ولقد مددت لكم حبل الصبر حتي تثوبوا إلي رشدكم لكنكم كنتم تزدادون عصياناً وتمرداً كل يوم. وبالأمس كنتم مع خديجة تشربون المريسة واتفقتم علي تنفيذ خطتكم بعد غد. وكان هدفكم الإنضمام إلي أصدقائكم في الفصائل الثالثة والرابعة والخامسة وبعد إستلام الأسلحة تقومون بفتح الباب الغربي للقلعة والتوجه إلي السلطان عبد الله وأنكم كنتم، إذا ما دعي الحال، ستلجأون للقوة لتنفيذ

أهدافكم. ألم تؤكد بالأمس أيها الرقيب محمد بأن معك حوالي مئتي رجل خاضعين لك؟ إنكم ترون الآن بأنني أعلم كل شئ وأن من غير المجدي إنكاركم لذلك».

إستمعوا إلي في سكون تام فقد عرفوا أن أمرهم قد كشف لذا إعترفوا في الحال بدورهم وسألوني العفو فأجبتهم: «هذا الأمر قد خرج من يدي. إذهبوا الآن مع قائدكم وإعترفوا علناً بذنبكم في حضور بقية الضباط وسيقرر القانون ما يفعل». ثم بعد ذلك أمرت القائد لتشكيل مجلس عسكري وأن يعمل علي أن يحضره كل صف الضباط أثناء تدوين إفاداتهم. وفي نفس الوقت حذرته بأن يكون معلوماً للجميع (لأنني خفت من فرار بعض الرجال الآخرين) أنه لن تتم معاقبة المتورطين الآخرين وأنني أعتبر أن المسئولية كاملة تقع علي كاهل صف الضباط المعتقلين. وفي ظهيرة نفس اليوم قدمت إلي محاضر الجلسات مصحوبة باعترافات المتهمين الكاملة ولكنها لم تكن مصحوبة بالأحكام لذا أعدتها للمحكمة العسكرية لإصدار الحكم عليهم وبعد ذلك بقليل حضر إلي قائدهم القمندان. لقد حكمت عليهم المحكمة بالإعدام لكنها أوصت بالرأفة بهم. لكن كان لابد، من وجهة نظري، أن يكون العصاة عبرة لمن يعتبر. ورغم أن الألم كان يعتصرني فأنني قمت بتأييد حكم الإعدام وأمرت بتنفيذه في الحال.

تم إحضار القوات النظامية وغير النظامية في طابور إلي ميدان يقع خارج الزريبة وتم حفر ستة مقابر وقام الرجال المدانون، والذين لم يبدو عليهم أي مظهر للخوف، بأداء ركعتين قصيرتين ثم إقتيدوا لحواف القبور وهناك أطلق عليهم النار ستة من فرق الإعدام. ثم خاطبت الرجال المجتمعين وحذرتهم من أن أي أحد منهم يضبط بتهمة التمرد، أو السلوك الذي ينم علي العصيان، أو التحريض عليه، سيلاقي نفس المصير. وحدثتهم بثقتي بأن ماجري سيكون هو الأول والأخير من نوعه الذي سيعرض علي وقلت لهم إنني آمل بأننا سنكون علي أتم وفاق وصداقة في المستقبل وستثبت لهم الأيام ذلك. بعد ذلك أمرت بعودة الحامية إلي داخل القلعة.

كنت حزيناً متعكر المزاج. وأخذت أفكر في العدد الكبير من أفضل رجالنا والذين فقدناهم في المعارك وإضطراري الآن لإتخاذ أقسى الإجراءات للحفاظ على النظام. لقد كانت المؤامرات تحيطني ولا تهدف إلا لتهديم سلطتي، والمتآمرون لايعلمون بأنهم إذا ما نجحوا فلن يصيروا في حال أفضل مما هم عليه الآن. وبالفعل سيأتي الوقت الذي سيكونون فيه في غاية السعادة لإطاعة ذلك الأوروبي الذي يحتقرونه الآن.

ذلك المساء أرسلت لإستدعاء محمد أفندي فرج وسألته عن مجريات الأمور في ذلك اليوم وعن مدي تجاوب رجالي مع عمليات الإعدام التي تمت، وأوضحت له وجهة نظري في أن الجنود متفهمون تماماً أن ما لاقاه ضباط صفهم من عقاب كانوا يستحقونه تماماً. أكثر من ذلك فأنني كنت رحيماً إذ لم أتخذ أي خطوات تجاه بقية الجنود المتورطين في المؤامرة ثم قلت له: « والآن يافرج أفندي: أريدك أن تكون واضحاً وصريحاً معي. إنني أدرك مدي مودتك لي وإلا لما طلبت منك الحضور لنتحدث علي انفراد. أخبرني كيف ينظر لي عموم الضباط والجنود – ما عدا أولئك الذين لاتهمهم سوي مصالحهم الأنانية الشخصية؟».

وبالرغم من عدم تعوده علي هذا الأسلوب من الحوار الصريح إلا أنه أجاب بقوله: « إنهم معجبون بك ويحبونك لأنك تدفع لهم استحقاقاتهم بانتظام، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث من قبل. إضافة لذلك فأنهم ممتنون لأسلوبك في توزيع غنائم المعارك بينهم. لكننا في هذه السنة بالذات تكبدنا خسائر جسيمة وقد تعب الرجال حقاً من جراء المعارك المتواصلة». قلت له: «إن من واجبنا أن نحارب. فأنا لا أخرج في هذه الحملات لغرض شخصي أو لكسب الأمجاد والتشريفات ولا لكي أكون من الغزاة الفاتحين وشخصياً فأنني كم أفضل أن أنعم بالراحة وبالسلام». فقال فرج أفندي: «إنني أفهم هذا بالطبع لكن، ورغم ذلك، فأن تلك الخسائر، التي كان بالإمكان تحاشيها، قد أثرت كثيراً علي رجالنا. فواحد منهم قد فقد أباه والآخر أخاه والكثير منهم فقد أصدقاءه وأقاربه. واذا ما استمر الوضع علي هذا المنوال فلاشك في أنهم سيفقدون الدافع للقتال بالمرة».

أجبته: « وأنا أيضاً أدرك ذلك. وبالرغم من أنني لم أفقد أباً ولا أخاً إلا أنني فقدت العديد من الأصدقاء كما أنني أخاطر بحياتي الغالية جنباً إلي جنب مع جنودي وضباطي. فأنا دائماً معهم وأتعرض مثلهم للرصاص وطعنات الرماح». فأجابني: « إنهم يدركون ذلك تماماً، ويجب عليك أن تشكرهم لإطاعتهم الأجانب وهم علي استعداد دائماً للتضحية بأرواحهم». فقلت له: « نعم فأنا بالطبع أجنبي وأوروبي وهو ليس بالسر الذي أخفيه أو أخجل منه. فهل هذا هو مايعترضون عليه؟ أخبرني الآن وبكامل الصدق».

كان محمد فرج من أحسن ضباطي تعليماً. فقد تلقي العلم في عدة معاهد بالقاهرة حتي تم تجنيده. كان من أولئك الرجال القلائل الذين يقرون بمميزات الآخرين وكان مستعداً دائماً لأن يتعلم من الذين يعتقد أنهم أكثر منه علماً وخبرة. لم يكن متديناً أو متعصباً لكنه كان كثير التذمر وحاد الطبع وتلك كانت مثالبه الوحيدة وهي التي قادته إلي إرتكاب بعض الجزم والذي عوقب عليه بالنفي للسودان.

وعندما استدعيته الآن ليخبرني بالحقيقة أمال رأسه ونظر إلي مباشرة وقال: «حسناً. إنك لاتريد سوي قول الحقيقة لك فها هي: إنهم لايعترضون علي جنسك ولكن علي ديانتك». وأخيراً انتزعت منه ما كنت دائم القلق بشأنه.

وسألته: « ما شأن ديني بالأمر؟ فطيلة هذه السنوات التي أمضيتها في دارفور كانوا يعلمون بأنني نصراني ورغم ذلك لم يتفوه أحد منهم بكلمة أبداً عن ذلك». رد علي قائلاً: « آه! كانت الأيام مختلفة عنها اليوم وأفضل حالاً. لكن الآن، وقد ارتدي هذا الدنقلاوي الزنيم رداء الدين فقد صار له أتباع في كل مكان يقومون باثارة الناس وتهييجهم للوصول إلي أغراضهم الشريرة. لقد إنتشرت الأقاويل وسط الجنود (ولا أدري من بدأها) بأنك لن تنتصر أبداً في هذه الحرب الدينية وإنك سوف تخسر أي معركة تخوضها خسراناً مبيناً وسينتهي الأمر في النهاية بمقتلك شخصياً. ومن البديهي أن تدرك إيمان الجندي الأمي والجاهل بهذه الأفكار وأنه سيرجع كل سبب لأي نكسة لكونك نصرانياً. إن رجالنا قد بلغ منهم السخف درجة لايدركون فيها أن خسائرنا لاتعود إلا

للقوة الساحقة للثوار وأنه لم تعد لنا أي فرصة للنجاة أو توقع النجدة وما علينا إلا أن نستمر في تلقي الهزيمة تلو الأخري».

فقلت له: « لنفرض إنني إعتنقت الإسلام الآن فهل يصدقني رجالي ويثقون بي وبقدرتنا علي النصر؟ وهل سيدفعهم ذلك للمزيد من الثقة في؟». فأجابني: « سيصدقونك بالطبع أو علي الأقل سيصدقك غالبية الرجال. ألم تنتهز أي فرصة من قبل لتظهر لهم مدي إحترامك لديننا وكذلك تسببت في إحترام الآخرين له؟ سيصدقونك بدون شك ولكن هل ستترك دينك عن قناعة بذلك؟» كان مبتسماً وهو يسألني هذا السؤال الأخير. فقلت له: «إنك يا محمد أفندي رجل ذكي لماح ومتعلم تعليماً جيداً. هذا الأمر لا دخل للقناعة فيه. وكثيراً في هذه الدنيا ما نقوم بأشياء تتعارض تماماً مع ما نؤمن به وذلك إما بالغصب عنا أو لأي سبب آخر. وسأكون مرتاحاً حقاً إذا ما صدقني الجنود وتركوا أفكارهم السخيفة. وكون الناس يصدقونني أم لا فلا يهم . المهم إني في غاية الشكر لك ورجائي أن تحتفظ بما دار بيننا سراً. وأتمني لك ليلة طيبة».

ذهب محمد فرج أفندي وقررت بعد دقائق من تقليب الأمر أن أقدم نفسي للجنود، صباح اليوم التالي، كمسلم. كنت مدركاً تماماً من أنني سأكون في موقف غريب قد لا يقبله البعض. لكنني عزمت علي الأمر وكنت أعرف إنني بهذا سأقلب الأرض من تحت أقدام المتآمرين وستكون لدي فرصة أفضل للمحافظة علي المديرية التي أئتمنتني الحكومة عليها. ففي باكورة شبابي كان عقيدتي الدينية متساهلة لحد ما . رغم ذلك كنت أعلم، عن قناعة أو بسبب التعليم الذي نلته، بأنني مسيحي طيب رغم ميلي دائماً لترك الناس يبحثون عن خلاصهم بأنفسهم. وقد اتضح ذلك من حقيقة أن مهمتي في السودان لم تكن تبشيرية لكنها كانت في نطاق عملي كموظف لدي الحكومة المصرية.

وعند شروق شمس اليوم التالي أرسلت في استدعاء الصاغ أغا قول وأمرته باستعراض كل الجنود وأن يكونوا في انتظار قدومي. ثم أرسلت لزقل لاحضار القاضي أحمد ود بشير وسر التجار محمد أحمد. وعندما حضروا أمامي تحدثت إليهم حديثاً عاماً

ثم طلبت منهم الذهاب معي لساحة العرض بداخل القلعة، التي لاتبعد سوي بضع مئات الأمتار من منزلي. تسلمت قيادة العرض وأمرت الجنود بعمل مربع ثم إمتطيت حصاني ودخلت المربع مصحوباً بالضباط والمرافقين والموظفين الرسميين وخاطبتهم قائلاً: « أيها الجنود! لقد مررنا معاً بأوقات عصيبة وقد كشفت المخاطر معادن الرجال. لقد حاربتم ببسالة وتحملتم ما لايحتمل من المشاق وإنني علي ثقة من أنكم ستستمرون علي ذات النهج. إننا نقاتل من أجل سيدنا الخديوي، حاكم هذا القطر، ومن أجل أنفسنا. لقد قاسمتكم الأفراح والأتراح وعندما يواجهنا أي خطر كنت دائماً معكم كما سأكون دائماً. وبالرغم من أنني رئيسكم فأن حياتي لم تكن يوماً أغلي من حياتكم». أخذ الرجال يتصايحون: « الله يطول عمرك! الله يخليك!». ثم واصلت حديثي: «لقد طرق سمعي إعتباركم لي كأجنبي وكمشرك بالله. لقد جئتم جميعاً من قبائل مختلفة. وبالرغم من أن موطني الذي ولدت فيه يبعد كثيراً عنكم، إلا أنني حقاً لست بالغريب ولست بالمشرك. فأنا مؤمن مثلما أنتم مؤمنون. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!». وما أن تفوهت بهذه الكلمات حتي رفع الجنود بنادقهم وهزوا رماحهم وتصايحوا مهنئين لي بينما تقدم نحوي الضباط والموظفون للتهنئة بهز الأيدي معي. وعندما عاد النظام أخبرتهم بأنني سأواظب علي الصلاة معهم. بعدها قام فرج أفندي باعطاء «السلام سلاح» وبعدها توجه الجنود لثكناتهم.

وبعد الإنتهاء من الحفل دعوت زقل بك والضباط للبقاء معي ومشاركتي تناول الطعام وشرب القهوة وبعدها ودعوني بعد تأكيدهم لي مدي سرورهم وإخلاصهم وطاعتهم. ثم طلبت من فرج أفندي إختيار عشرين من أجود الثيران التي بحوزتنا وتوزيعها علي المعسكر (كرامة) إضافة لثور لكل ضابط من ضباطي وعلي نفقتي الخاصة.

كان الأثر الذي تركته خطواتي أكبر بكثير مما توقعت. فلم يعد هناك أي تردد عند إرسالي لأي حملة رغم أن أعداءنا كانوا يزدادون يوماً بعد يوم قوة وعدداً.

أرسل لي التجار، الذين كنت أدفع لهم، معلومات تفيد بأن التعزيزات كانت تصل يومياً

للخرطوم من القاهرة وأن الحكومة تمضي بخطي سريعة في الإستعدادات لإرسال حملة قوية تحت قيادة ضباط أوروبيين لاستعادة كردفان. أما الأهالي فقد إنضموا عن بكرة أبيهم للمهدي عاقدين العزم علي مقاومة الحملة بكل قواهم.

وفي دارفور انضمت كل قبائل الجنوب للثوار ولكن الفضل يرجع لمحطاتنا العسكرية، ولحقيقة أن قبائل الشمال كانت علي إتصال بمصر، والتي عن طريقها يحصلون علي منافع جمة من خلال طرق القوافل، في أنهم لم يظهروا حتي الآن أي مظاهر عدوانية.

ولما لم يعد من الممكن، ومنذ وقت طويل، جمع الضرائب من أي مكان، كنت مضطراً لدفع استحقاقات الجنود من الاحتياطي لدينا. ثم بدأت انتصارات المهدي المتوالية تبدو واضحة علي سلوكيات زقل والتي تغيرت بوضوح عما كانت عليه، وذلك بالرغم من أنه لازال يبدي لي ولاءه وخضوعه. أما في قرارة فؤاده فقد كان واضحاً أنه يتمني كل النجاح لإبن عمه المهدي لأنه كان يدرك تماماً إنه سيجني تحت ظله فوائد جمة وسيكون من أوائل الذين سينعمون بها. كان زقل رجلاً محبوباً لدي الموظفين التابعين له وقد نال حظاً من التعليم أكبر مما هو متاح لسوداني وكان دائماً علي استعداد لتقديم أي خدمات طالما لم تمس جيبه وكان له مظهر متحرر بشوش. كان في غاية الثراء ولديه خدم وحشم في داره الواسعة. كانت مائدته حاضرة دائماً ويبدو لي أن شعبيته بين العاملين كانت ترجع إلي كونه، كمدير بالنيابة، كثيراً ما يعفو عن المخالفات كما لم يكن يتخذ أي إجراءات لمنع رجاله من إثراء انفسهم بكافة الوسائل حتي غير المشروعة. ومن خلال نفوذه الكبير تمكن معظم أقربائه من الحصول علي مراكز جيدة ومن تكوين الثروات. من هنا فأنني كنت أعده رجلا ينبغي التعامل معه بحذر رغم أن شعبيته، إضافة إلي طاعته لي وتنفيذه للتعليمات، تجعل من غير المرغوب فيه الدخول معه في خلاف واضح وهو الأمر الذي كنت أعلم أنه سيؤدي إلي تقليص نفوذي وسلطتي. لذا غضضت النظر عنه في الوقت الراهن. (أبعد النار عن القطن وإنت ترتاح)، كما يقول العرب، هو أفضل ما ينطبق علي حالته وعلي هذا الأساس كنت أتعامل معه.

استدعيت فرج أفندي وودعيسي والقاضي البشير والذين كانوا موالين للحكومة

ويتمنون لها النجاح وطرحت عليهم خططي التي انتويتها، طالباً منهم السرية المطلقة وعدم إفشائها لأحد وحصلت علي موافقتهم عليها. وعندما رجعوا استدعيت زقل وتحدثنا علي انفراد وقلت له: « إننا وحدنا الآن يازقل والله شاهد علينا. لقد أكلنا الخبز والملح معاً لسنوات طويلة. ورغم أنني كنت رئيسك منذ وصولي، إلا أن علاقاتنا مع بعضنا البعض كانت علاقة صداقة أكثر منها علاقة الرئيس بمرؤوسه. لذا أطلب منك الآن القيام بشيئين لي هما أن تثق بي ثم أن تقوم لي بخدمة هامة».

أجابني: « حسنا أيها المدير العموم. إنك رئيسي فاطلب مني ما تشاء وسألبي طلبك». فقلت له: « إن إبن عمك المهدي قد استولي علي كردفان. وقد سقطت الأبيض في قبضته وإنضم جموع الأهالي له. وكل البلاد التي بيننا وبين الحكومة أصبحت في حوزته. ولاشك في أن نجاحاته غير العادية قد أمالت قلبك إليه. هل نسيت كل النعم التي حصدتها من الحكومة؟ ألا تدرك الإمتياز الذي خصتك به الخديوية والأوسمة والرتبة التي نلتها بأنعام منها؟ وهل نسيت الواجبات المطلوبة منك طبقاً لوظيفتك؟ تحدث: أليس كذلك؟» « نعم إنها كذلك» أجابني زقل بسرعة: «نعم المهدي هو إبن عمي ولا أنكر أن صلة الدم قد جذبتني إليه. لكنني وحتي الآن لم أقم إلا بكامل واجباتي الوظيفية وإنني علي ثقة من استمراري في أدائها في المستقبل أيضاً».

أجبته: « من ناحية عامة فأن أداءك لواجبك كان طيباً. لكنني علي علم بمراسلاتك مع المهدي فلماذا تخفي هذه الحقيقة عني؟». فرد علي زقل علي الفور: «إنني لا أتراسل معه مباشرة. لكن التجار الذين يقدمون من كردفان يوصلون لي رسائل شفوية منه ولقد أقسمت لهم بأنني لن أخبرك بذلك ولهذا احتفظت بالسر. لكنني أؤكد لك أن كل ما جاءني هو أخبار عما جري في كردفان ولم تتم أي محاولة لضمي إلي الثوار».

فقلت له: «حسنا. فليكن ما يكون إذ لا أريد منك تبريراً لمواقفك. ولكن قل لي عما سمعت بشأن الحملة التي تقوم الحكومة بتجهيزها لاستعادة كردفان؟». فأجابني: «لقد سمعت بأن تجريدة ضخمة قد وصلت للخرطوم وأنهم بصدد محاولة استرجاع تلك

المنطقة». فقلت له: « لا. لن يحاولوا فقط لكنهم سيقومون فعلاً باعادة ضم البلاد ثانية. انك يازقل رجل عاقل وذكي ويجب أن يكون واضحاً لديك أنه، إذا أجبرتني الظروف، فأنني لازلت قوياً لدرجة تمنعك من إلحاق أي أذي بنا. لكنني لا أري نفعاً من إتخاذ أي موقف بشأنك، بل يؤلمني أن أتخذ أي إجراء صارم ضد رجل مثلك فأنك قد خدمت الحكومة باخلاص لعدة سنين وكنت صديقاً دائماً لي. سأقوم بصرفك من الخدمة في الوقت الراهن ويمكنك أن تذهب لكردفان، مع رضائي التام عن ذلك. فالحركات الدينية، مثل الجارية الآن، لها بريق يظهر علي البعد ويدفع للتعاطف معها. لكنك عندما تتفحصها عن قرب فلن تجدها مغرية ولا مزعجة بالقدر الذي نتصوره. إنني سأوكل إليك مسئولية توصيل خطابات للحكومة وأريدك أن ترسلها سراً للخرطوم وفيها أيضاً سأشرح لهم طبيعة المهمة التي أوكلتها لك. ولما كان من المتوقع أن تتحرك التجريدة إلي كردفان الشهر القادم فأنني أطلب منك بذل كل ما يمكن من جهد لمنع المهدي من إرسال حملة إلي دارفور أو إرسال منشورات يحث فيها القبائل للثورة ضد الحكومة. فأذا ما أمكنك القيام بذلك فسيكون ذلك في مصلحته ومصلحتك. وإذا ما نجحت مقاصد التجريدة القادمة فسأقوم بتحمل كامل المسئولية عما قمت به ولا خوف عليك من ذلك. أما إذا ما نجح المهدي - لا سمح الله - فلا شك في أننا سنفقد الأمل في وصول أي نجدة لنا وربما نجبر علي الاستسلام وفي مثل هذه الحالة فسيكون من الأفضل للمهدي أن يتسلم المنطقة في أحسن حالة. وكضمان لولائك وتنفيذك للمهمة الموكلة إليك فأنني سأقوم بالاحتفاظ بزوجاتك وأطفالك وبقية حشمك وخدمك ومتعلقاتك هنا في القلعة. وسيحترم المهدي هذا ولن يقوم، من أجلك، بأي عمل يكون مهدداً لأرواحهم».

فقال زقل: « سأقوم بتنفيذ تعليماتك وسأبرهن لك علي ولائي التام. هل ستكتب خطاباً للمهدي؟».

أجبته: « لا. لأنني لا أريد أي تعامل معه. لكنني أدرك أنك ستقوم بنقل كل مادار بيننا إليه. فإبن عمك رجل ذكي مراوغ وسيقوم بتقدير قولي الصادق له كما سيقوم باستثمار مهمتك بقدر ما يمكنه ذلك. وطالما التزمت بوعدك لي فأنني من جانبي أعدك ببذل كل عناية

ممكنة بعائلتك. ورغم أنني – إسمياً – قد فصلتك من الخدمة، فأنني سأقوم بتسليم مرتبك بالكامل لأسرتك أما إذالم تلتزم بما اتفقنا عليه فلن يستمر الضمان الذي قدمته لك. عليك التحرك باسرع فرصة ممكنة وفي ظرف ثلاثة أيام علي الأكثر وهو وقت أعتبره كافياً لتدبير شئونك».

فقال زقل: «كنت أود البقاء هنا مع عشيرتي. لكن طالما كانت مشيئتك أن أقوم بما كلفتني به، ولإثبات ولائي، فسأقوم بذلك ولكن بفؤاد مفعم بالأسي».

وبوجود زقل، أرسلت لاستدعاء فرج أفندي ودعيسي والقاضي وأخبرتهم بالترتيبات التي إتفقنا عليها. أبدوا إنزعاجاً واضحاً ودهشة، لكنهم طلبوا من زقل أن يقسم بالولاء. فأقسم بالقرءان، ثم بالطلاق، بأنه سيقوم بكل صدق وحسن نية بالالتزام بالترتيبات المتفق عليها بيننا.

ثم قمت بكتابة التقارير الضرورية للحكومة وقدمت فيها شرحاً مختصراً عن الأحوال في دارفور. وبعد ثلاثة أيام غادر زقل دارا، بصحبة ثلاثة من الخدم، متوجهاً إلي الأبيض عن طريق الطويشة. ولأنه كان معروفاً بقرابته للمهدي فلم يكن لديه ما يخشي عليه. وقد علمت فيما بعد بأنه قوبل في كل مكان مربه بأذرع مفتوحة.

بدأت الآن في نصب بطاريات جديدة في أركان القلعة وفي جمع وتشوين كل الذرة التي أتمكن من الحصول عليها. لكن هذه الفترة القصيرة من الهدوء لم تدم طويلاً. فقد خطط بشاري بك ودبكر، شيخ عرب البني هلبة، بايعاز من والد زوجته الشيخ طاهر ودتقاوي، للهجوم علي دارا. وبالرغم من خطابي الذي هددته فيه فقد قام بالهجوم علي الداجو وعرب المسيرية وقتل أعداداً منهم وأسر كثيراً من النساء والأطفال. وكرد فعل لذلك، قمت بوضع مائتين وخمسين من القوات النظامية ومائة من البازنقر تحت قيادة مطر، وهو أحد أقارب زقل. لكنني لم أتمكن إلا من تجهيز خمسة وعشرين حصاناً لهم حيث أصاب نوع من المرض معظم الخيول. وبهذه القوة غادرت داراً.

بعد مسيرة ثلاثة أيام وصلت منطقة أماكي وفيها قام البنو هلبة، بقيادة بشاري بك،

بالهجوم علي قواتي واشترك معه صديقي القديم جبر الله. كانت قوتهم كبيرة لكن سلاحهم الناري قليل العدد لذا نجحنا في ضربهم وتشتيت شملهم بدون صعوبة كبيرة. وفي اليوم التالي عاودوا الهجوم علينا في منطقة كلامباسي والتي تبعد بيوم ونصف من أماكي وهنا أيضاً دفعناهم للفرار من أمامنا بنفس السهولة. وقد نسب رجالي سبب خسائرنا القليلة في الصدامين لقيامي بأداء فريضة الجمعة معهم وليس لقلة السلاح الناري لأعدائنا. ثم توجهنا نحو الهشابة وهي قرية زعيمهم، وأخرجنا الشيخ منها وعرضنا عليه الصلح لكن مساعينا فشلت فتوجهت نحو قورو التي تبعد بمسيرة نصف يوم من هشابة. وأثناء الطريق تعرض كشافونا الإثني عشر، الذين كانوا يتقدموننا علي ظهر الخيول، لهجوم مفاجئ قام به البشاري بك منفرداً والذي تمكن من إختراق صفهم وجرح واحداً منهم جرحاً خفيفاً. ثم استدار نحو اليسار وجذب حصانه حتي توسط ا لمنطقة بين الكشافين والجسم الرئيس للجيش في أطراف الغابة، وعلي بعد ثمانمائة ياردة مننا. وعندما تقدمت لحوالي ثلاثمائة خطوة باتجاهه تعرفت عليه لكنني تعمدت عدم إطلاق النار عليه بل أرسلت إليه أحد غلماني، بدون سلاح، وقلت له: « عيسي أرجو إهداء تحياتي لبشاري بك وقل له أنه إذا أراد إظهار شجاعته أمام زوجته فعليه محاولة طريقة أخري لذلك. أما إذا ما كرر ما قام به فسيقتل حتماً».

كان الطريق مكشوفاً لدرجة لا بأس بها بينما تناثرت الأشجار هنا وهناك. وعندما تقدمنا في الطريق شاهدت غلامي لعدة ثوان أمام بشاري بك تم عاد إلينا وعند وصوله قال لي: « يهديك بشاري بك تحياته ويقول لك أنه لايرغب في العيش أكثر من ذلك وأنه يبحث عن الموت». يا للمخدوع !فقد وجد سريعاً ما كان يبحث عنه.

وعند وصولنا لقورو شيدنا زريبة. ولشعوري بأن إندفاعة بشاري المتهورة ستدفعه لتكرار الهجوم، فقد أمرت القوات بالإبتعاد لحوالي ثلاثمائة خطوة بينما وضعت الخيالة علي الأجنحة ودفعت للأمام حوالي عشرين فارساً، لإغراء العرب بالخروج من الغابة. لم يكد الفرسان يتحركون عندما شاهدت إثنين من فرسان العرب مندفعين نحوهم بأقصي سرعة وقد أحنوا رماحهم. كانوا بشاري بك وأحد مرافقيه. وقبل أن يصل لرجالي عثر به

جواده فسقط من علي ظهره. وبينما أمسك مرافقه بجواده لمساعدته علي الركوب إنتهز فرساني الفرصة للهجوم عليه وقذفوه بحربة وسط عينه فسقط بينما أصيب مرافقه بطعنة حربة علي ظهره وقتل. ركضت إلي الموقع حيث وجدت بشاري بك ملقي ميتاً علي الأرض: فقد طعنه رجالي مرتين بحربة كبيرة. أما إبنه أبو، والذي اندفع نحو أبيه لمساعدته، فقد جرح أيضاً لكنه نجح في الهرب بينما قتل إثنان من الشيوخ الذان رافقاه وهما الشرتاي حبيب الله والتوم. غنمنا أفراسهم ثم طلبت من القوات النظامية أن تتقدم وأمرت كل من معه جواد أن يردف خلفه أحد المشاة والقيام بمطاردة العرب المعتدين والذين كنت علي ثقة من أنهم لن يصمدوا أمامنا بعد مصرع قادتهم. وبعد ميلين تقريباً من الركض إلتقينا بهم فأمرت القوة النظامية بالترجل وإطلاق النار عليهم بينما وجهت خيالتنا بمطاردة عرب البني هلبة الراكبين. لم تكن هناك أي رحمة فقد صمم رجالي علي الإنتقام لمقتل الشيخ عفيفي والذي كان قد قتل بالقرب من هذا المكان.

وبعد ساعات إنتهت عملية التصفية ومن ثم رجعنا إلي زريبتنا. وأثناء العودة تعثرنا بجثة بشاري. طلب الضباط مني السماح لهم بقطع رأسه وإرساله لدارا لكنني، واحتراماً لابن أخيه الذي كان قد إلتمس الصلح معنا بالأمس، منعتهم من ذلك وسلمت الجثمان لإبن أخيه مع قطعة من القماش لتكون كفناً له وحضرت بنفسي مراسم دفن صديقي القديم الذي حاربنا، ضد قناعاته الشخصية، والذي بحث عن الموت حتي لاقاه. لم نفقد في هذه الاشتباكات سوي قتيلين وبعض الجرحي والذين كان من بينهم سلامة المخلص والذي كان قد حمل رسالتي، قبل فترة، من أم ورقات إلي دارا والذي كان من يومها في طليعة أي هجوم أو مطاردة.

ثم عدنا إلي قورو. كان مرض الفلاريا (دودة غينيا) قد تمكن من الجزء العلوي من ساقي ونشب في كلتا قدمي مما سبب لي ألماً مضنياً جعلني لا أستطيع البقاء علي السرج إلا بالكاد. ووجدت أنه بعد أن حطمنا البني هلبة فلم يعد هناك أي مبرر للبقاء خارج الديار ومن ثم عدنا إلي دارا.

***

الباب الثامن

حملة هكس باشا

«إنتشار الإعتقاد بقداسة المهدي - عرض خلافة المهدي علي الشيخ السنوسي ورفضه لها - بدأ المهدي في تظيم حكومته - إنتشار الثورة في الجزيرة - إنتقادات حول أساليب الحكومة المصرية - بعثة عثمان دقنة إلي شرق السودان - وصول حملة هكس باشا إلي كردفان - أحداث أثناء سيرهم - بطولة الكولو نيل فاركار - يوميات فاركار وفيزاتيللي - هروب جوستاف كلوتز - أنصار المهدي يهرسون الحملة هرساً - الهجوم الاخير علي الحملة المشئومة - بعض ما جاء في يوميات أودونوفان - رجوع المهدي ظافراً للأبيض.»

***

بعد سقوط الأبيض، وجه المهدي جل إهتماماته لتقوية مركزه. وقام أنصاره، من سكان النيل، باخطاره بكل ما يجري في مناطقهم. وكان يعلم بأن عبد القادر (باشا) قد إتصل بالقاهرة طالباً المدد، والذي وصل بالفعل. ولم يشك لحظة من أن الحكومة ستبذل ما في وسعها لاستعادة مديرياتها السابقة. كل هذا كان سبب حثه علي الجهاد باستمرار ومذكراً أنصاره بأن حرباً ضروساً ستنشب وأنهم سيكونون المنصورون فيها.

كان جيقلر باشا قد حقق نجاحاً في الدويم في نوفمبر ١٨٨٢، وبنهاية يناير ١٨٨٣م كان عبد القادر باشا قد سجل نجاحاً مرموقاً في معتوق. لكن المهدي لم يعر إهتماماً يذكر لتلك الهزائم بل كان مركزاً أساساً علي ما جاء في الأخبار بأن حملة يجري الإعداد لها بالخرطوم، تحت قيادة ضباط أوروبيين، بهدف إستعادة كردفان منه. ولم يضع وقتاً بالتالي في الشروع فوراً في إرسال النداءات للقبائل لترك ديارهم والإنضمام إليه. وأمام الجموع المحتشدة أخذ يبشر بحرارة أكثر من ذي قبل عن أهمية ترك ملذات هذه الحياة الدنيا والتركيز علي حياة الدار الآخرة وكان يقول لهم « أنا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة» ولايفتر عن تكرار ذلك القول. وكان يعد المخلصين له بالنعيم السرمدي الذي لايخطر بقلب بشر أما

غير المخلصين فكان يهددهم بالعقاب الدنيوي وبعذاب نارجهنم في الآخرة. وأخذت المنشورات التي تحمل هذا الطابع تصل لكافة المناطق القاصية والدانية وقد طلب من الأمراء بالسماح بالبقاء في مناطقهم فقط لمن كانت الحوجة ماسة إليهم هناك وخاصة في أعمال الزراعة أما بقية المواطنين فعليهم من الآن فصاعداً الهجرة إليه والإنضمام لراياته.

أخذ الرجال والنساء والأطفال الآن في التوجه للأبيض زرافاتاً ووحدانا لمشاهدة طلعة المهدي البهية ولإلتقاط، ولو كلمة، من أحاديثه الملهمة ورأي الجهلة من تلك الجموع في طلعته وشخصه ما إعتقدوا فيه حقاً بأنه «رجل أرسله الله».

كان يقف أمام أتباعه بتواضع جم، مرتدياً جبة وسروال مع حزام من السعف حول وسطه وطاقية مكاوية علي رأسه إلتفت حولها عمامة من الموسلين، ويعظهم بحب الله وحب القضية وبضرورة نبذ الخيلاء ونعيم هذه الدنيا. لكنه عندما يدخل لمنزله يختلف الأمر تماماً* فهنا يعيش في أبهة وعظمة ويترك العنان لشهواته للطعام والنساء، التي يدمن عليها السودانيون. وعند أسر أي أمراة أو فتاة صغيرة أو إمراة من الرقيق كانوا يحضرونهن أمامه وبعدها تجد الحسان منهن طريقاً إلي حريمه. أما الخادمات اللواتي يحذقن فنون الطعام السوداني فيرسلن إلي مطبخه.*

بعد حصار الأبيض أخذ ينظر فيمن يعين كخليفة رابع وقرر تعيين محمد السنوسي، أكثر زعماء وشيوخ الدين في شمال إفريقيا نفوذاً، في هذا المنصب. لذا قام بأرسال خطاب بهذا المعني إليه مع مبعوث خاص هو الطاهر ود اسحق، من قبيلة الزغاوة. لكن السنوسي قابل العرض بالإزدراء ولم يكلف نفسه عناء الرد علي الخطاب.

ثم شرع المهدي في تنظيم حكومته ووضع أسسها. وقد بنيت أدارته علي قواعد بسيطة. فقد بدأ أولاً بأنشاء بيت المال وعين قائماً عليه صديقه المخلص أحمد ود سليمان. كانت توضع في بيت المال الفطرة والعشور والزكاة التي تبلغ ٢,٥٪ علي كل الغنائم التي

---

* لولا الإلتزام بحرفية الترجمة لما أوردنا هذا الحديث الغث الذي لم يقله أي أحد ممن عاصروا الإمام المهدي، وبذلوا أرواحهم وأسرهم وأموالهم لنصرته (المترجم).

تؤخذ في الحروب إضافة إلي الممتلكات المصادرة وغرامات السرقة أو الشرب أو التدخين. لم يكن هناك نظام لضبط الدخل والمنصرفات وكان أحمد ود سليمان بذلك حراً في إعطاء ما يشاء لمن يحب.

أما القضاء فقد عهد إلي القاضي، والذي أسماه المهدي بقاضي الإسلام، يعاونه الكثير من المساعدين. وكان أول من تولي هذا المنصب الكبير أحمد ود علي، والذي كان يعمل من قبل قاضياً علي شكا تحت رئاستي، والذي كان في طليعة من اقتحموا الأبيض. وقد احتفظ المهدي وخلفاؤه بالطبع علي حقهم في إنزال العقاب بالموت علي كل الجرائم وخاصة المتعلقة بالتشكك أو الإشتباه في الطبيعة المقدسة للمهدي. ولما كانت هذه العقوبات لا تتوافق مع قوانين الشريعة، كما يتم تدريسها، فقد منع المهدي بصرامة دراسة علوم الدين وأمر بحرق كل الكتب الدينية ما عدا القرآن الذي سمح بقراءته رغم أن تفسيره لم يكن يتم علناً.

كان التواصل بين المهدي وسكان الجزيرة، والذين إعتبروا أنفسهم من أخلص أتباعه، متكرراً ومفصلاً. ومنهم علم بمغادرة عبد القادر للكوة وسنار في فبراير مصحوباً بقوة كبيرة. كانت تلك المدينة قد حوصرت بواسطة أحمد المكاشفي لكن الباشا ألحق به الهزيمة في مشرع الداعي ونجح في فك الحصار عنها. كما قام صالح بك بمطاردة الثوار حتي جبل سقدي ودفعهم نحو السهل القاحل الذي يقع بين سقدي والكوة حيث مات عدد منهم عطشاً. وهذا السهل يطلق عليه حتي الآن «تبكي وتسكت» بواسطة السكان المحليين.

لم تؤثر هذه الهزائم بحال علي شعبية المهدي. فقد نجحت في تخفيف الوضع علي الجنود والموظفين ولكن رغم ذلك لم تفلح إلا بتأخير اليوم المشئوم بعض الشئ والذي سيأتي حتماً قريباً. فلو أصغت السلطات لنصائح عبد القادر باشا لكان الوضع في كل السودان قد تغير. فقد وقف ضد إرسال حملة ضخمة لإعادة فتح كردفان وأوصي باستخدام التعزيزات القادمة من القاهرة في إقامة وتقوية مراكز حصينة، ذات قدرة كبيرة علي الدفاع، بطول ضفة النيل الأبيض وأن يترك الثوار وشأنهم في الوقت الحالي. كانت القوات المتوفرة تحت تصرفه كافية لصد الثورة عن الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق

ولإيقاف تقدم المهدويين من الغرب. فلو تم تبني هذه الخطة، وترك الثوار لشأنهم، فقد كان من المحتمل جداً أن يؤدي غياب أي نظام للإدارة لتفشي الخلافات وبعد ذلك، وبالتدريج وفي مرحلة لاحقة، فستتمكن الحكومة من استعادة الأرض التي فقدتها. وحتي ذلك الوقت فقد كنت أعلم أنه لم يعد بمقدوري الحفاظ علي سلطتي في دارفور. ولكن حتي لو سقطت تلك المديرية فسيكون ذلك ، بدون شك، أخف الضررين. لكن المهيمنين علي زمام الأمور في القاهرة لم يكترثوا بنصائح عبد القادر باشا وكان من رأيهم أن هيبة الحكومة يجب إستعادتها وبأي ثمن وأن هذا لن يتم إلا بارسال جيش يقوده الجنرال الإنجليزي هكس وبمساعدة ضباط آخرين من أوروبا. تم استدعاء عبد القادر باشا وحل محله في الحكمدارية علاء الدين باشا، الذي كان من قبل مديراً لعموم شرق السودان. علم المهدي بكل تلك الحقائق في وقتها ودبر أمره طبقاً لذلك.

في هذه الأثناء وصل زقل للأبيض حيث استقبل بحماس شديد وصدر الأمر باطلاق مائة مدفع علي شرف وصوله وانتشرت الإشاعات والأقاويل بأن دارفور قد استسلمت للمهدي الذي لايقهر. وأعتبرت عودة زقل لدارفور كضمان كافي لدخول هذه المديرية في حوزة الحاكم الجديد والذي لم ترسل معه أي جيوش لها. ثم وجه المهدي الآن كل إهتمامه للأحداث علي النيل.

توجه الجنرال هكس، بعد وصوله بقليل، بجزء من قواته إلي الكوة وألحق الهزيمة بالثوار في منطقة المرابيع (٢٩ / ٤ / ١٨٨٣) وقتل أحمد المكاشفي.

كان عثمان دقنة أحد الذين تم إرسالهم لمختلف مناطق القطر وتم تكليفه برفع راية الجهاد في المناطق المجاورة لبلده. وقد أثبت المهدي حصافة فائقة في إختياره لهذا النخاس القديم السواكني. وفيما بعد أصبح عثمان دقنة من أشهر قواده. لقد قدر المهدي بوضوح أن نشوب الثورة في شرق السودان سيزعج بكل المقاييس حكومة الخرطوم وربما يؤخر أو يوقف نهائياً الحملة التي كانت علي وشك إرسالها لكردفان. إن تفاصيل المعارك المختلفة بين هذا الأمير الجسور والقوات الحكومية معروفة جيداً ولا تحتاج لأكثر من

إشارة عابرة في هذا المجال. يكفي أن نقول أن عمليات المنطقة الشرقية، ورغم نجاح المهدويين فيها، لم تؤدي للتأثير علي نوايا الحكومة أو تغيير رأيها بخصوص حملة كردفان. وفي أوائل سبتمبر ١٨٨٣ غادر تعيس الحظ هكس الخرطوم متوجهاً للدويم علي ضفة النيل الأبيض حيث إنضم لعلاء الدين باشا والذي كان قد طلب منه مرافقة الحملة.

ولاشك في أن السلطات بالقاهرة كانت تجهل تماماً الأحوال في كردفان لدرجة أنهم تخيلوا أنهم بارسال تلك الحملة فسينجحون في إسقاط المهدي، والذي كان وقتها الحاكم الأعلي لتلك الأقاليم الغربية والتي كان كل رجل فيها من غلاة المتعصبين له. ألم يدركوا أن تدمير جيوش راشد والشلالي ولطفي إضافة لسقوط بارا والأبيض وعدد من المدن الأخري قد وضعت في أيدي المهدي كمية ضخمة من البنادق أكثر من تلك التي بحوزة قوات هكس المكونة من عشرة ألف رجل؟ ألا تعلم سلطات القاهرة أن تلك البنادق أصبحت في أيدي رجال يعرفون تماماً كيف يستخدمونها - رجال كانوا يستخدمون البازنقر ويصطادون الفيلة والنعام ثم صار بحوزتهم الآن كميات مهولة من المواد الحربية المختلفة؟ ألم ينضم للمهدي الآن ويخدم تحت راياته ألوف من القوات النظامية وغير النظامية من الذين كانوا في خدمة الحكومة من قبل؟ هل كانوا يظنون ولو للحظة أن أولئك الرجال سيهجرون المهدي وينضمون لهكس عندما تواتيهم الفرصة؟ لا! يبدو أنهم لم يعرفوا شيئاً عن ذلك وأنهم، بناء علي افتراضات خاطئة تماماً، قد غامروا بحياة الآلاف من أرواح جنودهم. رغم ذلك فأنني لا أشك في وجود مستشارين للحكومة لهم الإلمام الكافي بالسودان ويعرفون صحة المثل الزنجي القائل بأن « اللي بياخد أمي هو أبويا » وكيف ينطبق علي تلك الحالة. فالمهدي قد إنتصر واستولي علي البلاد وهكذا أصبح مجازاً زوجاً لأمهم وعاملوه بالتالي كسيدهم وزعيمهم. فماذا يهم هؤلاء الرجال إن كانت الحكومة قد أحسنت إليهم من قبل أو عاملتهم بطيبة وإحسان؟ ورغم أنني لا أنكر بأن هناك استثناءات لهذه القاعدة إلا أن ما أبديته من ملاحظات، ومهما كانت قاسية، تنطبق علي أغلبيتهم.

كان علي عشرة آلاف من الرجال، يسيرون علي هيئة مربع يتوسطه ستة ألف جمل، أن يقطعوا الفيافي التي تكسوها أعشاب أطول من قامة الإنسان. بالتالي لم يتجاوز مدي رؤيتهم أكثر من مائتي ياردة أو ثلاثمائة للأمام منهم وخاصة في المساحات الصغيرة من الأراضي التي كان السكان القليلون ينظفونها للزراعة. وكان عليهم أن يكونوا علي استعداد في كل لحظة لمواجهة الهجمات التي يقوم بها عدو أكثر منهم عدداً ومسلح مثلهم إضافة لكون رجاله أفضل منهم كمقاتلين بما لايدع مجالاً للمقارنة والذين كانوا يفتخرون وإلي يومنا هذا بجرأتهم في القتال وبالإندفاع والاقتحام. لم يكن بالطريق الذي سلكته الحملة أي آبار للشرب إلا نادراً لكن المنطقة تعج بمياه الأمطار الآسنة غير الصالحة للشرب فماذا بمقدورهم أن يفعلوا عند نفاذ كل المياه؟

فلو كانوا قد سلكوا الطريق الشمالي، الذي يمر بجبرة وبارا، لتوفرت لهم الأرض المكشوفة ومياه لابأس بها في أماكن معينة والتي حتي لو لم تكن كافية فأن بإمكان الأجهزة الحديثة أن تستخرج من المياه ما يكفي كل الحملة. في نفس الوقت كان من المؤكد أن يجدوا الدعم الكامل من قبيلة الكبابيش القوية للعمل معهم ضد المهدي وفي نفس الوقت يمكنهم تقليص ذلك العدد الضخم من حيوانات الحمل التي استخدموها.

وجود ستة ألف من الإبل المتلاصقة في وسط المربع، والتي تبدو كغابة من الرؤوس والأعناق، يجعل من المستحيل علي رصاصة يطلقها أحد الأعداء من خلف شجرة ألا تصيب في مقتل أو تخطئ هذا الهدف الهائل. فأن فشلت الاصابة في المقدمة فأنها لن تفشل بالتأكيد في وسط أو مؤخرة المربع. ثم كان يمكن للحملة أن تتقدم مجموعة بعد مجموعة مع ترك جمال الحمل تحت حراسة قوية في الدويم أو شات مما يتيح للجنود التحرك بخفة ونظام مطهرين للطريق شمالاً وجنوباً وغرباً ويقيمون نقاطاً عسكرية كلما أخضعوا منطقة من المناطق. ربما أخذت هذه الخطة بعض الوقت لتنفيذها وقد تستغرق سنة كاملة ولكن لم يكن هناك عجلة في الأمر. وأخيراً كانت هناك الانقسامات وسط الجيش. فهكس وضباطه الأوروبيين كانوا في جانب، وعلاء الدين باشا وموظفوه ومعظم الضباط المصريين علي الجانب الآخر.

ثم، ألم يكن غالبية الجنود من حثالة المطرودين من جيش عرابي باشا الذي هزمته القوات البريطانية قبل فترة وجيزة؟ لاشك في أن الجنرال هكس كان متفهماً تماماً لهذا الوضع. وقد سأله أحد أصدقائه، عندما كان بالدويم، عن رأيه في هذا الوضع فأجابه: « إنني مثل يسوع المسيح بين اليهود». رغم ذلك واصل الزحف نحو غايته وربما ظن أنه إذا رفض مواصلة السير فأن شرفه سيجرح.

وببطء تحركت تلك الكتلة الضخمة من الرجال والحيوانات قدماً.وكان السكان القليلون من قاطني تلك البراري قد غادروها وأخلوها تماماً. وصار يشاهد الآن، ومن حين لآخر، أنصار المهدي وهم يتابعون مسيرتهم ثم يختفون عن الأنظار. وذات مرة نظر هكس من خلال نظارته المعظمة وشاهد بعض الخيالة مندسين وسط الأشجار فأوقف المربع وأمر فصيلاً من قواته غير النظامية بالتقدم نحوهم علي الخيول ومهاجمتهم ولكنهم عادوا بعد بضع دقائق في حالة يائسة بعد أن فقدوا بعضاً من زملائهم اللذين قتلوا وجرح العديد منهم. وأبلغوا أنهم قد هوجموا من قبل قوة (متفوقة كثيراً عليهم). قام هكس بإرسال الكولونيل فاركار مع نصف بلتون من الجنود النظاميين لمعاينة المنطقة التي دار فيها الإشتباك ولما رجع أبلغ بأنه وجد ستة من الخيالة عراة قتلي وقد أصيبوا في ظهورهم كما تم سلبهم وأخذ ثيابهم لكنه لم يشاهد أبداً (القوة المتفوقة كثيراً) للعدو ولم يشاهد إلا آثار أقدام خيول لايزيد عددها علي العشرة. ولا ريب في أنهم - بعددهم هذا - دفعوا فصيل الجنود الخيالة للفرار.

وفي اليوم التالي ظهر للعيان ثلاثة من الفرسان فقام الكولونيل فاركار، مصحوباً بخدمه فقط، بالإندفاع نحوهم وقتل إثنين منهم وأسر الثالث. وقد حدثني بهذه الأخبار من بقي حياً من الحملة وحدثوني كيف كان ذلك المربع الضخم يزحف للأمام بسرعة السلحفاة. في مثل تلك الظروف كان من المستحيل إطلاق جمال الحملة لترعي وكانوا لايأكلون إلا مايجدوه داخل المربع والذي لم يكن شيئاً يذكر وبالطبع صارت الجمال تموت بالجملة. كانوا قد اعتادو حتي علي أكل برادع القش التي تحت سروجهم وبعد ذلك تحولوا لأكل

الخشب القوي للسروج فانتفخت بطونهم ومرضوا وصاروا في حالة مؤسفة حقاً. رغم ذلك واصلوا الجرجرة للأمام وهم يحملون علي ظهورهم حمولتهم الأصلية إضافة للاحمال التي كانت علي ظهر رفاقهم البائسين.

ولاشك في قيام الكولونيل فاركار والبارون سكندورف والميجر هيرس وبقية الأوروبيين وبعض كبار الضباط المصريين ببذل كل ما باستطاعتهم لمعاونة الجنرال هكس في هذا الوضع الحرج. لكن معظم القوات لم تظهر سوي اللامبالاة بالكارثة القادمة التي توشك آن تدهمهم. وكان فيزتللي البائس يرسم في صوره وأودونوفان يدون مذكراته ويومياته ولكن من الذي سيقوم بارسالهم للوطن ولأولئك الذين كانوا في تشوق رهيب للقياهم ثانية؟

وما أن علم المهدي بتحرك الحملة نحوه حتي شرع في إرسال نداءاته لكافة القبائل مستدعياً لها للحضور فوراً للجهاد وقدم لهم وعوده المعتادة بمكافأة الذين يلبون النداء وبمعاقبة المتخلفين. ثم غادر الأبيض وعسكر تحت شجرة تبلدي ضخمة خارج المدينة وبقي في إنتظار قدوم المصريين. قام خلفاؤه وأمراؤه بعمل نفس الشئ وسرعان ما نشأ معسكر عملاق من تكول القش. كانت الاستعراضات تقام يومياً ثم تقرع الطبول وتطلق المدافع بينما الرجال والخيول في حالة تدريب مستمر علي كل أنواع التمارين وذلك كله إستعداداً للمعركة الكبري كما تم إرسال الأمراء حاج محمد أبو قرجة وعمر ود الياس باشا وعبد الحليم مساعد إلي الدويم لمراقبة تقدم العدو ولقطع طرق إتصالاتهم لكنهم منعوا منعاً باتاً من مهاجمة القوة الرئيسية للعدو. كانت الظروف المتعلقة بحالة ذلك الجيش المتقدم نحوهم معروفة لديهم وقد ترجوا المهدي للإذن لهم بالهجوم عليهم لكن المهدي رفض ذلك.

وقبل فترة وجيزة من وصول الحملة للرهد هرب جوستاف كلوتز، وهو صف ضابط الماني وكان من قبل خادماً للبارون سكندورف وبعده للمستر أودونوفان. كان غرضه اللحاق بالمهدي. ولما كان يجهل ظروف المنطقة فقد ظل متجولاً علي غير هدي إلي أن عثرت عليه مجموعة من الأنصار والذين كانوا علي وشك أن يقتلوه لولا أنه نجح في إفهامهم، بلغته العربية الركيكة، بأنه يريد منهم أخذه للمهدي. وبعد أن جردوه من كل ما

يملك تم إرساله تحت الحراسة للأبيض التي تبعد عنهم بمسافة ثلاثة أيام. ورغم أنه كان مرتدياً ثياب الخدم إلا أن آلافاً من الأهالي تزاحموا لإلقاء نظرة علي هذا (الجنرال الانجليزي) الذي جاءهم للبحث عن شروط الصلح. تم إحضاره أمام المهدي وإستجوابه، بحضور الأوروبيين الذين كانوا هناك وعن طريقهم، عن حالة الحملة القادمة نحوهم. لم يتردد جوستاف في القول بأن حالتها بلغت من السوء ماليس له مثيل وأنه لاتوجد بين صفوف القوات لا الشجاعة ولا الإنسجام اللازم لمثل هذه الحملة. وبالطبع سر المهدي كثيراً لهذه الأنباء لكن جوستاف أضاف بأن الجيش لن يستسلم بدون قتال وأنه سيهزم ويتم إجتياحه بدون شك. طرب المهدي لهذه المعلومة وبعدها طلب من جوستاف الدخول في دين الإسلام والذي وافق عليه في الحال وبعدها وضع تحت رعاية عثمان ود الحاج خالد للمزيد من الرعاية والتربية.

وصار المهدي شديد الثقة في النصر بعد إفادات جوستاف وقام باعداد مئات المنشورات التي تحث هكس وضباطه للاستسلام وتم توزيعها علي طول طريق الحملة. وبالطبع لم تتم أي ردود عليها ولكن أثرها كان بالغاً علي الكثيرين من الذين كانت تهمهم سلامتهم الشخصية بينما قام البعض الآخر، علي العكس من ذلك، بأستخدام تلك المنشورات في أغراض أثارت إنزعاج المهدي لدرجة إنزال غضبة علي التعساء الذين خرجوا أحياء من المعركة والذين تجرأوا علي إستخدام تلك الأوراق، المحتوية علي آيات قرآنية، لأغراض صفيقة خبيثة.

وقبل أن يغادر هكس الدويم، قامت الحكومة بابلاغه بأن ستة ألف رجل من جبل تقلي سيلتحقون به في الطريق إضافة إلي بضع مئات من عرب الهبانية. وظل يترقب قدومهم كل يوم حتي يتمكن من رفع معنويات جنوده المضعضعين. لكن إنتظاره كان بلا جدوي إذ لم يلتحق به أي رجل كما لم تصله أي أخبار عنهم. وبعد مغادرة الرهد توجه نحو علوبة في دار الغديات وهو يأمل في الحصول علي ماء كاف هناك. ثم وصل إلي كاشقيل في الثالث من نوفمبر وهي تبعد بحوالي ثلاثين ميلاً جنوب شرق الأبيض.

وكان المهدي في هذه الأثناء قد أثار حماس أتباعه المتعصبين لدرجة لا مثيل لها وأخبرهم بأن الرسول أنبأه بأن عشرين ألفا من الملائكة سيصحبونهم وسيهاجمون معهم الكفرة. وفي اليوم الأول من نوفمبر بارح الأبيض متجهاً إلي البركة حيث كان أتباعه، وبعد أن إنضم إليهم أولئك الذين كانوا قد أرسلوا من قبل لمراقبة مربع الجيش، بدأوا في إنهاك المصريين، الذين هدهم الإرهاق والتعب ونال منهم العطش، وبدون توقف. وفي الثالث من نوفمبر قام أبو عنجة وجهاديته السود، والذين إختبأوا وسط الغابة الكثيفة والأرض الوعرة، بصب نيرانهم المتصلة علي الجيش مما أجبرهم علي التوقف والعمل علي إقامة زريبة. وهنا قدم الجنود والحيوانات المتجمعين معاً هدفاً لن يفشل أحد في ضربه وكان في كل لحظة يسقط رجل أو جواد أو جمل أو بغل من جراء رصاص الأعداء الذين لايرونهم واستمر هذا الفتك بهم لساعات بينما تلك القوات التعسة البائسة والتي هدها العطش غير قادرة علي التحرك لأي إتجاه. ولم تنسحب جماعات أبو عنجة إلا عند الظهر، وإتخذت مكاناً بعيداً عن مدي النيران. ومن هناك أخذوا في مراقبة المربع كما تراقب القطة الفار ولم يفقدوا طوال هذه الفترة سوي أمير أو إثنين من بينهم إبن آلياس باشا. ولاعجب في ذلك! فقد دفعته حماسته وشدة إيمانه بالقضية للإندفاع وحيداً تقريباً حتي ياردة من الزريبة. وما أشد وأبشع مرارة من مشاعر هكس المسكين وهو يري جنوده البائسين لايعانون فقط من العطش الشديد الذي أنهك قواهم بل زاد الطين بلة إنهمار الرصاص عليهم كزخات المطر وكانوا لحظهم التعس لايعلمون بأن بركة ضخمة للماء لا تبعد عنهم بأكثر من ميل واحد ولم يكن هناك أي أحد في ذلك المربع المشئوم يعرف شيئا عن معالم المنطقة. وحتي لو علموا، فقد صار الوقت متأخراً للوصول إليها. تسلل أبو عنجة مع رجاله، تحت غطاء من الظلام حتي وصلوا بالقرب من الزريبة وظلوا طوال الليل يمطرون الرجال المرتجفين وحيواناتهم بجحيم لاينقطع من النيران، وأخذ المصريون يئنون وقد إنهارت معنوياتهم وينادون: « مصرفين، ياستي زينب دا الوقت وقتك!» أما جنود المهدي السود الأشاوس .



The Death of Hicks Pasha.

موت هكس باشا

فكانوا يجيبونهم وهم منبطحون علي الأرض، علي بعد ياردات من الزريبة، لا يؤثر عليهم الرصاص المنهمر الذي يتطاير فوق رؤوسهم قائلين: « دا المهدي المنتظر! دا المهدي المنتظر!».

وصباح اليوم التالي، الرابع من نوفمبر، إستمر هكس في تقدمه وتاركاً من ورائه كومة من الموتي والمحتضرين وبضع مدافع من التي قتل طاقمها. لكنه قبل أن يقطع الميل الأول هاجمه مالا يقل عن مئة ألف من غلاة المتعصبين والذين كانوا مختبئين بين الأشجار. وفي لحظة واحدة كان المربع قد تحطم وبدأت المذبحة الشاملة. لم يحاول الصمود أمام الأنصار سوي الضباط الأوروبيين وقليل من الخيالة الأتراك. فقد إتخذوا لهم موقعاً تحت الفروع الكبيرة لشجرة تبلدي عملاقة. لكنهم هو جموا من كل الجهات وقتلوا جميعاً حتي آخر رجل. وتم قطع رأس كل من البارون سكندورف (الذي كانت له لحية كثة باهتة اللون) والجنرال هكس وأرسلت للمهدي والذي استدعي كلوتز (صار أسمه الآن مصطفي) في الحال لتعريفهم لكن ذلك لم يكن ضرورياً فقد كان معلوماً لديهم أنهم قتلوا جميعاً.

وبعد هذا الانتصار الرهيب عاد المهدي وخلفاؤه مع جنودهم إلي البركة وقد أثملهم الظفر وقد تركوا في ميدان المعركة عدداً من الأمراء ومعاونيهم لجمع الغنائم وإحضارها لبيت المال وتم تجريد آلاف القتلي من جنود الحملة، والذين تكوموا كالتلال فوق بعضهم البعض، من ملابسهم ومن كافة ما كان بأجسادهم. وفي وقت لاحق قاموا بإرسال دفتر يوميات ومذكرات كولونيل فاركار وأودونوفان لي. وقرأت كل مادونوه بعناية فائقة وكم كانت قراءتها مؤلمة محزنة لي! وقد كتب كلاهما عن الإنقسامات التي جرت وعن العراك بين الجنرال هكس وعلاء الدين باشا. وقد هاجم فاركار لحد ما الأخطاء العسكرية لرئيسه بينهما توقع كلاهما وتنبأ بما سينتهي عليه حال الحملة. كما قرأت في دفتر فاركار توبيخاً مريراً للقائد الذي تحرك، قبل كل شئ، بقوة كانت أحوالها ومعنوياتها لاتوحي إلا بنذر الكارثة المقبلة.

لم يجد الضباط الأوروبيون إلا مساعدة لا تذكر. ويبدو أن أحد الضباط المصريين القلائل الذين ساعدوهم هو المدعو عباس بك. وإنني أتذكر جيداً فقرة جاءت في يوميات

فاركار قال فيها: « تحدثت مع المستر أودونوفان اليوم وسألته أين سنكون بعد ثمانية أيام» فأجابني: «سنكون في ملكوت الآخرة». وكانت يوميات أودونوفان مكتوبة أيضاً بنفس النبرة المتوترة. وكان متضايقاً جداً لفرار كلوتز وعزا ذلك للشعور العام السائد وسط الحملة وعلق بالقول: « كيف ستكون حالة أي جيش عندما يضطر حتي خادم أوروبي فيه للفرار للأعداء؟». وفي فقرة أخري كتب: «إنني أعد في مذكراتي وأجهز تقاريري لكن من ذا الذي سيحملها إلي وطني؟»».

وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدي إلي الأبيض وبعد أن تم إيداع كل الغنائم في بيت المال. فإضافة للمدافع ومدافع المكنة والبنادق وجدت كميات ضخمة من النقود. هذا بالرغم من أن كميات من الغنائم قد حملها الأعراب معهم غير آبهين بالعقوبات القاسية التي يلحقها أحمد ود سليمان باللصوص ولم يكن من غير المألوف أن تري لصاً وقد قطعت يده اليمني ورجله اليسري. أما بعض الزنوج المكارين فقد قاموا بإخفاء كميات من الأسلحة والذخائر في الغابة وبداخل مخيماتهم والتي ساعدتهم في مرحلة قادمة في تنفيذ مآربهم.

وكان دخول المهدي المظفر للأبيض وسط مظاهر للعظمة لم يسبق لها مثيل في وحشيتها وغرابتها فقد كان الناس يترامون تحت أقدامه، أثناء مروره، ويكادون يعبدونه عبادة. ولم يعد هناك أي شك بعد هذا النصر في أن كل السودان قد أصبح الآن تحت أقدام المهدي. فمن النيل حتي البحر الأحمر، ومن كردفان حتي حدود وداي كان الناس ينظرون لهذا الولي الذي أنجز كل تلك المعجزات وصاروا ينتظرون بشغف خطوته القادمة. فالذين كانوا من قبل مقتنعين بمهمته المقدسة إزدادوا إقتناعاً بها الآن وأصبحوا من غلاة أتباعه الخلص ونشروا سيرته وأحواله في كل الأصقاع أما الذين تشككوا فيه من قبل فقد زال الشك عن قلوبهم الآن. وهناك الأقلية التي كانت تتشكك في الأمر وتزعم إنه بدعة وغش فتوصلوا الي قناعة بأن الحكومة إذا لم تكن لها القوة الكافية لترسل جيوشها لاستعادة سلطتها المفقودة، ولو حتي في المناطق النيلية، فما عليهم إلا الإنضمام للأقوي ولو كان ذلك ضد قناعاتهم.

وقد أدرك كثير من الأوروبيين وبعض المصريين، الذين كانوا يقطنون المدن الكبري، مدي خطورة الوضع ولم يضيعوا وقتاً للإسراع بالخروج من هذه البلاد الملعونة أو علي الأقل أرسلوا للشمال كلما تمكنوا من إرساله من الممتلكات المنقولة. فقد عرفوا أنه لم يعد لهم بقاء بعد الآن في السودان، والذي بسط المهدي عليه سلطته من أقصي الشرق وإلي أقصي الغرب.

الباب التاسع

سقوط دارفور

«حصار دارا – وسيلة غريبة لإخفاء الرسائل – هدنة مقترحة ومقبولة بيني وبين المحاصرين – لجأت للتحايل كسباً للوقت – زقل يكتب من الأبيض موضحاً تدمير حملة الإنقاذ – إستعراض للموقف وقراري بالإستسلام – دخول أنصار المهدي لدارا – مادبو وطبول حربه – تعذيب الأهالي الذين أخفوا نقودهم – حصار وسقوط الفاشر – خطابات من مصر – المصير الرهيب للصاغ حمادة – سقوط بحر الغزال – قيامي للأبيض».

***

بعد أن تم شفائي من مرض الفرنديت شعرت بأن لدي القدرة علي القيام بحملة أخري. لكن عدد رجالي المخلصين كان قد تقلص بدرجة محزنة كما أن كمية الذخيرة لبنادقي قد نقصت كثيراً. واستمر سيد بك جمعة في تأكيده استحالة إرسال أي كمية لي منها من الفاشر وأرجع السبب إلي كون عرب الزيادية والماهرية قد بدأوا في إبداء تبرمهم وعصيانهم كما بدأوا في الإغارة علي المناطق المجاورة للمدينة ونهب أبقارها والتي كانوا يرفضون إعادتها لأصحابها.

تركزت كل آمالي الآن في نجاح حملة هكس. ولحسن حظي وقتها أنني كنت أجهل تماماً الطريق الذي إختاروه مثلما كنت أجهل تدهور الروح المعنوية لقواته. ولعام كامل لم أتسلم أي أخبار مباشرة من الخرطوم ومن ثم لجأت مؤخراً، ولرفع معنويات جنودي، أن ألجأ للحيلة وأن أدعي أنه بلغني تحقيق القوات الحكومية لإنتصارات عظيمة. وبالطبع فقد طبخت هذه النتف من الأخبار بنفسي وكتبتها في شكل رسائل كانت عندما تستلم تتم قراءتها مع التصفيف والتهليل أمام الجنود المتجمعين ثم يتم إطلاق المدافع تحية وفرحاً بما جاء فيها. وحقيقة الأمر أنني لم أتسلم حتي ذلك الوقت سوي قصاصة صغيرة من الورق من علاء الدين باشا أخطرني فيها بأن صاحب العظمة خديوي مصر قد عينني

رسمياً قائداً لكل جند دارفور، وأن في نية الحكومة إرسال حملة قوية لمطاردة الثوار ولاستعادة سلطتها. أرسلت نسخاً من هذه المذكرة إلي كل من الفاشر وكبكابية مع أوامر بقراءتها علناً للجمهور وإطلاقاً للنار تحية وتكريماً. كما أعددت لحاملها استقبالاً رسمياً وغمرته بالهدايا. وكان قد ذكر أنه عندما غادر الخرطوم كانت الحملة تحت التجهيز ووصف تلك القوة بأنها مؤكدة النصر حتماً. كان الذين علي قدر من معرفة الأحوال مترددين في تصديق تلك الأقوال المبهرجة لكن قلوبهم امتلأت بالأمل، في نفس الوقت، مع الترقب المتفائل.

وبعد بضعة أيام عاد خالد ود إمام، الذي كنت قد أرسلته لكردفان لجلب الأخبار، وسلمني رسالة شفوية من زقل. كما أكد لي الأنباء التي وصلت حديثاً والمتعلقة بنية الحكومة لإرسال حملة ضد المهدي. ولكن، وبعد بضعة أيام، تم إعتراض رجل كان يتجول خارج شكا وهو يحمل رسالة من خالد إلي مادبو يخبره فيها للاستعداد لمقابلته عما قريب، ولمساعدته في مشروعه. ولكن لم يعد لدي أي شك الآن في أن خالد ما هو إلا عميل سري موال لزقل.

أمرت بالقبض علي خالد واحضاره لي، واعترف بأنه تسلم تعليمات من زقل لأخذ زوجاته لمكان آمن معين بعيد عن قبضتي إضافة لقيامه باحضار الزوجتين المفضلتين منهما إليه في كردفان وهذا هو سبب إرساله الرسالة لما دبو.

علي ضوء ذلك قمت بالقاء القبض علي أسرة زقل ووضعت خالداً في الحبس مقيداً بالسلاسل كما قمت بمصادرة أمواله وأموال زقل وتحويلها لبيت المال* بينما وضعت أملاك الآخرين المقبوض عليهم تحت الحراسة.

ثم بدأت مصاعبي تزداد يوماً بعد يوم وربما أقول ساعة بعد ساعة. لم أنزعج كثيراً لعدم إخلاص زقل. فقد شككت فيه دائماً. لكن الذي قض مضجعي هو الأخبار السيئة عن حالة حملة هكس باشا.

---

* يبدو أنها زلة قلم من سلاطين. فلم يكن للحكومة التركية المصرية أي بيت مال في السودان، بل فقط خزينة الحكومة الرسمية (المترجم).

ظل وقتي مقسماً بين إسراعي إلي هنا وإلي هناك لمواجهة الثورات المحلية المتعددة والتي كانت تنشب وتنتشر بسرعة مدهشة. فيوماً أقوم بمهاجمة مادبو وفي اليوم التالي زعيم آخر ثم جاءتني أنباء عن حملة ترحو علي الميما والتي إنتهت بتدميره. وقد إعترض ضباطي علي إقتراحي باخلاء دارا مع تركيز القوات بالفاشر. زاد الطينة بلة الإنقسامات والخلافات التي بدأت في الظهور بين أولئك الذين كنت أعتبرهم من أخلص أتباعي. فحسن ود سعد نور، الذي حصلت له علي العفو، كما تذكرون، في الخرطوم، والذي أحضرته معي وعلي مسئوليتي وضماني لدارا، والذي أعطيته منزلاً خارج الحصن، والذي عندما مات حصانه بالمرض أعطيته بديلاً عنه، والذي أوكلت إليه، بصفته من أبناء البلد، لنقل الأخبار لي، قام بخذلاني للأسف وأصابني بخيبة الأمل فيه. فقد تناسي كل ما قدمته له من منافع وعون وقام، متظاهراً بزيارة أحد الأقرباء، بامتطاء الجواد الذي وهبته له وتوجه مباشرة للأبيض حيث صار واحداً من أتباع المهدي المخلصين.

ومنذ وقت طويل مضى أصبحت الإتصالات بالخرطوم في حكم المستحيل فقد كان أتباع المهدي في منتهي اليقظة. وأي رجل حاولت إرساله بخطاب للخرطوم كان يتم إعتراضه. وفي إحدي المناسبات، وأثناء إنشغالي بالقتال ضد عرب البني هلبة، تمكنت من إرسال خطاب لمصر عن طريق إحدي القوافل التي كانت في طريقها لأسيوط عن طريق درب الأربعين. أما الآن فأن معظم وسائل إخفاء الرسائل التي كنت أدبرها بنجاح، مثل إخفاء الرسائل بين بطانة الحذاء أو الصندل والنعل، أو لحامها بداخل إبريق الوضوء، أو حشوها بداخل قصبة رمح، قد تم إكتشافها جميعها. وذات صباح عندما كنت أتفقد القلعة لاحظت بعض الجنود يقومون بعلاج حمار مريض. كان عرجاً في القدم الأمامية. لذا قاموا برميه علي الأرض ثم جرحوا الكتف ووضعوا داخل شق الجرح قطعة صغيرة من الخشب حتي تقوم بشد الجلد والذي عملوا عليه حزوزات طولية وعرضية ثم أخرجوا قطعة الخشب ونثروا علي الجرح بدرة العطرون. جذبتني الفكرة إليها فقد يمكنني إخفاء رسالة بهذه الطريقة تحت جلد الحيوان. لذا قمت بشراء حمار متين وخلوت به في منزلي وقمت بتكرار

نفس العملية التي شاهدتها من قبل وحشرت داخل الجرح الأول رسالة قصيرة، وصفت فيها الحال، كنت قد غلفتها بمثانة عنزة قبل إدخالها في الجرح. لم يتجاوز حجم الرسالة حجم طابع بريد. ثم قمت بخياطة الجرح بخيط من الحرير بعدها نهض الحمار ومشي بدون أي صعوبة. وقد أخبرني الرجل الذي أوكلت إليه توصيل الرسالة بأنه سلمها بالفعل لعلاء الدين باشا في شات قبل يوم أو يومين من تحركهم للأبيض وقد أخبره علاء الدين بأنه لا داعي الآن لكتابة رد لكنه يري أن يقوم بمرافقة الحملة معه إلي الأبيض ومنها سيرسله لي مع خطاب واضح.

ثم أصبحت الآن في محنة أليمة بخصوص النخائر. فكل الكمية التي بحوزة رجالي، والتي بالمخازن، لم تزد علي إثنتي عشرة علبة لكل بندقية وإذا ما غامرت بالدخول في معركة فسيتم استهلاك نصفها في الحال. كان وصول النجدة غير متوقع في القريب العاجل والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف سنصمد حتي وصولها بهذه الكمية البسيطة من الطلقات؟ ولكسب الوقت رأيت اللجوء للحيلة. فعن طريق أحد شيوخ العرب الموالين أخبرت الثوار، والذين تجمعوا الآن بأعداد كبيرة بالقرب من دارا بأنني علي استعداد للإستسلام لكنني لا أضمن سلامة شخصي أو جنودي إذا ما سلمنا أنفسنا للعرب الذين كنت في حروب متصلة معهم لأكثر من عام. وقلت لهم علي أية حال أنه إذا قام المهدي بأرسال مبعوث خاص لي فأنني علي استعداد لعمل اللازم لاتمام شروط التسليم. نجحت الخطة. وبموافقة زعمائهم، ورغم عدائهم الشديد، كتبت للمهدي راجياً منه إرسال أحد أقاربه لي حتي أتمكن من تسليمه حكومة المديرية.

الأيام التي مررت بها بعد ذلك كانت مليئة بالترقب المشوب بالقلق. وكنت أعلم أن جيش هكس سيكون في هذا الوقت قد وصل للأبيض وأن المعركة الفاصلة، التي عليها تتوقف كل آمالنا وتخوفاتنا، كانت علي وشك النشوب. درجت علي الذهاب إلي السوق والتحدث مع الأهالي عن كل أحداث اليوم. كانوا جميعاً علي علم بأن جيشاً ضخماً زاحف نحو الأبيض لكن أحداً منهم لم يعرف شيئاً عن مدي تقدمه.

وأخيراً وبنهاية نوفمبر بدأت الإشاعات تترى، لحزني الذي لايوصف، تفيد بأن الجيش قد هزم. ورغم أنها كانت ذات نبرة تقرب من الحقيقة إلا أننا لم نقتنع بصحتها إلا بعد يوم أو يومين، عندما جاءتنا أخباراً مؤكدة بتحطيم الجيش وتدميره التام. غمرنا الوجوم والحزن. فبعد كل تلك المشاق والصعوبات التي واجهوها ينتهي بهم وبنا الأمر للسقوط في أيدي المهدي بدون أي بصيص من الأمل في النجاة! ولكن: هل من المحتمل أن تكون تلك الأخبار مبالغ فيها؟ كان لايزال لدي بصيص أمل لكن هذا الأمل قد تلاشي نهائياً عندما جاءنا نبأ بأن زقل قد وصل لأم شنقة وأن الحامية قد سلمت له بصفته الجديدة «كمدير عموم الغرب» طبقاً لتعليمات المهدي.

وفي العشرين من ديسمبر ١٨٨٣. عاد الرسول، الذي كنت قد أرسلته للمهدي، ووقف أمام بوابة الحصن مرتدياً جبة ثم أحضروه لمقابلتي. سرد لي كافة تفاصيل التدمير الكامل للحملة، والتي كان هو شاهد عيان لها، كما سلمني خطاباً من زقل مطالباً لي فيه بالتسليم. ولتاكيد خبر الكارثة التي حلت بالمصريين أرسل لي عدة شارات للضباط وعدد من تقارير الأوضاع إضافة إلي يوميات الكولونيل فاركار والمستر أو دونوفان.

وفي ذات المساء جاءني فرج أفندي وعلي أفندي الطوبجي، آمر المدفعية، وأخبراني أن الضباط قد قرروا التسليم للمهدي ولكن ليس لزقل بك. وأوضحوا أن السبب في ذلك، ببساطة، هو أن أي أحد من أعلاهم إلي أقلهم شأناً أصبح الآن علي قناعة تامة في أنه لم تعد لنا أدنى فرصة بعد الآن لإنقاذهم و أن جملة قوات دارا النظامية أصبحت لا تزيد علي خمسمائة وعشرة من الرجال وأن معظمهم عديم الجدوى. كما أن الحالة المعنوية للقوات قد تدنت لدرجة استبعدوا فيها أي فكرة عن انتصار لهم. أيضاً فقد نقصت كميات الذخيرة حتي صارت لاتكفي بالكاد حتي لمعركة واحدة سواء كنا مهاجمين أم مدافعين. ونبه الرجلان إلي أنني لن أوفق في إقناع الجنود بالقتال بعد الآن وإنهم قد عزموا علي التسليم إذ لم يعد أمامهم أي بارقة أمل تلوح لهم. أجبتهم بأنني سأدرس الأمر بعناية وسأسلمهم إجابتي صباح اليوم التالي.

لم تغمض عيني للحظة طوال تلك الليلة من التفكير في الأهوال والشدائد التي مررنا بها وانتهت بنا الآن إلي طريق مسدود هو الإستسلام ولاندري بعدها المصير الذي سننتهي إليه.

في ساعات الأرق تلك راجعت في مخيلتي مجري الأمور من البداية وحتي النهاية. فلأربعة سنوات جاهدت وحيداً للمحافظة علي سلطة الحكومة في المديرية التي عهد إلي بها: بداية بالثورات والفتن المحلية، والتي نجحت في قمعها، ونهاية بهذه الحركة المتعصبة الواسعة التي هاجمت ونخرت جذور إدارتي ونشرت ديدان الخراب في أفرعها حتي أخذت أوراق شجرة إدارتي في الذبول والسقوط ورقة بعد الأخري ودخلت في طور الموت.

خلاصة الأمر أن هذا التعصب الغريب قد تمكن من قلوب رجالي وضباطي بعد أن صمدوا طويلاً أمامه طالما كنت قادراً علي التلويح لهم بإمكانية عودة السلطة الحكومية بكل قواها بعد النجاح المتوقع لحملة الجيش المصري بقيادة هكس، وبالمزايا والفوائد الجمة التي سينالها كل واحد من الذين خدموا مصالح الحكومة باخلاص وتفان. واستخدمت كافة مالدي من وسائل لإقناعهم بأن الحكومة لاشك منتصرة: ثم جاءت الكارثة وانقطعت كل احتمالات وصول النجدة لنا – وللأبد. وقد كافحت الدسائس والمؤامرات التي كانت تجئ من كل مكان الأمر الذي أتركه للقراء ليحكموا عليه وعلي مدي نجاحي في إحباطها. وكان بامكاني، مع كمية الذخيرة البسيطة التي تبقت معي، أن استمر في مقاومة يائسة لساعات قليلة أخري ولكن هل كان ضباطي وجنودي سيطيعونني؟ فقد فقدوا الرغبة وفقدوا إرادة القتال وعرفوا مثل ما أعرف عبثية ذلك. فلماذا أطلب منهم التضحية بأنفسهم، وربما بأطفالهم ونسائهم، من أجل قضية لم يعودوا مرتبطين بها؟

ثم عاودت استعراض الموقف عامة مرة أخري ولم يعد لي أي شك في أن التسليم هو السبيل الوحيد الصحيح. بل كان أمراً محتوماً. وبوصولي لهذه النتيجة بدأت النظر في وضعي الخاص وإلي الوجه الشخصي للمسألة إذ أن أي سبيل متاح لي فيها محاط بكافة الصعوبات. فانني كضابط، كنت أنظر لفكرة الاستسلام لمثل هذا العدو بنفور شديد. لم

أكن أخشى علي حياتي فقد خاطرت بها بما يكفي طيلة السنوات الأربع الماضية مما ينفي عني أي شبهة تمس شجاعتي الشخصية. وشعرت بالثقة في أنني، إذا مانجوت بحياتي، سأتمكن من تبرير سلوكي، بدون أي صعوبة، أمام رؤسائي العسكريين. لكن مجرد كلمة (الإستسلام) كانت مقززة بالنسبة لي ويتضاعف ذلك الشعور عند ما أفكر في عواقب ذلك وما سيتبعها. وعندما أتصور أنني كأوروبي وكمسيحي، وحيد وسط الألاف المؤلفة من السودانيين المتعصبين وغيرهم حيث يعتبر أقلهم مقاماً إنه أعلي مني شأناً. نعم لقد اعتنقت إسمياً ديانة البلد لكنني ما فعلت ذلك إلا لمحو الأفكار الجارحة التي كنت أعرف أنها تملأ عقول الضباط والجنود والخاصة بتبريرهم للهزائم التي ما حلت بنا إلا لكوني نصراني الديانة. ولقد نجحت في مقاصدي لدرجة أكبر مما كنت أتصور لكن ما تم لم يكن مستساغاً لي. إنني لا أدعي التدين أو التبحر فيه لأنني في قرارة فؤادي نصراني مثلي ومثل معظم معارفي من الشباب، ولهذا السبب توقعت العيش في ظل الخداع الديني بادعاء الإسلام كما كنت أعلم تماماً أن إستسلامي سيضعني تحت قبضة هذا المصلح الديني المزعوم وأن علي، لا أن أبدو كمسلم عادي مثل ما قد تتصور بل أن أقوم بما يفرضه الإستسلام علي من أدوار إذ أن علي أن أتابع وإستمر في إدعاء الإسلام لأقصي الحدود بل أن علي أن أكون مؤمناً مخلصاً وأن أبدو ظاهراً وباطناً كأحد المهدويين.

أيظن أحد منكم أن هذا كان يسرني؟ إنني أعترف بأن إعتبارات الدين المتعلقة بالخطوة التي قمت بها - والتي ماكانت بالهينة علي - لم تكن لتشغل بالي بقدر إعتبارات الواجب الملقي علي عاتقي. فقد شعرت أن من واجبي التسليم وألا أغامر بتضحية أخري بحياتي في سبيل قضية لم تعد أمامها فرصة للنجاح ولم يكن هناك داع علي أية حال لأن أقدم نفسي لهوان العبودية والتي ستتلو تلقائياً عملية تسليمي. ولقد خطر لي كثيراً أن أضع نهاية لحياتي. لكنني كنت أنفر بالطبع من مثل هذه الفكرة. فقد كنت شاباً في مقتبل عمري وقضيت السنوات الأربعة الماضية في هم متصل من جراء المسئولية الجسيمة الملقاة علي عاتقي، رغم ما أحاط بها من مغامرات مثيرة، ولم أجد سبباً أو رغبة لوضع حد لها رغم

ما سيحمله لي الغد من إحتمالات سوداء في إنتظاري. فقد حفظني الله وشملني برحمته طيلة ذلك القتال المتواصل مما يبدو كالمعجزة. وربما يستمر في رعايتي وحفظي لأكون مرة أخري ذو فائدة للحكومة التي بذلت ما في وسعي لخدمتها بكل إخلاص.

كانت تلك هي الأفكار التي ظلت تراودني طوال الليل وحتي طلوع فجر اليوم التالي والذي قد يكون يوماً لن ينسي طوال حياتي. نعم. وصلت إلي النتيجة الحتمية وهي أنه لم يعد أمامي سوي التسليم وسأصبح بعد ذلك عبداً للذين كنت حاكماً لهم. سأصبح مطيعاً لهؤلاء الذين هم دوني في كل شئ. ويجب علي فوق أي شئ أن أكون ملتحفاً بالصبر. فاذا ما تمسكت بتلك الخصائص من خضوع وطاعة وصبر فقد أنجح في المحافظة علي حياتي وربما استعادة حريتي فيما بعد حيث ستكون خبراتي وتجاربي ذات فائدة عظيمة للحكومة التي لا أزال في خدمتها. ثم نهضت وأنا ممتلئ عزماً وتصميماً وارتديت للمرة الأخيرة الحلة الرسمية التي تشرفت بارتدائها وبذلت مافي وسعي لمقابلة استحقاق ارتدائها، والتي أعلم أنه سيلقي بها بعيداً لتستبدل بجبة الأنصار التي سأمر بها في مرحلة جديدة، مختلفة تماماً عما كانت، في حياتي رغم أن تحتها قلب أشد ما يكون إخلاصاً للحكومة وممتلئ بالعزم بأنه مهما جري لي فبأرادة الله، وإذا ما تم خلاصي ونيل حريتي، فسأقوم بتسخير كل تجاربي ومعارفي لمنفعة وخدمة حكومتي. ومن الآن فصاعداً سيكون ما بيني وبين سادتي الجدد صراع للإرادة لا أدري من المنتصر فيه. لكنني لا أخشي من مواجهة الصراع رغم أن لدي العذر في تحاشيه وخاصة إذا ما نظرت إلي قادم الأيام وتأملت السنوات الطوال من العبودية والحياة المزدوجة التي سأجبر علي ممارستها حتي أتمكن من تنفيذ ما عقدت العزم عليه الآن.

وصباح اليوم التالي حضر إلي الضابطان فعرضت عليهما خطاب زقل الذي يدعوني فيه للتسليم بهدوء ولمقابلته في الثالث والعشرين من ديسمبر في حلة شعيرية حيث سيسلمني شخصياً خطاب المهدي. وكتب لي أيضاً أنه، وطبقاً للتعليمات الصادرة إليه، فأن حياتي وحياة كل الرجال والنساء والأطفال الذين بالقلعة ستؤمن وستقدم لنا كل حماية ممكنة.

كان واضحاً تماماً لي استحالة أي مقاومة أخري لذا أرسلت لإستدعاء كاتبي وأمليت عليه خطاباً لزقل مبدياً فيه تسليمي وكل الحامية له مع موافقتي علي لقائه بحلة شعيرية في الثالث والعشرين من ديسمبر. سلمت الخطاب لرسول مع تعليمات بتوصيله لزقل والذي صار يدعي الآن السيد محمد بن خالد.

وعند ظهيرة اليوم التالي جمعت كل الضباط وأخبرتهم بأنني بعد اقتناعي بعدم جدوي أي مقاومة فقد وافقت علي مقترحاتهم. وأنني سأغادر دارا هذا المساء لمقابلة زقل غداً في شعيرية وسيصحبني القاضي. أما الضباط فسأتركهم للإهتمام بشئون الحامية أثناء غيابي. وببضع كلمات، لم تخرج من حلقي إلا بالكاد، شكرتهم علي ولائهم وعلي استعدادهم للتضحية بأرواحهم لخدمة الحكومة ولدعمهم لي وارتباطهم بي. ثم صافحت كلاً منهم بحرارة واستأذنت منهم ثم غادرت المكان.

وعند منتصف الليل بارحت دارا وبصحبتي خدمي وبعض شيوخ العرب الذين ظلوا علي ولائهم حتي النهاية. ورغم أنني مررت بتجارب مريرة أثناء خدمتي في دارفور إلا أن رحلتي هذه كانت من أمرها. لم نتبادل أي كلمة بيننا فقد كان الجميع في شغل عن الحديث ولا يخطر ببالهم سوي الحزن الممض والأفكار السوداء. وعند الغروب توقفنا لفترة قصيرة لكن أحداً منا لم يمس الطعام الذي أعده الخدم لنا فقد زالت شهوة الطعام عنا. لذا ركبنا وواصلنا رحلتنا قدماً وعند اقترابنا من حلة شعيرية أرسلت جندياً مرافقاً للتوجه قبلنا للحلة ولمعرفة إن كان زقل قد وصل. وسرعان ما عاد وأخبرنا بأنه موجود هناك منذ الأمس وأنه في إنتظار وصولنا له. وبعد لحظات وصلنا إلي المكان الذي كان واقفاً فيه فترجلت عن جوادي وذهبت لتحيته. ضمني إلي صدره وأكد لي صداقته المطلقة ثم رجاني أن أجلس وبعدها سلمني خطاب المهدي. جاء فيه أنه قد عين السيد محمد خالد أميراً للغرب، وأنه قد عفي عني وأنه كلف إبن أخيه لمعاملتي بالإحترام الذي تستحقه رتبتي وبأن يعامل بكل لين وصبر كل الذين كانوا موظفين في الحكومة. وبعد أن إنتهيت من قراءة الخطاب أخطرني زقل بأنه لعلاقته الحميمة بالمهدي فقد استجاب للعفو عني بناء علي طلبه

وأنه سيبذل كل جهده لمساعدتي. قمت بشكره لعواطفه الرقيقة تجاهي. ثم قدم لي الأمراء الذين رافقوه وهم ألياس والطيب وحسن نجومي الذي كنت قد قابلته من قبل. وبعد تناول الطعام ناقش زقل معي رحلته المزمعة إلي دارا. وأثناء تبادلنا للحديث وصل أحد ضباطي، محمد أغا سليمان، وتوجه محيياً إلي زقل وقد تجاهلني تماماً. عرفت في الحال أنه واحد من الضباط الثلاثة الذين أخبروني عنهم بأنهم جواسيس زقل الأسود - كما كانوا يطلقون عليه - ثم إنتحي بي محمد خالد - كما سأطلق عليه في المستقبل - جانباً وتحدث معي عن أحوال عائلته وأقاربه. أخبرته بأنني تركتهم بخير كلهم أما عائلته فلازالت تحت الحراسة فأقرني علي الخطوات التي قمت بها والتي كانت بالطبع لحمايتهم ولمصلحتنا جميعاً. ثم تحركنا ووصلنا مساء نفس اليوم بالقرب من دارا حيث أقمنا معسكرنا. وقد جاء عدد من الأهالي والموظفين لتحية المدير الجديد والذي كان مرتدياً جبة الدراويش.

تلك الليلة لم أغمض عيني للحظة. فلقد كانت عشية عيد الميلاد. وأخذت أفكر في وطني وفي حفل الكنيسة البهيج الذي يقام هناك إحتفالاً بالميلاد بينما أقبع أنا وحيداً ومهزوماً هنا لكي أقوم بتسليم رجالي وسلاحي للعدو. وفي سكون الليل مرت الساعات تلو الساعات وأنا في أشد حالات الحزن التي مرت علي في حياتي وقطعتها في مراجعة كل ما مررت به من أحداث وكم كنت أغبط فيها أولئك المحظوظين الذين سقطوا في ساحة الشرف!

عند الصباح قام زقل بأستقبال كل الذين جاءوا لتقديم فروض الطاعة له وانتشر الدراويش في القلعة وأصبحوا حامية لها بدلاً عن جنود الحكومة وبهذا تم إكتمال عملية إحتلال المهدويين للمنطقة رسمياً. ثم جاء المواطنون بالجملة لتقديم بيعة الولاء للمهدي وبعدها جاءت جموع الجنود، بعد أن استعرضها زقل، لأداء نفس البيعة.

وقد جاء مادبو، بعد التحاقه بعبد الصمد في برنقل إلي دار و تبعني إلي منزلي. تصافحنا بالأيدي ورجوت منه الجلوس وبعدها قال لي: «يظهر عليك إنك متضايق مني وربما تتهمني بأنني نكثت عهدي معك. لكن عليك أن تسمعني الآن: لقد قام إميلياني بطردي من منصبي ككبير الشيوخ فتوجهت إلي بحر العرب حيث وجدت منشورات المهدي

هناك. إنني مسلم ملتزم ولذلك إتبعته. ولقد شاهدته واستمعت إلي تعاليمه وكنت حاضراً عندما تم الانتصار المذهل علي جيش يوسف شلالي وتدميره. وقد صدقته تماماً ولازلت مؤمناً حقاً بما جاء به. أما أنت فقد ركنت بالطبع إلي قوتك ولم ترغب في التسليم دون قتال. لقد حاربنا كلانا، وكل منا يحارب من أجل مصالحه الخاصة. لقد حاربت الحكومة لكن ليس ضدك أنت شخصياً. والله يعلم بأنني لم أنسي قط بأنك كنت صديقاً لي. أبعد الغضب عن قلبك وكن أخاً لي».

فأجبته بقولي: « إنني لست بحال غاضب لما قمت به. فما أنت إلا واحد من كثر. وحتي إذا كنت غاضباً عليك فقد نزلت علي كلماتك برداً وسلاماً». فقال لي: « إنني شاكر لك وأسأل الله أن يقويك فقد حماك الله حتي الآن وأسأله أن يستمر في حمايتك» قلت له: « حقيقة إنني أثق بالله لكن لازال أمر تحمل ما حدث لي حتي الآن شاقاً بالنسبة لي رغم توقعي لذلك».أجابني: « لا. ليس كذلك. فما أنا إلا عربي. والآن عليك الإستماع لي: كن مطيعاً وصبوراً وواظب علي ذلك حيث أنه قدر الله المكتوب والله مع الصابرين. وعلي كل حال أرجو أن ألتمس منك شيئاً إن كنت حقاً أخاً لي وهو، وكرمز لصداقتنا، أرجو منك أن تقبل جوادي المفضل كهدية لك فأنت تعرفه جيداً من قبل وهو صقر الدجاج». وقبل أن أرد عليه نهض وتوجه للخارج وبعد بضع دقائق عاد وهو يقود الجواد والذي كان أجمل حصان لدي كل القبيلة وأكثرها وسامة ثم سلمني اللجام. فقلت له: « إنني أكره الإساءة إليك برفض قبول هديتك لأنني في الواقع لا أحتاج إليه ولا آريد الركوب كثيراً بعد الآن». فقال الشيخ: «من يدري؟ اللي عمره طويل يشوف كثير. فأنت لازلت شاباً وستركب كثيراً فيما بعد. وحتي لو لم تركب هذا الحصان فستركب غيره». فقلت له: « ربما تكون علي حق يامادبو. والآن هل يمكن أيضاً أن تقبل مني هذا الرمز للصداقة؟» وأشرت إلي طبول حربه الثمينة والتي تناولها خدمي وقدموها له. تلك الطبول كما تذكر كنت قد غنمتها ليلة الهجوم علي كرشو. فوق الطبول وضعت أيضاً سيفاً كان معلقاً علي الحائط وقلت له: « اليوم فهذه الأشياء كلها لي وأهديتك إياها فربما كانت غداً بيد رجل آخر إن رفضت استلامها». فقال

الشيخ: « إنني شاكر لك وقد قبلتهم بسرور. فقبل فترة قليلة غنم رجالك طبول حربي، وكما يقول العرب: الرجال شرادة وورادة. وحقاً أقول لك إنني قد دخلت في عدة معارك طوال حياتي واضطررت بعض الأحيان للفرار لكنني كنت أعود بعد ذلك وأنتصر». ثم أمر مادبو رجاله لنقل طبوله وغادرني وهو في غاية السرور. تأثرت كثيراً بمحادثته لي. فما علي الآن إلا أن أكون (مطيعاً وصبوراً) إذ أن من يعيش كثيراً يري كثيراً.

وفي صبيحة اليوم التالي أمر الحاكم الجديد جميع السكان بالخروج من منازلهم والتي إستبيحت ونقلت محتوياتها لبيت المال. وقد تم جلد المواطنين، الذين كان يشك في أنهم يخفون أموالهم، بدون رحمة وتم تقييد أرجل البعض منهم وأدخلوهم، ورؤوسهم للأسفل، بداخل الآبار حتي فقدوا وعيهم. وقد تدخلت في الأمر واحتججت لدي خالد لكنه كان عنيداً قاسي القلب.

ثم تم تقسيم الخدم من الذكور والإناث التابعين للموظفين السابقين علي كبار المهديين. لكن تم استثناء الحسناوات من صغار السن لارسالهم للمهدي.

وبعد إسبوع من إستسلامنا أخبرني خالد بأن السيد بك جمعة قد أرسل له كبار الموظفين، مع عمر ود ترحو، لتقديم فروض الولاء له. من ثم قرر التوجه بنفسه للفاشر. وعندما إقترب من المدينة قرر سكانها عدم الإستسلام له لما سمعوه من سوء معاملة أهل دارا وقد رد الدراويش علي ذلك بمحاصرة المدينة. ورغم البطولات التي أبداها البعض إلا أن المدينة سلمت بعد أسبوعين من الحصار ودخل خالد العاصمة العريقة لملكته الجديدة. وتكرر الآن ما حدث من فظائع في دارا من قبل ولكن بصورة أشد وأقسي وتم تعذيب العديد من الناس بطريقة تخلو من الرحمة أو الرفق. ومن بين الذين عذبوا المدعو الصاغ حمادة أفندي والذي أصر علي أنه لايملك أي مال رغم كل مابذل لجعله يعترف. لكن إحدي خادماته أخبرت مستجوبيه بأن لديه كمية من الفضة والذهب لكنها لا تعلم بمكان إخفائها. تم احضاره للمثول أمام خالد والذي نعته بالكلب الكافر. فقد حمادة أفندي السيطرة علي نفسه ورد عليه بأنه دنقلاوي زنيم. فاهتاج خالد لهذه الإساءة وأمر بجلد الرجل التعس إلي

أن يعترف بمخبأ كنزه. ولثلاثة أيام كان يجلد ألف جلدة يومياً ولكن بدون طائل. ولو كان كتلة من الحجر أو الخشب لما تحمل هذا الجلد المخيف وبكل ذلك العناد. وكان يرد على معذبيه الذين يسألونه عن مكان المال بقوله: « نعم لقد خبأت مالي لكنه سيدفن معي ». أمر خالد بالتوقف عن جلده وتم تسليم ذلك المسكين الممزق بالسياط لعرب الميما للقيام بحراسته والذين ذهلوا من تصميم هذا الضابط وعزمه الذي لم تلن قناته أمام كل ذلك العذاب ولم ينتزع منه أي إعتراف. أما إبراهيم تقلاوي فقد قام، بعد أن وصفه أحد الأمراء بالعبد، بقتل زوجته وأخاه ثم قتل نفسه رمياً بالرصاص. وإختار سعيد أغا فولة الإنتحار بدلاً من تعذيبه بيد الفاتحين. وبعد تلك الأحداث أصدر خالد أوامره بوقف الجلد بالسياط وقام بارسال الضباط المصريين إلي المنفي في أماكن متفرقة جوار الفاشر.

وبعد وقت وجيز من سقوط الفاشر تسلمت أمراً من خالد للحاق به ووصلت إليه في أوائل فبراير. سلمني منزل سيد بك جمعة لأسكن به وأخبرني أن بأمكاني أن أرسل لدارا لإحضار خدمي وخيولي أما أثاث منزلي هناك فيجب أن يضم لبيت المال إثباتاً لزهدي وتجردي. نفذت تلك التعليمات وسلمت كل ما أملك في منزلي لخازن بيت المال جابر ود الطيب ولم أحتفظ إلا بالأشياء ذات الضرورة القصوي لحياتي اليومية. كنت عند وصولي للفاشر قد سمعت بما أبداه حمادة من بطولة فبحثت عنه ووجدت ذلك الصاغ العجوز في حالة مفزعة حقاً. فقد بدأت جراحه المفتوحة الممتدة من كتفيه وحتي ركبتيه تصاب بالغنغرينا بسرعة بينما إعتاد معذبوه علي صب محلول قوي من الملح والماء يومياً علي جراحه بعد خلطها مع مسحوق الشطة السودانية كي ينتزعوا إعترافاً منه أثناء الألم الفظيع الذي يتبع ذلك الفعل. لكن كان ذلك بدون طائل. فقد. رفض أن ينطق بكلمة واحدة. ذهبت لخالد وأنا يائس وحدثته بحالة الرجل المسكين الخطيرة وتوسلت إليه للسماح لي بأخذه لمنزلي وعلاجه هناك. لكن خالد قال لي: «إنه مخادع غير أمين وقد خبأ أمواله كما أساء إلي علناً ولهذا يجب أن يموت ميتة بائسة شنيعة». فقلت له: «أتوسل إليك من أجل صداقتنا القديمة، وأرجوك أن تعفو عنه وأن تسلمه لي» فقال لي بعد صمت قصير: «

حسناً. سأقوم بذلك بشرط أن تنبطح ساجداً أمامي». ففي السودان يعتبر هذا الأمر غاية في الإهانة والتحقير. فار الدم في رأسي. ولو كان هذا الأمر لإنقاذ حياتي لما قمت به. لكنني إذا كنت بهذه التضحية قادراً علي إنقاذ ذلك البائس المسكين من عذابه الممض فلن أتردد في القيام بها. ترددت للحظة ثم بمجهود خارق للسيطرة علي نفسي ركعت ووضعت يدي علي قدميه العاريتين. قام بأبعاد يدي وأنهضني وقال بخجل واضح من جراء طلبه هذه التضحية مني: « من أجلك فقط سأطلق سراح حمادة. ولكن عليك أن تعدني بأنك إذا ما علمت بموضع كنزه فستخبرني في الحال». وعدته بذلك ثم أرسل معي رجلاً لحمادة. ناديت خدمي وحملوه علي عنقريب برفق شديد إلي منزلي حيث قمت بغسل جراحه ثم نثرت عليه سمناً طازجاً لقتل الألم لكن كان واضحاً أنه لن يعيش بعد ذلك. أعطيته قليلاً من الحساء بينما كان يستمطر في صوت خفيض كل لعنات السماء علي أعدائه. ظل في منزلي لأربعة أيام ثم استدعاني لفراشه بعد أن أشار للخدم بالإبتعاد عنا. ثم همس في أذني بكلمات لم أسمعها إلا بالكاد: « لقد دنت ساعتي. فليجازيك الله لما قمت به نحوي من حنو وعطف. ولن أستطيع جزاءك إلا بأن أريك مدي عرفاني. لقد قمت بدفن مالي ....» فقلت له مسرعاً: « توقف! أتريد أن تخبرني بمكان كنزك المخبوء؟». قال: «نعم. فقد يكون ذو فائدة لك». أجبته: « لا. إنني لن ولا أستطيع الانتفاع به. لقد حصلت علي العفو عنك من معذبيك بشرط واحد هو أنني إذا ما علمت مخبأ مالك فعلي أن أخطر بذلك خالد وهو عدوك. لقد عانيت كثيراً وإنك دفعت حياتك لئلا يسقط كنزك في يد أعدائك. دعه في مكانه المجهول بباطن الأرض فالأرض لن تنطق». وبينما كنت في حديثي معه أمسك بيدي. وبمجهود خارق غمغم قائلاً: «إنني شاكر لك فقد يتم توفيقك بدون مالي هذا فالله هو الكريم». ثم مدد أطرافه ورفع سبابة يده للسماء وغمغم ببطء: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». ثم أغمض عينيه ومات.

وعندما تأملت في هذه الجثة المشوهة لذلك المسكين امتلأت عيناي بالدمع السخين وفكرت في كم سأعاني من الأهوال حتي يجئ دوري للدخول في الراحة الأبدية. إستدعيت

خدمي وطلبت منهم إحضار رجلين حاذقين لغسل الجثمان وتكفينه في بعض القماش الذي جهزته لهذه الغاية. وفي تلك الأثناء ذهبت لخالد لأخبره بموته فسألني بحدة: « ألم يسر إليك بمكان إخفاء ماله الدفين؟». فأجبته بالنفي وقلت له: « لقد كان الرجل في غاية العناد ليكشف عن سره» فرد الأمير: « إذن عليه لعنة الله!» ثم إلتفت إلي قائلاً: « علي كل حال، لقد مات في منزلك لذا عليك القيام بدفنه رغم أنه يستحق أن يرمي به، كالكلب الميت، في المزبلة». استأذنت منه وتوجهت لمنزلي وقمنا بدفن حمادة المسكين، بعد الصلاة المعتادة عليه، أمام المنزل مباشرة.

كان خالد رجلاً ذكياً مخاتلاً وكان صارماً للغاية مع موظفي الحكومة السابقة لكنه كان ليناً في تعامله مع السكان المحليين ولغير ما ضرورة لذلك. وقد قام بملء كل الوظائف الهامة بأقاربه. ورغم أنه بذل المستحيل ليعتصر ما أمكنه ذلك من موارد المنطقة إلا أنه حرص علي تجنب سخط المواطنين. وكان يخص نفسه بالجزء الأكبر من الإيرادات ثم يرسل من وقت لآخر للمهدي وخلفائه دفعاً من البنات الحسناوات والجياد الأصيلة أو الإبل التي تتميز بالرشاقة وجمال البنيان. كل ذلك حتي يحتفظ بسمعة طيبة عند سيده وأسرته. كان يعيش في أبهة عظيمة ويحيط نفسه بالخدم والحشم. ثم تزوج من مريم عيسي باسي شقيقة سلطان دارفور رغم أنها تجاوزت الخمسين من العمر. تلك السيدة الطيبة كانت تمتلك المئات من العبيد ذكوراً وأناثاً واحتفظت في دارها بكافة التقاليد السودانية. لم يخطر ببال خالد أن المطلوب منه، طبقاً لتعاليم المهدي، إنكار الذات أو المسكنة وكان يقوم كل مساء بفرش الأبسطة ووضع مئات من أطباق الطعام مما لذ وطاب عليها ليأكلها أتباعه وهم جالسون في راحة تامة تحت الأشجار وينشدون المدائح في المهدي ولاينسون ذكر أميرهم المحسن وسط إنشادهم.

ووصلني في هذه الأثناء خطاب مطول، أرسل لي من القاهرة عن طريق مدير دنقلا والذي سلمه لمن يثق به من العرب لتوصيله لي. جاء في الخطاب الأمر لي بتركيز الجنود في الفاشر وبعدها تسليم المديرية إلي سليل سلاطين دارفور عبد الشكور بن عبد الرحمن

شطة وبعدها أتوجه بكل الجنود إلي دنقلا ومعي كافة المواد الحربية والسلاح. لكن سليل السلطان ذاك كان لايزال في دنقلا غير قادر علي إيجاد وسيلة للوصول إلي دارفور بها كما أنني كنت أشك في أن وصوله للفاشر سيكون له أي أثر في تغيير الوضع الحالي. فتجميع الجنود وتركيزهم بالفاشر كان مستحيلاً بعد تخلي الضباط والجنود عن أداء واجبهم. وحتي لو كان بأمكاني جمع العدد المناسب من الجنود المستعدين لإطاعة أوامري ثم تمكنت من السير بهم وبالسلاح والمعدات الحربية فما الذي كان يمنعني من البقاء في مكاني وإستعادة مركزي، وكانت الحكومة المصرية ستجد في شخصي عندها رجلاً يعادل، إن لم يتفوق، في إخلاصه علي ذلك العاجز عبد الشكور. أطلعني خالد علي تلك الخطابات وأذن لي أن أكتب بضع سطور لأهلي بالوطن وسمح للعربي الذي كان قد أحضر الخطابات بالعودة ثانية بخطابي. لكنني لا أظن أن خطابي قد وصل أبداً لمقصده الذي أرسلته إليه.

قضيت تلك الفترة بهدوء في منزلي في إنتظار تعليمات من المهدي بخصوص تحركاتي. وحوالي منتصف مايو حدثني خالد عن مغادرة المهدي للأبيض وتوجهه نحو الرهد وعزا ذلك لندرة الماء في الأبيض وأن المهدي يرغب في التعرف علي شخصياً، لذا يجب أن أشرع في الإستعداد للتوجه فوراً إليه.

ثم بلغتنا الأخبار عن سقوط بحر الغزال، التي كان يديرها لبتن بك، وإرسال الأمير كرم الله ليحكمها باسم المهدي. إذ لم يجد لبتن بك، بعد أن هجره كل الناس، بداً من الإستسلام وهو الأمر الذي تم بدون قتال في الثامن والعشرين من أبريل ١٨٨٤. ولو لم يهجره رجاله وموظفوه لتمكن لبتن من المحافظة علي مديريته ضد كل الغزاة ولعدة سنوات وذلك بالاستفادة من علاقته الطيبة بالقبائل الزنجية هناك. لكن الجميع هجروه وباعوه للمهديين فلم يجد بداً من التسليم.

رغب خالد في أن يصحبني سيد بك جمعة والذي كان لا يزال مقيماً في كوبي. وبالرغم من دسائسه القديمة ضدي فقد وافقت علي ذلك. أيضاً رافقنا تاجر إغريقي يدعي ديمتري سجادة كان قد طلب السفر معي وأذن له خالد.

وحوالي منتصف يونية غادرنا الفاشر، أنا وسجادة، تحت حراسة عشرة رجال. وبعد رحلة مضنية كئيبة وصلنا الأبيض حيث استقبلنا حاكمها السيد محمود بتحفظ ولكن بنوع من اللطف وأمرنا بالتوجه في اليوم التالي للرهد التي كان يعسكر بها المهدي.

***



A Dervish Emir.

أحد أمراء المهدية

الباب العاشر

حصار وسقوط الخرطوم

«عودة غردون للسودان – حصار الخرطوم – لحاقي بالمهدي في الرهد – مقابلتي للمهدي وإنطباعاتي الأولي عنه – قسم الولاء – وصف الخليفة – وصول حسين باشا – إنتقادات حول مهمة غردون – الإعلان عن إخلاء السودان – الأحداث في مناطق مختلفة بالسودان – وصول أوليفر باين – مهمته ومرضه وموته – وصولي لضواحي الخرطوم – كتبت لغردون – القبض علي وتقييدي بالأغلال – الأحداث أثناء سجني – إستسلام أم درمان – تأخر الحملة البريطانية – الهجوم علي الخرطوم والإستيلاء عليها – إحضار رأس غردون لي – أحداث الأيام الأخيرة للخرطوم – المذابح والفظائع التي تلت سقوطها – إنسحاب حملة الإنقاذ البريطانية – التشدد في ظروف سجني – زميلي في الحبس فرانك لبتون – إطلاق سراحنا سوياً – التحاقي بحرس الخليفة – مرض ووفاة المهدي – تولي الخليفة عبد الله الحكم من بعده – قوانين ونظم الحكم في المهدية».

***

بعد تدمير حملة هكس باشا، عرف المهدي بأن كل السودان قد أصبح تحت قدميه وأن إتمام الإستيلاء علي كل ربوعه ما هو إلا مسألة وقت. بدأ أولي خطواته بأرسال إبن عمه خالد لدارفور فقد كان يعرف أنه لم يعد أي وجود فيها لمقاومة تذكر. وعن طريق نفوذ كرم الله تمكن من تحقيق ضم بحر الغزال وفيها قام العاملون والموظفون بتغيير ولائهم من الخديوي إلي المهدي. وكان الملك أدم، مك تقلي، قد سلم للمهدية ونزح للأبيض بعائلته. وفي شرق السودان قويت شوكة المهدية ووجدت مهداً طيباً وموطناً بين سكانها من العرب الشجعان. وقد تم تحطيم الجيوش المصرية في سنكات وتمانيب أما الكارثة التي حلت بالجنرال بيكر في التيب فقد ملأت قلوب المواطنين بالثقة الفائقة. أما كسلا فقد كانت تحت الحصار الذي ضربه حولها مصطفي هدل. وفي الجزيرة، بين النيلين الأبيض والأزرق، قام صهر المهدي ود البصير، من قبيلة الحلاوين، باحراز عدة انتصارات علي قوات الحكومة

هناك. وهكذا كان الحال في السودان عندما وصل غردون إلي بربر في الحادي عشر من فبراير ١٨٨٤.

ولقد ظنت الحكومة المصرية، وبالإتفاق مع الحكومة البريطانية، أنها بأرسالها لغردون، والذي يعرف السودان معرفة طيبة، فأن الاضطرابات والفتنة فيه ستتوقف. لكن كل من هاتين الحكومتين، وحتي غردون نفسه، لم يكن يدرك مدي خطورة الحال الذي وصل إليه السودان. فهل كانوا يتصورون، ولو للحظة أن بأستطاعة غردون، والذي كان قد أبدي من قبل ضروباً من الشجاعة الشخصية، وأصبح إسمه مرادفاً للشفقة والإحسان بين الطبقات السفلي من سكان دارفور، والذي كان قد أخمد عدداً من ثورات قبائل السود في الاستوائية، أن يكون قادراً علي كبح اللهيب الوهاج لأولئك المتعصبين؟ لقد إنتشر التذمر والقلق بين الجعليين من بربر وحتي الخرطوم وعلي طول الجزيرة وعرضها: فهل كان باستطاعة نفوذ غردون الشخصي تهدئتهم؟ علي العكس من ذلك، فأن تلك القبائل بالذات كان لها كل الحق في ألاتنسي إطلاقاً إسم ذلك الحكمدار الذي قام من قبل بأصدار أمره بطرد الجلابة من المناطق الجنوبية عندما قام سليمان الزبير بمحاربة العرب. ففي خضم تلك الأحداث التي تلت هذا القرار المأساوي، والذي وصفته من قبل، فقد كثير منهم آباءهم أو إخوتهم وأبناءهم وأموالهم حتي وصلوا لمرحلة التسول. فهل سيغفرون لغردون ما ألحقه بهم من خراب.

وصل غردون للخرطوم في الثامن عشر من فبراير وقد إستقبله كل الموظفين والأهالي بحرارة. وقد إقتنع أولئك الذين كانوا علي صلة وثيقة به، والذي توقعوا المنافع الجزيلة التي ستعود عليهم، أن الحكومة لن تفرط في غردون أو تتركه وشأنه دون دعم قوي. بدأ أول خطواته باصدار إعلان يعين فيه المهدي سلطاناً علي كردفان، ثم السماح بتجارة الرقيق كما إقترح الدخول في علاقات معه وأضاف في خطابه له طلباً بأطلاق سراح الأسري وأرسل للمهدي بعض الثياب الفاخرة. كان من الممكن لخطاب غردون أن يكون ذا أثر محمود إذا ما كانت هناك قوة عسكرية وراءه يستطيع بها الزحف نحو كردفان. أما المهدي فقد بلغه أن غردون قد وصل للخرطوم وليس معه بالكاد سوي بضع رجال كحرس

شخصي له. وقد استغرب بالطبع أن يتجرأ غردون علي منحه ما أخذه هو بالسيف عنوة، وأن لاقوة لدي غردون تستطيع إقتلاعه منه. من هنا جاء خطاب المهدي رداً عليه ناصحاً له بالتسليم وحقن دمه.

كان الخليفة عبد الله المستشار الأول للمهدي في كافة الأمور وبالتالي كان مكروها بين أقرباء المهدي المباشرين والذين بذلوا ما في وسعهم للحط من شأنه وللتآمر ضده. لكنه كان يعلم بأن المهدي لايستطيع المضى في خططه بدونه. ومن هنا رد عليهم كيدهم بأن شكا للمهدي ما يقومون به ضده وطلب منه إنتهاز أول فرصة للإعلان عن خدماته له ودعم مكانته. من هنا جاء الإعلان الذي يستند إليه خليفته إلي اليوم عند ما يتخذ أي إجراء صارم تجاههم أو عند ما يقوم بتغيير يمس وضعهم.

إشتمل الإعلان علي ضرورة التزام كافة الأتباع بالطاعة المطلقة للخليفة عبد الله وأن تتم معاملته في كافة الظروف علي أنه وكيل المهدي الذي ما عليه إلا تنفيذ إرادة النبي*.

ولما بدأت المياه تشح يوماً بعد يوم، قرر المهدي الإنتقال بكل جيوشه للرهد، علي مسافة يوم من الأبيض، وفي منتصف أبريل إكتمل ترحيل هذا الجمع الهائل من الرجال والنساء والأطفال للمكان الجديد.

وسرعان ما تحول معسكر الرهد إلي بحر هائل من أكواخ القش أو التكول والتي تمتد بقدر ما تستطيع العين رؤيتها وإنشغل المهدي طوال الوقت بشئون الدين وواجباته وفي المواعظ والصلوات المتصلة. وقام بتعيين محمد أبو قرجة أميراً علي الجزيرة وأرسله مع قوة معتبرة إلي النيل مع تعليمات بأن يدير ويرأس الثورة في تلك الجهات وأن يقوم بحصار الخرطوم.

وهكذا كان الحال عند وصولي أنا وسيد بك جمعة وديمتري سجادة إلي الرهد. قمت بأرسال أحد خدمي لينبئ الخليفة المرهوب الجانب بقدومنا ولكن، ولتأخره في العودة، فقد ركبنا خيولنا وتابعنا الطريق العريض المؤدي للسوق وسرعان ما سمعنا صوت الأمباية

* استخدم سلاطين كلمة النبي بدلاً عن المهدي (المترجم)

الكئيب والذي يعني أن الخليفة خارج علي ظهر حصانه لمكان ما. وعن طريق الصدفة قابلت رجلاً دارفورياً وسألته عن سبب نفخ الأمباية فأجابني: « من المحتمل جداً أن يكون الخليفة عبد الله قد أصدر أمراً بقطع رأس أحد ما، وأن هذا البوق يقصد به إجتماع الناس لمشاهدة التنفيذ». ولو كنت متشائماً بطبعي لإعتبرت هذا الأمر نذير شؤم - أن تتم عملية إعدام في اللحظة التي أصل فيها للمعسكر! علي كل حال واصلنا سيرنا وسرعان ما وقعت عيوننا علي مكان فسيح رأينا فيه خادمي ومعه رجل آخر يغذان السير نحونا. صاح عند رؤيتي: «قف حيث أنت ولا تتقدم، فالخليفة مصحوباً بحرسه قد خرج لمقابلتك وقد إعتقد أنك لازلت خارج المعسكر». توقفنا في حين أسرع الرجل الآخر نحو الخليفة ليخبره بوصولنا. وبعد دقائق رأينا بضع مئات من الفرسان المحاطين بأعداد من المشاة المسلحين وهم متجهون نحونا علي صوت الأمباية. وعلي الطرف البعيد للميدان كان الخليفة قد توقف بينما أحاط به عدد من الفرسان عن يمينه وعن شماله في إنتظار تعليماته. أمرهم ببدء التدريبات العسكرية علي الخيول والتي تشتمل علي صفوف من أربعة فرسان متلاصقين يركضون خيولهم بأقصي سرعة، وقد أشرعوا رماحهم، متجهين لمكان ما ثم يستديرون فجأة ويركضون عائدين لمكانهم الأول مرة أخري. استمر هذا التدريب العسكري عديم الفائدة حتي أصاب الإرهاق الرجال والخيول علي السواء. كنت في بعض الأحيان هدفاً لهجومهم وكانوا أثناء ركضهم يهزون حرابهم قريباً من وجهي صائحين: « في شأن الله ورسوله» ثم يرجعون. وبعد أن كرروا هذا لما يقارب نصف الساعة إقترب مني أحد خدم الخليفة وأخبرني بأن الخليفة يطلب مني أيضاً أن أركض فرسي باتجاهه فقمت بذلك وهززت حربتي في وجهه وصحت: « في شان الله ورسوله!» ثم عدت لمكاني. بعد ذلك أرسل لي للركوب من ورائه وبعد دقائق وصلنا لمكان إقامته حيث قام مرافق خاص بمساعدته علي الترجل من جواده أما بقية الرجال فقد وقفوا، من باب الإحترام، علي مسافة معقولة منه ثم دخل لمنزله. وبعد لحظات أرسل لاستدعائنا إليه وتم توصيلنا لمكان له سور بينه وبين المنزل بشكل راكوبة عبارة عن غرفة صغيرة مربعة ذات حوائط من القش وسقف من القش أيضاً. علي الأرض وضعت عدة أسرة بلدية (عنقريب) وأبسطة من

سعف النخيل (بروش) وطلب منا الجلوس عليها بينما تناولنا شراباً هو خليط من عسل النحل والماء، قدم لنا في أوعية من القرع مع بعض التمر، وبعد أن تناولنا شيئاً منها انتظرنا بصبر ظهور مضيفنا الكريم وسيدنا. وسرعان ما ظهر فنهضنا في الحال ثم أمسك بيدي وضغطني علي صدره قائلاً «الحمد لله الذي جمع شملنا أخيراً! كيف حالك بعد رحلتك المرهقة الطويلة؟ «فأجبته قائلاً: «حقاً فأن الحمد لله الذي أحياني لأحضر هذا اليوم. فقد زال عني الإرهاق فور مشاهدتي لطلعتك البهية!». كنت أعلم تماماً بأنني لابد من منافقته بقدر المستطاع حتي أكسب وده. بعدها مد يده للسيد بك ولديمتري لتقبيلها وسألهما عن أحوالهما. قمت بالتفرس فيه جيداً كان لونه بنياً فاتحاً كلون العرب وبدا علي وجهه آثار جدري قديم. له أنف معقوف وفم دقيق وشارب خفيف وهداب من الشعر علي خديه يصبح كثاً علي ذقنه. كان متوسط الطول ليس بالنحيف ولا الغليظ ومرتدياً لجبة عليها رقع مربعة صغيرة من مختلف الألوان وطاقية مكاوية محاطة بعمامة من القطن. كان يتحدث مبتسماً فتظهر صفوف أسنانه اللامعة البيضاء. وبعد أن حيانا طلب منا الجلوس فجلسنا علي البروش أرضاً بينما جلس هو، وقد ربع رجليه، علي عنقريب. ثم سألنا مرة أخري عن صحتنا وعبر عن سروره العظيم بأننا قد وصلنا أخيراً للمهدي. ثم أشار لأحد خدمه وسرعان ما قدم لنا طبقاً من العصيدة وطبقاً من اللحم ثم جلس بجانبنا ودعانا للطعام. كان يأكل بشهية ويبدو عليه الإستمتاع بالطعام وكان يسألنا الفينة بعد الأخري عديداً من الاسئلة وقال لنا مبتسماً: « لماذا لم تنتظروني خارج المعسكر بدلاً من الدخول إليه بدون إذن؟ فأنتم تعلمون أنه حتي دخول بيت صديق لايكون بدون إذن منه». فقلت له: « أرجو المعذرة فقد أبقانا الخادم في الإنتظار وقتاً طويلاً ولم يفكر أي أحد منا بأنك ستتجشم المتاعب للحضور بنفسك لمقابلتنا. لكننا عندما وصلنا لمدخل المعسكر سمعنا ضربات الطبول وصوت الأمباية ولما استفسرنا عن معناها قالوا لنا إنك قد ركبت لحضور إعدام أحد المجرمين لذا قررنا أن نتبع صوت أمبايتك عندما وصلتنا أوامرك». فقال لي: « أيعرف الناس عني أنني طاغية؟ وأن صوت أمبايتي لايعني دائماً سوي موت شخص ما؟».

رددت عليه: « لايا سيدي. فالمعروف عنك إنك صارم مع العدل» أجابني: « نعم أنا صارم حقاً ولكن علي أن أكون كذلك. وستفهم علي مر الأيام أسباب ذلك».

ثم أذن الخليفة لبعض الذين كنت أعرفهم من قبل بالحضور لتحيتي لكنهم لم يجدوا فرصة للحوار معي ما عدا ما كان من عبد الرحمن بانقا، الذي كان أحد المشتركين في حملة هكس، فقد قال لي مسرعاً وبصوت خافت: «كن في غاية الحذر، وأمسك لسانك ولاتثق بأحد ما» وقد حفظت وصيته لي تماماً.

ثم ذهب الخليفة وأرسل لنا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر للقيام بالوضوء والإستعداد للذهاب للمسجد. وبعد دقائق عاد إلينا وطلب منا أن نتبعه. كان راجلاً. فقد كان المسجد المجاور لسكن المهدي لايبعد سوي ثلثمائة ياردة عنا. وعند وصولنا كان المكان مكتظاً بالأتباع المخلصين وقد تراصوا في صفوف منتظمة. وعندما دخل الخليفة أفسحوا له مكاناً بمظاهر الإحترام الشديد وقد فرشت له فروة من جلد الضأن علي الأرض ثم أشار إلينا لإتخاذ أمكنتنا بجواره. كانت منازل المهدي، المكونة من عدة أكواخ واسعة من القش ومحاطة بزريبة من الشوك، تقع علي الجانب الجنوبي الغربي من المسجد وكانت هناك شجرة عملاقة توفر ظلاً طيباً لعدد كبير من المصلين أما الذين كانوا بعيداً عنها فلم تكن لهم حماية من حر الشمس الحارقة. علي بعد خطوات من الصف الأمامي، وعلي اليمين منه، كانت هنالك قطية صغيرة مخصصة للذين يود المهدي أن يتحدث إليهم علي إنفراد. فنهض الخليفة وتوجه نحو تلك القطية، ربما ليخطر سيده بقدومنا، وعاد بعد لحظات وجلس مرة أخري بجانبي وبعد ذلك مباشرة خرج المهدي منها فنهض الخليفة في الحال مثلما نهض سيد بك وديمتري وأنا بينما ظل الباقون في أماكنهم في هدوء وسكون. فرشت للمهدي فروة أمام المصلين، بصفته الإمام لكنه تقدم نحونا مثلما تحركت أنا نحوه قليلاً وحياني (بالسلام عليكم) فرددنا عليه في الحال (وعليكم السلام).

ثم مد يده لي لأقبلها ففعلت ذلك عدة مرات مثلما فعل ديمتري وسيد بك. ثم أشار إلينا بالجلوس مرحباً بنا ثم إلتفت إلي وسألني: «أمرتاح أنت؟» فأجبته بالبديهة: «نعم أنا مرتاح حقاً. وأنا شديد السعادة لوجودي معك وبهذا القرب منك». فقال: « ليباركك الله وإخوتك!

(يقصد ديمتري وسيد بك). فعندما وصلتنا أخبار قتالك لأتباعي كنت أسأل الله أن يهديك للإسلام وقد إستجاب الله ورسوله لدعائي. ومثلما خدمت سيدك السابق من أجل المال الزائل عليك أن تقوم بخدمتي الآن إذ أن من يخدمني ويستجيب لكلماتي فانه يخدم الله ودين الله وسينال السعادة في الدنيا والبهجة والحبور في الآخرة». قمنا بالطبع بابداء كل مظاهر الإخلاص له. ولما كنت قد نصحت من قبل لطلب البيعة منه فقد سألته منحي هذا الشرف. نادانا للاقتراب منه وطلب منا الركوع علي حافة فروته ثم وضعنا أيدينا علي يده ومن ثم طلب منا أن نردد من بعده:

(بسم الله الرحمن الرحيم. بايعنا الله ورسوله وبايعناك علي توحيد الله وألا نشرك بالله شيئاً وألا نسرق وألا تزني وألانأتي ببهتان وألا نعصيك في المعروف. بايعناك علي ترك الدنيا للآخرة وألا نفر من الجهاد).

وبعد أن إنتهينا من البيعة قمنا بتقبيل يده ومن ثم أصبحنا في عداد أصحابه الأوفياء رغم أننا كنا في نفس الوقت عرضة للعقاب الذي قد ينزل بنا. ثم جاء الآذان لبدء الصلاة وكررنا نفس العبارات وراء المهدي. وعندما إنتهت رفع المصلون أيديهم للسماء وسألوا الله النصر للمؤمنين. ثم بدأ المهدي موعظته وقد أحاطت به الجموع من كل حدب وصوب فحدثهم عن غرور الدنيا وخوائها وحث الجميع علي نبذها وعدم التفكير إلا في واجبات الدين وفي الجهاد. ورسم لهم بألفاظ عذبة مباهج الجنة ومتعها التي تنتظر أولئك الذين يتبعون تعاليمه. وكان يقاطع من وقت لآخر بصيحات الوجد والحماس الشديد ولاشك أن جميع الحاضرين، ما عدانا، كانوا يؤمنون به حقاً.

كان الخليفة قد بارح المسجد، لأداء عمل ما، بعد أن أصدر أوامره لملازميه ليطلبوا منا البقاء بصحبة المهدي حتي الغروب. لذا أتيحت لي فرصة طيبة للنظر إلي المهدي والتعرف علي أوصافه. كان طويلاً عريض الكتفين ذا لون خفيف السمرة وقوي البنية. له رأس ضخم وأعين سوداء براقة وكانت له لحية سوداء وشلوخ ثلاثة علي كل خد من وجهه. له أنف دقيق وفم متناسق وكان دائم الإبتسام وعندها تبرق أسنانه البيضاء وبينهما فلجة واضحة بين سنيه العلويين والتي يعتبرها السودانيون دليل فأل وحظ حسن. وربما كانت

تلك الفلجة هي التي جعلته محبوباً حتي أن البعض كان يسميه (أبو فلجة). لباسه جبة قصيرة شديدة النظافة ومعطرة بزيت الصندل والمسك وعطر الورد حتي إشتهرت وسط أتباعه وأسموها (بريحة المهدي) ويعتقدون أنها تشبه رائحة الفردوس أو تفوقها.

ظللنا ماكثين في أماكننا وقد طوينا سيقاننا حتي حانت صلاة المغرب وفي تلك الأثناء المهدي كثيراً ما يدخل ويخرج بين المسجد ومنزله. ولما إنتهت الصلاة إستأننته للذهاب للخليفة الذي حدد لي موعداً لمقابلته في ذلك الوقت. أذن لي المهدي ونصحني بأن أكون علي صلة وثيقة بالخليفة وأن أكرس نفسي لخدمته تماماً. وعدته بالطبع أن أطيعه حرفياً وقمت مع ديمتري وسيد بك بغمر يد المهدي بالقبلات ثم تركنا المسجد. كانت رجلاي قد أصابهما الخدر من جراء الجلوس عليهما لساعات طوال حتي كاد يغلبني المشي. ورغم الألم كان علي أن أبدو مبتهجاً مسروراً في حضور المهدي. أما سيد بك فبدأ عليه أنه كان معتاداً علي مثل ذلك الجلوس ولم يبدو عليه أي مظاهر للألم لكن المسكين ديمتري كان يعرج من خلفنا وهو يغمغم باللغة اليونانية بصوت غير واضح رغم أنني لم أشك في أنها لم تكن بحال إطراء المهدي. قادنا ملازم إلي منزل الخليفة حيث كان في إنتظارنا لتناول العشاء معه.

وقد حدثنا الخليفة بأنه بعد لقائنا صباح ذلك اليوم كان حسين خليفة، مدير بربر السابق، قد وصل. أي أن بربر قد سقطت! وكنا قد سمعنا إشاعات حول سقوطها عندما كنا في الحدود بين دارفور وكردفان لكننا لم نقابل أي واحد من الذين يمكن أن نسألهم سراً عن صحة ذلك الخبر. ويبدوا أن المدينة قد سقطت علي يد الجعليين وبالتالي من الواضح أن أي إتصال بمصر قد إنقطع. كانت تلك أخبار رهيبة حقاً وتشوقت للقاء حسين خليفة إذا ما وصل إلينا فسيكون بمقدوره إيضاح كل ما حدث لي.

ثم غادرنا الخليفة وسرعان ما قمنا، بعد أن هدنا التعب، بمد أطرافنا المرهقة علي العناقريب وأطلقنا لأنفسنا عنان الأفكار والتأمل فيما نحن فيه.

وصباح اليوم التالي الباكر، وبعد تناولنا لإفطار مكون من العصيدة واللبن، أعلن صوت الأمباية وضرب الطبول بأن الخليفة علي وشك الركوب وتم إسراج الخيول في الحال.

وجهت خادمي بتجهيز جوادين، واحد لي والآخر لسد بك، وركبنا متوجهين إلي الخليفة حيث أدركناه بعد وقت قصير. كان يطوف بجواده حول المعسكر بغرض النزهة مصحوباً بحوال عشرين رجلاً يمشون علي أقدامهم. وكان يمشي علي يمينه زنجي ضخم من قبيلة الدينكا وعن شماله عربي طويل القامة جداً يسمي أبو جكة مهمته مساعدة الخليفة في الركوب وفي النزول. وعندما عاد ثانية للميدان قام لتوجيه الفرسان لإعادة نفس تمارين الأمس. وبعد أن راقب التمرين لبعض الوقت ركبنا وتوجهنا لآخر المعسكر حيث أراني بقايا زريبة ضخمة وخنادق صغيرة منهارة وآخبرني أنها واحدة من المحطات الآخيرة التي توقف فيها هكس قبل أن تباد قواته حيث كان عندها في إنتظار الإمدادات من تقلي. كانت الخنادق قد أعدت لمدافعه الكروب وقد حرك منظرها ذكريات حزينة في نفسي وخاصة عند تصوري للألوف من الجنود الذين كانوا قبل وقت قصير قد توقفوا معسكرين في هذه الزريبة الضخمة وما إنتهي إليه مصيرهم بقتلهم حتي آخر رجل منهم تقريباً، ولعلمي بأن هذه الكارثة هي سبب وجودي الآن في هذا المكان!

عند عودتنا عرج بي الخليفة للقيام بزيارة أخيه يعقوب والذي كانت أكواخه مجاورة لأكواخ الخليفة، لايفصل بين أسوارهما إلا ممر صغير ضيق. استقبلني يعقوب بكل رفق وبدا عليه السرور لرؤيتي مثلما سر الخليفة من قبل. ثم حذرني لخدمة الخليفة بكل إخلاص فوعدته بذلك طبعاً. يعقوب كان أقصر من الخليفة لكنه ذو أكتاف عريضة ووجه مستدير عليه آثار الجدري. وكان له أنف مرتفع وشارب ولحية خفيفان. كان يميل للقبح أكثر منه للوسامة لكن نبرة حديثه كانت تحمل عطفاً ورقة غريبة تجاه محدثه. وكان أيضاً، مثل المهدي والخليفة، دائم الإبتسام. ولكن فيم العجب! فقد كانت أحوالهم في تقدم مستمر. وكان يعقوب يجيد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن عن ظهر قلب أما عبد الله فكان بالمقارنة معه جاهلاً. وكان يصغره سناً ببضع سنوات لكنه كان مصدر ثقته ومستشاره القوي النفوذ. فالويل لتعيس الحظ الذي يعارض أفكار يعقوب أو الذي يشتبه في تآمره ضده، فهو ضائع بلاشك!

تناولت بعضاً من التمر الذي قدمه لي ثم إستأذنته وعدت للراكوبة ومنها، طبقاً لأوامر الخليفة، توجهنا نحو المسجد ومكثنا فيه حتي المغرب مثلما فعلنا بالأمس. ومرة أخري وعظنا المهدي لنبذ الدنيا ومافيها والاستعداد للجهاد حتي نتمتع بمباهج الجنة ونعيمها فيما بعد. ومرة بعد الأخري أخذ أخصاؤه المقربون الذين أثملهم حديثه، في الانشاد والمديح بأسمه بينما كنا نحن التعساء المساكين نعاني الأمرين من عذاب الجلوس علي الأرض ومن أطرافنا المتشنجة ونلعن في سرنا المهدي والخليفة وكل الحاضرين من سفلة المنافقين.

وفي اليوم التالي استدعانا الخليفة وسألنا إن كنا نرغب في العودة لدارفور. كنت أدرك أن هذا السؤال ما هو إلا إختبار لنا لذا أجبناه بصوت واحد في الحال بأننا لن نفارق المهدي بحال ورأيت في وجهه أنه كان يتوقع منا تلك الإجابة ثم إبتسم وهنأنا علي قرارنا الحكيم. ثم اقترح الخليفة أن ننتقل من الراكوبة إلي مكان أفضل منها يليق بنا فأرسل ديمتري مع أحد الملازمين إلي منزل أميره القادم، وهو رجل إغريقي، مع تعليمات لأحمد ود سليمان لنفحه بمبلغ عشرين ريالاً. وبعد أن ذهب توجه نحو سيد بك وقال له: «إنك ياسيد جمعة رجل مصري وبالطبع فأن أي شخص يرغب في رفقة مواطنيه. إن معنا مجموعة من المصريين وقد برهن الكثيرون منهم علي إخلاصهم لنا. إنك رجل شجاع وأشعر بأن في مقدوري الإعتماد عليك لذا عليك الإنضمام إلي أمير كل المصريين حسن حسين وسيعطيك منزلاً وسيرعي شئونك. أما أنا فسأعمل ما في وسعي لراحتك». سر سيد بك كثيراً لهذه الترتيبات وبعد ذلك التفت الخليفة نحوي وقال: « يا عبد القادر! إنك رجل غريب هنا، وليس لك من أحد سواي، وأنت أيضاً تعلم جيداً شئون عرب جنوب دارفور. لذا ستظل معي كملازم طبقاً لأوامر المهدي فأجبته في الحال: «إن هذه أمنية قلبي وأنني أعد نفسي من المحظوظين لأن أكون قادراً علي خدمتك ويمكنك أن تعتمد علي طاعتي لك وإخلاصي». فقال لي: «إنني أعرف ذلك. فليحفظك الله ويقوي إيمانك. وستكون بلا شك ذو فائدة كبيرة للمهدي ولي».

مرة أخري كنت وحيداً مع الخليفة ومرة أخري عبر عن سروره بدخولي في خدمته وأن أكون دائماً بجانبه. لكنه حذرني من عدم مرافقة أقربائه المباشرين حيث أن غيرتهم قد

تؤدي إلي شقاق بيننا. بعدها أصدر أوامره بتشييد عدة أكواخ من القش بالزريبة الملاصقة لزريبته والتي تعود لأبي عنجة والذي كان غائباً في حملة ضد النوبة. وحتي تشييد الأكواخ طلب مني البقاء في الراكوبة والمواظبة علي الصلاة مع المهدي وخاصة صلاة الظهر والمغرب والعشاء. شكرته بحرارة لما أسبغه علي من نعم وأكدت له أنني سأبذل ما في وسعي لإرضائه ولأحظي برضائه التام عني.

وفي اليوم التالي تم إحضار حسين باشا خليفة لنا وبدأ عبد الله الحديث معه بالسؤال عن صحة حاكم بربر السابق ولما أجابه كالمعتاد تحول إلي الحالة في مناطق النيل فشرع حسين في الحديث وذكر له أن كل المنطقة من بربر وحتي فشودة أصبحت كلها تابعة للمهدي وأن المواصلات بين مصر والسودان قد إنقطعت أما الخرطوم، والتي يدافع عنها غردون، فمحاصرة تماماً بقبائل الجزيرة. ومن البديهي أن حسين باشا قام بإيضاح صورة الوضع وتزويقها بالدرجة التي يعرف أنها مقبولة لدي المهدي وكان حديثه مؤثراً للخليفة وظهر هذا واضحاً من تعابير الإرتياح التي كانت تظهر علي وجهه كلما واصل حسين حديثه ووصفه. ثم وعده الخليفة بتقديمه للمهدي أثناء صلاة الظهر وسيضمن له عفوه التام عنه أما في الوقت الحالي فعليه البقاء في الراكوبة معي.

توجهت معه بعدها للمسجد حيث تم تقديمه كالمعتاد. وعند رجوعنا لم أتمالك نفسي من السرور عندما علمت بأنه سيقضي تلك الليلة معي في الراكوبة. ثم تناولنا طعام العشاء كالمعتاد مع الخليفة وعندما غادرنا هو وخدمه إنتهزنا فرصة هذه اللحظة التي طال إنتظارنا لها لتبادل التحايا القلبية ولنتبادل ا لحزن والأسي من هذا المصير المحزن الذي جمعنا في هذا الوضع البائس. ثم قلت له: «إنني واثق منك تماماً ياحسين باشا كما أرجو أن تثق في صمتي وقدرتي علي إمساك لساني. أخبرني عن حالة الخرطوم الحالية. وماذا يعمل السكان هناك الآن؟». فرد علي: «واحسرتاه! إن الحال هو مثل ما وصفته للخليفة بالضبط. لقد كان لقراءة غردون في المتمة للإعلان عن (إخلاء السودان) ما تسبب في قلب الموقف بأكمله، وكان السبب غير المباشر لسقوط بربر. نعم فلاشك أنها كانت ستسقط فيما بعد لكن ما فعله غردون عجل بسقوطها. لقد منعته في بربر من القيام بهذه الخطوة القاتلة

ولا أدري ما الذي دفعه لعدم الإكتراث بنصيحتي بعد ذلك مباشرة». واصلنا حديثنا طويلاً عن الأحوال والأحداث العديدة التي مر بها لكن حسين باشا، والذي كان هرماً متعباً، تداعي للنوم في الحال. لكن محادثتنا أطارت كل النوم من عيني. فهذه هي النهاية إذن لكل جهود غردون لتهدئة البلاد. فهل تبددت سدي كل الدماء والأموال التي صرفت في السنوات السابقة وضاعت؟ لقد أرادت الحكومة الآن أن تهجر هذه البلاد العظيمة والتي، رغم أنها لم تغذ الخزينة المصرية مادياً إلا أنها بلاد ذات مستقبل عظيم وخاصة لقدرتها علي توفير آلاف الجنود السود الأقوياء لملئ صفوف الجيش المصري. فالحكومة إذن ستترك هذه البلاد لأهلها، وتحاول أن تكون علي صلة طيبة بهم في نفس الوقت. كما إنها ستقوم بسحب حامياتها ومعداتها الحربية، وتعمل علي إقامة حكومة وطنية، مع أن هذه الحكومة المزمع إنشاؤها قد ظهرت فجأة للوجود، وبأكثر الوسائل قسوة، وبالذات عن طريق تحطيم أي أثر للسلطة المصرية وبذبح أو أسر أي شخص كان يعمل لدي تلك السلطة المبادة.

ولتنفيذ هذا المخطط قاموا بإرسال غردون، آملين بأن نفوذه الشخصي بين الأهالي وتقديرهم له - والذي كان يبالغ في تصوره له - سيمكنه من النجاح في مهمته الهرقلية هذه. فغردون حقاً كانت له شعبية وسط بعض قبائل الغرب والاستوائية والذين كان قد كسبهم عن طريق سخائه وطبيعته ذات النزعة الخيرية. فلقد كان كثير الترحال في تلك المناطق وتجول في ربوعها وكان لشجاعته الشخصية وصموده في القتال أثر ملحوظ علي تلك القبائل التي تفتخر وتعتز. بمن يملك تلك الخصال. ولقد كان أيضاً محبوبا لدي قبائل الغرب لكنهم الآن أصبحوا من اتباع المهدي ولدرجة التقديس له ونسوا أو كادوا ينسون غردون. فالسودانيون، كما تعرفون، ليسوا بالأوروبيين فهم عرب وسود ولايخضعون تصرفاتهم للعواطف والمزاج الشخصي. لكنهم في هذا الوضع بالذات، وعندما قرئ الأعلان عليهم، كانوا من دون الناس من قبائل الجعليين الذين يسكنون ضفاف النهر. والجعليون هم أكثر الناس كراهية وعداء لغردون إذ أنهم لم ينسوا قط ما حل بالجلابة علي يده.

إضافة لهذا، فمجرد وصول غردون للخرطوم بدون أي قوة عسكرية من ورائه أو ضحت للجميع أنه لايعتمد سوي علي نفوذه الشخصي لتنفيذ مهمته. ولن لهم إدراك بواقع الحال فأن النفوذ الشخصي في هذه المرحلة لن يكون له أثر أكثر من نقطة ماء علي البحر. بالتالي ما الذي دفعه لقراءة هذا الإعلان القاتل والذي يوضح للقاصي والداني أن الحكومة قد قررت إخلاء السودان وتركه لشأنه؟ لقد استمع لنصيحة حسين باشا ولم يقرأ ذلك الإعلان في بربر لكنه سارع بالإفصاح عن فحواه في المتمة أمام كل الناس. فهل كان غردون جاهلاً بكل منشورات المهدي التي أرسلها لكل القبائل عقب سقوط الأبيض أم لم يخطره أحد بها؟ ألم يكن مدركاً بأن تلك المنشورات قد فرضت علي كل السودانيين أن يتحدوا في حربهم الدينية ضد السلطة الحاكمة، وأن الذين لايطيعون هذا النداء ويثبت أنهم يعاونون الترك البغيضين يعتبرون من الخونة للدين وأنهم بهذا لن يفقدوا أموالهم وممتلكاتهم فقط بل حتي نساءهم وأطفالهم والذين سيصحون عبيداً للمهدي وأعوانه؟ كان تفكير غردون ينحصر في كسب ولاء تلك القبائل ومساعدتها له لتسهيل سحب الحاميات من السودان وكان يظن أنه سيصل إلي تفاهم سهل معهم من أجل هذه المهمة. ولكن كيف له أن يتوقع مساعدتهم له في حين أن ما جاء في ذلك الإعلان لايخفي أنهم سيتركون لمصيرهم بعد تنفيذ الإخلاء. فماذا سيكون مصيرهم بعد ذلك؟ هل بمقدورهم مقاومة المهدي ببنادقه الأربعين ألفاً وجموع أتباعه من غلاة المتعصبين الذين يلهثون وراء الدم والمغانم؟ بالطبع لا! فهذه القبائل لها من الحس والإدراك ما يجعلها تفهم أن أي مساعدة لتسهيل إنسحاب غردون لاتعني سوي دمارهم واسترقاق عوائلهم. فلماذا يقومون بمثل تلك التضحية الجسيمة؟ وكيف سيكون لنفوذ غردون الشخصي أن ينفعه ولو للحظة أمام الإهتمامات الشخصية لأي رجل أو أمراة أو طفل في الوضع الذي سيعقب الإخلاء والانسحاب؟

فاذا كان من المستحيل علي الحكومة، سواء لأسباب سياسية أو غيرها، أن تعيد فتح السودان ولو بالتدريج فأن من العبث قيامها بارسال غردون إليه والتضحية به. لم يكن أمر إخلاء الحاميات وسحبها، مع بقية المواد الحربية، عن طريق البواخر إلي بربر، وتحت زريعة إنقاذ المدينة، يحتاج إلي شخص يتميز بقدرات عسكرية خاصة. فاذا ما تم التحرك

نحو بربر لكانت كل أو معظم حاميات السودان قد سحبت بنجاح رغم أن تنفيذ هذا الأمر كان لايتحمل أدني تأخير. لكن سقوطها بأيدي المهدويين أضعف من هذا الاحتمال وجعله غير ذي جدوي. لماذا؟ لأن بربر لم تسقط إلا في التاسع عشر من مايو، أي بعد ثلاثة أشهر من وصول غردون للخرطوم. وعلي كل حال، وتحت أي ظرف من الظروف، فأن قراءة ذلك الإعلان القاتل قد أدي إلي تعويق ذلك الإخلاء ولدرجة فظيعة. فقد أصبحت نوايا الحكومة واضحة كل الوضوح لدي السودانيين. ومن البديهي أنهم، ومنذ تلك اللحظة، لم ينظروا سوي لمصالحهم الذاتية والتي أصبحت الآن في خط معاكس تماماً لرؤية الحكومة وقد تحولوا الآن إلي صفوف الزعيم المظفر، المهدي.

وكيف يمكن للخصال التي يتسم بها غردون، من شجاعة وحيوية، والتي لاشك فيها أبداً، أن توقف مد الأحداث بعد ذلك الخطأ السياسي الجسيم؟

ووسط تلك البلبلة والهواجس أخذت أتقلب علي فراشي بينما استغرق حسين باشا في الشخير. ورغم مافي الإيمان بالقضاء والقدر من مزايا، إلا أنني كنت أوروبيا صميماً ليس من السهل عليه الإستكانة لهذا النوع من الإيمان. لكنني تعلمت بالتدريج أن أنظر لتلك الأمور بنوع من رباطة الجأش وقد علمتني تجاربي في السودان أن أتدرب وأتمسك بتلك الفضيلة العظيمة ألا وهي فضيلة الصبر.

وبعد أيام سرت إشاعة في المعسكر مفادها أن غردون قد قام بالهجوم علي أبي قرجة الذي أصيب بجراح أثناء القتال الذي تم فيه صد قواته التي كانت تحاصر الخرطوم وتم فك الحصار عنها. ملأت هذه الأنباء قلبي بالسرور رغم أنني كنت مجبراً لإظهار اللامبالاة في العلن.

ثم وصل صالح ود الملك إلي المعسكر بعد أن إضطر للإستسلام في فداسي وقام أبو قرجة بارساله للمهدي. وقد عفا عنه المهدي والخليفة كما قام بتأكيد ما جاء من أنباء لكنه أوضح لي سراً كثيراً من أخبار غردون. وفي ذلك المساء إستدعاني الخليفة لتناول طعام العشاء معه وقبل أن ننتهي من تمزيق قطعة اللحم الكبيرة التي وضعت أمامنا حتي سألني: «هل سمعت شيئاً اليوم عن الحاج محمد أبو قرجة؟» فأجبته منافقاً: «لا، لأنني لم

أبارح بابك طوال اليوم ولم ألتق بأي أحد». فقال الخليفة:« لقد قام غردون بهجوم مفاجئ علي حاج محمد من البر والنهر، خاصة والنيل الأزرق كان في ذروة الفيضان وقد قام بتصفيح بواخره حتي لايخترقها رصاص أنصارنا المخلصين. ذلك الرجل الكافر مراوغ كالثعلب وسيحل به عقاب الله. أما رجال أبي قرجة فقد عانوا الأمرين واضطروا للإنسحاب أمام تلك القوة المتفوقة عليهم. غردون الآن منتشي بالنصر لكنه مخدوع. فالله لايمنح النصر إلا للذين يؤمنون به وخلال بضعة أيام سيحل غضب الله وإنتقامه به فجأة. ولأن حاج محمد ليس بالرجل المناسب لإحراز النصر فسيرسل المهدي بالتالي عبد الرحمن ود النجومي ليقوم بحصار الخرطوم».

فقلت له: « أرجو ألا يكون حاج محمد قد تكبد خسائر كبيرة؟» وكنت أقصد في قلبي عكس ما قلت. فقال الخليفة: « لايمكنك القتال دون تكبد خسائر. لكنني لم أستمع لكافة التفاصيل بعد».

كان متعكر المزاج هذا اليوم فقد أزعجه إنتصار غردون والذي توقع أن يكون له أثر خطير علي معنويات الأنصار. وعندما رجعت لكوخي أرسلت خادمي لصالح ود الملك طالباً منه الحضور لي ومقابلتي سراً. لم يكن كوخه يبعد عني كثيراً لذا سرعان ما جاءني فأخبرته بما أكده لي الخليفة من الأخبار فقال لي أنه قد علم بذلك أيضاً من أحد أقاربه وظللنا نتحدث عن الماضي والحاضر حتي ساعة متأخرة من الليل.فقد رفع ذلك النصر معنوياتي عالياً ووجدت نفسي أتحدث بكل أمل وتفاؤل عن المستقبل. أما صالح فقد إعتبر ذلك النصر كنصر مؤقت وكانت أسبابه التي أوضحها لي تبدو مقنعة تماماً.

وأوضح لي بأنه ما أن وصل غردون للخرطوم حتي ظهر مفعول ذلك الإعلان القاتل للعيان وبالتالي بدأت مصاعبه تزداد. فقد بدأ الجعليون في التجمع واختاروا حاج علي ود سعد زعيماً لهم وسرعان ما تجمعت لديه قوة معتبرة رغم أنه كان، ولأسباب شخصية، يميل سراً للحكومة ومن ثم ماطل في بدء القتال وتأخيره بقدر ما أمكنه ذلك. وكان القناصل الموجودون بالخرطوم، والذين يمثلون مختلف الدول، قد طلبوا من غردون إرسالهم لبربر بعد أن رأوا الحال يزداد سوءا. لكن كان من المشكوك فيه أن ذهابهم

سيكون آمناً، وقد إنصاعوا أخيراً لإقتراح غردون بالبقاء بالخرطوم. أما أهالي الخرطوم فقد بدأوا ينظرون لغردون بعين الشك. فقد عرفوا من ذلك الإعلان الذي سمعوا عنه بأن غردون ما حضر إلا لسحب الحامية، رغم أنهم قد تفهموا تماماً فيما بعد أن غردون ما عاد لهم إلا لينتصر أو يموت.

قام الشيخ العبيد، وهو من أكبر شيوخ الدين في السودان، بحشد أتباعه في الحلفاية ليقوم بحصار الخرطوم فقام غردون بارسال قوة عسكرية بقيادة حسن باشا وسعيد باشا حسين (الذي كان مديراً لشكا من قبل) لطرد الثوار وإجلائهم عن أماكنهم. وكان يراقب العمليات من خلال منظاره المعظم من علي سطح القصر فرأي ضباطه الذين وثق بهم يحاولون تسليم قواتهم للثوار ثم ليتراجعوا مولين نحو الخرطوم فقام بعقد مجلس عسكري لمحاكمة هؤلاء الضباط الخونة وتم الحكم عليهم وإعدامهم رمياً بالرصاص. لكنه، وبالرغم من هذه الكارثة، فقد نجح في إنقاذ الشايقية الموالين للحكومة وتم حضورهم للخرطوم بواسطة قائدهم السنجك عبد الحميد ود محمد.

وكان صالح ود المك قد توسل لغردون للعمل علي فك الحصار عنه وعن قواته في فداسي. لكن كان من المستحيل القيام بذلك فاضطر للاستسلام للثوار هو و ١٥٠٠ من الجنود غير النظاميين والخيالة وبكامل أسلحتهم ومعداتهم. وترتب علي هذا النجاح قيام حاج محمد أبو قرجة بتجميع كل أهالي منطقة الجزيرة ودفعهم لمحاصرة الخرطوم.

وبينما مرت تلك الأحداث بالقرب من تلك المدينة، حضر أستاذ المهدي السابق، الشيخ محمد الخير والذي كان يسمي من قبل بمحمد الضكير، إلي النهر بعد أن سماه تلميذه السابق أميراً علي بربر. تمكن محمد الخير من حشد كل قبائل المنطقة تحت إمرته إضافة لأتباعه من قبيلته الجعليين وضم إليهم بعض النوبيين والبشاريين وأعراب آخرين وقام بمحاصرة بربر والتي سقطت في يده بعد بضعة أيام.

أما مديرية دنقلا فقد صمدت حتي الآن نتيجة لأساليب مديرها الماكر مصطفي بك ياور. فقد كتب مرتين للمهدي عارضاً عليه التسليم لكن المهدي لم يكن ليثق في أحد من الأتراك المبغوضين، لذا قام بارسال أحد أقاربه، السيد محمود علي، لينضم للشيخ الهدي،

أمير الشايقية، والذي كان قد قاد عصياناً في المديرية، لاستلام دنقلا. علم مصطفي بك سراً بأنه ليس مقبولاً لدي المهدي لذا قام بالهجوم فجأة علي الشيخ الهدي في الدبة بعد أن لقي التشجيع من ضابط بريطاني كان معه في المديرية، وهو الميجر كتشنر الذي صار فيما بعد السير هربرت كتشنر سردار الجيش المصري. ثم أردف نجاحه ذاك بالحاق هزيمة منكرة علي المهديين في كورتي قتل فيها كلاً من الأميرين محمود والهدي.

أما سنار فلم تكن أمورها مرضية. فقد حوصرت تماماً لكنها كانت تحتفظ بمخزون كبير من الذرة مكنها من الصمود رغم إنقطاع أي إتصال لها بالعالم الخارجي. ثم قام القائد الشجاع النور بك بغارة ناجحة تمكن فيها من طرد الثوار بعيداً عن المدينة ومكنها من استعادة أنفاسها.

ثم بدأت النداءات تترى علي المهدي من كل الأنحاء للتوجه صوب النيل. لكنه لم يكن في عجلة من أمره بعد أن تأكد من إحكام قبضته علي البلاد وكان يعلم أن أحداً لن يستطيع استعادتها منه اللهم إلا بجيش مصري أو أجنبي ضخم وقوي. كان يستعرض قواته كل يوم جمعة وقد قام بتقسيم جيوشه إلي ثلاثه أقسام، كل قسم منها تحت قيادة أحد الخلفاء وذلك علي الرغم من أن الخليفة عبد الله قد سمي (برئيس الجيش) إضافة لقسمه أو فرقته الخاصة. سميت راية الخليفة عبد الله بالراية الزرقاء وكان أخوه يعقوب يقودها عنه. أما الراية الخضراء فكانت تحت إدارة الخليفة علي ودحلو بينما قاد الراية الحمراء أو راية الأشراف الخليفة محمد شريف. وتحت كل من تلك الرايات الرئيسية الثلاثة تجمعت رايات مختلف الأمراء.

وعندما يبدأ الغرض العسكري يصطف أمراء الراية الزرقاء مواجهين للشرق. بينما يواجههم أمراء الراية الخضراء قبالة الغرب. يربط بين هاتين الرايتين، وبمواجهة الشمال، أمراء ورايات الأشراف. كانت جموع أتباع المهدي قد تضخمت وتكون منهم – أثناء العرض – مربع عظيم مفتوح من جانب واحد حيث يتلقي المهدي ومعاونيه التحية عند وصولهم لمركز المربع وبعدها يقومون، علي ظهور الخيل، بالمرور علي الصفوف محيياً لهم بعبارة «الله يبارك فيكم!».

ويقال أن أحداثاً خارقة للعادة كانت تحدث أثناء الاستعراض، أو العرضة كما تسمي، فأحدهم يؤكد أنه رأي النبي راكباً بجوار المهدي ويتحدث إليه بينما يقول آخرون بأنهم يسمعون أصواتاً من السماء تبارك الأنصار وتعدهم بالنصر. بل أنهم يؤكدون بأن الملائكة قد فردوا أجنحتهم لتظليل المكان ولإنعاش الأتبا ع المخلصين.

وبعد ثلاثة أيام من وصول الخبر بهزيمة أبي قرجة وصل الي الرهد قادماً من الخرطوم رجل إيطالي يدعي جوزيف كوزي. كان ذلك الرجل مقيماً في بربر عند سقوطها بعد أن خلفه فيها السيد ماركيه، وكيل دييورج وشركائه، لتسوية بعض شئونهم فيها. قام محمد الخير بأرساله سجيناً إلي أبي قرجة والذي قام بدوره بارساله، مع خطاب منه، إلي غردون لكن الأخير رفض مقابلته وأعاده إلي معسكر الأنصار علي الضفة الشرقية للنيل الأزرق مقابل الخرطوم. قام المهدي بارسال كوزي ثانية إلي غردون بالخرطوم، بصحبة رجل يوناني يدعي جورج كلا ماتينو، ومعه خطاب يدعوه للتسليم. ومع هذا اليوناني قمت بكتابة بعض الأسطر سرا لغردون باشا. تم السماح لليوناني بدخول الخرطوم لكن كوزي أوقف علي مسافة منها لأنه عند ما جاء لأول مرة لهم زعم الضباط أنه حثهم بنفسه علي الإستسلام.

وبنهاية شهر رمضان ثم استدعاء أبو عنجة بكامل قواته المحاربة من جبل الداير وبعدها أعلن المهدي لأتباعه بأن النبي قد وجهه للمضي نحو الخرطوم وضرب الحصار حولها. تم تكليف الأمراء لتجميع أتباعهم وأمرهم بالإستعداد للتحرك. أما المتخلفين فسيلقون جزاءاً صارماً وستصادر كل ممتلكاتهم. لكن لم تكن هناك حوجة لتلك الإجراءات فلم يتخلف أي أحد بل بلغت بهم الحماسة أعلي الذري وكانت الجموع مدركة لما سيجلبه النصر لهم من مغانم وغنائم. ترتب علي نداء المهدي هجرة وتحركاً جماعياً لكل المواطنين بدرجة لم تعرف من قبل في السودان.

وفي الثاني والعشرين من أغسطس تحركنا من الرهد وإتخذت قوات المهدية ثلاثة طرق مختلفة: فالطريق الشمالي يمر بخرسي وهلبة فالترعة الخضراء وقد خصص لقبائل الأبالة. أما الطريق الأوسط، الذي يمر بالطيارة وشركيلاً وشات فالدويم، فقد خصص للمهدي وخلفائه ومعظم الأمراء. أما قبائل البقارة وأصحاب المواشي فقد إتخذوا الطريق الجنوبي الوافر المياه والذي تنتشر فيه الحفائر والبرك التي تكفي لشربهم ومواشيهم. أما

أنا، فبصفتي من ملازمي الخليفة، فقد إتبعت سيدي ولكن ، من ناحية عامة، كنا عندما نتوقف أقوم بارسال خدمي وخيولي إلي صالح ود الملك والذي ألحق بركب المهدي. كان الخليفة لسبب غير معروف يكن له بغضاً خاصاً وقد أمرني أن أبقي في المستقبل دائماً بالقرب منه ومعي خدمي، وكلف إبن عمه عثمان ود آدم لمراقبتي. لكنني رغم ذلك كنت أري صالح ود الملك من وقت لآخر وكان مطلعاً دائماً علي الأحداث في الأقاليم النيلية.

وقبل أن نصل إلي شركيلا سرت إشاعة غريبة بأن رجلاً مسيحياً مصرياً قد وصل للأبيض وأنه علي وشك اللحاق الآن بالمهدي. تصور بعض الناس بأنه إمبراطور فرنسا بينما أكد آخرون بأن الرجل قريب الصلة بملكة إنجلترا. لكن لم يكن هناك شك في أن أوروبياً في طريقه إلينا وكنت شديد التطلع لمعرفة من هو. وفي ذلك المساء أخبرني الخليفة بأن رجلاً فرنسياً قد وصل للأبيض وأنه قد أصدر تعليماته لإحضاره أمام المهدي. وسألني: « هل أنت من جنس الفرنسيين؟ أم أن هناك قبائل مختلفة في بلادك مثلما لدينا هنا في السودان؟». لم يكن لديه بالطبع أدني فكرة عن أوروبا والدول الأوروبية وقمت بتنويره بقدر المستطاع بما هو ضروري لمعرفته. ثم سألني مستفسراً: «ولكن ماذا يريد رجل فرنسي منا بعد أن يقطع كل هذه المسافات؟ ربما هداه الله للدخول في الإسلام وقاده بالتالي لهذا الطريق المستقيم» فقلت له: « ربما يريد الرجل صداقتك وصداقة المهدي». فنظر الخليفة إلي بارتياب وشك ثم قال بجفاء: « سنري».

وبعد لأي وصلنا لشركيلا. وقبل أن نتخذ منازلنا أرسل سيدي لإستدعائي وقال لي: « لقد وصل الرحالة الفرنسي يا عبد القادر وقد أمرت باحضاره أمامي الآن ومن المستحسن أن تبقي وتستمع لما قد يقوله فربما أحتاج إليك» وبعد ذلك مباشرة جاء حسين باشا ويبدو أنه قد أستدعي أيضاً بواسطة الخليفة. وبعد فترة من الإنتظار أعلن أحد الملازمين بأن رجلاً أجنبياً ينتظر في الخارج وسمح له بالدخول في الحال. كان رجلاً طويلاً في ميعة الشباب ولايتجاوز عمره الثلاثين عاماً وقد لوحت الشمس وجهه بلون البرونز. له لحية وشارب كثيف وقد أرتدي الجبة والعمامة. حيا الخليفة بقوله: السلام عليكم فأشار إليه الأخير، وهو علي عنقريبه، بالجلوس وسأله: « لماذا حضرت إلينا وماذا تريد منا؟» فأجاب بلغة عربية ركيكة كان من الصعب فهمها بأنه رجل فرنسي وقد حضر من فرنسا. فقاطعه

الخليفة: « تحدث بلغتك مع عبد القادر وسيشرح لي ما تريد منا بالضبط». استدار الرجل الغريب ونظر إلي في نوع من الريبة وقال باللغة الإنجليزية: «طاب يومك ياسيدي» فقلت له: «هل تتحدث الفرنسية؟ إن إسمي سلاطين وأرجو آن تدخل في الموضوع الآن وفيما بعد يمكننا التحدث علي إنفراد». فغمغم الخليفة بضيق: «عما ذا تتحدثون معاً؟ أريد أن أعرف ما يريد» فقلت له: « لقد أخبرته فقط باسمي وطلبت منه أن يتحدث بوضوح معك لأنك والمهدي قد منحكما الله القدرة علي قراءة أفكار الآخرين» تدخل حسين باشا، الذي كان جالساً بجواري، وقال: «حقاً ما قاله وأسأل الله أن يمد في عمر الخليفة». ثم إلتفت إلي وقال: « لقد أحسنت بلفت أنظار هذا الغريب لتلك الحقيقة». أما الخليفة الذي طرب لهذا القول فقد قال: « علي كل حال، أبذل ما في وسعك لمعرفة الحقيقة».

ثم تحدث الرجل الغريب بعد أن طلبت منه الحديث بالفرنسية وقال: « إسمي أوليفر باين وأنا رجل فرنسي لدي إهتمام بالسودان منذ طفولتي وأتعاطف مع قضايا شعبه. ولست أنا وحدي بل كل زملائي لهم نفس الشعور. هناك في أوروبا دول بيننا وبينها ثارات وضغائن وإحدي هذه الدول هي انجلترا والتي إحتلت مصر مؤخراً والتي يحكم أحد قوادها، الجنرال غردون، الخرطوم الآن. لذلك أتيت لأعرض عليكم مساعدتي ودعم بلادي لكم». فقاطعه الخليفة الذي كنت أترجم له ما يقول أو ليفر باين كلمة بكلمة: «أي مساعدة» فقال باين: « بمقدوري أن أقدم لكم النصائح لكن بلادي، والتي ترغب بشدة في كسب صداقتكم، مستعدة لدعمكم عملياً بالمال وبالسلاح بشروط معينة». فسأله الخليفة وكأنه لم يسمع ما قاله الرجل: «أأنت مسلم؟» فأجاب: «نعم بالطبع وقد دخلت في هذا الدين منذ وقت طويل وقد أعلنت ذلك في الأبيض». فقال لنا الخليفة: « حسناً. يمكنكما البقاء هنا مع الفرنسي أنت وحسين ريثما أذهب للمهدي وأخبره ثم أعود لكما ثانية».

وعندما ذهب الخليفة قمت بمصافحة أوليفر باين وبتقديمه لحسين خليفة رغم أنني أقر بشعوري نحوه بنوع من التحامل بسبب العرض الذي قدمه لمساعدة أعدائنا. رغم ذلك ألححت عليه بأن يكون في غاية الحذر وأن يقول أن ما دفعه للقدوم هنا هو حبه للدين بأكثر من الدوافع السياسية. وحتي حسين باشا، والذي بداعليه الضيق بوضوح، قال لي بالعربية: « أهذا هو ما تسميه بالسياسة؟ أن تعرض المال والسلاح لمن هم لاغرض لهم إلا

قتل الآخرين وسلب أموالهم واسترقاق أزواجهم وأطفالهم؟ مع أن الواحد منا، ومهما بلغ به الفقر، إذا ما إشتري عبداً أسوداً لا يرقي كثيراً عن مرتبة الحيوان سوي لكونه قادراً علي فلاحة الأرض فأنكم تسمونه وغداً وقاسياً وتنزلون به أشد العقاب».

فقلت له: «معليش! من يعش طويلاً يري الكثير».

إنشغلنا بأفكارنا الخاصة أثناء إنتظارنا عودة الخليفة وعندما وصل أخيراً أمرنا بالوضوء والتجهز للصلاة مع المهدي. وبعد أن قمنا بذلك قادنا الخليفة إلي مكان الصلاة الذي كان يعج بحشود الأهالي، الذين عندما سمعوا بقدوم أوليفر باين، أخذوا يتجادلون حول شخصه ومراده. وعندما جلسنا تم نقل أوليفر باين للصف الثاني وبعد ذلك وصل المهدي. كان مرتدياً جبته الأنيقة ذات العطر الفواح مع عمامة ملتفة بعناية حول رأسه وكانت عيونه مكحلة مما يعطيهما بريقاً شديداً ولاشك في أنه بذل عناية خاصة ليبدو في مظهر يليق بمكانته كما كان مرتاحاً لكون أحد الغرباء يأتي من أقاصي الأرض ليعرض عليه مساعدته. جلس علي سجادة صلاته ثم إستدعي أوليفر باين وحياه بأبتسامة مشرقة لكنه لم يصافحة باليد ثم سأله عن طريقي، فقد كنت أترجم له، عن سبب قدومه إليه.

كرر باين نفس ما قاله من قبل. وطلب مني المهدي أن أكرر ما قاله بصوت عال ليسمعه الجميع. وعندما فرغت من ذلك قال المهدي بنفس الصوت العالي: « لقد سمعت نواياك وفهمتها لكنني لا أعول علي قوة البشر أو دعمهم لي بل أعتمد علي الله ورسوله. إنك من دولة كافرة ولن أربط نفسي بها أو أحالفها. وبعون الله سأنزل الهزيمة بأعدائي بواسطة أنصاري الشجعان وبالملائكة المقربين». تصاعدت صيحات الإعجاب من حناجر الآلاف المؤلفة من الحاضرين وعندما عاد النظام قال المهدي لباين: « لقد أكدت لي حبك لديننا واعترافك بأنه الدين الحق. فهل أنت مسلم؟ » فأجاب مكرراً الشهادتين: «بالتأكيد لا إله إلا الله. محمد رسول الله». عندها قدم المهدي يده إليه فقبلها لكنه لم يطلب منه البيعة.

اتخذنا موضعنا في صفوف المصلين وأدينا الصلاة مع المهدي وبعدها وعظنا المهدي كالعادة عن الخلاص ونكران الدنيا وتركها.

ثم رجعنا بصحبة الخليفة والذي وجهني لأخذ أوليفر باين معي لخيمتي حيث ستصلني تعليماته فيما بعد بخصوصه.

وعندما خلوت ببابن في خيمتي علمت أن بمقدوري تبادل الحديث معه بدون أي تدخل من أحد. ورغم كراهيتي لمهمته التي جاء من أجلها، إلا أنني أحسست بالإشفاق نحو الرجل الذي لاشك في أنه ضحية لوهم مضلل إن ظن إنه سينجح في مهمته تلك في مثل هذا البلد. وبعد أن حييته بحرارة قلت له: «والآن يا عزيزي أوليفر باين لدينا متسع من الوقت ولو لدقائق لنتحدث بدون أي إزعاج. لذا علينا الحديث بصراحة ووضوح. ورغم أنني لا أوافق علي المهمة التي جئت من أجلها إلا أنني أوكد لك، وبشرفي كضابط، بأنني سأبذل كل ما في وسعي لأضمن سلامتك شخصياً من أي أذي. لقد ظللت أنا بعيداً لسنوات عن العالم المتحضر لذا حدثني عن الشئون العالمية وعن أحوال العالم» فأجابني: « أنني أثق بك تماماً وأنا أعرفك بالإسم جيداً وسمعت عنك الكثير وأحمد الظروف التي جمعتني بك. هناك الكثير الذي سأخبرك به لكنني سأقصر الحديث حالياً عن الوضع في مصر وهو الأمر الذي يهمنا سوياً» فقلت له: «إذن حدثني عن ثورة أحمد عرابي باشا وعن المذابح وعن تدخل الدول الأجنبيه وعن إنجلترا التي إحتلت مصر للتو».

فقال لي: «إنني أعمل في جريدة (الإندبندنس) مع روشفور الذي لابد أنك قد سمعت عنه. كما أنك تعلم بأن انجلترا علي نقيض فرنسا سياسياً وإننا نقوم بكل ما يمكننا لوضع العراقيل والصعاب في طريق إنجلترا.إنني لم أحضر هنا كممثل لبلادي ولكن كشخص مستقل يحمل آمال والام بلاده. ولما علمت السلطات الانجليزية بما أنتوي القيام به أصدرت أمراً بالقاء القبض علي وتم إرجاعي من وادي حلفا. لكنني، وعندما كنت في إسنا إتفقت سراً مع بعض عرب العليقات إحضاري لهذا المكان عبر الطريق الذي يمر بغرب دنقلا إلي الكاب وحتي الأبيض. ولقد استقبلني المهدي اليوم بعطف كبير وأمل في الكثير منه». فسألته مستفسراً: «هل تظن أنه سيقبل ما تعرضه عليه؟ » فأجابني: «إذا ما تم رفض عرضي فلن أقطع الأمل في دفع المهدي لإقامة أواصر الصداقة مع فرنسا وهذا يكفي – إن تم – في الوقت الحالي. ولأنني حضرت هنا بمحض إرادتي فأنني متأكد من أن المهدي لن يمانع في رجوعي ثانية».

فقلت له: « إن هذا مشكوك فيه. هل تركت وراءك أي عائلة؟ فقال «أوه! نعم. تركت زوجتي وطفلاي في باريس وأنا دائم التفكير فيهم وأمل أن أراهم ثانية قريباً. ولكن أخبرني ياسيدي وبصراحة: لماذا يحتجزونني هنا؟» فأجبته: « علي حسب علمي ياسيدي العزيز بهؤلاء الناس فلا أظن أن هناك خوفاً علي سلامتك في الوقت الحالي، ولكن ليس في مقدوري أن أقول لك متي وكيف/ستخرج من هنا. لكنني أمل وباخلاص ألا يتم قبول مقترحاتك، والتي ستفيد الأعداء بلاشك (وأعترف لك بأن هؤلاء المهدويين هم ألد أعدائى) لكنني أتمني أن يسمحوا لك بالعودة سالماً إلي زوجتك وأطفالك الذين هم في شوق كبير لعودتك لهم».

طلبت من خدمي تجهز بعض الطعام لنا وأرسلت لجو ستاف كلوتز – خادم أو دونوفان السابق – لتناول الطعام معنا. وما كدنا نبدأ حتي جاء إثنان من الملازمين وطلبا من أوليفر باين أن يتبعهما. إنزعج بشدة لإستدعائه بمفرده وهمس لي للسؤال عنه. ولقد استغربت لإستدعائه حيث لم تكن لغته العربية مفهومة. وكنت أحدث مصطفي (كلوتز) بهذا الأمر عندما تم إستدعائي أيضاً للمثول أمام الخليفة. وعندما دخلت لكوخه وجدته جالساً بمفرده وأشار لي بالجلوس فجلست علي الأرض بجواره. ثم أسر إلي قائلاً: «إنني أنظر إليك يا عبد القادر كواحد منا. لذا عليك أن تخبرني عن رأيك في هذا الرجل الفرنسي» فقلت له: « إنني أعتقد في إخلاصه وحسن نواياه. لكنه لايعلم شيئاً عن المهدي ولا عنك ولا يعرف أنكما لا تعتمدان إلا علي الله ولا تبحثون عن دعم من أي جهة أخري وأن هذا هو سبب انتصاراتكم المتصلة لأن الله مع الذين يتوكلون عليه». فقال الخليفة مواصلاً كلامه: «لقد استمعت لما قاله المهدي للرجل الفرنسي بأنه لايريد أي تعامل مع الكفرة وأنه سيهزم أعداءه بدون عونهم له» فقلت له: « بالتأكيد سمعت ذلك وبالتالي فلا فائدة للرجل هنا ومن الأفضل له أن يعود لبلاده ليخبرهم عن إنتصارات المهدي وقائد جيشه الخليفة» فقال الخليفة: « ربما فيما بعد. أما في الوقت الراهن فقد أمرته بالإقامة مع الزاكي طمل والذي سيعتني به عناية فائقة ويلبي كل رغباته». لكنني توسلت إليه: « ولكن، سيكون من الصعب

عليه التفاهم معه بالعربية إذ لايمكن إعتباره من المستعربين بعد» فأجابني الخليفة: « لقد إستطاع أن يصل إلينا بدون مترجم. وعلي كل حال فأنني آذن لك بزيارته وقتما تحب».

ثم شرع الخليفة في الحديث عن مختلف الشئون كما أخذني لرؤية الخيول التي أرسلها له زقل من دارفور والتي كنت أعرف بعضها تماماً. وبعد أن ذهبت توجهت للبحث عن باين ووجدته جالساً تحت ظل خيمة قديمة متهرئة، واضعاً رأسه بين يديه، ويبدو عليه الإستغراق في التفكير العميق. وعندما شاهدني نهض في الحال قائلاً: « لقد عجزت عن التفكير في كل ما يحدث. لقد أمرت بالبقاء هنا كما أحضروا لي أمتعتي وأخبروني أن شخصاً يدعي الزاكي سيعتني بشئوني. ولكن لماذا لايسمحوا لي بالإقامة معك؟ فقلت له: «إنها طبيعة المهدي. أما الخليفة فهو أسوأ منه عند فرض إرادته ضد أي إنسان تحت الشمس. فأنت الآن تمر بمرحلة يسمونها «وضع الشخص في إختبار للصبر والطاعة والإيمان» ولكن عليك ألا تخشي شيئاً. فالخليفة لايثق فينا معاً ولذا يعمل علي إبعادنا عن بعضنا البعض حتي لا ننتقد تصرفاته. لقد جاء الآن الزاكي طمل والذي كان بجانبي في عدة معارك قتالية وسأوصيه عليك بشدة». ثم تقدمت لمقابلة الزاكي والذي صافحني بيده وسألني عن أحوالي فقلت له: « إن هذا الرجل غريب ياصديقي وهو ضيفك وانني أكله لعنايتك وعطفك عليه وأرجوك من أجل علاقاتنا القديمة أن تتحمله» فأجابني: « لن يحتاج لشئ طالما بمقدوري أن أوفره له» ثم أضاف بعد وهلة: « لكن الخليفة أمرني بعدم تركه ليختلط بالآخرين لذلك أرجوك إلا تحضر إليه إلا بين الفينة والأخري». فقلت له: « لكن تلك الأوامر لاتنطبق علي شخصي فقد بارحت كوخ سيدي قبل قليل وقد أعطاني إذناً خاصاً لزيارة ضيفك. لذلك أرجوك مرة أخري أن تعامل هذا الرجل أفضل المعاملة».ثم عدت لباين وعملت علي رفع معنوياته وأخبرته بتعليمات الخليفة بعدم السماح له بمقابلة الآخرين. ولكن هذا الأمر ليس في غير صالحك فقد يستغل بعضهم الأمر للتآمر عليك وبالتالي يعرضونك للخطر أما بالنسبة لي فقد أخبرته بأنني سأزوره مراراً بقدر المستطاع.

وفي الصباح التالي سمعت ضربات طبل الخليفة الحربي المشهور (بالمنصورة) وكانت هذه إشارة لبداية التحرك من جديد وم ثم شرعنا في السير. كنا نسير عموماً من الصباح الباكر وحتي الظهر ثم نتوقف. لذلك لم يكن تقدمنا يتم سريعاً. وعندما توقفنا عن منتصف النهار توجهت للبحث عن باين ووجدته جالساً في خيمته كالعادة وبدأ أنه في صحة طيبة رغم أنه إشتكي من رداءة الطعام. أما الزاكي، والذي كان حاضراً معنا فقد أخبرني أنه أرسل له مرتين أقداح العصيدة لكنه لم يمسها. أوضحت له أن الرجل لم يكن معتاداً علي تناولها أو تناول طعام الأهلين بعد ولذلك اقترحت عليه أن يقوم خادمي بتجهيز بعض الأطعمة الخاصة له. وبعد أن رجعت أمرت الخادم بعمل بعض الحساء والأرز المسلوق وأخذه لباين. وفي ذلك المساء سألني الخليفة أن كنت رأيته فأجبته بالإيجاب وحدثته عن عدم تعود الرجل علي الأطعمة المحلية وأنني أمرت خادمي بتجهيز طعام أخر له . كما أوضحت له أن الرجل قد يصاب بالمرض إن أجبر علي الطعام المحلي ولذلك طلبت منه الإذن لأقوم من وقت لآخر بأرسال أطعمة خاصة له. وافق الخليفة علي ذلك لكنه قال لي: «لكنك تأكل من طعامنا. لذا من المستحسن عليه أن يعتاد علي طعامنا بأسرع ما يمكن. وبالمناسبة أين مصطفي؟ إنني لم أشاهده منذ مبارحتنا للرهد؟» فقلت له: « إنه مقيم معي ويعمل علي مساعدة خدمي للعناية بالخيول والجمال» فقال لي: «إذن أرسلْ إليه». ففعلت ذلك وبعد بضع دقائق جاء مصطفي ووقف أمامنا. فسأله الخليفة غاضباً: «أين كنت؟ إنني لم أرك منذ أسابيع فهل نسيت إنني سيدك؟ فرد عليه كلوتز بضيق: « لقد ذهبت لعبد القادر لمساعدته بعد أخذ الإذن منك كما أنك لم تعد تهتم بي وتركتني وحيداً» فصرخ الخليفة وقد تملكه الغضب: « إذن سأعتني بك تماماً في المستقبل» ثم نادي أحد الملازمين وأمره بأخذ مصطفي لكاتبه بانقا ليضعه في الأغلال. فخرج مصطفي بدون أن ينبس بكلمة ومشي وراء حارسه. ثم واصل الخليفة حديثه لي قائلاً: « إن لديك ومصطفي ما يكفي من الخدم ويمكنك الإستغناء عنه. لقد خصصت نفسي به لكنه تركني بدون أي سبب. ثم أمرته بخدمة أخي يعقوب لكنه تشكي وتركه أيضاً. والآن وبعد أن إنضم إليك فإنه

يعتقد أن بأمكانه الاستغناء عنا جميعاً». فقلت له: « أعف عنه ياسيدي فالعفو من شيم الكرام ووجهه للبقاء مع أخيك فربما يتحسن حاله». فأجابني: « عليه أن يبقي مصفداً بالأغلال لبضعة أيام حتي يعرف تماماً بأنني سيده. فهو ليس مثلك لأنك تحضر أمام بأبي كل يوم».

بدا واضحاً أنه قال ذلك ليرضيني بعد أن ظن أنني متضايق مما حدث. ثم أمر باحضار طعام العشاء فأكلت معه أكثر مما كنت آكل عادة حتي لايظن أنني أفعل شيئاً ضد تعليماته. لم يتحدث كثيراً أثناء الطعام وبدا أنه مهموم وحاول بعد العشاء أن يطيب خاطري لكن خانه الحديث. ثم إفترقنا وتوجهت نحو خيمتي وأنا أقلب الفكر فيما يحدث. فلقد قررت أن أبقي أحسن الصلات مع الخليفة إلي أن تحين ساعة خلاصي. لكن طبيعته المستبدة وعدم تقديره للآخرين وغروره الشديد جعل من مهمتي أمراً صعباً.

وبعد خمسة أيام من السير وصلنا شات ووجدنا معظم آبارها قد ملئت بالتراب. تم فتح الآبار وتشييد أكواخ القش بها لأن المهدي قرر البقاء لبضعة أيام هنا. وكثيراً ما كنت أثناء مسيرتنا أزور باين والذي كان يزداد غماً ويأساً يوماً بعد يوم. كان يعرف القليل جداً من اللغة العربية ولم يكن مسموحاً له بالتحدث مع أي أحد بخلاف العبيد المكلفين بالعناية به. وخلال بضعة أيام تلاشت أهداف مهمته ولم يعد يفكر الآن سوي في زوجته وأطفاله. كنت أشجعه دائماً للنظر للمستقبل بعين التفاؤل وألا يستسلم للأفكار المحبطة والتي لا تعمل الا علي زيادة بؤسه وتعاسته. ويبدو أن الخليفة قد نسيه تماماً ونادراً ما سأل عنه بعد ذلك.

ويوم وصولنا لشات وصل شيخ المهدي السابق محمد شريف بعد أن انتظروا مجيئه طويلاً. لقد دفعه أصدقاؤه، مثلما أجبره الخوف، علي الحضور للمهدي تائباً لكن المهدي استقبله بكامل التشريف وساقه بنفسه إلي الخيام التي نصبها له بنفسه وأهدي إليه جاريتين من أجمل حسان الحبش وخيولاً وغير ذلك من المعاملة الكريمة والتي كانت نتيجتها إنضمام كل أتباع الشيخ له.

كنا قبل أن نبارح شركيلا بقليل قد وصلتنا أنباء عن نكسة أليمة حلت بقوات غردون. والآن ونحن بشات وصلتنا تفاصيل النكبة التي حلت بالقائد محمد علي باشا في أم ضبان علي يد الشيخ العبيد.

هذا الإنتصار أدي لتشجيع الثوار ولتشديدهم الحصار حول الخرطوم. والآن وبعد أن تم تعزيز المحاصرين بقوات ود النجومي أسقط في يد غردون وعرف أنه لم يعد لديه القوة لشن أي هجوم ناجح علي قوات المهدية.

توجهنا من شات إلي الدويم حيث أشرف المهدي علي استعراض عظيم لقواته ثم أشار إلي النيل قائلاً: « إن الله قد خلق هذا النيل وسيهب لكم ماءه لتشربونه وستحوزون علي كل الأراضي التي علي ضفافه». صرخ الجمهور حبوراً وفرحاً واستبشروا بأن أراضي مصر نفسها ستكون غنيمة لهم.

توجهنا من الدويم إلي الترعة الخضراء حيث قضينا فترة عيد الأضحي هناك. أصابت الحمي أو ليفر باين وإزدادت تعاسته وتشاؤمه يوماً بعد يوم. وقد قال لي: « لقد قمت بعدة مغامرات من قبل وبدون أن أفكر مسبقاً في عواقبها. لكن قدومي إلي هنا كان الخطأ القاتل بالنسبة لي وكم كان من الأفضل لي لو نجح الإنجليز في صدي ومنعي من الحضور». حاولت جهدي للتخفيف عنه لكنه كان يكتفي بهز رأسه.

وفي صلاة عيد الأضحي رفع المهدي صوته عالياً على غير العادة وعندما شرع في قراءة خطبة العيد أخذ يبكي طويلاً وينتحب بمرارة. أما نحن، غير المؤمنين، فقد كنا نعلم أن بكاءه مجرد تظاهر ولا يحمل في طياته خيراً. لكن مفعول ذلك كان عظيماً علي الجماهير المتعصبة والذين هرعوا للإنضمام لراياته من كل أنحاء النيل وقبائله والذين حلقت بهم خطبته تلك إلي ذري عالية من الحماس العنيف.

وبعد يومين من توقفنا عاودنا تحركنا وكنا نزحف للأمام وكأننا سلحفاء عملاقة وكان الحشد متضخماً بألوف مؤلفة من الناس الذين يتوافدن له يومياً من كل أنحاء السودان. أما المسكين أوليفر باين فقد إزدادت حالته سوءاً وتحولت الحمي التي أصابته إلي مرض

التيفوس وقد رجاني أن أطلب من المهدي إمداده ببعض المال بعد أن ضايقه مرافقوه بطلباتهم التي لاتنتهي. ذهبت للمهدي وشرحت له حال باين فقام المهدي في الحال بتوجيه بيت المال لمنحه مبلغ خمسة جنيهات وتمني للمريض شفاءاً عاجلاً. أخبرت الخليفة أيضاً بخطورة مرض باين وأن المهدي قد نفحه بجنيهات خمسة فقام الخليفة بتوجيه اللوم لي لسؤالي المهدي قبل أن يأذن لي بذلك وأضاف: « إنه إن مات هنا فهو رجل سعيد فقد هداه الله بكرمه وواسع قدرته إلي الإيمان من بعد الشرك».

وذات صباح باكر، عند نهاية الاسبوع الأول من أكتوبر، أرسل لي باين للحضور إليه. وجدته في حالة من الضعف لم يستطع فيها حتي الوقوف لتحيتي وكان قد عاف الطعام منذ يومين ولم يأكل ما كنت أرسله إليه. وضع يده في يدي وقال لي: « لقد دنت ساعتي الأخيرة وأنني أشكر لك رفقك وعنايتك بي وأرجو أن أطلب منك معروفاً أخيراً تسديه لي وهو أنه إذا ما أتيح لك الهرب والخلاص من أيدي هؤلاء البرابرة، وإذا ما أمكنك زيارة باريس، فارجوك أن تخبر زوجتي المسكينة وأطفالي بأن تفكيري لم يكن إلا فيهم وأنا في فراش الموت». وعندما نطق بهذه الكلمات إنهمرت الدموع وسالت علي خدوده الغائرة وحاولت جهدي أن أخفف عنه وأواسيه وقلت له أن الوقت لازال مبكراً ليفقد الأمل وأن عليه أن يتشجع.

وبدأت الطبول الحربية تقرع إيذانا لمواصلة التقدم وكان علي الاسراع في الذهاب وتركه. لكنها كانت آخر مرة أراه فيها حياً. تركت معه واحداً من خدمي يدعي عطرون ليرعاه وأثناء سيرنا أخبرت الخليفة عن حالة باين ورجوته أن يسمح له بالتخلف عنا في إحدي القري ليرتاح لبضعة أيام فطلب مني أن أذكره بذلك عند المساء. وعندما حل المساء لم يحضر الرجل المريض بل عاد عطرون وحده فسألته: « أين يوسف؟ » وهو إسمه الإسلامي، لكن عطرون كان مضطرباً وقال لي: «إن سيدي قد مات وهذا ما أخرنا عن الحضور. وقد قمنا بدفنه». فسألته: «أخبرني بما حدث» فقال: « لقد بلغ به الضعف حداً لم يستطع معه الركوب فاضطررنا للسير. وكان يفقد وعيه من آن لآخر ثم يعود لصوابه ويتحدث بكلام لانفهمه. لذا قمنا بربط عنقريب علي سرج الدابة و وأرقدناه عليه لكنه لم

يكن لشدة ضعفه قادراً علي الصمود فيه وسقط فجأة علي الأرض ولم يعد بعد ذلك لوعيه وسرعان ما مات. قمنا بلف جسمه بفردته القطنية ثم دفناه وقام الخدم بارسال كافة أغراضه للزاكي».

لاشك في أن أوليفر باين كان مريضاً للغاية لكن سقوطه هو الذي عجل غالباً بموته المفاجئ. ياللرجل المسكين! فقد جاء يحدوه أمل عظيم في نجاح مهمته والآن إنتهي كل شئ. توجهت علي الفور للخليفة وأخبرته بوفاته فكان تعليقه الجاف هو: «إنه لسعيد!». ثم قام بإيفاد أحد الملازمين للزاكي للحفاظ علي كافة أغراضه ثم أرسلني لإفادة المهدي بما حدث. تأثر المهدي بأكثر مما تأثر الخليفة وتمتم بكلمات المواساة والاستغفار للرجل المتوفي.

وبعد ثلاثة أيام بلغنا ضواحي الخرطوم ونزلنا في موضع يبعد مسافة يوم عنها. وأثناء طريقنا كنا نشاهد علي البعد بواخر غردون والتي كان من الواضح أنها كانت تراقب تحركاتنا وبعدها رجعت للخرطوم بدون أن تطلق النار.

وعند المساء، وبعد أن فرغنا للتو من نصب خيامنا، جاءني أحد ملازمي المهدي وطلب مني أن أتوجه معه اليه. فقمت في الحال ووجدته جالساً مع عبد القادر ود أم مريوم، الذي كان من قبل قاضياً للكلاكلة وله نفوذ عظيم وسط قبائل النيل الأبيض. كان حسين خليفة هناك أيضاً وبذلك صرت رابعهم. ثم قال لي المهدي: « لقد أرسلت لك لتكتب خطاباً لغردون لينقذ نفسه من هزيمة مؤكدة. وأخبره بأنني المهدي حقاً وأن عليه القيام بتسليم الحامية وبالتالي ينقذ نفسه وروحه. أخبره أيضاً بأنه إذا مارفض الإنصياع فسنقوم جميعاً بقتاله وأخبره بأنك شخصياً ستقاتله بنفسك وأخبره بأن النصر سيكون لنا وأنك لم تخبره بذلك إلا لتجنب سفك الدماء عبثاً».

لذت بالصمت حتي ناداني حسين خليفة لأجيب فقلت: « يا مهدي! أتوسل إليك أن تسمع كلامي وسأكون أمينا ومخلصاً معك. وأرجوك أن تغفر لي إن لم يعجبك كلامي. فاذا ما كتبت لغردون بأنك حقاً المهدي فلن يصدقني. وإذا ما هددته بأني سأحاربه بيدي فلن يخشي ذلك. ولأنك تريد تحت أي ظرف تجنب سفك الدماء فأنني سأدعوه بكل بساطة

للتسليم وسأقول له أنه ليس في قوة كافيه تمكنه من قتالك، وأنت الرجل المنتصر دائماً، وأنه لا أمل لديه في أي معونة خارجية. وأخيراً سأقول له بأني سأكون وسيطاً بينك وبينه». فقال لي المهدي: « إنني موافق علي إقتراحاتك المخلصة. قم الآن وأكتب الخطابات وسيتم إرسالها غداً لغردون».

عدت إلي مسكني. كانت خيمتي قد تمزقت من جراء مصاعب الإرتحال وقمت باهداء ما تبقي منها لأحد المواطنين ومن ثم استخدمت بعض قطع من القماش وشددتها علي بعض العصي مما أعطاني ظلاً يقيني حر النهار أما عند الليل فكنت أرقد في العراء. بحثت عن مصباح وجلست علي العنقريب في العراء وقمت بكتابة الخطابات المطلوبة. في البداية كتبت بضع كلمات بالفرنسية لغردون وشرحت له فيها بأنني مضطر للكتابة إليه باللغة الألمانية لأن قاموسي الفرنسي قد أحرقه المهدويون ظناً منهم بأنه كتاب للصلاة ومن ثم فلن أتمكن من التعبير عما أود قوله بتلك اللغة. أوضحت له أنني آمل في أن أنضم إليه في أول فرصة وأنني أدعو الله أن يوفقه. ذكرت له أيضاً بأن بعض الشايقية الذين إلتحقوا مؤخراً بالمهدي مافعلوا ذلك إلا لحماية نسائهم وأطفالهم وليس لأنهم كانوا يحملون مشاعر العداء نحو غردون.

ثم كتبت له خطاباً مطولاً باللغة الألمانية وقلت له أنني قد علمت، من خلال جورج كلاماتينو، بأنه مغتاظ لإستسلامي وبالتالي أنتهز هذه الفرصة لإيضاح حقائق موقفي له ورجوته أن يحدد موقفه مني بعد ذلك. بدأت بتذكيره بحملاتي ضد السلطانين هارون ثم دود بنجة. ثم كيف أنه عند بداية الثورة المهدية أشاع من تبقي من الضباط، وكانوا قد إعتقدوا بأن عرابي باشا قد نجح في طرد الأوروبيين من البلاد، أشاعوا أن أسباب الهزائم التي حلت بنا هي لأنني مسيحي الديانة. شرحت له كيف أنني واجهت الآثار المؤذية لمؤامراتهم باعلان إسلامي لهم، وكيف أنني بهذه الوسيلة بدأت في إحراز الإنتصارات حتي قطعت أنباء الدمار الذي حل بجيش هكس كل أمل لنا في وصول أي نجدة لنا. أخبرته أن استمراري في القتال قد هبط بتعداد قواتي لما لايزيد علي السبعمائة

رجل وأن مخزوني من الزخائر قد تم استنزافه بنفس الدرجة، وأن كلاً من الضباط والجنود قد رغبوا في التسليم فماذا كان علي أن أفعل - وأنا أوروبي ووحيد - سوي التسليم؟ حدثته عن أن هذا التسليم كان من أصعب ما مر بحياتي رغم أنني، كضابط نمساوي، لا أشعر بأنني قد قمت بفعل شئ يمس الشرف. ثم مضيت قائلاً له بأنني، لطاعتي واستسلامي لهم، فقد إكتسبت لحد ما ثقة المهدي والخليفة وحصلت علي إذنهم لي للكتابة إليه علي زعم أنني أكتب إليه طالباً منه التسليم. لكنني بدلاً عن ذلك انتهزت هذه الفرصة لأعرض عليه خدماتي وللتأكيد له بأنني علي الإستعداد إما للانتصار أو للموت معه موتاً مشرفاً إذا كانت هذه مشيئة الله. وإذا ما وافق علي مساعدتي للهرب إلي الخرطوم فقد رجوته أن يكتب لي بضعة أسطر باللغة الفرنسية بهذا الشأن. وحتي تنطلي الحيلة فقد أقترحت عليه كتابة بضعة أسطر لي باللغة العربية يطلب مني فيها أن أستأذن المهدي للتوجه لأم درمان لمناقشة شروط التسليم معه. ومضيت في رسالتي لأذكر له أن صالح بك وعدد من الشيوخ يودون إبداء مشاعر الولاء والإخلاص له ولكن، وفي الظروف الراهنة، فأن من المستحيل عليهم الحضور إليه وإلا كانوا عرضة للتضحية بنسائهم وأطفالهم.

ثم كتبت خطاباً ثالثاً باللغة الألمانية إلي القنصل هانزل طالباً منه بذل مافي وسعه لترتيب أمر دخولي للخرطوم وأوضحت له بأنني، لعلمي التام بخطط المهدي ونواياه ومدي قوته... الخ، فأنني أعتقد بأنني سأكون ذا فائدة ضخمة للجنرال غردون. ولكن وفي الوقت نفسه، وحيث إنتشرت الإشاعات في معسكر المهدي بأن حملة الإنقاذ إذا ما تأخر وصولها فأن غردون ينوي تسليم المدينة، ولأنني كنت أجهل تماماً احتمالات وصول النجدة لغردون، فقد رجوت القنصل هانزل ليوضح لي الأمر لأنني إذا ما تمكنت من الوصول للخرطوم ثم سقطت المدينة في أيدي المهدي فلا شك في أنني سأصبح هدفاً سائغاً للمهدي لإنزال كل غضبه وإنتقامه علي أم رأسي لفراري ومحاولتي مساعدة أعدائه.

شعرت بأنه من المعقول أن أطلب مثل تلك التأكيدات. في الوقت نفسه إنتشرت الشائعات في معسكر المهدي حول تدهور معنويات حامية الخرطوم ورغبتها في التسليم

لذا أكدت في خطابي للقنصل هانزل أن يتشجع وأوضحت له أن قوات المهدي ليست بالضخامة التي تخيلها وأن الأمر لايحتاج لأكثر من بذل المزيد من الجهد والتحمل من جانب القوات المصرية ليكتب لها النصر وألححت عليه دفعهم للإنتظار لستة أسابيع علي الأقل، أو شهرين علي الأكثر وذلك لإعطاء الفرصة لحملة الإنقاذ للوصول إليهم.*

أخبرته أيضاً بتواتر الإشاعات في المعسكر حول الباخرة الصغيرة التي أرسلت لدنقلا وأنها تحطمت في ودقمر لكنني لم أكن في موقف يمكنني من تأييد الخبر أو نفيه.

وصباح اليوم التالي الباكر، ١٥ أكتوبر، أخذت تلك الخطابات للمهدي والذي أشار إلي لإرسالها لأم درمان مع أحد غلماني. ذهبت في الحال للبحث عن مرجان فور، وهو صبي في الخامسة عشرة من العمر، وسلمته الخطابات في حضور المهدي والذي أمر ود سليمان لمنحه بعض المال وحمار لركوبه. وقبل مبارحته شددت من تعليماتي له بعدم الحديث مع أي كائن كان في الخرطوم ما عدا غردون باشا والقنصل هانزل وأن يؤكد لهم بأنني راغب في الذهاب إليهم.

وعند منتصف النهار وصلنا بعض الفرسان من بربر وأكدوا أنباء تحطم الباخرة ومقتل الجنرال ستيورات وكل الذين كانوا معه. وقد أحضروا معهم كل الأوراق والمستندات التي كانت بالباخرة. أمرني الخليفة بتفحص تلك الأوراق والمستندات التي كتبت بلغات أوروبية، وذلك في مكتب أحمد ود سليمان. من بين ما وجدت كانت هناك عدة خطابات شخصية من أناس بالخرطوم إضافة إلي وثائق رسمية وسجلات ومحاضر. لكن أهمها علي الإطلاق كان التقرير الحربي الذي يصف الأحداث اليومية بالخرطوم. ورغم أنه كان بدون توقيع إلا أنني لم أشك في أنه كان من الجنرال غردون. لم يعرضوا علي سوي أجزاء من المراسلات وقبل أن أتمكن من التمعن جيداً فيها استدعيت للمثول أمام المهدي، والذي سألني عن فحواها، فأجبته بأن معظمها كان رسائل شخصية لكن هناك تقريراً حربياً لم أفهم

---

* عند وصولي للقاهرة عام ١٨٩٥ علمت أن النصوص الكاملة لخطاباتي التي أشرت إليها قد وصلت للسلطات البريطانية وأنه تم نشرها ضمن «يوميات غردون» (المؤلف).

محتواه. ولسوء الحظ فقد كان من ضمن الرسائل عدد من الخطابات والتقارير المكتوبة باللغة العربية والتي استطاع المهدي والخليفة أن يدركا منها تماماً حالة الخرطوم. كان هناك أيضاً تلغرافاً نصف مشفر كتبه الجنرال غردون باللغة العربية لسمو الخديوي وقد تمكن عبد الحليم أفندي، الذي كان باشكاتباً في كردفان، من فك الشفرة. ومن بين تقارير القناصل وجدت خبراً عن وفاة صديقي القديم إرنست مارنو بالحمي في الخرطوم.

بحث معي المهدي ومعاونوه عن أي الأوراق التي سترسل لغردون لإقناعه بأن الباخرة قد تحطمت وأن الكولونيل ستيوارت ومن كان معه قد قتلوا . وقد اعتقد المهدي بأن هذا سيدفع غردون للإستسلام. أشرت إليه بأن الوثيقة الوحيدة لاقناع غردون هي تقريره الحربي واقترحت أن يعاد إليه. وبعد نقاش طويل تقرر أن يرسل إليه.

ومساء اليوم التالي عاد غلامي مرجان من مهمته لكنه لم يحضر أي رد معه. وعندما سألته عما جري أخبرني بأنه وصل لقلعة أم درمان وسلم خطاباته ثم بعد إنتظار لفترة قصيرة أخبره القمندان للعودة إذ لم يكن هناك رد علي الخطابات. توجهت مع غلامي فوراً للمهدي وأعاد عليه رواية ما جري وفيما بعد توجهت للخليفة وأخبرته أيضاً. في نفس الليلة إستدعاني المهدي مرة أخري وأمرني بكتابة خطاب آخر قال أنه متأكد من أن غردون سيرد عليه وخاصة بعد أن يدرك ما حل بالباخرة. أكدت له جاهزيتي لتنفيذ رغباته فوجهني بأن يقوم غلامي مرجان أيضاً بتسليمه. ومرة أخري تربعت علي العنقريب وإستعنت بالضوء الباهت لمصباح قديم في تدبيج خطاب آخر أوضحت فيه فقدان الباخرة وموت ستيوارت وكررت معظم ما كتبته لهم في خطاباتي السابقة. وأضفت في خطابي لغردون إنه إن اعتقد بأنني فعلت شيئاً يمس شرفي كضابط، وأن هذا ما منعه عن الكتابة لي، فانني أرجوه أن يمنحني الفرصة للدفاع عن نفسي وبالتالي يتيح لنفسه الفرصة ليصل إلي الحكم الصائب بخصوصي.

ثم توجهت صباح اليوم التالي إلي المهدي بصحبة مرجان وتم توجيه أحمد سليمان لتسليمه حماراً ثم تناول الصبي الخطاب وذهب في الحال ليرجع صباح اليوم التالي حاملاً خطاباً من القنصل هانزل كتب باللغة الألمانية مع ترجمة بالعربية وكما يلي:

«صديـقي الـعزيــز ســـــــلاطين بــك،

لقـد تـســلمنا خطـابـاتـك وأرجــو مـنـك

الحضور لطابية راغب بك (قلعة أم درمان).

أود التباحث معك عن وسائل خلاصنا وبعد ذلك

يمكنك العودة بسلام إلي صديقك. المخلص جداً لك،

(إمضاء) هانزل»

حيرني هذا الخطاب بعض الشئ ولم أعرف إن كان قد كتب بغرض خداع المهدي، ولكن في هذه الحالة فأن الخطاب العربي كان كافياً. وفي تقديري إنه كان يمكنه الكتابة بوضوح أكثر باللغة الألمانية لكنه خشي أن يكون في معية المهدي من يفهم تلك اللغة وبالتالي يعرضني ذلك لأشد الخطر. ولكن إذا أخذت مافي الخطاب حرفياً فربما يبدو أنه كان يلمح لرغبته شخصياً في الحضور إلينا. وبالفعل كنا قد سمعنا إشاعات عن خوفه من إحتمال سقوط المدينة وعن رغبته في التسليم للمهدي هو والرعايا النمساويين الذين معه. مع هذا فانه يصعب الجزم بأن هذا هو ما أراده بالفعل. أيضاً وفيما يختص بالتحاقي بغردون في الخرطوم فهل كان يعني حقاً أن الأخير قد رفض الإستماع لرجائي له أم أن تعبيره عن أنني «يمكنني العودة بعد ذلك بسلام لصديقي» عبارة عن تعمية للمهدي لاغير؟ إنني أقر بأنني صرت في حيرة بالغة رغم أن حيرتي هذه لم تدم معي طويلاً.

أحضرت الخطاب فوراً للمهدي وأوضحت له بأن النص العربي مطابق تماماً للأصل الألماني للخطاب. وعندما إنتهي من قراءته سألني إن كنت راغباً في الذهاب إليهم فأجبته بأنني علي إستعداد تام لتنفيذ تعليماته وأن خدماتي دائماً تحت إشارته. لكنه قال لي: «أنني أخشي عليك، إذا ماذهبت لمقابلة قنصلكم في أم درمان، أن يلقي غردون القبض عليك وإلا فلماذا لم يكتب لك بنفسه إذا ما كان حسن الظن بك؟» فقلت له: «لا أدري فيم صمته تجاهي ولكن ربما كان ذلك طبقاً للتعليمات الصادرة منه بعدم الدخول في أي إتصال معنا. وعلي كل حال فعندما ألتقي هانزل فربما أتمكن من ترتيب الأمر. لقد قلت لي

أنك تخشي من إلقاء غردون القبض علي لكنني لست أخشي من ذلك، وحتي لوقام بذلك فانني علي ثقة من أنك ستنقذني. أما بشأن قتله لي فإن هذا مستبعد تماماً». فقال المهدي: « حسناً. قم بتجهيز نفسك للذهاب، وانتظر تعليماتي».

كنت أثناء ذهابي لكوخ المهدي قد سمعت بوصول لبتن بك من بحر الغزال. والآن وعند رجوعي من المهدي ذهبت للبحث عنه ووجدته أمام باب الخليفة في انتظار الإذن له بالمثول أمامه. ورغم حظر التحدث مع أي أحد قبل أن ينال عفو المهدي إلا أنني لم أستطع مقاومة تحيته وفيض مشاعري عند لقائه. وقد أخبرته عن الخطابات باختصار فتمني لي الحصول علي الإذن بالقيام للخرطوم ثم أخبرني بأنه قد ترك خدمه ومرافقيه علي بعد ساعات وسألني أن أحصل له علي إذن الخليفة ليتم حضورهم إلينا. وبعد دقائق تم استدعاؤه للمثول أمام الخليفة والذي عفي عنه وأخبره أن بأمكانه الذهاب لإحضار خدمه ومرافقيه وبعد ذلك سيتم تقديمه للمهدي.

عدت بعد ذلك إلي محلي واستلقيت علي العنقريب قلقاً، في إنظار الإذن لي بالتوجه لأم درمان، فربما غير المهدي رأيه أو قرر عدم السماح لي بالذهاب. وبعد فترة جاءني أحد غلماني وأخبرني أن أحد ملازمي الخليفة واقف في انتظاري. فنهضت إليه وطلب مني أن أتبعه إلي معسكر يعقوب حيث كان سيده في انتظاري هناك. قمت بلف عمامتي حول رأسي وربطت الحزام علي بطني وتبعته. وعند وصولنا لمعسكر يعقوب أخبرونا بأن الخليفة قد توجه لزريبة أبو عنجة وهو في انتظارنا هناك. بدأت أرتاب في الأمر إذ لم يكن من المعتاد كل هذا التجول أثناء الليل وكنت أعلم مدي الغش لدي هؤلاء الناس، لذا جهزت نفسي لمواجهة كافة الاحتمالات. وعند وصولي لزريبة أبوعنجة قام الحارس بادخالنا. كانت الزريبة واسعة ومبعثر عليها عدة ملاجئ من الشمس عبارة عن قطع من القماش مثبتة علي أعمدة ويفصلها عن بعضها البعض أسوار من القصب. اخذونا إلي أحد تلك (المظلات) وهناك، وعلي ضوء مصباح باهت، رأيت يعقوب وأبو عنجة وفضل المولي والزاكي طمل والحاج الزبير جالسين في شبه دائرة ويتحدثون بحماس وجدية. وقد وقف وراءهم عدد من

الرجال المسلحين لكن لم يكن هناك أي أثر للخليفة رغم أنه أرسل لي لمقابلته. تأكد في ذهني الآن بأن هناك شيئاً مدبراً لي. تقدم الملازم نحو يعقوب وتحدث معه وبعدها تم استدعائي للدخول ولأخذ مكاني بين الحاج الزبير وفضل المولي مواجهاً لأبي عنجة.

ثم بدأ أبو عنجة الحديث قائلاً: «لقد التزمت ياعبد القادر أن تكون وفياً للمهدي وإن الواجب يقتضي أن تفي بما التزمت به. ومن واجبك أيضاً أن تطيع الأوامر حتي لو قاسيت من جراء ذلك أليس كذلك؟» « فقلت له: «بالتأكيد هذا حق وإنك يا أباعنجة إذا ما سلمتني أي أمر من المهدي أو الخليفة فستري كيف أنني ساطيعه». فقال لي: « لقد تسلمت أمراً للقبض عليك لكنني لا أدري السبب لذلك». وبينما كان يتحدث قام الحاج الزبير بأنتزا ع سيفي، والذي كنت قد وضعته عبر ركبتي كما هي العادة أثناء الحديث، ثم ناوله للزاكي طمل وبعدها أمسك بيدي اليمني بكلتا يديه. فقلت للحاج الزبير: « إنني لم أت هنا للقتال فلماذا تقبض علي يدي؟ أما أنت يا أبا عنجة فما عليك بالطبع إلا تنفيذ ما كلفت به».

وهكذا فأن ما كنت ألحقه بالآخرين مراراً وتكراراً سيلحق بي الآن أيضاً. وقف أبو عنجة كما نهض الحاج الزبير وأنا بعد أن أطلق يدي من قبضتيه وقال أبو عنجة: « توجه إلي تلك الخيمة» وأشار إلي مظلة لم أتبين شكلها من الظلام ثم أمر الحاج الزبير ومن معه بالذهاب معي.

مضيت نحو الخيمة مصحوباً بسجاني وثمانية رجال آخرين وهناك أشاروا الي بالجلوس علي الأرض ثم أحضروا الأغلال والجنازير.

تكونت الأغلال من سوارين كبيرين من الحديد يربطهما قضيب حديدي سميك وتم إدخال قدمي فيهما حتي الساق ثم تم طرقها بالمطرقة حتي تلاءمت طرفاهما. ثم وضعوا حلقة من الحديد حول عنقي تدلي منها جنزير حديدي طويل صنع بحيث يصعب علي تحريك رأسي. تحملت كل هذا في صمت شديد. ثم مضي الحاج الزبير وبعدها طلب مني الجنديان الذان كانا في حراستي أن أتمدد علي البرش الذي وضع بجواري.

وعندما خلوت لنفسي أطلقت لأفكاري العنان. فبداية لمت نفسي علي عدم فراري للخرطوم مستخدماً جوادي. لكن من الذي كان يضمن استقبال غردون لي؟ والآن، وطبقاً لأوامر المهدي، فلم أعد في وضع أقدر فيه علي إلحاق الأذي بأي أحد. فماذا سيكون مصيري بعد ذلك؟ هل ألاقي مصير محمد باشا سعيد وعلي بك شريف؟ لم يكن من طبعي القلق علي ما ألاقيه وبالتالي لئلا أجعل حياتي أكثر تعاسة وشقاء. ما الذي قاله لي مادبو؟ «كن صبوراً ومطيعاً لأن من يعش طويلاً يري كثيراً». لقد كنت مطيعاً وما علي الآن إلا أن أمارس الصبر. أما عن العيش طويلاً فهذا الشأن بالطبع في يد الله تماماً.

وبعد ساعة من ذلك، والتي كما قد تتصور لم أنم خلالها، شاهدت عدداً من الملازمين يقتربون وفي أيديهم المصابيح. وعندما اقتربوا مني رأيت الخليفة عبد الله يمشي وسطهم فوقفت في إنتظارهم. ولما رآني واقفاً أمامهم قال لي: «هل استسلمت يا عبد القادر بكامل إرادتك للأقدار؟» فأجبته بهدوء: « منذ طفولتي كنت معتاداً علي الطاعة أما الآن فأن علي أن أكون مطيعاً سواء رغبت في ذلك أم لم أرغب». فقال لي: « إن صداقتك مع صالح ود الملك ومراسلاتك مع غردون قد جعلتنا نشتبه في أمرك ومن ثم نشك إذا ما كان قلبك معنا بالفعل. هذا هو السبب الذي دعاني لاستعمال الشدة معك لدفعك للطريق القويم». فقلت له: « إنني لم أخفى صداقتي لصالح ود الملك فهو بالفعل صديقي وأعتقد أنه مخلص لكم. أما بشأن مراسلاتي مع غردون فقد تمت بأوامر من المهدي» فقاطعني الخليفة: « وهل أمرك أيضاً بكتابة ما كتبت؟» فأجبته: « أنني أري أنني ما كتبت إلا ما أراده المهدي ولا أحد يعلم بما كتبته سواي والشخص الذي تسلم الخطابات. كل ما أريد منك ياسيدي هو العدالة وألا تصيغ السمع لأكاذيب المتآمرين».

ثم خلوت لنفسي مرة أخري وحاولت النوم لكن كنت شديد التوتر ومرت بخاطري كل أنواع الأفكار والتصورات وقد إشتد بي الألم أيضاً من جراء القيود والسلاسل علي رقبتي وقدمي وحرمتني من أي راحة. لم يزرني النوم إلا نادراً تلك الليلة وعند شروق الشمس جاءني أبو عنجة ومن ورائه خدمه ومعهم بعض أطباق الطعام. أجلس نفسه بجواري علي

بساط السعف ثم وضع الطعام أمامنا. كانت وجبة طيبة مكونة من الخبز والدجاج والأرز واللبن والعسل واللحم المشوي والعصيدة ولكنني عندما أخبرته بأنعدام شهيتي قال لي: « إنني أعتقد بأنك خائف يا عبد القادر وهذا ماصدك عن الأكل». فأجبته بقولي: « كلا. إنه ليس الخوف ولكنه فقدان الشهية. وعلي كل حال، ولترضي عني، فسأحاول أن آكل بعض الشئ» وبالفعل تمكنت من إبتلاع بضع لقيمات بينما كان أبو عنجة يبذل كل جهده ليشعرني بأنني ضيفه المبجل. ثم قال لي: «لقد أصيب الخليفة بخيبة الأمل منك بالأمس عندما وجد أنك لم تستسلم للخضوع والمسكنة أمامه. وعلق علي ذلك بأنك عنيد ناشف الدماغ وهذا في اعتقاده سبب عدم خوفك» فقلت له: «كيف أقوم بالقاء نفسي تحت قدميه وأطلب العفو منه عن جريمة لم أرتكبها؟ إنني بين يديه وبمقدوره أن يفعل بي ما يشاء». فقال لي أبو عنجة: « غداً سنواصل السير ونقترب أكثر من الخرطوم وسنشدد الحصار عليها بأكثر مما هو عليه ثم نقوم بهجوم مفاجئ عليها. وسأسأل الخليفة للسماح لك بالبقاء معي وهو شئ أفضل لك من إرسالك للسجن العمومي». شكرته لرفقه بي وبعدها ذهب إلي شأنه. ظللت بقية ذلك اليوم وحيداً لكنني واظبت علي الصلاة أمام أعين من حولي وكنت أحمل سبحتي مثل كل المسلمين الصادقين لكنني كنت في الحقيقة أكرر تسبيحي بصلاة النصاري مرة بعد أخري. وعلي مسافة مني، وبالقرب من خيمة أبي عنجة، شاهدت خدمي وخيولي والقليل من المتاع الذي أملكه وقد جاءني أحد غلماني وأفادني بالأمر الذي تلقاه لإلحاق نفسه بأبي عنجة.

وصباح اليوم التالي الباكر قرعت الطبول للتقدم وتم تفكيك الخيام وحزم الأمتعة ورفعها علي ظهور الإبل وعمت الحركة كل المعسكر. وعاقتني الأثقال التي حول قدمي من المشي ولذلك أحضروا لي حماراً لركوبي. فقمت بلف الجنزير الطويل المتصل بعنقي، والذي سليت نفسي بعد حلقاته التي بلغت ثلاثة وثمانين، وطول كل حلقة حوالي الشبر، لففت ذلك الجنزير حول جسمي ومن ثم، وأنا مغلف بحديد الجنزير، تم رفعي علي ظهر الحمار وساندني رجلان عن اليمين وعن الشمال حتي لايتسبب هذا الوزن الهائل في الإخلال

بتوازني وسقوطي علي الأرض. وأثناء السير مربي عدد من قدامي أصدقائي لكنهم لم يجرؤوا علي عمل شئ لي سوي التحسر في صمت وأسي علي حالي. ثم توقفنا بعد الظهر علي ربوة استطعت منها رؤية أشجار النخيل بالخرطوم وتملكني شوق شديد لأن أشارك في الدفاع عنها والإنضمام لحاميتها.

ثم صدرت الأوامر لإقامة معسكر مؤقت في هذا المكان تحت إمرة الخليفة عبد الله. أما بقية الأمراء فقد تحرك كل منهم لإختيار مكان لإقامة معسكره الدائم به. في هذا الوقت بدأت أشعر بقرص الجوع واشتقت لتناول بعض الطعام الذي قدمه أبو عنجة لي بالأمس. لكنه الآن مع الخليفة ويبدو أنه نسي كل شئ عنا. لكن زوجة أحد حراسي جاءت تفتش عنه وأحضرت له معها كسرة من الذرة شاركني في تناولها معه. ثم أمرنا في اليوم التالي بمعاودة التحرك وتوقفنا بعد مسيرة ساعة في المكان الذي إختير لإقامة المعسكر الرئيسي. وكما وعد أبو عنجة، فقد تم ترتيب أمر بقائي تحت مسئوليته وتم نصب خيمة قديمة ممزقة لي وأقاموا من حولها. وبجوار حبال الخيمة، زريبة من الشوك. وضعوني هناك وتم قفل المدخل المحاط بالحراس بشجرة شوكية ضخمة.

ثم أمر المهدي بتشديد الضغط علي الخرطوم وإحكام حصارها. وفي تلك الأمسية تم إرسال عدة أمراء للضفة الشرقية للنيل الأبيض ودعماً لود النجومي وأبي قرجة كما تم حشد كل أهالي المنطقة للإلتحاق بالثوار. أما أبو عنجة وفضل المولي فقد تم تكليفهما بحصار قلعة أم درمان والتي تقع علي بعد خمسمائة ياردة تقريباً من شاطئ النهر علي ضفته الغربية. كان يدافع عن القلعة ضابط سوداني هو فرج الله باشا والذي وصل لرتبة اللواء في ظرف سنة واحدة بعد أن كان يوز باشياً وذلك بترقية غردون له. نجح أبو عنجة في تثبيت نفسه بين النهر والقلعة، وبعد أن قام بحفر خنادق عميقة تمكن من الاحتفاظ بهذه النقطة المتقدمة بالرغم من النيران الحامية التي كانت تصبها عليه حامية القلعة والبواخر النهرية وقد تمكن أبو عنجة من إغراق إحدي البواخر* بعد أن قذفها بمدفع كان قد نصبه في موقعه، لكن بحارتها تمكنوا من النجاة والفرار إلي الخرطوم.

---

* الباخرة هي الحسينية.

تم إهمالي وتجاهلي أثناء الحصار رغم أن حراسي كانوا يستبدلون يومياً وكانت معيشتي وسبل راحتي تعتمد علي معاملتهم لي. فاذا ما كانوا من العبيد الذين تم أسرهم تشدد المراقبة علي وأمنع من الإتصال بأي كائن كان أما إذا كانوا من قدامي الجنود الذين يعرفونني فأن معاملتي تتحسن ويقومون بتأدية بعض الخدمات البسيطة لي وذلك بالرغم من تشددهم في منعي من الإتصال بأي أحد أو التحدث إليه. كان الطعام الذي يقدم لي أسوأ مما يمكن وصفه ولما كان أبو عنجة مشغولاً باستمرار في عملية الحصار فقد تركت تحت رحمة زوجاته اللاتي كان قد أمرهن باطعامي.

وذات مرة كان يتولي حراستي أحد جنودي السابقين فقمت بأرساله إلي كبيرة زوجات أبي عنجة شاكياً لها بأنني بقيت دون طعام ليومين فردت علي بقولها: « هل يظن عبد القادر إننا سنقوم بتسمينه هنا بينما عمه غردون باشا يقوم طوال اليوم برمي القنابل علي سيدنا وتعريض حياته للخطر بسبب أخطائه؟ فاذا ما عمل علي جعل عمه يستسلم لما كان تحت القيود الآن». فمن وجهة نظرها بالطبع أري أن لأراء تلك المرأة ما يبررها.

من وقت لآخر كانوا يسمحون لبعض اليونانيين بالحضور لرؤيتي وإعتادوا علي إطلاعي علي الأخبار. وفي اليوم الذي وصلنا فيه إلى هنا وضع المسكين لبتن بك في القيد مثلي فقد إشتبه في أنه كان يحاول اللحاق بغردون. إضافة لذلك، فعندما قاموا بتفتيش أغراضه، وجدوا وثيقة موقعة من جميع ضباط فرقته توضح أنه قد تم إجباره علي تسليم مديريته. تم إرسال زوجته وإبنته ذات الأعوام الخمسة إلي بيت المال للعيش هناك. كانت زوجته قد نشأت في بيت روسيت، قنصل ألمانيا السابق بالخرطوم، كجارية سوداء. وعندما تم تعيينه مديراً لدارفور ذهبت معه إليها. وعندما مات في الفاشر ذهبت مع لبتون إلي الإستوائية وبحر الغزال. وطبقاً لتعليمات الخليفة تمت مصادرة كل أغراض لبتن لكنه خصص خادمة لتساعد زوجته وإبنته في الأعمال اليومية.

وجاءني جورج كلاماتينو ذات يوم وأخبرني بالأنباء بأن جيشاً إنجليزياً بقيادة اللورد ولسلي قد وصل إلي دنقلا في تقدمه البطئ. وكان قد مكث طويلاً في صعيد مصر مما

عطل سرعة وصوله. ولما كانت الخرطوم معرضة الآن لخطر عظيم، وكانت طليعة جيشه قد بلغت دنقلا، فمتي يصل الجيش الرئيسي في هذه الظروف إذن؟

كان غردون، وبعد فترة من إعلانه العزم علي إخلاء السودان، قد بين لأهالي الخرطوم بأن الجيش الإنجليزي في طريقه الآن لفك الحصار عنهم ومن ثم ملأ نفوس الأهالي والحامية بالأمل والشجاعة. لقد أعطاهم دافعاً قوياً للحياة والصمود وصارت عيون الجميع تتطلع للشمال، بقلق بالغ، وهو الإتجاه الذي توقعوا أن تأتي حملة الإنقاذ منه. وكان سؤالهم الدائم هو متي ستجيء؟ ومرت الأيام وأنا في خيمتي المزقة، يتملكني مزيج من الأمل والخوف. ولا يعني ذلك إنحسار إهتمامي علي سلامتي الشخصية فقط بل في تصوري وتوقعي للأحداث المرتقبة والقلق الذي أعانيه من جراء ذلك. فكيف سينتهي كل هذا وماذا سيكون عليه مستقبلي؟

وفي أحد الأيام جاءني أحد ملازمي الخليفة وطوق كاحلي بالمزيد من القيود الحديدية والقضبان بهدف إذلالي كما أعتقد. ولكن الأثقال التي كنت أحملها قبل هذا كانت تمنعي من الوقوف علي قدمي مما يجبرني علي الاستلقاء ليلاً ونهاراً علي الأرض وبالتالي لم يعد يهمني إضافة قيد أو طوق زيادة علي ما أنا فيه.

وفي الأيام التالية لم يطرأ أي جديد يستحق الذكر. ولكن، ومن وقت لآخر، كنت أسمع قعقعة الرصاص ودوي المدافع المتبادلة بين الجانبين وحظر علي اليونانيين الحضور لزيارتي وصرت بالتالي في جهل تام لما يدور من حولي.

وفي إحدي الليالي، وبعد أربعة ساعات من غروب الشمس، وعندما داعبني النوم الذي ينسي الإنسان مشاكله وهمومه، تم إيقاظي فجأة بواسطة الحارس وأمرني بالنهوض في الحال. وعندما تم ذلك شاهدت أحد ملازمي الخليفة يعلن أن سيده في الطريق إلينا الآن وبعد ذلك رأيت رجالاً متقدمين نحونا حاملين مصابيحهم وسألت نفسي عما يريد الخليفة مني في مثل هذا الوقت المتأخر مما زاد في إضطرابي وانزعاجي. ثم قال الخليفة لي في لهجة حانية رقيقة: « إجلس يا عبد القادر» وبعد أن فرش له خدمه فروته جلس بمقابلتي

واستمر يقول: « لدي هنا ورقة وأريد منك أن توضح لي ما هو مكتوب فيها ولتثبت إخلاصك لي» فقلت له وأنا أتناول الورقة: « بكل تأكيد إذا ما استطعت ذلك». كانت ورقة صغيرة أقل من نصف ورقة السيجائر وكان عليها كتابة واضحة بالحبر الأسود علي جانبيها. وعرفت في الحال خط غردون وتوقيعه. رفعت الورقة أمام المصباح فوجدت الكلمات الآتية باللغة الفرنسية:

«لدي حوالي ١٠٠٠٠ رجل. استطيع الحفاظ علي الخرطوم حتي نهاية يناير.

لقد كتب ألياس باشا لي بأنه أجبر علي ما فعله.

إنه رجل عجوز غير قادر علي فعل شئ وأنا أعفو عنه.

حاول أن تجرب الحاج محمد أبو قرجة أو غن لنا أغنية أخري.» غردون.

لم يكن عليها ما يشير للجهة المعنونة إليها. ولأنني واثق بأنه لايوجد بالمعسكر من يعرف الفرنسية فقد أدركت السبب الذي حضر لي الخليفة من أجله. ثم قال الخليفة بنفاذ صبر: «هل تبينت الآن فحوي هذه الرسالة وما تعنيه؟ « فقلت له: « هذه الرسالة من غردون، مكتوبة بخط يده ولكن بلغة فرنسية مشفرة لا أستطيع فهمها» فقال الخليفة بانزعاج واضح: « ماذا تقول؟ أوضح ما تقول» فقلت له: « هناك بعض الكلمات التي كتبت بصورة لا استطيع تبين معناها وكل كلمة لها معني مختلف ولا يستطيع فهمها إلا شخص معتاد علي قراءة الشفرة. وإذا ما سألت أي أحد من قدامي الموظفين فسيؤكد لك ما قلته».

تملك الخليفة الغضب وصرخ في وجهي: « لقد أخبروني أن أسماء ألياس باشا والحاج محمد أبو قرجة قد ذكرت فيها. فهل هذا صحيح؟ «فأجبته: «لقد أخبرك بالحقيقة من قال لك ذلك. ولقد قرأت أسماءهم أيضاً ولكن من المستحيل علي أن أفهم مغزي ذلك ولعل الرجل الذي أخبرك باسميهما يستطيع تفسير باقي الرسالة. بالإضافة لذلك فأنني أري رقم ١٠٠٠٠ ولا أدري إن كان يعني عدد الجنود أو شئ آخر ومن المستحيل أن أعرف».

إنتزع الورقة من يدي ووقف علي قدميه فقلت له: «معذرة ياسيدي فقد كان يسرني أن أثبت إخلاصي لك وأنال الحظوة عندك لكن هذا لم يكن بمقدوري. وأعتقد أن الكتبة الذين يعملون معك قد يفهمون فك الشفرات بأفضل مني» فرد قائلاً: « حتي إذا لم أعرف ما تحتويه هذه الورقة فأن غردون سيسقط وستكون الخرطوم لنا». ثم مضي وتركني مع الحراس.

لقد أوضح غردون في هذه المذكرة الصغيرة أن باستطاعته الحفاظ علي الخرطوم حتي نهاية يناير ونحن الآن في نهاية ديسمبر. فهل ستصل حملة الإنقاذ في الوقت المناسب؟ ولكن لماذا أشغل نفسي بهذه الأفكار؟ فأنا الآن أرسف في الأغلال وعاجز تماماً عن نفع أي أحد ومهما فعلت فلن أستطيع تغيير سير الأحداث.

وجاء يناير والذي حدد غردون صموده بنهايته. إذن إقتربت اللحظة الحاسمة أكثر فأكثر. وفي الأيام التي تلت ذلك جري تبادل عنيف للنيران بين الدراويش وقلعة أم درمان، وكان فرج الله باشا يبذل جهداً خارقاً بالرغم من قلة عدد من معه من جند، وقد حاول القيام بالهجوم عليهم لكن تم صده. ثم نفذت المؤن بالقلعة وبدأت المباحثات حول تسليم الحامية. كان فرج الله قد خاطب غردون بالإشارات طالباً تعليماته لكن الأخير أفاده بالإستسلام إذ لم يكن بمقدوره إرسال أي دعم له. أمر المهدي بالعفو عن كل الحامية. ولم يكن لدي الرجال سوي ملابسهم التي عليهم أما نساؤهم وأطفالهم فقد كانوا بداخل الخرطوم. وعندما غادروا القلعة دخلها رجال المهدي لكن سرعان ما تم صدهم عنها بنيران المدفعية التي إطلقت عليهم من الخرطوم. ومع أن القلعة كانت تحتوي علي مدفعين من النوع الذي يحشي بالماسورة إلا أن مداهما لم يكن يصل حتي المدينة. هذا وقد تم استسلام قلعة أم درمان في الخامس عشر من يناير ١٨٨٥م.

ورغما عن سقوط أم درمان، إلا أن المهدي لم يعمل علي إرسال المزيد من التعزيزات للمحاصرين للخرطوم من جهتيها الجنوبية والشرقية، فقد كان يعرف أن في عدد أتباعه المتجمعين هناك ما يكفي لأداء المهمة. وظل هو والحامية أيضاً يتطلع نحو الشمال مترقباً وقد سادهم التوتر الشديد. فمن هناك سيكون القرار الأخير.

قام غردون باشا بأرسال خمسة بواخر للمتمة منذ زمن، بقيادة خشم الموس وعبد الحميد ود محمد، لانتظار قدوم الإنجليز ثم إحضار عدد منهم مع بعض المؤن الضرورية علي وجه السرعة إلي الخرطوم. ولاشك أنه كان في قلق عظيم في انتظارهم فقد راهن بكل شئ علي قدومهم ولم يكن هناك من يعرف ما حدث لهم.

كان غردون قد وافق عند بداية الشهر على خروج عدد كبير من العائلات من الخرطوم. فقد كان حتى ذلك الوقت غير راغب في إخراجهم بالقوة من الخرطوم وبالتالي إضطر للقيام بتوزيع مئات الأقات من البسكويت والذرة علي هؤلاء البائسين. فعل ذلك لوجه الله لكنه تسبب في الدمار لنفسه ولرجاله. فقد كان الناس يصرخون مطالبين بالخبز لكن المخازن صارت شبه خاوية لذا إضطر لبذل كل جهد، لحث الأهالي علي مغادرة المدينة. ولو كان فعل ذلك قبل شهرين أو ثلاثة لتوفرت له مؤن كافية لتغذية الجنود لفترة طويلة. لكن غردون، ظناً منه بأن النجدة مسرعة في طريقها إليه وللجنود والأهالي، فأنه لم يتخذ الإحتياطات اللازمة لتوفير المؤن. فهل كان يعتقد أن لاشئ علي وجه الأرض يمكنه أن يؤخر وصول الحملة.الإنجليزية؟

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان ملأ العويل والنواح أرجاء المعسكر. فمنذ مغادرتي لدارفور لم أسمع مثيلاً لهذا العويل. ولما كان المهدي قد منع كل مظاهر الحزن والبكاء علي الأموات أو القتلي، لأنهم سيدخلون جنة الفردوس، فلابد أن شيئاً خطيراً قد حدث ليقوم الناس بتكسير التعاليم التي حددها المهدي لهم. سارع حراسي من قدامي الجنود بتركي وحيداً وهرعوا بدافع الفضول لمعرفة ما حدث وبعد دقائق عادوا يحملون أخباراً مذهلة عن أن طلائع القوات الإنجليزية قد إلتحمت بالقوة المشتركة للبرابرة والجعليين والدغيم والكنانة، تحت قيادة موسي ودحلو، في أبو طليح وهزمتهم بعد قتل الألوف من الأنصار وجرح آخرين تمكنوا من الرجوع للمعسكر. وقد سقط موسي ودحلو قتيلاً وكادت قبيلتي كنانة ودغيم أن تبادا تماماً مثلما سقط معظم الإمراء المشاركين.

يالها من أخبار! كان قلبي يدق كالمطرقة من جراء إبتهاجي وإثارتي فقد أتي النصر أخيراً بعد تلك السنون الطويلة. أمر المهدي والخليفة بتوقف كل هذا الضجيج فوراً لكن عويل النساء وبكائهن إستمر لبضعة ساعات أخري. صدرت التعليمات للنور عنقرة للتقدم نحو المتمة بقواته. ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فحتي لو كانت لديه العزيمة – والتي لم تكن له – فماذا بمقدوره أن يفعل بهذا العدد القليل من القوات في حين فشل عدة آلاف من غلاة المتعصبين من قبلهم؟ وخلال اليومين أو الثلاثة التالين جاءت الأخبار عن هزائم أخري في

أبي خروق والقبة وتشييدهم لحصن قوي علي النيل بالقرب من المتمة. عقد المهدي وكبار أمرائه مجلساً للتشاور فقد أصبحت إنتصاراتهم المذهلة التي أحرزوها من قبل في المحك الآن وتراجع بعض المحاصرين للخرطوم بعد أن انتابهم الخوف وصار الأمر برمته متعلق ببضعة أيام فقط وقد ينتهي أمر المهدية فعليهم، من ثم، المخاطرة بكل شئ. صدرت الأوامر لقوات الحصار بأتخاذ الإجراءات المناسبة والاستعداد التام. فلماذا لم تصل تلك البواخر التي طال إنتظارها حاملة القوات الإنجليزية؟ أيجهل قادتها أن الحالة في الخرطوم وحياة كل من بها أصبحت معلقة الآن بخيط واهن؟ وعبثاً إنتظرت أنا وألوف أخري سماع صافرة البواخر ودوي المدافع معلنة أن الإنجليز قد وصلوا وأنهم يعبرون الإستحكامات التي شيدها الدراويش لمقاومتهم. نعم: في يأس شديد! إذ لم يكن للتأخير ما يبرره. فما معني ذلك؟ هل طرأت صعوبات أخري؟.

ثم جاء يوم الأحد، الخامس والعشرين من يناير، وهو يوم لن أنساه مادمت حياً. ففي عتمة ذلك المساء عبر المهدي وخلفاؤه النهر علي مركب إلي حيث تجمع محاربوهم استعداداً للقتال. وقد كان معروفاً خلال اليوم بأنه سيتم الهجوم علي الخرطوم في الصباح التالي. وقد توجه المهدي الآن إلي أتباعه ليثير حماسهم للمعركة القادمة ولو عظهم وتنويرهم بعظمة الجهاد ولحثهم علي القتال حتي الموت. وقد دعوت الله أن يكون غردون قد علم بما يجري وليعمل علي إكمال إستعداداته لصد الهجوم!

أوصي المهدي وخلفاؤه أتباعهم لضبط النفس وتلقي تعلميات اللحظة الأخيرة في صمت ، بدلاً عن صيحات التكبير والتهليل التي ربما تنبه الحامية المنهكة والجائعة لما هو علي وشك أن يحل بها. وبعد أن انتهي من مهمته في وقار وسكون عبر النهر راجعاً إلي معسكره والذي وصله عند الفجر ولم يترك خلفه من المسئولين سوي الخليفة شريف والذي توسل للمهدي للسماح له بالاشتراك في القتال.

كانت تلك الليلة من أسوأ الليالي التي مرت علي طوال حياتي وذلك للتوتر والقلق الذي إنتابني فيها. فاذا لم يتم صد الهجوم علي الخرطوم وإنقاذها فسيضيع كل شئ. كنت علي وشك الهجوع للنوم بعد إرهاقي الشديد عندما نهضت فزعاً من ضجيج الرصاص من

آلاف البنادق المصحوب بدوي المدافع. استمر ذلك لبضع دقائق وبعدها لم أعد أسمع سوي صوت لطلقات متفرقة من حين لآخر ثم عم بعدها الصمت التام.

لم تشرق الشمس بعد وكان صعباً علي تمييز أي شئ من الظلام. فهل من الممكن أن يكون هذا هو الهجوم الكاسح علي الخرطوم ؟ من إطلاق عنيف للنيران من المدافع والبنادق ثم بعد دقائق هذا الصمت المطبق؟

إحمر قرص الشمس ولاح في الأفق. فما الذي سيأتي به هذا اليوم يا تري؟ كنت متوتر الأعصاب، وأنا في انتظار معرفة النتيجة بفارغ الصبر ثم سرعان ما سمعنا صيحات الإبتهاج والظفر من بعيد . وهرع حراسي لمعرفة الأخبار وعادوا بعد دقائق وهم يتحدثون بحماس وإنفعال عن كيف سقطت الخرطوم بعد هجوم خاطف كاسح وانها اصبحت الآن في يد المهدي. فهل ياتري أن تلك الأخبار كانت كاذبة؟ زحفت خارجاً من خيمتي وتطلعت نحو المعسكر. كان جمع غفير قد تحلق حول مكان المهدي والخليفة، والذي كان علي مسافة ليست بعيدة عني، ثم بدأت أحس بتحرك باتجاه خيمتي وعرفت أنهم في الطريق إلي. أمام الجموع سار ثلاثة من الجنود السود أحدهم كان يدعي (شطة)، وكان تابعاً من قبل للحرس الشخصي لأحمد بك دفع الله، وكان يحمل في يده قطعة من القماش ملطخة بالدم وملفوف بداخلها شئ ما، وسار وراءه عدد من الناس يبكون. إقترب العبيد من خيمتي ووقفوا أمامي يومئون لي بسخرية وإهانة ثم رفع شطة غطاء القماش وكشف لي عن رأس الجنرال غردون.

إندفع الدم إلي رأسي وكاد قلبي أن يتوقف ولكنني إستطعت بمجهود خارق من السيطرة علي نفس وحدقت في صمت إلي هذا المنظر البشع. كانت عيناه الزرقاوتين نصف مفتوحة، لكن فمه كان طبيعياً، وشعر رأسه وعارضيه قد جللهما البياض.

وسألني شطة، وهو يرفع الرأس في وجهي: «اليس هذا رأس عمك الكافر؟» فقلت له بهدوء : «وماذا في ذلك؟ لقد كان جندياً شجاعاً سقط وهو يقاتل. وكم هو سعيد بذلك، فقد إنتهت معاناته». فصاح شطة مستهزئاً: « ها ها! أراك لازلت تمتدح ذلك الكافر لكنك



Bringing Gordon's Head to Slatin.

إحضار رأس غردون لسلاطين

ستري قريباً عاقبة ذلك». ثم تركني وتوجه إلي المهدي وهو يحمل هذا الدليل المخيف للنصر وسار وراءه جمهرة من الناس يبكون.

دخلت لخيمتي بعد أن تحطم فؤادي من الأسي. فقد سقطت الخرطوم ومات غردون! وهكذا كانت نهاية الجندي الشجاع الذي سقط في موقعه. نهاية لرجل كانت شجاعته وإزدرائه الشديد للخوف شيئاً استثنائياً وقد أعطته خصاله الشخصية غير العادية شهرة مرموقة في أنحاء العالم.

إذن ما فائدة الجيش الإنجليزي الآن؟ وكم كان قاتلاً تأخرهم ذاك في المتمة. لقد وصلت طلائع الجيش الإنجليزي إلي القبة علي النيل في العشرين من يناير في العاشرة صباحاً. وفي اليوم التالي وصلت بواخر غردون الأربعة. فلماذا إذن لم يرسلوا بعض الإنجليز علي ظهرها، مهما قل عددهم، ويتحركوا في الحال نحو الخرطوم؟ فلو ظهروا فقط في المدينة لامتلأت نفوس حاميتها بأمل جديد ولقاتلت بالظفر والناب ضد عدوها بينما سينضم لهم الأهالي، الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في وعود غردون، بكل حماس لمقاومة هجوم الدراويش بعد أن أيقنوا بوصول حملة الأنقاذ لهم. لقد قام غردون بالطبع ببذل كل جهده للحفاظ علي المدينة وأعلنهم بأن جيشاً إنجليزياً هو في الطريق إليهم. بل قام بطبع عملة ورقية وأخذ يوزع الميداليات ورتب الشرف يومياً تقريباً ليرفع معنويات الحامية المتدهورة وعندما إزداد الوضع سوءاً بذل جهداً فوق طاقة البشر لحث قواته علي الصمود. ولكن اليأس قد غمرهم وتملك أفئدتهم فماذا ستغني عنهم تلك الرتب والميداليات بعد الآن؟ وما الفائدة منها؟ أما بشأن العملة الورقية فربما لازال هناك من يرضي بشراء الجنيه منها بحفنة قروش علي أمل أن تواتيهم ضربة حظ ويتم النصر للقوات الحكومية. ولكن تلاشت حتي تلك الآمال الواهنة شيئاً بعد شئ ولم تعد لوعود غردون أي مصداقية عندهم بعد الآن فاذا ما كانت باخرة واحدة وعليها بعض جنود الإنجليز قد وصلت للمدينة و نشرت أنباء إنتصاراتها التي أحرزتها في الطريق اليهم وحتي وصولهم للنيل، لما عاد للشك مكان في أفئدة الجنود والأهالي ولجددوا ثقتهم ثانية في أقوال غردون ووعوده. فاذا ماحدث ذلك لتبين لأي ضابط إنجليزي مدي الضرر الذي أحدثته فيضانات النيل الأبيض علي تماسك

خطوطهم الدفاعية ولأمر في الحال باصلاحها. ولكن ماذا بمقدور غردون أن يفعله بمفرده وبدون أي مساعدة من أي ضباط أوروبيين؟ لقد كان مستحيلاً عليه مراقبة كل شئ أو للتأكد من أن تعليماته تنفذ بحذافيرها. وكيف يمكن للقائد الذي لايستطيع إطعام قواته أن يتوقع من أولئك المتضورين جوعاً تنفيذها بالدقة والحيوية التي طلبها منهم؟

ففي ليلة الخامس والعشرين من يناير المشئومة علم غردون بأن قوات المهدي قد قررت الهجوم عليه وأصدر أوامره بالتالي طبقاً للموقف رغم أنه كان يشك في أن الهجوم سيتم في الصباح الباكر. وبينما كان المهدي يعبر النهر أخذ غردون، ولرفع معنويات قواته، بإطلاق الألعاب النارية والصواريخ الملونة في فضاء الخرطوم بينما كانت فرق الموسيقي تعزف ألحانها ومارشاتها هادفاً بذلك استعادة الجنود الجائعين لمعنوياتهم المتضعضعة. وعندما إنتهت العروض وتوقفت الموسيقي ونامت الخرطوم كان العدو يزحف في حذر وصمت نحو المواقع التي سيهاجمها. كانوا يعرفون كل مناطق الضعف والقوة بخطوط الدفاع وكانوا يعرفون بأن القوات النظامية تتمركز في النقاط القوية بينما تركت دفاعات المناطق الضعيفة والمتاريس المنهارة علي ضفة النيل الأبيض للجنود الثانويين والأهالي الواهنين المنهكين. وكان هذا الجزء بالذات من الدفاعات منعدم الصيانة لدرجة محزنة بل أنه لم يكتمل إنشاؤه بعد وعندما دمرته مياه النهر لم تتخذ أي خطوات لإعادة لترميمه وتقويته. وبدأ النيل في الإنحسار يومياً ومن ثم يتكشف كل يوم جديد عن شريط عريض من الأرض الموحلة المغطاة بالطمي والتي لم يحاول الأهالي الجائعين واليائسين بذل أي جهد للدفاع عنها سوي مجرد التظاهر بذلك. ومقابل هذا المكان المفتوح، وفي باكورة الفجر، تجمعت معظم القوات المخصصة للهجوم بينما واجهت بقية قوات المهدي مناطق الدفاعات الرئيسية. وبعد إشارة متفق عليها بدأ الهجوم. وسرعان مالاذ المدافعون عن ضفة النيل الأبيض بالفرار مذعورين، بعد إطلاقهم لبضع وصاصات، بينما كانت القوات مشغولة بصد الهجمات الكاسحة علي جبهتهم. واندفعت ألوف مولفة من غلاة العرب خائضين في الطين والوحل والماء الذي وصل حتي ركبهم واندفعوا نحو المدينة. ووجد المدافعون المذعورون الواقفون علي الخطوط أنهم يهاجمون من الخلف ولم يقوموا إلا

بمقاومة طفيفة وألقي معظم الجنود بأسلحتهم علي الأرض. قتل عدد من المصريين في المذبحة التي تلت لكن لم يقتل من الجنود السود إلا عدد سيل بينما لم يفقد العدو أكثر من ثمانين إلي مائة رجل. وسرعان ما إقتحم الدراويش البوابات بعد فتحها وسمح للقوات بالسير باتجاه معسكر المهدي.

وفور عبورهم لخطوط دفاعات النيل الأبيض، إندفعت جموع الأعداء بأتجاه المدينة صائحين: «للسراية ! للكنيسة!» فقد كان في ظنهم أن بهما الكنوز وأيضاً غردون، والذي كم دافع طويلاً عن المدينة وكم تحدي كل جهودهم المسلطة عليها. كان من ضمن القادة الذين إقتحموا للسراية أتباع مكين ود النور، والذي قتل فيما بعد في معركة توشكي، والمنتمي لقبيلة العركيين. كان شقيق مكين، عبد الله ود النور، محبوباً لدي أتباعه وقد قتل أثناء الحصار فكان رجاله يسعون الآن للإنتقام من مقتله. كان كثير من رجال أبي قرجة قد إندفعوا في الهجوم نحو السراية للإنتقام من غردون الذي كان قد هزمهم من قبل في بري. ذبح خدم غردون، الذين كانوا في الطابق الأرضي للسراية في الحال. أما غردون نفسه فقد وقف علي أعلي سلم القصر، الذي يؤدي إلي الديوان، في إنتظار قدوم العرب. وبدون الإكتراث لسؤاله لهم: أين سيدكم المهدي؟ قام أول رجل وصل للسلم بغرز حربته في جسمه فسقط للأمام علي وجهه بدون أن ينطق بكلمة. قام قتلته بجرجرة جثته عبر السلالم حتي مدخل القصر وهناك تم قطع رأسه وأرسلوه للمهدي في أم درمان علي الفور بينما تركت جثته المقطوعة الرأس لمراحم غلاة المتعصبين. وأندفع الألاف من تلك المخلوقات عديمة الإنسانية نحو الجثة لمجرد غرز سيوفهم وحرابهم فيها وسرعان ما تحولت الجثة إلي كومة من اللحم الممزق. ولفترة طويلة ظلت تلك البقع من دمائه في موقعها كعلامة بارزة للمكان الذي تمت فيه هذه العملية الوحشية. وظلت السلالم من أعلاها لأسفلها تحمل لأسابيع عدة نفس تلك الأثار المحزنة إلي أن تم غسلها أخيراً عندما قرر الخليفة أن يجعل من القصر مسكناً لزوجاته السابقات واللاحقات.

وعندما أحضروا رأس غردون للمهدي علق قائلاً بأنه كان من الأفضل أن يؤخذ حياً فقد كا ينوي إدخاله في الإسلام وبعد ذلك يسلمه للحكومة الإنجليزية مقابل تسليمه أحمد

عرابي باشا والذي كان يأمل في مساعدته له لغزو مصر. لكنني أري أن هذا الأسف من جانب المهدي لم يكن صادقاً لأنه لو أبدي أي رغبة للإبقاء علي حياة غردون لما جرؤ أي أحد علي عصيان أوامره.

كان غردون قد بذل كل جهده لإنقاذ حياة الأوروبيين الذين كانوا معه. وسمح للكولونيل ستيوارت وبعض القناصل وكثير من الأوروبيين للذهاب لدنقلا ولكن لسوء الحظ قام بحارة الباخرة عباس، التي أقلتهم، وبسبب من عدم الكفاءة أو لسخطهم، بالاصطدام بها في صخرة بالشلالات ومن ثم تسببوا في إلقائه ورفاقه للميتة الغادرة التي تم إعدادها لهم. أيضاً حاول غردون إنقاذ الأغاريق الذين كانوا بالخرطوم . فتحت ذريعة أنهم متمرسون علي قيادة السفن فقد وفر لهم باخرة علي النيل الأبيض ليقوموا بالتفتيش علي أنحائه المختلفة وزيارتها وبالتالي وفر لهم الفرصة للفرار جنوباً، للحاق بأمين باشا. لكنهم رفضوا ذلك. رغم ذلك إستمر إهتمامه بسلامتهم ونجاتهم فقدم لهم عرضاً آخر. فقد أمر بحظر التجوال بعد العاشرة مساء في كل الطرق المؤدية للنيل الأزرق وكلف الأغاريق بمراقبة ذلك حتي يمكنهم من الفرار علي ظهر باخرة كانت راسية هناك والتي كان مرتباً أمر فرارهم بها. لكنهم إختلفوا فيما بينهم بخصوص تفاصيل الخطة، حتي فشلت. لكنني لا أشك إطلاقاً في أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا راغبين في مغادرة المدينة. ففي بلادهم الأصلية، وفي مصر أيضاً، فأن معظمهم يعاني من الفقر والبؤس الشديد لعدم شغلهم إلا أعمالاً تافهة. لكنهم هنا في السودان قد كونوا ثرواتهم ولم يعد يؤرقهم التفكير لمغادرة البلد الذي حصدوا فيه تلك المزايا العظيمة.

كان غردون مهتماً بسلامة كل الناس إلا نفسه. فلماذا تجاهل إقامة حصن له أو أن يقوم بتحصين القصر الذي يقيم فيه. فمن وجهة النظر العسكرية فأنني أعتقد بصحة إنتقادي له رغم أنه من المحتمل أن يكون غردون قد تجاهل هذه الإجراءات حتي لايتهم بالحرص فقط علي سلامة نفسه. بل أن هذا قد يكون مادفعه لعدم إتخاذ حراسة قوية حول السراية. فقد كان بامكانه توظيف فرقة قوية من الجنود لهذا الغرض إذ لن يكون بمقدور أحد في هذه الحالة أن ينتقد قيامه بحماية نفسه. فمع حرس بمثل هذه القوة كان بأمكانه

أن يصل بسلام للباخرة الإسماعيلية التي كانت راسيه بالقرب من السراية علي بعد لايزيد علي ثلاثمائة ياردة من بوابة القصر. وكان ربان الباخرة فرغلي قد شاهد إندفاع العدو نحو القصر. وعبثاً حاول انتظار وصول غردون لكنه عندما شعر بمقتل غردون وشاهد هرولة الدراويش نحو باخرته قام بقيادة السفينة إلي عرض النهر وظل يبحر ذهاباً وأياباً أمام المدينة حتي جاءه عفو المهدي. ولما كانت زوجته وعائلته وبعض بحارته في المدينة فقد قبل عرض العفو ورسي علي الشاطئ لكنه للأسف كان مخدوعاً. فعندما إندفع نحو منزله وجد أن إبنه البالغ عشرة من العمر ممدداً علي الأرض قتيلاً. أما زوجته، والتي إندفعت في غمرة كربها وألقت بنفسها علي جسد الطفل، فقد سقطت بدورها بحراب المهاجمين.

لقد كانت الفظائع والتجاوزات التي ارتكبت أثناء المذبحة، التي أعقبت مقتل غردون، أمراً يجل عن الوصف ولم يستثن من ذلك إلا الأرقاء من ذكور وأناث والنساء الصغيرات والحسناوات من القبائل الحرة. أما الذين تمكنوا من الفرار فقد حمدوا الله الذي يسر لهم النجاة من مذابح ذلك اليوم المرعب. ولقد إختار عدد غير يسير أن يضعوا نهاية لحياتهم. ومن ضمن هؤلاء محمد باشا حسين، مدير المالية، والذي عندما حثه بعض أصدقائه للفرار معهم عندما كان واقفاً أمام جثتي إبنته الوحيدة وزوجها، رفض ذلك. حاول أصدقاؤه إنتزاعه بالقوة لكنه صاح بصوت عال وأخذ يصب اللعنات علي المهدي وأتباعه وسرعان ما مر به عدد من المتعصبين ووضعوا حداً لحياته. ولقد قتل عدد كبير بواسطة خدمهم وعبيدهم، الذين كانوا قد إنضموا للمهدي قبل ذلك ثم عملوا كمرشدين لجمهرة المتوحشين المتعطشين للدم وللسلب والغنائم.

وبوسع المرء أن يكتب مجلداً حول تفاصيل الأحداث الوحشية التي جرت في ذلك اليوم الذي لاينسي مع أن الذين نجوا لم يكن مصيرهم بأفضل من الذين هلكوا. وعندما تم احتلال كل المنازل بدأ البحث عن الأموال المخبأة ولم يقبل أي عذر أو إنكار من سكانها. وكان كل من يشتبه في أنه خبأ أموالاً - علماً بأن معظمهم قد فعلوا ذلك - يتعرض للتعذيب حتي يبوح بالسر أو ينجح في إقناع معذبيه بأنه حقاً لايمتلك أي شئ. وتم استخدام الجلد بالسياط وكان الأهالي التعساء يجلدون حتي يتهرأ اللحم منهم ويتدلي من

أجسامهم. نوع آخر من التعذيب يتم بربط الرجل من أصابع إبهاميه ويعلق علي عارضة السقف ويترك مدلدلاً في الهواء حتي يفقد الوعي في حين كان نوع آخر من التعذيب يتم بربط قطعتين من الخيزران المشقوق أفقياً علي جانبي صدغ الرجل ثم تربط نهايتي الخيزران من الطرفين ثم يلوي بأحكام شديد ثم يضرب الخيزران في ذلك الوضع بالعصي مما يسبب ألماً لايمكن وصفه. وحتي عجائز النساء كن يعذبن بنفس الطريقة وتتعرض أجزاء جسمهن الحساسة لعذاب يصعب علي وصفه في هذا المجال ويكفي أن أقول بأن كل الوسائل الفظيعة كانت تستخدم للكشف عن الأموال المخبأة. لم تسلم من هذه المعاملات سوي الصغيرات من النساء والفتيات حتي لا يتعارض التعذيب مع الغرض المخصص لهن وتم فرزهن جانباً ليصبحن جزءاً من حريم المهدي والذي اختار مايريد منهن في نفس يوم سقوط الخرطوم وأحال البعض الآخر منهن لخلفائه وكبار أمرائه. استمر هذا الإنتخاب والتخصيص لعدة أسابيع حتي اكتظت بيوت أولئك الشهوانيين والأوغاد اللا إنسانيين بهن حتي طفحت وفاضت بالتعيسات من شابات وحسان المدينة المقهورة.

وفي اليوم التالي ثم إعلان العفو العام عن الجميع باستثناء الشايقية والذين كانوا مصنفين كخارجين علي القانون. وبالرغم من ذلك فقد استمرت الفظائع وأعمال القتل لعدة أيام بعدها.

أخذت غنائم الخرطوم إلي بيت المال ولكن، بالطبع، ثم تهريب جزء كبير منها. وتم توزيع المنازل الفاخرة بين الأمراء. وبعد يوم من سقوط المدينة توجه المهدي والخليفة، بالباخرة الاسماعيلية، من أمدرمان للخرطوم لمشاهدة آثار ما أحدثه إنتصارهم الدموي. وبدون أي إحساس بالأسي احتلوا المنازل التي تم تخصيصها لهم ثم خاطب المهدي أتباعه واصفاً الكارثة التي حلت بالخرطوم بأنها عقاب من الله حل بسكان المدينة المنكرين والذين رفضوا مراراً وتكراراً من قبل نداءات المهدي لهم للتسليم والإنضمام لسلك أتباعه المخلصين للدين.

ومضت الأيام القليلة بعد ذلك في لهو وإتباع للشهوات وبعد أن شبعوا منها التفتوا للمخاطر التي تهددهم من الخارج. وتم تكليف الأمير المشهور عبد الرحمن ود النجومي

بجمع قوة كبيرة والتحرك بها نحو المتمة لطرد الكفرة وصد الحملة الإنجليزية التي كانوا علي علم بأنها قد وصلت للنيل بالقرب من هذه المدينة.

وصباح الأربعاء، بعد يومين من سقوط الخرطوم، وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، سمع قصف المدافع وقعقعة الرصاص باتجاه المنطقة الشمالية لجزيرة توتي. وسرعان ما ظهرت باخرتان هما تل حوين وبوردين وعلي ظهرهما السير تشارلس ولسون وبعض الضباط الإنجليز والجنود الذين جاءوا لمساعدة الجنرال غردون. كان علي ظهرهما أيضاً السنجقين خشم الموس وعبد الحميد محمد، والذين كان غردون قد أرسلهما مع فصيل من الشايقية للمتمة. كانوا قد سمعوا بمقتل غردون وبالمصير الوحشي الذي حل بالمدينة وبسكانها. وبالرغم من أن الذين كانوا علي البواخر لم يشكوا كثيراً في دقة تلك الأنباء المحزنة إلا أنهم أرادوا التأكد بأنفسهم ووصلوا حتي النقطة التي تفصل بين جزيرة توتي والضفة اليسري للنيل الأبيض. وهنا تعرضوا لقصف هائل من الدراويش الرابضين في الحصون المشادة شمال شرق قلعة أم درمان. وبعد أن شاهدوا علي البعد ما حل بالخرطوم وإقتنعوا بذلك، استداروا عائدين من حيث أتوا.

وقد سمعت فيما بعد من بعض بحارة تلك البواخر، بأنهم كانوا، وأيضاً الانجليز الذين علي ظهرها، شديدي التأثر لسقوط المدينة وأيقنوا الآن بأن كل السودان قد صار في قبضة المهدي. وكانوا يتحدثون، علي ظهر الباخرتين، بأنهم ما جاءوا إلا لإنقاذ غردون. لكنهم الآن، وبعد مقتله، يعتقدون بأن مهمة الحملة قد فشلت ويرون أن من البديهي عودتها إلي دنقلا وأنهم سيدعون لمرافقتها. ترتب علي ذلك إتفاق كبير الملاحين مع ربان الباخرة تل حوين، عبد الحميد، علي دفع الباخرة نحو أحد الصخور ومن ثم يهربون أثناء الليل منها. تم تنفيذ هذه الخطة بنجاح واصطدمت الباخرة بسرعة وقوة بالصخور مما دعي لتحويل شحنتها وحمولتها إلي الباخرة الثانية بوردين. وأثناء الفوضي التي صاحبت ذلك الحدث فر هذان المتآمران. وبعد توسط أصدقاؤهما حصلا علي عفو المهدي عنهما وعادا بالتالي للخرطوم. وهنا جري استقبالهما بحفاوة وأثني عليهما المهدي، أمام الجموع المحتشدة، لإلحاقهم الأذي والخسائر بأعدائهم البريطانيين. وبالرغم من أن عبد الحميد كان من

(الشـايقـية المكروهـين) وأحـد أقـرباء صـالح ود الملك إلا أن المهـدي قـام بأهدائه جبـتـه الخاصة، كدليل للشرف الذي ناله، إضافة إلي تسليمه عدداً كبيراً من قريباته من النسوة اللواتي كانو قد توزعوا بين الأمراء عقب سقوط المدينة.

وأثناء ذلك، وعندمـا كـانت البـاخـرة بوردين في رحلة عودتهـا إلي المتـمـة اصطدمت بشاطيء رملي. ولما كانت حمولتها ثقيلة للغاية فأنهم لم يستطيعوا إنقاذها وإعادتها لتطفو علي الماء. صار موقف السير تشارلس ولسون الآن في غاية الحرج إذ أنه بقوته الصغيرة لن يستطيع محاولة النزول علي الضفة الغربية ومهاجمة العدو، والذي كان متمترساً في ود الحبشي بينه وبين المعسكر البريطاني في القبة. كانت عزيمة هذا الفصيل من الدراويش قد وهنت كثيراً بعد هزيمتهم في أبي طليح. لكن سقوط الخرطوم، ثم علمهم بأن ود النجومي متقدم نحوهم بقوة ضخمة لدعمهم، أعادلهم عزمهم وحولهم إلي عدو رهيب. كانت بالقبة باخرة ثالثة هي الصافية. لذا قام السير تشارلس ولسن بأرسال أحد الضباط علي مركب صغير لطلب النجدة منهم. تمت الاستجابة في الحال للنداء وتحركت الصافية فوراً لنجدة البوردين. ولما علم العدو بذلك شرع في إقامة التحصينات لمقاومة تقدمها وعندما إقتربت منهم صبوا عليها نيراناً حامية من المدافع والبنادق. لكن بحارتها كانوا مصممين علي إنقاذ زملائهم وحاربوا بكل بسالة حتي أصابت إحدي القذائف مرجل السفينة وإخترقته فتعطلت وتعرضت لخطر جسيم. لكن ربانها لم يستسلم للإحباط وشرع في الحال مع رجاله في إصلاح التلف، وسط اطلاق النار الكثيف عليه. واستمروا في العمل خلال الليل وعند حلول الصبـاح، الباكر تمكنت الصافية من العودة للإبحار ومن الرد علي النيران وسرعان ما أسكتتها كما قتلوا كبير الأمراء أحمد ودفايت وعدد من صغار الأمراء والأنصار ثم شقوا طريقهم بالقوة ونجحوا في انقاذ السير تشارلس ولسن ورجاله.

كان لهذا العمل الجريء، والذي ترتب عليه إنقاذ الفرقة الصغيرة من الإنجليز الذين غامروا بالوصول للخرطوم، أثر كبير، ولو أنه غير مباشر، علي مصير الفصيل الانجليزي الصغير الموجود بالمتمة. فقد كان تقدم ود النجومي بطيئاً لصعوبة جمع الرجال وإذداد بطئاً عندما وصلته الأنباء بمقتل أحمد ود فايت وهزيمة الجيش القوي للدراويش في ود

الحبشي علي يد باخرة واحدة صغيرة. ولقد نمي إلي علمي أن النجومي بعد أن سمع بما أحرزته الباخرة الصافية من نجاح (والتي علمت بعد عودتي لمصر بأن ربانها المقتدر هو اللورد تشارلس بيرسفورد) خاطب رجاله وأشار إليهم بأنهم سيقاومون الإنجليز إذا ما تقدموا لإحتلال السودان، لكنهم، من الناحية الأخري، إذا ما تراجعوا نحو دنقلا فسيتمكن هو ورجاله من إحتلال المناطق التي سيجلون عنها بدون الدخول في مخاطر قتال آخر. وقد نفذ القرار الأخير بعد ذلك. أخر توجهه نحو المتمة إلي أن أخلي الإنجليز القبة. وبالرغم من أنه طاردهم حتي أبو طليح إلا أنه تردد في الهجوم عليهم طالما لم يتأكد تماماً من نجاحه.

ولم يتأكد المهدي بأنه قد كسب كل السودان إلا بعد أن علم بالإنسحاب النهائي للحملة البريطانية. وقد سر سروراً عظيماً بذلك وأذاع النبأ في المسجد ورسم لهم صورة باهرة حول هروب الكفرة وزينها أكثر بالرؤيا التي أفاده الرسول فيها بأن قرب ماء الكفرة قد تثقبت وأن من كانوا ضمن الحملة قد ماتوا عطشاً.

وفي اليوم الخامس لسقوط الخرطوم ظهر أمام خيمتي عدد من الجنود ورفعوني بقيودي علي حمار وساقوني إلي السجن العمومي حيث أضافوا إلي قيودي قيداً ثقيلاً أخر علي كاحلي متصل به قضيب من الحديد (يطلق عليه إسم الحاجة فاطمة من باب التندر) وكان يزن حوالي ثمانية عشرة رطلاً ولا يقيد به إلا من يعتبرونه مفرطاً في العناد أو من السجناء الخطرين. كنت علي جهل تام بأسباب سقوط مكانتي أكثر مما كانت في عين الخليفة لكنني علمت فيما بعد بأن غردون، وبعد أن عرف من خطاباتي إليه أن قوات المهدية المتقدمة نحوه ليست قوية كما يظن، وأن كثيراً من أتباع المهدي كانوا يتذمرون وأن هناك شحاً في الذخيرة، بعد أن عرف ذلك قام بالكتابة للكثيرين من ضباطه المتمركزين علي خطوط الدفاع بهذه المعلومات. وقد اكتشف أحد هذه الخطابات ضمن الغنائم التي سلمت لأحمد ودسليمان ببيت المال والذي أحاله بدوره إلي المهدي والخليفة وبذلك تأكدت شبهاتهم حول سلوكي وتبين لهم ما خططته للفرار والالتحاق بغردون بوضوح تام.

تم وضعي في أحد أركان الزريبة الضخمة التي إتخذوها سجناً، وأمرت بالبقاء فيها وعدم الحديث مع أي كائن كان بدون إذن وإلا تم جلدي. وعند غروب الشمس قاموا بربطي، مع مجموعة من العبيد الذين تمت محاكمتهم لقتلهم أسيادهم، وآخرين من هذه الشاكلة، بسلسلة طويلة من جنزير الحديد مررت حول أقدامنا وثبتت إلي جذع شجرة. وعند شروق شمس اليوم التالي قاموا بفك الجنزير وأعادوني إلي ركني مرة أخري. كنت بالكاد أشاهد لبتن علي البعد في ركن آخر من الزريبة حيث كان هنا منذ بعض الوقت وإعتاد علي هذا الوضع. وقد حصل علي إذن للتحدث مع الآخرين لكن السجان (الساير) حظر عليه ألا يتحدث معي تحت أي ظرف من الظروف. وفي اليوم الذي تم إحضاري فيه للسجن تم إطلاق سراح صالح ود الملك، والذي كان أخوه وأبناؤه ومعظم أقاربه تقريباً قد قتلوا، وسمح له الآن للذهاب والبحث عمن من تبقي منهم حياً.

كان طعامي سيئاً وقد إزداد سوءاً الآن، وكأنني قد سقطت من المقلاة إلي النار فقد أعتقدت أن أشكو لهم من الجوع من قبل فكان جزائي أن يصرف لي القليل من الذرة غير المطبوخة، شأني شأن العبيد الذين معي في الحبس. لكن الحظ واتاني بأن نلت عطف زوجة أحد حراسي، وهي إمرأة من دارفور، فصارت تتسلم مني الذرة وتسلقها بليلة ثم تعيدها لي رغم عدم السماح لها باحضار أي طعام آخر فقد كان زوجها يخشي من معرفة كبير السجانين لذلك ومن ثم يخشي أن يثير غضب الخليفة عليه. كنت أرقد علي الأرض العارية متوسداً حجراً تحت رأسي وكانت خشونة تلك الوسادة الحجرية تسبب لي صداعاً مستمراً. وفي ذات مرة ، وبينما إستاقونا إلي النهر علي مسافة مائة وخمسين ياردة لنستحم، تناولت من علي الأرض بطانة سرج حمار، يبدو أن صاحبها قد ألقي بها لقدمها وعدم فائدتها له. خبأتها تحت ذراعي وحملتها معي ظافراً وفي تلك الليلة نمت وكأنني ملك يرقد علي وسادة من الوبر الناعم.

ثم بدأ وضعي في التحسن تدريجياً ولحد ما. فقد سمح لي كبير السجانين، والذي لم يكن يحمل لي غلاً أو كراهية، بالتحدث من وقت لآخر مع بقية السجناء كما قام بأزالة أحد

القيود الخفيفة من قدمي. لكن الحاجة فاطمة وأختها ظلتا في مكانهما طوال تلك الشهور الطويلة التي سجنت فيها.

وبعد أيام سمعنا ضجيجاً وحركة ملحوظة بين أوساط الحرس وأخبرني السائر شخصياً بأن الخليفة في طريقه لتفقد السجن. فطلبت منه أن ينصحني بطريقة مسلكي الذي أتخذه معه فنصحني بالإجابة علي كل أسئلته في الحال، وألا أتشكي بأية حال من أي شئ، وأن أظل منكسراً متذللاً في ركني من السجن. وجاء الخليفة عند منتصف النهار مصحوباً بأخوانه وبملازميه وبدأ في التجول ومشاهدة ضحايا عدالته. ويبدو أن السائر قد نصح جميع المساجين بنفس النصائح لأنهم جميعاً تصرفوا بنفس الهدوء والمسكنة. وأمر الخليفة بنزع قيود البعض منهم وإطلاق سراحهم. وأخيراً إقترب من ركني وباشارة ودودة سألني: «عبد القادر! إنت طيب؟» فأجبته: « آنا طيب ياسيدي» وبعدها واصل تفقده للسجن. لكن يونس ود الدكيم، الأمير الحالي لدنقلا وأحد أقارب الخليفة، ضغط علي يدي وهمس لي قائلاً: « تشجع ولا تستسلم لليأس وسيتحسن الحال قريباً».

ومنذ ذلك اليوم تحسنت ظروف سجني بدرجة ملحوظة لكن الوقت كان يمر ببطء شديد. إنتشر وباء الجدري في أم درمان. وأخذ المرض يكتسح يومياً المئات من السكان وقد إختفت من الوجود عوائل باكملها وأعتقد أن من ماتوا في هذا الوباء يفوق بكثير من ماتوا صرعي في العديد من المعارك. ومن الغريب حقاً أن معظم العرب الرحالة قد أصيبوا بالوباء، وسقط الكثيرون من حراسنا به ومات منهم عدد غير قليل. لكن السجناء نجوا جميعاً ولم أر طوال مدة السجن أحد زملائي مصاباً رغم أن معظمنا كان خائفاً وجلاً. وربما رأي الله برحمته أن عقابنا الحالي أكثر مما يحتمل وأعفانا من المزيد من العقاب.

توفرت لي الفرص الآن للتحدث مع لبتن والذي كان يفقد صبره يوماً بعد يوم. وبالفعل كان يشتكي بمرارة وبصوت عال حول المعاملة البائسة التي نلقاها الأمر الذي يزعجني كثيراً. حاولت بكل جهدي أن أهدئه لكن الحياة المزرية التي كنا نعيشها أثرت عليه لدرجة خوفي علي صحته من الإنهيار. وعن طريق حديثي الدائم معه نجحت في تهدئته لحدما. ورغم أنه لم يبلغ الثلاثين من عمره بالكاد إلا أن شعر رأسه وذقنه جللهما البياض أثناء السجن.

وذات يوم جاءتنا إشاعات بأن الخليفة سيزورنا فقمت بتجهيز خطابي له بعناية شديدة وفعل لبتن نفسي الشئ وكان من المتوقع أن يتحدث معي أولاً. وأخيراً جاءت اللحظة الحرجة: فعند دخول الخليفة لساحة السجن، وبدلاً عن أن يطلب كعادته إرسال السجناء واحداً بعد الآخر إليه، أمر باحضار عنقريب وضع له في الظل ثم أمر باحضار كل السجناء والجلوس في شبه دائرة من حوله. تحدث إلي عدد كبير منهم وأطلق سراح البعض منهم ممن سجنوا بأوامر مباشرة منه كما وعد بعضهم، ممن أشتكي من الأحكام التي أصدرها القاضي بحقهم، بالنظر في حالاتهم بنفسه. أما بشأني وشأن لبتن فلم يلتفت إلينا أو يعيرنا أي إهتمام.

نظر لبتن نحوي وهز رأسه لكنني وضعت إصبعي علي شفتي محذراً إياه من القيام بأي تصرف طائش. ثم سأل الخليفة كبير السجانين الساير: « أبقي شئ لم أعمله؟». كان الساير واقفاً وراء سرير الخليفة فرد عليه: « إنني تحت الخدمة ياسيدي» فجلس الخليفة مرة أخري ثم أدار عينه نحوي وكرر نفس كلمات المرة السابقة: «عبد القادر: أأنت بخير؟» فقلت له: « سيدي: إذا ما سمحت لي بالكلام فسأخبرك بحالي». كان جالساً علي راحته فأذن لي بقول ما أريد . بدأت بقولي: «إنني ياسيدي من رعايا قبيلة أجنبية وقد جئت إليك طالباً الحماية وقمت بتوفيرها لي. ومن الطبيعي أن يخطئ البشر، بل يخطئون تجاه الله وتجاه بعضهم البعض. ولقد أخطأت لكنني أتوب الآن وأعتذر عن كل أعمالي السيئة. إنني أعلن توبتي أمام الله ورسوله. أنظر إلي حالي وأنا مكبل بالحديد بين يديك. ألا تري أنني عاري وجوعان وأنني أرقد صابراً علي الأرض الجرداء لا أنتظر إلا أن يأتي وقت العفو عني؟

فإن رأيت ياسيدي أنه من الخير لي البقاء في هذا الوضع المحزن فأنني أسأل الله ليمنحني القوة لتنفيذ مشيئته. لكني أتوسل إليك الآن لإعادة الحرية لي».

كنت قد درست هذا الكلام ومحصته بعناية شديدة وقدمته بأفضل أسلوب ممكن ورأيت الآن أن ما قلته قد ترك إنطباعاً طيباً لديه. ثم إلتفت نحو لبتن وسأله: « وأنت يا عبد الله؟» فأجابه: « لا أزيد شيئاً علي ما قاله عبد القادر. أعف عني وأمنحني حريتي».

ثم إلتفت الخليفة نحوي وقال: « فلتعلم أنك منذ اليوم الذي جئت فيه من دارفور وجدتني أقوم بكل ما يمكن عمله لك، لكن قلبك كان أبعد ما يكون عنا. إنك أردت الإنضمام للكافر غردون وأن تحارب ضدنا. ولأنك رجل غريب فقد أبقيت علي حياتك وإلا لما كنت الآن علي قيد الحياة. وعلي كل حال، فأن كانت توبتك صادقة وحقيقية فسأعفو عنك وعن عبد الله. أنزع عنهما القيود يا الساير».

ثم قام الحراس بنقلنا. وبعد مجهود شاق، واستخدامهم للحبال، نجحوا أخيراً في نزع القيود عن قدمي. ثم أحضرونا للخليفة والذي كان جالساً علي العنقريب في إنتظارنا. طلب من الساير إحضار نسخة من القرآن ووضع المصحف علي فروة من الجلد ثم نادانا لأداء قسم الولاء الأبدي له. وضعنا أيدينا علي المصحف وأقسمنا أن نخدمه باخلاص في قادم الأيام. ثم نهض وأشار إلينا لنتبعه فذهبنا معه وقد غمرنا الفرح العظيم لإطلاق سراحنا بعد طول الحبس.

وبعد أن ساعده خدمه، علي إمتطاء حماره، أمرنا بالمشي بجانبه لكننا وجدنا صعوبة في اللحاق به فقد شنجت الشهور الثمانية من الحبس والقيود أقدامنا وأرجلنا حتي فقدنا عادة المشي. وعندما بلغنا منزله أشار علينا بالإنتظار في راكوبة باحدي جوانب السياج ثم تركنا. عاد بعد بضع دقائق وجلس بجانبنا ثم حذرنا بكل حزم للإلتزام بكل أوامره. ثم مضي قائلاً بأنه تسلم خطابات من قائد جيش مصر يشير فيها بأنه قد ألقي القبض علي كل أقارب المهدي بدنقلا وألقاهم في السجن وأنه يطلب مقابل إطلاق سراحهم أن يتم التبادل بينهم وبين كل الأسري الذين كانوا من قبل من النصاري وأضاف: «لقد قررنا الإجابة عليهم بأنكم صرتم من المسلمين وأنكم جزء منا وأنكم غير راغبين في استبدالكم بأناس هم أبعد ما يكونون عنا فكراً وعملاً، بالرغم من أنهم أهل المهدي، وأن بوسعهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤن» ثم أضاف قائلاً: «أم أنكم تريدون العودة للنصاري؟».وبهذه الكلمات أنهي حديثه.

قمت أنا ولبتن بالتأكيد له بأننا لن نتركه بمحض إرادتنا وأن كل مسرات الدنيا لن تنتزعنا من جانبه وأننا لمجرد وجودنا الدائم في حضرته قد تعلمنا أن نتصرف بما يعود

علينا بالخلاص الروحي. فعلت كذبتنا هذه فعلها عليه ووعدنا بتقديمنا للمهدي الذي وعده بالحضور لمنزله بعد الظهر، ومن ثم تركنا وذهب.

ولما كانت الراكوبة واقعة خارج السور، والذي يمر عبره الذين يسمح لهم بالدخول للخليفة، فأن عديداً من الأصدقاء الذين سمعوا بأطلاق سراحنا جاءوا لتهنئتنا، ومن بينهم ديمتري سجادة الذي جاء هذه المرة بدون مضغة تبغه المعتادة. كما جاءنا أيضاً أحد أصدقائي، المدعو بالشيخ، وعندما علم مني أننا سنقابل المهدي قام باسداء النصح بنية خالصة وشرح لي كيفية التصرف عند ما تأتي اللحظة الهامة تلك. كان المساء علي وشك الحلول عند ما عاد إلينا الخليفة وأشار إلينا أن نتبعه وقادنا إلي غرفة داخلية وجدنا المهدي فيها جالساً علي عنقريب. كان جسمه قد تضخم حتي أنني كدت ألا أعرفه. ركعنا أمامه وقمنا بتقبيل يده التي مدها لنا عدة مرات ومرات. وأكد لنا المهدي بأنه لايرغب إلا فيما يصلحنا وأن القيود علي الرجال لا تؤدي إلا إلي أثر مفيد ودائم لهم. وكان بهذا يقصد بأن مثل ذلك العقاب يؤدي بالرجل العنيد لتجنب أي أفعال سيئة في المستقبل ثم حول مجري الحديث إلي موضوع أقاربه الأسري بيد الإنجليز وإلي موضوع التبادل الذي إقترحوه، الذي رفضه تماماً، ثم أضاف بأبتسامة زائفة : « إنني أحبكم أكثر من إخواني ولهذا رفضت مبادلتكم» فرددت عليه بتاكيد حبنا وإخلاصنا له وقلت: «يا سيدي، إن الرجل الذي لايحبكم أكثر من حبه لنفسه فكيف يحب أي شئ آخر من صميم قلبه؟ (وكانت هذه العبارة منسوبة للرسول وقد أوصاني صديقي الشيخ بقولها له) فقال لي المهدي: « كرر ما قلت» ثم التفت نحو الخليفة وقال له: « استمع لما يقول». وعندما أعدت القول وضع يدي علي يده وقال: « لقد تكلمت بالحق. أحبني بأكثر مما تحب نفسك» ثم نادي لبتن كذلك وأمسك بيده وأمرنا أن نكرر قسم الولاء لأننا، كما قال، لم نلتزم بما أقسمنا له من قبل ولهذا يجب تجديد القسم. وبعد أن إنتهي ذلك أشار إلينا الخليفة بالإنسحاب فقبلنا ثانية يد المهدي وشكرناه علي إحسانه لنا ورجعنا لراكوبتنا في إنتظار أي تعليمات تصدر.

مر بعض الوقت قبل عودة الخليفة. وعندما رجع لنا سمح للبتون، بدون أي مقدمات، باللحاق بأسرته والتي كانت تقيم في خيمة ببيت المال ونادي أحد الملازمين ليريه الطريق

ثم إلتفت الخليفة نحوي وقال: « فلتعلم أنك منذ اليوم الذي جئت فيه من دارفور وجدتني أقوم بكل ما يمكن عمله لك، لكن قلبك كان أبعد ما يكون عنا. إنك أردت الإنضمام للكافر غردون وأن تحارب ضدنا. ولأنك رجل غريب فقد أبقيت علي حياتك وإلا لما كنت الآن علي قيد الحياة. وعلي كل حال، فأن كانت توبتك صادقة وحقيقية فسأعفو عنك وعن عبد الله. أنزع عنهما القيود يا الساير».

ثم قام الحراس بنقلنا. وبعد مجهود شاق، واستخدامهم للحبال، نجحوا أخيراً في نزع القيود عن قدمي. ثم أحضرونا للخليفة والذي كان جالساً علي العنقريب في إنتظارنا. طلب من الساير إحضار نسخة من القرآن ووضع المصحف علي فروة من الجلد ثم نادانا لأداء قسم الولاء الأبدي له. وضعنا أيدينا علي المصحف وأقسمنا أن نخدمه باخلاص في قادم الأيام. ثم نهض وأشار إلينا لنتبعه فذهبنا معه وقد غمرنا الفرح العظيم لإطلاق سراحنا بعد طول الحبس.

وبعد أن ساعده خدمه، علي إمتطاء حماره، أمرنا بالمشي بجانبه لكننا وجدنا صعوبة في اللحاق به فقد شنجت الشهور الثمانية من الحبس والقيود أقدامنا وأرجلنا حتي فقدنا عادة المشي. وعندما بلغنا منزله أشار علينا بالإنتظار في راكوبة باحدي جوانب السياج ثم تركنا. عاد بعد بضع دقائق وجلس بجانبنا ثم حذرنا بكل حزم للإلتزام بكل أوامره. ثم مضي قائلاً بأنه تسلم خطابات من قائد جيش مصر يشير فيها بأنه قد ألقي القبض علي كل أقارب المهدي بدنقلا وألقاهم في السجن وأنه يطلب مقابل إطلاق سراحهم أن يتم التبادل بينهم وبين كل الأسري الذين كانوا من قبل من النصاري وأضاف: «لقد قررنا الإجابة عليهم بأنكم صرتم من المسلمين وأنكم جزء منا وأنكم غير راغبين في استبدالكم بأناس هم أبعد ما يكونون عنا فكراً وعملاً، بالرغم من أنهم أهل المهدي، وأن بوسعهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤن» ثم أضاف قائلاً: «أم أنكم تريدون العودة للنصاري؟»وبهذه الكلمات أنهي حديثه.

قمت أنا ولبتن بالتأكيد له بأننا لن نتركه بمحض إرادتنا وأن كل مسرات الدنيا لن تنتزعنا من جانبه وأننا لمجرد وجودنا الدائم في حضرته قد تعلمنا أن نتصرف بما يعود

علينا بالخلاص الروحي. فعلت كذبتنا هذه فعلها عليه ووعدنا بتقديمنا للمهدي الذي وعده بالحضور لمنزله بعد الظهر، ومن ثم تركنا وذهب.

ولما كانت الراكوبة واقعة خارج السور، والذي يمر عبره الذين يسمح لهم بالدخول للخليفة، فأن عديداً من الأصدقاء الذين سمعوا بأطلاق سراحنا جاءوا لتهنئتنا، ومن بينهم ديمتري سجادة الذي جاء هذه المرة بدون مضغة تبغه المعتادة. كما جاءنا أيضاً أحد أصدقائي، المدعو بالشيخ، وعندما علم مني أننا سنقابل المهدي قام باسداء النصح بنية خالصة وشرح لي كيفية التصرف عند ما تأتي اللحظة الهامة تلك. كان المساء علي وشك الحلول عند ما عاد إلينا الخليفة وأشار إلينا أن نتبعه وقادنا إلي غرفة داخلية وجدنا المهدي فيها جالساً علي عنقريب. كان جسمه قد تضخم حتي أنني كدت ألا أعرفه. ركعنا أمامه وقمنا بتقبيل يده التي مدها لنا عدة مرات ومرات. وأكد لنا المهدي بأنه لايرغب إلا فيما يصلحنا وأن القيود علي الرجال لا تؤدي إلا إلي أثر مفيد ودائم لهم. وكان بهذا يقصد بأن مثل ذلك العقاب يؤدي بالرجل العنيد لتجنب أي أفعال سيئة في المستقبل ثم حول مجري الحديث إلي موضوع أقاربه الأسري بيد الإنجليز وإلي موضوع التبادل الذي إقترحوه، الذي رفضه تماماً، ثم أضاف بأبتسامة زائفة : « إنني أحبكم أكثر من إخواني ولهذا رفضت مبادلتكم» فرددت عليه بتاكيد حبنا وإخلاصنا له وقلت: «يا سيدي، إن الرجل الذي لايحبكم أكثر من حبه لنفسه فكيف يحب أي شئ آخر من صميم قلبه؟ (وكانت هذه العبارة منسوبة للرسول وقد أوصاني صديقي الشيخ بقولها له) فقال لي المهدي: « كرر ما قلت» ثم التفت نحو الخليفة وقال له: « استمع لما يقول». وعندما أعدت القول وضع يدي علي يده وقال: « لقد تكلمت بالحق. أحبني باكثر مما تحب نفسك» ثم نادي لبتن كذلك وأمسك بيده وأمرنا أن نكرر قسم الولاء لأننا، كما قال، لم نلتزم بما أقسمنا له من قبل ولهذا يجب تجديد القسم. وبعد أن إنتهي ذلك أشار إلينا الخليفة بالإنسحاب فقبلنا ثانية يد المهدي وشكرناه علي إحسانه لنا ورجعنا لراكوبتنا في إنتظار أي تعليمات تصدر.

مر بعض الوقت قبل عودة الخليفة. وعندما رجع لنا سمح للبتون، بدون أي مقدمات، باللحاق بأسرته والتي كانت تقيم في خيمة ببيت المال ونادي أحد الملازمين ليريه الطريق

بعد أن أكد له أنه سيوفر له كل عناية ممكنة. صرت الآن وحيداً مع الخليفة فقال لي: « أما بشأنك: فالي أين تريد الذهاب؟ وهل هناك من يعتني بك؟» شعرت بأنه يركز نظراته علي فأسبلت عيوني نحو الأرض وقد عرفت ما يرغب مني القيام به وأجبته: « ليس لي أحد يا سيدي بعد الله إلا أنت وتمكنك أن تقوم بما تراه صالحاً لي ولمستقبلي». فقال الخليفة: « لقد كنت أمل وأتوقع هذه الإجابة منك. ومن هذا اليوم يمكنك إعتبار نفسك كأحد أفراد عائلتي. وسأهتم بشئونك ولن تحتاج لأي شئ وأنت معي وسيكون من مصلحتك أن تتربي تحت ناظري ولكن بشرط هو أنك منذ هذا اليوم ستقوم بقطع أي صلة لك بأصدقائك ومعارفك السابقين وأن ترتبط فقط بأقاربي وبخدمي. وعليك أيضاً أن تطيع حرفياً أي أوامر تصدر لك مني. وسيكون واجبك أثناء النهار أن تبقي مع الملازمين المخصصين لخدمتي أمام باب منزلي. أما بالليل، وعندما أذهب لشأني، فيمكنك الذهاب إلي المنزل الذي سأخصصه لك. وعندما أتوجه لأي مكان فعليك ملازمتي دائماً. فأن ركبت عليك أن تمشي بجانبي وذلك حتي يحين الوقت الذي أراه مناسباً لأعطيك ركوبة تركبها. فهل توافق علي هذه الشروط وهل تعدني بتنفيذها بحذافيرها؟» فأجبته: « ياسيدي: إنني موافق بكل سرور علي شروطك. وستجدني راغباً بل خادماً مطيعاً لك وأرجو أن تكون لدي القدرة لممارسة مهامي الجديدة». فقال لي: « سيقويك الله وييسر لك كل سبل الصلاح». ثم نهض وأضاف بقوله: « يمكنك النوم هنا هذه الليلة وليحفظك الله حتي أراك ثانية صباح الغد».

صرت لوحدي الآن وشعرت أنني خرجت من سجن لأدخل سجناً آخرا! ولقد فهمت جيداً نوايا الخليفة. فهو لايرغب حقيقة في خدماتي لأنه لايثق في بحال من الأحوال. كما أنه لايزيد استخدامي ضد الحكومة أو ضد العالم المتمدن. إنه يريد فقط الإحتفاظ بي تحت السيطرة وربما يرضي غروره معرفته بأنه بمجرد أن يمد أصبعه ويشير إلي، فأن عبده ، الذي كان من كبار موظفي الحكومة، والذي سيطر يوماً علي قبيلته، تلك القبيلة التي ترتكز عليها كل مقومات سلطانه، يريهم وبقية قبائل الغرب بأنني أصبحت الآن خادمه الوضيع. وعلي كل حال فقد قلت لنفسي بأنني سأعمل ما في وسعي لتجنب غضبه علي ولن أعطيه أي فرصة لتنفيذ مآربه الشريرة تجاهي. فلقد فهمت سيدي جيداً وكانت ابتساماته أو

مداعباته ونظراته الودودة لاقيمة لها في نظري. وبالفعل لقد أخبرني بمثل هذا في يوم من الأيام. فقد قال لي مرة في سياق حديث بيننا: « يا عبد القادر: إن علي الرجل الذي يريد القيادة ألا تظهر علي ملامح وجهه أي نوايا سواء بالتلميح أو بالتصريح وإلا سيدرك أعداءه أو رعاياه السبيل لإحباط غرضه».

وعاد لي صباح اليوم التالي ثم إستدعي أخاه يعقوب وأشار إليه أن يريني مكاناً بالجوار كي أشيد عليه أكواخي وأضاف أن ذلك المكان يجب أن يكون بالقرب من مسكنه ما أمكن. ولما كانت كل الأماكن المجاورة له قد شغلها أقارب الخليفة فقد أعطوني قطعة من الأرض لاتبعد بأكثر من ستمائة ياردة من بيت الخليفة وبالقرب من محل إقامة يعقوب.

ثم نادي الخليفة كاتبه وأراه خطاباً معنوناً لقمندان الجيش البريطاني يشير فيه إلي أن جميع الأسري الأوروبيين قد إعتنقوا الإسلام بمحض إرادتهم وأنه لا رغبة لديهم للرجوع لبلادهم وأراد مني أن أوقع هذه الوثيقة.

ثم سألني فجأة: «ألست مسلماً؟ أين إذن تركت زوجاتك؟» لقد كان هذا سؤالاً فظاً. فقلت له: « إن لدي ياسيدي إمرأة واحدة وقد تركتها في دارفور وقد علمت أنه قد ألقي القبض عليها، مع كل خدمي، بأمر من السيد محمد وهم الآن في بيت مال الأبيض». فسألني الخليفة مستفسراً: « هل زوجتك من نفس جنسك؟» فأجبته: « لا. هي دارفورية. وقد قتل والديها وأقاربها في المعركة ضد السلطان هارون. أما هي وكثيرون غيرها فقد أسرهن رجالي وقد أعطيت معظمهن لخدمي وجنودي ليتزوجوهن. أما هذه اليتيمة فقد كانت وحيدة وهي الآن زوجتي». فسألني: « هل لديكم أي أطفال؟» وعندما أجبته بالنفي قال لي: « الرجل الذي لا أطفال له مثله مثل شجرة الشوك التي لا تحمل ثماراً. وحيث أنك تنتمي الآن إلي عائلتي فسأعطيك بضع زوجات حتي تنعم معهن بالعيش الرغيد».

شكرته لكرمه وعطفه نحوي ورجوته أن يؤجل هديته لي حتي أنتهي علي الأقل من تشييد أكواخي لأنني، كما علقت له، فأن هذا الدليل الواضح لكرمه يجب ألا يتعرض لأنظار الناس. ولكي يعوضني الخليفة عن ممتلكاتي التي أخذها أبو عنجة فقد أمر فضل المولي بتسليمي الأغراض التي خلفها البائس أوليفر باين. كانت أغراضه المسلمة لي تتكون

من جبة عتيقة وعباءة عربية ممزقة ونسخة من القرآن باللغة الفرنسية. وقد أبلغني فضل المولي بأن بقية الأغراض قد ضاعت بمرور الوقت. في نفس الوقت وجه الخليفة بأعادة الأموال التي أخذت مني عند ما تم سجني والتي أودعت في بيت المال. وكانت تصل لحوالي الأربعين جنيهاً وبضعة قطع ذهبية وبعض الزمامات الذهبية التي توضع علي الأنوف والتي جمعتها لغرابتها. وسلمني أحمد ود سليمان كل هذه الأشياء.

أصبحت الآن قادراً علي العمل في بناء أكواخي وحتي إكمال تشييدها كنت أقيم في بيت الخليفة. كلفت خادمي القديم سعد الله النوباوي، والذي يتميز بالكفاءة من دون بقية خدمي، بالاشراف علي تشييد مسكني والذي سيتكون في الوقت الحالي من ثلاثة قطاطي وسور محيط بها. كنت أقوم منذ الصباح الباكر وحتي ساعة متأخرة من الليل بالبقاء أمام باب سيدي الخليفة. وكلما أراد الذهاب في مشوار بسيط أو الركوب في رحلة طويلة،كنت مضطراً للقيام بمرافقته حافي القدمين. وخلال الأيام الأولي، وعندما بدأت قدماي تمتلئان بالجروح والدمامل، سمح لي بأستخدام صندل عربي خفيف، وجه بصنعه لي. وبالرغم من أن الصندل حماني ضد الأحجار والظلط إلا أنه كان من الصلابة والخشونة بحيث سلخ جلد قدمي. ومن وقت لآخر كان الخليفة يدعوني لتناول الطعام معه وكان كثيراً ما يرسل ما يفيض عن طعامه ليتناوله كبار ملازميه والذي كنت معتبراً واحداً منهم الآن. وعندما يأوي إلي فراشه ليلاً كنت أعود إلي مسكني وهناك أمدد أطرافي المتعبة علي العنقريب وأنام حتي الفجر وحينها أضطر للعودة وإنتظار الخليفة أمام باب مسكنه ثم أذهب معه لأداء صلاة الصبح.

وفي تلك الأثناء تم إبلاغ الخليفة بأن مسكني قد أصبح جاهزاً. وعندما رجعت لمنزلي مساء ذات يوم أبلغني خادمي القديم سعد الله بأن شابة من الأرقاء، متلفعة بثيابها، قد أرسلت لمنزلي وهي الآن قابعة به. أشرت لسعد الله بايقاد أحد المصابيح وأن يريني الطريق إليها فقادني إلي حيث وجدت المسكينة ممدعة علي برش من الزعف. وعندما سألتها عن ماضي حياتها أجابتني بصوت عميق لايحمل فألا بالمستقبل بأنها نوباوية

تنتمي لإحدي القبائل العربية بجنوب كردفان وأنه قد تم أسرها وإرسالها لبيت المال ومنه تم إرسالها لي اليوم بواسطة أحمد ود سليمان. وبينما كانت تتحدث نزعت غطاء رأسها المعطر الذي كان يغطي كل وجهها، وهي عادة الأرقاء من النساء عند مخاطبة أسيادهن، وكشفت عن نحرها وكتفها العاري.

أشرت لسعد الله بتقريب المصباح إليها وعند ذاك إضطررت لإستجماع كل شجاعتي وحضور ذهني حتي لا أسقط رعباً. فمن وجهها القبيح الأسود، حملقت في عينان صغيرتان وأنف ضخم مفلطح بدت من تحته شفتان غليظتان. وعندما ضحكت كادت شفتاها أن تصلا لأذنيها. مما جعل من ملامح أساريرها شيئاً لم أر مثله من قبل. وكان رأسها ملتصقاً بجسمها الضخم عن طريق عنق مثل أعناق كلاب البلدق ومع كل هذا تجرأت هذه المخلوقة لتقول لي أن أسمها مريم! طلبت من سعد الله في الحال أن ينقلها لغرفة أخري وأن يعطيها عنقريباً ترقد فيه.

إذن هذه هي هدية الخليفة الأولي لي. لم يعطني حصاناً أو حماراً أو حتي حفنة من النقود التي ربما تنفعني بعض الشئ. ولكن أن يقوم باهدائي إحدي الرقيقات والتي يعلم تماماً أنها، حتي لو كانت من حسان الرقيق، لن تكون من إهتماماتي حيث أنها، ناهيك عن وجودها غير المرغوب فيه، ستكون عبئاً علي لإطعامها وكسوتها وغيرها من النفقات التي لا أود الدخول فيها. وعندما رآني الخليفة عقب صلاة صبح اليوم التالي سألني إن كان أحمد ودسليمان قد نفذ تماماً ما أمره به فأجبته: « نعم. لقد نفذ أمرك في الحال» وبعد ذلك قمت باعطائه وصفاً دقيقاً لهديته لي.

غضب الخليفة من تصرف أحمد ود سليمان والذي، كما أكد لي، لم يقم بتنفيذ أوامره له كما يجب، بل أنه خالف تعاليم المهدي نفسه بذلك.

جنت علي صراحتي في وصف تلك الجارية وندمت علي ذلك. لأنه تم إرسال جارية أخري لي مساء اليوم التالي. كانت أصغر سناً وأقل بشاعة من سابقها، وقد إختارها لي الخليفة بنفسه. وقمت بدوري بتسليمها لمراحم سعد الله الوفي وعنايته.

وبعد أن لم يعد هناك أي خوف من عدو خارجي، شرع المهدي وخلفاؤه وأقاربهم ببناء منازل تناسب إحتياجاتهم ووضعهم الجديد. وتم ترحيل الأعداد الكبيرة من الشابات وصغار النسوة، الذين كن قد أسرن ووزعن عليهم بعد سقوط الخرطوم، إلي تلك الأماكن الجديدة المعزولة عن أنظار الغيورين والحساد من المعارف والأصدقاء للتمتع بهن في طمأنينة وهدوء.

ومن البديهي أن المهدي وخلفاءه وأقاربهم كانوا حريصين علي ألا يعرف الناس أن معظم غنائم الخرطوم قد أصبحت في أيديهم. فقد كان في هذا نقض صريح لتعاليم السيد الولي والذي كان دائماً وأبداً يحث علي الزهد وعلي نبذ المباهج الدنيوية. شرعوا في توسيع مساكنهم المحاطة بالأسوار في إنتظار ملئها أكثر مما ملئت من الثروات والغنائم المتوقع ورودها من المديريات التي سيتم الإستيلاء عليها بعد الآن.

لكن المهدي سقط تحت وطأة المرض فجأة. ولبضعة أيام لم يخرج للصلاة في المسجد. لم ينتبه أحد لغيابه عند بدئه، لأنه كان قد كرر مراراً وتكراراً من قبل بأن النبي قد وجهه بفتح مكة والمدينة وبيت المقدس وأنه أخبره بأنه سيموت في الكوفة بعد حياة طويلة وحافلة بالأمجاد لكن الوعكة التي أصابت المهدي لم تكن عادية. فقد أصيب بحمي التيفوس القاتلة، وبعد ستة أيام من بداية مرضه أخذ اليأس يملأ قلوب أقاربه الممارضين له من شفائه. وكان سيدي الخليفة يراقب بالطبع، وبأهتمام بالغ، مجريات المرض ولم يبارح سرير مرض المهدي ليلاً أم نهاراً. أما نحن الملازمون والحرس الشخصي للخليفة فقد بقينا في أماكننا أمام باب داره بدون أي هدف أو غاية.

وفي مساء اليوم السادس، طلب من الجموع المحتشدة أمام منزل المهدي ومن الذين بالمسجد أن يقوموا بالدعاء لله ليشفي الولي المريض والذي دخل الآن في مرحلة الخطورة البالغة. وكانت هذه المرة الأولي التي يتم الكشف فيها عن طبيعة المرض الخطير الذي يعاني منه المهدي ويعلن للجمهور. وفي صباح اليوم السابع تم الإبلاغ عن تدهور حالته ولم يكن هناك شك في أنه دخل مرحلة الإحتضار.

ووصل المرض الآن إلي طور بالغ السوء ووقف الخلفاء الثلاثة وأقرب المقربين للمهدي وأحمد ود سليمان ومحمد ود بشير (أحد كبار موظفي بيت المال المسئول عن شئون بيت المهدي) وعثمان ود أحمد والسيد مكي (كان سابقاً أشهر شيوخ الدين بكردفان) وبعض من أقرب خلصائه، والذين منحوا إذناً خاصاً للدخول لغرفة مرضه. كان يفقد الوعي مرة بعد أخري ولما شعر بأقتراب نهايته قال بصوت خفيض للذين من حوله: « الخليفة عبد الله خليفة الصديق تم تنصيبه بواسطة الرسول ليخلفني. وهو مني وأنا منه. وكما أطعتموني ونفذتم كل أوامري، فأن عليكم معاملته بالمثل. فليرحمني الله!» ثم استجمع كل قواه، في مجهود أخير، وكرر عدة مرات الشهادتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ثم وضع يديه علي صدره ومدد أطرافه ومات.

وحول جثمانه، الذي لم يبرد بعد، أقسم أتباع الراحل المهدي قسم الولاء للخليفة عبد الله. وكان أول من وضع يده علي يد الخليفة هو السيد المكي الذي أطري عليه وأعلن ولاءه له وقام الخليفتان بحذو نهجه وكذلك بقية من كانوا متجمعين. كان من المستحيل الإبقاء علي موت المهدي سراً ومن ثم تم إعلان النبأ للحشود التي بالخارج وفي نفس الوقت منع منعاً باتاً البكاء والنواح عليه. كما طلب من الجميع أيضاً مبايعة الخليفة. ثم نهضت كبيرة زوجات المهدي، المسماة ستنا عائشة أم المؤمنين، والتي كانت قابعة في ركن من أركان الغرفة متلفعة بثيابها، والتي شاهدت وفاة مولاها وزوجها، نهضت لتحمل الأنباء المحزنة بوفاته لبقية نسائه، وعملت علي مواساتهن ومنعتهن عن العويل والبكاء بصوت عال عليه. لكن معظم هؤلاء النسوة الطيبات إبتهجن سراً لوفاة مولاهن وزوجهن الذي ألحق بالبلاد البؤس الفظيع والذي استدعاه الله للمثول أمام كرسي عدالته، قبل أن يستمتع كلية بقطف ثمار نجاحه.

ورغماً عن التعليمات المشددة والمتكررة لعدم البكاء عليه بصوت عال فقد انطلق العويل والصراخ من كل البيوت تقريباً عند وفاة المهدي المنتظر والذي، كما أعلن، قد فارق طوعاً هذه الحياة الدنيا شوقاً للقاء الله.

الباب الحادي عشر

بواكير حكم الخليفة عبد الله

«إعدام ترحو – حصار سنار وكسلا – رحلتي لأبي حراز – خطتي غير العملية للفرار – الخليفة يهدي زوجة لي – تمرد الجنود السود في الأبيض – موت الأمير محمود – أبو عنجة يعتقل خالد ويوثقه بالقيود – حملات جبال النوبة – مصاعب لبتن، وعمله في ترسانة الخرطوم – بداية المشاكل مع الحبشة – موت كلوتز.»

لم يحدث أمر ذو بال في دارفور منذ مغادرتي لها، فقد ثبت خالد دعائم المهدية في أنحاء المديرية وأرسل القوات والأمراء إلي كافة أرجائها لكي يحكم قبضته ونفوذه فيها. وكان ضابطي القديم، عمر ود ترحو، قد أبدي حماساً شديداً للنظام الجديد لكنه عندما علم بوفاة المهدي حاول القيام بعمل فاشل للإستقلال بنفسه، لكنه سقط ضحية لمخطط نصبه له خالد بعناية والذي إنتهي بأحضاره للفاشر وقطع رأسه.

وكان أبو عنجة الآن في كردفان، التي خضعت تماماً للمهدية بأستثناء مناطق الجبال الجنوبية، والتي يقطنها أناس ينظر إليهم كعبيد يرفضون أداء الجزية مما أدي لصدور أوامر بتهجيرهم لأم درمان.

ولما رفضوا الإنصياع لتلك المطالب، تم إرسال أبي عنجة لهم بتعليمات مفادها إجبارهم علي الخضوع للمهدية، وتموين جيشه الضخم، وجلب أكبر عدد من العبيد منهم. لكنه، وبعد أن خسر عدداً كبيراً من رجاله وكمية من الذخائر، نجح لحد ما في تنفيذ تلك التعليمات رغم أن عدداً كبيراً من سكان الجبال واصلوا الدفاع عن أنفسهم بشجاعة فائقة، وهم متحصنون في جبالهم الشاسعة، وحافظوا علي إستقلالهم. لذا، وبأستثناء هذا القسم الصغير من الأهالي، فقد أصبح كل غرب السودان، من ضفاف النيل الأبيض وحتي حدود وداي، معترفاً به ضمن نفوذ المهدي.

أما في الأقاليم الشرقية، فقد واصل حكام كسلا وسنار دفاعهم عن مراكزهم . وعندما أدركت الحكومة المصرية حرج الموقف، إلتمست من الملك يوحنا، ملك الحبشة، التعاون في إنقاذ حاميات القلابات والجيرة، وسنهيت وكسلا وإحضار جنودها إلي مصوع. لكن حاكم كسلا تعلل بأن جل حامية المدينة مكون من أهالي المنطقة ومن ثم فإنه لن يستطيع دفعهم للمغادرة والتوجه لمصوع. في تلك الأثناء قام المهدي بإرسال إدريس ود عبد الرحيم والحسين ود الزهراء مع إمدادات من الجند للتعجيل باسقاط المدينة. لكن الملك يوحنا نجح في إنقاذ حاميات سنهيت والجيرة والقلابات وتوصيلهم إلي مصوع وبذا صار مثلث سواكن – بربر – كسلا وكل القبائل العربية التي تقطنه من غلاة أنصار المهدي. وكان قد تم من قبل تعيين عثمان دقنة أميراً علي تلك الأقاليم، بينما أمر محمد الخير للقيام من بربر لإحتلال دنقلا بقواته من الجعليين والبرابرة وذلك بعد إنسحاب القوات البريطانية منها.

كان هذا بأيجاز حال السودان عند ما أصبح الخليفة عبد الله حاكماً له. لذلك لم يجد بدأ من دعوة قبائل الغرب للتوحد وذكرهم بأنهم غرباء عن وادي النيل. فمن المعروف أن أولاد البلد وخاصة البرابرة والجعليين وسكان الجزيرة لم يحبذوا مجئ الخليفة وقبائل الغرب لهم بينما يختلفون عنهم تماماً سلوكاً وفكراً وطبعاً. وشاهدوا في فزع وخوف كيف يمسك الحاكم الجديد بدفة الحكم وإعتماده التام علي أهله ومواطنيه في تنفيذ أوامره ورغباته.

وبدأ الخليفة أول خطواته بطرد أحمد ود سليمان من عمله كمسئول عن بيت المال لكرهه له، وتعيين إبراهيم ود عدلان، من قبيلة الكواهلة التي تسكن علي النيل الأزرق، والذي قضي سنوات طوال من حياته كتاجر في كردفان، بديلاً له حيث كان يحظي برضاء الخليفة ومودته.

وطلب من عدلان أن يقوم بفتح دفاتر لحساب الوارد والمنصرف وأن يحفظ تلك الدفاتر بصورة تمكن الخليفة، عند طلبه لذلك، من معرفة الوضع المالي بالضبط. كما أمره أيضاً بالإحتفاظ بقائمة دقيقة لكل الذين استلموا أموالاً والذين يصرفون المعاشات.

***

بعد وفاة المهدي مباشرة جاء ما يفيد بفشل الهجوم علي سنار وصد عبد الكريم عنها. قام الخليفة علي الفور بإرسال عبد الرحمن النجومي لاستلام القيادة العليا بدلاً عن عبد الكريم. وفي أغسطس ١٨٨٥ استسلمت الحامية لذلك المحارب الجسور. وكالعادة كان سقوط المدينة إيذاناً ببدء سلسلة من أعمال البطش والطغيان. وتم إرسال عدد من سكان المدينة للخليفة ومن بينهم كل الشابات الجميلات وبنات موظفي الحكومة السابقين. احتفظ الخليفة لنفسه بالبعض منهن وقام بتوزيع الأخريات علي أمرائه.

ثم شرع الخليفة في تشديد قبضته علي الحكم. ولما كان يعرف أن عبد الكريم قد يعتبر منافساً قوياً له، فقد استدعاه لأم درمان بكامل جيشه وبعدها قام، بناء علي خطة أعدت بعناية وساعده وأغراه بتنفيذها الخليفة علي ود حلو، بجعل كل من عبد الكريم والخليفة شريف يقومان بتسليم جنودهما السود والسلاح والذخيرة لأخيه يعقوب. وبهذا تمكن من شل قوتهم تماماً فأصبحوا من الناحية العملية لايشكلون أي خطر عليه.

وبينما كانت تلك الأحداث الهامة تشبع في العاصمة وصلت أنباء إستسلام كسلا، وأن عثمان دقنة منهمك في حرب ضد الحبش الذين يقودهم الرأس ألولا. ورغم إنتصار الأحباش عليه وإرجاعه لكسلا، إلا أنهم لم يقوموا بمطاردته بل عادوا إلي بلادهم.

وإتهم عثمان دقنة المدير السابق لكسلا، أحمد بك عفت، بأنه هو الذي أغري الحبش لحمل السلاح ضده، وأنه كان علي إتصال بهم. ورغم عدم وجود أساس لتلك التهم إلا أنه أمر بتقييده مع ستة من موظفيه السابقين في كسلا من أيديهم، ووراء ظهورهم، وضربوا بالرصاص كالمجرمين.

كان الخليفة يدرك تماماً بأن أي فعل يقوم به ضد باقي الخلفاء سيؤدي إلي إثارة إستياء أقارب المهدي، والذين كان علي غير وفاق معهم الآن، لكن هذا الأمر لم يعد ذا أهمية له فقد كان مصمماً علي استخدام كل إمكانياته، بما في ذلك اللجوء للعنف عند الضرورة، لفرض إرادته وأوامره مهما كانت. لكنه من الناحية الأخري لم يكن راغباً في معاداة الرأي العام أو إغضاب العدد الضخم من أنصار المهدي والذين، من فرط حبهم

للمهدي، يظهرون مودة خاصة لأقاربه، لهذا لم يتجرأ بتوجيه إتهامات بالعداء أو الظلم والجور لهم. بل عمل علي غمرهم بالهدايا وبعدد كبير من نساء الرقيق كما أهدي للخليفة شريف عدداً من أفضل الخيول والبغال ووزع علي أتباعه عدداً من العبيد. وقد عني خاصة بجعل تلك الهدايا معروفة للناس والذين قاموا بدورهم بالثناء علي الخليفة وعلي شهامته، بل مضوا لأكثر من ذلك بتدبيج المدائح والأغاني التي تمجد عدالته وحسن معاملته لهم.

ورأي الخليفة أن بقاء الأقاليم الطرفية تحت حكم أقرب المقربين للمهدي سوف يشكل خطراً علي مركزه. لذلك لم يضع وقتاً للقيام بارسال أقاربه إلي كردفان ودارفور لإستلام الحكم. ويطلب من الأمير يونس ود الدكيم تقرر قيامي مع يونس إلي سنار. وقبل رحيلي أستدعاني الخليفة وقال لي: « لا زلت ألح عليك لأن تخدمني بأخلاص فأنني أنظر إليك كابني وأن قلبي يميل إليك. وكتاب الله المقدس، القرآن، يبشر المخلصين بالخير والنعيم لكنه ينذر الخونة بغضب الله وانتقامه. فيونس لايتمني لك إلا الخير، وسيصغي إلي ما تقوله له، فاذا أراد القيام بشئ تري أنه لن يكون في صالحه فعليك تحذيره من مغبة القيام به فهو مولاك علي كل حال. وقد أخبرته بأنني أعتبرك كابن من أبنائي وسيولي عناية لما تقول». فقلت له: « سأبذل جهدي دائماً للتصرف وفقاً لأوامرك. ولكن لأنني مولي ليونس. ومن الطبيعي أن أقوم بأداء مايعتقده صائباً، فأرجو منك ألا تسئ الظن بي أو تحملني مسئولية أي شئ قد يحدث ولايتوافق مع مرادك». فقال لي: « إن مهمتك هي في إعطاء النصح إذ لاتمتلك القدرة علي التنفيذ. فاذا ما استمع لرأيك فهذا حسن. أما إذا لم يهتم بذلك فأنه سيتحمل المسئولية عن أي قرار خاطئ».

ثم تحول بالنقاش إلي شئون دارفور وغيرها من مناطق السودان. وأستمر حوارنا لوقت طويل وكنت علي وشك الإستئذان منه ليسمح لي بالعودة عندما أشار لأحد خصيانه، الذي كان واقفا بالقرب منا، وهمس ببضع كلمات في أذنه. ولأنني أعرف مولاي جيداً، فقد غمرني شعور بالتشاؤم من جراء ذلك . ثم قال لي الخليفة: « لقد وجهتك من قبل بألا تصطحب معك أياً من أهل بيتك فقد جاءوا للتو من رحلة طويلة ولابد أن يكونوا مرهقين،

لذا لا أود أن أزيد من إرهاقـهم. فيونس سيوفر لك خادماً. لكنني سأعطيك زوجة ترعي شئونك وتعتني بك إن مرضت. وهي جميلة وليست قبيحة مثل تلك التي أرسلها لك أحمد ود سليمان». ثم إبتسم وأشار إلي المرأة التي وصلت للتو للإقتراب أكثر منا فجاءت ونزعت خمارها. ألقيت نظرة عليها، وبالرغم من لونها الداكن فقد كانت جميلة جداً. وأضاف الخليفة: « لقد كانت زوجة لي. وهي طيبة وصبورة. ولكن لدي عدة زوجات غيرها ولهذا عتقتها ويمكنك إعتبارها ملكاً لك».

غمرني الإرتباك وظللت طول الوقت أقلب في ذهني كيفية قيامي برفض هديته بدون أن أجرح شعوره. وقلت له: « أرجوك يا سيدي أن تسمح لي بالحديث بصراحة» فقال: «بالتأكيد. فأنت في بيتك الآن. تحدث!» فبدأت حديثي علي عجل وقلت له: «إنني حقاً في بيتي ولا أخشي شيئاً. لكن هذه السيدة كانت زوجة لك ولها، بالتالي، الحق في أن تعامل معاملة خاصة من أجلك . هذا بالطبع أمر هين، ولكن ياسيدي كيف أكون خادماً لك ثم أخذ زوجتك؟ وأكثر من ذلك، فأنك تخبرني بأنك تنظر لي كابن لك» ثم طأطأت رأسي ونظرت إلي الأرض وقلت له: «لايمكنني قبول هذه الهدية». وبقيت في ذلك الوضع في إنتظار جوابه بقلق شديد. ثم قال لي، بعد أن أشار للمرأة، التي ظلت واقفة بالقرب منا، للذهاب: «إن كلماتك طيبة وأنا أعفو عنك» ثم قال للخصي: « يا ألمظ: أحضر لي جبتي البيضاء». وعندما أحضرها ناولني لها قائلاً: «خذ هذه الجبة التي كنت ألبسها كثيراً والتي باركها لي المهدي شخصياً* وسيغبطك عليها المئات والألوف من الناس فحافظ عليها فستحل عليك البركة بها أيضا».

فرحت بهذه الهدية وقبلت يده بحرارة عندما مدها لي. لكنني في قرارة نفسي كنت فرحاً بالتخلص من تلك المرأة والتي كانت ستشكل عبئاً علي إضافة للمزيد من النفقات لذا كانت الجبة بديلاً ممتازاً عنها ثم استأذنت الخليفة في الخروج وخرجت حاملاً هديتي الثمينة.

* لسوء الحظ كانت الجبة واسعة وطويلة، لذا لم استطع ارتدائها عند فراري.

حدد يونس ذلك اليوم لتحركنا. وقبل مغادرتنا استدعاني الخليفة مرة أخري وكرر لي في حضور يونس، مرة أخري، أن أكون مخلصاً ومطيعاً.

وعند المساء غادرنا أم درمان علي ظهر الباخرة بوردين. وفي اليوم الثالث وصلنا ضفاف النيل الأزرق ورأينا سنار علي البعد.

بشمال ود العباس مباشرة يوجد شريط من أرض رملية مرتفعة وتم إختيارنا لهذه البقعة لإقامة معسكرنا فقد كانت المنطقة المجاورة منخفضة ولاتصلح للسكن خلال فصل الأمطار. تركز كل تفكيري الآن في كيفية الهروب. ولكن لما كان معظم الأهالي من الموالين تماماً لحكومة الخليفة، فقد كان من الصعب أن أجد من أثق فيه. وفور وصولنا لود العباس تسلمت خطاباً من الخليفة جاء فيه أنه بلغته أنباء بوصول زوجتي إلي كروسكو وأنها تقوم هناك بترتيبات فراري. ونصحني بترك مثل تلك الأفكار وأن أتمسك بالدين. تسلم يونس أيضاً خطاباً بنفس المضمون. وتحت ذريعة إبلاغ الخليفة بأحوال سنار، أمرني بالعودة لأم درمان. وهكذا فشلت كل خططي للهروب وبعد بضعة أيام عدت مرة أخري للمثول أمام سيدي ومولاي الخليفة. بدأ الخليفة حديثة بالخطاب الذي تسلمه من بربر فأكدت له أنه لو كان ذلك الخطاب حقيقياً فلابد أن من كتبه لايريد بي إلا شراً، أو أن هناك خطأ ما. ولإثبات ذلك أخبرته بأنني لم أتزوج في حياتي وبالتالي فليس هناك من زوجة تتوق للقائي. وإذا ما جاء أي أحد لأم درمان وحاول إغرائي علي الهروب فأن أول ما سأقوم به هو أن أبلغ الخليفة.

أكد لي أنه لم يصدق تلك الإشاعة ثم خيرني بين البقاء معه أو الرجوع ليونس. فطنت لنواياه وأخبرته بأن شيئاً في هذه الدنيا لن يغريني بتركه ثانية وأنني أعد الأيام التي أقضيها معه كأسعد الأيام في حياتي. ورغم سروره لإطرائي إلا أنه إنتهز الفرصة ليذكرني بكل صرامة بأن أكون صادقاً ومخلصاً وألا أقوم بأي إتصال مع أحد خارج نطاق أهل بيته ثم أنهي الحديث بأن أمرني بأتخاذ مكاني المعتاد أمام باب منزله.

وعندما رجعت عائداً، أعدت التفكير فيما حدث ولم يعد لدي أي شك في أن إشتباهه في نواياي لم تنبت جذوراً فقط، وإنما بدأت تترعرع وتنمو.

كانت قوة الأبيض في هذا الوقت تشتمل علي حوالي مائتين من الجنود السود، معظمهم من القدامي، وقد إزدادت أعدادهم بأنضمام جزء من حامية دارا السابقة لهم. كان معظمهم من أهالي جبل الداير، الذين يكنون عداء دائماً للمهدويين الذين أسروهم من قبل واستخدموهم كالعبيد في بناء أكواخهم. وكانوا ساخطين من هذه المعاملة وصمموا علي إستعادة حريتهم بالقوة. وكان من حسن حظهم أن الأمير السيد محمود كان غائباً في أم درمان. لذا وبضربة جريئة تمكن المتمردون في الإستيلاء علي ترسانة السلاح وتسلحوا تماماً وبعد مقاومة عنيفة خرجوا من المدينة متوجهين صوب جبال النوبة. وعندما وصلت هذه الأخبار لام درمان سارع محمود بالعودة وقاد جنوده بنفسه وتحرك لمواجهة المتمردين لكن محاولته لإقتحام حصنهم المنيع باءت بالفشل وإنتهت بمقتله ومصرع عدد كبير من جنوده.

ولم يكن الخليفة جاهلاً بتنامي نفوذ محمد خالد في دارفور أو استقلاليته. وكان يعلم تماماً أن صلة القرابة التي تربط خالد بالمهدي تجعله متعاطفاً بقوة مع الخليفة شريف وبالتالي صمم الخليفة علي حرمانه من كل مصادر قوته فأستدعي خالد للحضور بكل جيشه لأم درمان تحت زعم توسطه لتحسين علاقة الخليفة مع الخليفة شريف وآل المهدي. وقد إنصاع خالد للأمر، وعندما وصل لبارا وجد نفسه محاطاً بقوات أبي عنجة الرهيبة. وقد كان الخليفة قد أمره بأستلام كل جيوش خالد وضمها إلي جيوشه ثم يقوم بعد ذلك باقتحام معاقل المتمردين في جبال النوبة بها. انطبق الشرك علي خالد ولم يجد بداً من التسليم وتم تقييده بالسلاسل وأرسل لأم درمان. وتمت مصادرة كل ممتلكاته وبقي في السجن لعدة شهور ثم عفي عنه ولكن بعد عزله عن إدارة دارفور وتوليتها لابن عم الخليفة عثمان ود آدم.

نجحت حملة أبي عنجة علي المتمردين نجاحاً تاماً وتمكن من قتل كل قادتهم تقريباً واسترقاق أعداد من السود التعساء الذين كانوا قد تمردوا معهم.

وعلمت من أحد التجار، الذي وصل مؤخراً من كردفان، بأن صديقي جوزيف أورفالدر قد غادر الأبيض وأنه علي وشك الوصول لأمدرمان. ولعلمي بصعوبة لقائي معه فقد سررت

لكون أحد بني جلدتي سيكون قريباً مني. كنت أجلس أمام باب مولاي دائماً في انتظار تعليماته ومن وقت لآخر كان يتحدث معي بعطف وحنو ويدعوني لتناول العشاء معه. ولكن، وفي أوقات أخري، وبدون أي سبب معروف، كان يتجاهلني لأيام عديدة ولا أجد في نظراته لي سوي الإزدراء والإمتهان. وقد يعزي ذلك لطبيعته الشديدة التقلب. ولم أجد بداً من التعود علي ذلك إذ ربما تكون هذه المعاملة جزءاً من التربية التي أمر بها. وفي علاقتي بزملائي كنت أظهر تبلدي وعدم إكتراثي بما يجري في البلاد، وبذلك أتجنب إعطائهم أي سبب يزيد من عدم ثقة الخليفة فيني، فقد كنت أعلم أنه كثيراً ما يستفسرهم عني وعن تصرفاتي. لكنني في حقيقة الأمر كنت أرقب كل الأحداث، بقدر ما يسمح لي وضعي كملازم، وأحتفظ بها في ذاكرتي حيث أنني ممنوع من الكتابة ولو لسطر واحد. لم يكن الخليفة يسهم إلا قليلاً في الصرف علي شئوني ولا يوصي إلا من وقت لآخر لإمدادي ببعض أرادب من الذرة أو بكبش من الضان أو ببقرة.

وقد إعتاد إبراهيم عدلان، والذي كنت أعرفه منذ أيام الحكومة السابقة، إرسال مبلغ يتراوح بين عشرة إلي عشرين ريالاً شهريا لي، كما كان بعض التجار والموظفين، الذين كانت حالتهم أفضل مني، يرسل لي سراً بعض المال أيضاً. وبذلك تمكنت من تسيير شئون حياتي ولم أعاني من نقص في ضرورات الحياة إلا أحياناً. وبالمقارنة بصديقي لبتن فقد كنت أحسن حالاً منه رغم أن الخليفة كان قد وعده بالمساعدة لكنه لم يعر التفاتاً بعد ذلك لاحتياجاته. لكن لبتن كان يتمتع بنوع من الحرية أكثر مني. فقد سـمح له بالتجول في أم درمان والتحدث مع الآخرين كما لم يكن مجبراً علي أداء الصلوات الخمس في المسجد كل يوم. ورغم ذلك لم تكن حياته إلا شقاء ، وحزناً ، ومشاكل لاتنتهي ولقد رجوت إبراهيم عدلان ليمنحه بعض الإهتمام وليعطف عليه، ولو من وقت لآخر، بنفحه ببعض المال ولكن حتي هذا لم يكن كافياً له. وقد كان جاهلاً بأنواع الصنايع عامة لكنه إضطر لكسب عيشه بأصلاح الأسلحة القديمة. ولأنه كان ضابطاً في خدمة البحرية التجارية الإنجليزية، فقد قدرت أنه ربما يعرف شيئاً عن الماكينات والوابورات. وقد قابلته ذات مرة في المسجد

كانت قوة الأبيض في هذا الوقت تشتمل علي حوالي مائتين من الجنود السود، معظمهم من القدامي، وقد إزدادت أعدادهم بأنضمام جزء من حامية دارا السابقة لهم. كان معظمهم من أهالي جبل الداير، الذين يكنون عداء دائماً للمهدويين الذين أسروهم من قبل واستخدموهم كالعبيد في بناء أكواخهم. وكانوا ساخطين من هذه المعاملة وصمموا علي إستعادة حريتهم بالقوة. وكان من حسن حظهم أن الأمير السيد محمود كان غائباً في أم درمان. لذا وبضربة جريئة تمكن المتمردون في الإستيلاء علي ترسانة السلاح وتسلحوا تماماً وبعد مقاومة عنيفة خرجوا من المدينة متوجهين صوب جبال النوبة. وعندما وصلت هذه الأخبار لام درمان سارع محمود بالعودة وقاد جنوده بنفسه وتحرك لمواجهة المتمردين لكن محاولته لإقتحام حصنهم المنيع باءت بالفشل وإنتهت بمقتله ومصرع عدد كبير من جنوده.

ولم يكن الخليفة جاهلاً بتنامي نفوذ محمد خالد في دارفور أو استقلاليته. وكان يعلم تماماً أن صلة القرابة التي تربط خالد بالمهدي تجعله متعاطفاً بقوة مع الخليفة شريف وبالتالي صمم الخليفة علي حرمانه من كل مصادر قوته فأستدعي خالد للحضور بكل جيشه لأم درمان تحت زعم توسطه لتحسين علاقة الخليفة مع الخليفة شريف وآل المهدي. وقد إنصاع خالد للأمر، وعندما وصل لبارا وجد نفسه محاطاً بقوات أبي عنجة الرهيبة. وقد كان الخليفة قد أمره بأستلام كل جيوش خالد وضمها إلي جيوشه ثم يقوم بعد ذلك بأقتحام معاقل المتمردين في جبال النوبة بها. انطبق الشرك علي خالد ولم يجد بداً من التسليم وتم تقييده بالسلاسل وأرسل لأم درمان. وتمت مصادرة كل ممتلكاته وبقي في السجن لعدة شهور ثم عفي عنه ولكن بعد عزله عن إدارة دارفور وتوليتها لابن عم الخليفة عثمان ود آدم.

نجحت حملة أبي عنجة علي المتمردين نجاحاً تاماً وتمكن من قتل كل قادتهم تقريباً واسترقاق أعداد من السود التعساء الذين كانوا قد تمردوا معهم.

وعلمت من أحد التجار، الذي وصل مؤخراً من كردفان، بأن صديقي جوزيف أورفالدر قد غادر الأبيض وأنه علي وشك الوصول لأمدرمان. ولعلمي بصعوبة لقائي معه فقد سررت

لكون أحد بني جلدتي سيكون قريباً مني. كنت أجلس أمام باب مولاي دائماً في انتظار تعليماته ومن وقت لآخر كان يتحدث معي بعطف وحنو ويدعوني لتناول العشاء معه. ولكن، وفي أوقات أخري، وبدون أي سبب معروف، كان يتجاهلني لأيام عديدة ولا أجد في نظراته لي سوي الإزدراء والإمتهان. وقد يعزي ذلك لطبيعته الشديدة التقلب. ولم أجد بدأً من التعود علي ذلك إذ ربما تكون هذه المعاملة جزءاً من التربية التي أمر بها. وفي علاقتي بزملائي كنت أظهر تبلدي وعدم إكتراثي بما يجري في البلاد، وبذلك أتجنب إعطائهم أي سبب يزيد من عدم ثقة الخليفة فيني، فقد كنت أعلم أنه كثيراً ما يستفسرهم عني وعن تصرفاتي. لكنني في حقيقة الأمر كنت أرقب كل الأحداث، بقدر ما يسمح لي وضعي كملازم، وأحتفظ بها في ذاكرتي حيث أنني ممنوع من الكتابة ولو لسطر واحد. لم يكن الخليفة يسهم إلا قليلاً في الصرف علي شئوني ولا يوصي إلا من وقت لآخر لإمدادي ببعض أرادب من الذرة أو بكبش من الضان أو ببقرة.

وقد إعتاد إبراهيم عدلان، والذي كنت أعرفه منذ أيام الحكومة السابقة، إرسال مبلغ يتراوح بين عشرة إلي عشرين ريالاً شهريا لي، كما كان بعض التجار والموظفين، الذين كانت حالتهم أفضل مني، يرسل لي سراً بعض المال أيضاً. وبذلك تمكنت من تسيير شئون حياتي ولم أعاني من نقص في ضرورات الحياة إلا أحياناً. وبالمقارنة بصديقي لبتن فقد كنت أحسن حالاً منه رغم أن الخليفة كان قد وعده بالمساعدة لكنه لم يعر التفاتاً بعد ذلك لاحتياجاته. لكن لبتن كان يتمتع بنوع من الحرية أكثر مني. فقد سمح له بالتجول في أم درمان والتحدث مع الآخرين كما لم يكن مجبراً علي أداء الصلوات الخمس في المسجد كل يوم. ورغم ذلك لم تكن حياته إلا شقاء ، وحزناً ، ومشاكل لاتنتهي ولقد رجوت إبراهيم عدلان ليمنحه بعض الإهتمام وليعطف عليه، ولو من وقت لآخر، بنفحه بيعض المال ولكن حتي هذا لم يكن كافياً له. وقد كان جاهلاً بأنوا ع الصنايع عامة لكنه إضطر لكسب عيشه بأصلاح الأسلحة القديمة. ولأنه كان ضابطاً في خدمة البحرية التجارية الإنجليزية، فقد قدرت أنه ربما يعرف شيئاً عن الماكينات والوابورات. وقد قابلته ذات مرة في المسجد

واشتكي لي مر الشكوي عن حياته البائسة فاقترحت له أنني إذا ما تمكنت من إيجاد عمل له في ترسانة الخرطوم فربما تتحسن أحواله. فرح بهذا الاقتراح ووعدته بأنني سأبذل قصاري جهدي في مساعدته.

وبعد بضعة أيام رأيت الخليفة منشرح المزاج وقد أظهر نحوي وداً وارتياحاً، فقد كان أبو عنجة قد أهداه فرساً أصيلة وبعض المال والرقيق الذي استولي عليه من خالد وطلب مني الخليفة أن أتعشي معه. وأثناء الحديث تمكنت من تحويل وتشغيل الموضوع إلي إدارة وتشغيل البواخر والوابورات، والتي كانت بالنسبة له شيئاً مجهولاً غامضاً وقلت له: «تلك البواخر في حاجة لرجال مقتدرين لصيانتهم وإصلاح أعطابهم. ولأن معظم عمال ترسانة السفن قد قتلوا أثناء الهجوم علي الخرطوم فلا بد من أنك وجدت بعض الصعوبات في إيجاد من يحل محلهم؟» فقال لي: «ما العمل إذن؟ فهذه البواخر ذات قيمة عالية بالنسبة لي وعلينا عمل كل مابوسعنا للمحافظة عليهم». فقلت له: «إن عبد الله لبتن كان يعمل مهندساً للبواخر من قبل فإذا ما وجد مرتباً شهرياً طيباً من بيت المال فأنني أعتقد بصلاحيته لهذا العمل» فقال لي وقد بدا عليه السرور: « عليك إذن مفاتحته في الأمر. فاذا ما قام بهذا الأمر بمحض إرادته، وبدون أن يجبر علي ذلك، فأنني أعتقد بأنه سيكون مفيداً في هذا العمل والذي أقر بأنني أجهل كل شئ عنه. وسأصدر أمري لإبراهيم عدلان ليدفع له أجراً طيباً». فقلت للخليفة: « إنني لا أعلم بمكان إقامته كما أنني لم أره منذ وقت طويل. لكنني سأقوم بالأستفسار عن ذلك وأعتقد بأنه سيكون سعيداً بخدمتك».

وفي اليوم التالي أرسلت للبتن وأخبرته بما دار من حديث لكنني رجوته ألا يعمل إلا القليل الممكن لأعدائنا. لكنه أكد لي بأنه لايعلم إلا القليل عن محركات هذه البواخر وأنها ستكون بعد إشرافه عليها أسوأ حالاً مما كانت عليه من قبل كما ندب حظه السئ الذي أجبره علي قبول مثل تلك الوظيفة. قام الخليفة باخطار إبراهيم عدلان. وفي ذلك المساء أرسل لبتن لي بأنه قد عين موظفاً في ترسانة السفن براتب قدره أربعين ريالاً في الشهر وهو مبلغ يكفي بالكاد لسد إحتياجاته.

***

تواترت الإشاعات في أم درمان بأن الأحباش قد عقدوا النية للهجوم علي القلابات. وقد قيل أن رجلاً يدعي الحاج علي ود سالم، من قبيلة الكواهلة ومقيم بالقلابات وكانت له علاقات تجارية مع الأحباش وتجول في بلادهم، قد تم تعيينه آميراً علي ذلك القسم من قبيلته، وأنه قام بغزو التخوم الحبشية ودمر كنيسة لهم في قبطة.

وكان تكروري يدعي صالح شنقة مقيماً بالقلابات ومتولياً لوظيفة هامة لحد ما تحت الحكم المصري. ولما أخليت القلابات من الوجود المصري غادر المدينة واستقر في الحبشة. لكن إبن عمه، أحمد ود أرباب، ظل بها وعين أميراً للمهدية علي ذلك الإقليم. قام حاكم الأمهرة الرأس عدار بالاتصال بأرباب وطلب منه تسليم حاج علي له لكن طلبه رفض فقام بتجهيز قوة كبيرة وهاجم القلابات. لكن أرباب، والذي وصله نبأ قدوم رأس عدار، قام بحشد أتباعه، الذين بلغ عددهم الستة آلاف رجل، وانتظر قدوم الراس عدار خارج المدينة. كان إندفاع القوات الحبشية، التي كانت عشرة أضعاف قوات المهدية، رهيباً، وخلال دقائق معدودة أحاطوا بقوات أرباب وقتلوه وقتلوا معظم قواته في مذبحة لن ينج منهم إلا القليل. قام الأحباش بالتمثيل بالجثث كلها ما عدا جثة أرباب التي لم يمثل بها مراعاة لصالح شنقة. كان الدراويش قد وضعوا مخزونهم من الذخيرة الإضافية في مخزن منعزل، تحت حراسة أحد المصريين والذي طلب منه الإستسلام بعد إنتهاء المعركة لكنه رفض ذلك. وعندما حاول الأحباش إقتحام المنزل قام بتفجيره ووضع نهاية لحياته ولحياة المهاجمين. تم أسر نساء وأطفال الأنصار القتلي وحملوا بواسطة الأحباش لحياة الأسر ثم قاموا بحرق القلابات وسووها بالأرض ولزمن طويل لم يعد المكان سوي مقبرة ضخمة لاتسكنه إلا الضباع.

وعندما وصلت أنباء تدمير جيش ود أرباب للخليفة، قام بإرسال خطاب للملك يوحنا وطلب منه إطلاق سراح الأسري من النساء والأطفال مقابل مبلغ من المال طلب منه أن يحدده. وفي نفس الوقت طلب من يونس القيام من أم درمان بكل قواته والتوجه نحو القلابات في إنتظار تعليمات أخري. وعند تحرك قوات يونس قام الخليفة بنفسه ومعه عدد

من أتباعه بعبور النيل في باخرة وبقي مع يونس وجنوده لثلاثة أيام ثم دعا لهم بالنصر وعاد لأم درمان.

وإختفي جوستاف كلوتر، والذي فشل في تدبير أمر معاشه في أم درمان، وتخيلت أنه قد نجح في الهروب لخارج البلاد. لكنني علمت من بعض التجار، الذين وصلوا للتو من القلابات، بأنه قد وصل إليها لكن مصاعب السفر وإرهاقه أنهكه ومات قبل غزو الحبش للقلابات مباشرة.



An Abyssinian Scout.

كشاف (جاسوس) حبشي

الباب الثاني عشر

الأحداث في أنحاء السودان المختلفة

«الشجار بين مادبو وكرم الله – إعدام مادبو – إعتقال تشارلس نويفلد – مقابلتي معه – وصول جيش أبو عنجة لأم درمان – تحطيم قبيلة جهينة – حملة أبو عنجة علي الحبشة – إجتياح غوندار – المصير الرهيب للأسري – موت السلطان يوسف – أمثلة لطغيان الخليفة – بناء قبة المهدي – خطابات من الوطن – موت والدتي – موت لبتن.»

إستقر الأمير كرم الله في شكا، بعد أن تولي حكم بحر الغزال خلفاً للبتن، لكنه سرعان ما دخل في خلاف مع صديقي القديم الشيخ مادبو، الذي حكم هذه المنطقة بعد سقوط المديرية. نشب الصراع بينهما. وبعد مقاومة غير مجدية فر مادبو ولكن ثم أسره وأرسل لأبي عنجة الذي كان يحمل له غلاً قديماً لابد من تسويته. فقد وقع أبو عنجة في يد مادبو عندما كان يعمل تحت إمرة سليمان ود الزبير وعامله مادبو بقسوة وأجبره علي حمل صندوق ضخم للذخيرة علي رأسه لعدة أيام أثناء تحركهم. وعندما إشتكي أبو عنجة من ذلك قام مادبو بأهانته وجلده بدون رحمة أو شفقة. ولما أحضر مادبو الآن أمام أبي عنجة لم يكن لديه أي أمل بالنجاة بروحه لكنه صمم علي تطبيق العدالة عليه ومؤكداً أنه لم يحارب المهدية قط لكنه أجبر علي حمل السلاح ضد كرم الله. ولكن ماذا أجدت أعذاره أو براهينه علي براءته وإخلاصه؟ فقد كانت الإجابة الوحيدة التي تلقاها من أبي عنجة هي: «رغم ذلك فأنني سأقتلك». لكن مادبو رضخ لمصيره بعد أن أيقن من عدم جدوي دفاعه ورد عليه بقوله: « لست أنت الذي يقتلني لكنه الله. إنني لم أطلب منك الرحمة ولكن طلبت العدالة. وعلي كل، فأن عبداً مثلك لن يكون أبداً رجلاً نبيلاً. أنظر لآثار سياطي التي لا تزال علي ظهرك لأنك تستحقها تماماً. وفي أي صورة أموت فلن تجدني إلا رجلا صبوراً. فأنا مادبو وجميع القبائل تعرفني».

أمر أبو عنجة باعادته للسجن لكنه تمالك نفسه عن جلده وفي صباح اليوم التالي أمر بإعدامه أمام كل الجيش. وكان مادبو صادقاً في وعده. فقد وقف في الميدان وهو مثقل بالقيود وسخر من الجنود الذين كانوا يركضون نحوه ويهزون رماحهم فوق رأسه. وعندما طلب منه أن يجثو علي الأرض ليتلقي الضربة القاضية نادي الناس الذين من حوله ليبلغوا الآخرين بعد موته كيف صمد أمام الموت. وبعد لحظات إنتهي كل شئ.

وهكذا كانت نهاية مادبو، واحد من أقدر شيوخ العرب بالسودان.

وعندما أحضر رأسه لأم درمان، عم الحزن والحداد عرب الرزيقات، الذين تركوا بلادهم منذ سنوات. وحتي الخليفة نفسه تأسف لموته. ولكن لما كان الأمر قد قضي فلا داعي لتوبيخ أعظم أمرائه أو لومه. فأخفي سخطه عليه رغم أنه قال لي يوماً بأنه لو لم يقم أبو عنجة بقتله لاستطاع مادبو أن يقدم له أعظم الخدمات وأجلها.

***

صار يونس الآن في غاية السعادة. فقد توجه من أبي حراز إلي القضارف فالقلابات حيث أقام هناك. ولما كانت سلطاته واسعة، وكان الناس الذين يحكمهم متوثبين للعراك، فقد إستأذن الخليفة بشن غارة علي الأحباش. ولما لم يتسلم الخليفة رداً من الملك يوحنا علي خطاباته السلمية، فقد أذن ليونس بذلك. قامت قواته تحت إمرة عربي دفع الله بمهاجمة القري الحبشية علي الحدود ودمرت عدداً منهم وقتلت رجالهم وأسرت نساءهم وأطفالهم.

وبأسلوبه في التحرك السريع المباغت يوماً مع قيامه بالسلب وتغنيم كل ما يجده، ثم يوماً يقوم بشن غارات دموية متوغلاً لعشرين ميلاً داخل الحبشة، صار المهدويون مصدراً للرعب والكوارث علي الحبش رغم أنهم، الحبش، لم يقطعوا علاقاتهم التجارية مع يونس والذي، وبأسلوب لطيف في معاملة التجار في القلابات، أغراهم للحضور بأعداد كبيرة لبيع ما تنتجه بلادهم من أنواع البن والعسل والشمع والطماطم وريش النعام وغير ذلك إضافة للخيول والبغال والعبيد. يقع سوق القلابات وراء المدينة مباشرة. وعندما وصلت للقلابات قافلة ضخمة من التجار الجبرته (مسلموا الحبش) والمكادة (نصاري الحبش) لم يستطع

يونس السيطرة علي طمعه وتحت زعم أنهم جواسيس للرأس عدار ألقي عليهم القبض وأوثقهم بالسلاسل وصادر كل بضاعتهم. ثم قام بأرسالهم لأم درمان حيث خيل للجمهور الجاهل أنهم من غنائم نصر عظيم أحرزه يونس. أما الخليفة، والذي ينتهز أي فرصة لإظهار عظمة وجدارة أهله، فقد أطلق علي يونس علناً لقب عفريت المشركين ومسمار الدين. حرص يونس من جانبه علي أن يرسل للخليفة عدداً من حسان الحبشة الذين غنموا في الغارات المختلفة إضافة لعدد من الخيول والبغال مما زاد من شره الخليفة للمزيد من الإنتصارات فقرر دمج جيوش يونس وأبي عنجة والهجوم علي الملك يوحنا والذي ، بعدم رده علي رسائله، أساء إليه إساءة قاتلة. كما أمر يونس في نفس الوقت البقاء في حالة الدفاع وشدد له علي ذلك.

صدرت الأوامر لأبي عنجة لإرسال ألف وخمسمائة من جنوده، المسلحين ببنادق الرمنجتون، لعثمان ود أدم الذي عين أميراً علي كردفان ودارفور، علي أن يقوم بعد ذلك بالتوجه لأم درمان مع بقية قواته.

***

قبل فترة من الأحداث التي ذكرتها قبل قليل، أظهرت قبيلة الكبابيش، التي تقطن في شمال كردفان وحتي دنقلا، ميلاً لتحدي سلطة الخليفة والذي قام بأرسال حملة عسكرية إنتصرت عليهم إنتصاراً تاماً وغنمت منهم عدداً من الماشية والرقيق مما دعي بزعيمهم الشيخ صالح، والذي ساعد من قبل الحملة البريطانية للإنقاذ عامي ٨٤ / ١٨٨٥، ودعمها بقوة، إلي اللجوء لآبار أم بادر النائية حيث ظل هناك مع عدد قليل من أتباعه في خوف دائم من الهجوم عليه. قام الشيخ صالح بأرسال خمسين من أخلص عبيده إلي وادي حلفا مع خطابات إلي الحكومة المصرية يلتمس فيها الدعم العاجل له. وتمكن الوكيل الوفي للشيخ صالح من الحصول علي مائتي بندقية رمنجتون وأربعين صندوقاً من الذخيرة ومائتي جنيه نقداً وبعض المسدسات ذات النقوش الجميلة.

وفي تلك الفترة كان يقيم بأسوان تاجر ألماني يدعي تشارلس نويفلد وقد تعرف علي دفع الله عجيل، أحد إخوة ألياس باشا، والذي فر حديثاً من السودان، ومنه علم أن بشمال

كردفان كميات وافرة من الصمغ العربي لم يتمكن التجار من تصريفه بسبب الثورة هناك، وأن من السهل ترحيله إلي وادي حلفا بمعاونة الشيخ صالح. طمع نويفلد في المال الذي يمكن نيله من جلب الصمغ لوادي حلفا ودفعه حبه للمغامرة للإنضمام لوفد صالح والرجوع معهم إلي شيخهم. لم يقابل أي مشكلة، فيما يبدو، للحصول علي إذن من الحكومة للسماح له باصطحاب القافلة بعد أن وعدهم بكتابة تقرير وافي عن الأحداث في السودان. وفي أوائل أبريل ١٨٨٧. غادر وادي حلفا مع قافلة الكبابيش.

كان ود النجومي علي علم تام بتحرك القافلة وأصدر أوامره بمراقبة كل الطرق بدقة تامة. لكن سوء الحظ واكب القافلة، فقد ضل دليلهم الطريق وعانوا جميعاً من العطش الشديد. وعندما وصلوا أخيراً لبعض الآبار بمنطقة الكاب وجدوا أن جماعة من الدراويش قد إحتلوها وكانوا مترقبين لقدومهم. دارت معركة تمت فيها هزيمة جماعة صالح الذين أنهكهم الإرهاق والعطش وقتل معظمهم بنيران البنادق. أما من تبقي منهم، ومن بينهم نويفلد، فقد تم أسرهم. عند بداية المعركة تناول نويفلد بندقية واتخذ موقعاً علي مسافة قصيرة من القافلة، ومعه مساعدة حبشية وصمم علي ألا يبيع حياته رخيصة. لم يهاجمه الأنصار بل وعدوه بالعفو إن سلم، وذلك بعد نهاية المعركة. وافق علي التسليم وتم إرساله لود النجومي في دنقلا. قام الأخير بقطع رؤوس جميع الأسري ما عدا نويفلد والذي تقرر إرساله لأم درمان. وكنت قد سمعت سراً بأن أسيراً أوروبياً علي وشك الوصول لذا فلم أفاجأ عند ما شاهدت في أحد أيام مايو ١٨٨٧. حشداً من الناس يقتربون من بيت الخليفة، وفي وسطهم وتحت الحراسة، ركب رجل أوروبي علي جمل وقد أشاع الناس بأنه باشا وادي حلفا. في ذلك الوقت لم تكن مباني أم درمان شاهقة أو متقدمة في بنيانها وكانت توجد بين سور بيت الخليفة، وسور المسجد راكوبة ضخمة من القش تستخدم كمسكن للملازمين. وفي هذه الراكوبة سيق نويفلد بعد أن نزل من الجمل. أظهرت عدم إكتراثي بالأمر، لعلمي بطباع سيدي وجواسيسه وتظاهرت بعدم المبالاة بما يجري أمامي. وعند وصول نويفلد أرسل الخليفة للخليفتين والقضاة، وللطاهر المجذوب، والأمير بخيت،

والنور عنقرة، الذي وصل للتو من كردفان حيث كان يقاتل تحت إمرة أبي عنجة، للحضور. كما إستدعي يعقوب أيضاً. وعندما جاءوا همست للنور عنقرة: «أبذل ما في وسعك لإنقاذ الرجل». ولفرط سروري إستدعاني الخليفة وأمرني بالجلوس مع مستشاريه. أخبرنا الخليفة بأن الرجل قد أحضر كجاسوس إنجليزي وأنه وجه شيخ الطاهر المجذوب بأستجوابه. وعلي الفور طلبت الإذن لي بالتحدث إليه بلغة أوروبية فسمح لي بذلك وتوجهت مع الطاهر إلي الراكوبة.

وعندما سمع نويفلد بذكر إسمي صافحني وهز يدي بسعادة غامرة. لفت نظره في الحال لأن يخاطب الشيخ الطاهر والذي هو الشخصية الرئيسية للحكم عليه وأن عليه أن يتصرف باستكانة بقدر الإمكان. كان متحدثاً جيداً للعربية وقد أعطي استعداده المطلق للتحدث إنطباعاً سيئاً بين الحاضرين والذين أمروني بأخذه للخليفة. وكانت فكرتهم العامة عنه: « أنه جاسوس ويجب قتله». وعندما واجهنا الخليفة سألني عن إنطباعي عنه فأجبته: «كل ما أعرفه هو أنه ألماني وبالتالي ينتمي إلي وطن لاعلاقة له بمصر». لاحظت نظرة الخليفة المتفحصة لي وهو يناولني بعض الأوراق ويأمرني بالإطلاع عليها. إحتوت الأوراق علي قائمة بالأدوية مكتوبة باللغة الألمانية وخطاب موجه بالإنجليزية إلي نويفلد خاص بأخبار جاءت من السودان وأيضاً خطاب طويل من الجنرال ستيفنسون منحه فيها إذناً للقدوم للسودان مع القافلة ويطلب منه في الوقت نفسه أن يقدم صورة كاملة لما يحدث في السودان. قمت بترجمة الخطاب لكنني لم أشر لطلب الجنرال الخاص بالمعلومات عن السودان وقلت للخليفة: « يوضح هذا الخطاب ياسيدي أن الرجل قد طلب إذناً من الحكومة للقيام بهذه الرحلة وأنه مجرد تاجر كما أخبر الشيخ الطاهر».

للمرة الثانية حدجني الخليفة بنظرة ملؤها الشك ثم أمرنا بالخروج وانتظار تعليماته. كان حشد ضخم من الناس قد تجمع بالقرب من الراكوبة لإلقاء نظرة علي الباشا الإنجليزي وخلال بضع دقائق جاء بعض الملازمين السود، الذين استدعاهم الخليفة

وربطوا رسغيه سوياً وأمروا نويفلد بالخروج من الراكوبة. صعدت مع النور عنقرة والقاضي فوق كومة من الطوب ومن هذا الموقع تمكنت من مشاهدة ما يحدث بالضبط.

ظن نويفلد بأن ساعته قد دنت فرفع عينيه إلى السماء وسجد على الأرض، دون أن يطلب أحد منه ذلك، وسرعان ما أمر بالنهوض. خلال ذلك جاء رجل يحمل بوق الأمباية وأخذ ينفخ نغماتها الموحشة الكئيبة فوق رأس الرجل. وقد سررت لعدم إنزعاج نويفلد من هذا العمل. أما خادمته المسكينة فقد إندفعت خارجة من الراكوبة نحو سيدها في صورة من الولاء والاخلاص الشديدين له وتوسلت لأن تقتل معه لكن الحراس دفعوها بعيداً. تحققت أنا والقاضي بأن الخليفة يمارس لعبة القط والفأر مع نويفلد. ولأنه لم يصدر حكم عليه بعد فقد تجرأت بأن أشير إليه لكنه لم يفهم مقصودي. وبعد لحظات استدعينا ثانية للمثول أمام الخليفة والذي سأل الشيخ الطاهر: « إنك إذن تؤيد قتل الرجل؟» فأجاب بالإيجاب ثم إلتفت إلي النور عنقرة: « وأنت؟» فتحدث النور في كلمات موجزة عن شجاعة الرجل ورجاه أن يعفو عنه. ثم سألني: « والآن يا عبد القادر: ماذا تقول؟» فأجبته: « إن الرجل مستحق للقتل يامولاي وأي حاكم غيرك كان سيقتله. لكن لرحمتك وشهامتك فأنك ستمنحه الحياة لأنه يقول بأنه إعتنق الإسلام ولذلك فأن رحمتك ستزيد من إيمانه». القاضي أحمد كان أيضاً في صف المنادين بالعفو عنه. ثم رأيت علي وجه الخليفة، ومنذ الوهلة الأولي، أنه لاينتوي قتل الأسير وأمر بفك القيود عنه وإعادته للراكوبة. لكنه في ذلك المساء قال للقاضي: « خذوه ليراه الجمهور تحت المقصلة وبعد ذلك أدخله السجن حتي تعليمات أخري» ثم التفت إلي قائلاً: « وبالنسبة لك فعليك عدم الإتصال به إطلاقاً».

ثم تراجعنا جميعنا، لكنني إنتهزت الفرصة لأخبر نويفلد بأنه، ورغم أنه عفي عنه، إلا أنه سيعرض أمام الجمهور عصر اليوم ليروه تحت المشنقة. نفذ القاضي التعليمات بحذافيرها ووضع رأس نويفلد داخل الحبل مما أثار بهجة الجمهور المجتمع للفرجة.

وفي اليوم التالي استدعاني الخليفة وأخبرني بأن النجومي قد أبلغه بأن نويفلد قد جاء بايعاز من الحكومة للإلتحاق بالشيخ صالح الكباشي ومساعدته في حرب المهدية.

فأوضحت له بأنه من غير الممكن الجزم بصحة هذا القول وأن الأوراق التي ضبطت معه كلها عادية. وأضفت بأن الحكومة لن تقوم بفعل مثل هذا وتتحمل مسئوليته. ظننت بأنه قد صدق كلامي الآن، لكنه لم يخف بعد ذلك غضبه علي وعدم ثقته فيني ولوقت طويل بعد ذلك.

وبعد أيام أمر الخليفة بأقامة إستعراض كبير وأحضر نويفلد، المكبلة أرجله بقيود الحديد، علي جمل لمشاهدة العرضة. سأله الخليفة عن رأيه في قواته فرد عليه بأنهم، وبالرغم من عددهم الضخم، إلا أن تدريبهم ليس جيداً وأن نظام الجيوش المصرية أفضل بكثير. لكن الخليفة، الذي لا يحبذ قول الصدق، أمر بأعادته فوراً للسجن. ولرغبته في الإنتقام من الشيخ صالح لعدم ولائه، فقد قام مرة أخري بأرسال حملة لتأديبه. وفي هذه المرة تمت الإحاطة بالشيخ التعس، الذي هجره معظم رجاله، في أحد الابار الصحراوية وقتل. وهكذا كانت نهاية أخر الشيوخ الموالين للحكومة.

***

وبنهاية يونية وصل أبو عنجة لأم درمان مع جيشه البالغ عدده عشرين ألف رجل. وبعد أن بقي فيها لبضع أسابيع تم سحب قسم من جيشه وأرسل، تحت قيادة الزاكي طمل، ضـــد قبيلة جهينة والتي كان شـــيخها أبوروف قد رفض اســـتدعاء الخليفة له للحضور لأم درمان. سقط كبار الشيوخ في القتال الذي جري كما أبيدت معظم القبيلة وتم عزل النساء والأطفال الأسري وارسالهم للخليفة بينما تم جلب الباقين من القبيلة لأم درمان حيث قاسوا من مرارة العيش وعملوا كسقايين يبيعون الماء أو كصانعين للبروش والحصائر. وتم بيع قطعانهم الضخمة من الماشية بأسعار بخسة في السوق حتي أن سعر الثور أو الجمل، والذي كان يتراوح ما بين أربعين إلي ستين ريالاً من قبل، هبط إلي ريالين أو ثلاثه.

***

وبعد تدمير هذه القبيلة تلقي أبو عنجة أمراً بالقيام من أم درمان إلي القلابات وإستلام قيادة القوات هناك. وبعد تجميع القوات، من المناطق الجنوبية، في أبي حراز. توجه للقلابات وشرع فور وصوله في تنظيم وترتيب جيشه حتي ينتقم لهزيمة ود أرباب. جمع

قوة قد تعتبر من أضخم ما جمعه الخليفة عبد الله حتي ذلك الوقت وطبقاً للبيانات التي أرسلها أبو عنجة فقد كان لديه أكثر من خمسة عشر ألف بندقية وخمسة وأربعين ألفاً من حملة الحراب وثمانمائة من الفرسان. وتحرك من القلابات بهذه القوة وزحف خلال ممر منتك نحو الراس عدار. وحتي هذا اليوم لم أتمكن من فهم السبب الذي منع الأحباش من الهجوم علي عدوهم أثناء مروره في تلك الممرات الضيقة والوديان العميقة والتي لن يتمكن الأنصار فيها من إستخدام أسلحتهم النارية بفعالية. وحتي لو لم يتمكنوا من صدهم بهذه الطريقة، لإستطاعوا علي الأقل إلحاق خسائر جسيمة بالدراويش. لكنني أتصور أن الأحباش كانوا واثقين من نجاحهم، وتعمدوا جرجرة عدوهم إلي داخلية البلاد ليقطعوا عليهم خط الرجعة، وبعدها يدمرونهم تماماً. نشب القتال في سهل دبراسن. كان مع الراس عدار حوالي ألفي بندقية وإتخذ موقعاً يهدد أبي عنجة من اليسار. لكن أبو عنجة وجد الوقت الكافي للخروج من الجبال ولتنظيم جيشه بأصطفاف القتال. وهجم عليه الأحباش مرة تلو أخري لكن الدراويش صدوهم وأحدثوا فيهم خسائر مرعبة. ثم أخذ أبو عنجة المبادرة وقام بهجوم مضاد تكلل بنصر كامل عليهم . كان لثقة الأحباش من حتمية إنتصارهم أنهم إتخذوا مواقعهم أمام أحد الأنهار. ولما دارت عليهم الدائرة فر الكثيرون منهم بأتجاه النهر وحاولوا عبوره لكن معظمهم غرقوا. ولفترة قصيرة أحرز فرسان الأحباش بعض النجاح ولكن، وبعد تكبدهم لخسائر جسيمة هربوا مع الراس عدار. وسقط معسكر الحبش بكامله في يد المهدويين، بما فيه من كميات ضخمه من الخيام، وتم أسر زوجة الراس عدار وإبنته اليافعة ، وفي هذا النصر المؤزر بسط أبو عنجة يديه علي كامل مديرية الأمهرا. ثم لم يتمهل وواصل زحفه نحو غوندار، حيث كان يتوقع وجود كنوز. عظيمة فيها، لكنه أصيب بخيبة أمل لأنه، وبأستثناء بعض البضائع للجبرتة، وبعض مخازن البن المكتظة بالمحصول وبالعسل والشمع، والتي لم تكن ذات قيمة بالنسبة له لعدم وجود وسائل لنقلها، لم يحصل علي شئ يذكر. وفي أحد المباني الحجرية الواسعة، والتي يقال أن البرتغاليين قد شيدوها، وجدوا قسيساً قبطياً عجوزاً وألقوا به من أعلي البناية للشارع. لم يمكث أبو عنجة في عاصمتهم غوندار سوي يوم واحد بعدها أمر بأحراق

المدينة ثم إتخذ طريقه عائداً للقلابات وهاجم أثناء مروره ونهب القري الواقعة علي يمينه وعلي يساره وقتل رجالها وسبي نساءها وأطفالها ولم يستثن من القتل من الرجال سوي الجبرته وبعض الغلمان، والذين أخذوا كغنيمة حرب. وساقوا أمامهم بهذه الطريقة الآلاف من نساء الحبش والفتيات وأستخدموا السياط في دفعهن للإسراع بالمشي. وعند وصوله للقلابات تم فرز خمس الغنائم وأرسل للخليفة كما أرسل عدة مئات من النساء لبيت المال بأم درمان حيث تم بيعهن بأثمان مرتفعة. وتناثرت الجثث على طول الطريق من القلابات وحتي أبو حراز. ومن ضمن الجثث إبنة رأس عدار وولده الصغير.

ثم شرع أبو عنجة، بناء علي أوامر من الخليفة، بتحصين وتقوية دفاعات القلابات فقد أدركوا، رغم النجاح الذي أحرزوه، بأن الحبش لن يترددوا في الإنتقام منهم. لكن أبو عنجة لم يستمتع طويلاً بنصره. فبالرغم من عمره الذي لم يتجاوز الثانية والخمسين إلا أنه كان يعاني من مرض مزمن وكان يحاول دائماً علاج نفسه. ولقد صار بديناً ضخماً من جراء الحياة الطيبة التي إنغمس فيها مما تعارض تماماً عما كان معتاداً عليه من تقشف قبل ذلك. وصار يعاني بأستمرار من سوء الهضم ويقوم بعلاج ذلك مستخدماً بعض جذور النباتات السامة التي كانت تجلب من دار الفرتيت. وذات مرة استخدم جرعة مضاعفة ووجد ميتاً علي فراشه صباح اليوم التالي.

وفي أبي عنجة، فقد الخليفة أفضل أمرائه. ورغم أنه كان من سلالة العبيد إلا أنه، عن طريق أسلوبه اللبرالي في التعامل وعطفه علي كل من يعرفه، كسب حب الجميع وحاز علي ولاء وإعتبار كل من عمل تحت أمرته والذين كانوا معجبين بشجاعته الشخصية وروح العدالة التي يشعها وبكاه كل جنوده، عرباً وسوداً، والذين ما عرفوا فيه رغم صرامته وجديته إلا سيداً عظيماً ورجلاً دائم الاستعداد لمساعدة المحتاجين رغم أنه عندما يعاقب من يخالف أوامره، يكون عقابه شديداً. تم دفنه داخل منزله المبني بالطوب الأحمر وقد إعتبره الكثيرون من خدمه وعبيده كولي من أولياء الله.

***

وفي الوقت الذي غادر فيه أبو عنجة بجيشه للقلابات، تسلم عثمان آدم أوامر بالتحرك بكامل قوته إلي دارفور، فقد كان هناك تخوف من قيام السلطان يوسف، الذي جاء بعد خالد، بتحركات تهدف إلي التمرد. وعرف عنه أنه لم يرسل للخليفة منذ وقت طويل أي هدايا من الخيل أو العبيد وبدا واضحاً أنه صار يشعر بقوته لدرجة يمكنه بها الانقلاب علي سلطة الخليفة.

نشب القتال في مكان بالقرب من ود بيرق، جنوب الفاشر، حيث نال عثمان نصراً سهلاً عليه. فر السلطان يوسف لكنهم لحقوا به في كبكابية وقتل وسقطت الفاشر بيد عثمان واستولي عليها وعلي نسائه وأقاربه وعلي كميات من بضائع تجار فزان ووداي وعلي عدد كبير من النساء والأطفال. وهكذا عادت دارفور، والتي كان المهديون قد فقدوها عملياً، إلي أيديهم في نفس الشهر (يناير ١٨٨٨) وفي الوقت الذي أحرز فيه أبو عنجة نصره الكاسح علي الأحباش.

وبينما كانت هذه الأحداث المصيرية تجري في شرق وغرب الإمبراطورية السودانية، حكم الخليفة، من أم درمان، بأسلوب بالغ الطغيان والقساوة. لم يكن يثق في أي أحد وقام أخوه يعقوب بتجنيد عدد كبير من الجواسيس كان جل عملهم أن يبلغوه عن أي شئ يحدث في المدينة. وكان علي معرفة تامة ومتجددة بمشاعر ومزاج الناس فيها وينزل العقاب الصارم بأي شخص يتشكك في المهدية ورسالتها المقدسة. وحدث ذات مرة أن بحاراً تلفظ بما يسئ للمهدية وتم إبلاغ الخليفة بذلك. لم يكن للواشي، والذي كان بقارياً متعصباً، أي شهود وقام الذين حضروا الحادثة بأبلاغ الخليفة بأنهم كانوا علي مسافة بعيدة من موقع الحادثة ولم يسمعوا ماقاله الرجل. غير أن الخليفة أراد أن يجعل من البحار عبرة لمن يعتبر فأستدعي القاضي وأمره بأنتزاع إعتراف من المتهم بالقوة وشرح له الطريقة. تم إرسال رجلين للسجين ليبلغوه بأن الشهود قد وجدوا، وأنه إذا ما إعترف بمحض إرادته وأقر بذنبه وبأسفه قبل سماع إفادة الشهود، فأن الخليفة سوف يخفف الحكم عليه وقد يعفو عنه. لم يتنبه المسكين للشرك الذي نصب له وأدلي بأعتراف كامل وترجي الخليفة

للعفو عنه. سجل إعترافه كتابة وقدم التقرير إلي عبد الله والذي أصدر الحكم عليه بالإعدام طبقاً لتعاليم المهدي. وقال الخليفة أثناء النطق بالحكم بأنه لو كانت الإساءة موجهة إلي شخصه لعفي عنه، لكن السجين قد إرتكب إثماً في حق المهدي وبالتالي فأن أي تخفيف للحكم عليه سيكون جريمة لا تغتفر.

وعصر نفس اليوم أمر الخليفة بضرب الأمباية بينما كانت طبلة الحرب، المنصورة، تسمع في أنحاء المدينة. وركب الخليفة مع حرس كبير حتي مكان العرضة. وعندما وصل فرشت له فروته علي الأرض وجلس عليها مواجهاً القبلة، بينما وقف وراءه، في شبه دائرة، القاضي واخرون. ثم أمر باحضار المتهم أمامه. كانت يداه مقيدتين وراء ظهره ولم تظهر علي ملامحه أي أثار للخوف أو الهلع. وعندما صار علي مسافة مائة خطوة من الخليفة قام كبير الجلادين، أحمد داليا، بقطع رأسه.

***

ولإظهار توقيره للمهدي، قرر الخليفة إقامة نصب له، كما هي العادة في مصر، لكنه اتخذ هذا القرار لإرضاء غروره أكثر منه لاحترام مولاه الراحل. تم إنشاء مبني مربع بأرتفاع حوالي ثلاثين قدماً وطول أضلاعه ستة وثلاثين قدماً. وتم إحضار حجارة المبني من الخرطوم حيث كان سمك الحوائط يصل لستة أقدام. وفوق هذا المبني أقيم بناء سداسي الأضلاع، بأرتفاع خمسة عشر قدماً وعليه بنيت قبة ترتفع أربعين قدماً. وعلي الأركان الأربعة للمبني شيدت أربعة قباب صغيرة وأطلق علي الشكل إسم (قبة المهدي). عمل بالقبة عشرة نوافذ ذات أقواس وبابين أما علي البناء السداسي الأضلاع فقد شيدت ستة نوافذ صغيرة للإنارة وتم طلاء المبني كله باللون الأبيض وأحيط بسور من القضبان الحديدية المضفورة. قام العاملون بترسانة الخرطوم بصناعة الأبواب والشبابيك. وتحت



The Mahdi's Tomb.

ضريح المهدي بأم درمان

القبة مباشرة وعلي قبر المهدي شيد تابوت خشبي وغطي بقماش أسود وعلقت علي جوانب الحوائط شمعدانات صغيرة بينما تدلي شمعدان ضخم، جلب من سراية الحكومة بالخرطوم، من مركز القبة معلقاً بسلسلة طويلة. وتم تحسين المظهر القاتم بالداخل عن طريق رسومات مبهرجة الألوان. وعلي بعد ياردات من القبة يوجد حوض للماء، بنيت جدرانه بالطوب الأحمر والأسمنت، يستخدم لوضوء الزوار. وكان قد صمم هذا النصب أحد قدامي موظفي الحكومة، والذي كان يعمل مهندساً بها. لكن الرأي العام للجمهور إعتبر أن الخليفة هو الذي وضع التصميم.

وعند وضع حجر الأساس للقبة ألقي الخليفة موعظة عظيمة قبل أن يضرب بأول معول لحفر الأساس. ثم قام مصحوباً بما لايقل عن ثلاثين ألف رجل بالتوجه نحو شاطئ النيل حيث كانت حجارة البناء قد كومت هناك وبدأ الخليفة برفع حجر منها علي كتفه وحمله حتي موقع البناء وشرع كل الحاضرين بأتباع نهجه بنقل الحجارة وسط ضجيج عظيم وفوضي تجل عن الوصف. وقد وقعت عدة حوادث ولكن الذين أصيبوا فيها فرحوا بالحظ الذي واتاهم للمعاناة في مثل تلك المناسبة.

لم يكتمل البناء إلا في السنة التالية واشترك فيه عدد كبير من العمال، بنفقات قليلة، وكثيراً ما أكد لهم الخليفة مساعدة الملائكة ودعمهم. وقد علق أحد المصريين الحانقين، عند سماعه بهذا القول، ولعلمه بأن معظم العاملين كانوا من البنائين بالحجارة، قائلاً: «ربما كنتم أنتم الملائكة الذين حدث بهم الخليفة وبالتالي فلا حاجة لإطعامكم أو لشرابكم أو حتي دفع أجوركم». ولو سمع الخليفة هذا القول فلا شك أن رأس ذلك المصري النمام كان سيطير.

وكالمعتاد، كنت حاضراً دائماً وملازماً لصيقاً بالخليفة وأراد يوماً إظهار مودته وحسن نواياه تجاهي فقام بأهدائي إحدي بنات الأحباش اللائي كان أبو عنجة قد أرسلهن له. كانت والدتها وشقيقها قد قتلا أمام عينيها وانتزعت البائسة من عشيرتها وسيقت للأسر بضربات السياط. ومع أن أهل بيتي لم يعاملوها قط معاملة الرقيق وبذلوا كل جهودهم للتخفيف عن مصابها المحزن، إلا أنها أبداً لم تسعد أو تشعر بالإنشراح ودائماً ما كانت تندب حظها ووطنها ومن فقدته من أحبابها حتي أراحها الموت أخيراً من عذابها.

وقد إعتاد الأب أورفالدر زيارتي من وقت لآخر سراً. ولما كان الخليفة لايرضي بلقائنا فقد كانت زياراته قصيرة ومتباعدة وإعتدنا عند لقائنا الحديث عن وطننا وعن وضعنا البائس الحالي لكننا لم نفقد الأمل قط في أنه، عاجلاً أم أجلاً، سيأتي اليوم الذي ننفك فيه من الأسر ونستعيد حريتنا*.

***

طلب من أبي قرجة، الذي كان حاكماً علي كسلا، أن يتوجه لدعم عثمان دقنة والقتال بجانبه وقبل ذلك عليه القيام لأم درمان ليقدم للخليفة تقريراً عن أحوال القبائل العربية في شرق السودان. ترك في كسلا أحمد ود علي كممثل له ووصل لأم درمان في أواخر إحدي الليالي وفي الحال دخل في خلوة طويلة مع الخليفة وعندما خرج منه أخبرني بأنه سلمه خطاباً جاءني من أهلي في أوروبا. وبعد دقائق تم استدعائي للخليفة والذي أخبرني بأن حاكم سواكن قد أرسل خطاباً لعثمان دقنة يفترض أنه جاء من أهلي وسلم له. وبعد أن ناولني الخليفة الخطاب أمرني بفضه في الحال وإفادته بمحتواه. تصفحت الخطاب سريعاً ورأيت لشدة حزني وأسفي إنه إعلان من إخواني وأخواتي بأن والدتي المسكينة قد توفيت وأنها تمنت في فراش موتها بأن يجمع الله شملنا. ولم يصبر الخليفة علي الوقت الطويل الذي كنت أقرأ فيه الخطاب وسألني مرة أخري عن الذي كتبه وعن محتوياته فقلت له: « إنه من إخواني وأخواتي وسأترجمه لك». لم يكن لدي سبب لإخفاء ما فيه فقد كان الخطاب عبارة عن بضعة أسطر كتبها إخوة وأخوات محزونون لأخيهم البعيد عنهم. أخبرته عن مدي إنزعاجهم بشأني وأنهم علي استعداد للقيام بأي تضحية تؤدي إلي نيلي لحريتي. وعندما وصلت للجزء الخاص بوالدتي إحتجت لكل قوتي لضبط النفس وأخبرته أنها لم تمت بسلام لبعدي عنها وأنها كانت لاتفتر خلال مرضها الطويل من الدعاء لله لأن يجمعها ثانية بي. لكن صلواتها، ياللحسرة، لم تستجب وحمل لي الخطاب تحياتها الأخيرة وتمنياتها الرقيقة لي بالرفاهية والسعادة. شعرت بجفاف في حلقي وبعطش شديد. ولو لم

يقم الخليفة بالتدخل فجأة والتحدث معي لإنفجرت تماماً. قال لي: « إن والدتك لم تدرك بأنني أضعك في مكانة وتشريف أكثر مما أضع أي شخص آخر وإلا لما تكبدت كل هذا القلق بشأنك. لكنني أمنعك من التفجع عليها فقد ماتت كنصرانية ومشركة وغير معتقدة في الرسول والمهدي وعليها ألا تتوقع غفران الله ورحمته». إندفع الدم في رأسي ولبعض الوقت لم أتفوه بكلمة. وبعد أن تمالكت نفسي واصلت قراءة الخطاب وفيه علمت بأن أخي هنري قد تزوج وأن أدولف وأخواتي بحالة طيبة. ورجوني في خاتمة الخطاب أن أفيدهم بكيفية الحصول علي حريتي وضرورة الكتابة لهم. وعندما إنتهيت من الخطاب قال لي الخليفة: « أكتب لهم وأطلب من أحد إخوتك علي الأقل أن يزورك هنا، وسأقوم بتكريمه ولن يحتاج لشئ. وعلي كل حال فسنتحدث عن هذا الأمر فيما بعد» ثم أشار لي بيده أن أخرج.

إنتاب الفضول زملائي الذين سمعوا بالخطاب الذي جاءني وأمطروني بكل ضروب الأسئلة عما به لكنني لم أجبهم إلا بأقتضاب. وما أن ذهب الخليفة لفراشه حتي توجهت لمنزلي. ألقيت بجسمي علي العنقريب وجاء خدمي وسألوني بقلق وإهتمام عن جلية الأمر لكنني طلبت منهم تركي لوحدي. يا لأمي المسكينة! إذن أنا الذي تسببت في تعاستك في ساعاتك الأخيرة! لقد كتب لي إخوتي كلماتها الأخيرة: « إنني جاهزة للموت وكم أود أن أري وأن أحتضن رودلفي مرة أخري. فعلمي بأنه في يد أعدائه يصعب علي خروجي من هذا العالم». كم تذكرت هذه الكلمات عندما تركت السودان: « يابني، يارودلف، إن روحك القلقة ترسل بك دائماً لأصقاع الأرض! إنك ذاهب لأماكن قصية يكاد العالم لايعرف شيئاً عنها. وربما يحين الوقت الذي تشتاق فيه إلينا وإلي الحياة الهادئة». وكم صدقت كلماتها، أمي المسكينة، وكم تسببت في معاناتها وشقائها. ثم بكيت وبكيت، لا لحالتي، بل لأمي العزيزة التي لن تعود ثانية.

صباح اليوم التالي استدعاني الخليفة وطلب مني مرة أخري أن أترجم له الخطاب وأمرني بالرد عليهم فوراً وإفادتهم بأني في منتهي السعادة في وضعي الحالي. فعلت ما أراد وكتبت خطاباً أفضت بالثناء فيه علي الخليفة وعن سعادتي لوجودي بالقرب منه.

لكنني كنت أضع بين الجمل والكلمات علامات التعجب أو الفصلة كما كتبت في مؤخرة الخطاب أن عليهم قراءة ما وضعته بين الفصلات وبعلامات التعجب علي عكس المعني. وفي نفس الوقت طلبت من إخواني وأخواتي إرسال خطاب شكر باللغة العربية للخليفة، وإهدائه حقيبة للسفر، مع إرسال مائتي جنيه لي ودستة من الساعات العادية التي تصلح كهدايا للأمراء الذين إعتادوا علي حضور الأعياد بأم درمان وستفرحهم كثيراً. طلبت منهم أن يرسلوا لي نسخة من القرءان بالألمانية ورجوتهم ألا ينتابهم القلق علي حالتي الحاضرة وبأنني أمل أن أجد وسيلة تجمعني بهم. طلبت منهم إرسال تلك الأشياء عن طريق قنصل النمسا العام في القاهرة ومنه إلي حاكم سواكن والذي سيحوله لعثمان دقنة. سلمت الخطاب للخليفة والذي أعطاه بدوره لأحد رجال البريد الذي كان في طريقه لعثمان دقنة مع تعليمات بأرساله لسواكن.

***

قبل شهر من وصول النبأ الحزين بوفاة والدتي، غمرني الحزن علي وفاة صديقي في الأسر، لبتن. فقد عمل في ترسانة إصلاح السفن بالخرطوم حتي وقت قريب لكن تدهور صحته أدت لطلبه لإعفائه من هذا العمل. ثم عاد لأم درمان وعاني من الفاقة والحوجة حتي عاد من القاهرة صالح ود حاج علي، والذي كان على ود قديم معه، حاملاً له بعض المال الذي أرسلته عائلة لبتن له فتحسنت حالته وإنشرح قلبه. ولكن حاج علي لم يهمل نفسه، بل عمل علي الإستفادة القصوي من ذلك العمل الذي قام به. فقد سلمه مائة ريال كسلفية مقابل إيصال يقدم لأخيه يفيد بأنه إستلم مائتي جنيه. وقد صرف المبلغ بالفعل في القاهرة. ولما عاد لأم درمان مرة أخري دفع للبتن مائتي ريال واحتفظ بباقي المبلغ لنفسه والبالغ ثمانمائة ريال. وبالرغم من هذه السرقة الواضحة فقد ابتهج لبتن البائس بهذا المبلغ وساعده ذلك، ولوقت قصير، من التخلص من عيش الشحاذين. وقد فرح أيضاً لإيجاد وسيلة للإتصال مع أقاربه الذين يحلم بلقائهم بعد نيل حريته. لكن تلك الأمال، للأسف، لم تتحقق أبداً.

وكان قد رجع لمنزله، صباح أحد أيام الثلاثاء، عائداً من المسجد معي وكان يستشيرني في من يأتمنه علي باقي مبلغ المئتي ريال، علي أساس إعطائه له علي دفعات عندما يحتاج لها، فقد كان حريصاً علي عدم جذب الأنظار إليه إذا ما قام بصرف مبلغ كبير علي حوائجه، وحتي لا يعرض إتصالاته مع مصر للخطر. تحدثنا عن الأوطان وعن حالنا الراهن. وبدا عليه الإنشراح علي غير العادة لكنه إشتكي من آلام في ظهره وبشعور عام بالفتور والإعياء. تركته في منتصف النهار وفي يوم الثلاثاء التالي أرسل خادمه لي راجياً مني الحضور لرؤيته بعد أن شعر باشتداد المرض عليه. وعندما سألت الخادم عن حالته أخبرني بأن سيده يعاني من حمي شديدة وأنه لم يغادر الفراش منذ ثلاثة أيام. وعدته بالحضور بأسرع فرصة وعند المساء استأذنت الخليفة للذهاب إليه. وصباح اليوم التالي، وبعد أن نلت الإذن لقضاء ذلك اليوم مع المريض، توجهت لمنزله ووجدته في حالة إحتضار. فقد كان يعاني من حمي التيفوس وقد بلغ المرض به درجة إنه لم يعرفني إلا بالكاد. وفي كلمات متقطعة رجاني أن أعتني بإبنته. ثم ذكر لي شيئاً عن أبيه وأمه لكن حديثه لم يكن مترابطاً وكان يغمي عليه في بعض الأحيان. وقد تبين لي رجاءه في أن أحمل رسائله الأخيرة لأحبائه إن نجحت يوماً في الفرار. ويوم الأربعاء الثامن من مايو ١٨٨٨. فاضت روحه منتصف النهار وبدون أن يستعيد وعيه. غسلناه وكفناه، وحسب العادة حملناه إلي المسجد وصلينا عليه ثم دفناه في مقبرة مجاورة لبيت المال. وقد حضر الجنازة الأب أورفالدر ومعظم الأغاريق الذين كانوا بأم درمان وعدد من الأهالي الذين عرفوا فيه، وأحبوا، وإحترموا، خصاله النبيلة وشخصيته المتواضعة الدمثة.

***

الباب الثالث عشر

الحرب السودانية الحبشية

«معركة القلابات - مقتل الملك يوحنا - ثورة أبو جميزة - هزائم المهدويين - موت أبي جميزة - الإستعدادات لغزو مصر - إعدام ٦٧ من عرب البطاحين - مزيد من الخطابات من الوطن - عائلتي ترسل للخليفة حقيبة ملابس من فينا - هجرة قبيلة التعايشة - استقرارهم بوادي النيل - النجومي يزحف نحو مصر - معركة توشكي - أحداث المجاعة الكبري - سقوط ابراهيم عدلان - إعدامه - الخليفة وعدم ثقته فيني - تعرضي للخطر الجسيم - أصبحت المتلقي، غير الراغب، في إنعامات الخليفة».

لكن علينا ألا نفترض بأن انتصارات المهدية شرقاً وغرباً ستستمر بدون أي نكسة.

فلقد صمم الملك يوحنا، الذي كان مشغولاً بحرب داخلية، علي الإنتقام من هزيمة الحبش في غوندار. وبعد أن حشد جيشاً عرمرماً تقدم بأتجاه القلابات حيث دارت معركة طاحنة بين الأحباش والدراويش هزم فيها الأخيرين ولكن، وفي لحظة النصر أصابت رصاصة طائشة الملك يوحنا وأصابته في مقتل وقد تسبب هذا الحدث في تحويل النصر إلي هزيمة. فقد تراجع الجيش الحبشي، في عجلة وفوضي، بينما طارده الزاكي طمل ونجح في الاستيلاء علي جثة الملك وعلي تاجه وأغراضه.

وسقطت الحبشة إثر ذلك في حروب داخلية طاحنة بين العديد من المتطلعين للعرش والذين منعهم الشقاق والقتال من التوحد والوقوف معاً ضد العدو المشترك.

وكان الإيطاليون قد إحتلوا مصوع منذ بداية عام ١٨٨٥. ووضعوا أيديهم علي ما جاورها من مناطق. وقد جاء ذلك في صالح الدراويش بالقلابات، لأنهم كانوا مدركين بأنشغال الحبش بأعدائهم الأوروبيين، ومن ثم بدأوا في شن الغارات علي مناطق الأمهرة الحبشية.

***

وعندما كانت حامية القلابات مهددة بالدمار علي يد الملك يوحنا، كان عثمان ود آدم يعيش نفس المحنة في غرب السودان. فبعد موت السلطان يوسف، شنت قواته الغارات علي أنحاء المديرية المختلفة وتسبب أمراؤه في قدر كبير من أعمال القسوة والطغيان، وأعتبر الآلاف من النساء والأطفال كغنائم حرب وجرجروا للفاشر جراً تحت تهديد السلاح. إنتشر اليأس بين الأهالي وإمتد الكرب والأسي حتي وصل دار تاما. كان يقيم بدار تاما شاب جاء من أم درمان، وربما كان ينتمي لإحدي القبائل النيلية، بعد أن طرد منها، وصار يجلس تحت ظلال شجرة جميز ضخمة ويقرأ القرءان. وأخذ الأهالي من اليائسين والمقهورين والبائسين بالتجمع والالتفاف حول هذا الشاب ونسبوا إليه أعمالاً خارقة للطبيعة ولقبوه بأبي جميزة. قام بقيادتهم وهجم علي مجموعة من جنود الدراويش ومزقهم تمزيقاً. قاده هذا النجاح إلي نجاحات أخري وسرعان ما كان لديه جيش لجب من الدارفوريين زحف به نحو الفاشر. لكن حدثاً مشئوماً لحق بهم. فقد وقع أبو جميزة فجأة تحت وطأة المرض وصار أتباعه بدون قيادة زعيمهم مما مكن عثمان آدم من تحطيمهم ودحرهم علي بعد بضعة أميال من المدينة. وأدت هذه الكارثة إلي تدعيم حكم الخليفة عبد الله وتشديد قبضته علي أقاليم السودان الغربية.

***

قبل فترة من تلك الأحداث، إلتفت الخليفة بأنظاره نحو مصر. كان قد استجوب العديد من الأشخاص عن أحوال مصر وحدثوه بما ملأه بالجشع والتوق وبرغبة عارمة لحيازة قصورها الفخمة وحدائقها الشاسعة الغناء وحريمها الفخيم من النساء البيض البشرة. وكان أكثر قادته تأهيلاً للقيام بالهجوم علي مصر هو ود النجومي بالطبع. فقد كان يتميز بشجاعة خارقة. كما أنه، عندما كان تاجراً بسيطاً قبل المهدية، قد تنقل كثيراً وطاف بأنحاء مصر ويعرفها جيداً، إضافة لولائه الأعمي للمهدية والتي كسب لها أعداداً ضخمة من المؤيدين. تشكل معظم جيشه من قبائل النيل الذين شاهد الكثيرون منهم مصر من قبل كما كان كثيرون منهم متداخلون أو متزاوجون مع القبائل الحدودية لصعيد مصر. تلك

كانت الأسباب الظاهرية التي برر بها الخليفة إختياره للقائد. ولكن الحقيقة هي أنه كان يدرك تماماً أن شن الغارة علي مصر هي عمل له عواقب خطيرة ولهذا كان حريصاً علي عدم استخدام أقاربه فيه أو زجهم في جيش النجومي أو إشراك قبائل غرب السودان اللصيقة به. لذلك تكون جيش النجومي من الجعليين والدناقلة مع قسم من البقارة. لكن الأولين، والذين يعتبرون من أتباع الخليفة شريف، كانوا، في نظر الخليفة عبد الله، ممن يعتبرهم أعداءه السريين. فاذا نجحت الحملة علي مصر، علماً بأنه لم يشك أبداً ولو للحظة في كفاءة قائدها أو إخلاصه، فهذا فضل كبير وسيضم إليه بلداً جديداً. أما إذا نجحت القوات المصرية في صد الهجوم فأن باقي جيش الغزو الذي هزم سيتراجع بعد خسائر جسيمة إلي دنقلا وسيكون قد أضعف للدرجة التي لن يشكل خطراً بعدها عليه.

أما بشأن الظروف التي أحاطت بمقتل النجومي وتدمير جيشه علي يد القوات المصرية الانجليزية في توشكي في الثالث من أغسطس عام ١٨٨٩، فهي معروفة تماماً ولا تحتاج إلي إعادة سردها. ولكن فيما يختص بجمع الرجال للاشتراك في هذه الحملة فلابد لي من ذكر حادثة تدل علي قسوة الخليفة البالغة التي فاقت أي شئ شاهدته حتي الآن منه. فقد ترددت قبيلة البطاحين في تنفيذ الأمر بحضورهم لإم درمان. وبالتالي شنت عليهم حملة وتم أسر حوالي سبعة وستين رجلاً منهم بعوائلهم وإحضارهم سجناء لأم درمان. إشتهرت هذه القبيلة بالشجاعة وخاصة في فترة الحكم التركي المصري. والآن أمر الخليفة بمثولهم أمام المحكمة، بعد أن أوضح للقضاة، بطريقة خاصة، وجهة نظره حول الموضوع. قرر القضاة بالإجماع بأن البطاحين من المخالفين فسألهم الخليفة: « وما هو جزاء المخالفين؟» فأجابه القضاة: « الموت». أعادوهم للسجن بينما إنشغل الخليفة بأسلوب تنفيذ الحكم. وطبقاً لأوامره، تم نصب ثلاثة مشانق في ميدان السوق علي الفور. وبعد صلاة الظهر ضربت الأمباية وطبل الحرب الكبير (النحاس) مستدعية كل أتباع الخليفة للحضور معه. ترجل من دابته في أرض العرضة وجلس علي عنقريب صغير بينما تجمع أتباعه من حوله وجلس بعضهم علي الأرض بينما وقف الباقون ثم أحضر البطاحين السبعة والستين، بعد

أن قيدت أيديهم وراء ظهورهم، تحت حراسة رجال عبد الباقي بينما كانت نساؤهم وأطفالهم التعساء يجرون خلفهم وهم يبكون ويصرخون. أمر الخليفة بأبعاد النساء والأطفال عن الرجال ثم استدعي أحمد ود داليا و الطاهر ود الجعلي وحسن ود خبير وأخذ يتشاور معهم في صوت خفيض. توجه ودخبير نحو البطاحين وأمر الحراس والمساجين بأتباعه حتي ميدان السوق. وبعد تأخير لربع ساعة، نهض الخليفة وسرنا جميعاً من خلفه وتوجهنا إلي السوق حيث كان في إنتظارنا مشهد رهيب.

تم تقسيم البطاحين التعساء إلي ثلاثة مجاميع. شنقت منهم مجموعة وتم قطع رؤوس المجموعة الثانية أما المجموعة الثالثة فتم قطع اليد اليمني والقدم اليسري لكل منهم. وقف الخليفة أمام المشانق الثلاثة، والتي كادت أن تتحطم بسبب ثقل أوزان الضحايا، بينما تكومت بالقرب منه الأجساد التي مثل بها وقد تبعثرت أيديهم وأرجلهم علي الأرض. كان المنظر فظيعاً تشمئز منه النفوس. لم يصدر أي صوت منهم، لكنهم كانوا يحدقون أمامهم محاولين إخفاء معاناتهم الرهيبة عن أعين الجماهير. ثم استدعي الخليفة عثمان ود أحمد، أحد القضاة من قبيلة البطاحين ومن المقربين للخليفة علي ود حلو، وقال له وهو يشير بيده للجثث المشوهة: « يمكنك الآن استلام ما تبقي من قبيلتك وأخذهم لبيوتهم». لكن الرجل التعس لم يتمكن من الرد عليه لهول الصدمة والفزع الذي تملكه.

وبعد جولة حول المشانق توجه الخليفة إلي الطريق المؤدي للمسجد بينما واصل أحمد الداليا عمله الدموي حيث تمددت علي جانبي الطريق جثث ثلاثة وعشرين من الذين قطعت رؤوسهم. ولقد واجه أولئك التعساء الموت بهدو، مسلمين أمرهم لله. وقد أظهر العديد منهم ضروباً من الشجاعة في مواجهة الموت، كما هي عادة العرب، وكانوا يرددون أقوالاً مثل: الموت هو مصير كل كائن حي، انظروا! فهذا يوم سعدي! أو: من لم ير رجلاً شجاعاً يموت فليأت وينظر!. لقد واجه السبعة والستين رجلاً الموت ببطولة فائقة. أما الخليفة، وبعد إنجاز مهمته ورضاه عما تم، فقد ركب عائداً لمنزله.



The Execution of the "Batahin."

إعدام البطاحين

وعند وصوله، وكبادرة لإظهار رحمته، فقد أرسل أحد أتباعه بتعليمات لإطلاق سراح زوجات وأطفال الرجال القتلي وإعادتهم لديارهم مثلما كان في إمكانه توزيعهم كأرقاء علي من يشاء.

***

ورغم تلك الفظائع فقد كنت مسروراً لسماعي بأن خطابات من الوطن هي في الطريق إلينا. وقد سمعت أيضاً، وبطريقة سرية من بعض التجار الذين عادوا من بربر، ليس فقط بالخطابات بل أيضاً بوجود صندوقين من النقود مرسلة لي. لم اجرؤ علي التفكير الدائم في الأمر وكان الصبر في إنتظار وصولها أمراً ليس بالسهل علي. وصباح يوم من الأيام، وعندما كنت جالساً بالبوابة، وصل جمل محمل بصندوقين وطلب الجمال المثول أمام الخليفة وقال بأنه يحمل خطابات وطرود من عثمان دقنة. ولما كان الخليفة علي علم بالأمر فقد وجه بأرسال الصندوقين لبيت المال وتسليم الخطابات للكتبة. ضقت ذرعاً من عدم قدرتي علي الصبر لكن الخليفة لم يستدعني إلا بعد الغروب وناولني الخطابات. كانت، كما توقعت، من إخواني وأخواتي يعبرون فيها عن فرحتهم الغامرة بتسلمهم أخيراً أخباراً مباشرة عني. كتب أحد الخطابات باللغة العربية وعنون للخليفة واشتمل علي شكر عميم له لعطفه وكرمه علي وأوصوه بالمزيد من إحساناته علي شخصي والتي عبروا عن عرفانهم الشديد لمعاملته لي. كان هذا الخطاب، والذي دبجه البروفسور فارموند، يشتمل علي عبارات طنانة من الإطراء والثناء علي الخليفة حتي أنه أمر بقراءته بصوت عالي في الجامع عند المساء. وقد إبتهج للدرجة التي قرر فيها تسليمي الصناديق. قمت في ذلك الوقت بترجمة خطابي له والتي إشتملت علي معلومات شخصية لا تهم غيري حيث أخبرني إخواني وأخواتي بأنهم أرسلوا حقيبة سفر للخليفة كرمز لإخلاصهم له ورجوه أن يتفضل بقبول هذه الهدية المتواضعة والتي لا تتناسب مع مقامه السامي. عبر الخليفة عن إرتياحه لقبولها وأمر باحضارها له صباح اليوم التالي. ثم أرسل إثنين من رجاله لتفتح الصناديق بحضورهم وعندما تقدم الليل توجهنا لبيت المال وهناك قمنا بفتحهم. إحتوي الصندوقان

علي مائتي جنيه وإثنتي عشرة ساعة عادية وبعض الأمواس والنظارات والجرائد ثم نسخة من القرآن الكريم وهدية الخليفة. تم تسليم جميع تلك الحاجيات لي. وبعد أن قرأت خطاباتي مرة أخري قمت بالتهام الجرايد إلتهاماً. يا لها من أخبار! أخبار الوطن.

كان هناك بضع أعداد من جريدة (نوية فراية برسا) لكنها أشبعتني إذ كنت محروماً من الأخبار لسنوات ستة وسيوفر هذا لي قراءة مسائية لعدة شهور. وتدريجياً حفظت كل ما جاء بها إبتداء من الإفتتاحيات السياسية وحتي أخر إعلان وأذكر أن الاعلان كان عن سيدة عجوز تبحث عن شقيق للروح له رغبة في الزواج. جاءني الأب أورفالدر سراً أثناء الليل لإستعارة الجرائد وقام بدراستهم وإلتهامهم بنفس ما قمت به لكنني لا أظنه قد أعار إهتماماً لذلك الإعلان الأخير!

وفي باكورة اليوم التالي، أخذت الهدية معي وذهبت للخليفة الذي طلب مني أن أفتحها. وعندما شاهد كل تلك الصناديق البللورية والزجاج المغلف بالفضة والفرش والأمواس والمقصات.... الخ دهش دهشة عظيمة. قمت بشرح إستخداماتهم المختلفة له. ثم أرسل للقضاة والذين عبروا عن بالغ دهشتهم لما شهدوه، مجاملة له، رغم علمي بأن كثيراً منهم شاهد مثل هذه الأشياء من قبل. ولم يضع الخليفة الوقت وأرسل لإستدعاء كاتبه وأمره بتحرير خطاب لإخواني وأخواتي يفيدهم بالشرف العظيم الذي أناله بخدمته ودعاهم للحضور لأم درمان لزيارتي وأكد لهم بأنهم سيكونون أحراراً في العودة بعد الزيارة. كما أمرني بكتابة خطاب لهم بنفس النمط. وبالرغم من علمي التام بأنهم لن يعيروا إهتماماً لدعوة الزيارة تلك، والتي ما جاءت إلا نتيجة لحالة طارئة من الإنشراح أصابت الخليفة، فقد حرصت علي تحذيرهم من التفكير فيها ولو للحظة. تم تسليم الخطابات لنفس الرجل الذي أرسله عثمان دقنة والذي تم توجيهه لإرسالهم لسواكن.

***

كان السبب الحقيقي لانشراح الخليفة ومزاجه الطيب هو بسبب وصول قبيلته، التعايشة، لأم درمان. فقد جاءوا غن طريق كردفان وحتي الترعة الخضراء علي النيل

الأبيض. وكان الخليفة قد كتب لهم للحضور واستلام المناطق التي قرر الله أن تكون لهم. وعند وصولهم كان تصرفهم ينبي بأنه لاسيد سواهم وقد حازوا علي كل ما تمكنت أيديهم من الإمساك به فقد سلبوا الجمال والبقر والحمير بالقوة من أيدي أصحابها أما الرجال والنساء الذين إلتقوهم في الطريق فكانوا يجردون من ملابسهم وحليهم ولعن أهالي المناطق، التي مرت بها القبيلة، اليوم الذي مكن أحد عرب الغرب من حكمهم.

ولتوفير الراحة لهم، أمر الخليفة بتشييد مخازن ضخمة للغلال بطول الطريق الذي يمرون به. وعند وصولهم لشاطئ النيل كانت السفن والبواخر في إنتظارهم لترحيلهم لأم درمان. لكنهم قبل أن يصلوا للمدينة أمرهم الخليفة بالتوقف علي ضفة النيل اليمني وقام بتقسيمهم لمجموعتين وعمل علي كسوة كل الرجال والنساء بملابس جديدة علي نفقة بيت المال وبعد ذلك تم إحضارهم ثلة بعد أخري، بين كل واحدة والأخري من يومين إلي ثلاثة أيام، لأم درمان. وحتي يعرف الجمهور بأن سادتهم الجدد قد قدموا، أخرج الخليفة كل سكان القسم الواقع بين الجامع وقلعة أم درمان من منازلهم وخصصها لسكني التعايشة. وسلمت أراضي أخري للذين أجبروا علي إخلاء مساكنهم ووعدوا بمساعدة بيت المال لهم لإعادة البناء. لكن هذا الوعد كان خاوياً وإنتهي بقيام كل منهم بالبناء بطريقته الخاصة.

ولتسهيل تموينهم بالطعام، ولما بدأت أسعار الذرة في الإرتفاع، أمر الخليفة بترحيل كل العيوش الخاصة بالتجار أو الأهالي إلي مشرع الحبوب وإلا تتم مصادرتها منهم. وبعد أن ضمن خدمات بعض الأوفياء منهم له، أمرهم ببيع تلك الذرة بأقل الأسعار للتعايشة وقام بتوزيع العائد من ذلك البيع لأصحابها الأصليين والذين كان عليهم بدورهم أن يعيدوا شراء المحصول بسعر مرتفع من مصادر أخري. وربما نفهم هذه (السرقة بالجملة) عندما أوضح لكم أن ما دفعه التعايشة لعشرة أرادب من الذرة لم يكفي إلا بالكاد لشراء أردبين بعد ذلك.

وعندما بدأت إمدادات الذرة في التناقص بأم درمان قام الخليفة بأرسال مناديب للجزيرة لمصادرة ما تبقي منها هناك. وبهذا الأسلوب الذي مارسه بأظهار تفضيله

الواضح لقبيلته وإنحيازه لها، أبعد نفسه تماماً عن أتباعه الآخرين ولكن هذا الأمر لم يكن يهمه كثيراً. فبوصول عرب التعايشة له فقد ضمن إنضمام عدة آلاف من المحاربين الجدد له.

***

والآن هجمت المجاعة علي البلاد. لم تسقط الأمطار تلك السنة وكانت بربر أول من أحس بوطأتها. تروي أراضي هذه المديرية بالسواقي النيلية علي فترات. وحتي في أحسن الظروف لم يكن إنتاجها من الذرة يكفي سكانها إلا بالكاد. من هنا شرع معظم أهالي بربر في النزوح لأم درمان والتي ضاقت بسكانها قبل ذلك ومن ثم زاد الوضع سوءاً وإرتفع سعر الذرة في بداية الأمر إلي أربعين ريالاً للأردب وبعدها بقليل وصل إلي ستين ريالاً. إستطاع الأغنياء تدبير مؤونتهم لكن الفقراء بدأوا يموتون بالجملة وصارت الشهور في أواخر عام ١٨٨٩من أصعب ما مر بالبلاد وصار الهزال عاماً بين الناس حتي أنهم ما عادوا يشبهون البشر وتحولوا إلي أكوام من الجلد والعظام ولم يجد المساكين ما يأكلونه ولو كان مقززاً وأخذوا يشوون الجلود القديمة للحيوانات ويأكلونها ويقطعون الشرائط الجلدية التي كانت تنسج بها العناقريب ويغلونها في الماء ويشربون حساءها. وأخذ من له بقية من قوة في الخروج للسرقة وكانوا ينقضون كالنسور علي الخبازين والجزارين، بدون أي إكتراث للكرابيج التي تنهال علي ظهورهم الهزيلة.

وأذكر أنني ذات مرة شاهدت رجلاً إنتزع قطعة من الشحم وحشرها في فمه قبل أن يتمكن صاحبها من إيقافه. قفز الأخير وأطبق يديه علي حلق الرجل وخنقه حتي جحظت عيناه لكنه أصر علي قفل فمه حتي سقط فاقد الوعي. وفي أنحاء السوق كانت تسمع صيحة (جاييكم! جاييكم) والتي تعني أن الجوعي أخذوا يتسللون إلي حيث تحتفظ بعض النسوة بأشيائهن الصغيرة المعدة للبيع وكنت تراهن وقد رقدن علي بضائعهن البائسة ويدافعن عنها بالأيدي والأرجل.

وإزدحم المكان الفاصل بين بيت الخليفة وبيت أخيه يعقوب بالجوعي البائسين والذين كانوا يصرخون ويتوسلون من أجل قطعة خبز.. وكنت أخشي من الذهاب ليلاً لمنزلي فقد



Famine Stricken.

ضحايا المجاعة

كان العديد منهم يتبعونني وبعض هؤلاء الشحاذين الجوعي كان يحاول إقتحام منزلي بالقوة. وفي ذلك الوقت لم يكن لدي ما يكفي إحتياجاتي المتواضعة واحتياجات من كان علي دعمهم أو مساعدتهم من أفراد بيتي أو أصدقائي والذين بلغ بهم الإدقاع والبؤس حداً لايوصف.

وفي إحدي الليالي القمرية كنت راجعاً لمنزلي حوالي منتصف الليل عندما شاهدت بالقرب من بيت الأمانة شيئاً يتحرك علي الأرض فاقتربت منه لأري ما هو. رأيت ثلاثة من النسوة شبه العاريات، بشعرهن المشط المتدلي علي ظهورهن، وكانوا متقرفصين حول جحش صغير ملقي علي الأرض، ربما كان قد ابتعد عن أمه أو ربما كان مسروقاً، وقد مزقن بطنه بأسنانهن وشرعن في إلتهام أحشائه بينما لازال الجحش المسكين حياً. شعرت بالقشعريرة من هول المنظر بينما حدقت النسوة، اللائي هيجهن الجوع، في وجهي بجنون. أما الشحاذون الذين كانوا يتبعونني فقد إنقضوا عليهن وحاولوا إنتزاع الفريسة منهن بينما لذت أنا بالفرار من هذا المشهد الغريب.

وفي مناسبة أخري رأيت إمرأة مسكينة، كانت جميلة قطعاً في يوم ما، وعلي وجهها النحيل علائم الإحتضار، راقدة علي ظهرها في الشارع بينما يحاول طفلها الصغير، الذي لم يبلغ العام بعد، أن يجد ما يطعمه من ثديها الجاف البارد. وجاءت إمرأة أخري كانت تمر صدفة فعطفت علي اليتيم الصغير وحملته معها.

وذات يوم جرجرت إحدي نساء الجعليين، وهم ربما كانوا أكثر قبائل السودان تمسكاً بالفضائل، تصحبها إبنتها الوحيدة، نفسها بكل مشقة حتي وصلت منزلي. كانتا علي شفا الموت من الجوع وتوسلن لي لمساعدتهن فأعطيتهن من بعض القليل الذي توفر لي. ثم قالت لي المرأة: « خذ إبنتي الوحيدة هذه كخادمة لك وأنقذها من الموت جوعاً» ولما قالت ذلك إنهمرت الدموع علي خدودها الغائرة بينما واصلت الكلام بصوت واهن لايكاد يسمع: «لاتخشي من إزعاجي لك بعد هذا. فقط أنقذها. لاتتركها تموت!» أعطيتهن كل ما تمكنت من توفيره وطلبت منهن مغادرة المنزل علي أن يرجعن ثانية عند الحوجة القصوي. لكنني لم

أرهن مرة أخري، وربما أخذت الشفقة عليهن أحد الخيرين من الأهالي. كما أتهمت إمرأة أخري بأكل طفلها وأحضرتها الشرطة للمركز لمحاكمتها. ولكن ما فائدة كل ذلك! لقد ماتت بعد يومين في حالة جنون مطبق!

باع الكثيرون أطفالهم من بنات وأولاد علي زعم أنهم من العبيد. لم يفعلوا ذلك من أجل المال ولكن، ببساطة، لانقاذ حياتهم. وعندما إنقشعت سنة المجاعة تلك قام آباؤهم بشرائهم ثانية وبأعلي الأثمان. تبعثرت جثث الموتي في الشوارع بالمئات ولم يكن هناك من هو قادر علي دفنهم وقام الخليفة بتشديد التعليمات للسكان بالقيام بدفن الموتي الذين بالقرب من منازلهم وإلا صودرت ممتلكاتهم. وقد كان لهذا بعض الأثر ولكن، لتحاشي المشاكل، إعتاد بعضهم علي جرجرة الجثث بعيداً عنهم مما ترتب عليه نشوب الشجار والعراك بين الجيران. وكانت مياه النيل الأزرق والأبيض المنحدرة باتجاه أم درمان تحمل يومياً مئات الجثث للمزارعين والتعساء الذين ماتوا علي الشواطئ؛ مما زاد الحالة سوءاً علي سوء في أنحاء البلاد.

أما في أم درمان فقد كان معظم الذين هلكوا من الوافدين وليسوا من سكانها الأصليين الذين تدبروا أمرهم وأمنوا لأنفسهم بعض المخزون من الذرة. وكانت القبائل تساعد بعضها بعضاً ورغم ذلك كانت بعض أجزاء السودان تمر بمرحلة بالغة السوء. وأعتقد بأن الجعليين، والذي هم أكثر قبائل السودان استقلالية وإعتداداً بالنفس، قد عانوا أكثر مما عاني الآخرون. وقام العديد من أرباب الأسر، الذين رأوا إستحالة العيش أو البقاء، بسد منافذ بيوتهم بالطوب بعد أن تجمعوا بالداخل مع أطفالهم انتظاراً للموت. ومن هنا لا أتردد في القول بأن قري بأكملها قد إندثرت.

ورغم أن سكان دنقلا عانوا من المجاعة إلا أنهم كانوا أحسن حالاً من الكثيرين. أما المنطقة بين أبي حراز، والقضارف والقلابات فقد كان الوضع فيها غاية في البؤس. وقام الزاكي طمل، عند بداية المجاعة، بتوجيه عماله المخلصين بجمع كل العيوش من المناطق المجاورة بالقوة وقام بتخزين الحصيلة لإطعام قواته وبهذا حفظ حياة معظم الجنود علي

حساب أعداد غفيرة من المواطنين والأهالي الذين هلكوا جوعاً. وبعد حين لم يعد أي شخص يتجرأ علي التجول في الشوارع بدون حراسة فقد كانوا يخشون من هجوم الجياع عليهم وأكلهم وتحول كثير من الناس إلي حيوانات آكلة للحوم البشر. وكان أحد أمراء الحمر، والذي كان في حالة طيبة من الصحة والعافية رغم المجاعة، قد أصر علي زيارة أحد أصدقائه بعد الغروب وذلك رغم التحذيرات المتكررة عليه لعدم الخروج بمفرده. لكنه لم يصل إلي صديقه كما لم يعد لمنزله. وفي صباح اليوم التالي وجد رأسه مقطوعاً خارج المدينة وأعتقد أن باقي جسمه قد أكل.

وإندثرت قبائل الحسانية والشكرية والعقليين والحمدة عن بكرة أبيها وتحولت بلادهم، التي كانت مكتظة بالسكان يوماً، إلي صحاري قاحلة*

وقام الزاكي طمل بإرسال تجريدة من الجند لمناطق جنوب النيل الأزرق بإتجاه تابي والبقريق وكوكولي وكشنكرو وجبال بني شنقول والذين كان سكانها، بالرغم من دفعهم الجزية للخليفة، قد رفضوا الحج أو المشاركة في الجهاد. لم يرسل جنوده من أجل القتال بل لجلب ما يمكن من القوت لإطعام قواته. لكن قائد التجريدة، عبد الرسول، لم يكتف بذلك بل قام أيضاً بأسر عدد من الأرقاء عاد بهم وبكميات من النقود.

لكن الوضع في دارفور كان أحسن قليلاً منه في القضارف والقلابات فقد توفرت لدي الأقاليم الغربية مثل دار تاما ودار قمر والمساليت عيوش وافرة ولكنهم، ولعدم خضوعهم التام أو موالاتهم، منعوا تصدير الحبوب للفاشر. ومن رأيي أن ما حدث من مجاعة كان عقاباً إلهياً علي الأقاليم التي خضعت للخليفة إذ أن الأقاليم المجاورة، غير الخاضعة لسلطته، توفر لديها الوقت للقيام بزراعة حقولهم والتي حصدوا منها مايكفيهم من العيوش. قام بعض تجار أم درمان باستئجار المراكب وتوجهوا بها لفشودة حيث قاموا بمبادلة

---

* مبالغة زائدة عن الحد من قبل المؤلف إذ لم تندثر أياً من تلك القبائل عن بكرة أبيها كما زعم (المعرب).

الذرة بالخرز وأسلاك النحاس أو شرائها نقداً. ولما تكلل سعيهم بالنجاح حذا الكثيرون حذوهم بل توغل بعضهم حتي السوباط وجلبوا كميات كبيرة من الحبوب. وهكذا كسبوا الثروة واغتنوا مثلما أنقذوا أهل بلدهم من الحوجة المريعة. ولو قام ملك فشودة، والذي لم يكن خاضعاً للخليفة في ذلك الوقت، بمنع تصدير الذرة لهلك نصف سكان أم درمان.

وأخيراً هطلت الأمطار، وأرتوت الأرض العطشي، وترعرعت المحاصيل الجديدة ثم اقترب موعد حصادها، وعم الفرح أنحاء البلاد من تباشير الأمل في الخلاص من تلك المحنة. لكن السماء أظلمت وإمتلأ الفضاء بأسراب ذات حجم غير عادي من الجراد وتلاشي الأمل في الحصاد الوفير. لكن لم يتسبب الجراد في دمار شامل رغم أنه منذ ذلك اليوم أصبح أمراً معتاداً يحدث كل عام. إهتم الخليفة بأمر إطعام قبيلته وأجبر الأهالي والزراع علي بيع الحبوب القليلة، التي حصدوها، بسعر بخس لايعقل لوكلائه. ورغم قلة ما إشتراه، مقابل المبلغ الذي كان عليه أن يدفعه، فقد واصل سياسته وصمم علي الاستمرار فيها وأمر ابراهيم عدلان بالتوجه بنفسه إلي الجزيرة وحث مواطنيها علي تسليم الذرة بمحض إرادتهم وبدون أن يدفع لهم حتي ذلك السعر البخس . لم يكن عدلان موافقاً بالمرة علي هذه الطريقة وعارضها بشدة رغم أنه كان قد وصل لمكانة عاليه في أعين الخليفة لدقته وحصافته في تدبير شئون المال. وكان الخليفة لايبحث الشئون العامة للدولة إلا مع أخيه يعقوب فقط وكان عدلان قد جلب لنفسه عداوة يعقوب، رغم أن يعقوب كان أكثر ذكاء من أن يبدي عداوته له.

وكان الناس يعرفون طيب سلوك عدلان وعلو همته وبعده عن النوايا الشريرة أو قهر المواطنين. وكثيراً ما كان وسيلة لتخفيف العبء عنهم لكنه أتهم، ربما لوجود أسباب لذلك، بجمعه لثروة طائلة وهذا مالم يكن الخليفة يجهله. وعند غيابه في مهمته أخبر يعقوب وعدد من خلصائه الخليفة بأن نفوذ عدلان بين الناس صار مثل نفوذ الخليفة، وأنه كان كثيراً ما يتحدث عن مولاه الخليفة بأستخفاف وينتقد سياسته في الحكم. ومضي الوشاة أكثر من ذلك بقولهم للخليفة أن عدلان قد أرجع أسباب المجاعة إلي تمييز الخليفة لقبيلته ومعاملته

الخاصة لهم. كانت نتيجة تلك المكيدة تقديم عدلان إلي محكمة صورية والتي حكمت عليه بقطع يده ورجله أو بالموت لعصيانه. ترك له أمر الإختيار فأختار الموت علي البتر. ربطوا يديه علي صدره ووسط فحيح الأمبايه الكئيب سيق إلي ميدان السوق ووراءه حشود ضخمة من المواطنين. صعد بهدوء علي العنقريب تحت المشنقة وأدخل رأسه بنفسه في الحبل رافضاً جرعة الماء التي قدمت له ثم طلب من الجلاد أن يكمل مهمته. تم شد الحبل وسحب العنقريب وتدلي إبراهيم عدلان كتمثال من الرخام حتي فاضت روحه وإصبعه ممدود للأمام بعلامة توحيد الله والتوكل عليه. وبكي الناس عليه وسمع نواحهم في أرجاء المدينة، رغم منعهم من ذلك.

فرح الخليفة بالتخلص من عدو خطير وتجاهل معاقبة الذين خالفوا أوامره بعدم البكاء عليه. وقد أرسل أخاه يعقوب لحضور الجنازة وكأنه يظهر للعالم أن عدلان قد لقي جزاءه العادل ووفقا للقانون وأن العداوة المعروفة بين الرجلين لم يكن لها دخل في الحكم.

خلفه في إدارة بيت المال النور ود إبراهيم والذي كان جده من التكارير. ولأنه لم يكن منتمياً لقبائل وادي النيل فقد نال حظوة ومكانه عظيمة لدي الخليفة عبد الله ونال ثقته التامة.

***

تعاظم تشكك الخليفة وتوجسه مني يوماً بعد يوم. وقبل فترة من ذهاب ابراهيم عدلان للجزيرة جاءني رد أسرتي علي خطاباتي التي أرسلتها عن طريق عثمان دقنة لهم. إحتوي ردهم علي الشئون الخاصة بالعائلة وعبروا عن سرورهم لوجود وسيلة للتواصل معي بعد كل هذا الوقت الطويل. وفي نفس الوقت كتبوا للخليفة بأدب وخضوع معبرين عن شكرهم وعرفانهم للمعاملة الكريمة التي يبذلها لي. وأكدوا له ولاءهم وإخلاصهم التام معبرين عن شكرهم للشرف العظيم الذي أسبغه عليهم بدعوتهم للحضور لأم درمان.

فأحد إخوتي إعتذر عن عدم إستطاعته قبول الدعوة لأنه يشغل في ذلك الوقت وظيفة سكرتير مكتب كبير الياوران لجلالة إمبراطور النمسا، بينما ذكر أخي الآخر بأنه محامي وملازم إحتياط في المدفعية. ولهذا لم يتمكن كلاهما، بسبب وضعهما الوظيفي، من القيام برحلة طويلة كهذه.

استدعاني مولاي الخليفة وناولني الخطابات وطلب مني ترجمتها له. وبعد أن تفكر في نفسه قليلاً قال لي: « لقد كانت رغبتي حضور أحد أخويك إلينا ورؤيتي. ولقد فعلت شيئاً لم أفعله من قبل وهو كتابة خطاب لهم. ولأنهم أبدوا إعتذارهم ورفضوا الحضور، ولأنهم يعلمون الآن بأنك بخير، فأنني أمنعك من أن تراسلهم مرة أخري. فالمزيد من التواصل بينكم لن يزيدك إلا تعاسة وشقاء. أفهمت قصدي؟» فأجبته: « بالتأكيد سأقوم بتنفيذ أوامرك. كما أنني أيضاً أري أن المزيد من الإتصالات بهم ليس أمراً ضرورياً» حدق فيّ بشدة ثم سألني: « أين الإنجيل الذي أرسلوه لك؟» فأجبته وقد فطنت لمراده: «إنني رجل مسلم ولا أمتلك أي إنجيل في منزلي. لقد أرسلوا لي ترجمة للقرآن الكريم، وقد شاهده كاتبك عند ما فتح الصندوق، ولايزال معي». فقال لي وهو يشير بالإنصراف: «إذن أحضره لي غداً».

لقد بدا لي واضحاً أنه لم يعد يثق فيني. وكنت أعرف منذ هزيمة ود النجومي أنه تحدث عدة مرات مع القضاة بهذا الخصوص. كنت قد صرفت كل مالي تقريبا علي الهدايا التي قدمتها لزملائي. وبدأ بعضهم يتزمر مبدياً خيبة أمله في قلة ما أدفعه لهم. وكنت أعرف أنهم يتآمرون ضدي. فمن الذي أدخل في رأسه أن نسخة القرآن الذي أرسله إخوتي هو الإنجيل؟ وفي اليوم التالي سلمته له وكان قد ترجمه للألمانية أولمان. تفحص الخليفة النسخة بعناية ثم قال لي: «إنك تقول أن هذا قرآن. لكنه مكتوب بلغة الكفرة وربما غيروا فيه» فأجبته بهدوء: « إنه ترجمة حرفية بلغتي والهدف من ذلك هو أن أفهم معاني ذلك الكتاب المقدس الذي جاء به الله والذي جعله النبي معروفاً لبني الإنسان وبلغة العرب. فأذا ما أردت فيمكنك إرساله إلي نويفلد، والذي هو مسجون الآن ولاصلة لي به ويمكنك التأكد منه علي صحة كلامي». فأجابني: «إنني لم أفقد الثقة بك وأنني أصدق ما قلته» وإبتسم بود وواصل حديثه: «لكن الناس قد حدثوني عن الكتاب وأنصحك بالتخلص منه».

وعندما أجبته بأنني مستعد للتخلص منه قال لي: «كما أريد منك إرجاع الهدية التي أرسلها لي إخوانك وأخواتك إذ لا فائدة لي منها وسيعلمون بعد ذلك أنني لا أقيم وزناً للأغراض الدنيوية».

ثم استدعي كاتبه وأمره بكتابة خطاب بأسمي لعائلتي يشير فيه ألا داعي للتراسل معي بعد الآن. وبعد أن وقعت علي الخطاب تم إرساله، ومعه حقيبة السفر، إلي بيت المال لتوصيله لسواكن. ومنذ لك الوقت إزداد حرصي عما كان من قبل لئلا أقوم بأي شئ يزيد من سوء ظنه تجاهي وهو الأمر الذي كنت أعرف أنه بدأ يعشش في رأسه. وبعد موت عدلان، رأي أن من الضروري تحذيري مرة أخري، وشدد علي ذلك، من أن أشارك في أي نوع من التآمر مهما كان. ثم استدعي جميع الملازمين وأكد لهم بلهجة عنيفة صارمة بأن هناك إشتباهاً بأنني جاسوس، وأنه بلغه بأنني كنت أسأل جمالة البريد عن الأحوال في مختلف الجهات التي يصلون منها، وأنني إستقبلت زواراً في منزلي، أثناء الليل، من أعداء الخليفة. بل قال أنني جاوزت حدودي بسؤالي في أي مكان تقع حجرة نوم الخليفة. ومضي يقول: «فأذا لم تغير هذا الخط الذي تسير فيه، فلاشك في أنك ستلاقي مصير عدوي القديم عدلان».

لقد كان ذلك ضربة قاسية لي. وعرفت الآن أكثر مما مضي بأنني في أشد الحوجة للهدوء وضبط النفس. فقلت له بصوت مرتفع: «إنني لا استطيع ياسيدي الدفاع عن نفسي ضد أعداء مجهولين لكنني برئ تماماً من كل ما قالوه لك وإنني أكل أمرهم لله. لقد وقفت علي بابك لستة سنوات، في الشمس والمطر، وأنا علي أتم استعداد لتلقي أوامرك والقيام بتنفيذها. وتنفيذاً لأوامرك هجرت كل أصدقائي ولم أعد أتصل بهم. حتي أقاربي قطعت صلاتي بهم وبدون أدني إعتراض. أما عن التآمر، فهذا أمر لم يخطر علي بالي أبداً. وطوال هذه السنوات لم أشكو من أي شئ. مولاي: ماذا فعلت لك؟ لقد قمت بما قمت لا من خوف منك، بل من منطلق حبي لك. لذا فلا استطيع القيام بأكثر من ذلك. وإذا أراد الله لي المزيد من الإبتلاءات فسأستلم بكل هدوء ورضي لمصيري لكنني لا أتكل إلا علي عدلك».

وبعد لحظة من الصمت سأل الملازمين من حوله: « مارأيكم فيما قال؟» فأجابوا بدون إستثناء بأنهم لم يروا في سلوكي ما يريب علي الإطلاق. وحتي أعدائي، الذين أعرف تماماً من هم، والمسئولين عن إيجادي في هذا الوضع الخطير، إضطرو للإعتراف بذلك. فقال

الخليفة: « إنني أعفو عنك. لكن عليك الإبتعاد في المستقبل عما يريب». ثم مد يده لي لأقبلها وأشار لي بالإنصراف.

وربما شعر بأنه أخطأ في حقي. لأنه إستدعاني في اليوم التالي وتحدث بلطف معي وحذرني مرة أخري من أعدائي والذين وصفهم بأنهم كالشوك في جسمي. كررت القول بحبي له وثقتي فيه. ثم أسر لي قائلاً: « لا تجعل لنفسك أعداء فأنت تعلم بأن أمر المهدية لاينبني إلا علي شرع الإسلام. فاذا ما قام إثنان بالشهادة ضدك بتهمة الخيانة أمام القاضي فأنك ضائع لا محالة إذ أنني لن أعارض شرع الله لأحميك».

كيف العيش في بلد تتعلق حياة الإنسان فيه بشهادة شاهدين! شكرته لنصحه ووعدته بأتباع ما قاله لي وإلتزمت له ببذل كل ما استطيع من أجل تحقيق ثقته فيني. وعندما عدت لمنزلي في منتصف الليل، منهكاً من هول الضغوط المتصلة التي أتعرض لها، أخبرني خادمي المخلص سعد الله، ولشدة ضيقي وإنزعاجي، بأن الخليفة قد أرسل لي مع أحد خصيانه قبل دقائق بأمرأة، هي الآن داخل منزلي متلفعة بثيابها.

كان علي أن أفرح بهذه الهدية لأنها دليل علي رضي الخليفة وعفوه عني. لكن أول ما فكرت فيه هو كيفية التخلص منها دون أن أثير شبهات الخليفة. دخلت مع سعد الله لغرفتي وإنتابني الفزع لما كشفت قناعها ووجدت تحته إمرأة مصرية ولدت بالخرطوم وكانت، من وجهة نظر السودانيين، ذات ملاحة وشكل حسن. كانت جالسة علي سجادة وبعد أن تبادلنا التحايا أجابت علي سؤالي عن جنسيتها بكلام سريع وجدت صعوبة في تتبع تاريخها ومسلسل حياتها الرومانتيكي رغم أنني أتقن اللغة العربية.

كانت، كما قالت، إبنة لضابط مصري، علمت فيما بعد بأنه كان مجرد جندي، قتل في حرب ضد الشلك عندما كان تحت إمرة يوسف بك. ولما كان ذلك الحدث قد مضي عليه أكثر من عشرين عاماً فقد استطعت بدون جهد أو حسابات معقدة أن أقدر عمر هذه السيدة الطيبة وأنها قد جاوزت العشرّينات بكثير. ولقد إعترفت لي بأن زوجها الأول قتل أثناء سقوط الخرطوم، وأن والدتها حبشية تعلمت في الخرطوم ولازالت علي قيد الحياة،

وأن لها عدد كبير من الأقارب. ولو لا أن رأسي كان حليقاً تماماً لقلت أن شعر رأسي قد وقف. فهذه السيدة التي إرتحلت كثيراً وذات التجارب الواسعة أخبرتني بأنها كانت واحدة من بين مئات النساء لأبي عنجة، وأنه قد تم إختياري الآن لأكون الخلف السعيد لذلك العبد القديم. فبعد موته تم أسرها مع العديدات من ضراتها بواسطة الأحباش وذلك عندما هاجم الملك يوحنا القلابات لكن سرعان ما حررها الزاكي طمل. كانت تعرف كل تفاصيل المعارك التي حدثت في المنطقة، والتي لو إحتفظت ذاكرتي بها لكانت مثيرة حقاً لإهتمام قرائي. فقبل زمن بسيط أمر الخليفة باحضار أرامل أبي عنجة لأم درمان لتوزيعهن علي أتباعه. ثم مضت قائلة بأن الخليفة بنفسه إختارها زوجة لي. وأضافت برقة بأنها فرحت لوقوعها في يد أحد أبناء جلدتها. أوضحت لها بأنني لست مصرياً، بل أوروبياً،

ولكن، لأن لون جلدي قد تغير لحد ما، ولأن الظروف التي أعيش فيها أعطتها المبرر لإعتبارها لي من جنسيتها، فقد اضطررت لأن أقول لها بأنني سأعيلها بقدر المستطاع وأعمل لراحتها. ولما كان الليل قد تقدم فقد طلبت منها أن تذهب مع سعد الله الذي سيجري ترتيبات إقامتها.

هذه هي هدايا الخليفة! فبدلاً من نفحي ببعض النقود من بيت المال أستطيع بها شراء بعض ما أحتاج له، لا يتواني من إرسال الزوجات لي واللائي كن، ليس فقط مصدراً لمزيد من النفقات عليهن، بل مصدراً للمزيد من القلق والهم في مقاومتي المتصلة لتحرير نفسي من وجودهن غير المرحب به. وصباح اليوم التالي سألني الخليفة ضاحكاً إن كنت قد تسلمت هديته وإذا ما أعجبتني. ولما كانت دروس اليومين الماضيين لازالت حية في ذهني فقد أكدت له فرط سعادتي بتلقي هذا البرهان لمودته لي وأنني، إنشاء الله، أرجو أن أنعم برضاه عني دائماً. وعندما رجعت لمنزلي قبل صلاة الظهر وجدته مكتظاً بالنسوة واللائي لم يكترثن باحتجاجات سعد الله وسخرن من غضبه ودخلن لمنزلي بالقوة. قدمن أنفسهن لي بأنهن أقرب القريبات لفاطمة البيضة، حسبما كان يطلق عليها الخليفة.

ثم قدمت سيدة حبشية متداعية نفسها لي كحماتي المستقبلية. ومن طلاقة لسانها عرفت علي الفور أنها أم فاطمة البيضة وعجبت كيف تسني لجسد هزيل صغير لمثل هذه

السيدة أن يتحدث بكل هذا الصوت العالي المزعج. عبرت عن سعادتها لأن إبنتها أوكلت لعنايتي وأضافت بأنها واثقة من أنني سأحلها في المكانة التي تستحقها ضمن أهل بيتي.

وها أنا الآن: عبد لطاغية، ومجبر علي الخضوع لأتعس الظروف والآن تحدثني هذه العجوز عن المكانة المستحقة لإبنتها!. أكدت لها بأنني سأحسن معاملة إبنتها، وبعد أن اعتذرت بمشاغلي الكثيرة وليت هارباً من المنزل. لكنني قبل أن أفر وجهت سعد الله بعمل ما يمكن لراحتهن، طبقاً لعوائد البلد، ثم يتخلص منهن جميعاً حتي لو إستدعي الأمر اشتراك بقية خدمي في مساعدته.

وبعد بضعة أيام استفسرني الخليفة عن أحوال فاطمة. ولما كنت أعلم برغبته في أن أخلد لحياة العزلة والهدوء ما أمكن ذلك، أخبرته أنه لا إعتراض لي علي شخصها في الوقت الحالي لكن أقاربها الكثيرين قد يتواصلون مع أناس لايرغب سيدي ولا أنا في الاختلاط بهم. وأنني لجهدي في منع ذلك التواصل، كنت أصطدم دائماً بها وبهن. ثم مضيت قائلاً بأنها إن لم تنصاع لأوامري أو تقدر ظروفي فأنني أري إعادة فاطمة لأقاربها وأهلها. وقد أبدي الخليفة ارتياحه لهذا القول.

لكن هذا لم يكن صحيحاً. فمنذ أن قام سعد الله باكرامهن، ومن بعد ذلك طردهن، لم تعد واحدة منهن مرة أخري لمنزلي. وتحسباً من كشف مرادي للخليفة صبرت لوقت طويل عليها تم قمت بأرسال فاطمة البيضة لأمها، والتي كان سعد الله قد عرف مكان إقامتها، وطلبت منها البقاء معها حتي أرسل لها فيما بعد. وبعد عدة أيام أرسلت بعض الملابس لفاطمة وأمها وكذلك بعض المال مع رسالة توضح لها أنها الآن حرة من أي علاقة بي ويمكنها أن تفعل ما تشاء. وقمت بأطلاع الخليفة علي ما فعلت وكررت له خوفي من أي علاقة يمكن أن تربطني بمن هم غرباء بالنسبة لي وله.. وقد عرف الخليفة من تصرفي هذا أنني في أشد الحرص لطاعته وتنفيذ أوامره. وبعد مرور شهر جاءت والدتها لزيارتي وإستأذنت مني في تزويجها لأخد أقاربها فوافقت علي ذلك بمنتهي الأريحية. ولما غادرت أم درمان، كانت فاطمة البيضاء أما سعيدة لعائلة سعيدة بأمدرمان.

***

الباب الرابع عشر

الخلاف والشقاق

«ثورة الأشراف - فرار الأب أو رفالدر والراهبتين - إنتقام الخليفة من الأشراف - القبض علي أعمام المهدي وإعدامهم - عودة الزاكي طمل لأم درمان محملاً بالغنائم - إعتقال الخليفة شريف - لا دخان بلا نار - تغيير مكان إقامتي - أنباء محزنة من النمسا - الخليفة يصاب بالمرض - قصة الطائر حامل الرسالة - سقوط الزاكي طمل - معركة أغوردات - إحتلال كسلا - ولاية الكنغو الحرة في الإستوائية وبحر الغزال - رفضت الزواج بأبنة عم الخليفة».

تم إطلاق سراح عدوي القديم محمد خالد، بعد أن قضي في السجن عدة أشهر، وعين حاكماً لدنقلا بدلاً عن يونس. لكنه لم يمكث في منصبه طويلاً حتي سقط ضحية لمؤامرات إثنين من أبناء عمومة الخليفة كانوا قد أرسلوا لمراقبة تصرفاته. إستدعي خالد مرة أخري لأم درمان حيث أعيد للسجن والأغلال. كان رد الفعل عنيفاً بالنسبة لعائلة المهدي الراحل وأشياعه. وترتب علي ذلك قيام الخليفة شريف مع إثنين من أبناء المهدي، لم يتجاوزا العشرين من العمر، وكثير من أقاربهم بالإتفاق فيما بينهم لإزالة حكم الخليفة عبد الله البغيض واستلام دفة الحكم بدلاً عنه.

وضعوا خطتهم بسرية تامة في أم درمان ولم يعرف بها غيرهم إلا أصدقاؤهم وعدد كبير من أفراد قبيلتهم. كما قاموا بأرسال خطابات للدناقلة الذين يعيشون في الجزيرة ودعوهم للحضور لأم درمان والإنضمام إليهم. لكن أحد الأمراء الجعليين خذلهم. فقد ارتبط بقسم غليظ بألا يخبر سوي أخاه أو أخلص أصدقائه. لذلك قام بأبلاغ الخليفة قائلاً أنه يعتبره صديقه المخلص. وبعد أن تيقن الخليفة من المؤامرة القادمة شرع فوراً في إتخاذ الإجراءات المضادة لها. لكن الأشراف علموا، عن طريق جواسيسهم، الذين حذروهم وأبلغوهم بأوامر الخليفة السرية وما اتخذه من إجراءات، بأفتضاح مؤامرتهم وشرعوا دون تردد في التجمع شمال بيت الخليفة استعداداً للمواجهة.

كنت شخصياً أتطلع لنشوب الصراع بين الجانبين، فليس لدي سوي حياتي لأفقدها، وهي حياة دائمة العذاب والشقاء. كان أمامي مثال ابراهيم عدلان وكنت أعلم بأن الخليفة لايعطي وزناً حتي لحياة أقرب وأخلص أصدقائه. فأي صراع داخلي سينتهي بأضعاف أعدائي وهذا وحده يكفي لإرضائي. أكثر من ذلك، فأن الإضطراب الذي سينشب قد يتيح لي الفرصة للحصول علي حريتي وربما أمكنني استخدام نفوذي علي جنود الحكومة السابقين، والذين أعلم بأنهم غير راضين عن المعاملة التي يجدونها. ولكن تحت هذه الظروف غير العادية فقد وجدت أن من المستحيل أن أتمكن من التخطيط أو وضع خطة واضحة للعمل. كل رغبتي هو أن أري الحرب تنشب بينهم، وأن أعمل علي الإستفادة القصوي من ذلك.

ثم تحمس أحد المتمردين وشرع في إطلاق النار وقام البعض من جانبنا، ضد التعليمات الصادرة، بالرد عليهم. لكنها لم تكن معركة بالمعني المعروف، بل مجرد طلقات تطيش هنا وهناك. ويبدو أن المتمردين لم يعرفوا ما يريدون وكان قادتهم مترددون وسلاحهم ردئ صدئ، وكذلك كانت شجاعة الأشراف وأتباعهم. وبعد وقت قصير توقف إطلاق النيران وبلغ عدد القتلي من جانبنا خمسة. أصدر الخليفة نداء، حمله الخليفة علي ودحلو للثوار، وكان ردهم عليه إيجابيا. أرادوا أن يعرفوا شروط الصلح فجاءهم الرد بأن يقدموا مقترحاتهم لذلك. استمرت المفاوضات طيلة اليوم وحتي الليل وعادوا مرة أخري في اليوم التالي. ولخيبة أملي الشديدة تم التوصل بينهم إلي تفاهم واضح ووافق الخليفة عليه وأقسم علي ذلك. وعد بالعفو عن جميع الذين اشتركوا في التمرد، وعلي إعطاء الخليفة شريف مكانة تليق بكرامته، ومقعداً في مجلس الخليفة، وإعادة راياته، التي ألغيت بعد موت النجومي، له، والسماح له بتجميع المتطوعين تحتها وأخيراً، تخصيص دعم مالي من بيت المال لأسرة المهدي وأقاربه طبقاً لما يقترحه الخليفة شريف.

في مقابل تلك الإمتيازات وافق الثوار علي تسليم سلاحهم، والإنصياع الكامل لأوامر الخليفة. تمت إجازة الإتفاق وشروط الصلح بواسطة المندوبين من كلا الجانبين. ولكن،

ولسبب ما، لم يبد علي أي جانب أنه متعجل لتنفيذ ما اتفق عليه. وفي صباح الجمعة التالي حضر زعماء الثوار ومثلوا أمام الخليفة وتم تجديد الإلتزام بما إتفق عليه كما قاموا بتأكيد خالص ولائهم للخليفة. وعند العصر حضر الخليفة شريف وأبناء المهدي وقابلوا الخليفة عبد الله واكتمل الصلح وساد السلم تماماً وأعيدت فصائل المشاة والفرسان، التي كانت معنا ليلاً ونهاراً منذ بداية الإضطرابات، إلي مراكزها وغادرت الجامع. ولكن لما لم يتم بعد تسليم سلاح الثوار، فقد ظل الجهادية والملازمين في مواقعهم حسب الأوامر الصادرة لهم.

***

وعصر يوم الأحد أرسلت أحد خدمي للأب المبشر، جوزيف أورفالدر، للسؤال عن أحواله. وجد الخادم باب المنزل مقفلاً فقمت، دون حساب للعواقب، بسؤال الجيران عنه كما سألت اليونانيين وبعض التجار السابقين والذين، كما أخبرني خادمي، كانوا قد دققوا في البحث عنه لكنهم لم يعثروا علي أي أثر له ولا للأختين المبشرتين اللتين كن معه. خطر في بالي علي الفور بأنه ربما وجد، أثناء فترة الإضطرابات، بعض الأشخاص الموثوق بهم والذين عملوا علي تسهيل فراره. وهذا ما تم بالفعل.

وقبل صلاة المغرب قام أمير المسلمانية (الأوروبيون الذين أرغموا علي دخول الإسلام) ومعه السوري جورج اسطمبولية، وهما في حالة بالغة من القلق والتوتر، بطلب المثول أمام الخليفة، إذ أن أمراً هاماً حدث ولابد من إبلاغه به. ولما كان الخليفة مشغولاً لدرجة كبيرة بشئون يعتبرها غاية في الأهمية، فقد أمرهما بالإنتظار في المسجد. وبعد صلاة العشاء سألهما عما يريدان منه. أخبراه بصوت مرتعش بأن يوسف القسيس قد إختفي منذ الأمس ومعه النسوة اللائي كن معه. إنزعج الخليفة وبان عليه الضيق الشديد وإستدعي النور الجريفاوي، أمين بيت المال، ومحمد وهبي، آمر الشرطة وطلب منهما بذل كل جهد للقبض علي الهاربين وإحضارهم لأم درمان أحياء أم أمواتاً. ومن حسن حظ اليونانيين التعساء أن الخليفة كان مشغولاً بأمور أخري وإلا لكان قد إعتقلهم جميعاً وصادر

ممتلكاتهم لأن أورفالدر كان يسكن بينهم. ولحسن الحظ أيضاً أن جميع الجمال، يوم فرارهم، كانت قد أرسلت لجلب الجنود ولم يستطع النور الجريفاوي ووهبي أن يجدا أكثر من ثلاثة جمال لمطاردة أورفالدر، والذي كان يعرف أن نجاحهم في الهروب يعتمد علي الإسراع الشديد. تمنيت من أعماق قلبي النجاح للهاربين. فلقد عاني الأب أورفالدر الأمرين وتحمل ذلك في صبر مسيحي وجلد كبير. شعرت بالوحشة الآن فقد كان الوحيد الذي كان متوافقاً معي فكرياً والذي كنت أتحدث معه، ولو نادراً، بلغتي الأم.

وفي اليوم التالي استدعاني الخليفة والذي وبخني بشدة علي فرار أورفالدر وقال لي غاضباً: « إنه واحد من بني جلدتك، وكان متواصلاً معك. فلماذا لم تلفت نظري لاحتمال هروبه حتي أتخذ من الإجراءات ما يحول دون ذلك؟ إنني متأكد من معرفتك لنيته بالهروب». فقلت له: سيدي: «أرجو عفوك. فكيف لي أن أعرف بنيته علي الهرب وكيف أخبرك بما فعله؟ فمنذ الإنتفاضة الثورية التي حاول القيام بها أعداءك عليهم لعنة الله والذين، بحمد الله هزمتهم بحكمتك، فأنني لم أبارح موقعي ليلاً أو نهاراً. ولو كنت علمت، بخيانته لأخبرتك في الحال». ورداً علي قولي قال لي غاضباً: « لاشك في أن قنصلكم هو الذي دبر أمر خروجه من هنا».

كان من بين الخطابات التي تلقيتها واحداً مكتوباً بالعربية، كتبه قنصل إمبراطورية النمسا والمجر العام، فون روستي، للخليفة. شكره علي حسن معاملته لأعضاء البعثة الإرسالية الكاثوليكية السابقة وفي نفس الوقت سأله الإذن لإرسال مبعوث لهم وطلب إذنا من الخليفة بكتابة تصريح بالمرور لهم لأنهم تابعون للحماية النمسوية ولأن جلالة الإمبراطور يكن لهم إعتباراً خاصاً. أراني الخليفة الخطاب الذي لم يرد عليه. ومنذ ذلك اليوم بدأ ينظر لأعضاء الإرسالية كأبناء بلدي وصار الآن مقتنعاً بأن من ساعدهم علي الهرب ليس سوي ذلك القنصل العام. علقت علي ذلك بقولي أن من المحتمل بأن بعض التجار من قبائل الحدود، والذين كثيراً ما حضروا لام درمان، ربما استغلوا فترة الإضطرابات للعمل علي تهريب الأب أورفالدر والأخوات وذلك بغرض الحصول علي مكافأة

مـالية لهم. لكن الخليـفـة، والذي كـان لايزال مشـغـولاً بالثـورة، أخذ بما قلت له. وبعـد أن قرعني وشدد علي أن أحافظ علي إخلاصي وولائي طلب مني الإنصراف.

***

وبالرغم من كل وعود الخليفة للأشراف إلا أنه سرعان ما وجد ذريعة لإلقاء القبض علي ثلاثة عشر من رؤسـاء التمرد، إضـافة للإثنين من أعمـام المهدي وقـام بترحـيلهم للمنفي بفشودة علي متن إحدي البواخر. أوكل الأمر لأميره المخلص الزاكي طمل والذي كان قد أخمد ثورة للشلك من قبل. وعند وصولهم قام الزاكي طمل بحبسـهم لثمانية أيام في زريبة حصينة وبدون أي مـاء أو طعام تقريباً إلا ما يكفي فقط لإبقائهم علي قيد الحياة. وبعد ذلك، وطبقاً لتعليمات سرية تسلمها، أمر بضربهم حتي الموت بعصي قطعت للتومن أشجار شوكية. تم الإعدام بمرأي من كل الجيش في فشودة وقبل أن تبدأ هذه العملية الوحشية كانت ثيابهم قد مزقت من علي أجسامهم الهزيلة بدون شفقة أو رحمة.

ورجع الزاكي طمل لأم درمان محملاً بالغنائم وقد أحضر معه ألوف الرقيق من النساء وقطعان ضخمة من الماشية والتي جلب بيعها أموالاً ضخمة. لكن معظم أمراء الزاكي إشتكوا من طغيانه، بل أكدوا للخليفة بأنه إذا ما تمكن من جمع العدد الكافي من الأتباع فلن يتردد في الإستقلال بنفسه. لكن الزاكي، بماقدمه من الهدايا العظيمة للخليفة، رقيق وأموال وماشية، ولأخيه يعقوب نجح في الإحتفاظ بمكانته الكبيرة عندهما.

وعندمـا كـان الزاكي طمل في أم درمـان، قـام الخليـفـة بسلسلة مناورات بين قـواته والقوات المعسكرة بأم درمان وقادها بنفسه. ولما كان جاهلاً بالعلوم العسكرية، ولما كان الجنود الثلاثين ألفاً في منتهي عدم النظام والفوضي، فقد إنتهت المناورات في حالة بائسة من الإضطراب وعدم النظام وألقي الخليفة كل اللوم علي عاتقي، فقد عينني ضابطاً معاوناً للمناورة من نوع ما، ولما أحس بما وقع فيه من الإرتباك والخلط إندفع يسبني وقال إنني خالفت أوامره عمداً وتسببت في ذلك. لم أجرؤ بالطبع علي معارضته وواصلت تنفيذ أوامره بمنتهي الهدوء. وأخيراً أعلن إنتهاء المناورات وأمر الزاكي طمل بالرجوع للقلابات ثم، وكما جرت العادة، قام بالثناء علي أدائي وأهدي لي جاريتين سوداوتين كبرهان علي حسن نواياه تجاهي.

علم الخليفة شريف، في هذه الأثناء، بمقتل أقاربه وقام بالإحتجاج علناً علي هذا التصرف الإستبدادي، وبهذا أعطي الخليفة عبد الله الفرصة التي كان ينتظرها منذ وقت طويل وبصبر شديد للإنتقام. فأعلن أن الخليفة شريف قد أذنب بعصيانه للتعاليم التي رسخها المهدي، ولعدم إعتباره لمقدسات الإسلام، وأمر الخليفة علي والقضاة بمحاسبته علي الأقوال التي تفوه بها، وليوضحوا له بأن الإنطباع الكاذب عن حقوقه كخليفة هو الذي تسبب في موت أقربائه وأتباعه. وسرعان ما إجتمع كل القضاة وكبار الأمراء وقرروا ضرورة إلقاء القبض الفوري علي الخليفة شريف، وفي صبيحة اليوم التالي تشكل حرس الملازمين بهيئة مربع وذلك في الميدان الواقع بين منزل الخليفة وقبر المهدي وتوجهوا بهذه الهيئة إلي الخليفة شريف حيث أخبروه بقرار اعتقاله ونصحوه بالإستسلام وأن يذهب معهم بكامل إرادته. والآن، وبعد فوات الأوان، عرف مدي ما ألحقه بنفسه جراء إهماله وعدم التحفظ في ما تفوه به. خرج للملازمين الذين كان يقودهم عربي دفع الله ولما طلب حذاءه رفضوا الإستجابة له. وعندما خرج من المسجد قاموا بدفعه أمامهم بعنف لدرجة أنه سقط مرتين علي الأرض من الإرهاق حتي وصل إلي سجن الساير في حالة بالغة السوء. وفي السجن كبلت أقدامه بالحديد لدرجة منعته من الحركة إلا بالكاد وخصصت له قطية صغيرة من القش ليبقي فيها، وقطعت عنه الإتصالات بأي كائن كان. وهو راقد علي الأرض الجرداء، أخذ يتمعن فيما آل إليه الحال وعرف أن أي عهد يقطعه أي خليفة يصبح عرضة للنكث إذ ما كان الأمر متعلقاً بالبقاء في السلطة أو لإشباع الرغبة في الإنتقام. أرسل أبني المهدي إلي جدهما أحمد شرفي وأمر بابقائهما مقفولين بالمنزل وعدم السماح لأي كان برؤيتهما. كان أحمد هذا رجلاً طاعناً في السن وكان قد كون ثروة ضخمة بوسائل غير مشروعة. ولخشيته من ضياعها صار خاضعاً خضوعاً تاماً، وكأنه عبد، للخليفة. وبهذا حاز علي رضاه بعض الشئ عنه.

***

بعد تلك الأحداث مررت بفترة من الإثارة الشديدة. فقد قام الأمير يونس بأرسال رجل من دنقلا للخليفة، كان قد عاد لتوه من القاهرة، ومشحون بأخبار ومعلومات هامة من الحكومة. إستقبله الخليفة بنفسه في حضور كل القضاة. جاءني شعور غامض بأن لوصول ذلك الرجل علاقة بي بصورة أم بأخري وحاولت أن أعرف من أحد القضاة، كان صديقاً لي، ما جري. فأخبرني مستعجلاً بألا أخشي شيئاً ونصحني بألا أبدي أي إهتمام بالأمر وإلا عرضت نفسي للشبهات. وبعد أداء الصلاة إستدعي الرجل والقضاة مرة أخري للمثول أمام الخليفة. وما كان أشد فرحي عندما رأيت الرجل مكبل اليدين والقدمين وقد حملوه للسجن. تجادل زملائي فيما بينهم عن سبب سجن الرجل. أخذت بالنصيحة التي أسرها لي القاضي وإمتنعت عن التدخل في الجدل الدائر. وفي اليوم التالي، وكنت قد ذهبت لمنزلي لفترة قصيرة، إستدعيت فجأة للخليفة ووجدت معه عدداً من القضاة. جلست علي الأرض معهم حسبما أشار لي الخليفة ثم بدأ في الحديث.

إلتفت نحو الجالسين وقال لهم أنه كثيراً ما قام بحثي علي الطاعة، وأنه لاينظر إلي إلا كنظرة الوالد لولده، وأنه رفض بأستمرار أن يصدق الإتهامات العديدة التي تقدم ضدي من وقت لاخر. ثم التفت نحوي وأكمل حديثه بالمثل العربي «لا يوجد دخان بلا نار» وأضاف قائلا: «وبالنسبة لك فأن هناك دخاناً كثيراً. فلقد قال الرجل الذي أرسله يونس بالأمس بأنك جاسوس للحكومة وأن لك مرتباً شهرياً يدفع لوكيلك بالقاهرة والذي يقوم بدوره بأرساله لك هنا. وأكد الرجل لنا بأنه قد رأي توقيعك في المكتب الحكومي بالقاهرة، وأنك ساعدت يوسف القسيس علي الهرب، ثم قال أكثر من ذلك: بأنك إلتزمت للإنجليز بأن تسيطر علي مخازن الأسلحة والذخيرة عشية هجومهم علي أم درمان، فهم يعلمون بأنها تقع بالقرب من منزلك ومقابله بالضبط. أرسلنا الرجل للسجن لأنه كان قد هرب من هنا قبل ذلك. والآن ماذا تقول دفاعاً عن نفسك؟». فأجبته بقولي: « مولاي! إن الله رحيم وإنك عادل. إنني لست جاسوساً، وإنني لم أتصل إطلاقاً بالحكومة، ومن غير الصحيح علي الإطلاق إنني أتسلم مرتباً وأنه يرسل لي هنا. فأخواني الملازمين الذين يدخلون ويخرجون

من منزلي يعرفون أنني غالباً ما لا أجد إحتياجاتي الضرورية ولا أستطيع توفيرها. ولو لا إحترامي العميق لك لقمت بالشكوي. هذا الاحترام العميق لك هو الذي منعني من الشكوي. أما إذا كان ذلك الرجل قد رأي توقيعي فهو بالتالي مذنب لكذبه مرة أخري فأنني متأكد من عدم قدرته علي قراءة أي لغة أوروبية، وأنا مستعد، إذا أردت ذلك، أن أكتب علي ورقة عدة أسماء ومن بينها إسمي. فاذا ما استطاع أن يتعرف عليه فهذا برهان علي أنه يستطيع قراءة لغتنا. ورغم ذلك فهذا لن يكون دليلاً علي جاسوسيتي». فسألني الخليفة: « هل لديك شيئاً آخر ضد الرجل؟» فواصلت كلامي وقلت له: «ما نوع الخدمة التي قدمها ذلك الرجل للحكومة؟ فاذا كنت أنا جاسوساً فلا شك في أنني كنت أأتمنه علي أسراري. أما فيما يختص بيوسف القسيس فأنك تعلم ياسيدي بأنه هرب في وقت كان من المستحيل علي أن أتصل به. فأنا دائماً بالقرب منك ولاصلة لي بالذين يساعدون الآخرين علي الهرب. وحتي لو إستطعت ذلك، وأنني كنت خائناً حقاً، فسيكون من الطبيعي في هذه الحالة أن أفر بنفسي. ومن السهل علي الإنجليز أن يعرفوا بأن منزلي يقع في مقابلة مخزن الذخيرة، لأن الرجل الذي قام باحضار الخطابات من إخواني وأخواتي، بعد الإذن منك، يعرف مكانه وكل الدلائل تشير إلي أنه أخبرهم بذلك. أيضاً من الممكن أن يعمل أقاربي، الذين توقفت عن الإتصال بهم طبقاً لأوامرك، علي سؤال كتبة الحكومة أو التجار الذين يذهبون من هنا للقاهرة، والذين غالباً ما يعلمون بمكان منزلي عن ذلك. أما القول بأنني سأستولي علي مخازن ذخيرتك إذا ما نشبت الحرب، فهذا زعم مضحك تماماً. فلو سألتني عن نشوب حرب فأنني علي يقين بأن الحكومة لن تجرؤ علي مهاجمتك في قلب دارك، وأنت الخليفة الذي لايقهر والذي لم تنكسر راياته قط. وحتي لوصح هذا الأمر المستحيل في نظري، فكيف لي أن أعلم إذا ما كنت سأبقي في منزلي الحالي حتي ذلك الوقت؟ وأؤكد لك أنه لو حدث هجوم عليك فأن مرادي كله هو أن أقف في الصف الأمامي لجيوشك المنصورة وهناك أسعي لنيل الفرصة التي تمكنني من إثبات ولائي وإخلاصي عن طريق سفك دمي من أجلك. يامولاي! إنني واثق من عدالتك والتي

عرفها الجميع. فهل تضحي برجل، ظل لسنوات طوال نعم الخادم الوفي لك، من أجل وشاية دنقلاوي هو واحد من أعدائك؟» فسألني الخليفة علي الفور: وكيف عرفت أن الرجل الذي شهد ضدك هو دنقلاوي؟» فأجبته: « لقد رأيت الرجل واقفاً علي باب منزلك، قبل فترة طويلة، وكان معه عبر الرحمن ولد النجومي الشهيد* ونظراً لوقاحته وصفاقته فقد ناديت الملازمين لطرده بالقوة. ولاشك في أنه يسعي الآن للإنتقام مني ويحظي برضاك عنه في نفس الوقت عندما يلقي الشبهات في وجهي. وأنت الذي أعطاك الله الحكمة لتحكم شعبك لن تحكم علي إلا بعين الحق والعدل». فقال لي الخليفة بعد صمت طويل: « ليس لأحكم عليك ولكن لأريك أنه بالرغم من كل المحاولات لإلقاء الشبهات حولك فأنني لم أسحب ثقتي فيك. ولو كنت قد صدقت ما قاله الرجل عنك لما قمت بالقائه في السجن. أنني أعتقد بوجود أعداء لك ها هنا ومن المحتمل أن هنا من يحسدك علي وجودك بالقرب مني. ولكن إحذر! فما لم تكن هناك نار فلن تجد دخاناً». ثم أشار لي بالانصراف وسرعان ما إنفض المجلس.

عند المساء سألت أحد زملائي الذين أثق فيهم عما قاله الخليفة بعد إنصرافي فأخبرني أن الخليفة إعترف بكذب الرجل رغم أن فيما قاله قد يكون بعض الحقيقة. وقال أيضاً أن من المحتمل أن يكون لي أعداء في القاهرة يتآمرون علي. لقد خطر هذا ببالي عند ما كنت أدافع عن نفسي أمام الخليفة لكنني لم أتطرق له لحرصي علي ألا ألقي بكل أوراقي علي الطاولة. لكنه عندما فكر في نفس الأمر الآن فأن صمتي جعلني في وضع ممتاز لأنني أستطيع استخدام ذلك التصور في دفاعي عن نفس إذا ما تعرضت لتهم جديدة في قادم الأيام. ولكن إلي متي سأظل في هذا الوضع التعس؟ وإلي متي أستمر دائماً، وتحت هذه الضغوط الهائلة التي أتعرض لها، في موقف الدفاع؟ وإلي متي ستستمر علاقتي الحالية بالخليفة؟ إنني أدرك تماماً أنه في إنتظار الفرصة التي تمكنه من إذلالي وتجريدي من أي قوة لي فهو يعلم في قرارة نفسه بأنني عدو له. لكن، والحق أقول، أنني حمدت الله حمداً

* بمحض الصدفة كنت قد سمعت بأن اسم الرجل هو الطيب ودحاج علي وأنه كان ذات مرة في أم درمان مع النجومي.

كثيراً حاراً لمعاملته اللينة لي بغير ما يعامل الآخرين وتذكرت كيف صعب علي نفسي تطبيق نصيحة مادبولي. لكن حقاً: من يعش طويلاً يري الكثير!

وفي صباح اليوم التالي، بعد الصلاة، كنت في طريقي لمنزلي عندما فوجئت بالنور الجريفاوي، الذي خلف ود عدلان في أمانة بيت المال، والدي كان علي صلة طيبة معي. فقلت له بعد أن مددت يدي لمصافحته: « انك زائر نادر لذا اسأل الله أن تكون زيارتك لأمر طيب!» فقال لي: «نعم، رغم أني سأزعجك قليلاً. إنني محتاج لمنزلك وأطلب منك مغادرته اليوم وسأعطيك بديلاً عنه منزلاً بجنوب شرق الجامع والذي كان مستخدماً كبيت ضيافة لزوار الخليفة. إنه أصغر قليلاً من منزلك لكن المسافة بنيه وين الجامع قصيرة جداً وبالتالي فهو مناسب جداً لرجل ورع مثلك!» فقلت له: «حسناً لكنني أرجوك أن تخبرني، بيني وبينك، عمن أرسلك لي. أهو الخليفة أم يعقوب؟» فأجابني ضاحكاً: « آه! هذا سر! ولكن، بعد محادثتك بالأمس مع الخليفة، فأنك ستعرف السبب وتفهمه». ثم أضاف بسخرية: «ولكن من المحتمل أن يكون سيدنا، لفرط حبه لك، يريد أن يراك بجواره. فمنزلك الجديد لايبعد أكثر من مائتي خطوة من منزله. فمتي أحضر لإستسلام المنزل منك؟» فقلت له: « هذا المساء سأنتهي من الرحيل. ولكن قد أحتاج لبعض الوقت لنقل علف جوادي وبغلي. هل المنزل المخصص لي خال الآن؟» فقال الجريفاوي، وهو يغادر:« بالطبع هو خال وقد وجهت بنظافته وأنا راجع الآن للقيام ببعض الإجراءات الضرورية ومن الأفضل أن تبدأ التحرك فوراً وأتمني أن يكون منزلك الجديد أفضل من القديم وأن يجلب لك حظاً أفضل».

لم يعد لدي شك في أن هذا القرار كان دليلاً واضحاً لتدهور ثقة الخليفة في شخصي فقد إهتم بترحيلي من جوار مخزن الذخيرة والسلاح والتي يفترض أنني سأستلمها عند نشوب الحرب. استدعيت كل أهل بيتي وطلبت منهم التحرك علي الفور. لعنوا الخليفة ودعوا عليه وسألوا الله أن ينزل عقاب السماء عليه، فقد قاموا شيئاً فشيئاً، وسنة بعد أخري ببناء المنزل كما قاموا بحفر آبار لعمق خمسين قدماً وزرعوا الليمون وأشجار الرمان والتي كادت أن تصل لمرحلة الإثمار وعملوا كل شئ لتوفير الراحة لي ولهم. أما

بالنسبة لي فلم أكترث بالرحيل وكم تمنيت وصليت من أجل مغادرتي لهذا المنزل... لكن ليس بهذه الطريقة! وعلي كل حال، وكما قال الجريفاوي، فربما يجلب لي المنزل الجديد حظاً أفضل علماً بأنني لست الوحيد الذي طلب منه إخلاء منزله في وقت وجيز. فقد تم إخلاء كل الجزء من المدينة شمال بيت الخليفة، وبعد إعلان قصير، لإسكان الأشراف وأقاربهم، بل طلب من قاطنيه عدم أخذ عفشهم معهم كما لم يتم تعويضهم بل سلم كل صاحب منزل، بعد أخلائه له، قطعة من الأرض الحجرية، غرب المدينة، وطلب منهم بناء بيوتهم الجديدة هناك. من هنا فقد كان حالي أفضل منهم.

أثرت الأحداث الأخيرة كثيراً علي معنوياتي وبدأ الوضع أمامي يزداد قتامة يوماً بعد يوم ولدرجة لا تحتمل. لكن المزيد من المشاكل كانت في أنتظاري لدرجة نسيت معها ما أشكو الآن منه.

فقد تبين لأحد الذين أعرفهم، وهو تاجر من دارفور طاف كثيراً ذهاباً وإياباً بمصر والاسكندرية وسوريا وأصبح عارفاً بمختلف الدول والجنسيات، أنني مواطن نمساوي. وقد صدق في حدسه بأنني، رغم أسري لعدة سنوات وإنقطاعي عن التواصل مع أهلي ومواطني بلدي، فأنني في شوق وإهتمام عظيمين بأخبار وطني وما يتعلق به من شئون. تحدث معي في الجامع وأخبرني بسرعة عن الأحوال في مصر ثم سلمني جريدة مصرية قديمة قال أنه أحضرها من الإسكندرية وكان بها مقال يختص بالشئون النمساوية. هرعت إلي منزلي وفتحت الجريدة ووجدت فيها ما أفزعني وضعضع كياني: أخبار عن موت ولي عهدنا رودلف. لا استطيع وصف الحزن الذي سببه هذا الخبر لي. فقد خدمت في كتيبته ولم أفقد الأمل قط في أنني يوماً ما سأعود لوطني، ولأبثه سروري بأنني، وسط كل الأحداث الغريبة التي مررت بها، فأنني لم أتصرف إلا كضابط يتشرف بالإنتماء إلي الفوج الإمبراطوري. ولكن بماذا تقارن المصاعب والبلايا التي لاقاها رجل مغمور مثلي بهذه المصيبة العظيمة للأمة النمساوية؟ لاشيء! ومرة بعد أخري ينصرف تفكيري إلي الحزن الذي يعيش فيه امبراطورنا المحبوب، والذي نعتبره نحن النمساويون أباً لنا. فكيف كان شعوره وكيف تحمل تلك المعاناة والأحزان!

امتلأ عقلي بتلك الأفكار الحزينة، وأنا بين هذه الحشود التي لا يهمها أمري، لكنني لم أظهر لهم تأثري بها. فقد إحتجت لكل قدراتي للسيطرة علي نفسي وضبط مشاعري أمام أعين ونظرات المهدويين وخاصة عندما أفكر في وطني المحبوب. وأثناء صراعي الداخلي الذي لايفارقني كنت أحن لليوم الذي يضع نهاية لوجودي البائس وأتطلع إليه. واليوم، بعد قراءتي للجريدة، عادت كل قروحي وأحزاني القديمة إلي الظهور من جديد وكم تمنيت لو أن ذلك التاجر قد احتفظ بصحيفته ولم يمدها لي! إنها لم تعمل سوي علي تجديد همومي وضعضعة معنوياتي وزيادة كآبتي. ولقد نصحني زملائي الملازمين، الذين كانوا يجهلون السبب الحقيقي لكآبتي وحزني، بأن أبدور منشرحاً بقدر الإمكان، وألا أظهر عدم رضاي علي ترحيلي القسري من منزلي لمنزل آخر لأن الخليفة سيكون قطعاً قد وجه جواسيسه لمراقبتي بدقة ومعرفة رد فعلي علي الأمر بترحيلي. لذا بدأت أبدو بمظهر من لايكترث بما حدث وحتي أواري مظهري المكتئب الحزين تظاهرت بالمرض. فيا لها من حياة! ويا له من رياء وخداع!

***

وقبل فترة من الأحداث التي وصفتها، سقطت طوكر في يد الجيش المصري. وقام الخليفة، خوفاً من المزيد من تقدم العدو، بأستدعاء أبي قرجة، وهو دنقلاوي، وإحلال قريبه مساعد محله* ثم أمر أبي قرجة بالتوجه بباخرتين للإستوائية ليتسلم إدارتها من عمر صالح، والذي كما نذكر كان قد أرسل لها بعد إنسحاب كرم الله، وقام بتأسيس رئاسته بالرجاف عقب مغادرة أمين وستانلي لها.

***

وبعد أيام من قيام الباخرتين للرجاف أصيب الخليفة بمرض خطير وهو حمي التيفوس. ظلت كل أم درمان تراقب تطورات مرضه بقلق بالغ، إذ أن موته سيكون بداية لتغييرات جذرية في إدارة البلاد. وكان الخليفة علي ودحلو، وهو الذي سيخلف عبد الله طبقاً لقرار المهدي، يراقب مرضه بأهتمام كبير وأبدي أتباعه وأفراد قبيلته نفس الإهتمام لدرجة

---

* الأمير مساعد قيدوم ليس من أقارب الخليفة فهو من قبيلة الهبانية (المعرب).

الإشتباه في أنهم يتطلعون بوضوح لاستلام دفة الحكم. لكن بنية الخليفة القوية مكنته من مقاومة الداء ويبدو أن أهل السودان التعساء لم يستوفوا عقابهم بعد وأن الله لايريد أن يزيل عن كاهلهم هذا البلاء. وبعد أن لزم فراش المرض لحوالي ثلاثة أسابيع إنتهز عبد الله أول فرصة أتيحت له للظهور أمام أتباعه والذين قابلوه بالفرح والتهليل الذي لايمكن وصفه رغم أن كثيرين منهم ما جاءوا إلا للتنفيس عن كبتهم بالصياح والصراخ. لكن الذين فرحوا حقاً بشفائه كانوا إما من أهله وأقاربه أو بعض قبائل الغرب العربية. أما من جانب الخليفة فلم يكن لديه أي أوهام تتعلق بالمشاعر التي أطلق أتباعه العنان لها أثناء مرضه. فقد كان يعلم جيداً أنه بتفضيله وتمييزه لقبيلته قد أثار حقد وغضب الكثيرين من عرب الغرب والذين إضطروا،كغرباء عن وادي النيل، للوقوف بجانبه. فقد كان سكان وادي النيل والجزيرة، وجلهم من الدناقلة والجعليين، من أعدائه لكنه قضي علي مصادر قوتهم عن طريق نزع سلاحهم ومصادرة ممتلكاتهم وجلب أعداد منهم من وقت لآخر لتعزيز حاميات دارفور والقلابات والرجاف. ولم يكن خافياً عليه تطلع الخليفة علي وأتباعه للحلول محله، لكنه كان يعرف أيضاً أنه لن يصل بهم الحمق لدرجة حمل السلاح مثلما حدث من قبل من الأشراف.

***

والآن، وقد أصبحت أقطن بالقرب منه، فقد ازدادت شكوكه فيَّ عن أي يوم من قبل. وكان دائماً ما يسأل زملائي إن كانت هذه المراقبة اللصيقة قد أثارت سخطي، وكان يبذل كل ما يستطيع ليجد أي ثغرة في تصرفاتي. ولكن لحسن حظي أن زملائي الملازمين كانوا علي علاقة طيبة معي ويقدمون أفضل التقارير التي في صالحي له. لكنهم حذروني في نفس الوقت بأن كراهية الخليفة لي في إزدياد وأن علي توخي شد الحذر.

وفي يوم من أيام ديسمبر ١٨٩٢م، وعندما تركت موقعي أمام باب الخليفة لأخذ قسط من الراحة، إستدعاني أحد الملازمين لمقابلة الخليفة، فوجدته في حجرة الاستقبال محاطاً بقضاته وتجددت في ذهني التهديدات والتوبيخ الذي لقيته منه عندما إفتري علي الطيب حاج علي وعمل علي تشويه سمعتي. لهذا السبب فقد إضطربت وإرتعدت عندما قام الخليفة، وبدون أن يرد علي تحيتي، بأمري بالجلوس وسط القضاة. ثم قال لي بعد فترة

قصيرة من الصمت، وبلهجة قاسية: «خذ هذا الشئ وأرني ما يحتوي عليه». نهضت علي الفور وأمسكت بكلتا يدي بالشئ الذي أعطاه لي ثم جلست ثانية. كان الشئ عبارة عن حلقة من النحاس الأصفر، قطرها حوالي أربعة سنتمرات، وملصق بها علبة معدنية صغيرة في شكل وحجم رصاصة المسدس. كانت قد جرت محاولة لفتحها وكان واضحاً أن بداخلها قطعة من الورق. كانت تلك لحظة عصيبة بالنسبة لي. فهل كان هناك خطاب لي من أهلي، أو من الحكومة المصرية وهل ألقي القبض علي الرسول الذي حملها؟ وعندما بدأت أفتح العلبة مستعيناً بسكين قدموها لي، قلبت في ذهني ما سأقوله لهم وكيف سأتصرف وتركت الأمر للحظ وقررت عدم اللجوء للخداع.

أخرجت من العلبة ورقتين صغيرتين وفتحتهما فأذا به مكتوب عليهما باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية والروسية، وبخط دقيق لكنه واضح، التالي:

« لقد تربي هذا الكركي ونشأ في ضيعتي بأسكانيا نوفا، مقاطعة توريد، جنوب روسيا. أرجو ممن يمسك به أو يقتله أن يتكرم بالإتصال بي وإفادتي أين حدث ذلك ».

توقيع: ف. ر . فالز – فاين

سبتمبر ١٨٩٢.

رفعت رأسي، الذي كان مطأطأ قبلها، ثم سألني الخليفة عما تحتويه الورقتين.

فأجبته: «لا بد أن هذه العلبة يامولاي كانت مربوطة علي عنق طائر تم قتله. وصاحبها، الذي يعيش في أوروبا، قد ترجي من أي شخص يجد هذا الطائر أن يخبره بمكان القبض عليه أو بمكان قتله » فقال لي الخليفة: « لقد ذكرت لي الحقيقة » وأضاف في لهجة ودودة: « لقد قتل أحد الشايقية، بالقرب من دنقلا، هذا الطائر ووجدت العلبة مربوطة بعنقه. فأخذها للأمير يونس لكن كاتبه لم يستطع فك الكتابة المسيحية التي بها ومن ثم قام بأرسالها لي وعليك أن تخبرني الآن بما هو مكتوب بها». قمت بترجمة الرسالة كلمة بكلمة. وحسب رغبة الخليفة حاولت أن أشرح له الموقع الجغرافي للمنطقة التي جاء منها الطائر

والمسافة التي قطعها قبل أن يقتل. فقال لي بعد حين: « هذه واحدة من الأ لاعيب الشيطانية لهؤلاء الكفرة والذين يهدرون الوقت في مثل هذه الترهات. فالمسلم لايمكن أن يحاول فعل شئ كهذا ».

ثم طلب مني تسليم العلبة لكاتبه وأشار لي بالإنصراف، لكنني عملت علي إلقاء نظرة عاجلة علي الورقة: أسكانيا نوفا، توريد، جنوب روسيا. كررت هذا العنوان مرات ومرات في ذهني وحفظته تماماً. كان الملازمون علي الباب في إنتظاري بقلق بالغ وعندما ظهرت أمامهم خارجاً من مجلس الطاغية بوجه منشرح بدا علي ملامحهم السرور الشديد. وفي طريقي لمنزلي أخذت أكرر لنفسي إسم كاتب الرسالة ومكان إقامته وعزمت أن أوضح له مصير طائرة إذا ما وهبني الله القدير حريتي مرة أخري. ثم توجه إهتمام الخليفة الآن للأقاليم الاستوائية، وأرسل باخرتين أخريين، مع ثلاثمائة رجل، وتحت قيادة قريبه عربي دفع الله، إلي الرجاف ومعه تعليمات بتنحية أبي قرجة وتكبيله بالأغلال. وكان من الواضح أن الأخير ما أرسل للرجاف إلا لإزاحته عن الطريق. وإنتهز الخليفة فرصة مغادرة دفع الله ليرسل خالد للمنفي بالرجاف، بعد أن تم إخراجه، وهو مثقل بالسلاسل الحديدية، من سجن الساير.

***

صدرت الأوامر لمحمود ود أحمد، والذي خلف عثمان ود آدم بعد موته، بالحضور لأم درمان بكل الجنود الممكن حضورهم (وكانوا حوالي خمسة ألف جندي) تاركاً وراءه في دارفور ما يكفي لضبط الحامية. ولما وصل، أقام معسكره في ديم يونس جنوب أم درمان.

ومرة أخري تعرضت لإمتحان المناورات العسكرية العسير. فقد أمر الخليفة بالبدء في سلسلة من المناورات لكل القوات بأم درمان والتي إنتهت، كالعادة، بفوضى عارمة. كان دوري أن أقوم بأعباء الضابط المعاون وبالطبع تحملت كل اللوم علي ما حدث من أخطاء. وأخيراً إنتهت المناورات وأمر الخليفة أميره محمود ود أحمد بالعودة للفاشر، بعد أن قام وجنوده بتجديد قسم الولاء. وأهدي الخليفة لكل جندي جبة جديدة.

***

ثم جاء دور الزاكي طمل للسقوط، ومرة أخري كانت غيرة يعقوب وتأثير نفوذه الضار وراء ذلك السقوط. تم إستدعاء الزاكي من القضارف علي عجل، وما أن وصل لأم درمان حتي ألقي به في السجن العمومي، حيث كبل جسمه بكل ما يستطيع أن يحتمله من القيود والأغلال الحديدية. بعد ذلك تم ترحيله إلي كوخ منعزل مبني بالحجارة، ومنع من الإتصال بأي كائن كان ولم يوفر له حتي ما يكفي من الماء والخبز الضروري لبقائه علي قيد الحياة. وترتب علي ذلك إنهياره ثم هلاكه بعد عشرين يوماً من جراء الجوع والعطش.

وتم تعيين أحمد ود علي ليخلفه في القيادة العليا لجيوش القضارف. وخوفاً من إتهامه بالجبن أو التردد أخذ يفكر في نصر حربي يعزز شهرته وحصل علي إذن الخليفة للقيام بعمليات عسكرية ضد القبائل العربية التي تسكن بين كسلا والبحر الأحمر، والذين كانوا خاضعين للإيطاليين وقتها. ورغم إصداره الإذن بالهجوم عليهم، إلا أنه أمره بوضوح بألا يهاجم أي قوات متحصنة قط. وسمح له بأستخدام قوات كسلا التابعة لإمرة مساعد قيدوم وبهذا تمت كل إستعدادته للحملة. تحرك بجيوشه من القضارف في أوائل نوفمبر ١٨٩٣. وإنضم إلي حامية كسلا ثم زحف شرقاً نحو أغوردات حيث واجه القوات الإيطالية والتي إتخذت لنفسها مواقع حصينة رغم قلة عددها. عزم أحمد ود علي علي مهاجمة القوات، مخالفاً أوامر الخليفة بمهاجمة أي قوات متحصنة، لكنه هزم هزيمة قاسية وقتل في المعركة كما قتل عدد من كبار قواده.

حل أحمد فضيل محل أحمد ود علي في قيادة جيوش القضارف. فقد عينه الخليفة، إبن عمه، في ذلك المنصب وشدد في أوامره له بأن يقوم بالدفاع فقط. توجه لعمله عن طريق كسلا حتي يجمع، في طريقه، جنوده المبعثرين والذين، بعد هزيمة أغوردات، أجبروا القرويين علي إستضافتهم وعاثوا في أنحاء المنطقة فساداً في بحثهم عن الطعام.

واهتزت رباطة جاش الخليفة مرة أخري بعد تواتر الإشاعات بأن الإيطاليين علي وشك الهجوم علي كسلا ولكن سرعان ما جاءته أخبار مناقضة لتلك الشائعات واستعاد هدوءه. كان بالفعل قد أعلن قبل ذلك عزمه علي الإنتقام لهزيمة أحمد ود علي، لكنه في قرارة نفسه

لم يعمل أي شئ أو يفكر فيه بهذا الخصوص بل ظن، لجهله، أن تهديداته الجوفاء تلك سترد ع الطليان عن أي تفكير من الهجوم. ثم قام في هذه الأثناء بآرسال بعض الخيول وحملة الرماح تعزيزاً للقضارف.

وإنقضت عدة شهور علي كارثة أغوردات عندما جاء ثلاثة رجال لبيت الخليفة، بعد صلاة الصبح، وطلبوا مقابلة الخليفة لأمر هام. عرفت أنهم من أمراء البقارة المعسكرين في كسلا، ومن تعابير وجوههم تبينت أنهم لايحملون ما قد يسر الخليفة. سمح لهم بالدخول بعد دقائق وسرعان ما ساد الهرج والمرج حول باب المنزل. فقد تم استدعاء يعقوب والخليفة علي وكل القضاة علي وجه السرعة لحضور إجتماع هام مع الخليفة. فقد تحققت توجساته وسقطت كسلا، بعد قتال سريع، في أيدي الإيطاليين.

كان من المستحيل حجب هذه الأنباء عن الجمهور لذا نفخت أبواق الأمبايات وضرب طبل الحرب الكبير وأسرجت الخيول وقام الخليفة وملازميه، مع عدد ضخم من الخيول وحملة الحراب، بالركوب في وقار إلي أن وصل لشاطئ النيل.

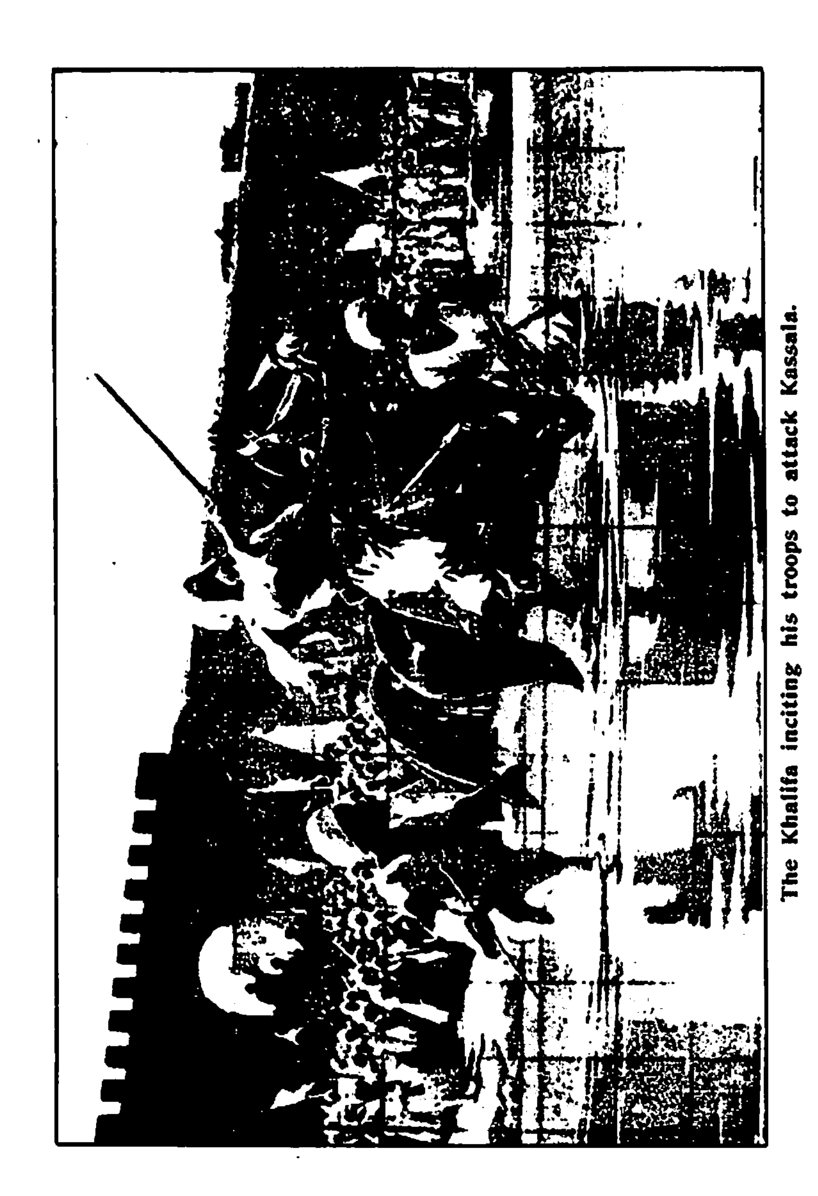
وعند وصوله للشاطئ دفع حصانه داخل النهر حتي وصل الماء لركبتيه ثم أخرج سيفه من غمده مشيراً به بأتجاه الشرق ثم هتف بصوت عال: « الله أكبر! الله أكبر!» وكان الجمهور الضخم يردد من ورائه الهتاف بالتكبير. لكن غالبيتهم كانت في قرارة نفسها تخفي فرحها لإرتباك الخليفة واهتزاز معنوياته، وإشتاقوا لرؤية المزيد من الهوان له، وقد ظنوا أنهم بهذا سيخففون من عبء قبضته الثقيلة المسلطة عليهم. وبعد هذا العرض أدار الخليفة حصانه وعاد لطرف الشاطئ ثم ترجل وجلس علي فروته. إحتشدت الجموع من حوله الآن وقام بإعلان سقوط كسلا لهم وبرر ذلك لهم بأن جنوده قد أخذوا علي غرة بواسطة أعداد ضخمة من العدو وذلك بعد صلاة الصبح وإضطرت للانسحاب. لكنه أكد لهم بأن كل المعدات العسكرية والنساء والأطفال قد نجت، وأن الخسائر لم تكن جسيمة، بينما تكبد العدو أضراراً بالغة لدرجة جعلتهم يندمون علي إحتلالهم للمدينة. لكن معظم الناس، ومن بينهم كثير من الموالين له، كانوا يعرفون أن ما قاله لم يكن سوي ذريعة لتبرير تلك الهزيمة المخزية.

ورغم تيقن الخليفة من صعوبة إستعادة كسلا إلا أنه من أجل إظهار أنه يفعل شيئاً، أرسل بتعليمات لعثمان دقنة، والذي كان ذلك الوقت في أدراما علي نهر عطبرة، وعلي مسافة مسيرة ثلاثة أيام من بربر، للإلتحاق بمساعد في قوز رجب بكل ما تيسر له من قوات. وفي نفس الوقت أمر أحمد فضيل لإقامة نقطة عسكرية من ألف رجل مسلح بالبنادق في الفاشر علي نهر عطبرة والتي تبعد عن كسلا مسيرة يوم ونصف يوم. أرسل أيضاً بعض التعزيزات من أم درمان إلي نقطة أصبري علي العطبرة، وتقع في منتصف المسافة بين الفاشر وقوز رجب.

وواصل إعلان تصميمه بكل عزم لأن يتقدم قريباً نحو كسلا لكن كل ما نجم عن ذلك كان إقامة سلسلة من النقاط الدفاعية بطول نهر عطبرة، فقد كان عزمه الحقيقي من إستمراره في الحشد هو مقاومة أي هجوم للعدو علي أم درمان.

***

وفي أثناء تلك الظروف المضطربة وصلت باخرتان قادمتين من الرجاف ومحملتين بكميات كبيرة من العاج والرقيق إضافة إلي الغنائم التي استولوا عليها من فضل المولي، أحد قدامي ضباط أمين باشا، والذي كان قد دخل إسمياً في خدمة دولة الكنغو الحرة، مع بعض أتباعه، عقب مغادرة أمين باشا للأراضي السودانية. ومن بين التحف التي جلبها لأمدرمان أربعة من أعلام دولة الكنغو الحرة من القماش الأزرق المطرز بخمسة نجوم صفراء في وسطه، كما جلبوا بذلتين عسكريتين سوداوين محلاة بالأزرار وعليهما بالفرنسية كلمتين هما: (العمل والتقدم).



The Khalifa inciting his troops to attack Kassala.

الخليفة يحث قواتة للهجوم على كسلا

كانت تلك أول مرة أري فيها أشارات دولة الكنغو الحرة والتي كنت قد سمعت بأقامتها لكن لم يكن لدي علم بحجمها ولابحدودها. ووجد في معسكر فضل المولي عدة خطابات بلغات أوروبية لكن الخليفة لم يطلعني عليها. فقد فضل أن يستمر في جهله بها علي أن يتيح لي فرصة معرفة ما يدور في تلك الأصقاع.

وسرعان ما أعقب ذلك ورود أنباء مثيرة للازعاج من دارفور. فقد أبلغ محمود ود أحمد أن نصاري قد دخلوا إقليم بحر الغزال وأنهم يعملون علي كسب ولاء القبائل والأهلين هناك، والذين وقعوا معاهدات معهم بالفعل. وقال أنهم وصلوا حتي حفرة النحاس (الواقعة بالقرب من الكلكلة علي حدود جنوب غرب دارفور). كانت لهذه الأنباء أهمية قصوي وأثرت كثيراً علي الخليفة وتسببت في إزعاجه وتوتره.

وقبل المهدية، عندما كانت مصر تحكم السودان، كان يتم تجنيد الرجال للخدمة العسكرية من قبائل بحر الغزال والذين كانوا يحضرون بمحض إرادتهم أو يرغمون علي ذلك بالقوة. ونظراً لطقسها ووفرة أمطارها فقد إزدهرت الزراعة فيها أكثر من أي منطقة أخري بوادي النيل بين الكوة والرجاف. إضافة لذلك فأن معظم القبائل القاطنة هناك، كانوا وبسبب من صراعاتهم الداخلية، عاجزين عن التوحد وبالتالي سهل هذا، أكثر مما أعاق، تقدم أي قوة خارجية تريد أن تفرض سيطرتها علي الإقليم. وبالنسبة للخليفة كان لتبعية هذا الأقليم له أهمية قصوي. فمن يحكمه، كما يعرف ذلك، يمسك السودان كله بين يديه. وكانت تلك القبائل السوداء تكن عداءاً لصيادي الرقيق من العرب وبالتالي كانوا علي استعداد تام لمساعدة أي قوة تضمن حمايتهم. فاذا ما تم تجنيد أربعة إلي خمسة ألف من الرعايا المحليين من ذوي الأهلية للخدمة العسكرية والقوة البدنية والنظام والانضباط، بواسطة أي قوة خارجية، فمن الممكن في ظرف أربعة إلي خمسة سنوات تكوين جيش من خمسة عشر إلي عشرين ألف جندي. وبمثل هذا الجيش يمكن، لاغزو كردفان ودارفور فقط، بل كل السودان.

لم يتمهل عبد الله حتي يتثبت من الوضع بل أصدر أوامره علي الفور لمحمود ود أحمد لإرسال قوة من جنوب دارفور إلي تلك المناطق والعمل علي طرد الغرباء الذين تجرأوا علي التسلل إلي بحر الغزال.

وتنفيذاً للأمر تحرك الأمير الختيم موسي بقوة معتبرة من شكا وجنوبا باتجاه شمال بحر الغزال وقامت قبائل الفروجي والكارة والبنقو و غيرها من القبائل الحدودية، والذين كان الأوروبيون قد عقدوا المعاهدات معهم، ثم تركوهم لمصيرهم، قاموا بالتسليم فوراً للمهدويين والذين بسطوا نفوذهم علي المنطقة.

وذات يوم استدعاني الخليفة وسلمني عدة وثائق كتبت بالفرنسية وأمرني بترجمتها. إشتملت الأوراق علي رسالتين من الملازم دو لا كيتول إلي مساعديه تتضمن تعليماته إليهم. كانت تلك الرسائل بيد شيخ الفروجي والذي سلمهم بدوره للختيم موسي. وإضافة للخطابين سلمني الخليفة معاهدة موقعة بين السلطان حامد ود موسي، من قبيلة الفروجي، ومندوب دولة الكنغو الحرة. وكانت موقعة في أغسطس ١٨٩٤ بواسطة حامد ود موسي ومندوب دولة الكنغو الحرة وشهد عليها السلطان زميو وسلطان تيجا. وقد كتب إسمي الأخيرين بحروف أوروبية.

قمت بسرعة بترجمة هذه الأوراق للخليفة، شفوياً، وكنت أراقب تعابير وجهه كي أري مدي إهتمامه وإن كان حب استطلاعه قد تغلب علي شبهاته لكنه بذل جهداً كي لا ألاحظ ذلك علي وجه. ثم قال لي: «إنني لم أرسل إليك لمجرد ترجمة هذه الأوراق والتي ليست بذات أهمية تذكر مع العلم بأنني وجهت محمود ود أحمد لطرد هؤلاء النصاري، والذين لا يزيدون علي كونهم رحالة أو سواح وبعدد صغير، من إقليم بحر الغزال. لكن لدي إقتراح آخر لك . فأنت تعلم بأنني لا أنظر إليك إلا كواحد منا - كصديقي وتابعي المخلص - وقد قررت أن أظهر هذه الصلة للملأ بتزويجك لإحدي بنات عمي، عمي المباشر. فماذا تقول عن هذا». لم يدهشني هذا العرض كثيراً فقد لمح لي كثيراً عنه. لكنني كنت أدرك أنه لايريد إظهار مدي تقديره لي أمام الجميع ولكنه يريد أن يبقيني تحت مراقبة لصيقة حتي في منزلي. يريد أن يراقبني ليعرف إن كان لدي أي إتصالات سرية بالدول الأجنبية. وقد

علمت من أصدقاء أثق بهم أنه كان يبحث عن وسيلة مناسبة ليجعل مني، كما يقول، رجلاً لا خطر منه. ولكي يفعل ذلك فلابد أن يبرر للملأ سبب معاملته الخاصة لرجل أجنبي، تلك المعاملة التي لايلقاها الرجل الوطني. وكنت أعلم جيداً أن رجلاً له مثل ذلك العزم الماضي والذي لم يكترث لقتل أفضل أصدقائه، مثل ابراهيم عدلان والقاضي أحمد، لن يتردد في استغلال أدني شبهة، تدل علي عدم ولائي، للتخلص مني. وقلت له: «مولاي إنني أسأل الله أن يباركك وأن يكتب لك النصر علي كل أعدائك. لقد تشرفت بعرضك الكريم لكنني أرجوك أن تتكرم بالاستماع لما سأقوله لك: إن قريبتك ليست فقط من سلالة ملكية، وإنما هي من سلالة النبي نفسه. لهذا فلابد من أن تعامل بأعتبار خاص يليق بها. ولسوء الحظ فأنني سريع الإنفعال وقد أفقد السيطرة علي نفسي في بعض الأحيان. وقد تنشب بيننا، كزوجين، مشاكل عائلية تؤدي إلي نفورك مني. ولأنه ليس لدي رغبة سوي أن أحظي بكامل عطفك ورعايتك لي، فأنني لا اسأل الله سوي ذلك، ولا أخشي شيئاً غير حدوث أي شئ يقود إلي تحول عطفك عني أو حبك لي». فقال الخليفة: لقد عرفتك عن قرب لعشرة سنوات ولم أر فيك ما يدل علي إنفعالك أو ضيق خلقك. وكم من مرة أهديتك الزوجات فيها لكن أياً منهم لم تشتك لي من شجار بينكما أو أي مشاكل عائلية. وأنا علي علم بأنك قمت بأهداء بعضهن إلي خدمك أو أطلقت سراحهن وحررتهن. ويبدو لي بأنك، رغم تظاهرك بأنك كواحد منا، إلا أنك في قرارة نفسك لا تنوي ترك عادات قبيلتك أو سلوكياتها (لم يشر إلي موضوع الدين فقد ظن أن هذا قد يجرح مشاعري) وأقصد بذلك عاداتكم في الإحتفاظ بزوجة واحدة فقط». فأجبته: « لقد أكرمتني يا مولاي كثيراً بهداياك لي من العبيد لكنني متأكد من أنك لاتريدني أن أكون عبداً لهم. فاذا ما زوجتهن لخدمي أو حررتهن فما ذلك إلا لأنهن كن عديمات الطاعة أو سيئات السلوك. وربما أبلغك الناس خطأ بأنني أمارس عادات بلادي في الإحتفاظ بزوجة واحدة، لأنني بالفعل أملك ثلاثة زوجات». فقال لي: «حسناً: علي أي حال فأنني مصدق لك. ولكن أيعني ذلك أنك ترفض الزواج من إبنة عمي؟» فأجبته: « لا أرفض ذلك ياموﻻي، لكنني أخبرتك فقط بأنفعالي وحماقاتي حتي

أتجنب أي مشاكل في المستقبل. ولا شك في الشرف العظيم الذي أسبغته علي والذي أتمني أن تجدني مستحقاً له دائماً».

وبالقطع عرف الخليفة بوضوح تام بأن كل ما قلته له لايعني سوي الرفض فأنهي المحادثة بإشارته لي بالإنصراف. أصبحت الآن في وضع غاية في الخطر بعد رفضي لعرضه ذاك، فقد كنت أفهم دواخل الخليفة تماماً. لقد جرحت مشاعره بعدم قبولي متهللاً فرحاً الزواج من قريبته وقد زاد ذلك من شدة توقي لليوم الذي أتحرر فيه منه. كنت قد أرسلت قبل بضعة شهور أحد التجار السودانيين إلي القاهرة وترجيت القنصل النمساوي العام ليقوم، عن طريقه، بتوفير الوسائل الضرورية التي تسهل عملية فراري من السودان. لكنها لم تكن المرة الأولي التي حاولت فيها القيام بعملية من هذا النوع والتي لم تؤدي إلا لمزيد من الفشل وخيبة الأمل!

***

الباب الخامس عشر

ملاحظات متفرقة (١)

«صفات الخليفة عبد الله وخصائله – المصير الذي لاقاه مؤرخ المهدية – أميرة دارفور – حياة الخليفة العائلية – نظام حرسه – الشخصي الحضور الإجباري للصلاة بالمسجد – نظام البريد – العروض العسكرية – تعظيم وترفيع قبائل الغرب وقهر قبائل النيل – الوضع العسكري ومدي قوته – المدافع والذخائر – الإيرادات والمنصرفات – الشجاعة».

سأسرد الآن بعض صفات الخليفة وشيئاً عن خصاله.

ينتمي السيد عبد الله بن السيد محمد لقبيلة التعايشة البقارة وتقطن هذه القبيلة في المنطقة الجنوبية الغربية لدارفور، وينحدر الخليفة نفسه من أولاد أم سرة، المنحدرين من أسرة الجبارات بدورهم. ولقد أشرت من قبل لحياة عبد الله الباكرة وكيف كان له صلة بصائدي الرقيق العرب عندما كان في ريعان شبابه. إنضم للمهدي في سن الخامسة والثلاثين، وكان وقتها نشيطاً حسن البنية قويها. لكنه تضخم فيما بعد واختفت مشيته السريعة وخطاه الواسعة. بلغ عمره الآن التاسعة والأربعين، لكن ملامحه تنم عن هرمه وتحول لون لحيته إلي الأبيض تقريباً. وتبدو علي ملامح وجه أحياناً مظاهر ودودة جذابة لكنها صارت في غالبية الأحيان صارمة قاتمة تنم عن القوة والتصميم والطغيان مما لا تخطئه العين. وهو مندفع سريع الإنفعال متقلب المزاج ويتصرف في غالب الأحيان بسرعة وبدون أي تردد. وعندما يكون في هذه الحالة لايجرؤ حتي أخوه علي الاقتراب منه. وهو بطبعه شديد الشك في أي أحد بمن فيهم أقربائه وأفراد عائلته. ويري أن الولاء والإخلاص هي من الصفات النادرة، وأن الذين يتعاملون معه إنما يخفون مشاعرهم الحقيقية تجاهه حتي يحققوا أغراضهم. وهو سريع الاستجابة للثناء والنفاق وبالتالي تنهمر عليه أوصاف الثناء والقوة والهيبة من جميع الذين يتعاملون معه. ولايستطيع أحد التحدث معه إلا بعد

أن يشير، بدرجة تدعو للغثيان، إلي حكمته وقوته وعدالته وشجاعته وكرمه ومروءته ويقابل ذلك الملق الصارخ بأرتياح وبسرور طاغ. لكن الويل لمن يتجرأ علي المساس بكرامته مهما كان أسلوبه!

والحدث التالي سيعطي القارئ فكرة واضحة عن طبيعته الإستبدادية: كان القاضي إسماعيل ود عبد القادر قد نال تعليماً راقياً في القاهرة ومن بعدها حظوة لدي المهدي بعد أن كتب دراسة تاريخية قيمة عن إنتصاراته الأولي. وقد رضي ذلك المصلح الديني العظيم عنها لدرجة أنه كلفه بمواصلة تسجيله لجميع الأحداث الهامة للمهدية كما وقعت بالضبط، ووجه كبار الأمراء بتقديم سجل مفصل للأحداث التي مرت بهم. وبمرور الوقت تضخم سجله وتحول إلي تاريخ حافل عن المهدية في السودان. وبعد وفاة المهدي أبقاه الخليفة في منصبه كمؤرخ للدولة وأمره بمواصلة عمله. وحدث يوماً أن كان مشتركاً في حفل بهيج. وسمعه بعض الناس يقول بأن أحوال السودان الحالية، إذا ما قورنت بالحالة في مصر، ينطبق عليها التشبيه التالي: فالخليفة يمكن إعتباره كالخديوي إسماعيل باشا، وعلي نفس النمط يمكن اعتباره هو، اسماعيل عبد القادر، شبيها بأسماعيل باشا المفتش، والذي كان مستشار الخديوي الرئيسي وصديقه. وفي الحال نقلت هذه الواقعة للخليفة عبد الله والذي تميز بالغيظ لمقارنته بالخديوي وأمر القضاة بالتحقيق فيما جري والتاكد من أن اسماعيل عبد القادر قد تفوه فعلاً بهذا الكلام، ولو صح ذلك عنه فيجب إدانته. وقال للقضاة: « إن المهدي خليفة الرسول محمد وأنا خليفة المهدي. فمن الذي يحوز علي هذا الوضع في العالم غيري؟ ومن هو الذي يفوق نبلاً سليل النبي؟» وأثبتت التحريات أن اسماعيل قد أذنب فكبل بالأغلال وأرسل للرجاف بناء علي أوامر الخليفة. وقد تحدث الخليفة بغرور عن ذلك فقال: « وما شأنه ليقوم بمقارنة الأحوال هنا بتلك التي في مصر؟ فاذا أراد أن يقارن نفسه بأحد الباشوات فأنني أنا، سليل الرسول، لن اسئ لنفسي بوضعها علي قدم المساواة مع الخديوي فما هو إلا من الترك». وأظنه أراد أن يعطي إنطباعاً قوياً للجماهير بهذا القول. ولم يكتف الخليفة، في فورة غضبه، بذلك. بل أمر أن يحرق كل تاريخه الذي

كتبه علي الفور (وكانت قد عملت منه عدة نسخ). لكنني سمعت سراً بأن أحد كتبته، والذي تكررت الاشارة إليه بواسطة الخليفة في الأحداث التي جرت في بواكير حكمه. قد قام بأخفاء نسخة لنفسه. ولو ظهر هذا التسجيل التاريخي، وترجم إلي اللغات الأوروبية، لأوضح للعالم المتحضر أساليب المهدية ولكشف القناع عن أكاذيبها.*

ولايمكن وصف إعجاب الخليفة وثقته في قوته. فهو علي يقين من أن بمقدوره القيام بأي شئ وبكل شئ. وتحت قناع (الإلهام الإلهي) لا يتردد في نسبة محاسن الآخرين إلي نفسه. وعلي سبيل المثال. فقد أعلن أن قبة المهدي، والتي قام ببنائها بجهد خارق ومشاق لا توصف مهندس الحكومة السابقة اسماعيل، قد تم تصميمها بواسطته بعد أن ألهم ذلك في حضرة روحية. كما نسب إنتصار عثمان ود آدم علي أبي جميزة، وإنتصار الزاكي طمل علي يوحنا ملك الحبشة، للأوامر التي أصدرها لهم بعد حضرة روحية.

كانت شخصيته خليطاً من الحقد والقسوة البالغة الغرابة وكان يشعر بالسعادة عندما يسبب الضيق وخيبة الأمل للآخرين، ويشعر بمنتهي السرور عندما يتسبب في إفقار الناس بمصادرة ممتلكاتهم وإلقائهم مكبلين بالأغلال في السجون وكان يسرق العائلات بالجملة ويعتقل أو يعدم كل ذوي النفوذ بين قبائلهم وأحال أجناساً بأكملها إلي حالة لا توصف من العجز والضعف.

وهو المسئول، في حياة المهدي، عن كل فظاعة الإجراءات التي إتخذت بأسمه وعن إنعدام الرحمة التي كان يعامل بها أعداءه. وعبد الله هو الذي أصدر الأمر بعدم التهاون أو الرحمة عند إقتحام الخرطوم وهو الذي وافق علي المذابح الجماعية للرجال والنساء والأطفال. فبعد سقوط تلك المدينة، كان هو الذي أعلن، ولمدة أربعة أيام، أن جميع الشايقية خارجون علي القانون. وعندما كان يتم توزيع النساء والأطفال لم يبد أي إكترات

---

* ظفر نعوم شقير، من قلم المخابرات المصرية، علي هذه النسخة بعد سقوط أم درمان بيد القوات الانجليزية المصرية، في ١٨٩٨م وذكر أنها «ضمنت الحقيقة أحسن تضمين وإنطبقت حقائقها علي ما تحريت جمعه في مصر..» (المعرب: عن كتاب جغرافية وتاريخ السودان لنعوم شقير صفحة ١١٧٧) .

بمشاعرهم وكانت سعادته تتم عندما يشتت شمل الأسر ويبعد الأطفال عن أمهاتهم بما يجعل إعادة شملهم أمراً مستحيلاً وذلك بتوزيعهم علي القبائل المختلفة. وعندما أرسل عثمان ود آدم شقيقات سلطان دارفور الراحل له، وهن الأميرات الميرم عيسي باسي والميرم بخيتة، منحهن حريتهن لكنه احتفظ في حريمه بمعظم أقاربهن من النساء وقام بتوزيع من تبقي منهن علي أتباعه. وعندما علم أن بعض أهل دارفور، الذي كانوا يقيمون بأم درمان، قد قاموا بزيارة الأميرتين وقدموا لهن الهدايا قام باعتقالهن ووهبهن كرقيق لأميريه حسيب وكنونة والذان كانا علي أهبة السفر للرجاف. وعبثاً حاولت والدة بخيته، وتوسلت، للسماح لها بمرافقة إبنتها، لكنها منعت بالقوة من ذلك رغم أنها كانت عمياء وماتت كسيرة القلب بعد بضعة أيام. أما إبنتها فقد ألقت بنفسها في النيل عند تحرك الباخرة. ورغم أنها أنقذت من الغرق فقد ماتت أثناء الرحلة من جراء البؤس والإرهاق.

وكان أحمد غراب، وهو مصري من مواليد الخرطوم، كان قد غادر المدينة في تجارة له قبل تدمير جيش هكس باشا، قد ترك وراءه زوجته السودانية وإبنته، ثم عاد لرؤيتهم بعد ذلك. وعند وصوله لأم درمان تم إحضاره أمام الخليفة وشرح له أسباب عودته وأبدي الرغبة للدخول في خدمته. فقال له الخليفة: « لا ما نع لدي من ذلك ولكن عليك التوجه علي الفور إلي الرجاف وأن تقاتل الوثنيين من أجل القضية المقدسة». وعبثاً توسل إليه الرجل المنكود وترجاه أن يسمح له بالبقاء مع زوجته وإبنته أو علي الأقل أن يسمح له برؤيتهن. لكن الخليفة أمر ملازميه لأخذه فوراً للباخرة، وأن يحرسوه بدقة، وألا يدعوه تحت أي ظرف من الظروف لرؤية اسرته. وقال بأبتسامة وفرح شيطاني: « سيكون له رفقة في السفر وهن عيسي باسي وبخيتة. ويمكنه أن يستمتع بصحبتهن كما يشاء إذا ما سمح أسيادهن له بذلك».

وبدون روية تسبب في موت آلاف البشر من الأبرياء. وقام بقطع اليد اليمني والقدم اليسري للمدعو عمر، وعلناً في قلب السوق، لأنه فشل فى صنع الرصاص والذي زعم أن بأمكانه صنعه ومن أجل ذلك سلم بعض المال مقدماً. وكان حاضراً أثناء المذبحة الرهيبة

التي أنزلها بالبطاحين مع التمثيل بهم وكان يرمق بسرور إعدام ضحاياه منهم. ولقد وصفت من قبل كيف سقط حتي أقرب أصدقائه والمخلصين له ضحايا لنزواته وكيف ضم لنفسه زوجاتهم وبناتهم. ثم ماذا يمكن أن يفوق في القسوة علي عقابه الذي ألحقه بالأشراف؟ لم يكن هناك أدني شك في أنهم قد تمردوا عليه، لكن كان بأمكانه نفيهم أو سجنهم، بدلاً عن قتلهم بالنبابيت والفئوس وكأنهم كلاب، رغم أنهم من أقرب أقارب مولاه وسيده السابق المهدي.

وكان يطلب ممن يتعامل معهم إبداء كامل الخضوع والتواضع أمامه. وكان الذين يمثلون أمامه يقفون أمامه وقد صالبوا أيديهم علي صدورهم وطأطأوا عيونهم نحو الأرض في إنتظار الإذن لهم بالجلوس. وكان يجلس في حجرة الإستقبال علي عنقريب فرش عليه برش وفوقه فروته ويسند نفسه علي وسادة من القماش المحشو بالقطن. وعندما يسمح للواقفين بالجلوس فأنهم يتخذون وضع الصلاة، وعيونهم مثبتة علي الأرض. وبهذا الوضع يجيبون علي الأسئلة الموجهة إليهم ولايجرؤ أياً منهم علي التحرك إلا إذا حصل علي إذن بذلك.

حتي في المسجد، وبعد إنتهاء الصلاة وقيامه بالتحدث في الشئون العامة، يظل الذين بالقرب منه في ذلك الوضع حتي مغادرته. وكان يصر علي طأطاة رؤوس كل من يحضر أمامه بينما يقوم هو بتفحصه بمنتهي الحرص. وقبل بضع سنوات حدث أن رجلاً سورياً يدعي محمد سعيد، كان لسؤ حظه بعين واحدة، بالقرب من الخليفة عندما كان يقوم بالوعظ والإرشاد الديني. وبدون أن يقصد وجه عينه العوراء بأتجاه الخليفة. فأستدعاني الخليفة فوراً وطلب مني أن أخبر السوري بألا يحضر بالقرب منه مرة أخري وإذا ما حدث ذلك فعليه ألا ينظر إليه إطلاقاً. وأخبرني في الوقت نفسه بأن علي كل إنسان الحرص علي حماية نفسه من العين وقال: « إذ لاشئ يقف ضد عين الإنسان. والعين هي سبب المرض والفشل الذي يصيب الناس».

وبالرغم من طبعه القاسي إلا أنه كان لين العريكة في منزله. وكان يجل إبنه الأكبر عثمان، وهو الآن في الحادية والعشرين من العمر، وكرس جهده في تعليمه علوم الدين

والقرآن علي يد أساتذة قديرين لكن الوالد لم يكن يتردد في تغيير أي معلم لايرضي الإبن عنه. وعندما أخبر عثمان والده بأنه تلقي من العلم ما يكفيه، صرف الخليفة المعلمين علي الفور واستغني عنهم. ولما بلغ السابعة عشرة من العمر تزوج من إبنة عمه يعقوب. وقد تجاوز الخليفة عن قيود الإحتفال بالزفاف التي تشدد فيها المهدي، وأقام إحتفالات متواصلة إستمرت لثمانية أيام دعي لحضورها كل سكان أم درمان تقريباً. وشيد لإبنه منزلاً كبيراً بالطوب الأحمر وذلك في الفضاء المقابل لمسكن يعقوب وقام بتأثيثه له وفرشه بكل وسائل الراحة المتاحة بالسودان. وقد حاولوا إنشاء حديقة علي الأرض الحجرية بحوش المنزل. وبعد مرور فترة من الزمن قام الخليفة بأضافة زوجتين من أقاربه لإبنه كما أهداه عدداً من السراري واللائي إختارهن له بنفسه، لكنه شدد عليه، وبصورة قاطعة، من عدم الزواج إطلاقاً من أي إمرأة تنتمي لقبائل وادي النيل. وكان يراقب أي صلة لإبنه بالغرباء بمنتهي الحرص واليقظة لإعتباره ذلك من أخطر المؤثرات عليه. ولما سمع بأن إبنه، من جراء حماقة الشباب، لم يعد يلقي بالاً لوصايا أبيه، وأنه يقيم حفلات ماجنة ليلياً في منزله، أمر ببناء منزل جديد له، داخل سور أم درمان ومجاور لمنزله، حتي يفرض عليه رقابة أشد وقام بتسليم المنزل القديم لأخيه يعقوب.

وقام الخليفة بتزويج إبنته لمحمد إبن المهدي، رغم أنه لا يكن له وداً، بينما كان إبن المهدي يسعي للزواج من إحدي قريباته، ولا يحب إبنة الخليفة أبداً. لكن عبد الله بصفته الوالد والوصي وولي الأمر منعه من أن يتزوج علي حسب هواه وبذل مساعيه لغرس محبة إبنته فيه. ومع هذه المساعي والتدخلات إذ دادت المشاكل والنفور بين الزوج وزوجته حتي إنتهي الأمر بالطلاق. لكن الخليفة، وخوفاً من القيل والقال، أرغمه علي إرجاعها وأن يقسم علي الإخلاص لها مدي الحياة.

ورأي الخليفة أن أبهة الحكم تتطلب حيازته لعدد كبير من الحريم. ولما كان ذلك مما يوافق ميوله نحوهن فقد أصبح تدريجياً يملك من الحريم ما يزيد علي أربعمائة إمرأة. وطبقاً للشريعة الإسلامية فقد كانت له أربعة من النساء الشرعيات والمنتميات للقبائل

الحرة. ولكنه، لحبه للتغيير، لم يتردد أبداً لتطليق من يشاء منهن وإحلال أخري محلها. تكون باقي الحريم من فتيات شابات، كثير منهن جاء من القبائل التي أرغمت علي إعتناق المهدية بعد أن حارب أزواجهن أو آباؤهن ضد المهدية. لذا إعتبروا من الغنائم ولم تعد لهن حقوق أو مطالب أكثر مما يتاح للمحظيات. وكان بعضهن من الرقيق أيضاً. تراوحت ألوان نسائه من البني الخفيف إلي الشديد السواد ومثلوا كل قبائل السودان تقريباً. وتم تقسيمهن لمجموعات من خمسة عشر إلي عشرين إمرأة وترأس إمرأة مسنة كل مجموعة. وكانت كل مجموعتين أو ثلاثه توضع تحت إشراف إمرأة من الأحرار كانت من قبل إحدي محظيات الخليفة المختارات. تمنح كمية من الحبوب مع بعض المال شهرياً للملاحظات لتوفير المؤونة لمن معهن، إضافة لما يمكنهن من شراء أدوات التجميل من مختلف أنواع الزيوت العطرية والدهن والصندل. وكانت قيمة ملابسهن ونوعيتها تختلف حسب جمال المحظية ووضعها وسلوكها. وتتكون الملابس في معظمها من الأنسجة المحلية المطرزة الأطراف أو من الحرير اللامع أو الشالات الصوفية التي تستورد من مصر. وهذه كان يوزعها الخليفة بنفسه أو عن طريق كبير الخصيان. ولما كان التحلي بالحلي الفضية والذهبية ممنوعاً بأمر المهدي فكان يتم إستبدالها بالودع وبشرائط المرجان الملونة والحمراء والعقيق اليماني بعد خياطتهم حيث يتم إرتدائها حول رسغ اليدين أو الكعبين أو توضع علي الرأس. وكانت شعورهن تمشط لأعداد لاحصر لها من الضفائر ذات الأشكال المختلفة حيث توضع فوق رؤوسهن بعدها أنواع العطور الزيتية والدهنية، وتشكل الروائح المنطلقة من سيدة سودانية، في أتم زينتها، إزعاجاً لعصب الشم عند الأوروبيين وتبعث علي تقززهم. وفي السنوات الأخيرة شرعت نساء الطبقات العليا للسودانيين في إرتداء الحلي الذهبية و الفضية أما نساء الخليفة ذوات الحظوة فقد مضين في إرتدائها لأبعد الحدود. كن يعشن في سلسلة من البيوت المتلاصقة تشبه ثكنات الجنود محاطة بحيشان عليها أسوار عالية. وقد خصصت نساء متمرسات لمراقبة شئون الحريم الصحية وإبلاغ الخليفة عن حالتهن من وقت لآخر. وعند رغبة الخليفة في إحداهن كان يبدي رغبته لأحد

الصبية الخصيان. وعادة ما كان يمعن النظر في كافة حريمه وينتهز الفرصة للتخلص من بعض من زهد فيهن وإحلال بعض الجدد محلهن. وكان يهدي لأقربائه وخلصائه وحتي خدمه من يتخلص منهن. يحرس بيوت الحريم عدد من الخصيان والملازمين السود وكان يتم عزل أولئك النسوة عن العالم الخارجي تماماً وربما يمر عام كامل قبل أن يسمح للواحدة منهن بزيارة أهلها لفترة وجيزة.

تدعي كبيرة زوجات الخليفة زهراء وتنتمي لقبيلته. وشاركته الحياة ببؤسها ونعيمها منذ نشأته الأولي. وهي أم أكبر أنجاله عثمان وخديجة. وخلال أيام حكمه الأولي كان يتناول من الطعام أبسطه وكانت تطبخه له زوجته زهراء أو يطبخ تحت إشرافها. وكان طعامه مكون أساساً من العصيدة واللحم المشوي والدجاج. وعندما توسعت عائلته وتعددت نساؤه، بدأ يحاول تناول أصناف من شتي المأكولات التي يحزق صنعها نساؤه الجدد وكان معظمهن قد إعتدن علي الأطعمة المصرية والتركية. أما الآن فقد حل محل الأطعمة البسيطة العديد من أنواع المأكولات الفاخرة بالرغم من أنه يظهر للملأ أنه يعيش حياة من التقشف والزهد. تسبب دخول الأصناف الجديدة لمائدة الخليفة في شقاق بينه وبين زوجته زهراء والتي كان من رأيها أن الأطباق الجديدة لا بد أن تكون مسحورة أو سامة وقد تنتهي بموت زوجها. أرسل لها مرتين رسائل تفيد بالإنفصال عنها ولكن تدخل يعقوب وأفراد الأسرة الآخرين إضطروه لإيقافها.

أدخل في خدمته حوالي عشرين من الخصيان لهم زعيم اسمه عبد القيوم والذي كان، بالإضافة لمسئولياته داخل بيت الخليفة، مسئولاً عن الأراضي الزراعية الشاسعة التي يزرعها عبيد الخليفة لتموين أهل بيته، مثلما كان مسئولاً عن شراء تموينهم من الذرة والاشراف علي الأغنام والأبقار اللازمة لطعامهم. وكان يسحب من بيت المال الأموال اللازمة لدفع أجور النساء والخدم الذين يتولون رعاية شئون الحريم. وكان مسئولاً عن الأموال السرية التي يشتري الخليفة منها الهدايا التي يوزعها سراً علي الأمراء وعلي ذوي النفوذ من أهل البلد. وكان يساعده علي تنفيذ مهامه المتشعبة جهازاً من الخدم والكتبة، عادة من الأرقاء أو الخصيان، لأن الخليفة لا يسمح لأي رجل غريب بالنظر أبداً إلي نسائه.

***

لباس الخليفة يتكون من جبة من القطن الفاخر الناصع البياض ذات حواف ملونة، وسروال قطني واسع ويضع علي رأسه طاقية مكاوية من الحرير يلف عليها عمامة بيضاء قصيرة. كما كان يلف حول جسمه شريطاً ضيقاً من قماش قطني يسمي بالوسن ويضع علي كتفيه شالاً من نفس القماش. كان من قبل يرتدي الصندل لكنه مؤخراً بدأ ينتعل جوارب من الجلد الخفيف ذات لون بني فاتح وحذاء أصفر اللون. وعندما يمشي كان يحمل بيساره سيفاً وبيمينه حربة هدندوية أنيقة الصنع ويستعملها أحياناً كعصا يتوكأ عليها. وكان يصحبه في مشيه دائماً إثني عشر أو خمسة عشر من الأولاد الأرقاء كمرافقيه الخصوصيين. وكان معظم هؤلاء من أطفال نصاري الحبش الذين غنمهم أبو عنجة والزاكي طمل. وكان واجبهم البقاء دائماً بالقرب منه والإستعداد لتوصيل رسائله لمختلف أنحاء المدينة. وهم الذين يدخلون الزوار إليه مع إستعدادهم ليلاً أم نهاراً لتنفيذ أوامره لهم. وعندما يصلون لسن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم فأنهم ينضمون لصفوف الملازمين ويحل محلهم أخرون ويعتقد الخليفة أنه بأستخدامه للصبية الصغار فأن أسراره تظل في طي الكتمان، وهو مصيب في هذا، عندما ينظر المرء إلي الحجم الهائل للرشاوي والفساد الذي يتفشي بين الطبقات العليا. أما بداخل منزله، الذي لايسمح لهؤلاء الصبية بدخوله، فأن العاملين به هم من صغار الخصيان، والذين هم بأنتظاره بأستمرار، بينما يحول كبار السن من أولئك التعساء إلي الأقسام الخارجية من المنزل. وحتي هؤلاء الصبية يعانون من شدة قسوته عليهم. وكان أي خطأ يرتكبونه يعاقب بالجلد أو يتم تكبيل المخطئ بالأغلال وتجويعه.

وخطرت له قبل حوالي ثلاثة سنوات فكرة زيادة عدد الملازمين بمجموعة من الحرس الشخصي أو الحاشية، وقام لهذا الغرض بأختيار عدد من جهادية أبي عنجة والزاكي طمل. بالإضافة إليهم طلب من أمراء قبائل الغرب تزويده بعدد من المجندين للإنضمام للملازمين لكن لم ينفذ هذا الطلب إلا جزئياً. كما إختار عدداً من أبناء العائلات الجعلية لإدخالهم ضمن حاشية حرسه الشخصي لكنه إستبعد كل أبناء الدناقلة والمصريين والذين

لايـق فيهم إطلاقاً. وبهذا تمكن من إيجاد قوة تتراوح ما بين أحد عشر ألفاً إلي إثني عشر ألف رجل والذين تم إسكانهم مع نسـائهم وأطفـالهم بالقرب من منزله ومنزل إبنه وبداخل السـور الذي تم بناؤه حـديثـاً. قـسـمـت هذه القـوة إلي ثـلاثـة فـيـالق تحت قـيـادة إبـنه عثمان، وهـارون أبو محـمـد وهو أخ للخليفـة لم يتجـاوز الثـامنة عشـر، وإبن عمه إبـراهيم الخليل، والذي حل محله أخيراً رابح الحبشي الذي نشأ وترعرع في بيت الخليفة.

وكان عثمان يمثل الخليفة في كل الأمور الخاصة بالملازمين. وتم تقسيم تلك الفيالق مرة أخري إلي أقسام يضم كل منها مائة رجل وعلي رأس كل قسم ضابط يسمي (راس مية) يعاونه عدة مساعدين له. وعلي كل خمسة أو ستة من رؤوس المئات أمير وله رجل يساعده وتم إدماج الجنود السود أو الجهادية في تلك الأقسام بعيداً عن أولاد العرب ولكن تحت قـيـادة الأمراء والذين أصبح لدي كل منهم مـائتين أو ثلاثمـائه من الجـهـادية أمـا البـاقين فكانوا من أولاد العرب. كانوا كلهم مسلحين ببنادق الرمنحبتون، المحفوظة بالمخازن والتي لاتصرف لهم إلا في المناسبات الخاصة أو الأعياد. يشتمل مرتب الملازمين علي نصف ريال من العملة المحلية شهرياً وعلي ثمن أردب من الذرة كل إسبوعين. كانت الذرة تستلم بأنتظام لكن الأجر النقدي كان إسمياً وقليلاً ما يصرف لهم. أما رؤوس الميات والأمراء فكانت أجورهم أكبر، وكثيراً ما يتلقون هدايا من النساء والعبيد من الخليفة. كان واجب الملازمين والحرس الشخصي حماية الخليفة وكان من واجبهم قيامهم جميعاً بمرافقته عند ركوبه وخروجه أو عند الإستعراضات. وحتي لو قام برحلة قصيرة داخل المدينة فأنهم يرافقونه. وعليهم أن يكونوا دائماً علي استعداد، في الميدان المواجه لمنزله. وبالرغم من أن الخليفة قد حظر كل صور الموسيقي المصرية إلا أنه جمع كل قدامي نافخي البوق السابقين من السود وكان يصحبه دائماً إثنان منهم. كانت رتبة رأس المية تعادل اليوزباشي، ودرجة الأمير تعادل الصاغ أما القائد فتعادل رتبته البكباشي. وكان عبد الله كثيراً ما يتفقد الملازمين ليلاً حتي يتأكد من وجودهم بمراكزهم المحددة لهم وكان يعطي إهتماماً خاصاً للمحطات الخارجية. ونظراً لهذه الخدمة الشاقة غير المعتادة، فقد درج رؤوس الميات والأمراء، بذريعة المرض، علي التسلل لمنازلهم سراً وأنتشر بينهم عدم الرضي بما هم فيه.

***

واجبات الخليفة العامة تشتمل علي إمامة الصلوات الخمسة يومياً في المسجد الكبير. وفي باكورة الفجر يبدأ صلاة الصبح وبعدها تتم قراءة الراتب بواسطة مختلف المجموعات مثلما قرره المهدي. يشتمل الراتب علي آيات مختارة من القرءان وتستغرق قراءته حوالي ساعة يعود الخليفة بعدها، عادة، إلي منزله. لكنه يقوم أحياناً بجولة في أنحاء المسجد ليتأكد بنفسه من أن أهالي أم درمان ملتزمون بأداء الصلوات في المسجد بانتظام حسب أوامره. ثم يصلي الظهر حوالي الساعة الثانية وبعدها بساعتين العصر والذي يتلوه قراءة الراتب. ثم يصلي المغرب وبعده بثلاثة ساعات صلاة العشاء. يؤدي الخليفة الصلوات في المحراب الذي أقيم أمام الصف الأول للمصلين مباشرة. والمحراب مكون بشكل مربع يحتوي علي عدد من الأعمدة المتصلة بشبكة من الحديد المضفور. ومن محرابه هذا يتمكن من مشاهدة كل ما يدور من حوله. ووراءه مباشرة أماكن جلوس إبنه والقضاة وبعض الذين يختارهم بنفسه، بينما يتخذ الملازمون أماكنهم عن يمينه وشماله. أما الجنود السود فلهم مكان متسع منفصل عن المسجد بحائط. علي يمين الملازمين المكان المخصص ليعقوب فالأمراء فقبائل الغرب. أما عن اليسار فيجلس بعض أتباع يعقوب وبعض العرب التابعين للخليفة علي ودحلو ثم الجعليين فالدناقلة. وخلف هؤلاء جميعاً يجلس الناس صفوفاً ويؤدون الصلاة وراء الخليفة في ترتيب ونظام. وفي جميع الصلوات تجد عدة ألوف من المصلين ويحرص الخليفة علي حضور كل كبار الأمراء وذوي النفوذ. وإذا ما غضب عن أي شخص أو كرهه فأنه يلزمه بحضور الصلوات الخمس في المسجد تحت رقابة أناس كلفوا أساساً بهذه المهمة.

وليس الدافع وراء ذلك النظام هو شدة التدين، بل يهدف من وراء ذلك لابقاء أتباعه جميعاً تحت سيطرته الشخصية. ولما كان الكثيرون يقطنون في مساكن بعيدة جداً عن المسجد فأن الإرهاق الشديد من تكرار الذهاب والإياب، من المسجد وإليه، يمنعهم من الإجتماع للأنس في منزل أحدهم عند المساء وهذا ما يبتغيه الخليفة لأنه بهذا يدمر بقدر الامكان ما يسميه بالحياة الإجتماعية إذ أنه يعلم بأنهم إذا ما إجتمعوا فأن الأنس والنقاش لابد أن يدور حول تصرفاته وأعماله وأن رأيهم لن يكون مريحاً بالنسبة إليه.

وإذا ما مرض الخليفة أو تغيب لأي سبب عن حضور الصلوات، فأن أحد القضاة يحل محله أو يقوم أحد الورعين من الملازمين، من التكارير، بذلك. ولكن الإمام البديل لايسمح له في هذه الحالة بأستخدام المحراب، بل يقف جانباً. أما الخليفة علي ودحلو، والذي عليه أن يمثل الخليفة أو يقوم مقامه في تلك الظروف فنادراً ما يسمح له بذلك. ويتلقي الخليفة عصر كل يوم، أو بين العصر والمغرب، التقارير والأخبار والرسائل أو يتناقش مع القضاة والأمراء، الذين رفعت أسماؤهم إليه، أو مع أي أناس آخرين يرغب هو شخصياً في التحدث معهم.

***

وكان نظام بريده في منتهي البدائية. فقد احتفظ بحوالي ستين إلي ثمانين من جمال الركوب ومعهم عدد مماثل مختار بعناية من رجال البريد، ليتم أرسالهم لأنحاء إمبراطوريته حاملين أوامره وتعليماته. وكان إبراهيم عدلان قد إقترح عليه إقامة محطات خاصة للبريد علي الطرق الرئيسية ويؤسس بذلك نظاماً أفضل وبنفقات أقل لكن الخليفة رفض رفضاً باتاً وتعلل بأنه يقدر قيمة التقارير الشفوية لرجال البريد الذين يتحركون من وإلي المركز بأم درمان، والذين كثيراً ما اعتمد عليهم في الحصول علي ما يريد من معلومات خاصة بتصرفات حكامه وأمرائه في الأقاليم. وكان لمختلف أمراء الأقاليم جهازهم البريدي المماثل لذلك الجهاز المركزي ويرسلون رجالهم علي ظهور الإبل إلي أم درمان حاملين رسائلهم وتقاريرهم. أما بالنسبة للمواطنين، فلم يكن هناك نظام بريدي يخدمهم ولكنهم يعتمدون علي رجال بريد الخليفة في حمل رسائلهم سراً. ولما كان الخليفة شديد التوجس والشكوك لأي إتصال لمواطنيه بالغرباء، لذا كانت أي رسائل من المواطنين تحمل بدرجة بالغة من السرية والحذر. ولما كان يجهل القراءة والكتابة، فقد أمر الخليفة بتحويل كل الرسائل الواردة إلي كتبته أبو القاسم والمدثر، والذين عليهم إيضاح محتوياتها له ويقومون بعدها بالرد عليها وفقاً لتعليماته وأوامره. وكانت حياة هذين الرجلين متسمة بالتوتر والإرهاق، لأنهم يعلمون عدم غفرانه لأي خطأ. وإذا ما دخله أي شك في إذاعتهم لأسراره، ولو عن طريق الخطأ، فأنه لايتردد في إلحاقهم بزملائهم أحمداي وإخوته الأربعة والذين إتهموا بالعلاقة مع الاشراف. والإتصال بهم وتم إعدامهم.

وهو يتشاور أساساً مع القضاة، والذين هم في غالب الأحيان أدوات طيعة بين يديه ويعملون علي إضفاء صور من العدل علي قراراته وتصرفاته الطغيانية. وكان هؤلاء الأتباع المخلصون يجلسون في مسكنة وخضوع، في شبه دائرة من حوله، علي الأرض الجرداء وقد طأطأوا رؤوسهم وهم يصغون لأوامره التي يهمس بها همساً. ونادراً ما يجرؤ أحد منهم علي فتح فمه أو إبداء أي إقتراح مهما كان ضرورياً. وإضافة للقضاة فهو يبحث مع أمرائه وكبار ذوي النفوذ، أحياناً، شئون البلد وأحوال قبائلهم. لكنه يعمل علي بث الشقاق بينهم ويحرض بعضهم علي البعض الآخر. لكن أهم مستشاريه هو يعقوب وبعض أقرب أهله إليه. فبعد الإنتهاء من صلاة العشاء مباشرة، يبدأ إجتماعه بهم وغالباً ما تستمر إلي ما بعد منتصف الليل. وعندما يجتمعون، يشرعون في بحث الوسائل والسبل التي يتم التخلص بها من معارضيهم أو من الذين يشكلون حتي أدني عائق لسلطتهم.

***

ومن وقت لآخر يقوم الخليفة بالركوب لزيارة مختلف الأنحاء بالمدينة أو يزور بيوته في شمال وجنوب أم درمان. ويعلن صوت بوق الأمباية الكئيب، وطرقات النحاس المتصلة، جمهرة المواطنين بأن سيدهم متحرك في الطريق، وفي الحال يتم إسراج الخيول بالحوش الكبير المسور الواقع خلف المسجد. ثم تفتح الأبواب ويتدفق سيل الملازمين من كافة الإتجاهات ثم يظهر الخليفة من خلفهم راكباً جواداً كالعادة. ثم يتشكل مربع من حوله فى الحال ويتحرك الرجال أمامه فرقاً بعد فرق في صفوف كل منها من عشرة إلي إثني عشرة رجلاً. ووراءهم يأتي الفرسان والمشاة من أهل المدينة بينما يمشي علي يسار الخليفة رجل خارق القوة متين البنيان هو عربي يسمي أحمد أبجكة، والذي خصص له شرف رفع سيده علي السرج أو إنزاله منه. وعلي يمينه يمشي شاب أسود قوي البنية وهو رئيس خدم الاسطبلات الملكية. ويسبق الخليفة ستة من الرجال يتناوبون النفخ علي الأمباية بناء علي أوامره لهم ووراءهم يأتي نافخوا الأبواق والذين يصدرون نداء التقدم أو الوقوف أو التجمع، حسب رغبته، لرؤساء الملازمين. وخلف هؤلاء مباشرة يأتي مرافقوه الشخصيون والذين يحملون معهم الركوة (إبريق الوضوء) وفروة الصلاة وعدداً من الرماح. وأحياناً



The Khalifa and Cadis in Council.

مجلس الخليفة عبد الله مع القضاة

تأتي الفرق الموسيقية، إما أمامهم أو خلفهم ، حسب الوضع، والمشكلين من حوالي خمسين من الأرقاء، وتتكون آلاتهم من قرون الوعول والطبول المصنوعة من جذوع الأشجار المجوفة والمكسوة بالجلد. وتتميز النغمات الأفريقية التي يؤدونها بغرابتها وعدم أنسجامها أكثر مما تتميز بأنسجام اللحن.

تتم هذه الجولات عادة بعد صلاة الظهر ولايعود الخليفة بعدها إلا عند الغروب. وبينما يسير في هذا الموكب المهيب يقوم الملازمون بالتباري في أعمال الفروسية فيركضون أربعة أربعة، ورماحهم مشرعة عالياً في الهواء ثم يندفعون نحوه بأقصي سرعة وفجأة يوقفون خيولهم علي أعقابها أمامه ثم يعودون ثانية لتكرار العملية.

وفي بواكير حكمه كان الخليفة دائم الحضور، كل يوم جمعة، إلي ساحة العرضة حيث يتم إستعراض الرايات الملونة أمامه لكنه ما عاد الآن يحضر إلا أربعة استعراضات في السنة وهي يوم مولد النبي، ويوم المعراج، وعيد رمضان، وعيد الأضحي أو عيد القربان. وفي العيد الأخير تتجمع كل الجيوش التي بالجوار، إضافة لجيوش دارفور والقضارف إذا كان الوضع هادئاً. ففي اليوم الأول للعيد، حيث يصلي الخليفة بالناس في أرض العرضة، يرتاح قليلاً بداخل زريبة بني داخلها منزل صغير بالطوب اللبن. ولايمكث معه هنا إلا عدد صغير من أخصائه وبعض الملازمين. أما باقي القوات، وأفراد الجمهور، فينظمون أنفسهم في صفوف طويلة استعداداً للصلاة. وبعد إنتهائها يصعد الخليفة إلي منبر خشبي ويخطب في المصلين خطبة خاصة يعدها له كتبته. وبأنتهاء ذلك تطلق المدافع السبعة نيرانها تحية للعيد ويشرع بعد ذلك كل من له إستطاعة بذبح أضحيته حسب التقاليد الدينية. ولكن ونظراً لبؤس وفقر كثير من المواطنين فأن عدداً قليلاً منهم هو الذي يضحي. أما الباقون فيكتفون بتناول العصيدة بدلاً عن اللحم. وخلال الثلاثة أيام التالية تقام العروض العسكرية. يتجمع الأمراء، قبل شروق الشمس، براياتهم وأتباعهم، ثم يتوجهون إلي المكان المخصص لهم من أرض العرضة، وهي أرض رملية منبسطة، بها بعض الأحجار هنا وهناك. تصطف فرق الجنود في صفوف طويلة وراء بعضها البعض ومواجهين للقبلة.

ويعقوب هو صاحب الراية الرئيسية – وهي قطعة كبيرة من القماش الأسود – التي ينصبها عالية أمام زريبة الخليفة وعلي بعد أربعمائة ياردة منها. أما علي يمينها ويسارها فيقف جنود مختلف الأمراء بينما تنصب علي الجانب الشمالي راية الخليفة علي ودحلو الخضراء، تحيط بها رايات أمرائه. يصطف علي الجناح الأيسر الفرسان علي ظهر خيولهم وجمالهم بينما يقف علي الجناح الأيمن حملة البنادق من الجهادية ومن بعض المنتمين إلي مختلف الأمراء، وهم الوحيدون المصرح لهم بحمل السلاح لهذه المناسبة.

وبعد شروق الشمس مباشرة، يخرج الخليفة من الزريبة ويمتطي حصانه، ويقف محاطاً بملازميه وبحرسه الخاص بينما يمر كل الجيش أمامه ليقوم بأستعراضه. وبمناسبة العيد، يتم صرف جبة وعمامة جديدة لكل الجنود المستعرضين. وأحياناً يعتلي الخليفة ظهر جمل ولكنه لم يستخدم مركبة الحكمدار، التي غنمت في الخرطوم، والتي احتفظ بها في بيت المال، إلا في مناسبة واحدة. كان قد تم تدريب جوادين بجر هذه المركبة، وعندما ركبها أمر أن تسير بسرعة المشاة فقد خشي أن تنقلب به، ثم ترك إستخدامها بعد ذلك وصار يستخدم، عند الاستعراض، الجواد في طريقه من المسجد، وغرباً إلي الطريق المؤدي لمكان الراية الزرقاء. وعندما يصلها يشرع في تأملها بوقار لبضع دقائق ثم يتوجه نحو الزريبة، والتي أقيم علي ناحيتها الجنوبية مأوي صغير مكون من جذوع الأشجار المتراصة والمفروشة بالبروش. ثم يترجل ويستلقي علي عنقريب محاطاً بقضاته بينما الجنود يصطفون أمامه. كان في العادة يخرج من منزله ثم يتخذ الطريق الجنوبي حتي يخرج من المدينة ثم يتحول للغرب حيث جنوده ثم يبدأون التحرك للميدان. وفي تلك العروض العسكرية يلبس الفرسان دروع الزرد، الأوروبية أو الأسيوية الأصل، يضعون علي رؤوسهم خوذاً حديدية ثقيلة أو طواقي من نوع غريب من مختلف الألوان والأشكال، يلفون حولها عمائم صغيرة. تغطي الخيول بكساء من القماش المطرز المحشو بالقطن الخفيف والذي يشبه ما كان يستخدمه فرسان العصور الوسطي أثناء المبارزة مما يعطي للمرء إنطباع بأنه يعيش في تلك العصور. تنتهي هذه العروض في اليوم الثالث وبعدها يسمح للقوات القادمة من خارج أم درمان بالرجوع إلي مواقعها السابقة.

***

ومن المستحسن الآن أن أتناول بإيجاز شيئاً عن أفكار الخليفة وعن نواياه السياسية.

وكما أوضحت من قبل، فقد قام المهدي بعد ظهوره بتسمية خلفاء ثلاثه هم: عبد الله وعلي ودحلو ومحمد شريف، وهم الذين سيخلفونه بعد موته بالتتابع، إذا ما كتبت لهم الحياة من بعده. وعند موته تولي عبد الله الأمر كما رتب له. لكنه منذ اللحظة التي أمسك فيها بزمام الحكم عمل بكل مافي وسعه للتمكين للحكم الوراثي وجعله في عائلته. وقد أتاح له الأشراف، الذين يتفاخرون بقرابتهم للمهدي، بتمردهم، الفرصة والزريعة التي أرادها للتخلص منهم. ولم يضع وقتاً في ضم كل جهاديتهم السود لرايته. رأي نفسه فرداً مغموراً لقبيلة من الغرب، وأنه غريب تماماً عن المنطقة وكان يعرف أنه لن يستطيع، لتحقيق مآربه، الإعتماد علي الجعليين والدناقلة وسكان الجزيرة وبقية قبائل وادي النيل لدعم حكمه. لذا أرسل مبعوثين سراً إلي قبائل عرب غرب السودان حاثاً لهم للقيام بالحج إلي قبر المهدي والهجرة إلي وادي النيل. ورسم مبعوثوه صورة زاهية عن المكان العظيم الذي دعوا إليه، وأخبروهم أنهم شعب الله المختار وما عليهم إلا الهجرة لإمتلاك الأراضي، والتي كان قاطنوها غاية في الثراء من الماشية والعبيد، والتي ستؤول إليهم. وقد أغرتهم تلك الأحاديث وهاجر كثير من تلك القبائل، بمحض إرادتهم، لأم درمان لكن الخليفة لم يرض عن حجم هذه الهجرات وأصدر أوامره لأمرائه بدارفور وكردفان لتنفيذ تعليماته بالقوة. ترتب علي ذلك الأمر أن هاجرت مجاميع ضخمة لأم درمان، ولا زالت الهجرات تتوالي حتي يومنا هذا، ولكن بأعداد أقل. بهذه الطريقة أحاط الخليفة نفسه بأعداد ضخمة من الغرباء والذين شتتوا مالكي الأراضي الأصليين وجعلوا من أنفسهم سادة البلد. تم ملئ كل الوظائف الهامة بهم وبأقارب الخليفة المنتمين لقبيلة التعايشة ولم يستمر في منصبه من قدامي الأمراء سوي عثمان دقنة وكان السبب في بقائه هو تحدث قبائل شرق السودان بلغة لا يعرفها عرب السودان الغربي، كما أن معظم تلك القبائل كان يقع تدريجياً تحت نفوذ المصريين والإيطاليين. أما من تبقي منهم فقد استمر مع عثمان دقنة لأنه واحد منهم. من هنا حازت قبيلة التعايشة علي كل القوة والسلطة والأرض وملأوا جيوبهم بموارد السودان الشحيحة.

وقبل ســنوات وجه الخليفة أمراءه في دنقلا وبربر لإضعاف السكان بقدر ما يمكن ذلك، وبالتالي صودرت منهم كافة الأسلحة التي كانت بحوزتهم وأهمها الأسلحة النارية وصاروا في وضع لايخشي بأسه. إضافة لذلك، فقد تسببت أحداث توشكي وطوكر في مقتل كثير من الجعليين والدناقلة بينما أرسلت مجاميع كبيرة أخري منهم إلي دارفور والقلابات علي أمل أن يبادوا هناك. وبهذا تمكن الخليفة من تأمين حكمه وأصبح من المستحيل محاولة تحدي سلطانه. نفس الشئ يمكن أن يقال عن أهالي الجزيرة والذين فوجوا لمختلف المناطق النائية في السودان، أو أرغموا علي الحضور لأم درمان بعوائلهم حيث عانوا من الحرمان والمشقة بما لايوصف. أما من بقي منهم فكان عليه تسليم أكثر من نصف أراضيهم الزراعية لتوزيعها بين قبائل الغرب وأصبحت أفضل حقولهم الآن بيد أقارب الخليفة وأخصائه. وكان المالكون الأصليون للأراضي يجبرون علي حراثة وزراعة الأرض لسادتهم الجدد، والذين صادروا خدمهم وعبيدهم وماشيتهم منهم. لهذا تقلصت أراضي الجزيرة الزراعية، والتي كانت يوماً من أكثر الأراضي إزدهاراً وسكاناً، إلي نصف ما كانت عليه سابقا، وانتشرت هذه الفوضي في الأقاليم حتي أن الخليفة بنفسه إضطر للتدخل نيابة عن الأهالي، الذين كابدوا الأمرين من تلك المعاملة الرديئة، ومن القهر والسيطرة لدرجة بالغة السوء.

وكما أوضحت من قبل، كانت قبيلته هي الفريدة في تميزها عن بقية القبائل. لم يتولوا فقط أفضل المناصب وأرفعها، بل حتي الجزء الأكبر من الأموال والغنائم التي تدخل بيت المال من الخزائن الإقليمية في دارفور والقضارف والقلابات والرجاف، كان يجد طريقه لجيوبهم. ومن أجل مصلحتهم فرض (ضريبة الجواد) التي يجب أن تدفع عيناً، وبهذه الطريقة تمكن من تزويد معظم التعايشة بالخيول. وكان الفرع الذي ينتمي إليه من الجبارات هو الذي ينال نصيب الأسد في أي شئ.

وكان لايتردد في التآمر من أجل تقوية أناسه وإضعاف الآخرين. وعلي سبيل المثال، فعند هزيمة النجومي وموته، والذي كانت راياته تتبع للخليفة شريف، والتي كان

الخليفة قد سحب أي سيطرة لها علي بقية الأمراء، فأن الخليفة قام بوضع من تبقي منها (الرايات المنهزمة) تحت إدارة الأمير يونس. وحتي يستبدل الذين قتلوا في توشكي، فقد قام بتعيين جعليين وأمراء جدد وأيضاً رجال أم درمان، كي يحلوا محلهم. وكان قد وضع هؤلاء، في البداية، تحت قيادة مواطنهم بدوي ود العريق. لكنه بدلاً من إرسالهم لدنقلا أمر بتحركهم إلي القضارف. ولما طرأ عليهم ما أخرهم عن السفر، أعلن الخليفة أن هذا دليل علي العصيان، وأمر بنفي بدوي وستة من أمرائه إلي الرجاف، وعين مكانهم أمراء آخرين ووضعهم تحت القيادة المباشرة لإبن عمه حامد ود علي.

من طبع البشر أن يسعوا للحماية لدي أكثر الناس قوة ونفوذاً. فبدأت أعداد كبيرة ممن يسمون (بحزب المعارضة) ينافسون بعضهم البعض للإلتحاق بالخليفة أو يعقوب، ويضعون أنفسهم تحت إمرتهم بدلاً من البقاء مع أمرائهم الأصليين. وحتي أتباع الخليفة علي ودحلو إنضموا لهذا التيار. وكمثال لذلك فانني سأذكر حالة حامد ود جار النبي، والذي كان قد تسبب في الكارثة التي حلت بالبطاحين. فقد كان ينتمي لقبيلة الحسناب التي يرأسها علي ود حلو. ولما رأي إلي أين يسير التيار، أراد أن يضع نفسه وقبيلته تحت إمرة يعقوب، لكنه كان قصير النظر بحيث أطلع بعض أقارب الخليفة علي بخطته. بل مضي لأكثر من ذلك فأذاع للملأ بأنه، بعد موت الخليفة عبد الله، فلن يخلفه سوي أخوه يعقوب، أو إبنه عثمان. ولأنهم يملكون كل أسباب القوة بين أيديهم فلن يتوقع الخليفة علي شيئاً لأنه، فوق ذلك، رجل ضعيف وليست لديه أي قوة. رد عليه كثير من الحاضرين بأن المهدي قد عين الخليفة علي ليخلف عبد الله، لكنه أجابهم بأن الزمن قد تغير، وأن عبد الله قوي للغاية، وأن تعاليم المهدي وأوامره لم تعد مستمعاً لها أو تعطي أي إعتبار. وعندما بلغ الخليفة علي ما قاله الرجل تقدم بشكوي ضده أمام القاضي وتم إثبات أن ود جار النبي قد أدلي بتلك الأقوال فعلاً. بالتالي تمت إدانته بتهمة (عدم التدين)، وأنه تشكك في تعاليم المهدي وأوامره. ولم يستطع الخليفة عبد الله التدخل علناً في القضية. ولو كان فعل، لكشف عن نواياه الحقيقية، والتي كانت في الحقيقة معروفة للناس ولاكد لهم صحة ما قاله

جار النبي. حكم القضاة عليه بالموت. ورغم أن الخليفة عبد الله بذل كل نفوذه لدفع علي ودحلو لإرجاء التنفيذ إلا أنه أصر علي تنفيذ الحكم وتم إعدام ود جار النبي علناً في ميدان السوق بصفته كافراً ومهيجاً للرأي العام. هذا وقد تم توجيه كل القبائل التابعة ليعقوب وكذلك أتباع الخليفة المباشرين بأبداء عدم رضائهم عن تنفيذ الحكم وذلك بالمقاطعة العلنية وغيابهم عن شهود التنفيذ.

وكلما ظهر أي نوع من التحدي لسلطة الخليفة، أو معارضته، فأنه كان يلجأ في الحال للسلاح، والذي يكفي وزيادة للتغلب بسهولة علي أي محاولة لتحدي سلطته، سواء كان ذلك في أم درمان أو في أي مكان آخر بالبلاد. فبداخل السودان، نجد أن الخليفة في منتهي القوة. لكنه ليس في وضع يمكنه من مقاومة أي عدوان خارجي. فقادته إما غير قادرين أو غير مدربين للدرجة التي تمكنهم من الظفر. وحتي رجاله، لم يعودوا موالين له للدرجة التي يحاربون بها بذلك العزم والتصميم الذي أبدوه في أيام المهدية الأولي، ولم يعد لديهم إيمان، أو أقل القليل منه، في القضية التي من المفترض أن يقاتلوا من أجلها، ولايوجد أدني شك في أن قوات الخليفة لن تتمكن من إيقاف تقدم أي قوة أجنبية تنوي إعادة إحتلال السودان.

والجدول التالي يوضح صورة تقريبية للقوات التابعة للخليفة في الوقت الراهن*. فمن بين الأربعين ألف بندقية الواردة في الجدول، ليس هناك إلا حوالي إثنين وعشرين ألف بندقية رمنجتون صالحة للقتال. أما بقية البنادق فأنها إما ذات ماسورة واحدة أو ماسورتين من النوع الأملسي، أو بنادق أخري من مختلف الطراز. مع ذلك فأن كثيراً من مواسير بنادق الرمنجتون قد تم قطعها وتقصيرها لتقليل وزنها وبغض النظر عن التغيير في مسار القذيفة التي أحدثها هذا التقصير. ومن بين الأربعة والستين ألف رجل من حملة الرماح والسيوف فأن ربعهم علي الأقل إما كبروا جداً في السن أو من الصغار الذين لايعتمد عليهم في القتال. تشتمل مدافعه الخمسة والسبعين علي ستة مدافع كروب من العيار الثقيل والتي لايوجد لها إلا عدد محدود من الذخائر، وثمانية مدافع ماكينة من طرز

مختلفة، وواحد وستين مدفعاً نحاسياً، تحشي زخيرتها من الماسورة، ومن أشكال وأحجام مختلفة وتصنع ذخائرها في أم درمان أساساً، لكنها ذخائر ذات نوعية متخلفة ولايزيد مداها كثيراً عن ستمائة أو سبعمائة ياردة.

* ١٨٩٥ تقريباً (المعرب)

الموقع والحاميات	الأمراء	عدد الرجال			المدافع	البنادق وملساء الماسورة
		جهادية	فرسان	حملة الرماح والسيوف		
أم درمان (ملازمين)	عثمان شيخ الدين	١١٠٠٠	–	–	–	١١٠٠٠
أم درمان (ملازمين)	يعقوب	٤٠٠٠	٣٥٠٠	٤٥٠٠٠	٤٦	٤٠٠٠
أم درمان إحتياطي	يعقوب	–	–	–	–	٦٠٠٠
الرجاف	عربي ود دفع الله	١٨٠٠	–	٤٥٠٠	٣	١٨٠٠
غرب السودان:						
الفاشر						
الأبيض	محمود وأخرين	٦٠٠٠	٣٥٠	٢٥٠٠	٤	٦٠٠٠
شكا						
بربر	الزاكي عثمان	١٦٠٠	٥٠٠	١٢٠٠	٦	١٦٠٠
أبو حمد	النور النو	٤٠٠	١٠٠	٧٠٠	٤	٤٠٠
شرق السودان:						
أداراما	عثمان دقنة	٤٥٠	٣٥٠	١٠٠٠	–	٤٥٠
القضارف	أحمد فضيل	٤٥٠٠	٦٠٠	١٠٠٠	٤	٤٥٠٠
الفاشر	أحمد فضيل	١٠٠٠	٢٠٠	٥٠٠	–	١٠٠٠
أصبري	حامد ود علي	٩٠٠	٤٠٠	١٤٠٠	–	٩٠٠
القلابات	النور	٥٠	–	٢٠٠	–	٥٠
دنقلا	يونس الدكيم	٢٤٠٠	٥٠٠	٥٠٠٠	٨	٢٤٠٠
صواردة	حمودة	٢٥٠	١٠٠	١٠٠٠	–	٢٥٠
الجملة		٣٤٢٣٥٠	٦٦٠٠	٦٤٠٠٠	٧٥	٤٠٣٥٠

لننظر الآن، وبإيجاز إلي مدي النفوذ الذي يتمتع به الخليفة.

فحتي قبل بضع سنوات، كانت سلطة الدراويش تمتد من قرب وادي حلفا ثم تتجه لمسار جنوب شرقي بأتجاه أبي حمد، وبعدها شرقاً إلي القرب من سواكن بما في ذلك طوكر وخور بركة، ومنها جنوباً مروراً بكسلا فالقلابات والمنحدرات الجنوبية الشرقية لبني شنقول وجبال قلي. ومن هنا تتجه للجنوب الغربي نحو النيل الأبيض بما في ذلك فشودة وبور والرجاف. وعلي الغرب تمتد حدوده للجنوب الغربي بما في ذلك جنوبي الصحراء الليبية وواحة سليمة ومديريات دنقلا وكردفان ودارفور وحتي حدود وادي. ومنها جنوباً عبر بحر العرب مروراً بدار رنقا بما في ذلك دار الفرتيت وبحر الغزال وقسماً من الإستوائية.

لكن هزيمة النجومي أرغمت المهدويين لإخلاء الجزء الشمالي من مديرية دنقلا وصارت صواردة هي أقصي محطاتهم الخارجية شمالاً والتي تبعد مسيرة ثلاثة أيام من دنقلا*. وأعادت الإنتصارات المصرية في طوكر وهندوب المناطق المجاورة لسواكن وطوكر للقبائل المحلية، بينما أعطي إحتلال كسلا للإيطاليين كل المناطق الشرقية للمدينة مما ترتب عليه جعل نهر عطبرة الحدود الشرقية للخليفة الآن. أما القوة الرئيسية المتمركزة في القلابات، بقيادة أحمد فضيل، فقد تم ترحيلها القضارف ولم تبق سوي قوة صغيرة لا يعتد بها في المركز السابق. وأعلن زعيم مناطق بني شنقول، تور القري، وعدد من الشيوخ المجاورين له إستقلال مناطقهم.

وفي أقصي الغرب ثار المساليت والتاما وبني حسين والقمر، والذين كانوا يدفعون الجزية للخليفة من قبل، علي حكم المهدية وحتي وقت قريب كانوا مستقلين عنه ودخلوا في حلف دفاعي / هجومي مع السلطان يوسف، سلطان وداي، وكان الخليفة علي وشك إرساله حملة عسكرية لإخضاعهم عند ما بلغته الأنباء المنذرة بالخطر، والتي أشرت إليها

---

* عام ١٨٩٦. نجحت حملة عسكرية في طرد الدراويش لخارج مديرية دنقلا وإعادة الحكم المصري حتي مروي (المؤلف).

من قبل، والخاصة بظهور الأوروبيين في بحر الغزال مما دفعه لتغيير مسار جيش الختيم موسي عنهم إلي تلك المناطق. وعند رجوع الدراويش أرسلت الأوامر للختيم موسي لئلا يتقدم لأبعد من ذلك في الجنوب حتي تصله إمدادات من أم درمان.

***

الباب السادس عشر

ملاحظات متفرقة (٢)

«الشئون العدلية - الديانة في السودان - الحج بالقوة إلي قبر المهدي - حدود الإمبراطورية المهدية - طرق القوافل - التجارة والمهن - تجارة الرقيق - سوق الرقيق - الصناعات - الفسوق والفجور - عدم شعبية الخليفة - جهله وقسوته - مساكنه الخاصة - المباني الرئيسية في أم درمان - وصف المدينة - السجن وفظائعه - موت الزاكي طمل والقاضي أحمد».

من خلال الصفحات السابقة أشرت كثيراً، وبصفة عامة، لطريقة الخليفة في إدارة الشئون العدلية. فكان القضاة آلات طيعة بيد سيدهم الماكر . وكان لايسمح لهم بالعمل بحرية إلا في القضايا العادية والتافهة، مثل المشاكل العائلية أو المسائل المتعلقة بالملكية وغير ذلك. لكنهم فيما يتعلق بالمسائل الهامة كانوا يرجعون إلي الخليفة لإتخاذ القرار النهائي والذي كان، قبل أن يبلغه لهم، يراعي مصلحته الخاصة، رغم أنه كان يحرص أمام الجمهور علي الظهور بمظهر الزعيم العادل. من هنا كان عمل القضاة أمراً شاقاً، لأن عليهم دائماً عدم الإنحراف عما يرغب فيه الخليفة، وفي نفس الوقت عليهم طبع القرارات بطابع العدالة وتنفيذ القانون. وكانوا بهذا يعملون ضد مبادىء العدل والإنصاف بنسبة تسعة إلي عشرة من القضايا.

***

وتتحكم في دين السودانيين، حسب تجاربي، قاعدة أن الغاية تبرر الوسيلة. وكانت الإعلانات والمنشورات التي تحث علي الإنتباه الشديد لأداء الواجبات الدينية، وإلي نبذ المتع الدنيوية، ترسل إلي أقصي الأصقاع في أفريقيا والجزيرة العربية وإلي ديار برنو والفلاتة وإلي مكة والمدينة. وإذا ما سمحت للخليفة صحته، فأنه لا يتأخر قط عن حضور الصلوات اليومية الخمسة، لكنه في قرارة نفسه كان أبعد عن الدين من أي رجل آخر.

وطوال السنوات التي كنت علي إتصال وثيق به، لم أسمعه أو أشاهده قط وهو يؤدي صلاة في منزله. وإذا ما تعارض أي نص ديني أو طقس من الطقوس الدينية مع مراده ورغباته، ولو بأقل القليل، فأنه لايتردد في إلغائه علي الفور، ولكنه عند ما يقوم بذلك كان يحرص علي أن يصدر المنع أو الإلغاء من قضاته والذين لايتوانون عن الإعلان بضرورة ذلك الإجراء من أجل تمتين الدين والمحافظة عليه. لكن أولئك الأتباع الخنوعين للخليفة يفعلون ذلك بذكاء، ويقلبون ويلوون الأمر حتي يلائم رغائب الخليفة. وعندما يصبح مستحيلاً إيجاد أي وسيلة أو ذريعة لإصدار قرار خطير مناف للعدل، فأن الإلهام والحضرات والرؤي تتدخل لإنقاذه بالحل الذي يريده.

ويخاطب عبد الله أتباعه عادة من منبر المسجد. ولكن لجهله التام بعلوم الدين والفقه، حيث لايعرف إلا شذرات من مبادئ الدين ، فأن نطاق خطبه يكون محدوداً للغاية ولايخرج عن ترديد وتكرار جمل وعبارات ثابتة ومحفوظة.

***

وكان قد منع الحج إلي مكة وإستبدله بزيارة قبر المهدي خليفة النبي. وبالرغم من كراهية السودانيين لهذه البدعة إلا أنهم أرغموا عليها. ولما كان من الصعب عليهم الرجوع للدين الصحيح، والذي ابتعدوا عنه بغير إرادتهم فأنهم تقبلوا الأمر الآن وصاروا يؤدون فرائض الدين بمجرد الحركات والمظاهر ولكن دون أي إيمان بما يقومون به.

ولايوجد الآن في السودان أي تعليم مدرسي أو حتي الدروس الدينية. لكن بعض الأولاد، وأحياناً قلة من البنات، يتم تعليمهم قراءة القرءان وقراءة الراتب في المساجد التي لايسمح إلا للقليلين بالمحافظة والإشراف عليها. ونسبة ضئيلة من هؤلاء الأطفال يرسلون بعد إكمالهم المقررات إلي بيت المال حيث يتدربون علي أيدي قدامي كتبة الحكومة ويتعلمون كتابة بعض المراسلات الخاصة بالأعمال المختلفة. ولقد توقف نهائياً التعليم الديني والفقهي، الذي يمارس في كثير من البلدان الإسلامية، رغم أنه لم يكن رائجاً في السودان.

***

وإنحدرت التجارة التي كانت رائجة يوماً ما في السودان إلي العدم بالمقارنة بما كان. وأصبحت الدروب والطرق التي كانت تقطعها أعداد لا تحصي من القوافل ذات يوم مهجورة تماماً وقد أزال الرمل معالمها أو نمت عليها وغطتها النباتات العشوائية. وكانت أهم طرق القوافل من قبل الآتي:

١ - درب الأربعين من دارفور إلي أسيوط أو من كردفان عن طريق صحراء بيوضة إلي دنقلا ووادي حلفا.

٢ - من الخرطوم إلي أسوان عن طريق بربر أو عن طريق أبي حمد إلي كرسكو فأسوان.

٣ - من الخرطوم، عن طريق بربر أو كسلا، إلي سواكن.

٤ - من القلابات والقضارف وكسلا إلي مصوع.

وحالياً فأن الطرق الوحيدة التي تسلكها القوافل أحياناً هي من بربر إلي أسوان أو سواكن. فبعد سقوط الخرطوم بوقت قصير، قام التجار السودانيين بجلب كميات كبيرة من الحلي الذهبية والفضية، التي غنمت من الخرطوم، إلي أسوان. ولهذه الحقيقة من ناحية، ولكمية الغنائم التي تراكمت في خزائن الخليفة من ناحية أخري، نقصت كميات هذه المعادن لدرجة إصدار عبد الله لأوامر مشددة للتجار بألا يحملون معهم لمصر أي ذهب أو فضة مهما كان الداعي لذلك، ما عدا ما هو ضروري للغاية لمصروفات الرحلة. وحتي هذا الذي يسمح به كان يحدد من قبل بيت المال، علي أن يكون من العملة القديمة الذهبية أو الفضية ويسجل ذلك في جوازات سفرهم.

وعندما بدأت تلك التجارة الهزيلة مع مصر في الإنتعاش، أصبحت المنتجات الطبيعية بالسودان، والتي كانت تشكل ثروته في الماضي، هي وسيلة التبادل. فقد كان الصمغ وريش النعام والعرديب وأوراق السنمكة وغيرها تجمع في بيت المال، مثلها مثل العاج، ثم تباع بالمزاد بأسعار السوق وبالعملة المحلية. ولما كان معظم تلك المنتجات يأتي من الأقاليم الغربية، والتي تناقص عدد سكانها بشكل خطير من جراء الحروب والمجاعات والأمراض،

فقد كانت الواردات منها شحيحة. كان التجار يقايضون هذه المتاجر بالبضائع المستوردة من مصر مثل منتجات ما نشستر التي تلقي رواجاً كبيراً في السودان. كان الصمغ يخضع للإحتكار وبالتالي تفاوتت أسعاره كثيراً. فيشتري بيت المال الصمغ مثلاً بعشرين أو ثلاثين ريالاً من العملة الجديدة ويبيعه للتجار بثلاثين إلي أربعين ريالاً. ويتم التصديق عادة للتجار لأخذ بضائعهم لمصر وهنا تفرض عليها ضريبة في بربر بواقع ريال لكل مائة وزنة. وهناك تتم مراجعة الكمية ومطابقتها ببوليصة الشحن. وإذا ما أراد التاجر أخذ بضاعته لسواكن أو أسوان فأن عليه أن يدفع ضريبة أخري وأيضاً بقيمة ريال لكل مائة وحدة وزن. لكنه في هذه الحالة يرغم علي الدفع بريال ماريا تريزا، والذي يعادل خمسة ريالات من العملة الجديدة. من هنا فأن سدس القيمة الحقيقية للشراء تؤخذ كضرائب إضافية.

يأتي العاج من المناطق الأستوائية بكميات كبيرة مرة في السنة وعادة ما يأخذ طريقه لسواكن. ولما كانت هذه المناطق تنخرط تدريجياً من أيدي المهدية فأن من غير المحتمل حدوث أي زيادة في حجم تلك السلعة في المستقبل. وفي بعض الأحيان يجلب بعض العاج من أقاليم دارفور الجنوبية. ولكن إذا لم يستعد الدراويش ما فقدوه من بحر الغزال بالقوة فأن تجارتهم من العاج تظل في خطر الموت والتلاشي تماماً.

لا تستورد البضائع من مصر إلا عن طريقي أسوان وسواكن. وفي الماضي كان جزءاً من التجارة يرحل بين سواكن وكسلا ، وبين كسلا ومصوع، ولكن، ومنذ إحتلال الايطاليين لشرق السودان فقد توقف ذلك تماماً. أصبحت البضائع المستوردة من أنواع رديئة عموماً وتشتمل علي الملابس النسائية ومستلزماتها وجبب الرجال. ولكن هذا لايهم أهالي السودان كثيراً إذ أنهم يفضلون إستخدام الملابس المزوقة والملونة أكثر من تلك الخشنة المتينة. وعموماً فمن الصعب أن تجد مشترياً للبضائع ذات النوعية الراقية في السودان.

ومن أهم الواردات السودانية الروائح والعطور بمختلف أنواعها مثل خشب الصندل والصندلية والقرنفل والبذور العطرية... الخ، والتي تولع بها السيدات السودانيات ويسعين لشرائها دائماً. كما تستورد كميات محدودة من السكر والأرز والأنواع الرخيصة من المربات والفواكه المجففة وهذه يجد معظمها طريقه بين الأثرياء من السودانيين. أما

استيراد جميع المواد المصنوعة من الحديد أو النحاس الأصفر أو الصفيح والنحاس فقد كان محظوراً بشدة من قبل الحكومة المصرية والآن من الصعب أن تجد مقصاً أو موساً للحلاقة. وقد إرتفعت أسعار المعدات المصنوعة من النحاس لأرقام خيالية كما أن ما كان موجوداً منها من قبل قد إشترته الترسانة لتصنع منها الخراطيش والرصاص. من هنا فأن الأسر السودانية ما عادت تطبخ طعامها إلا في الأواني الخزفية التي تصنع من الطين المحروق.

وتفرض ضريبة العشر علي كل البضائع الواردة للسودان. وهي تدفع نقداً أو عيناً. وعادة ما تجبي تلك الضريبة عدة مرات بطول الطريق. وعندما تصل البضائع لأم درمان، تسلم لبيت المال وتختم ثم يؤخذ منها العشر مرة أخري. من هذا نجد أن التجار يدفعون عموماً أكثر من نصف قيمة بضائعهم الأمر الذي لا يعزي للضرائب الثقيلة المفروضة عليهم، بل أيضاً للهدايا التي عليهم تقديمها لمختلف الزعماء. لهذا يلجأون إلي رفع أثمان بضائعهم ورغم ذلك لايحققون إلا ربحاً ضئيلاً. وقد عمل كثير من أغنياء السودان بالتجارة مع مصر، ليس من أجل الربح أساساً، بل لقضاء بضعة أشهر بعيداً عن أجواء السلطة. وأصبحت التجارة مع مصر هي الوسيلة الوحيدة التي يلجأ إليها من ضاق به الحال من السودانيين للهروب مؤقتاً من أيدي ذلك الطاغية، الخليفة، والذي يزداد حكمه بغضا وينفرون منه أكثر من أي وقت مضي. ويضطر معظم التجار للعودة للسودان حيث أن نساءهم وأطفالهم وعوائلهم وأقاربهم به. ولولا هذه القيود، فأنني أعتقد بأن أقل القليل من الرجال الذين وجدوا فرصة للخروج من السودان سيعودون ثانية إليه.

***

ولكن، وإذا ما كانت التجارة عموماً في حالة واضحة من التدهور، إلا أن هناك نوعاً واحداً من التجارة ساعد ظهور المهدي والخليفة علي إزدهاره ودفعه للأمام، وأشير طبعاً لتجارة الرقيق. ولما كان تصدير الرقيق لمصر قد منع منعاً باتاً، فقد إنحصرت هذه



A Slave Dhow on the Nile.

الرقيق في دهبية على النيل

التجارة كلياً بين المديريات الخاضعة لحكم الخليفة. ففي منع تصدير الرقيق لمصر، فقد إهتدي الخليفة بمبدأ يتميز بالحكمة وهو ألا يزيد من قوة أعدائه بأمدادهم بالرجال. لكن كان من المستحيل عليه أن يتمكن من المنع التام للرقيق الذي ينجح التجار في بعض الأحيان من توصيله لمصر أو للحجاز. وقد توقفت قوافل العبيد التي كانت ترسل من قبل من السودان تماماً. وقبل بضع سنوات أرسل ابو عنجة أعداداً من العبيد من الحبشة كما قام الزاكي طمل بأرسالهم من فشودة مثلما كانوا يجلبون من دارفور وجبال النوبة بواسطة عثمان ود آدم. وكانوا يباعون في مزادات علنية إما لمصلحة بيت المال أو لحساب الخليفة الخاص. ويتم ترحيل الأرقاء بنفس الطريقة المقيتة، وقساوة القلب التي تميز عملية أسرهم. وكان معظم آلاف الأحباش النصاري الذين أسرهم أبو عنجة، من النساء والأطفال. وقد أرسلهم مشياً علي الأقدام تحت ضربات السياط، وبدون رحمة، كل المسافة حتي أم درمان. ساقوهم كقطعان الماشية، بعد أن انتزعوهم من بين أهلهم، حفاة وشبه عراة، وبأقل القليل من الطعام الذي يحفظ حياتهم فمات عدد كبير منهم أثناء الطريق. أما النين وصلو لام درمان فكانوا في حالة تدعو للرثاء وكان من الصعب إيجاد مشترين لهم وقام الخليفة بأهداء عدد منهم مجاناً. وبعد هزيمة الشلك أرسل الزاكي طمل الافاً من تلك المخلوقات البائسة علي ظهر المراكب المخصصة لنقل جنوده إلي أم درمان ومات مئات منهم بسبب الإختناق والإزدحام أثناء الرحلة. وعند وصول من بقي حياً منهم قام الخليفة بتجنيد الشباب منهم في حرسه الخاص بينما تم بيع النساء والصغار في المزاد العلني الذي استمر لعدة أيام. وقد تجمع أولئك البؤساء أمام بيت المال يعانون من الجوع والعري وكانوا، لسد جوعتهم، لايطعمون إلا بالذرة غير المسلوقة وبكميات لاتسد جوعتهم. مرض المئات منهم ولم يجد أولئك البؤساء مشترين لهم وصاروا يجرجرون أجسادهم الهزيلة حتي يصلوا للنهر حيث مات الكثيرون منهم ولم يجدوا من يدفنهم فألقيت الجثث في النهر حيث جرفهم التيار.

لكن المصير الأسوأ وقع علي الأرقاء الذين لسوء حظهم جاءوا من دارفور، عابرين الفيافي الواسعة والصحاري القاحلة التي تقع بينها وبين أم درمان. ودفعت تلك المخلوقات البائسة، وبدون رحمة، للسير ليلاً ونهاراً حتي وصولهم لأم درمان. ومن الصعب علي وصف المعاملة الوحشية التي مارسها المتوحشون من تجار الرقيق لارغام ضحاياهم للمضي لوجهتهم. فعند ما يعجز أولئك البؤساء عن التقدم كانت آذانهم تقطع كدليل يقدم للمالك بأنهم ماتوا أثناء الطريق. وقد أخبرني بعض أصدقائي بأنهم وجدوا ذات مرة إحدي التعساء من النساء والتي كانت لا زالت حية بعد قطع أذنيها، فأشفقوا عليها وساقوها معهم إلي الفاشر حيث إستعادت صحتها. أما أذنيها فقد ارسلت لصاحبها بأم درمان كدليل علي موتها.

وفي الفترة الأخيرة لم تصل لأم درمان قوافل كبيرة من الرقيق لأن معظم المناطق التي يجلب منها الرقيق، مثل دارفور، قد تناقص عدد سكانها لدرجة بعيدة، أو لأن بعض القبائل مثل التاما والمساليت وغيرهم قد تحرروا من قبضة الخليفة. لكن بعض الواردات منهم كانت تصل من الرجاف. ونظراً لطول المسافة ومشقتها كان عدد منهم يموت في الطريق. ولما بدأت الإمدادات من القلابات وكردفان ودارفور في الهبوط بصورة واضحة وافق الخليفة علي قيام الأمراء ببيع الأرقاء للجلابة المتجولين علي أن يقوم المشتري بكتابة مستند يشير إلي أوصاف المشتروات والثمن الذي دفع لصاحبهم وبعدها يسمح لهم باعادة بيعهم.

يباع الرقيق يومياً في أم درمان ولكن لايسمح ببيع الذكور منهم والذين ينظر إليهم كاحتكار خاص بالخليفة ويحولون عادة إلي جنود. وإذا أراد أحدهم بيع عبد ذكر فيجب أن يرسله إلي بيت المال حيث يشترونه منه بسعر إسمي وبعد ذلك، فأن كان صالحاً للجندية فأنه يجند ضمن قوة الملازمين. وفي حالة عدم صلاحيتة يرسل للعمل في حقول سيده. ولكن من المسموح به بيع النساء والفتيات وفي أي مكان علي شرط أن يوقع إثنان من الشهود علي البيع وإن أمكن يكون أحد الشهود قاضياً وتشمل وثيقة البيع شهادة بأن العبد المباع هو ملك حقيقي لبائعه. وقد أدخل هذا النظام بعد أن تفشي هروب العبيد من

أسيادهم حيث قد يمسك بهم أخرون ويبيعونهم علي أساس أنهم المالكون لهم. ومن هنا تفشت سرقة العبيد في آم درمان وأصبحت شيئاً معتاداً، إذ يتم إغراءهم للدخول في بيوت أناس غرباء أو إغراءهم سراً لهجر الحقول، ثم بعدها يقيدون بالأغلال ويتم نقلهم لأماكن بعيدة من القطر ثم يباعون بأسعار بخسة. وطبقاً للقوانين الإسلامية لا تقبل شهادة العبد وبالتالي، ولمعرفتهم بوضعهم البائس، فأن هؤلاء المخلوقات المسروقة يرضون بالسيد الجديد طالما عاملهم معاملة طيبة.

وفي أم درمان هناك منزل بني بالطوب اللبن، يقع جنوب شرقي بيت المال، وعلي مسافة قصيرة منه، ومطل علي ميدان، يعرف بأسم سوق الرقيق. وبذريعة رغبتي في شراء أو استبدال بعض العبيد، كنت كثيراً ما استأذن الخليفة لزيارة السوق ووجدت فرصة كافية لمراقبة سلوك واسلوب العمل والعاملين فيه. وهنا يتجمع تجار الرقيق المحترفين لعرض ما لديهم، حيث يقف حول حوائط المنزل، عدد من النساء والفتيات المعروضات، أو يجلسن، وتتراوح أعمارهن من العجوز المتهالكة من العاملات شبه العراة، إلي السريات الفاتنات اللائي يرتبين الملابس البهية. ولما كان ينظر لهذه التجارة كعمل طبيعي مشروع، فأن المعروض للبيع من الرقيق يتم تفحصه جيداً من الرأس حتي القدم وبدون أي قيود علي عملية الفحص وكأنهن من الحيوانات. يفتح الفم للتأكد من سلامة الأسنان، كما يعري الجزء العلوي من الجسم والظهر وتفحص الأزرع بعناية. ثم يطلب منهم المشي عدة مرات ذهاباً وإياباً حتي تكون فكرة عن حركاتهم وطريقة مشيتهم. ثم توجه لهم عدة أسئلة لمعرفة مدي تمكنهم من اللغة العربية. وخلاصة الأمر، فأن عليهم الخضوع لأي إختبارات يرغب المشتري الواعد في توجيهها.أما السريات أو الخليلات فيختلفن في أسعارهن. وهن لايعطين أي أهمية لعملية بيعهن ويعتبرنه أمراً طبيعياً ولايتوهمن بأن يعاملن بطريقة مختلفة عما سبق ذكره. ويمكن للمرء أن يري، أحياناً، من التعابير التي تبدو علي المرأة أو الفتاة تأثرها بهذا الفحص والتمعن الدقيق في جسمها. وربما جاء ذلك لكونها كانت مع سيدها السابق تعامل معاملة الخادمة أكثر من العبدة، أو ربما كان ينظر إليها كواحدة من الأسرة وإن جلبها لهذه الحالة التعسة إنما كان لسبب قوي خارج عن إرادة سيدها،



In the Slave Market, Omdurman.

في سوق الرقيق بأم درمان

أو بسبب من سلوك كريه غير إنساني من قبل سيدها السابق. وعند فراغ المشتري المتوقع من تفحصه لها وإمعان النظر فيها يتحول إلي البائع ويسأله بكم إشتراها، وإن كان لديه واحدة أفضل منها معروضة للبيع. وربما يشتكي من أن وجهها ليس بذلك الجمال أو أن جسمها غير متناسق أو أنها تجهل العربية.... وهكذا، بغرض تخفيض سعرها لأقل ما يمكن. من الناحية الأخري نجد أن البائع يبذل كل جهده لإظهار حسن خصالها وجاذبيتها... الخ مما لا أود سرده هنا من التفاصيل. هذا ومن بين الخصال الكثيرة غير المرغوب فيها، والتي ترغم البائع علي تخفيض سعره، الشخير، وسوء الطبع والسرقة وغيرها وعند ما يتم أخيراً الإتفاق علي سعر البيع تكتب ورقه المبايعة وتوقع، ثم تدفع القيمة وتصبح الأمة بعدها من أملاك السيد الجديد. يتم الدفع بالعملة الجديدة المحلية وتكون الأسعار عموماً كما يلي:

* للعبد كبير السن من العمال ٥٠ - ٨٠ ريال
* امرأة متوسطة السن ٨٠ -١٢٠ ريال
* البنات من سن الثامنة حتي الحادية عشرة، وحسب جمالها ١١٠ - ١٦٠ ريال
* للسرية، حسب جمالها ١٨٠ - ٧٠٠ ريال

وهذه الأسعار تتغير بالطبع حسب سعر السوق أوحسب طلب الزبائن لجنس معين من الرقيق.

***

ولا توجد بالسودان أي صناعات بالمرة، ما عدا ماذكرته من قبل ، وبالتالي فلا توجد صادرات صناعية. وفي الماضي كان الذهب والفضة يرسلان لمصر لتشكيلهما. ولكن نظراً لندرة هذه المعادن الآن، ولحظر المهدية للحلي الذهبية وإرتدائها، فقد توقفت هذه العملية نهائياً. لكن الصناعة الرائجة والمنتشرة هي صناعة الرماح الطويلة والقصيرة بمختلف الأشكال وصناعات حديد الركاب للخيول ومستلزمات الحمير والخيول والسكاكين التي تعلق علي الذراع بالإضافة للالات الزراعية. تصنع أيضاً السروج الخشبية للإبل والخيول

والبغال كما تصنع الأسرة البلدية (العناقريب) وصناديق الملابس، والأبواب والشبابيك ومصاريعها ولكن بطريقة ونوعية متخلفة. وفي الماضي القريب كانت صناعة المراكب مزدهرة لكنها توقفت نهائياً الان بسبب قرار الخليفة مصادرة كل المراكب النيلية ولم يعد يصنع منها إلا القليل إلي أن عادت صناعتها مرة أخري، في العام الماضي، بعد تراجع الخليفة عن قراره. لكن بسبب من فرض بيت المال لضرائب عالية علي المراكب الجديدة فقد إنحسر كثيراً الدافع لبنائها بعد أن قل الربح منها.

وهناك صناعات جلدية بكميات لابأس بها لعمل المراكيب الصفراء والحمراء والصنادل والسروج بمختلف أنواعها واللجام وأغلفة الحجبات وأغماد السيوف والسكاكين وغيرها أما السياط والكرابيج فتصنع بكميات كبيرة من جلود أفراس النهر.

وهناك صناعات قطنية معتبرة. فأي إمرأة أو شابة لديها مغزل (مترار) لاستعمالها الخاص أو لغرض بيع الخيوط المغزولة. كما نجد في كل قرية عدداً من النساجين والذين يحولون تلك الغزول إلي أقمشة مختلفة الطرز. ففي الجزيرة تنسج الثياب القطنية والدمور والقنجة وبأطوال حوالي عشرة ياردات.

يتم جلب تلك المنسوجات للسوق بكميات كبيرة وتشتريها عادة طبقات العوام من الناس. أما أفخر الأنسجة القطنية فتصنع في بربر وكثير من صناعها يدخلون شرائط من الحرير الملون وسط النسيج والذي يستخدم كعمامة أو حزام أو كأغطية من مختلف الأنواع أو الشالات. وفي دنقلا أيضاً تصنع كميات معينة من الأقمشة القطنية لكن ذلك الإقليم يشتهر بصفة خاصة بصناعة أشرعة المراكب بمختلف أحجامها. أما أقمشة كردفان فأنها تشتهر بمتانتها أكثر من جمالها.

وبالاضافة لغزل الخيوط، تشتغل النساء بضفر البروش بمختلف أحجامها وأشكالها من سعف الدوم حيث تباع في أنحاء السودان المختلفة. وتصنع أفخر أنواع البروش من الشرائط الرقيقة للسعف أو من تبن الشعير أو من الجلد المقطع لشرائط رقيقة كما تصنع

أبسطة ومفروشات، بذات الوصف، لتوضع علي المائدة أو يغطي بها الطعام*. وتبلغ بعض هذه الصناعات درجة من الجمال ودقة الصنع حتي أن كميات منها تصدر لمصر حيث تباع كتحفة من التحف الغريبة. ونساء دارفور خاصة لهن مهارة فائقة في صنع تلك البروش ويدخلون وسطها مختلف أنواع الخرز والزجاج لدرجة أن بعضها يكون غاية في الجمال.

***

لقد حاولت في الصفحات السابقة إعطاء إنطباع عام عن حياة الخليفة وعن الأحوال الراهنة في السودان. لكن هذا لن يكتمل بدون إبداء بعض الملاحظات عن الحالة الأخلاقية للسكان. فقد أدت مساعي المهدي لإحياء الدين، وإستخفافه بالتعاليم والعادات الدينية السابقة، إلي تدهور في القيم والسلوك الأخلاقي للسودانيين والتي كانت، حتي في أفضل حالاتها، متساهلة جداً عندهم. وخوفاً من الخليفة جزئياً، وجزئياً لحرصهم علي مصالحهم، فقد تعامل الناس مع الدين كمجرد (عمل) وأصبح ذلك التعامل الآن جزءاً من طبائعهم مما ترتب عليه تدهور لايوصف في سلوكهم الأخلاقي. ويبدو أن معظم الناس، بسبب عدم قناعتهم أو سعادتهم بالوضع الراهن، وخوفاً من المزيد من الضغوط علي حرياتهم الشخصية، فقد إجتهدوا للإستمتاع بحياتهم بقدر ما تسمح لهم إمكانياتهم وألا يضيعوا وقتاً في ذلك. وفي الواقع لم تكن هناك حياة إجتماعية أو تواصل روحي بين السودانيين مما دفعهم، لإشباع رغباتهم، للإنغماس في حب النساء لدرجة غير عادية. وكانوا يهدفون إلي الزواج بأكبر عدد منهن يسمح به، بالإضافة للسريات، ولم تمنعهم شرائع المهدي من التمادي في ذلك الأمر. ونري علي سبيل المثال أن نفقات الزواج قد تم تقليصها لدرجة كبيرة وخفض مهر الفتاة من عشرة ريالات إلي خمسة ومهر الأرملة خمسة ريالات وكسوة عادية وزوج من الأحذية أو الصنادل والقليل من العطور. وإذا رغب رجل في التزوج بامرأة ما فلابد من أن يوافق والدها أو ولي أمرها علي ذلك إلا إذا كان لديه مانع قوي لذلك . وكان عليهم في كل الأحوال أن يتحملوا المسئولية عن عدم زواج بناتهم فور وصولهن لسن

---

* ربما يقصد المؤلف (الطبق) المعروف في السودان (المعرب).

البلوغ. وبالتالي كانت حيازة أربعة زوجات وهو العدد المصرح به في القرآن - شيئاً عادياً وينظر إليه في معظم الأحوال بأنه وسيلة لحيازة شئ ما وتملكه. أكثر من ذلك، فأن كثيراً من النساء يقبلن هذا الوضع تماماً ويوافقن علي الزواج لأنه إما أن يتيح لهن بعض المال والملابس أو لتغيير نمط حياتهن ولو إلي حين، لأنهن يعلمن تماماً أن الشريعة تسهل عليهن الحصول علي الطلاق. وإذا ما أرادت إمرأة الطلاق، فأنها تحتفظ بالمهر الذي دفع لها من قبل إلا إذا كان سبب الطلاق هو كرهها ونفورها من الزوج حيث يعاد المهر في هذه الحالة للزوج إذا ما أراد ذلك. وأنني أعرف عدداً من الرجال الذين قاموا، خلال عشرة سنوات فقط، بالتزوج لأربعين أو خمسين مرة علي الأقل. وهناك أيضاً العديد من النساء واللائي، خلال نفس الفترة، قد تزوجن خمسة عشر أو عشرين زوجاً. والسبب هو أن قوانين الشريعة تحتم إنتظارهن لثلاثة أشهر علي الأقل بعد الطلاق قبل الزواج مرة أخري.

وكقاعدة عامة، نجد أن السراري والإماء، والتي يمكن للرجل حيازة أي عدد منهن، يعشن حياة لا أخلاقية. ونادراً ما يتم سكناهن تحت سقف واحد في بيت سيدهن إلا إذا ولدن له أطفالاً. وفي هذه الحالة لا يتم بيعهن. وفي معظم الحالات فأن من يشتريهن يستمر معهن لفترة وبعدها تباع السرية مرة أخري بربح أكبر. هذا التبادل المتكرر للرجال أدي إلي تدهور أخلاقي بالغ وسرعان ما يذبل الشباب والجمال ويهرمن قبل الأوان وبعدها يدخلن في حياة من المتاعب والمصاعب والتدهور الخلقي الذي يستحيل تحمله.

ومن العادات المتفشية قيام التجار بجلب المال عن طريق الممارسات اللا أخلاقية لنسائهم الأرقاء. فهم يشترون الفتيات الصغيرات السن ويسمحون لهن بنوع من الحرية في البحث عن السكن والمعيشة بالطريقة التي تناسبهن. ومقابل هذا الامتياز فأنهن يسلمن سيدهن جعلاً من الأرباح التي يجنينها.

وأكثر الرذائل هي المتفشية بين عبيد الملازمين. فيقوم الملازمون باغراء النساء بايوائهن معهم في الثكنات حيث يقمن هناك لوقت قصير كالزوجات معهم ثم يتم التبادل فيما بينهم للنساء. ولم يشغل الخليفة نفسه بهذا الأمر. فقد تصور أن بالسماح لهم بأمتاع أنفسهم

فـانهم سـيظلون أكثـر إرتبـاطاً وولاء له ولن يفكروا في هجـر أعمـالهـم. ومن البـديهي أن نتيجه هذا التفحش قاد إلي تفشي أسوأ أنواع الأمراض بينهم، مثلما تفشت بين عدد كبير من المواطنين من كافة الطبقات الإجتماعية وبين الأحرار والعبيد علي السواء. ولولا حرارة الطقس والجفاف لكان ذلك الوباء قد أصبح رهيباً. وكما عليه الحال فإن الحالة الصحية العامة سيئة للغاية وزاد من سوئها الإنعدام التام للأدوية اللازمة لعلاج المرض.

وهناك عدد من الناس إنغمسوا في سلوك جنسي غير طبيعي وحاول الخليفة إيقاف هذه الظاهرة بنفيهم إلي الرجاف لكنه أوقف ذلك أخيراً. فقد وصل إلي نتيجة مؤداها أن من السهل أن تحكم بالطغيان والقهر أمة فاسدة بدلاً عن حكم دولة ذات درجة عالية من السلوك الأخلاقي. ولهذا السبب فـهو يكره الجعليين ويخشاهم في نفس الوقت، وبالذات الذين يسكنون بين حجر العسل وبربر علي ضفة النيل. فهم العرب الوحيدون تقريباً في السودان الذين لهم حياة أسرية منظمة جداً ويتميزون بأخلاق عالية تتيح لهم وجوداً مريحاً وصحياً.

وقد حظر علي أرامل المهدي أن يعشن في ذلك الجو الفاسد، فبعد وفاة المهدي مباشرة قام الخليفة، إحتراماً لذكراه، بوضع أولئك النسوة في بيوت تحيط بها أسوار عالية، بالقرب من ضريح المهدي حيث يقوم الخصيان بحراستهن. وقد حرمن بذلك، ضد رغبتهن، من الزواج مرة أخري، لا زوجاته ومحظياته فقط، بل حتي الشابات الكثر، ومعظمهن من بنات موظفي الحكومة السابقة، والذين أخذوا للحريم عندما كن صغاراً في السن، ليتزوجن عندما يكبرن وشددت عليهن الرقابة حتي لم يعد يسمح لهن بزيارة أقاربهن من النساء إلا مرة واحدة في السنة. وكانوا يمدونهن فقط بما يكفي لحياتهن بالكاد. وكم تاقت نفوسهن للحرية! دعنا نأمل ألا يتأخر الوصول لذلك اليوم طويلاً!

***

وعلي الرغم من طغيانه، فقد كان الخليفة يخشي دائماً علي حياته. وقام بأخلاء تلك الأقسام من المدينة المجاورة لمكان إقامته من سكانها وترحيلهم عنها وحل محلهم حرسه الشخصي الضخم العدد والذي لايفتر عن زيادة عددهم يوماً بعد يوم. وأحاط تلك المساكن

بسور عظيم، يعيش داخله هو وأقاربه. أما كل الذين يشتبه في أمرهم، مهما كانت درجة الإشتباه، فقد أرغموا علي السكن خارج ذلك السور. ورغم كل هذا لم يحس بالأمان أو الراحة. فقد أدت الواجبات المتواصلة الملقاة علي عاتق حرسه الخاص إلي حالة من الإحساس بالتوتر، وصاروا يتزمرون من قلة المال الذي يصرف لهم ومن المحظورات التي عليهم تجنبها في حياتهم الإجتماعية. وقد منع الألوف من الحرس المنتمين لأصول عربية حرة من إقامة أي صلة أو علاقات مع أقاربهم، ونادراً ما كان يسمح لهم بمغادرة السور وعندما يرتكب أي منهم مخالفة، مهما كانت بسيطة، فأنه يعاقب بمنتهي الوحشية والقسوة. ويقوم علي حراسة عبد الله بالليل وبالنهار مجموعة خاصة من الحراس الذين عينهم بنفسه، إضافة لعدد من الخدم المخلصين. ولا يسمح لأي شخص، حتي أقرب المقربين إليه، بالدخول عليه وفي أيديهم السلاح. وإذا ما طلب من شخص ما مقابلة الخليفة، ينزع منه سيفه وسكين ذراعه، التي تعود السودانيون علي لبسها، ثم يتم تفتيشه قبل دخوله غرفة المقابلة. عدم الثقة هذه ذادت من عدم شعبيته. وحتي بين أكثر أتباعه ولاء واخلاصاً، فأنك تسمع ما يقولونه بصوت لايكاد يبين عن إستبداده وخوفه علي حياته.

***

وبالرغم من قسوته البالغة التي لا داعي لها دائماً، فقد فشل الخليفة في السيطرة علي قبيلته. فعند بداية وصولهم لوادي النيل إندفعوا يهاجمون السكان المحليين واستولوا علي ما لديهم من الحبوب، وتحرشوا بنسائهم، وحملوا معهم أطفالهم. وتطور الأمر لدرجة بالغة مما أجبر الخليفة لإصدار أمره بعدم السماح لأي من العرب التعايشة بمغادرة المدينة بدون إذن شخصي. لكنهم تجاهلوا ذلك الأمر وواصلوا إنتهاكاتهم وخرقهم للقانون أكثر من ذي قبل. وكان سلوك هؤلاء العرب من النوع الذي لايحتمل. وكانوا يتفاخرون علناً بأن صلتهم بالخليفة جعلتهم سادة علي الجميع وأنهم ماضون في تأكيد ذلك وترسيخه. وقد استولوا علي أجود المراعي لماشيتهم وخيولهم وأصبح عيشهم علي غلة الأرض مما أثار غيرة بقية قبائل الغرب الأخري والذين بدأوا ينظرون إليهم بغير عين المودة والرضي. وكان الخليفة مدركاً لكل هذا، وأظن أنه لايعرف مدي عدم شعبيته بين الناس، وكل ما يهمه هو

الحفاظ علي ثقة أمرائه به وذلك عن طريق إرسال الهدايا من مال وجواري لهم سراً بالليل. ولا يتردد هؤلاء في قبول تلك الهدايا، والتي يعلمون أن مصدرها غير شريف. وظل رأيهم في الخليفة كما هو ، بدلاً من أن يتحسن.

***

لم يبارح الخليفة ام درمان لأكثر من عشرة أعوام. وفيها جمع كل القوة وخزن فيها كل السلاح والذخائر، مثلما جمع فيها، وتحت رقابته الشخصية، كل الذين يشتبه فيهم وأجبرهم علي حضور الصلوات الخمسة يومياً معه والاستماع لمواعظه. وقد أعلن بأن أم درمان هي المدينة المقدسة للمهدي. ومن الغريب أن نعلم بأن هذه المدينة العظيمة لم تكن قبل عشرة سنوات أكثر من قرية صغيرة، تقع في مواجهة الخرطوم، ولايسكنها إلا قلة من اللصوص وقطاع الطرق. لكن لم يمض وقت طويل، عقب سقوط الخرطوم، حتي قرر المهدي أن يتخذها مقراً له. وكانت الأشجار الشوكية تملأ الفضاء الذي يشغله الآن المسجد وأيضاً بيوت الخلفاء الثلاثة. وقد أضاف عبد الله لأملاكه كل الأرض الواقعة جنوبي المسجد أما التي علي الشمال منه فقد قسمت بين الخليفة شريف والخليفة علي ودحلو. وأثناء حياته كان المهدي قد أشار لأم درمان بأنها مجرد معسكر مؤقت لأن الرسول قد كشف له بأن لن يموت إلا في سوريا، بعد غزوه لمصر والحجاز. لكن موته المبكر أطاح بخططه وبآمال أتباعه.

يصل طول المدينة، من الشمال حتي الجنوب، لحوالي ستة أميال إنجليزية. ويقع أقصي الطرف الجنوبي منها بالضبط مقابل الطرف الجنوبي الغربي للخرطوم. وعند بداية تأسيسها عزم كل الناس تقريباً علي الإقامة بقرب ضفاف النهر ما أمكن ذلك، لتسهيل ورودهم للماء، وبالتالي صار عرض المدينة أقل من طولها بكثير ولايزيد علي ثلاثة أميال. بدأ البناء للآلاف والآلاف من مباني القش وكان الجامع في بدايته مستطيلاً ومحاطاً بسور من الطين طوله أربعمائة وستين ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسين ياردة. لكن هذا قد تغير الآن بسور من الطوب المحروق ثم طلي بالجير الأبيض. بعد ذلك شرع الخليفة في بناء

منازل لنفسه ولأخيه وبعدها منازل لأقاربه وسار الأمراء ومعظم الأثرياء علي نفس المنوال. وقد وصفت من قبل بناء ضريح المهدي ولكنني قبل مغادرتي لأمدرمان شاهدته وقد عمل الطقس علي إزالة طلائه الأبيض مما شوه منظره العام. وكان قد وضع في قمة القبة ثلاث كرات مجوفة من النحاس، الأصفر، واحدة فوق الأخري، وقد إتصلت تلك الكرات مع بعضها بحربة سلاحها متجه نحو السماء. وكثيراً ما سمعت الناس يقولون أن الخليفة غرز الحربة بهذه الصورة ليظهر أنه علي استعداد لإعلان الحرب حتي علي السماء إذا لم تستجب لمشيئته. وكان الخليفة يختلي بنفسه من وقت لآخر في الضريح، ربما للحصول علي الإلهام منه. ولكن ، ومنذ إعدام أقارب المهدي، فقد قلت زياراته وتباعدت ويفترض الناس أنه يخشي أن يكون وحيداً مع جثمان سيده الراحل، والذي قام الخليفة، بأفعاله أو بنفوذه، ليس بالكلمات فقط بل بالأفعال، بالعمل بالعكس من تعاليمه. وكل يوم جمعة كانت أبواب الضريح الضخمة تفتح للسماح بدخول الحجاج للزيارة. ولما كان علي كل الجماهير أن تأتي في ذلك اليوم لتكرر الصلاة علي الميت، فأن الالاف يشاهدون في أوضاع مختلفة من الصلاة ويسألون الله اللطف بهم، متوسلين بالولي المدفون به. لكنني لا أشك بأن معظم تلك الصلوات تصعد لعرش الله تسأله تخليصهم من شدة قهر وطغيان خليفته المستبد.

وجنوب الضريح، ملاصقاً للمسجد الكبير، يقع المبني الواسع للخليفة. وبيت الخليفة يشتمل علي سور عال بني بالطوب الأحمر ملصقة به عدة قاعات صغيرة متصلة ببعضها بينما تقع شقته الخاصة أقرب ما تكون للمسجد. وعلي الشرق منها تقع مباني زوجاته ثم الأسطبلات، والمخازن ومساكن الخصيان... الخ. وفي منتصف الواجهة الشرقية للمسجد باب خشبي ضخم (لاتوجد أبواب علي مداخل الجامع الأخري) ومنه يمكن الدخول الي مأوي الخليفة الخاص وغرف أستقباله. وعند الوصول للبوابة الرئيسية فأن المرء يدخل إلي رواق صغير يؤدي إلي قاعة صغيرة تطل عليها حجرتان أحد جوانبهما مفتوحه دون حائط، وهنا يستقبل الخليفة ضيوفه. بعد هذه يوجد باب يؤدي إلي الغرف الخاصة ولايسمح إلا للخدم الصغار السن بدخولها. بنيت المنازل المختلفة، التي بداخل بيت الخليفة، بشكل

صالات متصلة ببعضها وعلي جانب كل منها، أو جانبين منها، برندات مفتوحة. وعلي سطح أحد هذه المنازل بني طابق إضافي علي حوائطه الأربعة شبابيك يمكن أن يطل المرء منها علي منظر كامل لكل أم درمان.

لم يكن في غرف الإستقبال من الأثاث إلا أبسطه. والأثاث الوحيد بها هو عنقريب فرش عليه برش من السعف. لكن البيوت الداخلية مؤثثة بكل فاخر من الأثاث الذي يمكن شراؤه في السودان. فالسراير من النحاس الأصفر والحديد تغطيها النواميس - من غنائم الخرطوم - والسجاجيد والوسائد المغطاة بأكياس الحرير، والأبواب والشبابيك التي تتدلي عليها الستائر المختلفة الألوان والملمس ثم باقي أنواع المفروشات والأدوات اللازمة للغرف. أما الفرندات فليس بها إلا العنقريب وبرش السعف. وإذا ما قارنا ذلك بما كانت عليه حياة الخليفة الباكرة فأن هذه المفروشات تمثل قمة في الترف والرفاهية.

وعلي الشرق من بيت الخليفة يقع منزل إبنه والمؤثث علي نفس نمط منزل الأب ولكن مع درجة أكبر من الترف. فكانت هناك عدة شمعدانات نحاسية، من الخرطوم، تتدلي من سقوف الغرف، كما إنشئت بمنزله حديقة، جلب طميها من ضفة النيل، وعمل في ذلك مئات من العبيد والذين كانوا علي حق في شعورهم بالغضب من جراء حرص سيدهم الشاب علي المظاهر والأبهة، بينما هم لايكادون يطعمون إلا ما يسد رمقهم.

ويقضي الخليفة وإبنه معظم وقتهما في إنشاء أو تأثيث مباني جديدة لهما وفي العمل لما يجعل حياتهم أكثر بهجة وراحة بقدر الإمكان. وكان يعقوب يحنو حنوهم وكان كل يوم يشهد عدداً من العمال في طريقهم لمنزليهما، يحملون الحجارة والطين والعوارض وكل مستلزمات المباني. أما منزل الخليفة علي ودحلو فكان أصغر بكثير ومفروش ببساطة متناهية.

وبالاضافة لبيت الخليفة الرئيسي، فأن له عدداً من المنازل جنوبي وشمالي أم درمان لكن بناؤهم وفرشهم كان عادياً ومتواضعاً ولاتستخدم تلك المنازل إلا كأستراحات عند ما يقوم بأرسال الجنود لمختلف المناطق إنطلاقاً من العاصمة، أو عندما يخرج لإستقبال فصائل الجنود عند رجوعهم من الأقاليم. ونادراً ما يبقي بتلك المنازل لأكثر من يوم أو

يومين في كل مناسبة. كما بني منزلاً أخر بالقرب من النهر ومجاور للقلعة الحكومية القديمة، وقد سدت الآن الحفر والخنادق التي كانت بها وردمت بالتراب. وهو لايذهب لهذا المنزل إلا عند تحرك البواخر للرجاف حتي يشرف بنفسه علي قيامها.

***

يفصل بيت الأمانة، أو الترسانة، عن منزل يعقوب ميدان فسيح. وتتكون من مبني واسع محاط بأسوار حجرية. وفي بيت الأمانة يتم تخزين المدافع والبنادق والذخائر والمعدات الحربية الأخري، إضافة لخمسة عربات كانت تخص الحكمداريين السابقين والكنيسة الكاثوليكية. وقد أقيمت حول الأسوار أكشاك صغيرة للحراسة، يبعد كل منها عن الأخر بمسافة قصيرة، وبها حراس وديدبانات مهمتهم منع أي شخص غير مرخص له بدخول المبني. وأمام الترسانة مباشرة، وشمالها، يوجد مبني مخصص لحفظ البوارق والرايات الخاصة بكل الأمراء المقيمين بأم درمان. ويجواره مبني شبه دائري، ارتفاعه حوالي عشرين قدماً، ومزود بسلالم، تحفظ فيه طبول حرب الخليفة (النحاس). وعلي مسافة منه شرقاً يقع مصنع الجبخانة والأسلحة النارية الصغيرة.

أما بيت المال فيقع في شمالي المدينة وملاصق للنهر. وهو عبارة عن حظيرة واسعة مسيجة وقد قسمت لمختلف القاعات التي تخزن فيها كل البضائع الواردة من أنحاء السودان، ومن مصر، إضافة للذرة المخزونة وصالات العبيد. وإلي الجنوب قليلاً من بيت المال يوجد السوق الرئيسي للرقيق والذي أقيم بجواره بيت مال الملازمين.

بنيت مدينة أم درمان، في معظمها، علي أرض مستوية، لكن بعض الجبال الصغيرة تتناثر فيها هنا وهناك. وتربتها من الطين الأحمر الصلب وتكثر فيها الحجارة والحصي مع بعض الرمل أحياناً. ومن أجل مزاجه الخاص قام الخليفة بشق طرق عريضة وطويلة خلال أقسام المدينة المختلفة وترتب علي ذلك إزالة عدد من البيوت التي تعترض الطرق وتسويتها، لكن بدون تعويض لمالكيها. وبنظرة إلي الخريطة المرفقة بنهاية هذا الكتاب فأن القارئ قد يكون صورة تقريبية لمدي امتدادها والمكان الذي تحتله المدينة والمباني الرئيسية التي بها ومكانها النسبي من الخرطوم. أما الخرطوم فقد تحولت إلي حالة من الدمار التام

ولم تحتفظ بسلامة مبانيها فيها إلا مرسي السفن (والترسانة) ويتم الإتصال بين أم درمان والخرطوم بواسطة سلك (كيبل) يقوم بالعمل به بعض موظفي التلغراف بالحكومة السابقة.

وخارج السور الكبير، الذي لم ينته بناؤه بعد، وبطول الطريق المؤدي لبيت المال يوجد عدد من الدكاكين لمختلف المهن، كل مهنة بجوار أختها، فتجد النجارين والحلاقين والترزية والجزارين.. وغيرهم. أما محكمة السوق فأن مهمتها حفظ الأمن والنظام في المدينة وتري المشانق منصوبة في أنحاء المدينة كدليل للنظام الحكومي للبلاد ومؤشر لبطشه.

وتسكن كل قبيلة في حي مخصص لها في المدينة. فعرب الغرب يسكنون عموماً جنوب المدينة بينما يحتل الجزء الشمالي منها أهالي وادي النيل. وبالاضافة لشرطة السوق (محكمة السوق) فأن مختلف أقسام السكان يرغمون علي تقديم (ملاحظين) للمساعدة علي حفظ الأمن العام في أقسامهم وعليهم القيام بالابلاغ عن أي مشاكل أو اضطرابات تحدث أثناء الليل إلي دوريات الشرطة.

وما عدا الشوارع العريضة الطويلة، القليلة العدد، التي قام الخليفة بفتحها، فأن وسيلة التواصل بين الحواري والأقسام هي أزقة ملتوية تتجمع فيها الأوساخ التي تلقي بها المدينة. لكن حالتها البائسة والروائح المنبعثه من تلك الأزقة والتي تكون بؤراً للمرض، تجل عن الوصف. فالخيل والجمال والحمير والماعز الميتة تسد الطرق وتجد أقبح القاذورات والأوساخ مبعثرة فيها. لكن، وقبل أيام من بعض الأعياد الخاصة فأن الخليفة يصدر أوامره بنظافة المدينة لكن كل ما يتم هو كنس هذه الجثث والأوساخ ورميها علي أركان الشوارع. وعندما يحل موسم الأمطار فأن الهواء الملوث المنبعث من تلك الأكوام من الأوساخ المتحللة يؤدي إلي إنتشار بعض الوبائيات والتي تؤدي إلي موت الأهالي بالمئات.

وفي الماضي كانت توجد المقابر بداخل المدينة ولكن الوضع الآن يختلف إذ لابد من دفن الموتي في الصحراء شمال أرض العرضة.



Coming from Market, Omdurman.

العودة من السوق ، أم درمان

والحمي والدوسنتاريا هي أهم الأمراض المتفشية في أم درمان، وبين شهور نوفمبر حتي مارس يكاد مرض التيفوس أن يكون واقعاً متواصلاً.

وفي السنوات الأخيرة تم حفر عدد من الآبار. وكانت تلك التي تقع بشمال المسجد ذات مياه عذبة، ولكن تلك التي بجنوب المدينة فأن مياهها كريهة مالحة. ويتراوح عمق البئر لما بين ثلاثين إلي تسعين قدماً ويقوم بحفرها عادة المساجين، تحت إشراف الساير.

***

ومن الأقوال التي كثيراً ما يسمعها المرء هي: « لقد ساقوه إلي الساير» وهذا يعني بأن مخلوقاً بائساً قد ألقي به في السجن. ويبعث مجرد ذكر هذا الإسم شعوراً بالهلع والخوف في قلوب كل من يسمعه. ويقع السجن في الركن الجنوبي الشرقي للمدينة، بالقرب من الشاطئ، ومحاط بسور عال. وفي مدخل السجن بوابة، تشدد الحراسة عليها ليلاً ونهاراً بواسطة سود مسلحين، تؤدي إلي قاعة داخلية بني فيها عدد من أكواخ الطين والحجارة. وأثناء النهار يستلقي السجناء التعساء، ومعظمهم مكبل بالقيود والجنازير، في ظل المبني. ويسود الصمت التام المكان ولايمزقة إلا قعقعة الجنازير، أو الصراخ الذي ينطلق من أحد البؤساء من المساجين أثناء القيام بجلده بدون رحمة، أو من الصيحات الخشنة والأوامر التي يصدرها الحراس قساة القلوب. وبعض السجناء، من الذين أثاروا غضب الخليفة عنهم، يكبلون بأثقل القيود والأصفاد، مقارنة ببقية السجناء، ويتم حبسهم داخل أكواخ صغيرة ويحرمون من أي إتصال بزملائهم الآخرين من المسجونين، ولا ينالون من الطعام عموماً إلا ما يبقيهم علي قيد الحياة.

ولايتلقي المسجونون العاديون الطعام بانتظام، ولكن يسمح لأقاربهم بمدهم به. وكثيراً ما يحدث أن الطعام الذي يأتي به الأقارب لا يصل للمسجون المقصود إلا بعد أن يكون جزءاً كبيراً منه قد أكله الحراس الجشعون منعدموا الضمير. وأحياناً أخري قد لا يصله

منه أي شئ بالمرة. وعند حلول الليل يساق المسجونون كقطيع من الغنم ويدفعون إلي داخل الغرف الحجرية التي لا نوافذ بها والتي لا تتم تهويتها إطلاقاً. وبدون اكتراث لصلواتهم وتوسلاتهم فأن الحراس يدفعونهم إلي تلك القبور الحية في حالة من الفوضي والتزاحم لدرجة لايجد الكثيرون من التعساء مكاناً يستلقون فيه. والقوي يدوس علي الضعيف وكم من مرة فتح فيها الحراس باب الغرف في الصباح ليجدوا أن بعض ضحاياهم قد ماتوا جراء الاختناق أو من شدة الضعف الذي هد قواهم في تلك الزنازين الرهيبة.

ومن المؤلم أن تري مجاميع من أنصاف المختنقين وهم ينصبون خارجين من تلك الأوكار صباح كل يوم، والعرق يتصبب منهم، وهم في غاية الإنهاك من جراء عذاب الليلة الطويلة التي قضوها بدون نوم. وفور خروجهم للهواء فأنهم ينهارون علي الأرض، كالموتي أكثر منهم كالأحياء، ثم يبحثون عن ظل الحوائط ليقضوا بقية يومهم محاولين إستعادة ما فقدوه في الليلة السابقة من قوة تمكنهم من مقابلة أهوال الليلة التالية.

وربما يري المرء أن الموت أهون في مثل هذه الحالة.لكن هؤلاء التعساء لايزالون يتشبثون بالحياة ويسألون الله فرجاً قريباً من معاناتهم. وبالرغم من شدة إزدحام السجن، ويغض النظر عن أهوال حياة السجون، إلا أنني لم أسمع قط بأن سجيناً منهم قد قام بالإنتحار.

وكان تشارلس نويفلد قد قضي بضع سنوات في السجن، في حالة دائمة من المرض، وعرضة لأشد أنواع العوز والحرمان، ولم يبق علي حياته سوي بعض الإمدادات التي كانت تصله أحياناً عن طريق الخادم الأسود الذي جاء به من مصر، والذي كان بدوره، يحصل علي مساعدة بقية الأوروبيين الذين بأم درمان. دبر أمر حياته رغم تكبيله بالقيود من عنقه ورجليه بالحديد. وذات مرة رفض قضاء الليلة في الكوخ الحجري والذي وصفه بأنه «المحطة الأخيرة لجهنم» ولعصيانه هذا تم جلده بقسوة. لكنه تحمل الجلد دون أن يغمغم حتي صرخ معذبوه، والذين أدهشتهم قوة تحمله، في وجهه: « لماذا لا تشكو؟ لماذا لا تطلب الرحمة؟» فأجابهم بقلب من حديد أكسبه حتي إحترام جلاديه: « هذا من شأن الآخرين. أما أنا فلا». وبعد تحمله ثلاث سنوات من السجن تم تخفيف القيود عليه وأبقوا

علي جنزير واحد علي رسغ قدميه وحولوه إلي الخرطوم حيث أمر بالعمل علي تنقية ملح البارود، بغرض صناعة المقذوفات النارية، تحت رقابة ود حمدنا الله. وقد تحسنت حالته كثيراً هناك وخصص له مبلغاً متواضعاً شهرياً كان يكفي بالكاد لتوفير ضروريات الحياة له. ولما كان معمل تكرير ملح البارود مجاوراً لكنيسة الإرسالية القديمة فقد نجت بذلك من التدمير. وعندما ينتهي من عمله اليومي الشاق كان يسمح له بالاسترواح في حدائق الكنيسة، وهنا كان فكره يسرح إلي عائلته في الوطن، ولابد أنه كان يلعن في قرارة نفسه اليوم الأسود الذي دفعه لمغادرة مصر وليرمي بنفسه، بدون وعي، بين يدي براثن الخليفة. لقد ظلمه القدر حقاً. وإنني بكل حرارة أرجو أن ينضم قبل مرور وقت طويل لأهله والذين لم يفقدوا الأمل في رؤيته مرة أخري. ففي أوروبا، فأن الأصدقاء الذين علي استعداد لبذل كل مافي وسعهم لمساعدته، غير قليلين. لكن كل شئ يعتمد علي مشيئة الله وحده لتحرير هذا الأسير البائس من مأساته.

إن قلبي يتمزق عندما أفكر في كل تلك الأهوال التي تجري في ذلك السجن. وهناك قصة محزنة للرجل المسكين الشيخ خليل، وكان قد جاء من القاهرة حاملاً رسائل إلي الخليفة فيها معلومات عن أعداد وأسماء الأسري الذين سقطوا في أيدي الحكومة أثناء معركة توشكي. وقد أكدت الرسائل بأنهم جميعاً يلقون معاملة طيبة وأنه سيتم إطلاق سراحهم عما قريب. ثم رجوا منه لتسليم الشيخ خليل سيف غردون وأوسمته، والتي كانوا واثقين من وجودها لدي الخليفة. تم إعادة رفيق الشيخ خليل، المسمي بشارة، لمصر بدون الرد علي الخطابات. أما المبعوث سئ الحظ، والذي كان مصرياً بالميلاد، فقد كبل بالسلاسل وألقي به في السجن بتهمة الجاسوسية. عاملوه أسوأ معاملة في السجن وحرموه من الطعام حتي صار هزيلاً لدرجة لا يستطيع معها النهوض من الأرض. بل تمادي معذبوه لدرجة حرمانه من ماء الشرب حتي أتاه الموت ووضع نهاية لمعاناته.

وهناك قصة التاجر اليهودي ماليخ، الذي جاء لكسلا قادماً من تونس، بعد حصوله علي الإذن من أبي قرجة. لكن الخليفة أمر بالقاء القبض عليه وإحضاره لأم درمان حيث ألقي به في الساير إلي يومنا هذا. أصبح نحيلاً هزيلاً كهيكل عظمي وإنحدرت حالته لدرجة من

اليأس الذي لايصدق. ولم يبق علي حياته سوي جهود اليهود بأم درمان، والذين أرغموا علي إعتناق الإسلام، والذين نجحوا في إمداده بشئ من الطعام من وقت لآخر.

وهناك قصة إثنين من العبابدة الذين ألقي عليهم القبض بتهمة توصيل رسائل الأوروبيين بأم درمان. فقد أمسك بهم وسجنوا لكنهم ماتوا بعد وقت قصير بسبب الجوع. ذعرت الجالية الأوروبية في أمدرمان وأصابهم الهلع، ولكن لحسن حظهم إتضح أن تلك الرسائل كانت موجهة لأحد الأقباط، من أقربائه بمصر.

أما الشيخ الكبير لقبيلة الجمع، عساكر أبو كلام، والذي غمر الخليفة ووالده وأسرته، في أيامهم الأولي، بكرمه ومودته، فقد قبض عليه بمنتهي القسوة وكبل بالأغلال وسجن، لأنه نمي لأذن الخليفة أنه تحدث عن الحالة الراهنة في السودان بكل إستخفاف ومذمة، وأنه قد عبر عن أسفه للإنقضاض علي الحكومة وحمل السلاح ضدها في السابق. ثم نفي إلي الرجاف بينما انتزعت زوجته، والتي كانت من فاتنات السودان، من أحضانه لحظة رحيله وأرسلت لحريم الخليفة.

أما الأمير الشهير الزاكي طمل، فقد قبض عليه وألقي بداخل بناية صغيرة من الحجر بشكل كفن وتم سد بابها عليه بالطوب. ولم يقدم له أي طعام من أي نوع ما عدا كمية قليلة من الماء كانوا يمدونه بها عن طريق فتحة بالحائط. وظل لثلاثة وعشرين يوماً يعاني من أهوال الجوع لكنه لم يشتك ولم يسمع أي صوت من ذلك القبر الحي. ظل صامداً طوال هذه المدة، وقد منعه كبرياؤه ومعرفته بعدم جدوي ذلك، من أن يستجدي أو يتوسل حتي حمله الموت بعيداً عن قبضة معذبيه. وكان الساير وحراسه ينظرون من خلال فتحة الحائط إليه ويلحظون زفرات موته وهو في النزع الأخير. وعندما توقفت أنفاسه أسرعوا بالبشري إلي سيدهم. وفي تلك الليلة نقل جثمان الزاكي إلي القسم الغربي من المدينة وهناك تم دفنه وسط أنقاض وخرائب قديمة وظهره متجه لمكة* وظن الخليفة، الذي لم يكتف بالعذاب الذي ألحقه به في حياته، أنه بهذا يحرمه من النعيم في الآخرة.

وكنت قد تحدثت من قبل عن كيفية تخلص الخليفة من أقرب خلصائه وهو القاضي

* يتم دفن كل المسلمين ووجوههم نحو مكه.

[illegible] في نفس الزنزانة التي حبس فيها الزاكي طمل. وبعد [illegible] الخليفة، إثنان من القضاة وإستجوبوه عن [illegible] [illegible] أمواله فقال لهم [illegible] سيحكم الخليفة بأنني قد سويت حسابي مع هذه الدنيا [illegible] مكان فيه ذهب [illegible]. وظل [illegible] بالصمت خلال أسئلتهم الأخري حتي رجع القاضيان لسيدهم خائبة آمالهم. حدث هذا قبل أيام من مغادرتي لأم درمان. وعند عودتي لمصر تأكدت من موته بعد ذلك بقليل. وفي نفس الظروف التي مات فيها الزاكي.

ويمكن للمرء أن يملأ مجلداً عن وصف الفظائع والأهوال التي تجري في سجن الساير. لكني لا أري فائدة من إرهاق القارئ بالمزيد عن الفظائع والوحشية التي ترتكب فيه بأوامر من ذلك الطاغية، عديم الرحمة، الخليفة.

***

الباب السابع عشر

خططي للهروب

«أسـري الأوروبيين في أم درمـان - أرتـين، السـاعاتي - الأصدقاء في القاهـرة - مجهودات عائلتي لإنقاذي - صعوبة الإتصـالات - فشـل بابكر أبو سـبيبة - مجهودات البـارون هايـدلر وجهـاز المخابرات المصري - الفشـل المتواصـل - أوشـيك كرار - عبد الرحمن يضبط خططه وينضجها - الأمـل والخـوف - خططي لكسب الوقت - فارقت كوخي للأبد».

كان للخليفة غرض مزدوج لإبقائي دائماً بالقرب منه. فقد كان يعلم بأنني الوحيد الذي بقي، من بين كبار موظفي الحكومة المصرية، والذي له معرفة وثيقة بالسودان، وأنه ترحل تقريباً في أنحاء كل البلاد إضافة لتمكنه من اللغة العربية. ولجهله التام بالشئون السياسية، فقد تصور بأنني أذا ما نجحت في الفرار، فسأقوم بإغراء الحكومة المصرية، أوقوة أوروبية أخري، بدخول السودان. وكان يعلم تماماً بأنني في هذه الحالة سأكون همزة وصل بينها وبين كبار زعماء العشائر والذين لايكنون له الولاء، والذين يحلمون بعودة حكومة ذات نظام مستقر. ومن الناحية الأخري، فقد كان مما يرضي غروره، أن يكون عبداً لديه ذلك الرجل الذي كان يوماً حاكماً عاماً علي كل مديرية دارفور العظيمة بما فيها بلاده وقبيلته. ولم يحاول أبداً إخفاء مشاعره بذلك الخصوص وكثيراً ما قال لزعماء الغرب وأفراد قبائله: « أنظروا لهذا الرجل الذي كان مولانا وسيدنا من قبل والذي عانينا من تسلطه وقهره. ها هو الآن خادم لي يطيع أوامري في أي وقت. أنظروا إلي هذا الرجل الذي كان منغمساً من قبل في اللذات وكافة الشرور الدنيوية. والآن ها هو مرغم علي إرتداء جبة متسخة ويمشي حافي القدمين. حقاً إن الله كريم رحيم!». أما بقية الأسـري من الأوروبيين، والذين كانوا يعملون، من أجل لقمة عيشهم، في مختلف المهن في ركن من أركان السوق حيث بنوا أكواخهم وعاشوا في سلام مع بقية أهالي السودان، فلم يكن يلقي بالاً يذكر بشأنهم.

فالأب أورفالدر إشتغل بالنساجة. أما الأب روزينولي، والأخ بالارسالية بيبو رونوتو فقد أنشأ مطعماً في السوق وعاشت الأخوات المبشرات معهم حتي (ما عدا الأخت تيريزا جريجونيلي) نجحوا في الفرار. وهناك جيوسيبي كوزي، الذي كان كاتباً لدي أ. ماركي، وعدد من الأغريق، والنصاري السوريين، والاقباط، وعددهم جميعاً حوالي خمسة وأربعين رجلاً، والذين تزوجوا إما من نصرانيات ولدن في السودان أو من مصريات. وكانت تلك الجاليات كلها تسمي بالمسلمانية* وتعيش في حي يسمي كذلك. وقد إنتخبوا من بينهم أميراً رضوا أن يخضعوا لأوامره، وهو المسئول أمام الخليفة عن أي فرد منهم. والأمير الحالي لهم هو نيكولا، وهو أغريقي تسمي بأسم عبد الله. ومن غير المسموح لأحد منهم مغادرة أم درمان وكان عليهم أن يضمنوا بعضهم البعض. لذلك ، وعندما تمكن الأب روزينولي من الهرب، قبض علي زميله بيبو وألقي به في السجن. وعندما غادرت أم درمان، كان لايزال في قيوده. وبعد هروب الأب أورفالدر تم تشديد المراقبة علي أولئك التعساء. وتم تخصيص مكان لهم شمال شرق المسجد وكان عليهم الإنتظام في حضورهم الصلوات الخمسة به. وبعد تخفيف المراقبة عليهم كانوا يتناوبون الحضور حتي إذا ما تعرضوا لأي سوأل فأن ممثلاً لهم يكون موجوداً للإجابة. وبنوا أكواخهم ملاصقة لبعضها الأخر وبالتالي سهل هذا تواصلهم وخفف من سوء حالهم عن طريق مواساتهم لبعضهم البعض. لكن حتم علي أطفالهم أن يعيشوا في مختلف التكايا (الخلاوي التي بها استراحات) حيث يتعلمون فيها القرآن.

ولقد وصفت من قبل حالتي وأسلوب حياتي والأجواء المحيطة بي. وبقي الآن أن أضيف بأنه لايسمح لي إلا بالتحدث مع عدد محدود من الحرس الخاص والذين كانوا في نفس حالتي، إما تحت الرقابة أو من المعينين بواسطة الخليفة كجواسيس لمراقبة أي قول أو فعل والتبليغ عنه. وكان محظوراً علي دخول المدينة إلا نادراً وحظر علي القيام بأي زيارة لأحد.

كان الخليفة مولعاً بالساعات الصغيرة والكبيرة. وكانت إحدي مهامي القيام بملئها والعناية بها. وانتهزت فرصة عملي هذا لأقوم من وقت لآخر بزيارة ساعاتي أرمني يسمي

* إصطلاح (مسلماني) يطلق عموماً علي سلالة الكفار وهو لقب مهين مسئ ويطلقه المهدويون عادة علي من يسمونهم (بالمرتدين).

أرتين مستغلاً ذريعة إصلاح ساعة من الساعات التي تحتاج لمراجعة. يقع منزله بالقرب من السوق. وهنا كنت أرتب مقابلاتي مع الذين أرغب في رؤيتهم علي وجه الخصوص. لم أسر بشئ لأرتين والذي كان يزوره بعض الذين يريدون شراء بعض الأشياء الصغيرة وبهذه الطريقه تمكنت من تبادل بعض الكلمات العابرة معه ومع غيره. كنت أقضي معظم وقتي أمام باب الخليفة في قراءة القرءان لكنني كنت ممنوعاً من الكتابة لأن عبد الله يري ألا داعي لأقوم بعمل شئ (الكتابة) يجهله هو تماماً. وكنت أرافق سيدي إلي المسجد أو عند ظهوره أمام الجمهور. وفي تلك الأحيان فأن عملي هو مشابه لمساعد القائد أو الياور. ولما لم يكن لدي مرتب علي الإطلاق، فقد كنت أتناول من الطعام أبسطه والذي لايتجاوز العصيدة وبعض أنواع الحساء وأحياناً بعض اللحوم التي أشتريها من السوق.

وكان عبد الله مدركاً تماماً بأنني أتوق للحرية. ورغم محاولاتي لإخفاء مافي نفسي، إلا أنني لم أستطع مداراة شبهاته في أمري. وقد فعل كل ما يمكن من أجل ربطي به، مثل إهدائي عبيداً، أو عروضه لي بالزواج من أسرته وغيرها من الوسائل. لكن رفضي المتواصل أيضاً لهذه الهدايا المريبة زادت من شبهاته عن مرادي في الفرار عند أقرب فرصة. فبعد سقوط الخرطوم بذلت أسرتي ما في وسعها من قوة ونفوذ للحصول علي أخباري، ولحسن الحظ فأنهم فطنوا لضرورة الحرص الشديد في مساعيها. ولم يدخر الهرفون قسيلر، قنصل عام النمسا والمجر في مصر، وسعاً للحصول علي أخبار بشأني. وقد دعمت جهوده مساعدات الضباط الملحقين بالجيش المصري وغيرهم من الموظفين. وقد كان الإقتراح، بأن يقوم أهلي بالإتصال بي عن طريق حاكم سواكن عام ١٨٨٨، صادراً عنه. وقد وضحت للقارئ في الصفحات السابقة كيف منعني الخليفة من أي إتصال بالعالم الخارجي. وقد توترت علاقتي بالخليفة وخاصة عندما وصل خطاب من الهرفون روستي (الذي خلف الهرفون قسيلر في عمله كقنصل عام) يطلب فيه الإذن لإرسال قس ليرعي شئون أعضاء الإرسالية هنا، والذين وصفهم بأنهم من رعايا النمسا. وفي نفس الوقت كتب لي طالباً معلومات عن الوضع الراهن في السودان. لم يكترث

الخليفة بخطاب الهرفون روستي وإتهمني بالإزدواجية وعدم الإخلاص، لأنني كنت قد أخبرته قبل ذلك بأن أعضاء الإرسالية، بأستثناء الأب أورفالدر، كانوا من الإيطاليين. كنت قد تعمدت ذلك فقد خشيت أن يقوم عبد الله، في إحدي نوبات غضبه علي، بصب جام غضبه علي أولئك الذين يعتقد بأنهم من نفس جنسيتي، والذين كنت حريصاً عليهم، ولكن جاء الآن هذا الخطاب، الذي يحتوي علي عكس ما كنت أقوله له، وشكل ضربة قاصمة لي. فقد كان دون قدرات الخليفة بكثير أن يفهم بأن أناساً من عدة جنسيات يمكن أن يكونوا، في حالة الارسالية الكاثوليكية، تابعين للحماية النمساوية. وظل لوقت طويل يقرعني ويوبخني لأنني خدعته بشأنهم.

وكانت أسرتي في النمسا قد وضعت مبلغاً من المال تحت تصرف القنصل النمساوي العام بهدف مساعدتي. وقد نجحت القنصلية، من خلال جهود كريمة لمختلف سردارات الجيش المصري، وبجهود الميجر ونجت مدير المخابرات الحربية، في إرسال مبالغ لي من أن لاخر عن طريق بعض العرب الموثوق بهم. وكنت طبعاً أتسلم مبالغ أقل من التي سلموها لهم لكنني كنت في نفس الوقت مضطراً لاعطائهم إيصال استلام بكامل المبلغ. رغم ذلك كنت شاكراً لهم لما يسلمونه لي من المال. وبهذا الأسلوب الذي إتبعناه تمكنت من أن أرسل نتفاً عن أخباري وشئوني لأهلي بالنمسا. لكنني كنت مضطراً بالطبع لممارسة أقصي درجات الحذر واليقظة عند قيامي بأنفاق المال الذي وصلني وإلا لحامت من حولي الشبهات وعرضت نفسي للخطر. ولهذا واصلت الاستمرار في حياة التقشف والبساطة بقدر الإمكان وصرفت ما لدي من مال علي تمتين علاقاتي وصداقاتي المختلفة.

أصبح أصدقائي في القاهرة علي يقين من أن الوسائل العادية لن تنقذني من براثن الخليفة، وخاصة بعد أن شدد علي منعي من أي إتصال بالخارج. لذلك لم يدخروا جهداً لتوفير وسائل الفرار لي إذا ما سنحت أمامهم أي فرصة يمكن إنتهازها. ومن الأيام الأولي لاسري عرفت أن ما من وسيلة للنجاة لي سوي الفرار. ورغم أن هبوط وصعود إحتمالات الفرار تلك قد شغلتني بدرجة كبيرة - وخاصة لأن لدي الوسائل التي تمكنني

من متابعتها - إلا أنني لم أيأس، ولو للحظة، من فكرة نجاحي في تحقيق هدفي رغم أنني لم أتخيل قط بأن إثنتي عشرة سنة من المصاعب الرهيبة والبؤس والهوان الشديدين ستنقضي قبل أن أتمكن من النجاح.

وقد كتمت سري لسنوات طوال ولم أبح به إلا لرجل واحد هو إبراهيم ود عدلان. فقد كنت قد أعلمته بنيتي ووعدني بمساعدتي بقدر ما يستطيع. لكن سوء الحظ لازمني إذ سرعان ما قام الخليفة باعدامه وفقدت بذلك صديقاً شفوقاً وحامياً مخلصاً؛ وبعد موته بحت بسري لشخصين من ذوي النفوذ الذين كنت أثق في قدرتهما علي الكتمان، والذين كنت أعلم بأنهما، لمودتهما لي أولاً ولكراهيتهما للخليفة ثانياً، سيقومان راضيين بمساعدتي علي تحقيق هدفي. لكننا لم نصل لشئ إيجابي بهذا الخصوص. ورغم أنني كنت أعرف بأن المال اللازم للعملية سيتم توفيره، إلا أنهما خشيا من معرفة دورهما إن نجحت في الفرار. فقد كانت عوائلهما في السودان وأدركا أن الخليفة، في حالة التعرف علي إسميهما ودورهما، سينزل بأسرتيهما أقصي أنواع الإنتقام.

ولكن أسرتي لم تقف مكتوفة الأيدي في تلك الأثناء ولم تقف أي تضحية أمام حبهم لي. فقد كانت الأسرة في فينا، تجهل حقائق الأمور بالسودان، ولا علم لهم بأي وسيلة تمكنهم من مساعدتي، ورغم ذلك لم يتوقفوا قط عن إرسال مبالغ معتبرة بأنتظام لوضعها تحت تصرف الوكالة النمساوية بالقاهرة، والتي كان ممثلها المقيم قد تلقي تعليمات من وزير خارجية النمسا لإستخدام المبلغ بالكيفية التي يراها مناسبة لمساعدتي. وقد أبدي صاحب السعادة البارون هايدلر فون إقريق، والذي يشغل الآن منصب السفير والوزير فوق العادة، والذي كان لعدة سنوات القنصل العام في القاهرة، إهتماماً شخصياً بشأني وبذل كل ما في وسعه لتسهيل أمر فراري، والذي لن يكون ممكناً إلا إذا ما استخدم نفوذ أناس مقتدرين من كبار موظفي الحكومة. ومن هنا إستطاع كسب تضامن وعطف الكولونيل شيفر بك أولاً، ومن بعده الميجر ونجت، والذي حاول مراراً من قبل مساعدتي. ويرجع إليه، وإلي البارون هايدلر الفضل في حصولي علي حريتي. فبدون تدخلهما فلن يكون سهلاً

الحصول علي من يعتمد عليه من العرب لتوصيل بعض المال لي من حين لآخر، مما يحتم علي شكرهما من صميم فؤادي علي ما قاما به، وعلي رأس ذلك محاولاتهما المستمرة لانقاذي من محنتي. ورغم فشل كل الجهود، بأستثناء جهود الميجر ونجت، إلا أن تصرفات أولئك العرب الحكيمة لم تؤد أبداً لاشتباه الخليفة أو زبانيته فيهم علي الإطلاق. وفي أوائل فبراير ١٨٩٢ وصل لأم درمان، قادماً من مصر، بابكر أبو سبيبة والذي كان مسئولاً من قبل عن بريد دنقلا الذي ينقل بالجمال. وهو من عرب العبابدة. وعندما أحضر أمام الخليفة أكد له بأنه قد هرب من أسوان وأنه يسعي لنيل عفو الخليفة وتوسل له للسماح بأقامته في بربر. ولما كانت معه خطابات توصية إلي الزاكي عثمان، أمير بربر، فقد منح ذلك الإذن. وعندما جاء خارجاً من باب المسجد غمز لي وهمس قائلاً: « إنني جئت من أجلك وأرجوك ترتيب مقابلة بيننا » فقلت له: «غداً بعد صلاة العشاء، هنا في المسجد». ثم إختفي بعد ذلك. ورغم أنني لم أيأس من الأمل في الفرار إلا أنني لم أكن متفائلاً فقد جربت كثيراً هؤلاء العرب والسودانيين وأيقنت أن كلماتهم تنتهي غالباً بدون أي نتيجة، وأن وعودهم تتبدد أكثر مما تتحقق. لذلك قضيت اليوم التالي في أعمالي العادية رغم تفكيري فيماذا ستتمخض عنه المقابلة المزمعة.

وبعد صلاة العشاء، وعندما غادر جميع الناس المسجد، جاء بابكر وعبر الباب الذي رأيته عنده بالأمس. وببالغ الحذر قمت بمتابعته ودخلنا معاً القسم المسقوف بالقش من المبني والذي غمره ظلام عميق. وبعيداً عن الأعين وبعيداً عن استراق السمع قام بابكر بتسليمي علبة صغيرة من الصفيح والتي، من رائحتها، ظننت أن بها بعض القهوة وقال لي: « لهذه العلبة قعران. أفتح قعرها وأقرأ الأوراق التي بها وسأقابلك هنا غداً مساء في نفس الموعد». أخفيت العلبة بداخل جبتي وعدت لمكاني. لكن شاءت الظروف أن يدعوني الخليفة للعشاء معه. وعليك أن تتخيل شعوري وقتها، فقد كانت العلبة أكبر من أن تخفيها ثيابي، فكيف وأنا جالس مقابل سيدي وهو يتفحص وجهي وجسمي كقط الوشق. لكن الحظ جاء لنجدتي. فقد كان الخليفة متعباً ولم يتحدث معي إلا في مواضيع عامة وأعاد

تحذيره لي بألتزام الطاعة والولاء وإلا أنزل بي العقاب بدون رحمة. وبالطبع أكدت له إخلاصي وحبي له، ثم شاركت في تناول بعض اللحوم وكسرة الذرة، وتظاهرت بمرض فجائي، واستأذنته في الرجوع. اسرعت لمنزلي وأشعلت مصباحاً زيتياً صغيراً ثم مزقت العلبة بسكيني ووجدت بداخلها قطعة ورق صغيرة كتب عليها بالفرنسية الآتي: «عليك أن تثق تماماً في بابكر ود أبو سبيبة».

إمضاء

«الكولونيل شيفر»

وكان علي الصفحة الأخري من الورقة بضعة أسطر من الوكالة النمساوية تؤيد ذلك القول. ولقد تصرف كاتبوها بحكمة ولم يشيروا لإسمي خوفاً من سقوط الورقة في أيدي الأعداء. ثم إعتصمت بالصبر بعد ذلك إنتظاراً لحلول مساء اليوم التالي.

جاء بابكر في الميعاد وصرح لي بإيجاز بأنه جاء لترتيب أمر فراري، وأنه بعد أن شاهدني وتحدث معي سيعود لبربر لإكمال ترتيباته. ولما كان الأمير الزاكي عثمان قد إستدعي لأم درمان في يولية للإشتراك في المناورات فقد استشارني في العودة معه مما يسهل عليه مهمته.

أكدت له إستعدادي في أي وقت للقيام بالمحاولة ورجوته بذل كل ما يمكنه من جهد لمساعدتي في ذلك ثم إفترقنا. وفي يولية عاد بصحبة الزاكي عثمان وقال لي، بعد أن إلتقيت معه سراً، إنه، ولإبعاد الشبهات عنه، فقد تزوج في بربر، وأنه أحضر معه أربعة جمال لكنه لم ينته بعد من ترتيبات عبورنا للنهر. وقال بأنني إن كنت علي استعداد للمخاطرة والهروب، فأنه سيقودني عبر صحراء بيوضة والكاب (غرب دنقلا) وحتي وادي حلفا. لكنني أدركت أن الجمال قد لا تتمكن من القيام بتلك الرحلة في قمة حرارة الصيف، وأن من الواضح أن الرجل يود البقاء لبضعة أشهر في السودان، ربما مع عروسته الجديدة، لذلك إتفقنا علي تأجيل المحاولة حتي حلول ديسمبر حيث ستكون ليالي الشتاء

الطويلة مناسبة ومريحة للعملية. ومضت الشهور. وعلمت من مصادر سرية خاصة بأن بابكر لايزال في بربر. وإنتهي شهر ديسمبر وبدأ عام ١٨٩٣، ولم تظهر أي إشارة عن صديقي. وبعد ذلك عاد في يولية ١٨٩٣ وأخبرني بأن الرجل الذي أرسلته للقاهرة طالباً منهم مائة جنيه قد تأخر في الطريق، ولأنه لم يصل إلا في هذا الوقت الذي يستحيل فيه السفر والهروب فقد قررت السلطات في القاهرة الإمتناع عن تزويده بالمبلغ المطلوب. لكنه أضاف بأنه جاء ومعه جملين وأنني اذا خاطرت بالتنفيذ فانه سيحاول الحصول علي جمل ثالث. شعرت بأن الرجل يكثر من الأسئلة والإستفسارات، وقد أكد لي أنه إذا ما قرر بدء العملية فلن يكون أمامي سوي بضع ساعات للتجهز وهو الأمر الذي لن يكون في صالح نجاح العملية. إضافة لذلك فقد أعاد مرة أخري ترديد قوله بأن السفر خلال يولية أمر مستحيل. ولما اقترحت له ثانية بأن نؤجل الهروب حتي بداية الشتاء وافق في الحال، ولو من باب الشكليات.

وكانت زياراته المتكررة لأم درمان قد أثارت شكوك الخليفة فيه. وقام أحد القضاة بالتنبيه عليه بالإلتزام بالصلوات الخمسة يومياً بالجامع، وأن عليه عدم مغادرة أم درمان إلا بعد إذن الخليفة. وقد دفعه الخوف من المجري الذي إتخذته الأحداث، فأنتهز أول فرصة ولاذ بالفرار لمصر، ولم يكتشف فراره إلا بعد ثلاثة أيام منه. وقد علمت فيما بعد بأنه عند وصوله للقاهرة قام بأبلاغ الذين أرسلوه لي بأنه كثيراً ما جاء لأم درمان لكنني أنا الذي رفضت بإلحاح المغامرة بالهروب معه. لكن البارون هايدلر والميجر ونجت عرفا بأن ما قاله الرجل لم يكن صحيحاً. وفيما بعد وجدت الفرصة لأن أخبرهم، عن طريق رجل أثق فيه، بكل تصرفات ذلك الرجل.

ثم قام أولئك السادة بعد ذلك بالإتفاق مع تاجر يدعي موسي ود عبد الرحمن وإلتزموا بدفع مبلغ ألف جنيه له إذا ما نجح في تنفيذ فراري. وفي نفس الوقت قاموا بمده بما هو ضروري لتنفيذ إلتزامه. وفي الشتاء وصلتني معلومات عن هذه المحاولة الجديدة ولكن طال الأمر حتي يونية ١٨٩٤، عندما أخبرني أحد أقارب موسي، ويدعي أحمد، بأنه قد تم

الإتفاق مع بعض الأعراب والذين سيصلون خلال بضعة أيام والذين سيحاولون الفرار معي. كما أخبرني بأن محطة قد أقيمت في الصحراء حيث سيتم فيها استبدال الجمال التي نستخدمها بأخري نشطة، وأخبرني أنه بالرغم من شدة الحرارة فأن كل فرص النجاح متوفرة لهذه العملية.

وفي أوائل يولية نبهني أحمد بأن الجمال قد وصلت وأن علي الإستعداد للتحرك مساء اليوم التالي. في ذلك المساء أخبرت خدمي بأن أحد أصدقائي مريضاً لدرجة الخطورة، وأنني حصلت علي إذن من الخليفة لزيارته وربما أقضي الليلة معه لذا فعليهم عدم القلق إذا لم أعد بالليل. وعندما أوي سيدي إلي فراشه تلك الليلة بارحت المسجد مصحوباً بأحمد. كنت حافي القدمين غير مسلح إلا بسيف وأسرعنا في المشي في الطريق المؤدي لساحة العرضة ومنها توجهنا إلي الناحية الشمالية الشرقية.

كان الظلام حالكاً. وبدأت أثناء ذلك النهار أول بوادر فصل الأمطار. وعندما عبرنا المقابر إنغرزت قدمي في قبر قديم كانت قد غسلته مياه الأمطار والتوت قدمي وسط عظام الهيكل الذي وطئته. وظننت أن الموتي، مثلهم مثل الأحياء، يتآمرون لوضع العراقيل في طريقي. لكنني، رغم الألم، جاهدت في المضي قدماً حتي وصلنا لخور شمبات وعبرناه للجانب الآخر حيث كان من المقرر أن تكون الجمال في إنتظارنا. بحثنا عنها من أمام وخلف الخور، بل قام أحمد بالنداء بصوت خفيض، ولكن لم تظهر أي علامة لوجودهم. كانت الليلة باردة لكن الإرهاق جعل العرق يتصبب منا. وبعد أن بحثنا هنا وهناك بدون طائل إضطررنا لقبول الأمر الواقع وإتخذنا طريقنا عائدين. ما الذي حدث لرجالنا؟ أيمكن أن يكون قد رأهم بعض الدراويش أو اشتبهوا فيهم وألقوا عليهم القبض؟ ثم وصلنا أخيراً لمنازلنا سالمين وقد إمتلأت نفوسنا بالشك وبالخوف. كنت قد فارقت أحمد عند العرضة ورجوته أن يطلعني عند المساء بجلية الأمر. وفي نفس الوقت كررت له قولي بأستعدادي لتكرار العملية في أي وقت. كان الفجر علي الأعتاب عندما وصلت لكوخي الذي كنت قد فارقته منذ ساعات، وللمرة الأخيرة كما توهمت. أما مشاعري فمن الأفضل أن تتخيلها

بدلاً من أن أصفها لك أيها القارئ. لم أمكث إلا قليلاً حتي جاءني أحد زملائي الملازمين، ويدعي عبد الكريم، برسالة من الخليفة يستفسر فيها سبب عدم حضوري لصلاة الصبح. فأجبته بأنني مرضت وكان مظهري حقاً مما يؤكد ذلك.

وانتظرت، بدون طائل، أي أخبار عن أحمد في ذلك المساء. ولم أعلم منه إلا بعد يومين بأن الأعراب قد راجعوا موقفهم ووصلوا للإستنتاج بأن إحتمالات القبض علينا كانت كبيرة للغاية ومن ثم قرروا العودة لديارهم بدلاً من الحضور لمكان اللقاء المتفق عليه. أي أننا فشلنا تماماً رغم إعتبار أننا من المحظوظين بسبب عدم ملاحظة أي أحد لعودتنا من تلك الجولة.

ومرة أخري أخطرت أصدقائي بالقاهرة بما حدث. لكنهم لم يفتر لهم عزم في المضي في جهودهم وقد ساعدهم في ذلك الأب أورفالدر والذي، عندما وصل إلي فينا، قام بزيارة لأهلي كما حصل منهم علي بعض الأقراص الطبية المشتملة علي الإثير، والتي تبعث النشاط في المرء عند قيامه برحلة شاقة وتقويه وتمنعه من النعاس. وقد قام بتركيب هذه الأقراص المنشطة البروفسور أوتو كارشياري، وقد وصلتني بسلام في أمدرمان، فقد كانت في زجاجة صغيرة، وقمت بدفنها بحرص بالغ في الأرض.

ثم وجدت صديقاً أأتمنه هو عبد الرحمن ود هارون، والذي أرسلته برسالة للقاهرة يوصلها للبارون هايدلر. طلبت من البارون أن يوفر لعبد الرحمن الإمكانيات التي تعينه علي تسهيل فراري. ومرة أخري تم الإتفاق بين هذا التاجر والوكالة النمساوية، بالتعاون مع الميجر ونجت ومساعدة رجلي المخابرات ملحم شكور بك ونعوم أفندي شقير، علي أن يتسلم عبد الرحمن في حالة نجاحه مبلغ ألف جنيه منهم. وقد أعطياه ما يلزمه الآن من حوائج إضافة إلي مئتي جنيه مقدماً.

وفي تلك الأثناء قام الميجر ونجت، الذي أرسل لسواكن ليقوم مقام الحاكم بالإنابة، وخوفاً من الفشل مرة أخري، بعقد إتفاق مماثل مع أحد العرب المحليين، ويدعي أوشيك كرار، للقيام بمحاولة لإخراجي عن طريق طوكر أو كسلا. وذات يوم جاءني أحد التجار

السواكنيين، والذي يعمل بأم درمان، وسلمني قصاصة صغيرة من الورق مكتوب عليها:

«لقد أرسلنا إليك أوشيك كرار، والذي سيعطيك بعض إبر الخياطة، وهي وسيلة التعرف عليه. إنه رجل شجاع وموثوق به وعليك الإعتماد عليه. مع تحياتي وتحيات ونجت الحارة، أمضاء، أورفالدر»

وبعد ذلك بقليل، سمعت من أحد أقارب عبد الرحمن ود هارون بأن الأخير قد وصل لبربر قادماً من القاهرة وأنه قد شرع في الاستعدادات بشأن هروبي. لكنه لم يشأ أن يحضر لأم درمان خوفاً من الإشتباه فيه. وقد وافقته علي ذلك القرار.

ثم أطل فجر الأول من يناير ١٨٩٥. كم من السنوات المنهكة من الحرمان والهوان قضيتها بالقرب من سيدي الطاغية المستبد؟ وهل يأتي هذا العام ثم يمضي مثل ما سبقه من أعوام تاركاً لي في قبضته؟ لا ثم لا! لقد غمرني إحساس بأن الوقت قد حان، والذي سيتمكن فيه أصدقائي من تحطيم القيود التي كبلتني طويلاً، وأنني سأري مرة أخري أحبائي وأقاربي وأرضي الأم وأصدقاء طفولتي.

ومساء منتصف يناير تقريباً، مر من أمامي رجل لم أشاهده قط من قبل وأشار لي بأن أتبعه وعندما إحتك كتفي بكتفه همس لي قائلاً: «إنني الرجل صاحب الإبر». وبفرحة طاغية أخذته إلي ركن مظلم خارج سور منزلي ورجوته الإفصاح بسرعة عن خططه. سلمني في البداية ثلاثة من إبر الخياطة وقصاصة صغيرة من الورق ثم، لخيبة أملي، أخبرني أن من المستحيل تدبير أمر الهروب الآن. وقال لي: «لقد حضرت وأنا أنوي أخذك إلي كسلا. ولكن تم في الفترة الأخيرة إنشاء محطات عسكرية في الفاشر وأصبري وقوز رجب علي نهر عطبرة وتلك المحطات في حالة إتصال مستمر ببعضها البعض ومن ثم فأن الفرار عبرها غير ممكن». ثم أضاف بأن أحد جماله قد مات، وأنه خسر مالاً في التجارة، وأن الوسائل التي تمكننا من الفرار لم تعد كافية ثم رجاني أن أسلمه خطاباً للميجر ونجت أطلب فيه مزيداً من المال ووعدني بالعودة لي خلال شهرين. كنت علي ثقة من أن الرجل لن يضحي بحياته من أجلي. وعندما أخطرني برغبته في الرحيل بدون تأخير، طلبت منه أن يقابلني مساء اليوم التالي في المسجد. ثم إفترقنا وعدت لمكاني أمام باب الخليفة.

كانت المذكرة التي جاءتني من سواكن قد اشتملت علي توصية من الآب أورفالدر وعنها قمت بالرد عليه ووصفت له ما حدث من الرجل بالضبط. وعندما إلتقينا مساء اليوم التالي سلمت الخطاب لأوشيك فأسرع بدسه في جيبه وقد أمل في أن يكون سبباً لحصوله علي المزيد من المال.

عدت في طريقي لمنزلي حزيناً، وقد غمرني الشعور بالمرارة وبخيبة الأمل، عندما إلتقيت فجأة بمحمد، وهو إبن عم لصديقي عبد الرحمن. وجدته يمشي بجانبي، وكأن ذلك قد تم بالصدفة، وهمس لي: « نحن جاهزون وقد أحضرنا الجمال وإتفقنا مع الأدلاء. وقد رتبنا ميقات الفرار ليكون خلال الربع الأخير للقمر في الشهر القادم. كن مستعداً!». وبدون كلمة أخري ذهب في طريقه.

إقتنعت هذه المرة بأن قدري المسطور لم يعد خيبة أمل بعد ذلك. وقرب نهاية يناير وصل لأم درمان حسين ود محمد، والذي كان الميجر ونجت والبارون هايدلر قد إتفقا معه أيضاً، وأسر لي بأنه مستعد لمساعدتي في الفرار ثم رجاني أن أفيد أصدقائي بالقاهرة بما عزمت عليه. وقال لي بأن أحد إخوته علي وشك التوجه للقاهرة وسيحمل خطابي معه. ولما كنت قد إرتبطت بعبد الرحمن، لذا قررت الإنتظار لأري إن كانت جهوده ستنجح أم لا. وفي حالة الفشل سأقوم بتجربة حسين. لذا أخبرته بأنني في الوقت الراهن أعاني من بعض الفتور الذي قد يعوق محاولة القيام برحلة طويلة شاقة وأنني بنهاية فبراير سأتمكن من إعطائه قراري بهذا الخصوص. وفي نفس الوقت سلمته خطاباً لتوصيله لأصدقائي وأخبرتهم فيه بأنني سأحاول الفرار بمساعدة عبد الرحمن، وأنه في حالة فشلنا، لا قدر الله، فسأستعين بحسين. وبدأ القلق يساورني بخصوص انتشار وتفشي سري بين عدد كبير من الناس وخفت من إشتباه الخليفة في أن شيئاً بخصوصي يجري وراء الكواليس. ولو نمي إلي علمه أدني خيط يشير إلي ما أنا بصدده لدفعت حياتي ثمناً لذلك.

ويوم الأحد السابع عشر من فبراير أخبرني محمد بكلمات متعجلة وجيزة بأن الجمال ستصل غداً وسيريحوهم لمدة يومين وسنبدأ المحاولة ليل الأربعاء العشرين من فبراير.

وقال أنه سيتصل بي مساء الثلاثاء عن طريق إشارة أعرف منها أن كل شئ يسير علي ما يرام. وفي تلك الحالة يجب أن أسعي بكل جهدي لترتيب أموري للقيام بالرحلة ولأطول مدة ممكنة دون أن نستريح.

وأخيراً حل مساء الثلاثاء ووجدت محمداً في إنتظاري علي باب المسجد. وبهمسة سريعة أخبرني بأن كل شئ جاهز للبدء واتفقنا علي موعد اللقاء في الليلة القادمة، بعد هجوع الخليفة، ثم إفترقنا.

إنني أقر بأنني قطعت الجزء الأكبر من تلك الليلة وأنا في دوامة محمومة من الإثارة والقلق. فهل سيلحق الفشل أيضاً بهذه المحاولة مثل سابقاتها؟ وهل سيطرأ شئ غير مرئي لدينا ليعرقل هذه الجهود؟ هذا ما سبب قلقي وأرقي ولم أتمكن من النوم إلا قريباً من الصبح، رغم أنني أكثر ما أكون حوجة للنوم الطويل للحفاظ علي قوتي وحيويتي طوال الرحلة، واستطعت النوم لمدة ساعتين أو ثلاثة بعد ذلك.

وصباح اليوم التالي، وأنا علي باب الخليفة، تظاهرت بالمرض وطلبت من كبير الملازمين الإذن للتغيب عن صلوات الصبح أثناء فترة تناولي – كما زعمت – لجرعة من السنمكة والعرديب، مما يستدعي لزومي الفراش طوال اليوم التالي. حصلت علي الإذن الضروري ووعدني عبد الكريم بنقل أعذاري إلي الخليفة إذا ما سأل عني. وكنت علي ثقة بأن مولاي، عندما يعلم بغيابي، سيقوم، تحت نريعة مواساتي والسؤال عن صحتي، بأرسال رجل للتأكد من وجودي بالمنزل. لكنني لم أجد عذراً آخر لأبرر به غيابي.

وقبل الغروب جمعت خدمي، وبعد أن أقسموا علي حفظ السر كما طلبت منهم، أخبرتهم بأن شقيق الرجل الذي كان قد أحضر لي قبل سبعة سنوات تلك الخطابات والساعات والمال الذي أرسله لي أهلي، قد وصل الآن ومعه هدايا جديدة. ولأنه قد جاء بدون إذن الخليفة فقد قررت إخفاء نبأ حضوره وأخبرتهم بأنني سأذهب إليه هذه الليلة لإستلام طرودي ولدفعه للرجوع بأسرع ما يمكن وعدم الإنتظار ولو للحظة. صدق خدمي الطيبون هذه القصة بمنتهي البساطة وأظنهم كانوا يفكرون فيما سيجيئهم من تلك الهدايا ولهذا تشددوا في كتمان السر. واستمراراً لروايتي المزعومة، فقد أمرت خادمي أحمد لمقابلتي

صباح الغد شمال المدينة، بجوار حي الفور ومعه بغلي. وطلبت منه عدم القلق إذا ما تأخرت لأنني سأكون مشغولاً بذلك العمل الهام والذي قد يستغرق وقتاً أطول وشددت عليه عدم مبارحة مكان اللقاء مهما كان السبب لأنني سأسلمه المال الذي جاءني لتوصيله لمنزلي. وكررت تنبيهي لبقية الخدم لإلتزام السرية التامة لأن وضعي سيكون خطيراً جداً إذا ما أكتشف أمري. وإذا ما سأل أي ملازم عني فعليهم أن يجيبوه بأنني قضيت ليلة سيئة من شدة المرض واضطررت للركوب، يساعدني خادمي أحمد، للذهاب لفكي بالجوار، لايعرفونه، ليقوم بعلاجي. وحتي أزيد روايتي إقتراباً من الحقيقة، أفهمت خدمي بأن المال الذي سأستلمه مال كثير، وقمت مقدماً بنفح كل منهم ببضع ريالات علي سبيل الإكرامية.

كان كل ما إتخذته من تلك الإحتياطات والترتيبات يهدف إلي تأمين تأخير بضع ساعات من الوقت قبل أن تنطلق صيحات المطاردة عند معرفة أمر فراري. أما خادمي أحمد فربما يبقي عدة ساعات في إنتظاري ومعه بغلتي. أما الخدم وأهل البيت فأنهم سيلزمون الصمت ويظلون في حالة من القلق والتوتر منتظرين رجوعي لهم بالمال. وقد استيقنت أن الخليفة ما أن يستفسر عني وعن حالتي إلا ويجيب خدمي رسوله بما يزيل الشبهة عني لبعض الوقت وبعدها يبدأ البحث عن أحمد وعندها ستزيد روايته التي سيحكيها لهم، عن المندوب المزعوم الذي يحمل المال والهدايا، من بلبلتهم. وبالطبع ستتضح بعد ذلك صورة هروبي لهم أما بالنسبة لي، فأن أي لحظة تؤخر شروع فرق المطاردة في البحث عني ستكون ذات أهمية مطلقة وحاسمة.

وبعد صلاة العصر عدت لمنزلي ثانية ومرة أخري شددت علي خدمي الأهمية الفائقة لكتمانهم سري ووعدتهم بالحوافز عند عودتي ثم خطوت نحو عتبة بابي سائلاً الله من كل قلبي ألا أضع قدمي ثانية في كوخي هذا.

الباب الثامن عشر

الفـــرار

« فراري من المدينة ليلاً – أدلائي، زكي بلال ومـحـمـد – الذعر – ١٣٠ ميلاً في ٢٤ ساعة – إنهيار جمالنا – الإختباء في جبال القلف – توخي الحذر من المفاجآت – وصول جمال نشطة – الرحلة الي النيل – عبور النيل – الشيوخ الودودون – نجاتنا من فرقة من جنود المهدية، مصاعب مع الأدلاء – حمد جار حوش العمرابي – النجاة من الخطر – وأخيراً بدت لنا أسوان – الترحيب بنا وتهنئتنا – وصولي للقاهرة – ولقائي بأصدقائي القدامي.»

مـضـي علي غروب الشمس ثلاث سـاعـات. كنا قد صلينا العشـاء مع الخليفة وتوجه بعدها إلي منزله. ثم انقضت سـاعـة بدون أي مشكلة فقد هجع سيدي ومولاي. نهضت حاملاً فروتي وفردتي علي كتفي وعبرت سـاحـة المسجد متوجهاً للطريق الشمـالي عندما سمعت سعالاً خفيفاً، عبارة عن إشارة من محمد الذي توسط في عملية فراري فتجمدت في مكاني. كان قد أحضر حماراً معه، فركبته وإنطلقنا. كان الظلام حالكاً وقد دفعت رياح الشمال الباردة جميع الناس إلي منازلهم وأكواخهم. وبدون أن نلتقي بأي كائن بلغنا نهاية المدينة حيث كان هناك منزل متهدم يقف منحرفاً عن الطريق. ومن ذلك المنزل خرج رجل يقود جملاً. فقال لي محمد: « هذا هو دليلك وإسمه زكي بلال. أنه سيقودك حتي جمال الركوب المخبأة في الصحراء، إنتظاراً لك. أسرعوا بالله عليكم، كان الله في عونكم وحظاً طيباً». قفز الرجل علي السرج وركبت وراءه. وبعد ساعة من تحركنا وصلنا إلي المكان الذي أخفيت فيه الجمال وسط أجمة قصيرة الأشجار. كان كل شئ جاهزاً فأسرعت لإمتطاء الجمل الذي خصص لي.

ثم سألت زكي: « هل سلمك محمد الدواء؟

– «لا. أي دواء؟

– « إنهم يسمونها أقراص الإثير. وهي تمنع النوم وتقويك في أثناء السفر».

Slatin Pasha flying from Omdurman.

هروب سلاطين باشا من أم درمان

ضحك وقال لي: « النوم؟ لا تخف من ذلك. فالخوف طفل طيب وسينتزع النعاس من عينيك! والله برحمته سيتولانا ويقوينا». كان الرجل علي حق تماماً. إتخذنا الطريق الشمالي لكن حشائش الحلفا والشجيرات السنطية القصيرة، والتي تتشابك في بعض المناطق، منعت الجمال من الإسراع أثناء الليل. وعند شروق الشمس وصلنا وادي بشارة، وهو وادي يبلغ عرضه حوالي ثلاثة أميال، ويزرع في موسم الأمطار بالدخن بواسطة الجعليين الذين يعيشون علي ضفاف النيل.

وعندما أشرقت الشمس تمكنت من رؤية وجوه أدلائي. كان زكي بلال شاباً صغيراً لازال زغب الذقن أما حامد بن حسين فكان رجلاً في ريعان شبابه. وسألتهما: «من أي جنس أنتما؟»

فأجاباني: « نحن من جبال القلف ياسيدي، وانشاء الله ستكون مرتاحاً معنا ». وسألني أكبرهم سناً: « كم تظن أننا إبتعدنا عن أعدائنا؟ ومتي سيفتقدونك؟» فأجبته: « سيسألوا عني بعد صلاة الصبح، ولكنهم بعد أن يقطعوا الشك في أمر هروبي، ويبدأون في تجهيز الرجال والحيوانات للمطاردة، فلا بد من أن يمر بعض الوقت. ويمكننا مبدئياً أن نعتبر أن بيننا وبينهم ما لايقل عن إثنتي عشرة إلي أربعة عشرة ساعة». وقال حامد: « هذا ليس بالكثير. لكن إذا صمدت حيواناتنا فسنبقي المسافة بيننا أبعد ما يمكن». فسألته: « هل تعرف حالة جمالنا؟ هل جربتموها من قبل»؟ فأجاب: « كلا فجملينا من سلالة العنافي أما الناقة فهي بشارية. وقد أشتريناهم خصيصاً لفرارك من بعض الأصدقاء ونرجو أن يكونوا عند حسن الظن بهم». إنطلقنا بأقصي ما تستطيعه الحيوانات من سرعة. كانت المنطقة منبسطة تتناثر عليها هنا وهناك بعض الشجيرات وبعض التلال الحجرية الصغيرة. لم نتوقف إلا عند منتصف النهار عندما نادي الدليل فجأة: « توقفوا! وأبركوا الجمال فوراً وأسرعوا!» توقفنا وأنخنا الجمال.

– لماذا الأمر؟

– رأيت جمالاً علي مسافة بعيدة وأمامهم فرسان وأخشي أنهم رأونا.

عبأت بندقيتي الرمنجتون إستعداداً لما قد يجئ وقلت له: « إذا ما رأونا بالفعل فمن الأفضل أن نواصل سيرنا بهدوء، أما عند إناختنا للجمال فهذا يثير شكوكهم فينا. في أي إتجاه يسيرون؟» فأكد حامد بن حسين قولي: «إنك علي حق. فهم متجهون للشمال الغربي»

نهضنا وغيرنا إتجاه خط سيرنا للشمال الشرقي وبدأنا نشعر بالثقة في أنهم لم يروننا عندما شاهدنا، لخيبة أملنا، أحد رجال تلك الفرقة، التي تبعد عنا بحوالي ألفي متر، يقفز علي صهوة حصانه ويركضه بسرعة متجهاً نحونا. فقلت لحامد: « سأتقدم ببطء مع زكي. أما أنت فقف في إنتظار الرجل وأجبه علي أسئلته لكن أعمل علي عدم رؤياه لي من علي القرب بأي شكل من الأشكال. هل تحمل المال معك؟» فرد علي بقوله: «حسناً لكن أمضوا بخطي متمهلة». ركبت أنا وزكي، بعد أن غطيت وجهي بالفردة حتي لايتعرفوا علي وجهي كرجل أبيض. ثم نظر زكي للوراء وقال لي: « أنظر إلي حامد وهو يصافح الرجل بعد أن أناخ جمله». وبعد عشرين دقيقة شاهدنا الرجل وهو يمتطي حصانه عائداً بينما أخذ حامد يحث جمله علي الإسراع للحاق بنا. وصاح حامد، حتي قبل أن يصل إلينا: « علينا أن نحمد الله لنجاتنا. فالرجل صديق لي واسمه مخل، وهو من الشيوخ في طريقه لدنقلا، مع جماله، لتوريد التمور لأم درمان وقد سألني إلي أين أنا متجه مع الرجل الأبيض المصري» فقد كانت للرجل عيون كالصقر.

– وبماذا أجبته؟

– رجوته كصديق أن يحتفظ بالسر وأعطيته عشرين من ريالات ماريا تريزا. فنحن العرب جميعنا نحب المال. وقد أقسم الرجل لي بأن يمسك لسانه إذا ما تصادف مع مطاردينا. أما الرجال الذين معه فكانوا بعيدين جداً ولايميزون بين الأسود والأبيض. علينا الإسراع فقد أضعنا وقتاً ثميناً»

وعند غروب الشمس كنا قد عبرنا جبال الهويجي وتوقفنا بعد ساعة في الفضاء الواسع وذلك علي مسافة يوم غرب النيل، ولنريح جمالنا المرهقة لبعض الوقت. لقد ركبنا لواحد وعشرين ساعة دون توقف ولم نأكل أثناءها أي طعام ولم نشرب خلالها إلا مرة

واحدة. وبالرغم من شدة الإرهاق إلا أن شهيتنا كانت طيبة عند تناولنا للخبز والتمر أثناء فترة الراحة. واقترح دليلي باعطاء الجمال بعض العلف قبل مواصلة السير وسألني إن كنت مرهقاً فأجبته: «في أوروبا فاننا نقول إن الوقت من ذهب. أما هنا فيمكن القول بأن الوقت يعني إنقاذ الأرواح. أنا لست تعباً، فهيا بنا».

ولكننا أصبنا بالجزع، فقد امتنعت الحيوانات عن الأكل الذي وضع أمامها. فقام حامد بأشعال نار صغيرة واخذ قطعة مشتعلة من الحطب وضع عليها بخور اللبان وأخذ يدور من حول الجمال وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها. فسألته بدهشة: « ماذا تفعل؟» فأجابني: «أخشي أن يكون (فقراء) الخليفة قد سحروا جمالنا (وكتبوها)، وأنا الآن أقوم بعمل مضاد حسب عادتنا نحن العرب» فأجبته: « أما أنا فأعتقد بأن هذه من جمال الدرجة الثانية التي تطرح في الأسواق للتخلص منها، أو أن تكون مريضة. فأذا استراحت لفترة أخري فربما تعاود السفر».

ولما لم تتمكن الحيوانات من تناول الطعام، حتي بعد نصف ساعة، وكان أي تأخير شديد الخطر علينا، فقد أسرجنا الجمال وركبناها. لكن الحيوانات المرهقة رفضت أن تركض لكنها واصلت المشي بخطي لابأس بها. وعندما أشرقت الشمس وجدنا أنفسنا علي الأرض المرتفعة الواقعة شمال غرب المتمة. كان تناقص قوة جمالنا قد ملأنا بالقلق وصار واضحاً لنا بأنها لن تقدر علي الصمود حتي نصل للمنطقة التي سيتم تغييرها فيه، والتي تقع علي مسافة يوم شمال بربر وعلي حافة الصحراء. وعند العصر أرحنا الجمال تحت ظل إحدي الأشجار وإتفقنا علي أن نتوجه إلي سلسلة جبال القلف، علي مسافة يوم من السفر نحو الشمال الغربي، لأختبئ هناك بين تلك التلال المقفرة وإلي أن يتمكن الأدلاء من الحصول علي ركائب أخري.

وعند الغروب أقمنا معسكرنا. كانت الجمال قد إنتعشت وتمكنت من المشي بخطي طيبة وفي الصباح وصلنا إلي أطراف جبل القلف والذي كان غير مأهول ولا أحد فيه. نزلنا من الجمال وسقناها أمامنا بصعوبة بالغة لمدة ثلاثة ساعات وسط وادي يعج بالحجارة والصخور الحادة.

كان الدليلان، زكي ودبلال وحامد ودحسين ينتميان لقبيلة الكبابيش وكان جبل القلف من مواطنهم وبالتالي كانا يعرفان كل دروبه وممراته. أنزلنا السروج من علي الجمال وخبأناها وسط الكتل الصخرية. وقال حامد حسين: « لقد وصلنا إلي ديارنا وستحمي أبناءها، فلا تخشي بعد الآن شيئاً، فطالما نحن علي قيد الحياة فلن يعكرصفوك أي شئ. عليك أن تمكث هنا مختفياً وهادئاً. فعلي مسافة قريبة من هنا يوجد أحد صدوع الجبل المحتوية علي الماء وسأسقي الحيوانات منه أيضاً. أما زكي فسيحضر لك قربة مملوءة. كما سأقوم بأخفاء الجمال في مكان آخر حتي لاتنبي الطيور والجوارح عن المكان الذي وقفنا فيه عن طريق طيرانها من فوقه. ما عليك إلا انتظاري في هذا المكان حتي نقرر ماسنقوم به بعد ذلك».

تركوني وحيداً مضعضع النفس. فقد كنت أمل في إختراق سريع نحو الحدود المصرية ولأستبق مطاردينا بالإسراع في ذلك. ولكن جملة من العوائق أصبحت تتجمع من حولي. وبعد حوالي ساعتين حضر زكي حاملاً معه قربة من الماء علي كتفه وصاح بي: «تذوق ماء ديارنا وأنظر كيف أنها حلوة وصافية! كن واثقاً بالله وهو إن شاء سيوصلنا لهدفنا ونهايته السعيدة».

تناولت جرعة كبيرة وحقاً كانت لذيذة بهيجة. وقلت لزكي: « إنني علي ثقة من النجاح لكن تعطلنا هو الذي أثر علي معنوياتي» فقال لي ملاطفاً: « معليش، كل شئ بارادة الله. وربما كان لتعطيلنا هذا جانب إيجابي. فلننتظر حتي قدوم حامد».

وبعد العصر عاد حامد وبعد أن تناولنا بعض الخبز والتمر إتفقنا علي أن يتوجه زكي إلي الأصدقاء، الذين علي علم بفراري، وعلي مسافة يومين، لإحضار جمال جديدة. وقال زكي: «سأذهب علي ظهر الناقة البشارية فهي قوية ولم تصل بعد إلي نهاية قوتها. فاليوم هو السبت وسأسافر طوال الليل وطوال يوم الأحد غداً. وصباح الإثنين الباكر، إنشاء الله، ألاقي الأصدقاء. فاذا مابقيت معهم ليوم أو يومين، حتي يتم تجهيز الحيوانات، فسأصلكم



Slatin in hiding in the hills.

سلاطين مختبئ في الجبال

بالخميس أو الجمعة ومعي جمال نشطة إلا إذا حدث عائق لي» فأجبته أن من الأفضل لو بكر في ذلك: « أما نحن فسننتظرك هنا حتي السبت القادم. فاذا وصلت قبل ذلك فهذا جيد للغاية. لكن عليك أن تتذكر دائماً أن حياتنا في يدك. وقبل كل شئ كن حذراً ويقظاً عند جلب الحيوانات حتي لا تثير أي شبهة فيك». فمد يده مصافحاً لي ومودعاً وقال: «كن علي ثقة من حسن نيتي ومن حسن حظنا». ومضي بعد أن تمنينا من الله أن يحميه ويعيده لنا سالماً بأسرع وقت. كان قد حزم بعض التمر في ثوبه ورفع السرج علي كتفه وقام حامد بوصف المكان الذي سيجد فيه الناقة بالضبط وعندما إستدار رجانا لأن نحرص علي عدم رؤية أحد لنا وبعد لحظات كان قد إختفي عن الأنظار. شرعنا في نظافة الأرض التي سنبيت عليها من الأحجار وعادت لنفوسنا الثقة في النجاح.

وقال لي حامد بعد فترة من الصمت: «لدي إقتراح أقدمه لك. إذ أن أحد أقاربي هو شيخ هذا القسم واسمه ابراهيم. وأن منزله لا يبعد بأكثر من أربعة ساعات، علي حافة الجبل. ولأننا، كما أرجو ، بعيدين عن الأنظار حتي الآن إلا أنه من الأفضل لي أن أحذره بحضورنا حتي يستعد لأي طارئ. وسأصف له وضعنا بدون الإشارة لإسمك. وبصفته كقريب لي فهو مجبر علي توفير المأوي لنا وسيعمل علي تحذيرنا في الوقت المناسب من إقتراب أي مطاردين لنا وخاصة إذا ما تتبعوا أثرنا حتي طرف الجبل رغم أنني لا أخشي من حدوثه. فاذا وافقت فسأذهب إليه أثناء الليل لأقابله بدون أن يراني أحد وسأعود لك صباح غد باكراً».

قلت له أن الفكرة لا بأس بها، ولكن من الأفضل أن يحمل له معه عشرين ريالاً يقدمها له كهدية رمزية وعليه ألا يبوح علي الإطلاق بأسمي.

ذهب حامد عند الغروب وتركني وحيداً مع أفكاري. تذكرت أهل بيتي ورفاقي الذين تركتهم ورائي والذين، بالرغم من إختلافنا في الجنس وفي خصال أخري، فقد إعتدت عليهم عبر السنين. كما فكرت في الأعزاء الذين أتوجه لهم الآن، وفي أخواتي وأصدقائي وكل الذين يكنون لي الود. كنت في غاية الإرهاق وسرعان ما نمت علي سريري المتصلب

ولم استيقظ إلا عند عتامة الفجر وبعد ذلك بقليل سمعت صوت خطوات تقترب مني وعرفت أنه لابد أن يكون حامد. وقال لي عندما وصلني: « كل شئ علي ما يرام. فقريبي الشيخ يبلغ ضيفه الذي لايعرفه تحياته ويسأل الله أن يحفظه. قوي نفسك بالصبر لأننا، حتي الآن، ليس لدينا ما نقوم به سواه.

جلس بين كتلتين من الحجارة يشبه لونها لون ظهره الداكن وظل يراقب ما حولنا. جلست علي مسافة قريبة منه تحت ظل شجرة صغيرة، إنتزعت الحياة لنفسها وسط الصخور، وتحدثنا بصوت خافت عن الحالة في ماضي وحاضر البلاد. وبعد العصر سمعت فجأة صوت أقدام فأدرت رأسي وإذا برجل علي بعد مائة وخمسين ياردة مني متسلقاً المنحدر الذي يواجهني ومحاولاً جذب فردته، التي كانت تحيط بحقويه، إلي رأسه. ومن الاتجاه الذي جاء منه، فلابد أن يكون قد رآنا.

سمع حامد الصوت أيضاً وقال لي بعد أن لاحظ القادم: « هو علي أية حال من جنسنا. ومن المستحسن أن ألحق به وأتكلم معه. فهل توافق علي ذلك؟» فأجبته: « نعم إنني موافق، لكن عليك الإسراع. وإذا ما رأيت ذلك ضرورياً فقدم له هدية صغيرة».

نهض رفيقي وتوجه نحو الرجل بخطوة سريعة حتي وصل قمة التل الصغير وغاب بعدها عن عيني. وبعد دقائق رأيتهما معاً وهما مقتربان مني وعلي وجوههما إبتسامة عريضة. وصاح حامد من علي البعد: لقد واتانا الحظ! أنه واحد من أقاربي العديدين ووالدتينا بنات خالات».

وصل الرجل ومد يده لي مصافحاً وقال لي بعد أن جلس علي الصخرة المجاورة لي: « سلام الله عليك. وعليك ألا تخشي شيئاً من جانبي». ناولته بعض التمر ورجوته أن يتذوق شيئاً من زادنا وسألته: « من أنت؟» فقال لي: « إنهم يسمونني علي ودفايد. ولأكون أميناً معك فأنني كنت أنوي شراً تجاهكما قبل أن أعرفكما. فقد كنت أبحث عن مرعي جديد ووصلت بقطيع أغنامي حتي حافة تلك التلال التي تراها علي الجنوب من هنا. ومنها ذهبت إلي ذلك الصدع من الجبل لأري إن كان الماء به كافياً لبهائمي، فقد نحتاج إليه، رغم أن

هناك مياهاً في السهل. وهناك لاحظت أثراً لجمل فتتبعته. ومن علي البعد رأيت الجلد الأبيض لقدميك، والتي كانت بارزة من مخبئك، فأيقنت بأن شخصاً أجنبياً يختبئ هنا، فحاولت التسلل حتي لا تراني، وذلك حتي أتمكن...» ونظر إلي مبتسماً وقال: « حتي أتمكن من العودة إليك مع بعض رفاقي عند حلول الظلام وأسهل عليك الرحلة بتخفيف ما لديك من الأغراض الثقيلة. لكن ولله الحمد التقي بي إبن خالتي هذا. ولو لا ذلك لما كنت عرفته أثناء ظلمة الليل».

كان دليلي ينصت لما يقول ثم قال له: « سأحدثك يا علي ودفايد بقصة قصيرة فأستمع إليها. فقبل سنوات عدة، عندما كنت طفلاً صغيراً أيام حكومة الترك، كان والدي شيخاً وزعيماً علي هذه الجبال والتي كانت مليئة بالسكان. وذات يوم جاء رجل طريد يسعي للجوء لوالدي وليجميه من قوات الحكومة التي كانت تطاردة بتهمة أنه قاطع طريق وأنه قتل عدداً من التجار. كانت القوات المطاردة قد أمسكت بنسائه لكنه تسلل ولاذ بحماية والدي الذي قام باخفائه وتأمينه. وبعد حين ذهب والدي لديوان الحكم في بربر. وبالاستعانة بالمال وبالكلام المنمق نجح في الحصول علي عفو للرجل الطريد، والذي لم يكن هناك دليل مؤكد علي جرائمه. قام والدي بكفالته وعمل علي إطلاق سراح نسائه وأخرجهن من السجن. كان اسم ذلك الرجل الطريد هو فايد...» فقاطعه علي والذي تغضن وجهه أثناء سرد القصة: « إنه والدي. وبعد أن ولدت أنا بعد فترة وكبرت سمعت القصة من المرحومة والدتي. لذلك أبشرك يا أخي بأن ما قام به أبوك تجاه والدي فأن الإبن سيرد الجميل لك. فأنا معكم في السراء والضراء وأرجو منكما أن تتبعاني وسأقودكما إلي مخبأ أفضل من هذا».

سرنا حوالي ألفي ياردة من حول الجبل وباتجاه الجنوب حتي وصلنا إلي كهف صغير مكون من شرائح صخرية لكنه يتسع لشخصين وقال لنا علي: « عند حلول الظلام أحضروا أغراضكم لهذا الكهف، رغم أنه لايخشي من ضياع شئ هنا. فالجبال تكاد تكون مقفرة. كما يمكنكم إختيار أي مكان مناسب بالقرب منكم للرقاد فيه. هذا ومن المستحيل أن أجزم بأن أحداً لم يراكما أو أنه ينتوي شراً بكما كما كنت أنوي عند حلول الظلام. لقد تأخرت

كثيراً وطريقي طويل أمامي لذلك سأمضي لشأني وسأحاول الحصول علي الأخبار بقدر الإمكان ثم أعود لكما غداً عند حلول الظلام. وسأعلن عن قدومي بصفير خافت. إلي اللقاء».

وكما أشار علي ودفايد فقد وجدنا مكاناً مناسبا لقضاء الليل فيه. وعند الصباح، وقبل شروق الشمس، تراجعنا إلي الكهف مرة أخري. ظل حامد ودحسين طوال اليوم يقظاً يراقب المكان من مكان عال، وكأنه حارس ببرج للحراسة، ولم يعد لي إلا بعد أن عضه الجوع. في ذلك اليوم إنتهي مالدينا من الخبز ولم يتبق لنا ما نأكله سوي التمر.

وفي المساء، بعد ساعتين من غروب الشمس، سمعنا صفيراً خافتاً. وجاء علي ودفائد، وفاء لوعده، لزيارتنا وأحضر معه لبناً طازجاً في وعاء صغير من جلد الغزال كما أحضر لنا بعض الخبز الذي كان ملفوفاً في فردته. وقال بعد أن ألقي علينا التحية: «لقد تظاهرت أمام زوجتي بأنني أنوي زيارة رجال القافلة وأقوم بأمر ضيافتهم. أنني في الحقيقة لا أثق فيها فإن لها لساناً ثرثاراً» فعلقت علي ماقاله وأنا مبتسم سعيد بالوجبة الطيبة القادمة: « إنها من نفس صنف النساء اللائي يشتكي أزواجهن منهن في بلادي» وواصل علي حديثه: « لقد قمت ببعض التحريات عند البئر، ولم أسمع عن أي شئ يكدر صفوكم فكلوا واشربوا حتي الإمتلاء وأنا واثق من حظكم السعيد».

وبعد أن أكرمنا بطعامه الطيب رجوته أن يرجع حتي لايتشكك أهله في سبب غيابه الطويل. وهمست في أذن حامد لينفحه بخمسة ريالات قبل ذهابه.

وقلت له مودعاً: « أرجوك ألا تأتي بعد ذلك لنا إذ أن ذهابك ومجيئك سيبعث الشك قطعاً في نفوس أفراد قبيلتك كما أن آثار قدميك علي الأرض قد تكشف عن مخبئنا هذا للآخرين، ما عدا في حالة سماعك بأي أنباء بخصوصنا. فالوداع وتقبل شكري علي صداقتك وإخلاصك».

ومشي حامد ودحسين مع قريبه مودعاً وبعد أن عاد لي ذكر بأن علي قد إمتنع من قبول الهدية إلا بعد أن أصر عليه فقبلها خوفاً من أن يسئ إلي. بعد ذلك أوينا للفراش وأرحنا أجسامنا حتي طلع الصباح حيث رجعنا إلي الكهف، أو بالأحري، رجعت أنا إذ أن

رفيقي عاد إلي موقع المراقبة المرتفع. ومضي ذلك اليوم دون أي حادث. ولكن ما أبطأ الزمن! فالساعات تحولت إلي أيام والأفكار تلت الأفكار في رتابة مملة. وبدأ صبري ينفذ ولكن لاحيلة لي غير الصبر والتحمل.

ولما كادت مالدينا من المياه أن تنفذ، فقد مضي حامد حسين مع قربته نحو الصدع الصخري وفي نفس الوقت أراد أن يتفقد حالة الجملين والتي كانت تعرج في عقالها وتأكل ما تجده من أوراق الأشجار والشجيرات. وقال لي قبل ذهابه: « سأعود خلال أربعة ساعات من الآن. وفي تلك الأثناء أرجو بقاءك هادئاً داخل الكهف وإذا ما ظهر أي إنسان، لاقدر الله، فسيكون أحد أبناء جلدتي، إذ لايوجد أي غريب بالمنطقة وأرجو أن تبقيه معك وتخبره بأن حامد ود شيخ حسين سيحضر بعد قليل. لكن لا تدخل معه في أي نقاش ولا تسفك دمه بأي حال». فأجبته: « سأتبع نصيحتك مهما كانت العواقب لكنني أشعر بأنك ستجدني آمناً هنا، ولوحدي، عندما تعود».

لكنه عاد بقربة مليئة بالماء قبل الوقت الذي إقترحه وقال لي وقد بدا عليه شعور بالإرتياح: « لقد وجدت الجمال وقد استعادت عافيتها، علي الأقل من ناحية مظهرها الخارجي». ثم طلب مني بعض التمر وعاد إلي موقعه للمراقبة.

ومضي بقية اليوم ببطء كالعادة وبدون حادث. وعند الليل ذهبنا للنوم بعد أن تحدثنا بصوت خافت لبرهة من الزمن وطلبنا من الله أن يزيدنا تحملاً للصبر وألا نمتحن فيه.

وصباح الخميس كان حامد قد ذهب كعادته للحراسة ويبدو أننا كنا في منتصف النهار عندما رأيته يهبط مسرعاً من صخرته فرفعت بندقيتي متأهباً لأي طارئ. ولما جاء سألته عن الخبر فأجابني: « لقد رأيت رجلاً يجري بأتجاه مخبئنا القديم وهذا قد يعني وجود أخبار لديه. فأنتظرني في مكانك حتي آتيه».

جلست في انتظاره ما بدا لي دهراً من الزمن ثم قمت بحذر بالغ ونظرت بأتجاههما. فوجدت علي البعد رجلين في الطريق إلي وكان أحدهما حامد أما الثاني فكان زكي بلال. قفزت خارجاً من الكهف ولما رآني أسرع جارياً بأتجاهي حتي وصل وصافحني بحرارة وقال:

– حياك الله ياسيدي. ها هي أنباء طيبة لك! لقد حضرت ومعي جملان نشطان لكني خبأتهما علي مسافة من هذا المكان. وسأرجع لإحضارهما». ثم أسرع بالخروج.

وبعد ساعة رجع إلينا ومعه جملين فصحت فرحاً: « لقد عدت لنا سريعاً فأحكي لنا ما حصل» فأجابني: « لقد فارقتكما مساء السبت وأسرعت بناقتي طوال الليل، ونهار الأحد بكامله. وقد قطعت ناقتي البشارية الأرض شبه المستوية بطريقة جيدة حتي وصلت لأصدقائنا صباح الإثنين، والذين لم يتوانوا في إرسال من يأتي بالجملين الذين ترونهما الآن من مسافة بعيدة. وصلت الجمال صباح الثلاثاء وتحركت نحوكم عند منتصف النهار. لمَ أسرع بالعودة حتي لا أرهقهما وبالتالي يمكنكم القيام الآن وعلي الفور. ثم ... أوه. لقد نسيتُ أن أخبركم بأن أصدقاءكم، وبعد أن تباحثنا معاً، توجهوا إلي مضارب القبيلة علي حافة الصحراء لتحذير أهاليهم للإستعداد لأي طارئ. وقد أخبرتهم بضرورة الإيفاء بالحضور في الموعد بالجمعة أو علي أبعد تقدير مساء السبت». فسألت الشاب والذي كان منهمكاً في الحديث بروح معنوية عالية: «هل أحضرت معك خبزاً فليس لدينا ما نأكله سوي التمر» فبدا عليه الإنزعاج وقال: « يا إلهي لقد نسيت ذلك تماماً فطيبت خاطره بعد أن رأيت الخجل قد غمره: « لابأس. فحتي بدون التمر يمكننا قطع ما تبقي من المسافة». ثم قال له حامد: «قم يازكي وأسرج الجمل الأبرق وتوجه مع صديقنا إلي الصخرة المجوفة وأسقي الجمال. ثم إنتظرني هناك ريثما أرفع السرج وأتبعك علي ظهر جملي الذي استعاد حيويته تماماً وسيعبر هذه المسافة القصيرة بدون أرهاق». ثم إلتفت نحوي وأضاف: «من الأفضل ألا تتوجه مباشرة للينبوع وأن تظل مختبئاً في مكان قريب مناسب حتي نحضر لك . فالواحد منا لايمكن أن يكون واثقاً من عدم حدوث مفاجآت فهناك كثير من العطشي الذين يبحثون عن الماء في كل مكان».

قدت أحد الجمال ومضيت مع زكي نحو الصدع المحتوي علي الماء وإختبأت في المكان الذي إقترحه الدليل وسط كتل الصخور.

وقبل ساعتين من غروب الشمس عاد حامد وزكي ومعها الجمال الثلاثة التي سقيت حتي إرتوت كما ملأ القرب. امتطينا الهجن وتوجهنا صوب شرق الشمال الشرقي عبر التلال، والتي صعب علينا أحياناً إجتيازها حتي خيم الظلام علينا ووصلنا إلي السهل بدون أن يلحظنا أحد.

وطيلة الليل لم نتوقف عن المضي قدماً وكنا نركض الجمال ركضاً خفيفاً أو ندعها تسير علي مهل. وعند حلول الصبح قدر حامد بأننا قد قطعنا نصف المسافة. وقال لي: « اليوم هو أخطر أيام رحلتنا فقد أقتربنا من النهر ومن معبر القبائل النيلية إلي مراعيهم فلنسأل الله أن يوصلنا لمقاصدنا دون أن نكتشف!».

لم يتغير المنظر من حولنا كثيراً. فقد كان السهل مغطي بطبقة خفيفة من العشب ويتناثر عليه هنا وهناك مجاميع من الشجيرات السنطية شبه الميتة. كانت الأرض رملية، وبها بعض الأحجار أحياناً. واصلنا ركوبنا بدون توقف وأكلنا من طعامنا البسيط أثناء السير. وعندما توسطت الشمس كبد السماء شاهدنا علي البعد قطيعاً من الخراف يقودهم الرعاة إستدرنا جانباً وغيرنا طريقنا المباشر، بينما توجه زكي نحوهم متحسساً للأخبار لكنه عندما عاد ذكر بأنه لم يجد شيئاً يقال. ورغم مرورنا في الطريق علي آثار أقدام وأخفاف الإبل والحمير والضان وغيرها إلا أننا لم نشاهد شيئاً مريباً وعادت الأرض منبسطة أمامنا من جديد.

وسألني حامد: « هل تري ذلك الشريط الرمادي العريض أمامك، من الجنوب للشمال الغربي؟ هذا هو طريق القوافل الرئيسي الذي يؤدي من بربر إلي ودقمر وديار الشايقية. فاذا ما عبرناه بدون أن نشاهد، فلا خوف علينا بعدها. لأن بين هذا الطريق والنهر لاتوجد سوي الأرض الحجرية التي ينعدم فيها أي أثر للزراعات والتي لايسكنها أحد. عليك الآن إتباع ما سأقوله لك بالضبط. فلنمض. بجمالنا بخطي بطيئة وبين كل جمل والآخر حوالي خمسمائة ياردة حتي نصل للطريق الرئيسي. وعندما نصل إليه نتحول عن درب القوافل بأتجاه الطريق المؤدي لبربر ونواصل السير فيه لبضع دقائق. ثم نتركه ونتحول إلي الدرب

الشرقي لنلتقي ثانية أمام ذلك التل الذي يبعد ثلاثة أميال عنا. وهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن نضلل به أي مطارد لنا».

وفعلنا مثل ما قال وعبرنا طريق القوافل الذي عادة ما يكون مأهولاً ولكن لم نر أي أثر لإنسان ثم التقينا في المكان المتفق عليه. ثم ضحك حامد وقال بمرح: « والآن علينا دفع الجمال بأقصي سرعة للأمام وبدون أن نخشي عليهم فهذه هي الخدمة الأخيرة التي سيقدمونها لنا فكل شئ سار علي مايرام».

ومنذ تركي لأم درمان لم أشاهده يضحك أبداً وقد إستنتجت بأننا لن نخشي شيئاً من هذا الجانب من النهر.

ومضينا قدماً ونحن نلهب جمالنا المنهكة بالسياط بدون رحمة حتي تجاوزنا سلسلة من التلال ووصلنا للكربة.

والكربة هي سهل ذو تربة رملية. وسطحها مغطي بحجارة سوداء ذات أحجام تتفاوت من حجم قبضة اليد وحتي التي بحجم الرأس. وهذه الحجارة العجيبة متلاصقة متصلة. كما يلاحظ علي مسافات منها صخوراً منفردة أو كتل منها مما يجعل أمر اجتيازها شاقاً للحيوانات وبطيئاً للغاية، وبالنسبة لنا كان السير عليها قاصماً لظهورنا. وعند اقتراب المساء شاهدنا نهر النيل من علي البعد البعيد مثل خيط من الفضة يشق ذلك المنظر الطبيعي للسهل. هبطنا من السهل وسط الظلام ووصلنا إلي وادي يقع بين جبلين صخريين فتوقفنا وأنزلنا السروج. ولم يكن النهر يبعد عنا بأكثر من مسيرة ساعتين.

وقال حامد وزكي، بعد أن جلسا علي الأرض يقضمان التمر: « لقد قاربت مهمتنا علي الإنتهاء. وعليك البقاء هنا مع الإبل لأننا في طريقنا إلي مكان نعرفه بالقرب من النهر وهناك سنلتقي بأصدقائك والذين سيواصلون المشوار معك».

تركاني وحيداً وقد غمرني تفاؤل عظيم بالمستقبل. ورأيت في خيالي أهلي ووطني الأم ومواطني. استيقظت بعد منتصف الليل ولم يكن قد جاء منهم أحد وبدأ القلق يساورني بسبب تأخرهم لأن عدم عودتهم سريعاً سيمنعني من عبور النهر أثناء الليلة. وقبل الفجر بساعتين سمعت صوت أقدام تقترب. وظهر حامد.

سألته بفارغ الصبر: «ما هي الأخبار؟» فكانت إجابته اليائسة: «لاشئ. إذ لم نجد أصدقاءك في المكان المتفق عليه. عدت إليك الآن إذ لايمكنك أن تبقي هنا حتي إنبلاج الصبح. فأنت قريب جداً من المناطق المأهولة بالسكان، ومعرض لخطر إكتشاف وجودك. خذ معك قربة الماء علي كتفك وبعض التمر فأنني مرهق لدرجة تمنعني من حمل أي شئ علي ظهري وعليك العودة فوراً إلي الكربة لتختبئ فيها بين الصخور طيلة النهار».

فعلت مثلما طلب مني ووصلنا للسهل بعد ساعة، وبعد أن تقدمنا لمسافة أطول وسط الظلام توقف حامد فجأة ثم قال: « توقف هنا وقم برص الحجارة والصخور بشكل دائرة، مثلما يفعل الجمالة لحماية أنفسهم من برد الشتاء ثم تمدد وسطها، وأنت تعرف كيف تفعل ذلك. فأنت قد أصبحت مثل أي عربي منا. وعند المساء سأعود لك. أما الآن فسأرجع لمعاينة الجمال وعليك ألا تخشي علي سلامتي فأن أهل هذه المنطقة يعرفونني. وإذا ما سألوني أي أسئلة فسأقول لهم بأنني قدمت من دار الشايقية لزيارة بعض الناس هنا، إذ لحسن الحظ لدي اقارب هنا أيضا». ثم رجع وبقيت وحدي واقفاً علي السهل المنحدر الموحش.

قمت بتكويم الحجارة ورصها فوق بعضها البعض لارتفاع نصف متر تقريباً وتركت فراغاً يسع بالكاد قربة الماء وبندقيتي وشخصي بالطبع. وبدأ الصبح يتجلي فتسللت إلي مخبأي. كانت الأرض رملية من تحتي، فقمت مستخدماً حجراً أفطحاً مسنناً بعمل حفرة وغطيت الأحجار المرصوصه بذلك الرمل حتي لا توجد فتحة بين شرائحها تؤدي لرؤيتي من الخارج ثم تمددت علي الأرض من شدة الأرهاق ومددت أطرافي. ومرة أخري عبر شريط الأحداث التي مررت بها في خاطري ورجعت للماضي وتصورت غضب الخليفة من جراء هروبي. ثم جنح خيالي لأحبائي وأسرتي وإشتقت كثيراً لهم ولاجتماعي معهم ثانية رغم العقبات الجسيمة والعوائق غير المتوقعة التي تقفز من هنا وهناك من حولي. ما الذي حدث لي وما مدي التغيير الذي طرأ علي حياتي؟ أين شعاري القائل « لاتيأس أبداً»؟. فبالرغم من الظروف اليائسة التي قد أجد نفسي فيها إلا أنني لم أفقد مطلقاً شجاعتي ولم أفقد أبداً ثقتي في حظوظي القادمة. فاليوم أعاني بالفعل من الضغوط ومن الخوف الذي

يعتصرني، وربما أنا راقد الآن فيما يمكن أن يكون قبري. ولكن هذا في النهاية هو مصير كل كائن حي. ومهما طالت أيامه أم قصرت فلا سبيل آخر أمامه. ولكن، أن أموت في هذه الأرض الغريبة الملعونة؟ فالله وحده في عليائه أرجو أن يرحمني، أن يرحم رجلاً بائساً، والذي، حتي لو إرتكب كثيراً من الخطايا والشرور، فقد تاب توبة نصوحة عن كل آثامه. فليرحمني الله! يا الله! دعني أري أصدقائي وأحبابي والأرض التي أنجبتني مرة أخري!

ثم غمرني الهدوء مرة أخري. فرغم كل شئ، ورغم التأخير، فأن الأمور ليست بهذه الدرجة من السوء. فالليلة سأعبر النهر للضفة الأخري، وغداً أصل للصحراء، وخلال يومين أو ثلاثة سأكون بمنأي من الخطر نهائياً وبعدها أطير نحو هؤلاء الذين أتوق لرؤيتهم. ثم إبتسمت مرة أخري وامتلأت بالثقة والأمل بالنجاح. اشتدت حرارة الشمس، وكنت قد جلبت الفردة معي فرفعتها من فوقي وظللت بها وجهي وأنا منتظر بفارغ الصبر ما سيحدث لي بعد ذلك.

وبعد فترة من منتصف النهار سمعت صفيراً خافتاً فرفعت رأسي ونظرت من فوق الأحجار فرأيت حامداً وقد جاء بأبتسامة عريضة، وصاح: « أبشرك! فقد وجدنا أصدقاءك». غمرني إحساس عظيم بالفرح عندما استوعبت ما قاله وشعرت بأن نجم سعدي قد عاود الصعود. وعندما أقترب حامد مني جلس بجواري علي الأرض وقال: « يمكنك إتخاذ الجلسة التي تريحك فليس حولنا من أحد وعليك ألا تخشي شيئاً. فقد التقي زكي بأصدقائك قبل الصبح وقد حضر الآن واحد منهم ليعرف المكان الذي نحن فيه الآن. إنهم جاهزون وسيحضرون لك مساء اليوم. إنما عليك أن تكون في غاية الحذر لأن عملية فرارك أصبحت معروفة في هذا الجزء من البلاد. تعال معي الآن، أو، من الأفضل أن تنتظرحلول الظلام. لكنني سأذهب فهل تعرف الطريق وحدك أم أعود لك لآخذك معي؟» فقلت له أنه ليس من الضروري عودته مرة أخري لأنني أعرف المكان وسألتحق به عند المساء.

كانت الشمس قد إختفت عن الأفق الغربي حين حملت بندقيتي وقربة الماء علي كتفي وبارحت المكان الذي عاودتني فيه تلك الذكريات والتأملات المرة. وعندما وصلت لرفاقي

وجدت نفسي بين رجلين كانا غريبان عنا. قاما بتحيتي وقالا أنهما: « مرسلان من قبل صديقك أحمد ود عبد الله ونحن من قبيلة الجهيماب. سنأخذك حتي النهر وسيقوم هو بالعبور معك إلي الضفة الأخري حيث تنتظركم الجمال لتحملكم عبر الصحراء. أرجو أن تودع أدلاءك، فقد إنتهت مهمتهما».

صافحت أصدقائي القدامي وشكرتهم من صميم قلبي لوفائهم : « وداعاً وأمل أن نلتقي مرة ثانية في ظروف أفضل».

أسرجنا جملين وتركت الثالث لدليلي السابقين ثم ركبت وأردفت ورائي أحد القادمين الجدد. وسألته عن إسمه فقال: «إنهم يطلقون علي إسم محمد ياسيدي أما زميلي فاسمه اسحق». وسألته إن كان سيرافقني عند عبور الصحراء فنفي ذلك وقال: «هناك آخرون سيقومون بذلك. أرجو أن تمهل في السير مع تغطية وجهك بالرغم من ظلمة الليل. فقد جاءت أوامر من بربر قبل ثلاثة أيام بالتشديد علي مراقبة كل الطرق كما تم وضع جميع المراكب تحت الرقابة. ولكن عليك ألا تخشي شيئاً في بلادنا».

وبعد ساعتين من توجهنا نحو شرق الشمال الشرقي اقتربنا من النهر وكنا نسمع أصوات السواقي، وصراخ وضحك الأرقاء ونسائهم أثناء العمل. وعندما وصلنا لأجمة صغيرة ملتفة الشجيرات قفز محمد، الذي كان رديفاً لي، علي الأرض وقال لي: « أنخ الجمل ببطء وهدوء حتي لايصدر أي صوت أو يجذب الإنتباه إلينا». فبركت الجمال دون أي صوت منها.

طلب مني البقاء في تلك الأجمة حتي يعود لي مع أحمد ثم إختفي في الظلمة. إنتظرت حوالي الساعة ثم شاهدت أربعة من الرجال يقتربون مني وقام أفرعهم قامة باحتضاني وضمني إلي صدره وقال في صوت خافت: « الحمد لله ومرحباً بك في ديار أبائي. فأنا أخوك أحمد بن عبد الله، من قبيلة الجهيماب. صدقني لقد نجوت الآن من كل مكروه» ثم إلتفت إلي زميله محمد وقال له: «أنزل السروج من الجمال بهدوء ولا تحدث أي ضجة وأذهب لمسافة بعيدة نسبياً بطول النهر وأنفخ القرب بالهواء تماماً ثم أربطهم حول أعناق

الجمال. بعد ذلك قم بعبور النهر من مناطق مختلفة وإنتظر غداً تعليماتي بجوار أحجار (الثور الهائج)». ثم إلتفت إلي وطلب مني أن أتبعه.

قام الرجل، مع زميلهم الرابع، بحمل السروج علي ظهورهم وتبعتهما .وبعد دقائق وصلنا لشاطئ النيل المقدس ووجدنا، في حفرة أحدثها التيار، مركباً صغيراً قام بصنعها نفس أصدقائي وتكاد تسعنا بصعوبة. هبطنا الضفة المنحدرة العميقة وصعدنا إلي المركب وإنطلقنا. استغرق عبورنا النهر ساعة من الزمن. وعندما وصلنا للشاطئ الآخر قام الرجل الآخر، والذي ظل بداخل المركب، بدفعها نحو النيل وقام بخرقها من منتصفها وعاد سباحة الي الشاطي بينما المركب تغرق تدريجياً واختفت معها كل علامة لعبورنا عليها. ثم سرنا لحوالي نصف ساعة بعدها طلب مني أحمد عبد الله البقاء ريثما يعود لي. لكنه عاد بعد قليل وقد حمل معه طبقاً من الخبز واللبن. وقال لي: « كل وأشرب وأبعد كل خوف عن قلبك بخصوص نجاح فرارك، فأنني أقسم لك بالله ورسوله أنك نجوت تماماً. كنت قد إنتويت أن نواصل السفر هذه الليلة لكن الوقت قد تأخر ومن المستحسن الإنتظار حتي مساء الغد. هذا إضافة لأن يوم غد هو الذي سنروي فيه الجمال. ولأننا في هذا المكان قريبون جداً من سكن الأهالي، فأن إبن أخي، إبراهيم علي، سيأخذك لمكان بعيد نسبياً ومن الصعب الوصول إليه، فأرجو انتظاري هناك وسأجهز لك جملاً لتركبه إلا إذا ما كنت قوياً أو تفضل المشي علي قدميك». فقلت له بأنني قوي وأستطيع المشي وسألته عن مكان إبراهيم علي فقال بأنه موجود هنا وأنه الذي سيكون دليلي خلال رحلة الصحراء.

كانت ليلة حالكة الظلام. تقدم إبراهيم أولاً، وفي يده قربة ماء فارغة، بموازاة طريق القوافل المجاور للنيل والمؤدي إلي أبي حمد، وذهبت وراءه. وبعد مسيرة لثلاثة أميال إنجليزية، نزل إلي النهر وملأ القربة إلي منتصفها ثم غير إتجاهه وتحول للداخل. كانت مسيرتنا صعبة وعرة وعملت الأحجار الكبيرة التي تغطي التلال علي تعطيل تقدمنا. كنت أجرجر رجلي من التعب وصرت أترنح ذات اليمين وذات الشمال وكأنني رجل ثمل، إلي أن توقفنا أخيراً بجوار حُفرة علي الأرض.

وقال إبراهيم، الذي كان صامتاً حتي الآن: «هذه هي البقعة التي أشار إليها خالي. فأمكث هنا بهدوء ولا تنزعج. فغداً مساء سأعود بالجمال ونواصل سفرنا بعد ذلك. تركت لك ماء وخبزاً، وحتي ألقاك، سأعود الآن لإجراء الترتيبات اللازمة».

ومرة أخري عدت وحيداً. ومرة أخري سأتعرض ليوم طويل لحرارة الشمس الحارقة. ولكنني سأتحمل ذلك بسهولة فقد لاح الهدف الذي طالما حلمت به لدرجة الجنون.

ثم غابت الشمس وراء الأفق. وبعد ساعة من الإنتظار سمعت صوت وقع للحوافر تتحرك بسرعة علي الأحجار فنهضت ورأيت أحمد عبد الله ومعه رجلين علي ظهور الحمير.

قفز فوراً علي الأرض وضمني بحرارة إلي صدره وقال: « الحمد لله علي سلامتك» ثم أشار إلي رفيقيه: « هؤلاء إخوتي وحضرا معي ليدعوان لك بالتوفيق».

صافحتهما محيياً لهما ثم التفت إلي أحمد وسألته: « لا أفهم سبب معنوياتك العالية هذه...» فقطع كلامي بقوله: «طبعاً لا، لأنك لا تدرك الخطر العظيم الذي نجوت منه. فلتستمع لما أقوله لك. فنقبل ثلاثة أيام علم الأمير الزاكي عثمان، أمير بربر، بطريقة لا أعرفها، بأن الحامية المصرية في المرات قد تلقت تعزيزات هامة وأنها بصدد الهجوم علي أبي حمد. فقام الزاكي عثمان بدوره بأرسال التعزيزات لقواته هناك، وعند ظهيرة اليوم عبر نحو ستين من فرسان المهدية وثلاثمائة من المشاة ديارنا. وأنت تدرك تماماً مايقوم به هؤلاء المتوحشون الذين يسمون أنفسهم بالأنصار. كنا قد ذبحنا كبشاً وبدأنا تجهيز اللحم لتأخذ معك جزءاً منه أثناء الطريق حينما هبطوا علينا فجأة وبدون إنذار وأكلوا كل ما جهزناه لك ثم تفرقوا بحثاً عما ينهبونه. ظللنا في قلق بالغ عليك وخفنا أن يجد أحد هؤلاء المتوحشين طريقه لمخبئك. لعنة الله عليهم فقد ذهبوا عنا الآن والحمد لله علي نجاتك من خطرهم».

وأنا بدوري تواضعت لخالقي شكراً، والذي أنجاني من هذا الخطر الساحق غير المتوقع. وكما علمت فيما بعد فإن الجنرال كتشنر باشا، قائد الجيش المصري كان قد جاء لوادي حلفا لإجراء مناوراته المعتادة بينما قام الكابتن ماشيل بك، ومعه قوة مؤلفة من الآلاي الثاني عشر السوداني ومائتين من فرقة الهجانة، بالتوجه من وادي حلفا إلي

كروسكو عن طريق المرات. وهذا ما ترتبت عليه الإشاعات التي وصلت لأمير بربر بأن المصريين يقومون بتعزيز حامية المرات وأنهم ينتوون الهجوم علي أبي حمد.

وواصل أحمد حديثه: «سيتأخر وصول الجمال قليلاً لأنني كنت قد أبعدتهم عن المكان علي عجل عند حضور الدراويش، خوفاً من مصادرتهم لها لحمل زخائرهم أو متاعهم. فاذا شعرت بأن بأمكانك الصبر علي هذا المكان حتي الغد فسنتمكن من إحضار تموين طازج لك». فأجبته علي الفور: « إنني أريد رغم كل المخاطر أن أتحرك علي الفور وإن نقص التموين لن يؤثر علي قرازي هذا وأرجو أن تصل الجمال بسرعة».

لم يحضروا الجمال إلا بعد أقتراب منتصف الليل. كانت جمالاً ثلاثة. وقام أحمد عبد الله بتقديم الدليلين الجديدين لي: «إبراهيم علي، إبن أخي، ويعقوب حسن، أحد أقربائي، وسيحملونك إلي الشيخ حامد فدي، زعيم عرب العامراب الخاضعين للحكومة المصرية وسيعمل علي توصيلك لأسوان».

ملأنا قربنا وودعناهم بينما قال أحمد بن عبد الله: « أرجوك أن تسامحني لفشلي في تموينك للرحلة، فهي ليست غلطتي. وأظن أن لديك من الدقيق والتمر ما يكفي لطرد الجوع عنك، رغم بساطة هذا الطعام».

ركبنا لثلاثة ساعات ونصف متجهين لشرق الشمال الشرقي قبل طلوع الشمس وعندما لاح الفجر وصلنا إلي الشرق من وادي الحمار، والذي كان خالياً من أي نباتات رغم أن الإسم أطلق عليه لكثرة الحمير البرية التي به. ومضينا قدماً وبدأت الأرض من حولنا تأخذ شكل الصحراء وصارت الرمال في كل مكان ومن حين لآخر تظهر بعض التلال. لكن لم نجد بها أي أثر لنبات أو أعشاب. وبعد مسيرنا ليومين أخرين، بدون توقف تقريباً، وصلنا جبال النوراني التي كان يسكنها من قبل عرب البشاريين. يجري هذا الوادي، بأتجاه الشمال الشرقي في معظمه، بين سلسلة من التلال شديدة الإنحدار حيث تنمو علي جانبيه الأشجار الشوكية ومنه يتفرع أحد الوديان الجانبية الذي تنمو عليه الأشجار، ومنه اتخذت المنطقة إسمها.

نهض إبراهيم علي وصعد علي مرتفع من الأرض إتخذ منه نقطة للمراقبة ولما لم يجد بالوادي أي بشر قمنا بدخوله وسقينا جمالنا علي عجل وملأنا بعض قرب الماء.

كانت البئر واقعة وسط تجويف كبير من الأرض عرضه حوالي خمسة وعشرين ياردة وعمقه حوالي ثمانية عشر قدماً. وقد تم حفرها مائلة بأتجاه المركز. وببطن هذا السهل المنحدر كانت هناك شرائح من الصخور والحجارة تقوم بمهمة السلالم والتي تستخدم للهبوط حتي البئر التي بمنتصف التجويف الكبير. ولما كانت الابار دائماً من الأماكن الجاذبة لتجمع الناس من حولها، فقد غادرنا المنطقة ولم نتوقف للراحة إلا عند السهل، وذلك بعد أن عبرنا تلال النورانية، بعد ثلاثة ساعات.

هناك فرق واضح بين أدلائي الحاليين والسابقين. فقد كان السابقون يتمتعون بالشجاعة والإخلاص للدرجة التي قد يضحون فيها بحياتهم من أجلي. أما الحاليون فكانوا علي العكس منهم. فقد كانوا يكثرون من التذمر ومن واجبهم الذي يبدو أن قريبهم أحمد عبد الله قد أرغمهم علي أدائه وكانوا دائمي الشكوي من الجوع ومن عدم النوم ومن خطورة مهمتهم والتي ستذهب جوائزها لغيرهم. وبسبب من إهمالهم وعدم أكتراثهم تسببوا في ضياع صندلي وعلبة قداحي التي أشعل بها النار أثناء الطريق. وأكثر ما آلمني هو ضياع الصندل، والذي بسببه عانيت الكثير من المتاعب فيما بعد.

وقبل منتصف نهار اليوم التالي (الخميس) بساعة وصلنا إلي بساتين نخيل أبي حمد. ومع أن قبائل المنطقة علي صلة غير ودية مع المهدويين إلا أنني فضلت البقاء مستخفياً. وكان أحمد عبد الله قد أمر إبراهيم علي ويعقوب حسن ليقوداني إلي الشيخ حامد فداي لكن هذا الأمر لم يوافق هواهما. فقد جاءاني وقت العصر ونكرا لي حجم المخاطر التي قد تحيق بهما إذا ما إفتقدهم أهلهم لأيام عديدة وأنه طالما كان من المؤكد أن يعلم الخليفة بكل شيء وأن تحرياته ستقوده إلي إجابة السؤال عمن ساعدني على الهروب، ولأن الشبهات كانت تحيط بقبيلتهم بزعم أنهم علي صلة طيبة بالحكومة المصرية، فأن الخطر البالغ لايهددهم وحدهم فحسب ولكنه سيطول أيضاً صديقي أحمد عبد الله. ثم إختتما

الحديث برجائي أن أسمح لهما بالذهاب لإيجاد رجل معروف لكليهما، ويعيش في هذه المنطقة، ليخرجني من هذه البلاد. وقد أحسست بأن ترددهما هذا سيضر بى أكثر مما ينفعني إذا ما واصلا رحلتهما معي، لذلك وافقت علي العرض الذي قدماه لي بسرور، فقد أصبحا كريهين لدرجة بالغة بالنسبة لي، ورجوتهما الإنتهاء من الأمر بأسرع ما يمكن وبذل كل جهدهما في ذلك.

ولم تغرب الشمس حتي عادا ومعهما الرجل المنشود. كان من العمراب العرب ويدعي حامد جار حوش وقد تجاوز عمره الخمسين من الستين. وبعد أن سلم علي قال بصراحة: « كل منا يسعي لمصلحته وللربح. لقد طلب مني أذلك، الذي أعرفه جيداً، أن أقودك في الطريق إلي أسوان وأنا مستعد لذلك ولكن ما الذي ينالني من أجر مقابل العملية؟» فقلت له: « سأدفع لك يوم وصولي لأسوان مائة وعشرين ريالاً من عملة ماريا تريزا. وإضافة لذلك سأقدم لك هدية تتناسب مع ما تقوم به أثناء الرحلة من الواجبات والمسئوليات المتعلقة بمهمتك» فقال وقد مد يده إلي: « إنني موافق وأشهد الله ورسوله علي ذلك. وأنني واثق منك فأنا أعرف جنسكم. والرجل الأبيض لايكذب. وسأوصلك لأهلك بطريق وسط الجبال لا تعرفه إلا نسور الجو. فكن مستعداً لأننا سنتحرك بعد غروب الشمس».

إخترت أقوي الجمال الثلاثة لأكمل به ما تبقي من الطريق وملأت قربتين من الماء وحملت معي معظم التمر وجزءاً من الذرة لطعامي في أثناء الرحلة. وعندما حل الظلام جاء حامد ود جار حوش.

كان ولده قد توجه بالجمل الوحيد الذي يملكه إلي دار الرباطاب بالقرب من النهر لشراء الذرة لأهله. وبالتالي أضطر حامد لأداء واجبه معي، كدليل، بالمشي علي قدميه. ولما كان الطريق جبلياً وعراً ولم يتمكن جملي من السير إلا بخطوات متمهلة، فإن حالة حامد لم تكن بذلك السوء. وتعلق الأمر بحسن نيته ثم لقوه ساقيه. ودعت إبراهيم ويعقوب بكلمات موجزة ولم يكن هناك شك في أن كل واحد منا كان سعيداً بمفارقة الآخر.

وبعد أن سافرنا لمدة يومين قاطعين، معظم الوقت، تلالاً وصخوراً جرداء، وصلنا صباح الأحد لبئر صغيرة شبه جافة تسمي (شوف العين) ورغم افتراضي بأن أحداً لن يرانا إلا إنني انتظرت دليلي، حسب رغبته، علي مسافة ساعة منها.

تكون طعامنا من التمر ومن الخبز الذي نصنعه بأنفسنا. وأنني أعتذر لاستخدام كلمة (الخبز) هنا لانني مقتنع، رغم أن دليلي إفتخر بحذقه في إعداد ذلك الخبز، تلك المادة والتي قد تثير إشمئزاز خبازينا الأوروبيين سواء من ناحية شكلها أو طعمها. فلكي يتم إعداده قام حامد بجمع كمية من الحصي بحجم بيض الحمام ووضع فوقها الحطب. ثم قام بعجن دقيق الذرة بالماء في حفيحة خشبية وأشعل النار مستخدماً حجر الصوان والقداحة. وعندما احترق كل الحطب أبعد الجمر عن الحصي المتوهج وصب عليه العجين ثم أعاد وضع الجمر من فوق العجين وبعد دقائق أخرج تلك القطع الفنية من قبرها الملتهب وبدأ يضربها بعصا ليزيل عنها الرماد العالق والحصي اللاصق بها ثم جاء بتلك الأرغفة لنتناولها! أكلنا هذا المنتج العجيب بشهية مفتوحة وبفرحة لا بأس بها وتحققت بالفعل من صحة ما تناولته الأمثال الشعبية. وبعد أن إرتحنا لبعض الوقت بارحنا منطقة البئر وبعد ساعات بلغنا أول منحدرات جبال عتباي. وتمتد سلسلة جبال العتباي من البحر الأحمر وحتي نهر النيل، ويقطنها من الناحية الجنوبية عرب البشاريين والعمراب، ومن الناحية الشمالية عرب العبابدة. وما بين الصخور السوداء المرتفعة والعارية من أي نباتات، والتي ترتفع بشكل عمودي عال، تمتد وديان عريضة غزيرة الأشجار يرعي فيها مربوا الإبل من تلك القبائل حيواناتهم.

عبرنا طريقاً صعباً وعراً بمشقة بالغة وبدون توقف، تدفعني رغبتي لرؤية أهلي وأحبائي، وللوصول لنهاية عاجلة لهذه الرحلة المنهكة. ورغم أننا خرجنا من منطقة الخطر، لأننا خرجنا من منطقة نفوذ المهدية ودخلنا الحدود المصرية، إلا أن دليلي واصل إصراره علي أهمية التخفي وألا يرانا أحد. فقد خشي من أن يتعرف عليه أحد من الذين يتاجرون بين السودان ومصر. ولما كان منزله يقع بالقرب من الحدود، وكان هناك ما

يضطره للذهاب كثيراً إلي بربر، فأن إتضاح دوره في تسهيل هروبي سيجر عليه ويلات بالغة الخطورة.

لكنه كان، وبالرغم من ضعف جسمه، قوياً في إرادته ومعنوياته. ورغم تقدمه في السن فقد أثرت على جسمه عوامل نقص الطعام وهذا المشوار الرهيب وصار حساساً للبرد لدرجة سقوطه مريضاً يرتجف. غطيته بجبتي وإكتفيت بالفردة والحزام، بل حملته على الجمل الأربعة أيام الأخيرة حتي نستمر في رحلتنا وقمت بالمشي إلي جانبه أدوس بقدمي العارية علي الأحجار والصخور، بعد أن أضاع دليلاي السابقان حذائي، وكان هذا الدرس بالنسبة لي، من وجهة النظر البدنية، من أصعب ما واجهته طوال رحلتي.

وحتي جملنا إقترب من نهاية تحمله وتقرح جلد قدمه الأمامية وأضاف إلي ذلك إصابة القدم بحجر مدبب الطرف حتي أنه ما كان يمشي إلا بالكاد. قمت بالتضحية بأحد الحزامين الذان معي ولففت الحزام علي أربعة طبقات وصنعت للجمل ما يشبه الحذاء وكان علي أن أجدد اللفافة كل أربعة وعشرين ساعة. تعلمت هذا من ما كنت قد شاهدته عند رعاة الإبل في دارفور لكنهم كانوا يستخدمون قطعاً من الجلد لهذا الغرض وقد نفعتني هذه التجربة وساعدتنا علي إكمال الرحلة.

وأخيراً عند السبت السادس عشر من مارس ١٨٩٥، وفي الصباح عند الشروق، ونحن نهبط من فوق التلال، رأيت النيل ومدينة أسوان التي ترقد علي شاطئه. ولا أستطيع أن أصف مشاعر الفرح الذي غمرني، فقد إنتهي كربي ونجوت من قبضة البرابرة المتعصبين، وشاهدت عيني للمرة الأولي منازل الناس المتحضرين في بلد يحكمه القانون وعدالة الحكام. وتوجه قلبي نحو الخالق شاكراً له حمايتي وإرشادي بيده الرحيمة.

تم استقبالي بأعظم مشاعر الود من قبل الضباط الإنجليز، الذين يعملون في خدمة صاحب العظمة الخديوي، ومن الضباط المصريين، والذين تلقوا للتو نباء وصولي المدهش لهم وتنافسوا مع بعضهم البعض في تقديم كل ما وسعهم من خدمات تخفف عني الذكريات التعسة والكروب والآلام التي مررت بها.

وقد قام قائد الجيش ومدير الحدود الكولونيل هنتر باشا، والذي تصادف حضوره لأسوان لحظة وصولي، وسائر ضباطه الميجر جاكسون وسيدني وما شل بك والبكباشي واطسن وضباط آخرون لا أستطيع تذكر أسمائهم هذه اللحظة، بفتح خزائن ثيابهم ووضعها تحت تصرفي بكرم بالغ وانتهزت هذه الفرصة وذلك الكرم الفياض وأخذت ما كان ضرورياً لي. لكنني وقبل أن أغير ملابسي استأذنني صديقي الحميم واطسن، وهو فنان مرموق، ليرسم لي صورة بالجبة وهو طلب سررت باجابته.

وبالنسبة لدليلي حامد جار حوش، فقد قمت بالإستعانة بزميل قديم هو بطرس بك سركيس، والذي يعمل الآن نائباً للقنصل البريطاني في أسوان، وسلمته في الحال مبلغ المائة وعشرين من ريالات ماريا تريزا. كما سلمته أيضاً هدايا أخري من نقود وسلاح وملابس إضافة لما قدمه له هنتر باشا من هدية نقدية بلغت عشرة جنيهات إنجليزية كرمز وعرفان بوصولي علي يديه سالماً. وبهذا، وبعد أن أصبح فجأة (رجلاً ذا شأن) ودعني بحرارة ورحل.

وبعد وقت قصير بدأت تلغرافات التهنئة تنهمر علي. وكان أولها من الميجر لويس بك نيابة عن نفسه وعن حامية وادي حلفا. والثاني من رئيس الوكالة الدبلوماسية النمساوية في مصر، البارون هايدلر فون إقرق والذي استمات في سبيل العمل لإنقاذي ثم آخر من صديقي العزيز الميجر ونجت بك. أما أول من إلتقيته من أبناء بلدي فكان البارون فكتور هرنج وأولاده، الذين كانوا في رحلة علي نهر النيل، وحيوني بحرارة بالغة.

وتصادف أن كانت باخرة البوستة الخديوية ستتحرك عصر ذلك اليوم وتم الحجز لي بالإبحار فيها لمواصلة رحلتي. قام كل الضباط بمرافقتي للباخرة وسط أنغام النشيد الوطني النمساوي (الذي عزفته فرقة الكتيبة السودانية) مما أجري الدمع غزيراً في عيوني. وصعدت سلم الباخرة وسط هتافات كثيرين من سواح الدول المختلفة الذين تجمعوا لتحيتي علي ضفة النهر.

تأثرت لهذا الموقف وفاضت دموعي. ورغم أنني، في كل ما مر بي، كنت متمسكاً بمعايير الشرف، وأنا واثق من أن أي ضابط سيتمسك بها لو كان في مثل موقفي، فأنني لم أفعل ما استحق به هذا التكريم والتعاطف الشعبي وغمرني شعور بالتواضع الشديد.

سافرت بصحبة مانصل بك، والذي يقود الفرقة السودانية الثانية عشرة والذي كان لتحركه أثناء المناورات من وادي حلفا إلي كروسكو عن طريق الممرات، ما سبب أكل الأنصار لمؤنتي، واعتمادي طوال الرحلة في الصحراء علي الزاد البسيط الذي كان معنا. فانتقمت منه بأن أرغمته علي الاستسلام دون قيد أو شرط لكل طلباتي من الطعام والشراب وعلي حسب مزاجي فقابل هذه التضحيات بطبع سمح وبسلوك عسكري منضبط.

وعندما وصلنا مساء الأحد إلي الأقصر صرت مرة أخري هدفاً لمظاهر حميمة من التعاطف والتقدير من كافة الرحالة الأوروبيين وقد تسلمت هنا، عن طريق البارون هايدلر، تلغرافاً من أخواتي العزيزات ومن أهل مدينتي فيِّنا: أخواتي ومدينتي! يالحلاوة هذه الكلمات وموسيقاها العذبة!

وفي الخامسة من عصر الإثنين وصلنا إلي جرجا وهي أقصي المحطات الجنوبية التي تصلها القطارات المصرية ومنها بالقطار إلي القاهرة التي وصلناها في السادسة من صباح الثلاثاء التاسع عشر من مارس. وبالرغم من هذا الوقت المبكر فقد جاء لإستقبالي بالمحطة كل من البارون هايدلرفون إيقرق، مع موظفيه، والقنصل النمساوي الدكتور كارل رترفون قوراكوتشي. وكان هناك أيضاً صديقي العزيز ونجت بك والذي لا أستطيع إيفاءه حقه من العرفان سواء بالقول أو بالعمل. كان هناك أيضاً مراسل التايمس والأب روزينولي مع عدد آخر من الناس، وبالطبع مصور فوتوغرافي لأخذ الصور.

ركبنا وتوجهنا صوب الوكالة الدبلوماسية النمساوية، حيث ظللت لمدة طويلة ضيفاً للبارون هايدلر والذي بذل جهداً ضخماً من أجل نيل حريتي، والذي لم تحركه دوافع كونه ممثلاً للحكومة، يؤدي واجبه المفروض، بل كانت تحركه عاطفة عميقة من معاناة أحد بني جلدته، المكبل بمرارة وبؤس الأسر في ذلك البلد.

وعند وصولي وجدت غرفي مزينة بأعلام وطني العزيز ومكتظة بباقات الورود والأزهار بينما كتب علي الباب: « تحية قلبية لوصولك علي الرحب والسعة للوطن». وفي نفس اليوم تسلمت برقيات التهنئة من عائلتي وأصدقائي وزملاء الدراسة ومن عدد من الصحف كما لقيت ترحيباً قلبياً من صاحب السمو الملكي الدوق فلهلم فون فور تمبرح ومن صاحب المقام السامي الأمير الجنرال لويس إسترهازي، وكان كلاهما مشتركين في حملة البوسنة عندما كنت أحارب بها مع كتيبتي واللذان أسبغا علي الشرف بتعبيرهما عن تعاطفهما العميق معي أثناء المصاعب التي مررت بها، وعن فرحهما بنجاح هروبي أخيراً من قبضة ذلك الطاغية الخليفة. كما تم إستقبالي، بعد وصولي، بواسطة عظمة خديوي مصر والذي أنعم علي برتبة الباشوية. لقد دخلت السودان قبل ستة عشر عاماً كملازم أول بالجيش النمساوي، وعندما عينت مديراً لدارفور منحت رتبة القائم مقام بالعسكرية المصرية، والآن، وبعد عودتي، ترقيت لرتبة الأميرلاي وتم الحاقي بمصلحة المخابرات الحربية المصرية.

وبعد بضعة أيام من وصولي، وعندما كنت جالساً علي شرفة الوكالة النمساوية، نظرت أسفل مني إلي الحديقة والتي إزدانت بخضرة الربيع عندما شاهدت طائر مالك الحزين يتجول بهدوء بين أحواض الزهور، وفي الحال تذكرت فالزفاين، أسكانيا نوفا، توريدي بجنوب روسيا. فأسرعت لغرفتي وهناك كتبت له سرداً مطولاً عن طائر الكركي الذي أطلقه عام ١٨٩٢، والذي قتل في دار الشايقية. ولقد كان سروري عظيماً لتمكني من إعطاء صاحبه وصفاً دقيقاً لما حدث لطائره. وما أسرع ما تسلمت رد المستر فالزفاين، والذي يمتلك ضيعة كبيرة في القرم، يشكرني من خالص قلبه لخطابي له ويدعوني لزيارته والتي لسوء الحظ لم ألبيها لكثرة زواري وضيق الوقت المتاح لي.

وقد غمرتني دوامة من الزيارات الرسمية والشخصية، والدعوات العديدة، والواجبات الإجتماعية الأخري، وشغلت وقتي لدرجة أن عدة أسابيع قد إنقضت قبل أن أبدأ القيام بأي عمل جاد. وكان أول واجباتي هو أن أقوم بالطبع بتقديم تقرير رسمي مفصل لرؤسائي الحربيين ولم أتمكن إلا بعد مرور وقت طويل من البدء في وصف قصة حياتي خلال الستة عشر عاماً الأخيرة.

وقد انتهز صديقي القديم، ورفيقي في الأسر، الأب أورفالدر، والذي يعمل بالتبشير في سواكن الآن، أول فرصة للحضور للقاهرة لتحيتي والترحيب بي. كان لقاءنا بهيجاً حقاً وسعدت للفرصة التي أتاحها لي لشكره شخصياً لمساعدته في الجهود التي انتهت بفراري من الأسر.

وكان للتناقض بين وضعي السابق وحالتي الحاضرة، وللانطباعات الجديدة التي تأثرت بها، والتغييرات المتعددة التي أراها من حولي، ما يجعل رأسي يدور ويثقل. يصبح رأسي ثقيلاً وكأنني استيقظت للتو من قبضة كابوس مفزع. إثنتي عشرة سنة من الأسر، يا له من حلم طويل مخيف!

ومر وقت طويل قبل أن تتبدد تلك الأفكار المثيرة والمزعجة. وبالتدريج بدأت أعود لهدوئي وأرتب أفكاري. فها أنا الآن من جديد أعيش وسط مجتمع متمدن، ومرة أخري أكون رجلاً بين الرجال، لكنني أعود دائماً إلي أولئك البرابرة المتعصبين الغلاة الذين كتب علي أن أعيش بينهم طويلاً. أعود لأيام الخطر والمعاناة التي مررت بها وسطهم وأعود لزملائي التعساء الذين لازالوا في الأسر، وإلي الأمم المستعبدة في تلك الأصقاع النائية فأشكر الله الذي قادتني يده الحانية إلي النجاة والخروج سالماً من كل ما مر بي من خطر.

***

الباب التاسع عشر

الخاتمــة

«إفريقيا، الماضي والحاضر - السودان، الماضي والحاضر - نشأة ونمو المهدية وتدهورها - كم ستستمر؟ - الوضع الحالي للخليفة - التغول الأوروبي - ظهور البيض في بحر الغزال - الأهمية الاستراتيجية للمديرية - الزمن وتياره لاينتظران أحداً - استعدت سيفي القديم الذي ضاع مني - كلمة أخيرة».

خلال أكثر من ستة عشر عاماً في إفريقيا، منها إثنتي عشرة سنة من الأسر، كنت خلالها بمعزل عن الإتصال بالعالم المتحضر، واتاني الحظ بالعودة إلي أوروبا. وكم تغيرت إفريقيا خلال تلك الفترة ! وكيف صارت المناطق التي غامر بحياتهم فيها رجال مستكشفون أمثال لفنجستون وسبيك وجرانت، وبيكر وستانلي وكمرون، وبرازا وينكر وشفاينفرث، وهولوب ولنز ومئات غيرهم، مفتوحة لرياح التحضر والمدنية. ففي معظم تلك الأصقاع، والتي كانت المستكشف يواجه فيها أعظم الخطر، شيدت الآن المحطات العسكرية والمراكز التي توفر الأمن له وتسهل التبادل التجاري والذي يزداد نموه يوماً بعد يوم. فمن الشرق نجد إيطاليا وإنجلترا وألمانيا، ومن الغرب ولاية الكنغو الحرة وفرنسا وانجلترا، نجدهم يوسعون يومياً مناطق نفوذهم وأصبحوا الآن علي وشك وضع أيديهم علي بعضهم البعض في وسط إفريقيا. وأصبحت القبائل المتوحشة، والذين هم أقرب للحيوانات منهم للإنسان، تتعرف علي مناحي الحياة وضرورياها وبدأوا يعرفون أنهم بشر لهم قدرات عقلية أكبر مما يتصورون، وأنهم، من خلال وسائل وامكانيات المدينة الحديثة، يمكن أن يكونوا قوة لاتقهر حتي من قبل الدول الخارجية. ولابد للولايات الإسلامية الشمالية المستقلة مثل وداي وبرنو وممالك الفلاتة أن تضطر عاجلاً أم آجلاً لعقد تحالفات مع بعض القوي المتقدمة وأن يعلموا تماماً أنهم بدون هذا الطريق فلن يستمر حكمهم الوراثي طويلاً.

وفي وسط إفريقيا، بين الأقاليم التي ذكرتها للتو بين القوي الزاحفة من الشرق والجنوب والغرب، يقع السودان المصري سابقاً، والذي يحكمه الخليفة عبد الله الآن

كالزعيم المستبد للدولة المهدية. ولايجرؤ أوروبي علي الاقتراب من أرضهم، المعزولة تماماً عن تيار الحضارة، والتي تمتد بطول نهر النيل جنوباً إلي الرجاف ومن كسلا شرقاً حتي حدود وداي غرباً، وإلا فسيكون مصيره الموت أوالحبس مدي الحياة. ومن الغريب أن كل هذا الوضع البائس حدث في فترة قصيرة لا تتجاوز العشرة سنوات. فلأكثر من سبعين عاماً، ومنذ أيام محمد علي، ظلت البلاد تحت الحكم المصري، وتم فتح أبوابها لرياح الحضارة والتقدم. وكان التجار المصريون والأوروبيون منتشرين في المدن الرئيسية. وفي الخرطوم نفسها كان للدول الأجنبية ممثلون بها وكان الرحالة والسياح من كافة جنسيات العالم يتنقلون، بدون أن يلحقهم أي ضرر، في أنحائها ويجدون من السلطات الحماية والعون. وسهلت خدمات التلغراف والبريد الإتصال حتي بالمناطق النائية البعيدة وكانت المساجد والكنائس ومدارس المبشرين ترعي شئون التعليم الديني والمدني للصغار. وكانت البلاد من قبل موطناً للعديد من القبائل، والتي تعيش في نزاع دائم مع بعضها البعض حتي أرغمت علي المحافظة علي السلم بسبب قوة الحكومة ونفوذها.

رغم ذلك فقد عم السخط أنحاء البلاد. وقد أوضحت من قبل كيف تسبب سوء الإدارة الحكومية، وجشع وفساد موظفيها، في تمهيد الطريق للثورة والإنتفاضة. وقد أوضحت كيف تلمس محمد أحمد المزاج الشعبي واستوعبه وإستغله في تنفيذ ما إحتواه. فقد كان يدرك تماماً بأن لاشئ سوي عامل الدين يمكن أن يوحد تلك القبائل المتنافرة. فأعلن لهم بأنه مهدي الله المكلف بتطهير البلاد من قبضة الحكم الأجنبي، وبإحياء ما إندثر من تعاليم الدين. وبذلك تمكن من تفجير طاقات التعصب الديني والذي سيطر، بوهج لهيبه الطاغي، علي التاريخ الأسود للإثنتي عشرة سنة الماضية، وغمره حتي الثمالة. ولو لا ذلك التعصب لما نجحت تلك الثورة أبداً ولكن، وبسببه، اشتعلت نيران الحروب وإتقد الحماس الديني لدرجة لانجد مثيلاً لها إلا في القرون الوسطي أو حتي ما قبلها من قرون.

وقد حاولت في السرد السابق لحياتي ومغامراتي، وسط دوامة أحداث هذه الحركة الدينية العملاقة، أن أتتبع خطوة بخطوة، وبإختصار، الأسباب الرئيسية التي قادت إلي

الوضع الراهن، الذي تغير كثيراً عما كان عليه عندما كان المهدي وخليفته في ذروة قوتهما. وعلي أية حال فلا بد من تناول الوضع باحتراس وروية، وبمعرفة عميقة بكافة التفاصيل حتي يتسني لمن يهمه الأمر أن يستوعب بدقة بالغة الظروف المواتية واللازمة لإعادة الحضارة والتمدن لهذا الإقليم الشاسع والذي إنحدر الآن إلي درجة لاتوصف من التفسخ الديني والأخلاقي.

أمامنا في السودان نموذج بشع لحضارة بدائية لم تنضج بعد، تمزقت فجأة بواسطة قبائل متوحشة جاهلة تتسم بالقوة، ثم قاموا بعدها بالبناء علي الأنقاض المبعثرة، لشكل من الحكومة يسير علي نفس النمط الذي كان موجوداً من قبل، ولكن بعد أن أزالوا عنه أي رموز للحق والعدل والأخلاق، وأحلوا محلها حكماً ظالماً بربرياً عنيفاً ومنعدم الأخلاق. ولا أستطيع أن أتذكر أي حالة لبلد في هذا الزمن المتحضر، نشأت فيه وترعرعت لما يزيد علي الخمسين عاماً أشكالاً من الحضارة، ثم سقط إلي حالة لا ترتفع إلا قليلاً عن مستوي البربرية المطلقة.

ولكن لنستعرض للحظة ما هية هذه القوة الجديدة التي نمت فجأة والتي تبدو للعالم الأوربي بأنها العقبة الوحيدة التي تحول دون جهودهم في الإعمار والتمدن والذي قطع في السنوات الأخيرة خطوات مذهلة في كافة أنحاء القارة الأفريقية تقريباً.

وقد شرحت كيف أنه، وعند بداية صعود المهدي وقوته، كيف كانت البلاد كلها معه قلباً وروحاً. وكيف تراخي ذلك الحماس المتقد تدريجياً بعد وفاته، وحل محله قوة جديدة سيطرت تحت عباءة الدين، وبقسوة بالغة مستهترة من قبل الخليفة وأعوانه من قبائل الغرب، والذين حلوا محل المصريين في الحاميات التي دمروها، علي السكان التعساء وحكموهم بقبضة من حديد وبنوع من القهر والطغيان جعلهم يتطلعون لعودة أي نوع من الحكومات يمكن أن تحقق لهم الأمن والسلام. ولا داعي لإعادة ما ذكرته من قبل من ضروب الأهوال والمصائب التي أنزلها الخليفة وأعوانه بمنافسيهم حتي لايخرج الحكم من أيديهم. ولكن يكفي القول بأن خمسة وسبعين في المائة من جملة السكان قد سقطوا من

وطأة الحروب والمجاعة والمرض. أما من تبقي منهم فهم في معظمهم أقرب للعبيد في الوقت الذي إزدهرت تجارة الرق، تلك الكارثة الماحقة، وترعرعت. وكان من بين ضحاياها الكثيرون من نصاري الحبش والشوام والأقباط والمصريين.

***

لم تتغير حدود البلاد التي يحكمها الخليفة الآن عما كانت عليه أيام الحكم المصري إلا قليلاً. فما الذي تغير؟ لقد تحولت بعض الأقاليم المزدهرة المأهولة بالسكان إلي صحاري قاحلة. وهجرت السهول الواسعة التي كان عرب الغرب يتجولون فيها وأخلت المكان للحيوانات الوحشية أما مواطن سكان وادي النيل فقد إحتلها الآن أولئك العرب المتجولون والذين طردوا منها سكانها الشرعيين أو إسترقوهم وسخروهم لفلاحة الأرض لمصلحة سادتهم الجدد. وقد حرموا من وسائل الدفاع عن النفس، وحولهم القهر والاستبداد لوضع يئسوا فيه من أي أمل في إنقاذهم بواسطة القوي الخارجية، وشلت قدرتهم علي المقاومة وأصبح من بقي من أهالي النيل في حال لايزيد كثيرا عن حال العبيد. فما الذي يمكنهم عمله ضد حكامهم الطغاة؟. من الحماقة أن نتخيل بأن ثورة داخلية ستنشب ولذا فلا أمل إلا في تدخل خارجي. وفي هذه الحالة فعلي جماهير الشعب أن تدرك بأنه عندما تبدأ أول الخطوات لاقامة وترسيخ سلطة الحكومة من جديد فلن تكون هناك إنتكاسة أخرى. عليهم أن يعرفوا تماماً بأن سلطان الخليفة قد أوشك علي الزوال وأن عصراً من التمدن في طريقه إليهم. وفي تلك الحالة، وليس قبل ذلك، فأنهم من صميم فؤادهم سيلقون بثقلهم مع القوات المتقدمة وسيعملون علي دعمها ومساعدتها في تحطيم قوي الإمبراطورية المهدية الواهنة. ورغم ماذكرته، فعلينا ألا نتوقع إندحارها خلال وقت قصير. وإذا تمعنا في الأبواب السابقة لهذا الكتاب فسيتبين لنا بأن الإجراءات التي إتخذها الخليفة لدعم مكانته وتقويتها ضد أعدائه بالداخل كانت ناجحة وفعالة للغاية. وإذا إفترضنا بأنه نجا من أي تهديد خارجي لسلطته، فأنني لا أري سبباً، طالما بقي حياً، يمنعه من توريث السلطة لسلالته. أما إذا مات، فمن المؤكد نشوب إضطراب داخلي عنيف والذي يمكن، تحت

ظروف معينة، أن ينهي هذا النظام الحاكم المتداعي. لكن هذا لايعني إقتراب هذه الدولة غير المحظوظة من التأثيرات الحضارية بأكثر مما هي عليه الآن. فاذا أخذنا كل هذا في الإعتبار فلابد إذن من الاستعانة بالدعم الخارجي.

لكن هذا الإفتراض النظري قد لاينطبق بالضرورة علي الحالة تلك. وعلي الذين يرغبون في دراسة (حالة السودان) عليهم ألا ينظروا إليه كما كان في أيام الخديوي إسماعيل باشا عندما كان الوجود الحضاري ممثلاً فيه بالحكومة المصرية، في الوقت الذي كانت مختلف البلاد الواقعة وراء منطقة النفوذ المصري إما بلاداً بربرية أو وثنية، لم يعرفوا فيها أوروبياً قط، ولم يتسلل إليها من صائدي الرقيق العرب إلا عدد قليل. لكن هذا الوضع قد إنعكس تقريباً. فالدولة المهدية التي تحدثت عنها من قبل أصبحت عقبة لا تحتمل ومنعدمة الأمن لدرجة بالغة الخطورة. فالسودان الذي كان متحضراً نسبياً أصبحت تسيطر عليه الآن قوة همجية معادية لكل من النفوذ الأوروبي والعثماني وهي تقفل الطريق من السهول الوسطي الافريقية، وعبر وادي النيل، إلي البحر الأبيض المتوسط. وقد أقفلت مناطق كانت هادئة مسالمة يوماً ما ومفتوحة للتجارة والنفوذ الحضاري. أما مختلف الدول التي تجاوره فهي تنفتح الآن تدريجياً علي العالم الخارجي وصار التواصل بينهم أكثر سهولة وأخذت التجارة فيها تزيح العقبات عن طريقها ولم تعد حياة الإنسان في خطر فيها من جراء الحماية التي أسبغتها عليها الحكومات الأوروبية، وبدأت أجناسها المتوحشة من البشر تدرك حماقة إعلان الحرب علي عوامل التحضر الزاحفة عليها.

وحتي نخرج من التعميم إلي التفصيل فعلينا أن نسأل السؤال التالي: « كيف نجد الوضع الراهن في السودان؟». فعلي الشرق نجد أن النفوذ المصري قد بدأ ببطء وبطء شديد، في إستعادة ما فقده من الأراضي المحاذية لسواكن وطوكر. وعلي الجنوب الشرقي إستولي الإيطاليون علي كسلا وأرغموا المهدويين علي إتخاذ مواقع دفاعية حصينة غرب نهر عطبرة. وإلي الجنوب قليلاً نجد أن الأحباش لايبدون نية لتغيير علاقاتهم، التي كانت سارية من قبل، بينهم وبين الدراويش. وفي المناطق الجبلية بفازوغلي والنيل الأزرق نجد

أن الأهالي قد تحرروا من الولاء للخليفة، أما بعيداً في الجنوب، وعند منابع النيل، فنجد أن النفوذ الإنجليزي بدأ يعلن عن وجوده في تلك المناطق والتي حاز فيها سبيك وجرانت وبيكر وآخرون غيرهم شهرة عالمية لاكتشافاتهم المذهلة ولجهودهم ضد الرق وتجارته، وهي مناطق سيتم ربطها بالساحل، قبل مرور وقت طويل، بالسكة حديد والتي ستفتح، ليس فقط المناطق التي تعبرها، بل ستخلق مخرجاً لتجارة جنوب الإستوائية وماجاورها من دول. وبعد الحديث عن هذه الممتلكات البريطانية تأتي ولاية الكنغو الحرة والتي قفزت، خلال السنوات القليلة الماضية، خطوات عملاقة بتوسيع مناطق نفوذها في أقاليم شاسعة هناك، ليس فقط في مبومو وأوبانجي، بل في مناطق ببحر الغزال وفي الإستوائية، وعلي مسافة قريبة من النقطة المتقدمة للدراويش في الرجاف على وادي النيل. ومن ورائهم نجد أن طلائع الفرنسيين المغامرين يعملون علي ترسيخ دعائم أحلامهم الإستعمارية في مناطق الهاوتي - أو بانقي وما جاورها مثلما حققوا ذلك مؤخراً في أنحاء مختلفة من إفريقيا. وفي أقصي الشمال يبدأ النفوذ المصري، والذي أصبح الخليفة عبد الله يخشاه تدريجياً، والمرشح لأن يكون أول من يتدخل في شئون إمبراطوريته.

هذا هو باختصار الوضع الدفاعي والهجومي للدولة المهدية حالياً. فبالرغم من قوة الدولة الهائلة داخلياً إلا أنها مهددة من كافة جوانبها بقوي أجنبية متقدمة ولايوجد أدني شك بأنه إذا ما تقدمت أياً من تلك القوي مهاجمة للسودان فإن امبراطورية الخليفة ستتهاوي وتنهار. ولكن ماذا بعد ذلك؟ هل تعود مصر وتصبح مرة أخري المالك الحقيقي للأرض كما كانت من قبل؟ وهل تدرك تلك القوي للدول المتحضرة، والمتقدمة الآن، وبدون أنانية، بأنها إذا ما أسست لنفسها وجوداً راسخاً علي ضفاف النيل المفتوح للملاحة، فلن تحاول أن تقطع أو تنقص كمية المياه، التي تمنح الحياة لمصر، عن طريق تنفيذ وادخال تقنيات متقدمة لإستخدامات الري في المناطق التي قد تسيطر عليها؟ وهل سيتخلون عن المزايا التي قد يؤمنونها ببذل الدم والمال، وبدون أنانية، من أجل أن تعود لمصر حقوقها المشروعة؟ كل هذه الأسئلة تقع في دائرة السياسات الراهنة للدول والتي هي ليست من

إختصاصي في هذا المجال. فأنني أعبر فقط عن أرائي بأهمية السودان وقيمته بالنسبة لمصر وبهذا الصدد فأنني أؤمن تماماً بما أقول. فلا زالت الأسباب التي دفعت محمد علي، قبل ثلاثة أرباع القرن، للإستيلاء علي السودان، باقية كما هي حتي الآن. ولما كان نهر النيل هو شريان الحياة لمصر، لذا يجب بذل كل جهد ممكن للحفاظ علي النيل بعيداً عن التدخل. وبالتالي فإن أي تقدم لدولة متمدنة باتجاه هذا المجري المائي العملاق سينظر إليه بعين الريبة والتوجس من قبل تلك السلطات الواعية تماماً بالخطر الذي قد يجلبه خلق مستعمرات علي شاطئيه تسعي لتحقيق مصالحها الخاصة وتضعها فوق المصالح المصرية، ولرفاهيتها قبل رفاهية المصريين.

وقد تناولت هنا وهناك في الصفحات السابقة شيئاً عن أهمية بحر الغزال وربما لا أكون قد تجاوزت مقاصد هذا الكتاب إن كررت مرة أخري التذكير بالموقع الفريد الذي تحتله هذه المديرية بالنسبة لبقية السودان. إنه إقليم شديد الخصوبة ويمتد لمساحات شاسعة ويروي من شبكة من المجاري المائية وتغطيه التلال والغابات التي تمور فيها الأفيال. أما وديانه المنخفضة فهي عرضة للغمر بالمياه. وأرضه طيبة للغاية تنتج ألواناً من القطن والمطاط وتنتشر فيها قطعان الماشية. وأنني أقدر سكانها لمابين خمسة إلى ستة ملايين نسمة وهم مؤهلون ليكونوا جنوداً مبرزين. أضف لهذا أن العداوات بين قبائله المختلفة قد منعت تضامن السكان أو إنصهارهم في كم واحد. ومن هنا سهل على الأجانب تكوين الثروات في هذا الإقليم وإنشائهم لجيوش ذات كفاءة ومقدرة خاضعة لهم.

وميناؤها النهري هو مشرع الرق. وإلى هذا المكان كانت البواخر تأتي دورياً من الخرطوم، رغم أنها تعاني من التعطيل والتأخير من وقت لآخر بسبب النباتات الطافية على النهر والتي تسد المجري أمام مرورها بأعالي النيل. وعلى الجنوب من فشودة مباشرة يخرج النهر من مكان قد يعتبر مهداً لبركة قديمة ومن خلال تلك المستنقعات الواسعة ينبثق عدد لايستهان به من النهيرات الملتوية والتي تقفلها السدود بأعشابها. وخلال هذه العوائق الضخمة لايجد الرحالة أو المسافرون بداً من شق طريقهم في النهر باستخدام السيوف

والفئوس. ولقد تعطلت بعثة السير صمويل بيكر (١٨٧٠ - ١٨٧٤) لعام كامل من جرائها.

من هنا نجد أن الموقع الجغرافي والإستراتيجي لهذه المديرية، بالنسبة لبقية أجزاء السودان، يجعل حيازتها واستلامها علي درجة كبيرة من الأهمية. فحضور الأجانب إليها، غير مكترثين باحترام المصالح المصرية، وبسيطرتهم علي الموارد الهائلة التي بها، ذات القيمة العالية من الموارد والرجال والتي تفوق ما بأي مديرية أخري في وادي النيل، فإن هذا سيضعهم في موقف قوي مسيطر يمكن أن يهدد أي محاولة لمصر لاستعادة أملاكها الضائعة.

وقد وصفت من قبل كل ما أعرفه عن تحركات الأوروبيين في هذه المناطق. ومن الممكن أن تلاقي أي محاولة منهم للوصول إلي النيل، عن طريق مشرع الرق أو البحر الأحمر أو بحر العرب، بالقوة، مقاومة من جانب المهدويين. ولكن إذا ما أدارت تلك القوي عملياتها بإتقان، فقد يؤدي ذلك بالقطع لضياع المديرية منهم.

ولو علم الخليفة بأن أولئك البيض ببحر الغزال لهم قوة أكبر مما قدرته المعلومات المتاحة له فربما يدخل في صراع معهم وسيضطر في هذه الحالة إلي إرسال التعزيزات من أم درمان، وهو أمر في غاية الصعوبة بسبب إستنزاف موارده لقيامه بدعم قواته الضخمة المتمركزة في مناطق نهر عطبرة المواجهة لكسلا وقواته بدنقلا.

وبالعودة إلي وضع الدراويش في دارفور وكردفان فيجب أن نلاحظ أن القوة الحالية لدي الأمير محمود قد تصل لعدة آلاف من حملة البنادق والحراب. هذه القوة متشتتة ما بين حاميات الفاشر وشكا والأبيض. أما محمود نفسه فيقيم بالفاشر مع معظم قواته وهو في معارك مستمرة مع القمر والمساليت والتاما والبني حسين وقبائل أخري بأقاليم كبكابية وكلكل. وقد قتل قبل وقت قصير أحد ضباط محمود (فضل الله) وتمت هزيمة جيشه المكون من ستمائة رجل هزيمة بشعة في صراعه مع تلك القبائل الثائرة. وفي الوقت الذي غادرت فيه أم درمان، صدر الإذن لمحمود لإرسال قوة من الفاشر لتأديبهم ويبدو أنهم نجحوا نسبياً في حملتهم. ورغم أن تلك القبائل مستقلة إسمياً إلا أنها موالية بطريقة ما لسلطنة وداي. لذا فمن الخطأ الإفتراض بأنهم يعملون تحت راية رابح الزبير، وعداوته

لسلطنة وداي معروفة، حيث أن سلطته لا تمتد بهذا القدر نحو الشرق ويبدو أنها مركزة الآن في الأقاليم الواقعة جنوب وجنوب غرب بحيرة تشاد.

وهكذا كانت أحوال تلك الأقاليم الجنوبية والغربية عندما فارقت السودان. ومنذ وصولي لهذا البلد المتحضر إطلعت علي كثير من التقارير الغربية والمتناقضة التي جاءت في الصحف والخاصة بالوضع في تلك الأقاليم البعيدة. وبالرغم من توافقها مع الرأي القائل بأن أي زحف لقوات متمدنة على السودان سينتهي بانهيار الأمبراطورية المهدية، إلا أنني أشعر بأن موقعي الفريد، الذي كنت فيه في قلب تلك السلطة، يبرر قيامي بكلمة تحذير للدولة التي عملت لسنوات طويلة لحفظ مصالحها، والتي أحلم باليوم الذي تنتشر فيه الرفاهية والطمأنينة في سودان مصري تمت استعادته. هذه الكلمة التي سأشدد على إيصالها لهم هي أن الوقت وتيار الأحداث لاينتظران أحداً. وأنه بينما تتطلع بأعين مشتاقة لإستعادة مديرياتها الضائعة، فإن هناك دائماً إحتمال لسقوط مديرياتها بأيدي آخرين لن يسهل عليها إقتلاعهم مثلما قد تقتلع الخليفة. وأن هؤلاء القوم الآخرين قد يستخدمون مهاراتهم الهندسية للتدخل في مياه النيل، صانع الحياة لمصر، مما يهدد حتي مجرد وجودها، وحتي لو قاموا بأخف الضررين، فقد يحرمون مصر من مغانم التجارة وفوائدها الجمة والتي إذا ما تمت في ظروف إدارية عادلة وحكيمة، قد توفر الثراء والرفاهية لكل من مصر ومديرياتها المستردة.

وبهذه الكلمات البسيطة والنصائح التي وجهتها للدولة، التي غمرني الفرح بالعودة لخدمتها، بعد إثنتي عشرة سنة في الأسر، أنهي هذه الرواية. لكنني قبل أن أختم، فسأحكي لكم عن حادث واحد، والذي لو كنت مؤمناً بالخرافات، لاعتبرته بشيراً بعودة ما ضاع من قبل. فخلال ديسمبر ١٨٨٣.، وعندما أجبرتني الظروف القاهرة علي الإستسلام للمهدي، تم تجريدي من سيفي النمساوي الطراز والذي تسلمته عندما إنضممت للجيش النمساوي وقد كان إسمي منقوشاً عليه بأحرف عربية. وفي أغسطس ١٨٩٥م ، عندما جئت لندن لحضور المؤتمر الجغرافي قام المستر جون كوك الأكبر، من شركة توماس كوك

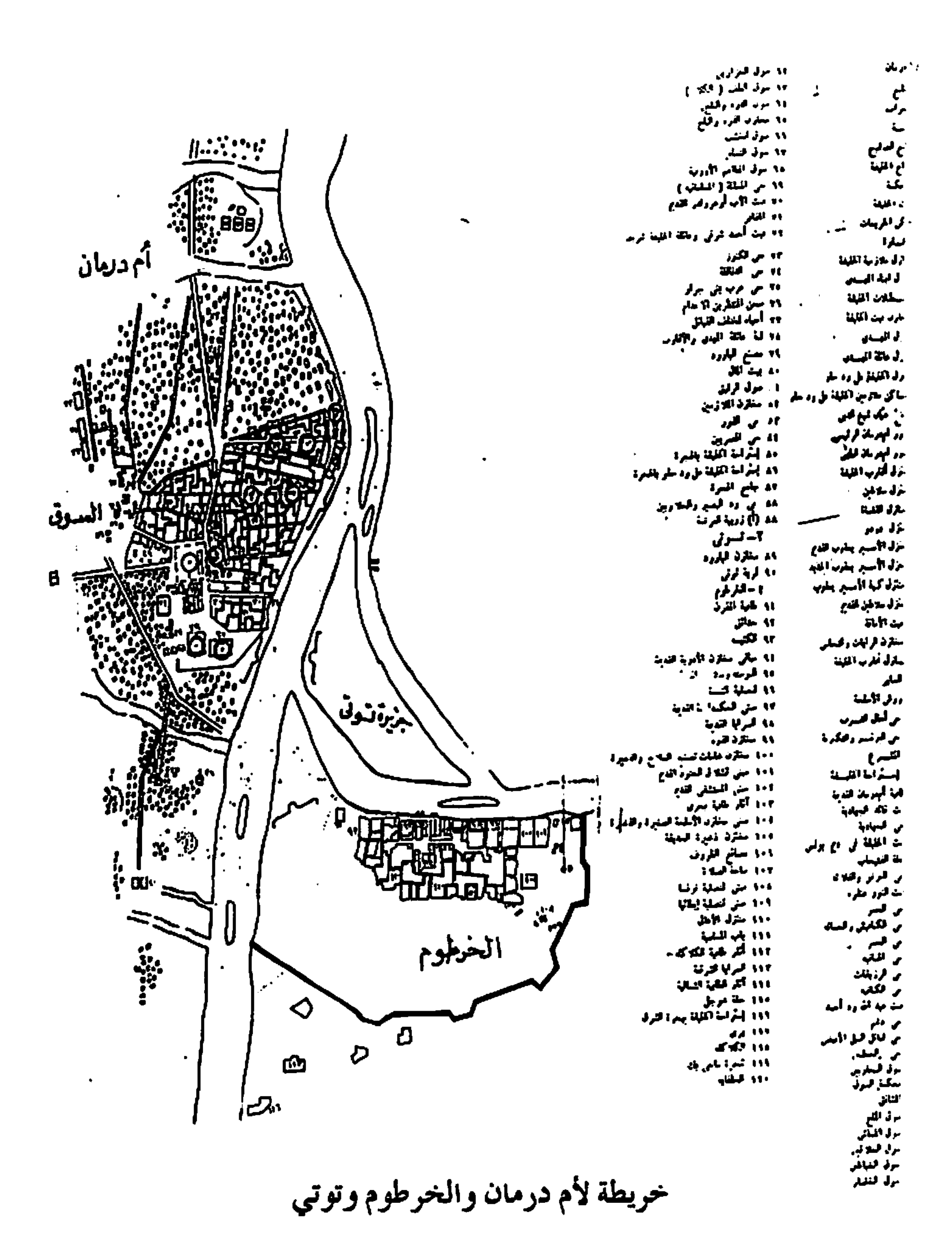
ووالده، وفي مكتبه بلدقيت سيركس، بإعادة سيفي لي. ويبدو أن المستر جون كوك إشتري هذا السيف عام ١٨٩٠. من أحد الأهالي بالأقصر، علي ضفة النيل، بعد أن إجتذبته إليه النقوش العربية علي صفحة النصل. وقد تصادف أن قابل بعد ذلك صديقي الميجر ونجت والذي قرأ إسمي عليه. وفي إعتقادي أن المهدي ربما قام باهداء سيفي لأحد أتباعه من الذين اشتركوا فيما بعد في الحملة علي مصر بقيادة النجومي عام ١٨٨٩. وعندما أطيح بذلك الأمير الشهير علي يد الجنرال السير فرانسس قرنفل في معركة توشكي فمن المحتمل أن يكون من حمل سيفي معه قد سقط أيضاً وقام أحد الفلاحين بحمله من الميدان وباعه فيما بعد للمستر كوك. إن فقداني لسيفي، الذي لا أقدره بثمن، في مجاهل دارفور، وأن أجده ثانية في قلب لندن لشئ أكبر من أن يتم بالصدفة المحضة.

مررت خلال الستة عشر عاماً التي قضيتها في السودان بحياة متقلبة غريبة. وقد حاولت أن أسرد بأبسط ما يمكن تجاربي الفريدة من نوعها علي أمل ألا تكون قصتي مثيرة فقط لإهتمام أولئك الذين يتعاطفون مع الظروف الصعبة التي يعيش تحتها الأسرى الأوروبيين بالسودان، بل أرجو بكل إخلاص أن يكون لتجاربي تلك بعض القيمة عندما يحين وقت العمل. وعندما يشاء الله أن تسخر خدماتي للمساعدة علي إزالة حكم سيدي المستبد وعدو العمر بالنسبة لي، الخليفة عبد الله، وأن أسهم في إعادة سلطة الحكومة في ذلك البلد، والتي ناضلت في سبيلها بقدر من النجاح، ولكنه، ياحسرتاه، لم يدم طويلاً!

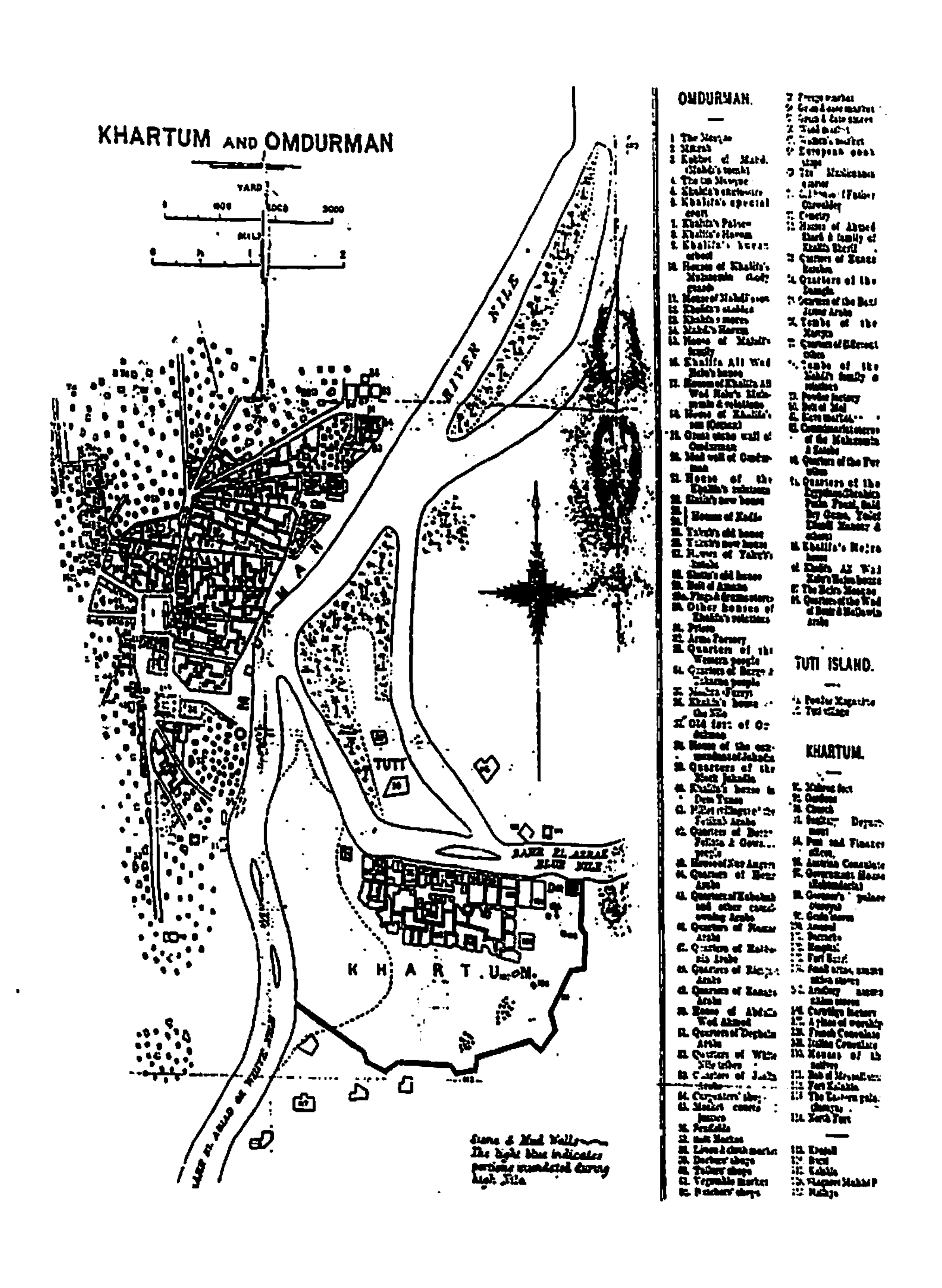
مرفقات :

١ - خريطة للخرطوم وأم درمان رسمت عام ١٨٩٥ / ١٨٩٦.

٢ - خريطة تحدد المدي الذي وصل إليه نفوذ الخليفة حتي عام ١٨٩٥.



خريطة لأم درمان والخرطوم وتوتي



KHARTUM AND OMDURMAN
YARDS
MILES
RIVER NILE
TUTI
BLUE NILE
K H A R T U M
OMDURMAN.
TUTI ISLAND.
KHARTUM.

سودان الخليفة عام ١٨٩٥

خريطة رقم ١

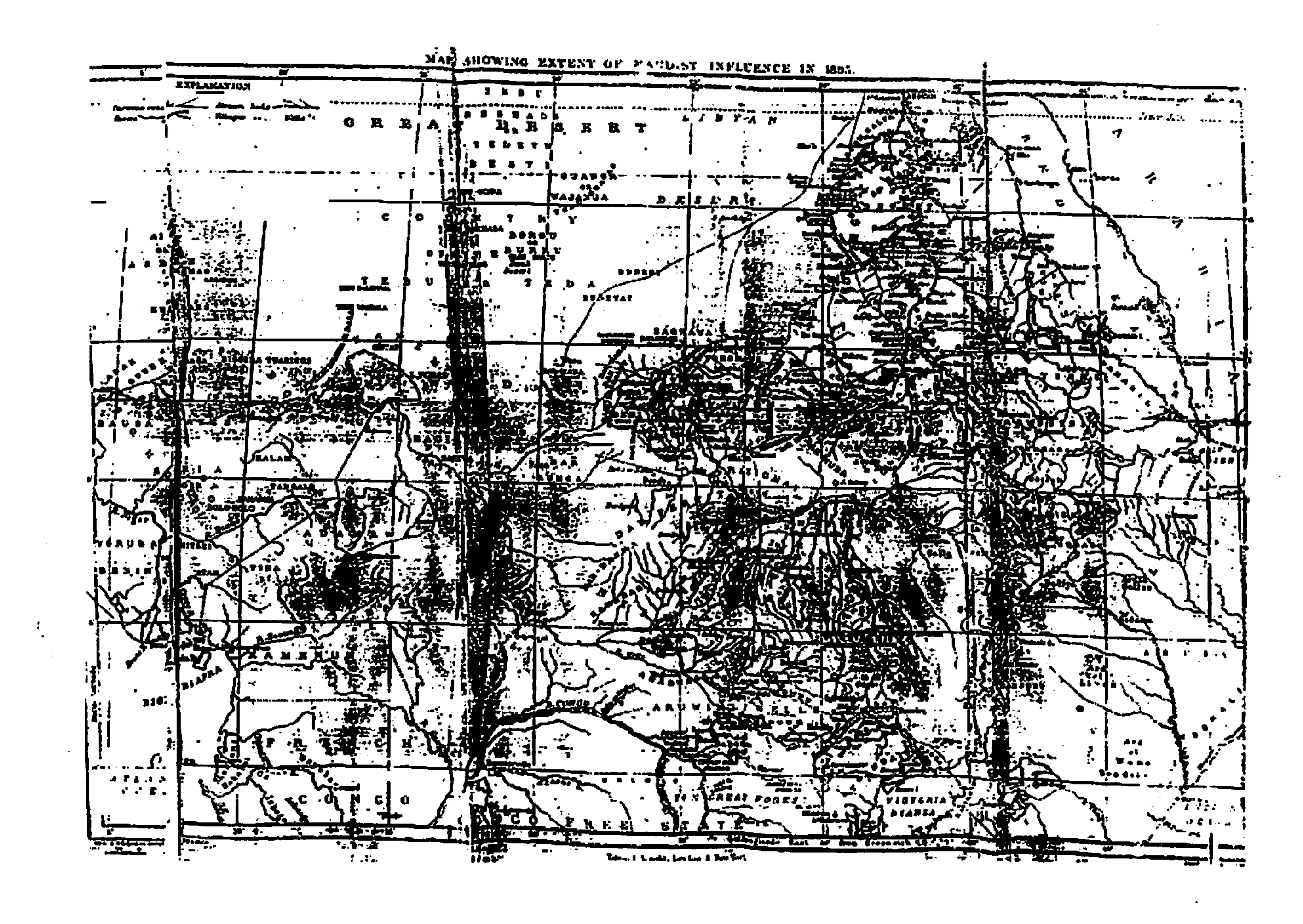
عمالة دنقلا

عمالة الشرق

عمالة الغرب

عمالة بحر الجبل

خريطة توضح نفوذ المهدية حتى ١٨٩٥


EXPLANATION
CONGO
VICTORIA

ملحق (١)

الأخطاء في أسماء المدن والشخصيات وبعض الأحداث التي جاءت في ترجمة (عرابي) فقط وتكررت بطول الكتاب وعرضه

الصفحة	الخطأ في ترجمة عرابي	الصواب من الأصل الإنجليزي
٦٧	هو جمت الطيارة	هوجمت بارة
٦٨	أبو النجا ورجاله	أبو عنجة ورجاله
٧٠	ولما وصلت لخشنبة	ولما وصلت للهشابة
٧٠	قبائل البركة والمصرية والتاجو	قبائل البرقد والمسيرية والداجو
٧١	دبين	الضعين
٧١	شقة	شكا
٧١	أم ورقة	أم ورقات
٨١	بئر أم الوادي	بئر أم لواي
٨٢	قبيلة بني حلبة	قبيلة بني هلبة
٩٠	زوجال بك	زقل بك
٩٤	وشرطيه حسب الله	والشرتاي حسب الله
٩٧	كاوة	الكوة
٩٧	أحمد الكاشف	أحمد المكاشفي
٩٧	جبل سخيدي	جبل سقدى
٩٧	مرابية	المرابيع
٩٩	بلدة الشط	بلدة شات
١٠٠	محمد أبو جوجة	محمد أبو قرجة
١٠٠	عبد الحليم مسعد	عبد الحليم مساعد
١٠١	جبل تاج الله	جبل تقلي
١٠١	عرب الحبانية	عرب الهبانية
١١٣		

١١٨	الرجال ستزادة ورادة	الرجال شرادة وورادة
١٢٩	الجعالين	الجعليين
١٣٠	فيداسي	فداسي
١٣١	الحلفاي	الحلفاية
١٣١	الشيخ محمد النكر	الشيخ محمد الضكير
١٣١	كورش	كورتي
١٣٧	القمح بسنار	النرة بسنار
١٣٨	زكي طومال	الزاكي طمل
١٣٩	طرة الحضرة	الترعة الخضراء
١٤٠	إبن نجا	بانقا
١٤١	شرقلة	شركيلا
١٤٢	وإسمه نطرون	واسمه عطرون
١٥٤	عبد القادر وأدام مريم	عبد القادر ود أم مريوم
١٥٦	أبو تلا (أبو كلبة)	أبو طليح (أبو كلي)
١٥٩	جوبات	القبة
١٥٩	توسكي والعرافين	توشكي والعركيين
١٥٩	بوري	بري
١٧١	الباخرة الثلامونية	الباخرة تل حوين
١٧٦	أنها من النوبارية	أنها نوباوية
١٧٧	خالد درز ريك	خالد (فقط)
١٧٧	حسين واد صحراء	حسين ود الزهرة
١٨١	الكواحلة	الكواهلة
١٨٦	جبل دبرو	جبل الداير
١٨٦	عرابي ضيف الله (واد دفلة)	عربي دفع الله
١٨٧	أم بدر	أم بادر
١٨٧	ضيف الله أجيل	دفع الله العجيل
١٨٨	نور أنجرة	النور عنقرة
١٩٠	الرقوية	الراكوبة
١٩٥	أبي هرر	أبو حراز

١٩٦	الملك جان	الملك يوحنا
١٩٧	الجالان والدناجلا والنيفاريون	الجعليين والدناقلة والميرفاب
٢٠٣	قبيلة البتاهية	قبيلة البطاحين
٢١٣	المزاليط	المساليت
٢١٥	جدهم أحمد شوقي	جدهم أحمد شرفي
٢١٧	النور القرباوي	النور الجريفاوي
٢١٨	مسعود	مساعد
٢٢٠	هذا العصفور	هذا الكركي (اللقلق)
٢٢٧	حضرة النحاس	حفرة النحاس
٢٣٤	زوجته سارة	زوجته زهراء
٢٣٨	أبو دخيبة	أبجكة
٢٤٥	علي واد هلو	علي ود حلو
٢٤٥	أحنا راما / أضارايا	أداراما
٢٤٥	يونس الدغيم	يونس الدكيم
٢٤٧	سورادا	صواردة
٢٤٧	مسالت وناما وجمر	المساليت والتاما والقمر
٢٦٠	خاتم موسي	الختيم موسي
٢٧٦	الجنجس	القنجة
٢٧٧	واد حامدين الله	ودحمدنا الله
٢٨٣	سجن سبد (السعير)	سجن الساير
٢٩٣	أوهر والدر	أورفالدر
٣١٦	ميدان فير	حي الفور
٣١٦	حضرت من شيفيه	حضرت من دار الشايقية
٣٤١	قتل في دارشيفيه	قتل في دار الشايقية
	إستيك وبيكي	سبيك وبيكر

ما جاء في الكتابين (عرابي والدار السودانية)
من سطور أو فقرات أو صفحات متروكة بأكملها وأهميتها

خمسة صفحات من ١٠٠ حتي ١٠٤	جزء من الصراع مع مادبو في دار الرزيقات
٧ سطور صفحة ١٥٣	تحرك المهدي إلي الرهد غازياً للخرطوم
٥ سطور صفحة ١٦٧	عن سياسة سحب الحاميات المصرية
٥ سطور صفحة ٢٠٠	ترقب وصول حملة الإنقاذ الإنجليزية
٥ سطور صفحة ٢٠٢	تذلل سلاطين أمام الخليفة
٦ صفحات من ٢٥٥ وحتي ٢٦٠	من أهم ما جاء بالكتاب وفيها هزيمة الأحباش واحتلال غوندار وتغنيمها وموت أبو عنجة ومعارك دارفور وبناء قبة المهدي حملة الزاكي طمل علي جنوب النيل الأزرق
١٠ سطور صفحة ٢٧٥	تعيين أحمد فضيل قائداً لقوات القضارف
صفحتان من ٣٠٢ حتي ٣٠٣	وإحتلال الطليان لكسلا وعبور الخليفة للنيل مودعاً قواته المتوجهة لكسلا
١٨ سطر صفحة ٣٠٤	عن ولاية الكنغو الحرة وتدمير الأنصار لقيادتها وتغنيم ما بها
٧ سطور صفحة ٣٠٤	قيام الختيم موسي بإجلاء الاوروبيين من شمال بحر الغزال بالقوة.
٣ صفحات ٣٦٤ / ٣٦٥ / ٣٦٦	أول محاولات الفرار من السودان

الملحق الثاني

تراجم مختلفة عن الأصل وأدت لتشوية المعني، أو عكسه تماماً، أو من خيال المترجم، وهي مشتركة تماماً بين الكتابين (عرابي والدار السودانية). رغم أن الدار السودانية قد قامت بتصحيح أسماء المعالم والشخصيات

الصفحة من (عرابي)	الخطأ المشترك بين الترجمتين	الصواب من الأصل الإنجليزي
١٠	وبقي امين باشا في هذا المنصب إلي سنة ١٨٨٩. حيث عين مستر ستانلي مكانه	وبقي امين باشا في هذا المنصب إلي سنة ١٨٨٩. حينما قام المستر ستانلي بانقاذه. (ورحل معه حتي زنجبار (المعرب)
١٤	وأرست الباخرة في وسط النهر وعبرنا نحن إلي البر في قوارب	ولما كانت البواخر قد القت مراسيها في وسط النهر، فقد توجهنا إليها علي ظهر مركب
١٤	فقد معظم من عنده من البازنقر أو حملة الأقواس	فقد معظم من عنده من الباز نقر أو حملة بنادقه من السود
٧٣	الفتائل التي تطلق بها البنادق	التي تطلق بها المدافع
٨٢	ترك أسرته وعشيرته وقصد إلي عن طريق بني حلبة	بانه سيحضر لي مع أسرته وعشيرته عن طريق دار البني هلبة.
٩٠	وجهت فرج أفندي ليشتري عشرين ثوراً	وجهت فرج أفندي لاختيار عشرين ثوراً مما لدينا بالزريبة.
٩٨	وبعث المهدي عثمان دجنة لكي ينشر الدعوة إلي الجهاد في بلاد مختلفة.	ومن بين الذين بعثهم المهدي لمختلف المناطق كان عثمان دقنة.

٩٩	كان الخلاف بين هكس والضباط الأوروبيين عظيماً كما كان هناك خلاف أيضاً بين علاء الدين باشا والضباط المصريين.	كان الخلاف بين هكس والضباط الأوروبيين من جانب وبين علاء الدين والضباط المصريين من جانب آخر.
١٠١	قاصداً علوبة وحتي كاشقيل جنوبي الأبيض.	وحتي كاشقيل جنوب شرق الأبيض.
١٢٠	ساروا علي إيقاع الطبل.	ساروا علي صفير الأمباية.
١٢٣	بايعناك علي ترك الدنيا والآخرة (كذا...) ولانفر.	بايعناك علي ترك الدنيا للآخرة ولانفر
١٤٠*	إنتصر شيخ العبيد في أم درمان	انتصر شيخ العبيد في أم ضبان
١٤٣	لمقاتلة السلطان هارون.	لمقاتلة السلطان دودبنجة
١٩٠	وفي أواخر يولية.	وفي أواخر يونية
١٩٨	ولما عاد إلي داره أصدر أمراً بأن يترك النساء والأطفال بدون مأوي حتي يباعوا بأرخص الأثمان.	ولما عاد إلي داره أرسل أوامر، مع أحد الجنود لاطلاق سراح نساء وأطفال القتلي رغم أنه كان بأمكانه توزيعهم كأرقاء علي من يشاء
٢٠٢	يمكنني أن أقول أن قبيلة الجالان هي أحسن القبائل حالاً.	أن قبيلة الجعليين هي أكثر القبائل تمسكاً بالفضائل.
٢٠٢	وكان ما أصاب قبيلة الجلان أشد مما أصاب أي قبيلة أخري ولو أنها كانت أحسن قبائل السودان حالاً.	وكان ما أصاب قبيلة الجعليين، أكثر قبائل السودان إستقلالية واعتداداً بالنفس، أكثر مما أصاب الآخرين وسد كثير منهم

		أبواب بيوتهم بالطوب، عليهم وعلي أطفالهم، إنتظاراً للموت.
٢٠٣	أبيدت بسبب المجاعة قبائل الحسابيا والشكرية والعقالان وبذلك خلت بقاع واسعة في السودان من السكان.	ابيدت بسبب المجاعة قبائل الحسانية والشكرية والعقليين وبذلك خلت مناطقهم، التي كانت عامرة يوماً ما، من السكان.
٢٠٤	يشغل أخي وظيفة كبير أمناء جلالة إمبراطور النمسا.	يشغل أخي وظيفة سكرتير مكتب ياورلن جلالة امبراطور النمسا
٢٠٤	اعتذر الآخر وهو ضابط في الطوبجية	اعتذر الآخر لأنه محام وملازم أحتياط في المدفعية.
٢٠٤	قضت المحكمة علي إبراهيم عدلان أن يختار بين الموت أو الفقر ففضل الأول.	قضت المحكمة علي إبراهيم عدلان أن يختار بين الموت أو القطع من خلاف ففضل الأول.
٢٠٦	وقال الخليفة أنه يعلم باني جاسوس وتجب مراقبتي ومراقبة الذين يحضرون لزيارتي ويجب علي أن أعلمه بمحل نومي في منزلي.	وقال الخليفة أنه يشك بأنني جاسوس وأنني كثيراً ما أسال رجال البريد عن الأحوال في أنحاء السودان وأنني استقبل في منزلي زواراً من أعداء الخليفة، بل أنني ذهبت لأبعد من ذلك وبدأت أسال أين تقع غرفة نومه.
٢١٧	وأرسل الخليفة أبو حرجة بباخرتين للرجاف ليلحق بعمر صالح والذي كان قد أقام هناك مركزاً لجيوش الدراويش لصد حملة ستانلي وأمين باشا.	وأرسل الخليفة أبو قرجة بباخرتين للرجاف ليحل محل عمر صالح، والذي كان قد أقام رئاسته هناك عقب مغادرة ستانلي وأمين لها.

٢٢٧	تتلخص هذه الفكرة في ضم أفراد من حرس الخليفة إلي صفوف الضباط في الجيش العام.	تتلخص هذه الفكرة في زيادة عدد الملازمين بمجاميع من الحرس الخاص واختيار عدد من الجهادية من جيوش محمود ود أحمد والزاكي طمل لذلك الغرض.
٢٢٩	كراهية الخليفة للمصريين إلي حد أنه يمقت سماع موسيقاهم ومع ذلك كان يستصحب في رحلاته أفراداً ليسمعوه الموسيقي المصرية وبدلاً من سير إثنين من المصريين للنفخ في البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان من السود.	بالرغم من منع الخليفة لكل الموسيقي المصرية إلا أنه جمع نافخي البوق السابقين من السود وكان إثنان منهما يرافقانه باستمرار.
٢٣٧	فكانت أعجوبة لناظريها من الدراويش.	(غير موجودة بالأصل)
٢٣٧	أما يعقوب ابن الخليفة وصاحب أكبر مكانة في السودان بعد أبيه.	أما يعقوب أخ الخليفة وصاحب أكبر مكانة في السودان بعد أخيه.
٢٣٧	قدم الأشراف التحية لعبد الله خوفاً من السقوط الذي يصيبهم من جراء اشهار العداء للخليفة.	(غير موجودة بالأصل).
٢٤٧	اعتزم الخليفة لإرسال مندوبين لاحضار أولئك العصاة واجبارهم علي تقديم الطاعة والولاء له.	وكان الخليفة علي وشك إرسال حملة لاخضاعهم.

٢٤٩	السودانيون راغبون دائماً في الحج إلي قبر المهدي. وقد ذهب حبهم في التقليد الجديد إلي حد أنهم يسخرون ممن لايوافقهم في طريقه الحج هذه.	وصار السودانيون يؤدون شعائرهم بشكل صوري وبدون أي قناعة لهم بذلك.
٢٥٠	علي التجار بعدم حمل ذهب أو فضة إلي مصر مهما كان يعوزهم الإنفاق.	علي التجار بعدم حمل ذهب أو فضة إلي مصر إلا ماكان ضرورياً لنفقات سفرهم.
٢٥٠	حتي لا تضيع حلي الشعب وكنوزه في سبيل انفاق غير مشروع في نظر الخليفة.	(غير موجودة بالأصل).
٢٥١	مما أدي لتضاؤل شأن التجارة بين السودانيين.	مما أدي لتضاؤل شأن التجارة مع مصر.
٢٥١	الصمغ العربي احتكار لسكانه.	الصمغ العربي احتكار للدولة.
٢٥٢	حتي أصبح عسيراً علي الأوروبي في عام ١٨٩٧ أن يحصل علي مقص او موس لحلاقة الذقن.	حتي أصبح عسيراً أن نجد مقصاً أو موساً للحلاقة.
٢٥٤	وقصد الخليفة بمنع تصدير العبيد أن يحول دون استئثار مشتريه بالأمر علي حسابه.	وقصد الخليفة بقراره الحكيم بمنع تصدير العبيد لمصر حتي لايتقوي بهم أعداؤه المصريون.
٢٥٤	في السنوات التي بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧. كان أبو النجا يرسل العدد الكبير من عبيد الحبشة.	قبل بضعة اعوام كان أبو عنجة قد أرسل كميات من العبيد من الحبشة.

٢٥٥	فاذا ما ظهرت جثة ألقيت خارج الشاطئ مما يدعو إلي نشر رائحة كريهة في الجهات.	(غير موجودة في الأصل)
٢٥٦	يبيعونهم لزعماء القبائل المتجولين.	يبيعونهم للجلابة المتجولين.
٢٥٦	وإذا سلمنا بأن شخصاً خارج أم درمان جلب معه أحد العبيد السذج فقد كان الميسور أن يبيعه بيعاً إسمياً لبيت المال.	وإذا أراد أحد التخلص من عبده فلابد له من إرساله لبيت المال حيث يدفع له ثمن رمزي.
٢٦٠	في مديرية بربر تنسج النساء أغطية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعاً حريرية.	في مديرية بربر يقوم النساجون بإدخال شرائط من الحرير في أنسجتهم القطنية لتستعمل...
٢٦١	لتباع كتحف وطرائف للأوروبيين الذين يقصدون القطر المصري في فصل الشتاء.	(غير موجودة في الأصل)
٢٦٣	وجالبات للأمراض الخبيثة	(غير موجودة في الأصل)
٢٦٣	لايبالون في سبيل الحصول علي مكسب بما يصيب النساء والبنات من ضعف في القوة وفساد في الخلق.	ويعمل تجار الرقيق في السودان للحصول علي المال من وسائل غير أخلاقية لعبداتهم
٢٦٧	كانت أرض أم درمان حقيرة غير منتظمة، مدت إليها الأشجار الوارفة الظلال	كانت أرض أم درمان حقيرة غير منتظمة، مليئة بالأشجار الشوكية

٢٦٩	يطلبــون الرحــمــة من الله الرحـمن بشـفـاء الشـهـيـد (؟) الذي قد رقد في قبره.	يسألون الله الحماية والستر ويتـوسلون بالولي المدفـون في ذلك المكان.
٢٧٠	ومن الـغـريب في أمـر أولئك العبيد أنهم كدوا واجتهدوا راضين مختارين رغم التعب الذي لاقـوه والقـوت الذي لايكفيهم لعملهم الشاق.	وهؤلاء الـعـبـيـد على حق عندما يغضبون، لرؤيتهم سيدهم الشاب بهذا المظهر من التـفـاخـر وحب الظهور بينمـــا هـم لا ينالون من الطعام إلا أقله.
٢٧٣	فـاذا مـا جـاء فـصل الشـتـاء الممطر.	عندما يبدأ موسم الأمطار
٢٧٦	اسرته في إنجلترا.	أسرته في ألمانيا
٢٧٨	عـسكر ابو كـلام شـيـخ قـبـيلة جمعة.	عساكر أبو كلام شيخ قبيلة الجمع.
٢٨٠	كنت أرمي من بقــائي الي جـانب الخليـفـة عـبـد الله والتـصـاقي به إلي غـرض مذدوج الفائدة. لأعرف طباعه من ناحية وأحوال السـودان من ناحية أخري بطريقة تكاد تكون رسمية.	كان للخليفة غرض مزدوج لإبقـائي دائمـاً بالقـرب منه فقد كان يعلم بأنني الوحيد الذي بقي من كبـار موظفي الحكومة المصرية، الذي له معرفة وثيقة بالسودان وأنه ترحل في كل أنحائه تقريباً.
٢٩٩	وقد استفسرني الرجل عن سبب مرافقتي للرجل المصري صاحب العينين الشبيهتين بعيني الصقر.	لقـد كـان نظر الرجل حـاداً وكأن عيونه عيون صقر.
٣٠٣	سأركب الجمل بشارن.	سأركب الناقة البشارية.
٣٢٦	ذهب إبنه بالجـمل الوحـيـد. واضطر حـامـد لمرافـقـة إبنه سيراً علي قدميه.	ذهب إبنه بالجمل الوحـيـد. واضطر حـامـد للسفر مـعي سيراً علي قدميه.

٣٣٤	الممتدة شرقا إلي كسلا علي مقربة من وداي. \	الممـتـدة شـرقـاً إلي كـسـلا، وغربا إلي قرب وداي.
٣٣٩	من المؤكـــد أن هذا الـرجل سـيكون صـاحب السلطان طوال حياته.	لا أري سبباً، طالما بقي علي قـيـد الحـيـاة، يمنعـه من توريث الحكم لسلالته.

بسم الله الرحمن الرحيم

دار عـــزة للنـــشر- الخرطوم

ت: ٠٠٧٨٧٢٠٠ /٨٣ فاكس: ٠٠٢٤٩/٨٣٧٩٧٠٨٤ ـ ٠٠٢٤٩/٨٣٧٨٧٢٠٠

الرقم	الكتاب	المؤلف	نوع الكتاب	السعر بالجنيه	السنة
١	ليل المغنين	عمر الدوش	شعر	٧	٢٠٠١
٢	السنبلاية	محجوب شريف	شعر	٧	٢٠٠٢
٣	لوحة وطن في عيون طفلة	قاسم أبو زيد	شعر	٦	٢٠٠٢
٤	نار الزغاريد	أمير تاج السر	رواية	٦	٢٠٠١
٥	ملامح من علم الجمال	محمد عثمان مكي	فلسفة	٨	٢٠٠٢
٦	The Domed Tombs of Eastern Sudan	صلاح عمر الصادق	دراسة	٢٠	٢٠٠٤
٧	دفاع أمام المحاكم العسكرية	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٧
٨	الجرح والغرنوق	د. عبد الله علي إبراهيم	مسرحية	٥	٢٠٠٤
٩	الرحيل في الليل	عبد الرحيم أبو ذكرى	شعر	٧	٢٠٠٣
١٠	الماركسية ومسألة اللغة في السودان	د. عبد الله علي إبراهيم	دراسة	٧	٢٠٠٣
١١	أقاصي شاشة الإصغاء	الصادق الرضي	شعر	١٠	٢٠٠٣
١٢	حوار حول النزاعات المادية	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٣
١٣	تاريخ الفور الاجتماعي	تاج السر عثمان الحاج	تاريخ	٨	٢٠٠٢
١٤	الماركسية والثقافة	قرامشي ت: الجنيد علي عمر	دراسة	٥	٢٠٠٣
١٥	تداعيات – الجزء الثاني	يحيى فضل الله	مقالات	١٠	٢٠٠٢
١٦	علاقات الأرض في السودان	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٤
١٧	آراء وأفكار حول فلسفة الأخوان المسلمين	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٢
١٨	الإرهاق الخلاق	د. عبد الله علي إبراهيم	مقالات	٥	٢٠٠١
١٩	أوراق للذاكرة	عبد الله ميرغني الميري	دراسة عن المسرح	٨	٢٠٠٢
٢٠	أوراق شوق الخرطوم	عالم عباس	شعر	٦	٢٠٠١
٢١	عشائر الآفات الحشرية	د. تاج السر بشير	علم النبات	٢٥	٢٠٠٢
٢٢	إصلاح الخطأ في العمل بين الجماهير	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٤
٢٣	مبادئ وموجهات	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٨	٢٠٠٤
٢٤	قصص سودانية	عبد الماجد عليش	مجموعة قصص	٥	٢٠٠٣
٢٥	عفواً سادتي لا تغلقوا الزجاج	عثمان عبد الله	مجموعة قصص	٨	٢٠٠٢
٢٦	منطقة مروي المظهر والجوهر	فاطمة أحمد علي	دراسة	٣٥	٢٠٠٥

٢٧	أزرق اليمامة	بشرى الفاضل	قصص قصيرة	٨	٢٠٠١
٢٨	حكاية البنت التي طارت عصافيرها	بشرى الفاضل	رواية	٨	٢٠٠١
٢٩	رسالة من جكا	محمد يعقوب	قص قصيرة	٧	٢٠٠٢
٣٠	الأطفال والعساكر	محجوب شريف	شعر	٧	٢٠٠١
٣١	مقالات و خواطر	حسن كفاح	مقالات	١٠	٢٠٠٢
٣٢	مبادئ فيزياء الجوامد	د. أحمد خوجلي	علوم	٢٠	٢٠٠٢
٣٣	قضايا الديمقراطية	محمد إبراهيم نقد	دراسة	١٠	٢٠٠٢
٣٤	روائع حقيبة أمدرمان	محمد حسن علي (الجقر)	دراسة	٢٠	٢٠٠٦
٣٥	مأزق السلطة الرابعة	د. فتح الرحمن محجوب	إعلام	١٥	٢٠٠٣
٣٦	الخندق	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٥	٢٠٠٣
٣٧	أصل الفونج	ترجمة: عثمان أحمد عبد الرحيم	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٣٨	حوار حول الدولة المدنية	محمد إبراهيم نقد	سياسة	٨	٢٠٠٣
٣٩	تقنيات مكافحة الآفات بالمبيدات	محمد المصطفى حسن	علوم	٥	
٤٠	قوارض السودان والشرق الأوسط	محمد المصطفى حسن	علوم	٨	٢٠٠٣
٤١	حورية مريس	عبد الباسط آدم مريود	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٣
٤٢	أساسيات علم المحاصيل	أ.د يس إبراهيم دقش	علوم	٢٠	٢٠٠٣
٤٣	فيض الذاكرة	الطيب محمد الطيب- عبد الله علي إبراهيم - صلاح عمر الصادق	أحاديث في الأدب والثقافة	١٥	٢٠٠٥
٤٤	الأمثال السودانية	صلاح عمر الصادق	دراسة	٢٠	٢٠٠٣
٤٥	أنشوطة الشيطان	خليل عبد الله الحاج	مجموعة قصصية	٨	٢٠٠٣
٤٦	مقدمة في الاتصال الجماهيري	د. محمود محمد قلندر	إعلام	١٠	٢٠٠٣
٤٧	الدعابة والمرح في الشعر السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٤٨	من رواد أدب الفكاهة في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٤٩	معاً لكشف مخاطر المخدرات والمؤثرات العقلية	فريق شرطة كمال عمر بابكر	دراسة	٣٥	٢٠٠٣
٥٠	داء السكر وآثاره الجلدية والجنسية	د. عادل حامد حسن	دراسة	٧	٢٠٠٣
٥١	الفكاهة في الشعر السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠٠٣
٥٢	هوامش من سيرة حمال نوبي	محمد خلف الله سليمان	مجموعة قصصية	٧٠٠	٢٠٠٣
٥٣	مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم	طه إبراهيم	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
٥٤	الضفة الأخرى	أبكر آدم إسماعيل	رواية	١٥	٢٠٠٢
٥٥	خنساوات السودان	عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	٨	٢٠٠٤
٥٦	درب المحبة	محمد علي أبو قطاطي	شعر	٦	٢٠٠٢

٥٧	بربارة والمجذوب	فاطمة محمد عمر عتباني	مجموعة قصصية	٦	٢٠٠٣
٥٨	المسئولية التقصيرية عن فعل الغير في الفقه الإسلامي المقارن	أ. د سيد أمين	دين	٢٠	٢٠٠٤
٥٩	الأدب في عصر العلم	ج. ابقي ترجمة عبد الخالق محجوب	أدب	١٥	٢٠٠٢
٦٠	الشيوعيون السودانيون والديموقراطية	كمال الجزولي	دراسة	٨	٢٠٠٣
٦١	رجال مجلحون	د. أشرف مبارك محمد صالح	قصص	٦	٢٠٠٣
٦٢	مارتجلو	أحمد محمد ضحية	روية	١٠	
٦٣	العلمانية والإسلام	د. كامل إبراهيم حسن	سياسة	١٠	٢٠٠٢
٦٤	حول البرنامج	عبد الخالق محجوب	سياسة	٧	٢٠٠٢
٦٥	حسن روكسي	عبد الماجد عليش	قصص	٥	٢٠٠٢
٦٦	الاقتصاد القياسي	د. بسام يونس إبراهيم- د. أنمار أمين حاجي- أ. عادل موسى يونس	اقتصاد	٢٥	٢٠٠٣
٦٧	قانون التأمين المقارن	أ. د سيد أمين	قانون	٦	٢٠٠٢
٦٨	قضايا ما بعد المؤتمر	عبد الخالق محجوب	سياسة	٧	٢٠٠٥
٦٩	حكاوي بربندي مأمور شندي	كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٥
٧٠	مناقشات حول الديمقراطية والوحدة الوطنية في السودان	محمد علي جادين	سياسة	١٠	٢٠٠٢
٧١	دعوة للتفلسف	محمد عثمان مكي	فلسفة	٨	٢٠٠٢
٧٢	خلاصة الميراث	أ.د سيد أمين	قانون	٨	٢٠٠٢
٧٣	المبادئ الأساسية للقانون المقارن	أ.د سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٧٤	النيابة عن الغير في عقد الزواج	أ.د سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٧٥	نبض الخاطر	صلاح يوسف	مقالات	١٥	٢٠٠١
٧٦	أيام في مملكة بلقيس	محمد محي الدين عبده	مقالات	٧	٢٠٠٤
٧٨	أمثال الشايقية	محجوب كرار	دراسة	١٠	٢٠٠٥
٧٧	صحو الكلمات المنسية	النور عثمان أبكر	شعر	٧٠٠	٢٠٠٣
٧٨	كانفلي ومسيرة السلام	عميد ركن (م) محمد الطيب فضل	دراسة	١٥	٢٠٠٤
٧٩	المعاملات الشرعية	أ.د سيد أمين	قانون	١٠	٢٠٠٢
٨٠	إسماعيل حسن القيثارة الخالدة	عبد الحميد محمد أحمد	قانون	١٠	٢٠٠٣
٨١	تاريخ السودان من منظور فرنسي	بروفسير محمد علي مختار	تاريخ	٦	٢٠٠٥
٨٢	حكواتي نبته	عبد العظيم حمدنا الله	مسرح	٦	٢٠٠٣
٨٣	النبات الاقتصادي	أ. د يس محمد إبراهيم	علوم	١٥	٢٠٠٣
٨٤	أمراة من حليب البلابل	مبارك الصادق	رواية	٦	٢٠٠٤

٨٥	الجامع المسبوك بين الساسة والديوك	د. كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٣
٨٦	الفكر وتطوره عند المسلمين	بروفسير محمد علي مختار	تاريخ	٥	٢٠٠٣
٨٧	علاقات الرق في المجتمع السوداني	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٢٠	٢٠٠٣
٨٨	أختبئ لأبحث عنك	عيسى الحلو	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٣
٨٩	التي بعد البرجل	أمير شمعون	شعر	٦	٢٠٠٤
٩٠	مجموعة نورا	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣
٩١	تفاصيل ما حدث	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣
٩٢	اقتصاديات النقل في السودان	د. عبد الرحيم أحمد إبراهيم	اقتصاد	١٥	٢٠٠٤
٩٣	الإبداع في الشعر الشعبي السوداني	د. فرح عيسى محمد	دراسة	١٥	٢٠٠٣
٩٤	حكاية الإنسان والبلدة	مبارك عبد الرحيم صباحي	رواية	٧	٢٠٠٥
٩٥	أستاذ الأجيال - عبد الرحمن علي طه	د. فدوى عبد الرحمن	سيرة	٢٥	٢٠٠٤
٩٦	التأويل الصوفي للحداثة في الإسلام	د. بكري خليل	دراسة	١٥	٢٠٠٤
٩٧	أصول الأدب السوداني الحديث	د. مختار عجوبة	دراسة	٨	٢٠٠٤
٩٨	رجل شفاف	أحمد فضل	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٣
٩٩	جنوب السودان	ابيل الير	سياسة	٢٥	٢٠٠٥
١٠٠	الاندلية	الطيب محمد الطيب	دراسة	١٥	٢٠٠٤
١٠١	أيام صفانا	محمد بشير عتيق	شعر	١٥	٢٠٠٤
١٠٢	نحو مشروع مستقبلي للإسلام	محمود محمد طه	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٠٣	ممارسة السياسة وغياب الوعي الأمني	حسن بيومي	دراسة	٢٥	٢٠٠٣
١٠٤	وضاحة	أزهري محمد علي	شعر	٧	٢٠٠٣
١٠٥	تاريخ النوبة الاقتصادي الاجتماعي	تاج السر عثمان	دراسة	١٠	٢٠٠٣
١٠٦	كلكم	عصام الدين بشير	دراسة	١٥	٢٠٠٤
١٠٧	علم الاجتماع السياسي	د. عمر يوسف الطيب	اجتماع	٢٠	٢٠٠٤
١٠٨	الديمقراطية والهوية	عبد العزيز حسين الصاوي	سياسة	٨	٢٠٠٥
١٠٩	وطن تاجوج وعزة	عبدالله النجيب	شعر	٦	٢٠٠٤
١١٠	مملكة الجعليين الكبرى	جعفر حامد البشير	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١١١	انتظري	هاشم صديق	شعر	١٠	٢٠٠٤
١١٢	أوراق سودانية	شوقي ملاسي	سياسة	١٠	٢٠٠٤
١١٣	أدب الزنوجة	محمود موسى تاور	أدب	٨	٢٠٠٤
١١٤	تطورات العقد الاجتماعي في السودان	عبد الرحمن قسم السيد	دراسة	٢٠	٢٠٠٤
١١٥	هذه هي الحقيقة	د. يوسف عبدالله	دراسة	٢٠	٢٠٠٤

١١٦	قانون الاجراءات المدنية	بروفسير محمد الشيخ عمر	قانون	١٥	٢٠٠٦
١١٧	شرح القانون الجنائي السوداني	بروفسير يس عمر يوسف	قانون	٢٠	٢٠٠٦
١١٨	ذهب مروي	صلاح عمر الصادق	آثار	١٥	٢٠٠٥
١١٩	المجموعة الشعرية الكاملة	جعفر حامد البشير	شعر	٢٠	٢٠٠٦
١٢٠	أزمنة الشاعر الثلاث	عبدالله شابو	شعر	١٠	٢٠٠٥
١٢١	البحر القديم	مصطفى سند	شعر	٧	٢٠٠٥
١٢٢	أفريقيا لنا	محي الدين فارس	شعر	٧	٢٠٠٥
١٢٣	كادان والجدول الرابع	المكاشفي محمد بخيت	دراسة	٧	٢٠٠٥
١٢٤	آفاق جديدة	عبد الخالق محجوب	دراسة	٨	٢٠٠٥
١٢٥	اضاءات على جسد الموت	جون اورليو اوكج	مجموعة قصصية	٧	٢٠٠٥
١٢٧	زهور ذابلة	استيلا قايتانو	•	٧	٢٠٠٥
١٢٨	أدب الصيد القنص في السودان	محمد حسن الجقر	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٢٩	رجع الصدى	أبو بكر وزيري	إعلام	٨	٢٠٠٦
١٣٠	التنمية الاجتماعية والمجتمع المدني في السودان	د. عبد الرحيم أحمد بلال	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٣١	الشايقية	اخلاص محمد عثمان	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١٣٢	قبائل دارفور	سبيل آدم يعقوب	دراسة	١٥	٢٠٠٦
١٣٣	الضريبة على القيمة المضافة	د. حسن بشير محمد نور	اقتصاد	١٢	٢٠٠٥
١٣٤	أم درمان حقيقة الفن لماذا	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٣٥	التصوير البيئي للميعاد	د. بحر الدين عوض	دراسة	١٥	٢٠٠٥
١٣٦	الإنسان واللسان السوداني	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	١٥	٢٠٠٥
١٣٧	فقه الإثبات	د. صديق عبد الباقي	قانون	٢٥	٢٠٠٥
١٣٨	تحليل الوعي	متوكل علي محمدين	علم نفس	١٠	٢٠٠٥
١٣٩	تاريخ الفلسفة	محمد عثمان مكي	فلسفة	١٠	٢٠٠٦
١٤٠	يوميات الحركة الإسلامية	عبد الماجد عليش	سياسة	٢٥	٢٠٠٥
١٤١	المسيد	الطيب محمد الطيب	دراسة	٢٠	٢٠٠٥
١٤٢	ملامح من المجتمع السوداني	حسن نجيلة	تاريخ	٣٠	٢٠٠٧
١٤٣	ذكرياتي في البادية	حسن نجيلة	مذكرات	١٥	٢٠٠٥
١٤٥	الإدارة الهندسية	د. الأمين عبد الجليل	هندسة	١٠	٢٠٠٥
١٤٦	الأمير عثمان جانو	اخلاص محمد علي حمد	تاريخ	٢٠	٢٠٠٥
١٤٧	سلطنة دارفور	النور عثمان ابكر	تاريخ	١٥	٢٠٠٦
١٤٨	المخدوعة	أحمد محمد الحسن عثمان	شعر	٧	٢٠٠٤

١٤٩	أروى رنة الفرح المهاجر	بابكر عوض الكريم	شعر	١٠	٢٠٠٤
١٥٠	مصابيح السماء الثامن وطشيش	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٤
١٥١	المجموعة الشعرية الأولى	محمد حسن سالم حميد	شعر	٢٥	٢٠٠٤
١٥٢	لم يبقى إلا الاعتراف	عمر عبد الماجد	شعر	٦	٢٠٠٥
١٥٣	المجموعة الشعرية الكاملة ج ٢	المعز عمر بخيت	شعر	١٥	٢٠٠٣
١٥٤	رجعنا مع البادرات إلى خط الاستواء	مصطفى سند	شعر	٧	٢٠٠٥
١٥٦	الفيلسوف وقصص أخرى	محمد عبد الهادي	قصص	٧	٢٠٠٥
١٥٧	رحيل النوار خلسة	د. محمد عثمان الجعلي	مقالات	١٥	٢٠٠٣
١٥٨	ديوان الشيخ حياتي	الطيب حياتي	مديح	٢٥	٢٠٠٤
١٥٩	امرأة من كمبو كديس	عبد العزيز بركة ساكن	قصص	٧	٢٠٠٥
١٦٠	اللغويات لتصحيح اللغة	جعفر حامد البشير	أدب	١٠	٢٠٠٥
١٦١	القهوة في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	٨	٢٠٠٥
١٦٢	أدبيات الشاي في السودان	عبد الحميد محمد أحمد	أدب	٧	٢٠٠٥
١٦٣	ذكريات الصراحة	جعفر حامد البشير	مذكرات	٥	٢٠٠٥
١٦٤	دوباي ود كاهل	الطيب عبد الله	أدب	٧	٢٠٠٥
١٦٥	السودان في القرية والمدينة	جعفر حامد البشير	أدب	١٠	٢٠٠٥
١٦٦	الحج	علاء الدين محمد بابكر	دين	٨	٢٠٠٥
١٦٧	قضايا الفلسفة الاجتماعية	عبد المتعال زين العابدين	فلسفة	٢٠	٢٠٠٥
١٦٨	الاقتصاد الجزئي	عبد الله الشريف الغول	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٦٩	أساليب التقييم الاقتصادي	حسن بشير محمد نور	اقتصاد	١٠	٢٠٠٥
١٧٠	قضايا التنمية المستدامة	د. شريف الدشوني	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٧١	Transportation in Sudan	D. A .A.rhaim. A	اقتصاد	١٥	٢٠٠٥
١٧٢	جنسية المرأة المتزوجة	الطيب عبد الجليل	قانون	٢٠	٢٠٠٥
١٧٣	الحضارات السودانية	صلاح عمر الصادق	آثار	١٠	٢٠٠٥
١٧٤	الديمقراطية والتربية في السودان	محمد علي حمد	تربية	٢٥	٢٠٠٥
١٧٥	متغيرات العصر	محمد إبراهيم نقد	سياسة	٧	٢٠٠٥
١٧٦	الصراع السياسي الثقافي في القرن الأفريقي	د. موسى محمد عمر	سياسة	٢٠	٢٠٠٦
١٧٧	المراعي والعلف	محمد إبراهيم دقش	زراعة	٢٠	٢٠٠٥
١٧٨	إنتاج المحاصيل	محمد إبراهيم دقش	زراعة	٢٠	٢٠٠٥
١٧٩	حجر الدغش	محمد حسن سالم حميد	شعر	٦	٢٠٠٥
١٨٠	الرجعة للبيت القديم	محمد حسن سالم حميد	شعر	٨	٢٠٠٣

١٨١	يوميات سودانية	نصر الدين شلقامي	مذكرات	٨	٢٠٠٥
١٨٢	المدارس الاشتراكية في أفريقيا	عبد الخالق محجوب	سياسة	٨	٢٠٠٦
١٨٣	مؤتمر البجا	محمد اوهاج اتروب	سياسة	١٥	٢٠٠٦
١٨٤	جغرافيا الميعاد	د. بحر الدين عوض	دراسة	١٠	٢٠٠٥
١٨٥	الحرب الأهلية وفرص السلام	إبراهيم علي إبراهيم	دراسة	٢٠	٢٠٠٢
١٨٦	نظريات اجتماعية معاصرة	عمر عبد الجبار محمد أحمد	اجتماع	١٠	٢٠٠٢
١٨٧	المرأة الأفريقية	د. فاطمة بابكر	دراسة	٢٥	٢٠٠٦
١٨٨	حرب الموارد	د. محمد سليمان	دراسة	٢٥	٢٠٠٧
١٨٩	برشت قصائد من الألمانية	د. محمد سليمان	شعر مترجم	١٠	٢٠٠٤
١٩٠	علاقات السودان الخارجية	عبد الحميد محمد أحمد	سياسة	٥	٢٠٠٦
١٩١	دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ	صلاح عمر الصادق	آثار	١٥	٢٠٠٦
١٩٢	دراسات في الفلكلور السوداني	د. نصر الدين سليمان	فلكلور	١٥	٢٠٠٦
١٩٣	اقتصاد الانقاذ	محمد عبده كيم	اقتصاد	١٠	٢٠٠٦
١٩٤	الموية عطشانة	محجوب الحاج	شعر	٨	٢٠٠٦
١٩٥	أنا عطبرة	الحاج عبدالرحمن أحمد	شعر	٧	٢٠٠٦
١٩٦	الجناية فيما دون النفس	د. صالح أحمد التوم	قانون	٢٠	٢٠٠٦
١٩٧	الجرائم المعاقب عليها بالقتل	د. صالح أحمد التوم	قانون	٢٥	٢٠٠٦
١٩٨	قباب شرق السودان	صلاح عمر الصادق	آثار	٢٠	٢٠٠٦
١٩٩	أضواء على الملكية الفكرية	محمد عزت بابكر	دراسة	٥	٢٠٠٦
٢٠٠	Excesses in human Right	ابيل الير	قانون	١٥	٢٠٠٧
٢٠١	الأديب السوداني أحمد المبارك عيسى	د. عبد الحميد محمد حسن	أدب	١٥	٢٠٠٧
٢٠٢	القاموس الاقتصادي	د. علي محمد سليمان	اقتصاد	٢٠	٢٠٠٧
٢٠٣	تاريخ عمال السكة حديد والحركة النقابية في السودان	علي محمد بشير	تاريخ	١٥	٢٠٠٧
٢٠٤	آفات المخازن الحشرية	د. تاج السر بشير	زراعة	١٠	٢٠٠٧
٢٠٥	يوميات من الواحة	محمد سيد أحمد عتيق	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢٠٦	عطر نسائي	عماد بركة	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٠٧	الخريف يأتي مع صفاء	أحمد الملك	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٠٨	نورا ذات الضفائر	أحمد الملك	قصص	١٥	٢٠٠٧
٢٠٩	الفكاهة ليست عبثاً	الصادق المهدي	أدب	٢٠	٢٠٠٧
٢١٠	متى يأتي الخريف للجزيرة	د. كامل إبراهيم حسن	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢١١	حول منهج عقلاني لفهم التراث	د. كامل إبراهيم حسن	دراسة	١٠	٢٠٠٧

٢١٢	ملامح من الوجه القديم	مصطفى سند	شعر	٨	٢٠٠٧
٢١٣	أنها بردة الجمال	مصطفى سند	شعر	٨	٢٠٠٧
٢١٤	أمة كلها إبداع	محجوب حسن	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢١٥	ساري لليل (جراد الشجر)	محمد مصطفى حسن	زراعة	٨	٢٠٠٧
٢١٦	أولاد الترابي (الانكار والتنكر)	عبدالماجد عليش	سياسة	٢٠	٢٠٠٧
٢١٧	إدارة الوقت في السودان	شاكر شريف	زراعة	١٥	٢٠٠٧
٢١٨	الطنبور وأغاني الشايقية	إخلاص محمد الحسن	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢١٩	تطور المرأة السودانية وخصوصيتها	تاج السر عثمان	إدارة	١٠	٢٠٠٧
٢٢٠	تشريح العقل العرقي	د. منتصر الطيب	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢٢١	ترانيم الحصار	عمر عبدالله محمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٢	التراث السياسي الممتد	د. عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٣	قصة كفاح ونجاح(مذكرات شرطي)	أبو حميد حسن إبراهيم	مذكرات	١٥	٢٠٠٧
٢٢٤	تاريخ وجغرافية السودان	نعوم شقير	تاريخ	١٠٠	٢٠٠٧
٢٢٥	اقتصاديات النقل النهري	د. محمد عثمان خضر	اقتصاد	١٥	٢٠٠٧
٢٢٦	المرشد إلى المنظمات الدولية	أحمد الصافي	إدارة	٥٠	٢٠٠٧
٢٢٧	صراع السلطة والثروة في السودان	ترجم الفاتح عثمان- محمد علي جادين	اقتصاد	١٥	٢٠٠٧
٢٢٨	Traditional in Sudanese Medicine	أحمد الصافي	طب	٦٠	٢٠٠٧
٢٢٩	مشارطات إيجار السفن	محمد حسب الرسول	قانون	٢٠	٢٠٠٧
٢٣٠	تصبحين على وطن	د. طارق مطيع	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣١	صولجان من خشب	سارة شرف الدين محمد	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣٢	القرين وقصص أخرى	أسامة عبدالحفيظ محمد	مجموعة قصصية	٨	٢٠٠٧
٢٣٣	استنباط أيات القرآن الكريم (يحيى الموتى	م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٤	ترنيب في بلاد موديبا انطباعات عن جنوب أفريقيا	د. كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٥	٢٠٠٧
٢٣٥	في سبيل تحسين العمل النقابي	عبد الخالق محجوب	سياسة	٨	٢٠٠٧
٢٣٦	المترجمة	ليلى أبو العلا	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٣٧	الفكر الإسلامي وقضية المرأة	د. عمر القراي	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٨	غلام الله بن عابد وآثاره في السودان	د. سمير محمد عبيد نقد	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٩	أذان الأنعام	د. عماد محمد بابكر م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤٠	الحركة النقابية	من الله عبد الوهاب	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤١	الصادق المهدي والانكفائية ودعاوى التجديد	د. عمر القراي	سياسة	١٥	٢٠٠٧

٢٤٢	العمارة في السودان	الجمعية الهندسية	هندسة	٢٥	٢٠٠٧
٢٤٣	صباحات زاهي مساء الجنرالات	محمد الفكي سليمان	رواية	١	٢٠٠٧
٢٤٤	السيف والنار	سلاطين باشا	تاريخ	٥٠	٢٠٠٨
٢٤٥	الأم	مكسيم جوركي	رواية	١٥	٢٠٠٨
٢٤٦	تحفة العروس			١٥	٢٠٠٨
٢٤٧	السرة بت عوض الكريم	محمد حسن سالم حميد	شعر	٧	٢٠٠٧
٢٤٨	انجيلا تمثال الصمت	عبدالله الزين	نص	٨	٢٠٠٧
٢٤٩	سقراط	د. موسى عبدالله حامد	دراسة	١٠	
٢٥٠	استقلال السودان	د. موسى عبدالله حامد	سياسة	٤٠	٢٠٠٧
٢٥١	مغيب الشمس	د. موسى عبدالله حامد	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢٥٢	بعض هذا القرنفل	نور الدين الصادق	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٥٣	الإسلام والسلام	خالد الحاج عبدالمحمود	سياسة	٤٠	٢٠٠٧
٢٥٤	صدى السنين – أيام الجامعة	د. موسى عبدالله حامد	مذكرات	٣٠	٢٠٠٧
٢٥٥	الثروة الحيوانية في السودان	محمد سليمان محمد	اقتصاد	٣٠	٢٠٠٧
٢٥٦	التسمم الغذائي	محمد المصطفى حسن	علوم	١٠	٢٠٠٧
٢٥٧	أليس منكم رجل رشيد	محمد المصطفى حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٧
٢٥٨	المقاييس المنطقية للأخلاق	متوكل محمدين	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٥٩	وجهة الضبط ومفهوم الذات علاقتهما بالإكتئاب لدى المسن المعاشي	د. مي عز الدين عثمان	علم نفس	٢٠	٢٠٠٧
٢٦٠	عصافير بلا أجنحة	هيثم مامان	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦١	بعض أحاديث ما دار	مجاهد بابكر	شعر	٨	٢٠٠٧
٢٦٢	من ذاكرة الريح	عبدالرحيم عبدالحليم	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦٣	أساسيات علم الفطريات	د. محجوب حسن عبدالله	أحياء	٢٠	٢٠٠٧
٢٦٤	الدايوكسين أكياس البلاستيك	آدم إسماعيل	كيمياء	١٥	٢٠٠٧
٢٦٥	قم للمعلم	د. عبدالرحيم محمد بابكر	تربية	١٠	٢٠٠٧
٢٦٦	أسياسات ومبادئ حفظ الأغذية	آدم إسماعيل	كيمياء	١٥	٢٠٠٧
٢٦٧	صهوة العمر الشقي	عبد الاله زمراوي	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦٨	من أجل مشروع قومي لمناهضة التعذيب	د. جعفر محمد صالح	دراسة	٦	٢٠٠٧
٢٦٩	علي فضل [illegible]	د. عبدالقادر الرفاعي	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٧٠	أسرار جهاز الأسرار	عميد هاشم أبورنات – محمد عبدالعزيز محمد	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٧١	أعاصير استوائية	عبد الرحمن فضل	رواية	١٢	٢٠٠٧